

الدكتور توفيق سبرو

القِصَّةُ العَرَبِيَّةُ
في الحرب العالميَّة الأولى
١٩١٤ - ١٩١٨



دمشق - كوتنستراذ المزة

هاتف

٢١٢٨٢٦ - ٢٤٣٩٨٦ - ١٤٤١٢٦

للكس: ٤٦٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العموان البرقي

تلادار

TLASDAR

بيع التلادار مخصص

لصالح مذبوحين أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

القَصِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ
فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى
١٩١٨ - ١٩١٤

جميع الحقوق محفوظة
لدار مللاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى

١٩٨٩

الدكتور توفيق سبتو

أستاذ التاريخ في جامعة حلب

الْقِصَّةُ الْعَرَبِيَّةُ

فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى

١٩١٤ - ١٩١٨

هذا الكتاب هو أطروحة تقديمها الأستاذ
 توفيق برو للحصول على درجة الدكتوراة في الحقوق
 المعرفي الحديث من جامعة عين هس بالقاهرة .
 وقد توقفت هذه الأطروحة من قبل لجنة
 مؤلفة من الدكتور أحمد حوت عبد الكريم ،
 والدكتور محمد أنيس والدكتور عبد الحميد الطويل
 وذلك يوم الأحد في ١٩ / ٩ / ١٩٦٥ على مدرج
 المرحوم محمد شفيق هريال في كلية الآداب بجامعة
 عين هس - القاهرة . وقد نالت درجة الدكتوراة
 بمرتبة الشرف الأولى .

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
 ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

القضية العربية في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ / توفيق بَرُو، ج١، ١ - دمشق: دار طلاس، ١٩٨٩ - ١٨٢ ص. : شرائط ٢٤ سم.

١- ٩٥٦ر٠٩ بَرُو ق ٩ - ٩٥٦ر٠٨١ بَرُو في ٣- العتبان ٤ - بَرُو
مكتبة الأسد

رقم الإيداع - ١٩٨٩/٦/٨٠٧

رقم الإصدار ٤٣٥

المقدمة

هذا الكتاب الذي أقدم به للقراء بعنوان «القضية العربية في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨»، كنت قد تقدمت به، في ١٩ أيلول ١٩٦٥، بوصفه رسالة جامعية للحصول على درجة دكتوراة الدولة في تاريخ العرب الحديث، من جامعة عين شمس بالقاهرة، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، وكيل الجامعة آنذاك، وعنوان الرسالة في الأصل «العرب والعرك في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨». وهي في الواقع ثمرة لرسالة سابقة عنوانها «العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ — ١٩١٤»، قدمت في لبنان ١٩٦٠، للحصول على درجة الماجستير من معهد البحوث والدراسات العربية، التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، بإشراف المؤرخ الكبير محمد طفيق غزغال، مدير المعهد في ذلك الحين.

وإذا جاز لي أن أفصح عن بعض خواجلي في مقدمتي هذه، فهي أن أحرب عن الشعور بالسعادة التي هممتني، حينما فوجئت بأن القاعة، التي تخصصت لمناقشة رسالتي للدكتوراة، كانت تحمل اسم «قاعة محمد طفيق غزغال»، وهو أستاذي الذي أشهد له بالفضل العظيم، والذي حذب علينا، نحن الطلاب السنة السورين^(١)، في المعهد المذكور آنذاك، حذب الأب على أبنائه، ولم يكن يعاملنا كطلاب بل كأصدقاء. إن إطلاق اسم ذلك المؤرخ العظم، في عصرنا الحديث، على تلك القاعة هو، لا شك، لفعة كريمة، تم عن حب ووفاء للذكرى ذلك المؤرخ الجليل، قامت بها جامعة عين شمس لتخليد ذكراه

(١) كان رتلان خمسة من أعضاء لجنة السوية لل معهد المذكور هم: في قسم آداب اللغة العربية الدكتور: صبري الانتر وعبد الكريم الاشتر وعمر الفلاح، وفي قسم التاريخ الدكتوران أحمد طرين وعبد حميد فارس.

الخطوة الخاطئة، بعد أن اختاره الله إلى جواره. كما هي بادرة مشكورة منها أن أتاحت لي شرف القول فيها أمام لجنة المناقشة.

لقد شجعتني، على معالجة الموضوعين المنوه عنهما، حرص كرم من أساتذتي الأفاضل في معهد البحوث والدراسات العربية، وفي جامعة عين شمس — نظراً للصحية الكفائية في طبيعة المادة، لاسيما الوقوف على مصادرها الأصلية، ومعرفتي باللغة التركية — على اختياري للقيام بواجب البحث فيها بحثاً علمياً جاداً، ذلك أن تلك الفترة التاريخية لا تزال — من حيث الاعتبار العلمي المنخفض — فترة تاريخية من الواجب تغطيتها ببحث شامل وعميق. صحيح أن الموضوعين، قبل شروعي بمعالجتهما، قد جرى البحث ببعض جوانبهما على وجه ما، من قبل أساتذة وكتاب عديدين، إلما لم يكن ذلك — في أغلب الحالات — بالطريقة العلمية المنهجية الأكاديمية، بحيث يحاول الباحث جمع جوانبها بالشمول والتفصيل، ذلك الذي بذلت الجهد في إيفائه ما يستحق من الاهتمام.

ولا يقوتني أن أنوه بأن عشرين سنة قد مضت على اعتماد هذه الرسالة، وهي لم تزال حبيسة درج مكسي، وآن لها أن ترى النور، لاسيما أنها تنمى لأحداث فترة سابقة من عهود الحكم العثماني للوطن العربي، أحداث لا تغطي أهميتها، من حيث كونها تتم صن بقطعة الشعور العربي القومي، والبطاحته الجبارة ضد البطش والظلم، حتى كادت أساليب الحكم التركي القمعية أن تطمس مقومات الكيان العربي، وتحمو لغته وتقاليد وأهماده، فترة شهدت نهايتها أول أبحاث للحكم العربي العرف في العصر الحديث، بعد أن طالت كربة الجواد العربي، وأضحت عهود العرب الزاهرة في حالة سبات لم ينهضوا منها، إلا حين هبت عليهم رياح يقظة، سركت منهم المهمل لبعض نير الظلماني العثماني، الذي ران على كاهلهم خمسة قرون، كادوا خلالها أن يفقدوا مقومات قوميتهم، وتصبح أنجحدهم السابقة وعضائهم الرائعة السالفة طي النسيان.

وقد عانى العرب منذ بدايات فترة يقظتهم القومية ألواناً من الاستبداد التركي العثماني، ثم الاتحادي، ومن الاستعمار بمطالبهم الحققة، بأن يكون لهم في مجال الحكم إسهام يتناسب مع نسبتهم العددية بين سكان السلطة، ومع طموحهم القومي، ما دفعهم إلى التفكير بما يقدّمهم من الجور العثماني، إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، ورجت السلطة نفسها في أوتها، نتيجة لنزوة جماعة، من حكامهم المظفرسين، في ولوجها إلى جانب العمولة الألمانية، الأمر الذي أتاح لهذه الحرب الطاحنة أن تحرق الشعبين التركي

والعربي في شمار كارثة أحرقت الأخضر واليابس. وأن ثلثي من الشعبين ملايين النفوس البشرية، دون أن يجني منها الاتحاديون، الذين قادوا الدولة إلى الهلاك، إلا الدمار والخراب والحزني والعار.

والواقع أن دخول الدولة العثمانية في الحرب قد تمخض عن تحول هام وعظيم في نصيب العرب، الذي تميز، في الفترة الأولى من العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ — ١٩١٤، بمرحلتين. كان نصاھم، في المرحلة الأولى ١٩٠٨ — ١٩١٢، لا يعدو أن يكون المطالبة بإصلاح داخلي، بضمن حقوق العرب في إدارة شؤون السلطنة، من حيث أن يكون لهم إسهام في الحكم، ولو على غير قدم المساواة مع الترك، هذا الذي كان من حقهم أن يتأله، على اعتبار أنهم يشكلون نصف السكان، بل بنسبة معقولة تنفي عنهم المهانة والاستعمار بحقوقهم القومية، التي بدؤوا يشعرون بتجاهل الاتحاديين لها، ويسمهم إلى محوها في سياسة مرسومة لتترك عناصر الدولة غير الحركية.

غير أن ازدياد استبداد الترك الاتحاديين، واستخدامهم الأساليب القسرية والقمعية، واتباعهم سياسة طغيان دموية، قد جعلهم على المقاومة بصلابة، جعلت أفكارهم تتطور، من غطة التعايش مع الترك على أساس تحقيق مطالبهم الإصلاحية، إلى الانفصال — خلال المرحلة الثانية ١٩١٢ — ١٩١٤ — في سبيل تحقيق لامركزية الحكم في ولاياتهم. ودام الأمر كذلك حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، فكانت لابد من توتر العلاقات، بين العرب والترك، توتراً جزئياً في النهاية إلى الانفصال بين الاثنين، في أعقاب دخول الاتحاديين في الحرب إلى جانب حليفهم ألمانيا.

وهكذا فإن ما يميز فترة العلاقات العربية — التركية خلال الحرب هو التوتر الشديد، الذي بلغ حد الانفصال. أصبح أن الفترة السابقة (١٩٠٨ — ١٩١٤) قد سجلت توتراً شديداً، ونفاهاً حاداً، واحتكاكاً عنيفاً بين القوميتين الناشتين، إنما لم يتعد ذلك مطالبة العرب بحقوقهم القومية، وبالحكم اللامركزي في ولاياتهم، ضمن الرابطة العثمانية. باختصار لم تخرج المسألة عن حد النظريات والأملات، وإذا تعدت ذلك فإلى نطاق التشاور والتفكير بصورة سلبية. إنما بمجرد نشوب الحرب، ودخول السلطنة التركية فيها، دخلت القضية العربية في نطاق السياسة العالمية، بما أظفها من مفاوضات وجهود ومواقف عقدت بين العرب والحلفاء، ومن مساهمة العرب فعلاً في الحرب. لقد استجاب العرب، في الفترة السابقة، لداعي الواجب في الحفاظ على وحدة الدولة

العثمانية، وعدم تفكك أوصالها. أما فكرة الحرب فكانت صفحة جديدة في العلاقات بين الأتَمين، تغلبت فيها فكرة الانفصال على الوحدة، ولم تعد أغلبية العاملين على الإصلاح العربي ترى في اللامركزية النظام الكفيل بإبصال العرب إلى حقوقهم، مادام الأتَم لم يخلص منهم النية في تنفيذ العلاقات بارس، التي جرت عام ١٩١٣ بين العنصرين، وظلوا متمسكين بسياسة التبرك بالقوة. إلا أن فكرة الانفصال هذه لم تنشأ فجأة وبدون سبب، بل كانت نتيجة عوامل جديدة أثرت في الموقف، هذه العوامل التي — وإن بدأ عليها، نوعاً ما، طابع الأسباب المباشرة، بعد نشوب الحرب — إلا أنها كانت عوامل قوية وحاسمة، لم يستطع العاملون في نطاق الجامعة الإسلامية — العثمانية، المدافعون إلى لقاء العلاقات بين الأتَمين على سلامتها، صوناً لمصالحتهما المشتركة، وحفظاً لكرامتهما من أن يضمحل أمام أطماع الدول الأجنبية، أن يبقوا في وجه تيارها. وإذا كانت الأحداث التي مرت خلال الفترة الواقعة بين ١٩٠٨ - ١٩١٤، بما حققت به من تأثير واضطدام عديدين لم يخل من مهازرات أسياناً — وقد بحثها مفصلاً في رسالتي السابقة والعرب والترك في العهد الدستوري العثماني، — تشكل بعد ذلك السبب العميق لضغينة الترك على العرب، ولاشجار العرب من الحكم التركي، وبالتالي العامل الأساسي للانفصال، الذي حصل بعد عام ١٩١٤ بين الأتَمين، فقد لخصتها في مطلع رسالتي هذه، ضمن فصل تهديد قصر، واعتبرتها من جملة العوامل التي أثرت في الانفصال.

حظي — الأول من شوال ١٤٠٩
لليوم السادس من أيار ١٩٨٩

لبذة عن نقد المصادر

لقد جرى تقسيم البحث إلى بائتين كمرست أولهما للعوامل الداخلية، والثاني للعوامل الخارجية التي كان لها أثر في الانفصال. ذلك أن الانفصال لم يحدث نتيجة لعوامل داخلية فقط، بل كان للدول الأوروبية الاستعمارية نصيب كبير في ذلك، إلى أن انتهى الأمر بالثورة العربية، وحرب التحرير. وقد قسمت كتاباً من البائتين إلى خمسة فصول، عصبها للعوامل الكثيرة التي أثرت في استخدام المصراع بين الأتنيين، حتى تم الانفصال بينهما.

ومن أهم العيوب التي اعترضتني في معالجة الموضوع أن بعض مصادر البحث، سواء منها العربية أو الأجنبية، لم تكن تسمى كثيراً بتحقيق صحة الحوادث، إذ يؤثر فيها الخلق أو الأهواء. كما أن المذكرات، على كثرة ما عرفت عليه منها، لم تكتب معظمها في أثناء الفترة، بل بعدها بمرور طويل. وهذا ما يجعل كتابها يتأثرون بالنتائج والأوضاع الجديدة، فتأتي أحكامهم مغايرة للواقع، أو متأثرة بكتابات الآخرين وذكرياتهم، التي لطلعو عليها قبل تدوين مذكراتهم، تاهيك عن فعل النسيان، وقسوة الذاكرة. ولعل أدنى المذكرات ما جاء عن هترك أنفسهم من الذين نشروها مباشرة بعد انتهاء الحرب، وكان أكثرهم صادقاً في معظم ما سردوه منها. مثال ذلك مذكرات جمال باشا (المصغر)، ومذكرات عزيز بك التركي^(١)، ومذكرات علي إحسان ساميس، التي سأتي على ذكرها. وقد كلفتني البحث عن المصادر التركية بصورة خاصة الذهاب مرتين إلى الاستانة وأنقرة وأدنة في صيفين متتاعين حصلت منها على ما يقارب عشرين مجلداً، بالإضافة إلى وثائق مقررات مجلس المبعوثان التركي من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ في ١٢ مجلداً، منشورة باسم «مستور» — ترتيب ثاني «التركية القديمة»، وكلها قد أفادني إفادة كبيرة في توضيحي للحقائق.

(١) تركي كان مستعملاً لفظ استعارات جمال باشا بدمشق.

وقد درجت في كتابة بحثي على طريقة الاستناد إلى المصادر التي ألفتها كتب كل منطقة في الحوادث التي دارت فيها، وإلى كتابات ومذكرات من كانت لهم علاقة أو اهتمام خاص بتلك الحوادث، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فقيماً يتعلق:

بالباب الأول: الفصل الأول (دخول تركيا في الحرب)، استندت في الدرجة الأولى على مؤلفات الترك بصورة عامة، وعلى مذكرات العسكريين منهم بصورة خاصة. فمن المذكرات ما كتبه العقيد علي إحسان مايس، من أعضاء هيئة أركان حرب أنسور باشا، بمنشور «مذكراتي عن الحرب Harb Hatıralarım». وقد عثرت منها على الجزئين الأول والثاني فقط. وقد اهتم الكاتب فيها الصديق في سرد الحوادث، وانفق في كثير منها مع مذكرات اثنين آخرين من الترك هما غالب قارادير في كتابه «الذاتيون في تلك الاتحاد والترقي İttihat ve Terakki İçinde Dönenler» وحسام الدين أرتونوك في كتابه «وما ورثه السار في عهد من İki Devrin Perde Arkası». وكان الأول منهما ضابطاً في معية أمير اللواء مصطفى كمال باشا في حروب «أنا قارطه» في جبهة اللردويل، ورجلاً من رجال الاستخبارات اللامعين في منظمة التشكيلات الخاصة السرية، التي سيود ذكرها مفصلاً في البحث، ثم أصبح بعد الحرب من ملبس التاريخ في المدارس التركية. والثاني كان عقيداً في الجيوش التركي، ورئيس إحدى فرق منظمة التشكيلات الخاصة، التي لعبت دوراً كبيراً في اجتلاب الأنصار، ودس المدسّس وتجهيز المؤامرات على الأعداء في مختلف أطراف العالم التي وصل أعضاؤها إليها. وقد أملى كلا الاثنين مذكراتهما على كاتب واحد هو (سامي نافذ طائسوز). وكانت كتابات الثلاثة، وإن اختلفت في إبداء بعض الآراء، إلا أنها، في أكثر الأحيان، متفقة في سرد الحوادث. وإلى جانب هذه المذكرات كان اعتمادي كبيراً في هذا القصر، وفي أغلب فصول الرسالة، على المؤرخ التركي الكبير البروفسور يوسف حكمت بايوز في كتابه «تاريخ الانقلاب التركي Türk İnkılabı Tarihi»، ويقع في ثلاثة مجلدات كبيرة، عكسها للحرب العالمية الأولى، من سلسلة طويلة من المؤلفات، تبلغ أكثر من ١٢ مجلداً، بحث فيها أحداث النهضة التركية الحديثة منذ ١٩٠٨ إلى العهد الجمهوري بتفاصيلها الدقيقة. ولم يقلل الأحداث التي جرت في رقعة البلاد العربية من الإنفاضة والمضيق. وتغلب على محوثة الروح العلمية الجامعية، مع إيراد الشواهد والتصورات الأصلية، مندرجة بتكاملها أحياناً. وقد استند على مصادر من شتى اللغات وكتوبة جداً. كما أن هناك مجموعة من المؤلفات لكاتب واحد هو أحمد بدوي كوران، من أعضاء جمعية أخيرة والائتلاف المعارضة للاتحاديين، أولها «الحركات الانفصالية في الإمبراطورية العثمانية والجمهورية التركية Osmanlı İmparatorluğunda ve Türkiye Cumhuriyeti» والثاني «تاريخنا الثوري ورجال تركيا الفتاة İnkılap Tarihimiz ve İleri Fikirli Türkler» والثالث «تاريخنا الثوري وجمعية الاتحاد والترقي İttihat ve Terakki Tarihi» وغير أنها تتطوي على بعض التحامل على الاتحاديين، من حيث الحكم على نتائج أعمالهم. لكن مؤلفها

لا يخرج عن الحقائق، وخاصة فيما سرده عن الحروب. وقد استخدمت هذه المصادر في أغلب فصول البحث، كلما تأكد لي أن ما جاءت به جدير بالثقة. يضاف إلى هذه المصادر مذكرات جمال باشا (الكبير) باللغة العربية، والأصل التركي لها بالحروف اللاتينية Cemal Paşa Hatıratı. وبما لا غنى عن بيانه هنا أن الترجمة العربية لها، بقلم علي أحمد شكيري، ليست أمينة وفيها كثير من النقص، وإعمال ترجمة مقاطع بل صحائف، عدا عن اختصار بعضها ومسح معانيها، وعن كثير من التحيز في المعالي ولي الأبناء. ويظهر أنه عرّبها عن ترجمة لها بالفرنسية لمر الإنكليزية، بترجم مثلاً جامع أمية Osmanlı Devleti (أوميادة) وتأتي في الطباعة (أوميادة)، وأسعد شقير (أسعد شكير)، وعبد الرحمن (عابدين رحمن)، وعجاز بك (مريناس بك)، ومحمد كرد علي (مهومد كورد علي)، وعبد الكريم الخليل (عبد القادر الخليل)، ومخلدة مطران (مخل مطران)، وعبد الحميد الزهراوي (حميد الحميد خراي)، وصور (لورا)، وحماة وحسن (هارما وهورنس)، وعبد القادر الخطيب (عبد القادر الخليل)، ومثل هذا شيء كثير. ولو أنني لم أحصل على النسخة التركية منها لوقعت في زلات كثيرة. على أن الأموار من ذلك تلك المقدمة التي صدر بها ترجمته، واعتبر أقوال جمال باشا شيئاً مسلماً بصحته، وهي هاجم فيها الإصلاحيين وثورة الشريف، واعتبر مظالم جمال باشا في سورية وجرائمه شيئاً مقبولاً، بل اعتبر أن جهالاً قد تساهل مع القوميين العرب «أكثر مما كان ينبغي في كثير من المواقف، التي كانت تقضي باستئصال الحزم والشدّة» وأنه استعمل المرافقة مع من باعوا أنفسهم وضمايتهم للعدو...» (صفحة ب). إنني قرأت مؤلفات الأتراك، ولحقني أقول إنني لم أَر في أشدها قسوة على العرب جزءاً ضئيلاً مما لمسته من التحامل للترجم على الحسين وأهله، وعلى الإصلاحيين العرب عامة، بل إن أكثرهم قد اعتبروا أن أكبر خطأ ارتكبه جمال باشا شتفه أحرار العرب، وأعداه أهل سورية بالشدّة.

وهناك من المؤلفات التركية التي امتنعت بها في هذا الفصل، وفي فصول البحث الأخرى، كتاب قُسم من تأليف المؤرخ التركي المشهور إسماعيل سامي دانباشند، صاحب التحقيقات التي تناولت التاريخ التركي بالتفصيل، منذ نشأة العثمانيين حتى الآن واسمه «حديقة التاريخ الختاني الموضحة İzzill Osmanlı Tarihli Kronolojisi». وقد عالج الأمور فيها بروح الحياد المطلق وبالإنصاف. وكان لي مقبداً ومحبناً، وخاصة في توصي دقة التواريخ التي أعطاها عناية خاصة وزائدة. ومنها مذكرات لطفي سيماري، رئيس ديوان السلطان محمد رشاد، وقد سماها «مشاهداتي في بلاط السلطان محمد رشاد ومخلدة» (سلطان محمد رشاد محادثك ومخلدك سرابنده كورد كلام)، وهي مذكرات قيمة جداً، ودقيقة، وأمينة في سرد الحوادث وتقييم الأشخاص، لأن صاحبها متصل، بحكم منصبه، بها وبهم اتصالاً وثيقاً، وهو حيادي حياداً مطلقاً. وهناك من الكتب التي اعتمدت عليها في مختلف الفصول أيضاً كتاب ونسن تشرشل La Crise Mondiale

1913-1914، وكتاب بالإنكليزية لكتاب تركي أحمد أمين «Turkey And The War»، وكتاب Hurewitz: 1913-1914، وكتاب «Diplomacy In The Near And The Middle East, Documentary Records» ويتضمن وثائق المعاهدات الإنكليزية — العربية المعقودة مع الحسين، ومع بقية الإمارات العربية، مع إيضاحات لتأريخها.

الفصل الثاني (حملة قناة السويس): اعتمدت فيه، بالإضافة إلى معظم ما سبق من مصادر، على كتاب «كيف غرنا مصر» المصنوع عن التركية، مؤلفه العقيد التركي علي قزاد بك، وكان من أعضاء هيئة أركان حرب الغزوة، وعلى مذكرات أحمد شفيق باشا، رئيس ديوان الخديوي عباس حلمي بمصر، السمعة «مداكرني في نصف قرن» وفيها معلومات دقيقة عن علاقة الخديوي عباس حلمي، وابن عمه الصدر الأعظم سعيد حلمي باشا، ومحمد فرید بك رئيس الحزب الوطني المصري، بالحملة، وما اكتنفها من أسرار وغايات شخصية، ونيات مأكرة لاشيلاء فترك على مصر، وإعادتها إلى حظيرة الدولة، وإلغاء استقلالها. كما اعتمدت على مؤلفين للمؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي، وقد قدمنا في معلومات قيمة عما يتعلق بمصر في تلك الفترة، وعلى مجلة الحرب المعظمي، وعلى إعادة إنتاجها، هي نفسها، مجلة جديدة مزودة ومنقحة ولكن باسم جديد «مجلة الحرب العالمية الأولى» بإشراف صاحبها عمر أبو النصر، وفيها مقالات قيمة مترجمة عن أساطين الرجال العسكريين الأوروبيين، الذين اشتركوا في الحرب، وعن كبار السياسيين العالمين، بالإضافة إلى النقل الأيمن عن كتب مؤلفين أوروبيين مشهورين.

الفصل الثالث (إجراءات الحرب العسكرية والانهايار الاقتصادي): اعتمدت فيه بالدرجة الأولى على المجموعة التركية «دمستور» ترقيم ثاني، المتقدم ذكرها، وقد أعطيتي معلومات أكيدة، باعتبار أنها وثيقة أصلية عن إجراءات الحرب الاقتصادية والعسكرية، وعن التكاليف الحربية وقوانين الجندية، وغير ذلك مما يندرج تحت عنوان الحرب في مؤلفات أخرى. كما اعتمدت على مذكرات نشرها مجلة الحرب المعظمي، لأفندي أموريكية قطعت أيام الحرب في بيروت ولبنان، وشاهدت عياناً المأساة التي دارت فيهما، وعلى مذكرات فائز الغصون عن الثورة العربية، وعلى كتابه «النظام في سورية ولبنان». والغصين من رجال الجيوش العربية، ومن الذين عملوا مع الشريف حسين ونجده الأمير فيصل في الثورة العربية، بعد أن هرب من الخطى الذي أرسله إليه جمال باشا في ديار بكر، وله اطلاع وثيق على أعمال جمال باشا في سورية، وما تكبدته من ملاحقة له، وما قام به هو من أعمال بتكليف من جمعية «الثلة» التي كان منتسباً إليها، مما ورد في الفصل الرابع. كما كان لي من كتاب الخوري أنطون بيون المسمى «لبنان في الحرب» (جزءان)، وكتاب طهوف ملك نصر البكاسيني، المسمى «نبذة من وقائع الحرب البكوتية»، غير معين على الإغاضة في وصف الضائقة الاقتصادية التي حلت بلبنان، وذلك الجماعة بالسكان، وقد اقتطعت من المؤلفات الثلاثة الأخيرة عمداً بعضها لبعض باعتبار أنها قد طرقت مواضع متشابهة.

الفصل الرابع (نضال العرب الأحرار وازدهار الطاغية أحمد جمال): استعنت بمصادر كثيرة وقيمة في معالجته، وأكثرها مما اختص يبحث هذه الساحة، أو كان أصحابها ذوي اتصال بالحوادث، مثل كتاب يوسف إبراهيم بريك «مؤثر للشهداء»، وقد كتب بقلم مجموعة من أعضاء الأحزاب العربية لم تذكر أسمائهم، وجاء بمعلومات منقولة عن شهود عيان، وصور الحوادث التي عاشها معظمهم في تلك الفترة، وبعضهم عاشها في سجن عاليه، مثل فائق الحوري (أحد السياسيين السوريين فائس مغروري)، فكاتب مذكرات عن مشاهداته فيه، ونشرها في جريدة «الوق» القروية. واعتمدت على كتاب أسعد داغر المعاصر للحوادث، ومذكراتي على هامش القضية العربية، وعلى مذكرات الدكتور أحمد قنري الذي أصابه رشاش التنكيل (الاضطهاد، وعلى كتاب جورج أنطونيوس الشهير «بقطة العرب»، وهو معروف بكونه أول مؤلف بحث للقضية العربية الحديثة بشيء من الشمول، ولكنه لم يتغلغل إلى التفاصيل الواسعة، كما كان لي من كتاب محمد عزة دروزة المعاصر للحوادث «حول الحركة العربية الحديثة»، وكتاب أمين سعيد «الثورة العربية الكبرى»، مساعداً لتصنيف المعلومات المستقاة من المصادر الأخرى وتجميعها. كما كان كتاب Y.H. Bayur المسمى «Turk İnkılabı Tarihi» حافلاً بالمعلومات القيمة في الموضوع. وأما مذكرات عزيز بك - العقيد التركي الذي كان في خدمة استخبارات أحمد جمال باشا بدمشق، وقد ترجمت إلى العربية بعنوان سورية ولبنان في الحرب العالمية، ونشرت في دمشق عام ١٩٣٣، بعد أن كانت قد نشرت قبلاً في جريدة الأحرار في بيروت، فأحدث نشرها ضجة عظيمة لما كشفته من أسرار بعض الشخصيات العربية التي تعاونت مع أحمد جمال باشا في إدارته لسورية، فأثارت اعتراضات رد عليها مترجمها مؤلف الليداني، وحفظها بالبراهين المقنعة، وقد جاء في هذه المذكرات كثير مما يدين أحمد جمال باشا وأعدائه من أنصار الرابطة الإسلامية العثمانية - فإنها ساعدتني في تسليط الأنوار على أسرار تلك الفترة، إنما كان عليّ أن أتخفف بالنسبة لبعض ما ألصقه ببعض الزعماء السوريين تخفيفاً لمسؤولية أحمد جمال باشا، بصفته وقيمه ومواطنته. وأما مذكرات أحمد جمال باشا والكتاب الذي نشره، بصفته قائداً للجيش الرابع، لتبرير فتكه بالشهداء، وجماعه «إيضاحات عن المسائل السياسية التي بحثت في ديوان حرب عاليه»، فقد استندت عليها كثيراً، وخاصة في إبراز الشواهد على مسؤولية جمال، منقولة من اعترافاته، وفي إظهار التناقض الذي لمسته في مختلف أقسامها. كما استجبت بكتاب عماد كرد علي «خطط الشام»، وهو من عاصروا الحوادث وأعانوا الطاغية على ترسيخ نفوذه، إذ ساهم في جبهة الشرق الناطقة بلسان الحكومة، وكتب مقالاتها التي تمجد أفعال الطاغية، وتنكيل له ألوان المدح، ثم جاء بعد زوال سلطانه بفضح في كتابه: «خطط الشام» أفعاله الضميمة، وكتابات - لهذا السبب - تكون ناطقة بالواقع لأنه ليس من المعلوم أن يخلق له من الأعمال ما لم يعم به، بينما يعتبر هو ينظر الناس من منبدي سلطانه مادام أنه يتدح أفعاله ويشيد بها.

الفصل الخامس (علاقة الشريف حسين بالترك): استعنت لي كتابه يكتب ذات صلة بموضوع الفصل مثل كتاب G. Stitt المسمى «The Prince of Arabia, The Emir Ali Haddad» وهو في الواقع عرض لتكررات الشريف علي حيدر، التي تركها لزوجته الانكليزية المس دن (الأميرة فاطمة)، فعهدت بها إلى المؤلف كي يتولى عرضها ونشرها، وتوسيع البحث، إلى جانب ذلك، في بعض جوانب القضية العربية، فقد أنقذني في إعطاء شحة صادقة عن تاريخ شرقا مكة، وما كان بين مختلف فروعهم من مناقشات تفسر كثيراً من الأحداث التي جرت في أثناء الحرب، وعن طموح الحسين وحركته. كما أنقذني كتاب حسين بن محمد نصيف «ملحني الحجاز وحاضره» في معرفة كثير من الأمور عن الحجاز وشرقا والحسين ونزواته وحركته، والمؤلف ثقة في هذا الموضوع، لأن والده محمد نصيف كان من علماء جدة، ومن أصحاب المناصب الدينية فيها، وكان يفتي مكتبة ضخمة حافلة بالمراجع الوثيقة، ومنه وبين الحسين صلة ود وثيقة، ينزل في داره كلما مر بجدة، في طريقه من مكة إلى غيرها من المناطق أو في عودته إليها، والمؤلف نفسه من مشاهير علماء المملكة العربية السعودية. كما أن مذكرات الملك عبد الله كانت لي نافذة في هذا المجال، إذا حفظنا منها الادعاء والتبرج. أما مسز ستورث أرسكين، في كتابها «فيصل ملك العراق»، فقد أعطتني معلومات مدققة محصية، وهي في أكثرها مستقاة من منبعها الأصلي، أي من حديث طویل أجريته مع الملك فيصل في العراق. كما كان في عودته إلى كتاب «Y.H. Bayart» القيم، وإلى مذكرات أحمد شفيق باشا، المؤرخ الثقة، فيما يتعلق بشخص فيصل إلى الأستانة، ومفاوضاته مع أتور باشا. وكان الحاج أحمد شفيق باشا واسطة في بعض الاتصالات. وهناك بعض الكتب التي بحثت في هذه الفترة بصورة منهجية، لكنها بحملة مركزة مثل كتاب الدكتور بدیع شریف، أحمد عزه عبد الكريم، شفيق فرهال... (دراسات في النهضة العربية...)، فقد أعانتني في التركيز والتسويق وبعض معلوماتها القيمة.

الباب الثاني: الفصل الأول (المفاوضات الانكليزية - العربية): هناك كتب كثيرة استعنت إليها في كتابة هذا الفصل، مثل كتاب الأستاذ سامح الحصري «يوم ميلون». كما كان لي من كتب الأوربيين مثل كتاب «Les Origines Orientales De La Guerre Mondiale»، وكتاب «Partage Du Proche Orient» وكلاما من تأليف J. Pichon، وكتاب Sir Arnold Wilson المسمى «Loyalties Mesopotamian»، متابع ثرة للمعلومات، ولاتقاس الشواهد عن مطامع الغرب في الشرق. أما كتاب Benoit Maclean المسمى «Le Maître D'Arabie Ibn» وكتاب Armstrong المسمى «Ibn Saud, La Fondation d'un Royaume» فكانا عر معين لي في كشف مواقف ابن سعود من القضية العربية، والدوافع التي كانت تحركه، وتحرك الانكليز تجاهه وتجاه القضية العربية. كما كان كتاب «المؤنات والمعاملات في بلاد العرب»، الذي تنشره جريدة الأيام في دمشق، وكتاب «Hurewicz» آثار الذكر، من المصادر التي أخذت منها

نصوص المعاهدات للصحيحة الدقيقة . أما مذكرات سليمان بضي « في غمرة الضباب » وكتاب عبد الله قبيلي المغرب « تاريخ نجد » فقد أعطاني ما كنت بحاجة إليه من أحوال العراق وإمارة نجد ، كما نراني أيضاً كتاب حافظ وهبة « جزيرة العرب » ، عن الحجاز ، وكل من هؤلاء أعلم بالمنطقة التي له حصة وثيقة بها .

الفصل الثاني : (اتفاقات الحلفاء لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية — وتصریح بالخروج) : ههنا استعملت مصادر كثيرة ومتنوعة ظهرت لي ، منها كتابا J. Pichon الحازي الذكر ، وكتاب P. Lyautey المسمى « Le Drame Oriental et Le Rôle De La France » وكتاب المسمى « La Révolte Arabe » وكتاب E. Juig المسمى « Le Drame Oriental et Le Rôle De La France » وكتاب الكاتب الانكليزي Adkins المسمى « Lawrence L'Impomptu » ومقدمة P. Renouvin على كتاب « L'apogée » ورفاقه عن الوثائق الروسية للسرية فيما يخص بالآستانة والمضائق ، وكتاب R. Polakovsky المسمى « Au Service De La France » (الجزء السابع) ، وكتاب O. Gautherot المسمى « La France En Syrie » وكتاب El En Cilicie المسمى « Comment La France S'est Installée En » وكتاب La Comte De Gontaut-Biron المسمى « Syrie » وكتاب Lloyd George المسمى « Mémoires De Guerre » وكذلك الخيال المغرب المنشور في مجلة المرائد العربي بقلم « مالكولم » السياسي الأرميني المتعامل مع الصهاينة في لندن ، كل هذه الكتب وإن كان مليقوها ، أو معظمهم ، ذوي مصلحة في الموضوع ، إلا أنه كتاباتهم لم تحاول أن تحفي الحقائق أو تفصّلها ، بل كشفت عن قنابات الاستعمارية بوضوح ، ومرتد الحوادث معرفة عن كل ما يستتر عيونها . فاستطعت ، بشيء من الحفر والوهي ، أن أحصل إلى بسط قضية تقسيم الشرق ، وكشف المؤامرة التي نسجت خيوط تهریح بلقور اليهود . كما أن بعض الكتب العربية مثل كتاب قاسم حسن « العرب والمشكلة اليهودية » وكتاب الدكتور أحمد طربون « القضية الفلسطينية » وكتاب نجيب صدقة « قضية فلسطين » ، بما اتجهته من نغمة علمية ، قد أثار في معالم الطريق . أما كتاب الكاتب التركي جواد رفعت آتيلخان Cevat Rifat Atilhan المسمى « كيف يستولي اليهود على العالم Yehudiler Neall Dünya » ، بما قدمه لي من أفكار قيمة قد أغنى لي للموضوع بمعلومات جديدة .

الفصل الثالث : (الثورة العربية) : علاوة على المصادر التي ذكرت في الفصول السابقة ، مثل مذكرات الضامي لآثر القصين عن الثورة العربية ، ومذكرات الخلك عبد الله ، ومذكرات الدكتور أحمد قدری ، وكتاب ساطع الحصري « نشوء الفكرة القومية » وكتاب أمين سميد « الثورة العربية الكبرى » ، وكتاب حافظ وهبة « جزيرة العرب » ، وكتاب أنطونيوس « بقعة العرب » ، كان لاحتيادي كبيراً على الكتب التالية : « ثورة العرب » لأسمد داغر ، وقد كتب في أثناء الحوادث ، ولها وثائق مدرجة حرفياً كما منشور للشريف حسين ، ولقوال بعض الصحف الأوروبية عن الثورة ، وبعض للكتب المتبادلة بين الإصلاحيين العرب ، مما يقدم للباحث معلومات أصلية لقيس منها كثير من الكتاب فيما بعد . وهناك كتاب لمن سمي

نفسه مؤرخ الثورة العربية، ولم يذكر اسمه صريحاً، وعنوانه «الملوك فيصل الأول»، وقد كرس قسماً كبيراً منه للثورة العربية، وأورد معلومات فيها كثير من الدقة والتجرد والموضوعية وللقدر اللقائمين على الثورة، ويختلف الأطراف من غربة وتركيزه. وكتاب باسم «تاريخ الفكيوت السياسي» لحسين خلف الشيخ خزعل، وهو كتاب قيم لتأريخ أحداث نجد وموقف ابن سعود من الثورة العربية بصورة مفصلة، وموقف الانكليزي من أمير نجد، ولأورد قصصاً ووثائق أصلية، للنس منها بعض الكتاب مثل أمين الريحاني في كتبه: «تاريخ نجد الحديث» و«ملوك العرب» وغيرها. أما الكتب الأثرية التي استندت عليها في هذا الفصل، فكانت أحسنها تدقيقاً وروحاً انتقادية وعلمية كتاب Lawrence D'Arboreaux من تأليف الكاتب الانكليزي A. Aldington، والمترجم إلى الفرنسية، لولا إمعانه في الخط من شأن الجيش العربي وقلة قائده. وقد تناول العقيد لورنس بالتقيد والتجريح والانتانة بمجهوده في الثورة، ووصفه بالادعاء والتبجح، حتى إنه أعطى كتابه عنواناً مهيناً للورنس «لورنس الدجال»، إنما تناول حوادث الثورة العربية مصداقاً تصنيعياً يستطيع الباحث المزكون إليها تماماً، إذا هو عرف كيف يقارن تحامله على من ذكرت بما جاءت به مصادر أخرى أكثر إنصافاً. أما كتاب العقيد Beesmond رئيس البعثة الفرنسية لدى الثورة المسى «Le Hodez Dune Le Guerre Mondiale» فيشكل عنصر توازن مع كتاب لورنس «أعمدة الحكمة السبعة» الذي قرأته مترجماً إلى الفرنسية وإلى العربية، مع خصصه المترجم إلى العربية باسم «الثورة في الصحراء». والطريف أن لورنس وبريكن لم يستطيعا كتمان الروح الاستعمارية التي كانت كل من دولتهما تظهرانها في سبيل السيطرة على الشرق العربي، والتي يستطيع القارئ أن يستشفها من محاربة أحدهما للآخر: بريكن يشهر بلورنس لأنه يحارب نفوذ فرنسا في سبيل إخلاء نفوذ انكلترا، كما يسعى لدى الشريف حسين كي يجعل لدولته فرنسا نفوذها في سورية تحت إشراف الحسين، ولورنس يقضح نيات فرنسا الاستعمارية بأعمال مثلهما بريكن، كما يقضح نيات دولته (انكلترا) تجاه العرب، ويعترف بأنه يتخذ مآربها في استخدام العرب للصالح انكلترا، مما أظهرت موضوع في ثاباً بحسب، ولا لزوم هذا لاعادته.

أما Davies في كتابه «Lawrence Et Les Arabes»، و Arnold في كتابه «Lawrence D'Arabie»، فقد أضافا في استنراكا ما فاتني ملاحظته في كتابي لورنس، فكانا كمتقدين ثانويين. ولقد عدت إلى كتاب C. Ross عن الشريف علي حيدر، ولم أشك قط بصديق الشريف عن تكليفه بإمارة مكة خلفاً للشريف الناصر، وكيف كان موقف جمال باشا وفخري باشا منه، والصعوبات التي لاقاها في المدينة وكيف فشل في مهمته.

الفصل الرابع والفصل الخامس: (المراحل النهائية للعلاقات العربية - التركية، حرب العراق، تحرير سورية): حوادث هذا الفصل هامة ومصادره قيمة وكثيرة، فمن مصادره عن حرب العراق كتاب

فهم للزعيم الركن العراقي شكري محمود نديم بعنوان «حرب العراق ١٩١٤ - ١٩١٨»، وهو دراسة علمية دقيقة، واسعة وعميقة. وكتاب «التريكة القديمة للرائد محمد أمين بعنوان «بغداد وحادثه فقدانها» (بغداد وحادثه ضياعها)، وهو كتاب انتقادي لكنية الموق والتعصب التي قام بها الترك. وصاحبه ذو اطلاع، لأنه كان يشغل رئيس شعبة الاستخبارات في هيئة أركان حرب الجيش السادس بالعراق. ومذكرات لويد جورج السابقة الذكر، وكتب Driault والجنرال Doffour والكولونيل Lamouche والكابتن الانكليزي ED. Mousley، اللذي كان من الضباط الذين حوصروا في كوت العمارة، وله كتاب «Le Siège de Kote Al-Amara» مترجماً عن الانكليزية، وكلها تعطيان معلومات دقيقة عن كيفية احتلال الانكليز للعراق، والغاية من دخولهم ونياتهم الاستعمارية فيه. وذلك بالإضافة إلى كتب أخرى أهمها: مذكرات أو عواطر «مولونند»، الجنرال الذي حوَّص مع لركه في كوت العمارة. أما الكتب التي بحثت أمور العراق السياسية والإدارية في تلك الفترة فأهمها كتاب فيليب آبرلاند «العراق - دراسة في تفوقه السياسي»، وكتاب ج. ف. دي لودر «القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق»، وكتاب قرنان ولده «مشكلات الشرق الأوسط»، وكلها كتب مترجمة عن الانكليزية، وقد درست مسائل العراق بروح موضوعية غالباً، ولم يكتب المترجمون العراقيون - الذين اختاروها لهذا السبب - يترجموها، بل علقوا في آخرها على ما رأوه مناقضاً للحقائق، وأشيحوه تصحيحاً وتعليقاً وشرحاً، مما زاد في قيمة الاستفادة منها.

أما الكتب العربية التي بحثت في موضوع العراق فهي أيضاً قيّمة، ومنها مذكرات العقيد العراقي نعيم العسكري، الذي خدم في العراق، ثم في سورية في أثناء الحرب، ومذكراته وإن كانت تنصف بالحدث عن ذاته، وعن وفاته الضباط المتسبين إلى جمعية العهد، وأعمالهم بما يشبه التبرج، إلا أن فيها بعض المعلومات الجديدة. وبما أنها مصغر وحيد في هذا الباب، فقد قيدت ما أخذت منها بشيء من التحفظ. أما محمد مهدي البصير في كتابه «تاريخ القضية العراقية»، وطريق المظهر الفرعون في كتابه «الحقائق الناصحة في الثورة العراقية»، ومحمد طاهر العمري في كتابه «تاريخ مقدمات العراق السياسية»، وجعفر الشيخ بالقر آل بحويبة في كتابه «ماضي النجف وحاضرها»، فإنها وإن اختلفت في كيفية عرض الحوادث وفي تفاصيلها، لكنها متفقة، من الوجهة العامة لسير الحوادث، مما جعلني أكتفي بالجزء العام، وأعمل التفاصيل، خاصة فيما يتعلق بثورات النجف وكر بلاء والحلة، علماً بأن جميع هؤلاء المؤرخين من أبناء العراق.

غير أن ثمة مصادر تركية منها كتاب المشير الككلي ليمان فون ساتندرس «معرض سنوات في تركيا» المترجم من الألمانية إلى التركية باسم «توركياده بش منه»، ومذكرات جهال باشا (المصغر)، خطبة أحمد جهال باشا في قيادة جيوش سورية وبلاد العرب الغربية، والمسماة «كيف جعلت القوتل العثمانية عن بلاد

العرب» والمعربة بقلم مؤاد الملهاني، ومذكرات «حسين حسني أمير» المكتوبة بالتركية القديمة والمسماة «يلديم» (جيش الصاعقة)، فهي من الكتب التي صورت الحالة في العراق وسورية في أواخر العهد العثماني أحسن وأصدق تصوير، وأعطت تفصيلات وافية عن كيفية تردي الحالة بسبب الخلافات التركية - الأكرانية حول القيادة، وعن تصرفات أنور باشا الحقرة، وكيف جرى عزل أحمد باشا عن قيادة الجيش الرابع، وكيف غادر سورية باكياً، ثم كيف عزل فالكباين، وبينت مسؤولية الرجال الحاكمين العثمانيين عن تردي الحالة في سورية، وكيف فشلت جميع التدابير العسكرية والإدارية في إنقاذ الوضع. وإذا قارن القاري بين هذه المصادر يشاهد أنها تتفق حول المسر العام للحوادث، وهو ما التزمته في بحثي. ومعلني كتاب أنور الرفاعي، المسمى «جهاد نصف قرن للأمير سعيد الجزائري»، وصفاً صادقاً مستنداً على وثائق تاريخية منشورة فيه بالزيتوغراف عن ملاحظات جمال باشا الصغير مع الأمر فيصل حول الصلح المنفرد.

خلاصة القول، كان اعتمادي على مصادر نصفها تقريباً عربي، ونصف الباقي إما أفرنجي، أو تركي، أو مترجم عنها، بالإضافة إلى عدد من المجلات العربية والتركية والأجنبية. وقد حرصت، في نهج دولسي الموضوع، على إبراز التواحي الجديدة، غير المطروقة سابقاً، إذ بحثتها بصورة مفصلة، مع الاتجاه إلى تركيز المعلومات التي طرقتها غيوي وتكتيها، وإظهارها بشكلها العام أحياناً، لأعطي المجال للبسط والتفصيل في التواحي الجديدة.

العوامل الداخلية لانفصال العرب عن الترك

العلاقات العربية — التركية قبل الحرب^(١) وأثرها في الانفصال

استقبل العرب إعلان عودة الدستور في السلطنة العثمانية، إثر ثورة ١٩٠٨ المسكونة، بفرح لا يقل عن فرح الترك وبهجتهم بعودته، ذلك أن الترك لم يكونوا أكثر تعشفاً للحرية من العرب، كما لم يكن العرب أقل تعرضاً لمظالم الطاغية عبد الحميد من إخوانهم الترك.

كان العرب يرون في عودة الدستور منطلقاً لحريةهم العامة المكنونة، وفرجة لما يبغش في صدورهم من غم، ولتحقيقاً لطمع كان يراود مخيلتهم في انقشاع كابوس الاستبداد الحميدي، الذي جثم على صدورهم. كانوا يظنون أن الدستور سيصبح لعناصر الدولة المختلفة فرصة لممارسة حقوقها السياسية الممنوعة، وسيوفر لها مساواة مع العنصر التركي الحاكم، ويحيز لكل قومية من القوميات العثمانية الاحتفاظ بطابعها المميز، ولتفتا وتقاليدها، وإحياء أجدادها السابقة، وتسمية الشعوب القومي فيها، ضمن رابطة جامعة، هي الرابطة العثمانية، التي يجب أن يعرف علمها على جميع سكان السلطنة، وأن تنضوي القوميات المختلفة تحت جناحها، في نظام ديمقراطي حر، وفي جو من الإخاء والمساواة الذي يهيئ لجميع العناصر والأديان العيش الهنيء الرغد، والحياة الاقتصادية والاجتماعية الرفاهية^(٢). لكن هزة الفرع لم تلبث أن تلاشت أمام حقيقة الواقع، ذلك أن الدستور الجديد لم يكن سوى نسخة كالأصل عن ذلك الدستور القديم الذي منته مدحت ياشا الملقب بـ

(١) في كتابي «العرب والترك في العهد الدستوري العثماني» ١٩٠٨ — ١٩١٤ الذي تفضلت به عام ١٩٦٠ للمعبرين على شهادة الماجستير في التاريخ الحفظت من معهد الدراسات العربية قعادة لتفصيل مساهمة من علاقة العرب بالترك منذ ثورة ١٩٠٨ الدستورية العثمانية إلى مطلع الحرب العامة الأولى، أرى فيجاءها هنا وأجراً كتتمهيد لبحثي عن علاقة العرب بالترك خلال الحرب المذكورة، لما لها من أثر في انفصال الأمة العربية عن الدولة العثمانية.

(٢) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ص ٣١٤.

«أبي الدستور»، قبل ذلك بشف وثلاثين عاماً، وكان الهدف منه إدماج العناصر والأجناس المختلفة في الدولة في قومية واحدة، هي القومية والعثمانية بسودها الجنس التركي، ولم يراعِ أحكام تركها الفتاة، المطالبون على الحكم، تطور الوعي القومي ونموه بين هذه العناصر^(١). وحتى فكرة العدالة والمساواة، بين الطوائف والنفقات العرقية المختلفة، لم تكن في الدستور الجديد سوى حروف ميتة، إذ جاء التطبيق الصل للنصوص مخالفاً لروحها، وعلقت الروح العنصرية على الثوار، الذين قُوضوا الاستبداد الحميدي، ليقيموا بدلاً منه استبداداً من نوع جديد، غايته إضفاء مصلحة العنصر التركي على حساب العناصر الأخرى^(٢)، لاسيما العناصر ذات الشأن العددي الهام التي كانوا يتشكون بأسها، كالعرب والألبان والأرمن، والسير مع هذه العناصر في سياسة صهر وتفرق مرسومة.

غير أن أحرار هذه العناصر قد تكاتفوا وكونوا معارضة ترمي إلى نقوض دعائم سياسة الترك المركزية، والمناداة بالحكم اللامركزي الصحيح. وقد كشفت برامجهم، التي توخوا منها أن تكون أساساً للجمعيات والأحزاب التي ألغوها، نق ما يتجبع به سياسة تركيا الفتاة، أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، من ميل إلى تطبيق الحكم اللامركزي، بما أطلقوا عليه اسم «توسيع المأذونية». كما نجعل نضال العناصر غير التركية، ضد جمعية الاتحاد والترقي، في الصحف والملتويات النيابية، وشي المجالات، وفي كل مناسبة تعرض. وقد ساعد أحرار هذه العناصر، على إحراز بعض الانتصارات الهامة على خصومهم، ما أنزل به هؤلاء من أخطاء عجزت أن تكون حكمهم: منها تقاعسهم في حماية بعض أجزاء الدولة، التي نصمت عن سلطنة في عهدهم، كالويسنة والمهرست، وبلغاريا وطرابلس الغرب، وبانينهم في المحافظة على مصالح الولايات غير التركية، أمام مطامع الدول الأوروبية ومصالحها وإمتهازاتها، ثم ما ارتكبه من جرائم اغتيال، راح ضحيتها عدد من الصحفيين الأتراك الأحرار، ونقر من العرب^(٣)، وما ترتب على تدخل ضباطهم في السياسة، من تشوش في الإدارات، وانعاض في نفوس شخصيات عسكرية، لها وزن وأهيتها في الجيش وفي القيادة الرئيسية لجمعية الاتحاد والترقي بأن واحد^(٤)، وما انطلت عليه نفوسهم من حقد وكبرياء واستخفاف بخصومهم السياسيين.

(٢) حسين فوزي النجار — السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط من ٣٠٦.

(٣) المصدر السابق من ٣٠٧.

(٤) اغتيال زكريا طهارة في بيروت.

(٥) منهم الميرزا صديق بك المرعش المسوّل للجمعية وميرزا بكاني وميرزا علي بك فيروز في النضال.

كما أثر في تقويض نفوذهم ما لجؤوا إليه من مناورات سياسية مقنعة لكنها مفضوحة ، ذلك أن جمعية الاتحاد والترقي لم تكن تحكم إلا من وراء الستار ، تفرض المصالحات الوزارية وليس بين الوزراء إلا قليل من أعضاء الجمعية ، وللمجالس التمثيلية وفيها الغالبية العظمى منهم ، ثم غلب ما تتخذه لجنتها المركزية من قرارات على الأجهزة التي صنعها ، لتستخدم مصالحها ، فيستخدم هذه الأجهزة في تنفيذ مآربها غير المشروعة في السلط وترسيخ الحكم نفسها . ثم تلجأ بعدئذ إلى تعطيل الدماء التي رقت في سدة الحكم ، كلما تعرضت أعمال هذه إلى السطو والاستنكار العام ، الذي يكون مبعثهما في الواقع سوء سياسة الاتحاديين أنفسهم .

لكن المعارضة كانت ماهرة في كشف هذه السياسة ، وإطلاع جماهير الشعب على محاذيرها ومساوئها ، نشيطة في محاربتها وفي العمل على تقويض أركانها ، فتشج عن ذلك زيادة الثقة على الحزب الذي يوجه دفة الحكم — لا سيما في الأوساط المثقفة — وصقوط مكانته في عيون الناس .

ولم يتورع الاتحاديون عن سلوك سياسة المناورات والمناورات حتى في قاعة البرلمان ، والاحتياال على الدستور للوصول إلى تعديلات دستورية تخدم أغراضهم الحزبية ، حتى إذا لمسوا أكلمة نيابة ضدهم لجؤوا إلى حل البرلمان^(٦) . ولم يكن السلطان محمد الخامس (محمد رشاد) ، الذي وضعوا بيده صلاحية الحل ، إلا ألعوبة في أيديهم ، يسيرونه حسب مشيئتهم^(٧) . وعند إجراء الانتخابات الجديدة ، يستخلصون أقصى ما في وسعهم من الجهد ، كي يخرجوا النواب الجدد من حزبهم ، بحيث لا ينجح من خصومهم إلا عدد ضئيل لا يتجاوز خمسي الفائزين ، فيكسبون بذلك مجلساً مطواعاً .

هذه الأساليب السياسية المكروهة ، وما ارتكبه الاتحاديون من أخطاء جسيمة كان من شأنها أن تنفر منهم ذوي الأفكار المتيرة ، حتى من أعضاء جمعيتهم ، فتكاثرت الاستقالات منها ، وتفاقت الانقسامات في صفوف أعضائها ، وانضم قسم كبير من المشتكين إلى الأحزاب المعارضة . وهكذا حتى سرت الثقة إلى صفوف الجيش ، وتحركت مشاعر كبار ضباطه النبيلة ، وتجاوبت ميولهم الوطنية مع أهداف الأحزاب المعارضة ، ومع فتمتها على الحزب الذي يدير دفة الحكم ، فقامت فئة من الضباط ، في مناسبتهم بالإنابة ، أطلقت على نفسها اسم « فرقة ضباط الإنقاذ »^(٨) (خلاصكاران

(٦) العرب والترك ، ص ٣٧٠ — ٣٧٥ .

(٧) Ali İhsan Sabit, Harb Hatıralarım, p. 47

(٨) العرب والترك ، ص ٣٨٤ .

ضابطان غربي)، ساندتها حركة شعبية ألبانية^(٩)، وأبدتها وتضامنت معها حاميات لازير ودمشق وحلب، وتمكنت هذه الحركة العسكرية من إسقاط جمعية الاتحاد والترقي من موقع الصدارة في إدارة الدولة، وقامت على أنقاضها حكومة تعتمد على تأييد الحزب المعارض «حزب الحرية والائتلاف»، قامت ستة أشهر^(١٠).

وإذا كان العرب لم يساهموا، في السنة الأولى من عودة الدستور، مساهمة فعالة ذات قيمة في نهضال العناصر غير التركية ضد استبداد الاتحاديين وسياستهم في صهر عناصر الدولة وأجناسها في اليوتقة التركية — بحيث تمكنت المعارضة المكوفة من أحرار الأجناس غير التركية في السلطنة، متأزرة مع الرجعية العثمانية، من إزاحة الاتحاديين مؤقتاً عن الحكم عندما قامت الثورة المضادة في ١٣ نيسان ١٩٠٩ (وهي الانتفاضة الأولى ضد حكمهم)، واستلمت الحكم وزارة تمثل تكتلاً دعي باسم «جمعية الاتحاد العثماني»^(١١) دامت على لركة السلطة نصف شهر تقريباً، حتى جاءت قطعات سلايك، مناصرة للاتحاديين بقيادة محمود شوكت باشا وقوضتها — أقول إذا كان العرب لم يأخذوا قسطهم في هذه الحركة، فإنهم قد لعبوا دوراً هاماً في تفويض سلطة الاتحاديين في المرة الثانية، فتلقت كان نوابهم وزعمائهم العمود الفقري للأحزاب المعارضة: «حزب الأحرار المعتدلين»، «حزب الأهالي»، و«حزب الحرية والائتلاف»^(١٢)، التي كان لكل منها قروع في معظم المدن العربية كدمشق وبغداد وحمص ورابلس وطرابلس الشام واللاذقية وانطاكية وعالية والفرندو وكسب .. الخ، وكان كتابهم يتولون رئاسة تحرير معظم الجرائد المعارضة^(١٣) التابعة لهذه الأحزاب وإدارة سياستها، وعندها يزيد عن عشر، ومنها جرائد لها وزنها كـ «تأسيسات» و«تنظيمات» و«تشكيلات» و«تقديرات» و«تأمينات» و«إصلاحات» و«إفهام» .. الخ، وكلها في الأستانة، وتصدر بالتركية، عدا الجرائد العربية الحرة التي كان يصدرها الأحرار العرب في كل من بيروت ودمشق وبغداد وغيرها من البلاد العربية، وكان كتابها يشنون هجوماً عاصفاً على الاتحاديين، حتى بلغت الحملات الصحفية، بين العرب والترك، حداً لم يحل من المهارات، لجأ الترك فيها إلى أسلوب

(٩) المصدر السابق، ص ٣٨٤.

(١٠) المصدر السابق، ص ٣٨٥.

(١١) المصدر السابق، ص ١٢٨.

(١٢) العرب والترك، ص ٢٠٢.

(١٣) المصدر السابق، ص ٢٠٤.

المسب وشتم الأعراض والإهانات الوضیحة للزعماء العرب ، وكان رد العرب عليهم رداً رصيناً وشديداً وحلماً في آن واحد^(١٦).

كما قارع نواب العرب زملائهم من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في ندوة البولان ، واصطدموا اصطدامات عنيفة مع ممثليهم من الوزراء . وكان أشهر من اصطدموا بهم طلعت بك ونهر الدناخلية ، والنائب الجري ، حسين جاهد ، رئيس تحرير ومدير جريدة «عنين» الناطقة بلسان جمعية الاتحاد والترقي ، وأبرز أعضاء الجمعية وأسلطهم لساناً^(١٧). وأما أنشط نواب العرب ، وأثمنهم جناناً ، وأسلطهم بهاناً ، وأكثرهم اعتماً وتعلقاً بالدفاع عن قضايا أمتهم فهم : شفيق المؤيد العظم ، وشكري العسلي ، ورضا الصلح ، وسلمي سلام وغيرهم --- وهم من الزعماء الذين تحرروا على الجهر بشعارات العروة في مجلس النواب ، مما يعد مخالفة للدستور العثماني الذي كان يحرم تأليف أحزاب بأسماء قومية ، أو الجهر بشعارات قومية في ندوة المجلس . فلم يتورع شفيق المؤيد العظم من طرح شعار «الخلاقة العربية» في سياق الحديث العابر ، مما أثار ضجة استنكار لدى زملائه الأتراك . وقد اصطدم مرة اصطداماً عنيفاً مع طلعت بك ونهر الدناخلية وأهانته وطرجه أرضاً . وأما النائب شكري العسلي فلم يتورع عن طرح موضوع المطالب العربية على ندوة البولان ، مجنداً نفسه للمطالبة بحقوق العرب « بلسان الأمة العربية وبالنسبة عنها »^(١٨) ، مما أثار ضجة عظيمة في القاعة ، واحتجاجاً شديداً داخل المجلس وخارجه من قبل الترك ، على ما أتاه من إثارة مسألة اعتبارها من قبل النمرة الجنسية .

كان للرب ، قبل الثورة المضادة عام ١٩٠٩ ، عداا الجمعیات التي أسسوها مع الأحرار الترك ، جمعية عربية واحدة أسست بعد إعلان الدستور هي «جمعية الاخاء العربي - العثماني» اهمم الاتحاديون أعضاءها بالتأمر على هذه الثورة فألقوها ، فتألف بعدها «المنتدى الأدبي» وظاهره أدبي - اجتماعي ، وباطنه لم يخل من التوجهات السياسية . وقد أُلّف العرب ، عدا ذلك ، وبعد القضاء على الثورة المضادة ، جمعيات سرية وعلمية عديدة أشهرها «الجمعية العربية الفتاة» السرية ، وجمعية علمية هي «الجمعية الإصلاحية» في بيروت ، ولها شبيه في البصرة ودمشق ، أُلّفها العرب بعد سقوط جمعية الاتحاد والترقي ثلثي مرة من مواقع الحكم ، وذلك لتنظيم اللوائح الإصلاحية اللامركزية

(١٦) راجع من الحملات الصحفية : العرب والترك ، ص ١٦٦ .

(١٧) راجع عن نشاط العرب في مجلس البعثان : العرب والترك ، ص ٢٦٩ - ٢٨٤ .

(١٨) العرب والترك ، ص ٢٨٥ .

في كل من الأقطار العربية. كما تألف في آخر عهد حكومة الائتلافين «الحزب اللامركزي العشوائي» في القاهرة، مع فروع له في كل من بلدان هذه الأقطار، وذلك تجارياً مع رغبة الحكومة الائتلافية في منح العرب للحكم اللامركزي، ووجوب تأليف هذه الأحزاب لمعاونتها في تحقيق هذه الغاية. غير أن الاتحاديين لما قاموا بانقلابهم المعروف باسم «انقلاب الباب العالي» في الأستانة (٢٣ يناير، كانون الثاني ١٩١٣)^{١٧٦} ضد حكومة خصومهم الائتلافيين، ساروا في سياسة العنف والشدة، وجرعوا قيام الأحزاب المعارضة من تركية وغير تركية، كما حرّموا على العناصر غير التركية تشكيل أي حزب أو جمعية مهما كان لونها، وأعلنوا الأحكام العرفية في مختلف المناطق، وبخاصة منها الأستانة، وسيطر العسكريون منهم على السلطة، واضطلعت الجمعية بأعضاء الحكم مباشرة، وأعلنت نفسها حزناً علنياً، بعد أن بقيت حتى ذلك الوقت، مبدئياً على الأقل، جمعية سرية تعمل بالخفاء، ولو أن أمرها معروف، وسيطرتها على الحكم مكشوفة.

أما في سياساتهم العربية فقد حرم الاتحاديون العرب من الأمل الذي علقوه على الائتلافيين في الحصول على الحكم اللامركزي، وبقوا مصرين على تطبيق الإصلاح بحسب المفهوم الاتحادي «توسيع المأذونية» للولايات، أي أن يمتد للنصر التركي الحاكم حق السيادة في الأقطار العربية، وإعطاء حرية التصرف للولي في الأمور الإدارية والعمرانية الداخلة ضمن ولايته — مع منحه صلاحيات واسعة — دون الرجوع إلى أوامر الأستانة إلا في الأمور الهامة الخطيرة، والاستعانة بمجالس محلية معينة تعييناً، لا يدخل العنصر الانتخابي فيها إلا بمقدار ضئيل ومشوه، بحيث يكون الولي مسيطراً عليها تمام السيطرة، بدلاً من أن تكون مسيطرة عليه. وقد تحمل هذا الإصلاح الاتحادي بنائون الولايات الذي أصدره بعد ذلك (سبتمبر ١٩١٣)^{١٧٧}، فأسقط في يد أحرار العرب وزعمائهم، وخاب أملهم في الإصلاح الذي يروغبه، ولكن ما العمل وكابوس الإزهاب مسلط على أعناقهم لا يستطيعون حراكاً ؟

لقد أعملوا الفكر في إيجاد الحل الناجع فانبثقت عن نعر من أعضاء الجمعية العربية الفتاة في باريس، بالاتفاق مع حزب اللامركزية في مصر، فكرة الدعوة إلى مؤتمر يعقد في باريس، يعيداً عن السيطرة الاتحادية واضطهادها للأحرار. وهكذا تم عقد المؤتمر في قاعة الجمعية الجغرافية في

(١٧٦) العرب وقرنك، ص ٤٦٦.

(١٧٧) العرب وقرنك، ص ٤٧٩.

١٨ حزيران ١٩٦٣^(١٩). ولد ترأسه عبد الحميد الزهرأوي، وكان من أبرز أعضائه وخطباءه، بالإضافة إلى الرئيس، الشيخ أحمد طهارة، وعبد الغني العريسي، واسكندر عمون، وزندة مطران. ونجحت في خطب الخطباء مطالب العرب في الحكم اللامركزي، كما كان من أبرز المسائل ما أثاره عبد الغني العريسي من إثبات ما للعرب من حق جماعة، بما لهم من وحدة اللغة والعنصر والتاريخ والعادات ووحدة المطمخ السياسي، فأثبت بذلك أن، للعرب وحق جماعة، حق شعب، حق أمة^(٢٠)، وما أثاره عبد الحميد الزهرأوي من موضوع اللامركزية والحاجة على أن المؤتمرين ولم يجوعوا إلى أوروبا ليطلبوا منها أن تزيد في أراضيها، لأنهم أعقل من أن يحملوا أنفسهم هذه المهمة الفضولية، وأوروبا أعقل من أن تحتاج في أعمالها إلى أمثالهم، ولأن الذين لا سياسة لهم سيعطون أن أوروبا ليست هي القول، وإنما القول هو سوء الإدارة وفساد السياسة^(٢١). كما أن الزهرأوي كان، قبل انعقاد المؤتمر بأسبوع، قد قال في تصريح صحلي إلى مراسل جريدة «الطائر» الفرنسية في باريس بأنه يأمل أن تقوم في الآتية حكومة رشيدة يكون للعرب فيها مشاركة في أمورهم، رغبة منهم في إبعاد مجموع عثماني قوي يرتقي فيه مجموعهم العربي، بدون حائل يقف في طريقه.... وأضاف قائلاً: وأما إذا هي ظلت بعيدة عن ذلك فإني أصرح لك... بأن خطتنا معها تتغير حيثما تمام التغيير^(٢٢). ولا يعني ما في هذه الخطب والأقوال من تحد للاتحاديين ومجاوبتهم بالمواطف القومية العربية.

لقد نجح المؤتمر نجاحاً باهراً بالرغم من نشاط وسائل الإعلام التركية في محاولة منها لإحباطه، وانتهت جلساته في ٢٣ يونيو، حزيران ١٩٦٣ بقراوات تبين مطالب العرب، فما كان يوسع الاتحاديين إلا الرضوخ، وإرسال مندوب عنهم للتفاوض مع العرب، وجرى الاتفاق بين الطرفين على تنفيذ قسم من المطالب التي من شأنها أن تحقق للعرب آمالهم المشروعة في نوع ضيق من الحكم اللامركزي^(٢٣)، وإن لم يمكن كل ما حلموا به، إنما قطعوا باليسر، مساندة ودليلاً على حسن نيتهم نحو الدولة، ولكن بشرط أن يتحقق هذا اليسر فعلاً.

(١٩) المصدر السابق، ص ٥٠٢.

(٢٠) اللجنة العليا لحزب اللامركزية (جمع عي اثنين الخطيب) — المؤتمر العربي الأول، من خطة العريسي، ص ٤٢ — ٥٠.

(٢١) المصدر السابق، من خطة الزهرأوي، ص ٢٨ — ٣٩.

(٢٢) المصدر السابق، تصريح الزهرأوي، لمراسل الطائر، ص ١٤ — ٢١.

(٢٣) العرب والترك، ص ٢٤٥.

هو أن الاتحاديين لم يكونوا مخلصين في اتفاقهم هذا، إذ ما إن انتهت المفاوضات بين الجانبين، ووقع مملأهما على نصوبه، وهذأت العاصفة التي أثارها العرب في مؤتمريهم، حتى بلغت المساطلة من جانب الاتحاديين - صحيح أنهم عمتوا - حسب الاتفاق، بعض الشخصيات العربية في مجلس الأعيان، غير أن واحداً فقط ممن عيّنهم كان من حزب الإصلاح العربي الصحيح، وهو عبد الحميد الزهراوي، وأما الباقيون فقد اختاروا أكثرهم من صملاء الاتحاديين، مدّعي الإصلاح، بل أنصار الإصلاح الخفيف على الطريقة الاتحادية، مع بعض الحبيادين، ولم يكن عدد الذين عيّنهم يمدد ما نص عليه الاتفاق بل أقل بكثير. كما عينوا بعض المصرفين والولاة، ولم يبلغ عدد هؤلاء غط العدد الذي اتفق الطرفان عليه. أما عدد المناصب الوزارية التي نص الاتفاق أن يُخصّ العرب بها فلم تلق أي اهتمام من الحكومة. هذا إلى أن الاتحاديين، حينما أصدروا الإرادة السلطانية بنصوص الاتفاق المتعلقة بتفاصيل المطالب اللائكية، عمدوا إلى تشويهها، بحيث جاءت ممسوخة تختلف اختلافاً بيناً عن النص الأصلي الذي وقع عليه ممثلا الجانبين. وهذا ما سبب انتشاقاً في الحركة العربية، فصد الاتحاديون إليه قصداً بمناوراتهم هذه، إذ انقسم زعماء هذه الحركة إلى فئتين، أولاهما التي تزعمها عبد الحميد الزهراوي وعبد الكريم الخليل، والثانية تزعمها المقدم عزيز علي المصري وحقي العظم مثلين للشبيبة العربية الطليعية وهداة للضباط. وقد أخذت هذه الأخيرة على الفقة الأولى كرتها قد وضيت بالأمر الواقع، ومالت إلى التراخي والتهاون في قضية المطالب الإصلاحية، وآثر ممثلها الزهراوي مصلحته الخاصة في قبوله المنصب الكبير الذي عينه فيه الاتحاديون، وقد أصفوا به تهمة حرق مقررات المؤتمر الذي وضع شرطاً لقبول المناصب الحكومية هو تنفيذ الحكومة لهذه المقررات كاملة.

وقد استدعت الشبيبة العربية عبد الكريم الخليل إلى مقر المنتدى الأدبي في الأستانة حيث كان في انتظاره ما ينوف على ألف شخص من أعيان العرب وأديابهم وشبانهم، واستروضحته عما جرى بالإصلاح ومن قبول الزهراوي لمنصبه، وبعد أخذ ورد أعلن عبد الكريم أنه لا يستطيع أن ييوج بشيء من أسرار السياسة أمام هذا الجميع الغفير، قرر الرأي على أن تؤلف لجنة تتجمع به سراً. وقد جرى ذلك في ٧ يناير، كانون ثاني ١٩١٤، واستمرت الجلسة اثنتي عشرة ساعة استطاع عبد الكريم خلالها إقناع اللجنة بوجهة نظر اللغة التي يحملها، إذ إن في وجود الزهراوي في عضوية الأعيان عذمة لقضية العرب ومطالبهم الإصلاحية، وإن من أهم الأسباب لقبوله المنصب أعظم أطماع الأجانب في البلاد العربية، ورغبتهم في التهاز فرصة الخلاف بين العرب والترك

لتحقيق مآربهم^(١١)، وكان كل عربي يعرف ما تدعي به فرنسا لنفسها من مصالح في سورية منذ زمن طويل، ولم ينس أحد أبداً ما نوه به رئيس وزرائها «بوانكاريه» في جلسة مجلس الشيوخ الفرنسي (١٩١٢) متذكراً بهذه المصالح، ومجتهداً أكثر من تجاهلها.

عندئذ سكنت الشيعة العربية على مضض، وأصدرت بياناً أذيع في المصحف باعتقاد عبد الكريم الملاحقة مطالب العرب، وشكلت لجنة من أربع شخصيات مؤازرته. كما أرسل عبد الحميد الزهرلوي، إلى صديقه الشيخ رشيد رضا في القاهرة، رسالة شرح له فيها الأوضاع التي يعانيها العرب في الفترة الأخيرة، وحملها تحليلاً صحيحاً. وكان الظاهر أن هذه الأوضاع هي التي أوجبت إلى هذا الاتجاه في النضال العربي: اتجاه غير منطوق في طلب الإصلاح، وغير متبادل إلى حد التصريط بمصالح العرب، بل سلوك سبيل الاعتدال، سبيل «عدل وطالب». وقد دفعه إلى هذا السلوك دوافع ثلاثة: أولاً — تألب الدول الأجنبية على السلطنة. ثانياً — ما أصبح عليه الترك من رغبة في تقوية جهازهم الداخلي، ومن اتخاذهم خطة الحزم والشدّة، لحلو الجوه من عناصر المعارضة التي قضوا عليها قضاء مبرماً، ولم يبق للعرب — بالرغم من ازدياد شأنهم العددي نسبة للأتراك، وغلبة مساحة العروبة على تضامهم نتيجة تطور فكري سريع — من يعتمدون على معاونته، من بقية العناصر، نجابية الحكومة بعد انفصال أليانيا، بما تضمنه من أجناس مختلفة عن الدولة، فبقوا وحيدون في ساحة النضال. ثالثاً — أنه لمس بعض المهل من الترك إلى التساهل لإنالة العرب بعض حقوقهم.

وفي هذه الفترة من النضال العربي ألّف العرب حزبهم السري المعروف باسم «جمعية العهد» برئاسة المقدم عزيز هاشم المصري، قبيل اعتقاله ظلماً بأمر من أنور بك، والحكم عليه بالإعدام، ثم العفو عنه ونفيه إلى مصر.

والواقع أن الترك، بعد أن صدمتهم الحرب البلقانية تلك الصدمة القوية التي فصلت أليانيا والولايات الأوروبية عن دولهم، استفاقوا من غفلتهم، واستلمت الشيعة العسكرية، ممثلة بالمقدم أنور بك، وأحمد جمال بك (المعروف)، مقاليد الحكم، وأخذت حكومتهم، بعد انقلاب الياك العالي، تسير في سبيل التقوية وتجديد شباب الدولة، معتمدة على الحيرة الفنية الأوروبية، خاصة منها في مجال تقوية الجيش الذي اعتمدت فيه على بحثة من الضباط الأتكان القسرين. كما عمدت إلى حل

(٢٤) العرب والترك، ص ٥٥٢-٥٥٣.

مشاكلها مع الدول الأوروبية ، بمنحها الامتيازات الاقتصادية في أراضي الدولة العثمانية ، لتلصقت إلى إصلاح أمورها الداخلية ، وتنظيم جيشها حرة طليقة من كل تدخل أجنبي .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنها أدركت ، نتيجة خبرة السنوات الخمس الأخيرة ، عدم استطاعتها الاعتماد على العناصر الأخرى غير التركية التي اعتبرتها خائنة لأهداف « العثمانية » ، لذلك وبالرغم من أن معظم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي لم يكن يعتقد العقيدة الطورانية ، ولا يعتقد بها اعتقاداً أصيلاً ، إلا أن الزعماء البارزين منهم رأوا أن في مساهمة هذا التيار القومي الطوراني بحللاً وإيقاداً للعنصر التركي من الملاك الذي يتصوره . هذا علاوة على أن أجهزة الإعلام التركية الحرة كانت تسيو بقوة أقوى من السيل الجارف ، في سبيل ترسيخ العقيدة الطورانية في أذهان الجماهير التركية . كما كان بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي البارزين شخصيات هامة ، تلتحق بالعقيدة الطورانية ويتحمس لها تحمساً عظيماً ، منهم « ضياء كوك آلب » ، و « أحمد آغا أوزلي » ، وغيرهما من الذين كانوا يدفعون بالانحياز في تيار العنصرية ، ويجاهل مطالب العرب وحقوقهم القومية ، فلم ير الاتحاديون بدءاً من الانحراف مع هذا التيار .

غير أن عجلة التطور القومي عند العرب لم تقف جامدة إزاء هذه التطورات العنيفة في الأفكار القومية التركية ، بل قابلها من طرفهم نشوء أفكار قومية ذات تيار عنيف أيضاً ، ووافق ذلك ظهور كتاب ومفكرين ، اهتمت كتاباتهم إلى مستوى التفكير الفلسفي ، مثل عمر فاخوري ، وعبد الحميد الزهراوي ، ومصطفى الغلاييني ، وعبد الفتحي العريسي وغيرهم . لقد أدرك هؤلاء أن المستقبل للشعوب القومية المتمسكة بقوميتها ، وتنادى عمر فاخوري بجعل القومية العربية ديانة للعرب الجديدة ، ويخلق إله للغة العربية هو القومية العربية . وكان في نظر الزهراوي أن الأمة هي الجماعات التي فيها روح القومية ، فإذا طارت هذه الروح تصبح الجماعات أشباحاً . وتنادى الغلاييني بالتعصب للقومية واللغة والدين والمذهب الاجتماعي والسياسي ، وأوضح عبد الفتحي العريسي في خطابه الذي ألقاه في المؤتمر العربي الأول مقومات القومية العربية .

إن خيبة أمل العرب في صدق دعوة الاتحاديين للرابطة العثمانية ، بل مما شابتهم للقومية التركية كان هو العامل الحاسم في ميل أفكار أحرارهم نحو النضال والتفاني في سبيل تعزيز قوميتهم ، حفظاً لها من الانصهار والتلاشي . وحتى الأفكار الانفصالية قد راودتهم في آخر الأمر ، عندما أدركوا أن لا سبيل إلى التعايش السلمي مع إخوانهم الترك ، الذين استبدت بهم التبعة التركية ، وملكهم العصبية

الشديدة لها. ولكن هذه الأفكار الانفصالية بقيت مسترة في نفوسهم، ولم يتمتعهم من إظهارها، واتخاذها سياسة مرسومة واجبة الاتباع — مع توفر الروح المعنوية لديهم — إلا للتقص الذي كانوا يعانونه في الوسائل المادية لدعم الاستقلال الناجز، فيما إذا فكروا في بلوغه. فكانت، والحالة هذه، أهدافهم مقتصرة على الحكم اللامركزي الواسع، كخطوة أولى نحو الاستقلال الناجز، في المستقبل، عندما تتوفر لهم الوسائل الضرورية لدعمه. واستمروا على هذا الحال حتى الحرب العالمية الأولى.

أمام هذا التطور المتناقض في موقف الجانبين، وتطور الأحداث في السلطنة العثمانية، تطوراً هو في مصلحة الأتراك القوميين، لم يكن أمام العرب إلا أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يرضخوا للأمر الواقع، ويقبلوا مرغمين بما يمنحهم الاتحاديون من إصلاحات طفيفة، ويلتصقوا بجراحهم للقومية صاغرين، أو أن يرفعوا لواء الثورة، وينفضوا اليد التركي المستحكم في أعناقهم، ويحطموه.

إن هذه الحقيقة لم تنب حتى عن فكر عبد الحميد الزهراوي، برغم انسياقه في تيار الاعتدال. ينضح ذلك من الكتاب الذي وجهه إلى الشيخ رشيد رضا، وبين له فيه خيبة أمه بالشبهة العربية التي لا تحبها لها وأولاد في ناشئة العمر لا يلبقون للسياسة..... و«ضباط لا تحبهم لهم في العمل السياسي»، وعبر عن استهائه بالسوريين والعراقيين ولأنهم حضر لا يفهمون ولا يبرهون أن يفهموا، لا يساعدون ولا يتوهمون أن يساعدوا... فقد ألفت نفوسهم ذلك، بل على الأمل على أهل الجزيرة العربية فائلاً: «ولو كان في وسع البشر أن تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة، لكانت راحي أرواحاً على اليمن وعمرو والحجاز ونجد وحضرموت»^(١٤).

هكذا استسلم العرب في هاديء الأكر — وحتى يكشف الزمن عن تطورات عالمية وداعلية جديدة — استسلموا للتيار، واضربوا بالقليل الذي لم يُعطَ لهم سوى جزء ضئيل منه، وما أُعطي لهم منه أُعطي مماثلة وعمل مهول. حتى إذا نشبت الحرب العالمية الأولى، وقرر الاتحاديون محو غمارها إلى جانب دول الوسط، حصر هؤلاء القتاع عن وجوههم فيان القدر الذي كانوا يضربونه للعرب، كعنصر من العناصر التي ناولته حكمهم وأهدافهم العنصرية، وضربوا باتفاق باريس عرض

(١٤) أحمد حبة الأقطبي: القضية العربية، ج ٤، ص ١٩ — ٢٠، ولخار، مجلد ١٩، ج ٣، ص ٢١٥ — ٢١٨.

الحفاظ، فطواه النسيان والإهمال^(٥)، وما هي إلا خرة نريت وإمهال حتى بدلوا سياسة البطش والتقتيل والتنكيل بأحرار العرب.

خلاصة القول إن نضال العرب في الفترة الدستورية التي مرت بها الدولة العثمانية من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ قد تطور في ثلاث مراحل:

للمرحلة الأولى: من سنة ١٩٠٨ إلى ١٩١٢ وفيها لم يطالب العرب بسوى الحرية والمساواة، مع إخوانهم الترك، في الحقوق والواجبات التي يطالبها كثرتهم مواطنين نجمعهم الرابطة العثمانية، لم ما لإخوانهم وعليهم ما عليهم، وبعدم لمعبارهم كتماً مهملاً لا شأن لهم بأمر هذه الدولة، التي اعتبر الترك أنفسهم فيها العنصر الحاكم صاحب الحق الواحد في إدارة شؤونها، بدعوى حق الفتح والتسلط.

للمرحلة الثانية: من سنة ١٩١٢ إلى ١٩١٤، وهي التي شعر العرب فيها أنه يستحيل عليهم التفاهم مع إخوانهم الترك، الذين يضربون تترك العناصر الأخرى وصهرها في بوتقتهم باسم الرابطة العثمانية، فسألوا إلى المطالبة بلامركزية الحكم في ولايتهم العربية، ضمن الجامعة العثمانية، دون أن يفكروا بالانفصال، وذلك كي يفتوا على الترك فرصة لإحياء ما عقدوا العزم عليه. وقد تبلورت عند كل من الجنائيين فلسفة معينة للأمور ملخصها: لدى الترك أولاً: أنهم تمسكوا بنظرتهم إلى العرب وبقية القوميات — نظراً فقط وفي نطاق الجدل — بأنهم عثمانيون لهم ما للعثمانيين وعليهم ما عليهم، وليس لهم أن يطالبوا بمطالب خاصة، فالدولة دولتهم، ولا امتيازات خاصة لأحد فيها على غيره، وعليهم أن يظهروا الإخلاص دون فرض مطالب معينة، وإلا عُد ذلك منهم خيانة، متجاهلين كونهم قد استأثروا بجميع الامتيازات دون ضيوعهم. ولدى العرب ثانياً: أنهم أخذوا ينظرون إلى أنفسهم بأنهم أصبحوا — بعد أن لسوا معاداة الترك لهم، وبعد أن تبي فيه الشعور القومي — أمة قائمة بذاتها، ويجب على الترك الاعتراف بكيانها، وإعطائها حقها في إدارة شؤونها الداخلية في الولايات التي يقطنها أبنائها^(٦). وكان للعرب لا يكفون على إخوانهم الترك أن ادعاهم بالرابطة العثمانية والمساواة في الحقوق والواجبات ليس إلا وهماً من الأوهام، باعتبار أنهم حرموا العناصر الأخرى من كل حق من حقوقهم، وسألوا إلى صهرهم في الوثقة التركية. وباعتبار أن الترك بدؤوا، في أوائل

(٥) تارت بعد تولى الاتحاديين في تولد قرارات مؤتمر باريس ضجة صحافية بين العرب ولترك لم تلبث أن تلاشت إثر نشوب الحرب العالمية (راجع العرب والترك، ص ٦٠٩).

(٦) تحسون قسكركي — مذكراً من الثورة العربية الكبرى وعن الثورة العربية، ص ١٤٠.

هذا المنهج ، سياسة ترمي إلى القمع والشدّة ، وحرّموها على العناصر غير التركية إقامة منظمات قومية علنية ، فقد بدأ العرب بالاتجاه إلى العناية بالتنظيمات السرية ، التي كانت مظهراً من مظاهر مرحلة تطوّر الفكرة العربية ورسوخها ، إذ قامت على نمط الجمعيات السرية القومية الأوروپية بل التركية قبل الدستور^(١٢٦) ، للحفاظ على قوميّهم من الاندثار والانهيار في غيرها . فانبثق عن هذا الاتجاه قيام أقوى منظمين سرّيين عربيين ، أولاهما « الجمعية العربية الفتاة » والثانية « جمعية العهد » ، اللتان سيكون لهما شأن عظيم في المرحلة الثالثة التي ستكون مدّار ما سيأتي من هذه الرسالة ، باعتبار أن رسالتي السابقة « العرب والترك في العهد الدستوري العثماني قبل الحرب » قد تضمنت لمبحث في المرحلتين المذكورتين آنفاً .

المرحلة الثالثة : وتمتد من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ، وهي مرحلة السعي للاتصال التام عن الدولة العثمانية . وستبدأ الفكرة في أولها غامضة ، ثم تتلوّز ويبدأ بازدياد العوامل المؤثرة ، إلى أن تترجم إلى عمل حاسم كما سنرى .

(١٢٦) أمين سعيد - الدولة العربية المجددة ، ص ٩٦ .

دخول تركيا في الحرب وأثره في الانفصال

نشبت الحرب العالمية الأولى في أول آب ١٩١٤، إثر اغتيال ولي عهد النمسا — المجر وزوجته في ٢٨ / ٦ / ١٩١٤، في مدينة سراييفو عاصمة الصرب، من قبل بعض القوميين الصرب الطامعين في تكوين الدولة الصربية الكبرى، لاعتقادهم أنه يقف دون تحقيق أهدافهم.

لقد اجتاحت أوروبا، إثر هذه الحادثة، غليان شديد استمر حتى أول آب بين الدول العظمى، ولم تكن الحادثة بعد ذلك إلا السبب المباشر للحرب. إذ سبقها فترات اضطراب في العلاقات الدولية، وأزمات استمرت من العام ١٩٠٤ إلى العام ١٩١٤، فكونت، بما رافقها من ضغائن وأحقاد بين الدول، الأسباب البعيدة للحرب، فضلاً عن كونها قد أصبحت نيران المواقف القومية في البلقان. وقد نشأ عن هذه الأزمات سباق إلى التسلح بين الدول، وكانت ألمانيا منذ مو نهضتها الصناعية في أواخر القرن التاسع عشر قد سبقت باقي الدول بتعزيز قوتها البحرية، لتنافس بها إنكلترا، وتنتزع لها مكاناً تحت الشمس^(١).

لقد أدى نظام التحالفات الصربية، وانقسام الدول إلى معسكرين متعاديين، وغو الروح العسكرية في مختلف الدول^(٢)، وتضارب مصالحها الاقتصادية، فضلاً عن الأسباب العاطفية الناشئة عن يفضلة الشعوب القومية، إلى شحن الضغائن والأحقاد. فنشأ عن ذلك مشاكل قومية عديدة بين الدول المتعنية. لما إن وقعت حادثة سراييفو حتى كانت أوروبا قد وجدت فعلاً في حالة حرب. وقد لعب دعاية الاستعمار، وأبواق الحرب من الاستعماريين، دورهم في إثارة الأحقاد،

(١) بيرويلوفان: تلويح لقرن العشرين، ص ٥٠٠. دور الدين حاطوم، ص ٢٨.

(٢) مجلة العرب العظمى، ج ١، ص ٦ من مقال بقلم الأستاذ سبيل برادشو (جامعة هارفارد).

وأعدت صحفهم المأجورة تهتك ستر الحياء، مندفعة في هداياتها المصموم، داعية إلى امتشاق الحسام^(٢٧).

لقد استغلت النمسا - المجر هذه الحادثة لحق عدوتها دولة الصرب، فشدت في مطالبتها، وانبرت معظم الدول المعنية إلى دعم هذه الدولة أو تلك من الدول المتخصصة، ولم تقض بضعة أسابيع حتى عمت المتبعة العسكرية معظم الدول الأوروبية. وما حل أول آب حتى خطت فرنسا خطوتها في إعلان تبعيتها العامة، فجارها ألمانيا في ذلك بعد ساعة فقط. وفي مساء اليوم نفسه أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا، ثم على فرنسا بعد يومين^(٢٨). ولم يكن من انكثرا إلا أن تضامنت مع فرنسا وفاء منها لمعهد سابق قطعه لها، فأعلنت هي بدورها الحرب على ألمانيا. وهكذا ظلت دائرة الحرب في اتساع مستمر حتى شملت معظم دول أوروبا التي انقسمت إلى معسكرين: الأول معسكر ألمانيا والنمسا - المجر، ومن انضم إليهما (دول الوسط)، والثاني معسكر فرنسا وانكلترا وروسيا وحلفاؤهما (الحلفاء).

دخول تركيا في الحرب

أما الدولة العثمانية التي لم يكن لها في الأمر أية مصلحة - اللهم إلا ذلك الحقن الدفين الذي نشأ عن هزيمتها في حربي طرابلس المغرب (١٩١١) والبلقان (١٩١٢ - ١٩١٣)، فجعلها تحرق الأرم على الأعداء بالآثار^(٢٩)، واسترداد ما خسره في هاتين الحربين من أراضي التي اغتصبها منها خصومها^(٣٠). فقد قويت المتبعة العامة فور نشوب الحرب (٣ آب ١٩١٤) مدعية أن ليس لها من قصد في ذلك سوى دعم حيادها الذي أعلنته في الوقت نفسه^(٣١).

لم تكن خطوة الدولة العثمانية هذه إلا تمهيداً لخطا تالية، لم تر الحكومة العالمة حينذاك أن

(٢٧) أ. م. مزيل، حقبة الحرب العالمية، ترجمة علي أحمد شكري، ص ٨٨.

(٢٨) فريدريك ستيف، حقبة الحرب العظمى، ترجمة مسعود إبراهيم الدسوقي، ص ١٧٤.

(٢٩) H. BERTURK, *En Dervin Perde Arkaud*, p. 121. Hakika Edit, *Conflict of East and West*, p. 112.

(٣٠) احتلت اليونان ١١ جزيرة في بحر إيجه، وعند مفاوضات الصلح كانت الدول الأوروبية تريد إلحاق هذه الجزر باليونان، وقبل أن تنسى هذه المفاوضات قدمت للحرب العامة. كما تنصحت دول البلقان كطافرا: بلغاريا واليونان والصرب والجميل الأسود الأروبية هي خصمتها منها (شكيب أرسلان - تعليق على تلويح لجن عمليين، ص ٢٨٣).

(٣١) Y. H. BAYUR, *Türk İnkılabı Tarihi*, V. Part, I, pp. 62/63

من السهل عليها أن تتخذ قراراً حاسماً فيها، لتباين وجهات النظر بين أركانها الذين كانوا على اختلاف في النزعات والميول^(٧). وقد بدأ الصراع بينهم حول المنتج الذي يجب السهر عليه. وكان لضغط الحكومة الألمانية من جهة، وتطور الأحداث الخارجية والداخلية من جهة ثانية، وإجبراعات المسؤولين الترك الدستورية من جهة ثالثة، القول الفصل في موقف تركيا الحاسم من الصراع العالم بين المعسكرين المتحاربين.

لقد سبق اندلاع الحرب تطورات داخلية هامة لها علاقة وثيقة بموقف تركيا من دخولها، فقد شجر الخلاف ما بين الحكومة العثمانية والعناصر غير التركية في السلطة، وبالرغم من أن الدولة تمكنت أخيراً من إخضاع هذه العناصر، غير أنها بقيت على خشية وسخط منها، وخاصة من العرب والأرمن. لذلك أعدت تتوغل الفرصة للإجهاز على أمانتهما القومية. وهل من فرصة أجدى من حرب تقوم، ويدخلها الأتراك في الجباب الذي يتفقدون بحكمة ظفرو لضرب حلين الشعبين المشاكسين لها ؟

ثم هناك طرابلس المغرب المنعصية، والممتلكات الأوروبية المفصولة، وتونس ومصر اللتان كانت الدولة العثمانية لا تزال تعلم باستردادهما. وهناك أيضاً الفكرة الطورانية التي لقيت رواجاً في الأوساط المتطرفة من جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة، ومن أهدافها توسيع رقعة المملكة العثمانية المرتكزة على أساس قومي تركي، حتى تشمل كل المباح التي يسكنها الجنس التركي المطوراني. هذه أهداف بعيدة المدى ولا شك، لكنها لم تعد من نادى بها، وجعلها هدفاً من دخول الحرب.

كانت دقة الحكم في الدولة العثمانية، قبل نشوب الحرب، تميل نحو تمركزه في أيدي فئة قليلة، وتتجه نحو الدكتاتورية الفردية، أو بالأصح ما سمي بالثلاثي الدكتاتوري Triumvirat منذ انقلاب المهذب العالي (١٩١٣/١/٢٣)^(٨)، الذي تلاه ضغط لم يخل من العنف قامت به زمرة من المخاضرين على رأسهم الضابط الجريء «مقرب جميل»، واقتضت المركز العام لجمعية الاتحاد والترقي، وفرضت أنور بك وزيراً للحربية، ولم يكن قد تجاوز الثانية والثلاثين من العمر، وورثي إلى رتبة لمرق فاكسب لقب «باشا»^(٩)، ثم جرى ترقية منافسه جمال بك للرتبة نفسها مع اللقب

(٧) A.I. SABIS, *Haab Hadrulrim*, T.I, pp.40-41, T.II, p.24.

(٨) راجع كتابي «عرب وترك»، ص ٤٦٦.

(٩) H. BALTUUK, *Ibid*, pp.131-133. هنري موريسو، أسرار الحرب الكبرى في تركيا ص ٣٦.

نفسه ، بحركة منه كان ملؤها التحدي^(٩٠) لثناطرة أنور ، وببعضها الحسد والغيرة منه . وأسندت وزارة الأشغال العامة ثم وزارة البحيرة إليه^(٩١) . وأما ثالث هذا الثلاثي « طلعت بك » ، وزير الداخلية ، فقد أصبح أقوى زعيم مشفي في جمعية الاتحاد والترقي ، عندئذ صار هؤلاء الثلاثة أقوى سلطة في الدولة .

عدا ذلك فقد أصبح النفوذ الألماني متغلغلاً في تركيا ، بعد أن ساعدتها ألمانيا في قروضها الخارجية ، وفي إنشاء خطوطها الحديدية ، وفي تدريب جيشها^(٩٢) . فتتد صدارة الفريق محمود شوكت باشا طلبت تركيا بعضاً ثلثانية لتدريب الجيش التركي ، فأرسلت ألمانيا ٢ / ٤ ضابطاً على رأسهم الجنرال « ليمان فون ساندريس » ، الذي عهد إليه بالمفتشية العامة للجيش العثماني برتبة مشير^(٩٣) . وبلغاً أنور ، بعد استلامه وزارة الحربية ، إلى حركة تطهير تحصل بها من أكثر من ثلاثمائة ضابط كبير لم يكونوا على وفاق معه في منطلعه الجريئة ، وانجباها نحو ألمانيا^(٩٤) . واستعاض عنهم بأحمرين من الشبان المخلصين له ، والمتحمسين لأنكارهم القومية ، وللميل نحو ألمانيا ، وسلمهم المناصب العليا في الجيش^(٩٥) ، فأصبح بذلك الحاكم المطلق على الجيش ، وبالتالي على مقدرات السلطنة العثمانية ، أو كما قال علي فؤاد رئيس هيئة أركان حرب جمال باشا « كانت السلطنة العثمانية في قبضة الاتحاديين ، وكان الاتحاديون في قبضة المركز العام للحزب ، وكان المركز العام في قبضة الحكام الثلاثة ، وكان الثلاثة في قبضة أنور ، بسوقاً عتيقاً . أما مقام السلطنة والقوى التشريعية ، وجمعية الاتحاد والترقي ، والحكومة الرسمية ، والرأي العام فلم تكن سوى أشباح ماثلة ، ونعيا لات مصورة »^(٩٦) . فلما أعلنت تركيا تبعتها العامة ، وقد رافقها استعداد للحرب قام على قدم وساق ، إزابت الكلترا من هذه الحظوة ، وهي ضالمة يتغلغل النفوذ الألماني في الأوساط التركية ، فبادرت إلى حجز البارجتين الحريتين « سلطان عثمان » و « رشادية » ، اللتين كانت تركيا قد أوصت

(٩٠) طلعت كتور من المصلر في رواية أن جمال باشا لما علم برزح أنور إلى رية لمق أبل بادر هو فوراً إلى وجع شارة هذه الرية ، وبعث برية هيئة إلى سلاسة أنور ، ووقع البقية مضيقاً إلى اسمه رية الفين ، فأمر غيا (Yardar, Oallip: İttihat Vatanıktı İstade Köşeler, Sah. 225).

(٩١) A.B. KURAN, Osmanlı İmparatorlugunda Ve Türkiye Cihanhürretinde İttihat Harakethi, (١٠) p.652, A.I.Sabla, İbid, I, p.90.

(٩٢) مجلة الحرب العالمية الأولى ، ج ٥ ، ص ٢ .

(٩٣) Correspondance D'Orient, 1-2-1914, p.122, Anisem, La Turquie et la Guerre, p.297.

(٩٤) Correspond. d'Orient, 16-1-1914, pp.53-54, A.Emin, Turkey and the War, p.57.

(٩٥) ماري ملر بالريك ، سلاطين بني عثمان الخمسة ، ص ١٢٢ .

(٩٦) علي فؤاد ، كيف ضربنا مصر ، ص ٣١ .

عليهما في الصانع الإنكليزية. وكان ثمنهما مما تبرع به الشعب العثماني بكل سخاء^(١٦)، وأصبحت حل الحجز، بالرغم من تأكيدات الصدر الأعظم أن الغرض من للتبعية العامة هو الاستعداد للمفاجآت. وحينئذ في ذلك أن قوانينها العسكرية لا تسمح بأن تسلم، في زمن الحرب، اليورج الموصى عليها وقت السلم، وأنه يجب انتظار نهاية الحرب كي تسلمها لها^(١٧). وقد أوضح المستر وسمتن تشرشل، وزير البحرية الإنكليزية حينذاك، هذه للمشكلة بقوله «إننا لم نستطيع الاستغناء عنها، إذ كان من شأنها أن يزيدا في يوارجنا الحرية ويزعزا أسطولنا. ثم إننا لم نكن نريد أن نجأؤف بإعطائهما إلى تركيا، خوفاً من وقوعهما في أيدي أئمة يحصل أن تستعملهما ضدنا. فلو سلمناهما لتركيا، وهما يوارجنا ممتازتان، لشكلنا مع عوين وبرسلاو قوة وجب أن نضع في مقابلها أربع يوارج لمراقبتها»^(١٨).

لا جدال في أن هذه الحركة من إنكلترا قد أغضبت الترك، وزادت من ضغينتهم على دول الحلفاء^(١٩). ولم تكن دولتهم، حتى الآن، قد رأت من الحلفاء ما يشجعها على الميل إليهم، بل عبرت من أطماعهم في أراضيها ما ينفرها منهم. وهي وإن لم تكن قد قررت بوضوح الجانب الذي يجب أن تنضم إليه في هذا الصراع الدولي، فإنها كانت على استعداد للعمل نحو الجانب الذي يؤمن لها رغباتها، بل التحالف مع أية دولة تبيهن عن نية صادقة مخلصه لها، وتحميها شروطاً ملائمة، وتكفل لها الحماية من جاراتها روسيا، التي لم تُخف طمعها في أراضيها منذ عهد بطرس الأكبر. وإذا كانت تركيا قد عقدت، قبل الحرب، اتفاقات اقتصادية مع الحلفاء وأعطت، بعض دولهم بموجبها، بعض الامتيازات، بغية الاستمحاء بغرة من الاستقرار، تتمكن خلالها من بناء كيائها الوطني والاقتصادي والمسكري، بعد انكسارها في حرب البلقان، والحصول على قرض من فرنسا ووفق عليه سديها^(٢٠)، ورغبة منها في كسب رضى فرنسا وإنكلترا، والاستظهار بها ضد عدوان محتمل من روسيا، إلا أن صدمتها كانت قوية وعنيفة عندما وأجسها تحالفان مع هذه العدو اللدود في الحرب القائمة، وهي عارفة أن روسيا لم تدخل الحرب إلا لتحقيق أطماعها القديمة في المضائق

(١٦) ماري ملز باترك، المصدر السابق، ص ١٢٤.

(١٧) أحمد عزة الأطلسي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨.

(١٨) Winston Churchill, La Crise Mondiale 1911-1915, p. 188.

(١٩) مجلة الحرب العظمى، ج ٤، ص ٤، من مقال بقلم ولستني تشرشل بعنوان السياسة التركية وأثرها في البلقان.

(٢٠) A. MANDELSTAM, La Sort de L'Emp. Ottoman, p. 70.

والآستانة، هذا علاوة على فشل القرض من فرنسا^(٢١). عندئذٍ شعرت بالحاجة الماسة، فولت وجهها نحو ألمانيا التي كانت دعائها تنتشر في الأوساط التركية، وبصورة خاصة في صفوف الجيش الذي تسرب عدد كبير من ضباطه في ألمانيا نفسها، أو في تركيا، طيقاً للأساليب العسكرية الألمانية، على يد ضباط من الألمان، مضى عليهم وقت طويل وهم يتعهدون بالجيش العثماني بمصائبهم^(٢٢). وكان الوضع الداخلي في تركيا يتطور ويتحول رويداً رويداً من ميل بدا للخواطر، منذ أول ثورة ١٩٠٨، بأنه نحو دول الغرب، إلى ميل أخذ في الانحراف، وظل كذلك إلى أن سلك الانقباض المعاكس، حتى إذا ظهرت بوادر الحرب العالمية أصبح يتراءى لرجال الاتحاد والترقي أن ألمانيا هي المصدقة الوفية، وهي التي ترغب في رؤية تركيا عزيزة الجانب، كما قال جمال باشا في مذكراته، مضيقاً إلى ذلك قوله إن الترك كانوا يحال فرحين من اللول أولاد أحدهما إبقاءهم تحت نيو، وأراد الآخر التقرب منهم لإبرام معاهدة على أساس المساواة في التسهيلات والحقوق^(٢٣).

إن هذه الخطوط ليست إلا الصورة العامة للوضع، وهي ولا شك لا تغني عن مزيد من الإيضاح:

كانت المفاوضات جارية بين ألمانيا وتركيا في الآستانة، قبل نشوب الحرب، لكنها كانت اقتصادية الصفة، فلما تردت الحالة الدولية بعد منتصف تموز ١٩١٤، إثر حادثة سيواسيفو، انقلبت من اقتصادية إلى عسكرية بدافع الخوف من روسيا، وإحباطاً لنهايتها العلوانية، لاعتقاد الترك بأنها كانت تتحيز للقضاء على وجود تركيا^(٢٤). ففي ٢٢ تموز — وبعد الحصول من السلطان على لإرادة سنية تحول المصدر الأعظم عقد معاهدة دفاعية مع ألمانيا^(٢٥) — توصل أنور باشا، وهو الذي كان يعتقد لاعتقاداً جازماً بحتمية ظفر الألمان على خصومهم في الحرب المحتملة الوقوع، ويحلم بمساعدتهم ودعمهم له في استرداد البلاد التي سلخت عن تركيا^(٢٦)، إلى التفاهم مع البارون فون

P. LÖT, La Moet de Notre Chère Franco en Orient, pp. 133-134 A.I. Seale, *ibid.*, I, p. 34. (٢١)

مذكرات جمال باشا، ص ١٧١. (٢٢)

مذكرات جمال باشا، ص ١٨٣، ١٩٣، ١٩٥، موزع، المصدر السابق ص ١٧. (٢٣)

A. BERN, Turkey and the War, pp. 68-69; Harnwitz, *Diplomacy in the Near and the Middle East*, (٢٤)

II, doc. I, p. I.

A.B. KURAN, *ibid.*, p. 631. (٢٥)

Allgemein, *ibid.*, p. 297. (٢٦)

فانجنهايم^١، سفير ألمانيا في الآستانة، على عقد معاهدة دفاعية سرية بين الدولتين ضد روسيا، وقعت فعلاً في ٢ آب ١٩١٤، وهي تتألف من ثماني مواد أهمها الأربع الأولى^(٢):

مادة ١ - ستعهد الدولتان بالتوقف على الجهاد تجاه الخلاف الناشب حالياً بين روسيا - المجر وصربيا.

مادة ٢ - في حالة تدخل روسيا في الحرب تدخلاً عسكرياً، تضطر معه ألمانيا أن تنفي بعهداتها التي قطعتها للنمسا، ويكون على تركيا أن تلتزم هي أيضاً بهذه التعهدات وتفي بها.

مادة ٣ - في حالة نشوب الحرب يثقي ألمانيا بعثتها العسكرية في تركيا، وتؤمن هذه للبعثة الألمانية إمكانية اضطلاعها الفعلي بالقيادة العليا للجيش.

مادة ٤ - ستعهد ألمانيا بالمحافظة على أراضي الدولة العثمانية ضد أي اعتداء يقع عليها من قبل روسيا.

لم تكن هذه المعاهدة سوى غل وضعه الألمان في حق المسؤولين الأتراك، ويلاحظ عليها:

١ - أنها عقدت بصورة سرية، وقد أخفي أنور أمرها حتى عن هيئة أركان حربه، ولم يوقع عليها سوى فانجنهايم^٣ عن الجانب الألماني، والعميد الأعظم سعيد حليم باشا، وأنور وطلعت وخليل متشه، رئيس مجلس المبعوثان عن الجانب التركي، ولم يعلم بخبرها جمال وجاويد من الوزراء إلا بعد أن تم توقيعها، وأصبحت أمراً واقعاً^(٤).

٢ - لم تجر بشأنها استشارة أي ممثل سياسي تركي في أية دولة من دول أوروبا ذات العلاقة، حتى ولا سفير تركيا في برلين^(٥)، ولا أي وزير من الوزراء الذين يحتمل أن يمتنعوا على عقدها. واقضى الأمر أن يلتزموا بالاعتراف بها كأمر واقع، وذلك خوفاً من إفشاء سرها، لعدم المسؤولين أن معظم السفراء وكبار الموظفين متزوجون من أجنبيات، وكثيراً ما كانت الأوامر السياسية تنسرب إلى الحلقاء^(٦). وقد وصف أحد الساسة الأجانب هذه المعاهدة بقوله: إنها السر الوحيد الذي كُتم في الباب العالي^(٧).

A.B. KURAN, Ibid. p. 651; Harewitz, Ibid. II, N°1, 2-4-914. (٢٧)

Général Duffour, Hist. de la Guerre Mondiale, p. 412, T. I

Kasım Karabekir: Çitab Harbinin Nedeni Oñdik, Nasil Oñdik nasil idare Edik, Kurup 10, Istanbul 1934, p. 69-70.

A.B. KURAN, Ibid. p. 652, A.H. Sabit, Ibid. I, pp. 78-79. (٢٨)

G. Vardar, Tarih ve Terakki Enstitüsü Dönentir, p. 272.

A.B. KURAN, Ibid. p. 645; Bayur, Ibid. V, III, T. I, p. 69. (٢٩)

A.I. SAMI, Ibid. I, p. 81. (٣٠)

(٣١) علي قزاق، المصدر السابق، ص ١٣.

٣ — إن الحكومة قد لجأت إلى وقف الدورة الاستثنائية لمجلس الميخوتان في اليوم الذي وقعت فيه وصرفت ثوابه، في حين أن الظروف الطارئة كانت تحتم دوام اجتماعه، ولم تأبه للمعارضة التي قامت ضدها في مجلسي الأعيان والميخوتان عند أول انعقاد لهما^(٣١).

٤ — إن أنور باشا والوزير الأتالي هما اللذان وضعوا مسودتها، وفرضت على المجتمعين دون إعطاء أية أهمية لمطالباتهم، ووجهة نظرهم. ولم يجبا لدراستها الفرصة الوافة، فجاءت مليعة بالتواضع فكان من شأنها أن تعطي للألمان من إمكانية السيطرة على الأتراك ما جعل هؤلاء كالدمى في أيديهم^(٣٢).

٥ — إن المعاهدة، كما يتضح من نصوصها، كانت مهيأة قبل اندلاع الحرب، وجاء توقيعها في اليوم الثاني من إعلانها على روسيا من قبل ألمانيا^(٣٣).

قال جمال باشا في مذكراته «بعد أن أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في أول آب وجدنا أنفسنا ملزمين، بحكم المعاهدة التي لم يحف مدادها بعد، على دخول المعركة في الحال، لأن المصلحة حتمت اشتراكنا بها مهما كانت أسباب الحرب»^(٣٤).

لقد أعلنت تركيا الجهاد بناء على المادة الأولى من المعاهدة، ولم يكن عليها هذا سوى وسيلة لكسب الوقت الضروري لإنهاء استعداداتها الحربية. فقد كان عليها أن تم تبنيها العامة، وأن تجمع وحدات جيشها في آسيا الصغرى، وأن تجهز السفينتين واليوسفور في مأمن من الاعتداء. وبانظار هذه النتيجة كان من مصلحة الباب العالي أن يستمر اتصاله مع مثل الحلفاء، أو كما قال جمال باشا «الدخول معهم في مفاوضات لكي نحدد شكوكهم حول محالفتنا لألمانيا»^(٣٥). وهكذا جرى اتصال مع السفير الإنكليزي في الأستانة السيد «لويس مالت»، دار خلاله البحث حول حياد الدولة العثمانية، وشروط هذه لاتخاذ هذا الموقف، فوضعت الوزارة التركية شروطها للانضمام إلى الحلفاء، وكانت كما يلي: «إلغاء الامتيازات الأجنبية، إعادة الجزائر الإحدى عشرة التي اغتصبها اليونان من تركيا، حل المسألة المصرية، تأكيد من روسيا بأن لا تتدخل في شؤون تركيا الداخلية،

A. B. KURAN, Ibid, p. 645; Bayur, Ibid, I, p. 63. (٣١)

A. I. SAADIS, Ibid, Ibid, I, p. 90. (٣٢)

(٣٣) جاء في تصريح للصدر الأعظم بأن سفير ألمانيا حاول إغراء الأتراك حينما كتب عليهم خبر إعلان ألمانيا الحرب على روسيا مساء اليوم السابق لتوقيع المعاهدة (Bayur, Ibid, I, p. 148).

(٣٤) مذكرات جمال باشا، ص ١٩٨—١٩٩.

P. RENOUVIN, La Grèce Européenne et La Grande Guerre, p. 225. (٣٥)

ومساعدة إنكلترا وفرنسا الفعلية لتركيا فيما إذا هاجمتها روسيا^(٣٦). فكان جواب إنكلترا بإمكان البحث في إدخال تغييرات معينة على الامتيازات المالية فقط، وإذا وافق حلفاء إنكلترا على ذلك، مع لرجاء مسألتى الجزائر ومصر إلى ما بعد انتهاء الحرب. وأما عن اعتداء روسيا فإن هذه لا تفكر مطلقاً في مهاجمة تركيا، فضلاً عن أن فرنسا وإنكلترا هما من الدول التي ضمنت سلامة تركيا. وفي مقابل ذلك طلب إلى تركيا عدم إغلاق المضائق في وجه السفن الروسية لأي سبب كان، مع إعطائها التأكيدات اللازمة بهذا الشأن، وإعادة البعثة الإصلاحية العسكرية والبحارة الألمان إلى بلادهم^(٣٧). فلم يكن من الأثر إلى الرفض.

كان ذلك أمراً طبعياً، إذ الحقيقة أن تفاوضهم على أساس الحياض لم يكن إلا تمهيداً، لأنهم كانوا يميلون إلى دخول الحرب، ويرون أن دخولها هو الوسيلة الوحيدة لتفطع الطريق أمام المطامع الروسية، ولكن في أي جانب يدخلون؟ فإن هذا سؤال يتطلب الإحاطة ببعض جوانبه. فحين إذا وثقنا بقول جمال باشا في مذكراته — برغم ما جاء في المعاهدة مع ألمانيا من انحياز إليها — يتضح لنا ترددهم بين المعسكرين واختصار لم يبق أماناً — كما يقول جمال — سوى طريقتين: إما أن تحالف مع فرنسا وإنكلترا، فتعلن الحرب على دولتي الوسط، وهذه الوسيلة تنفي مهاجمة روسيا لنا، وإما أن ننضم إلى دولتي الوسط، وساعد على تحطيم روسيا^(٣٨). لكن الدلائل تجميع على شدة ميلهم لدخول الحرب بجانب المعسكر الألماني، إذ عللوا أنفسهم بأن يروا عدوتهم روسيا محطمة مدحورة أمام حليقتهم القوية، بدلاً من أن تخرج مع حلفائها طاقرة في الحرب، فتفتح المضائق والآستانة، وتحتلها فيما لو التزموا جانب الحياض، وتركوا المضائق مفتوحة أمام سفنها الحربية^(٣٩).

باختصار كان الترك يمشون، إذا التزموا الحياض، أن يتفق الفريقان ويحدد الصلح فجأة في أثناء الحرب على حساب تركيا ومن وراء ظهرها. هذا من جهة ومن جهة أخرى كان لابد للحياض من قوة تصونه وتجعل الآخرين يحترمونه، ولا بد للدولة المحايدة من أن تطعن إلى أن الفريق المنتصر لا يتحكم فيها بعد التغلب على عدوه. لذلك كان عليهم أن يتسللوا عمداً يستطيعون أن يفعلوه أم لا. بريطانيا وفرنسا وروسيا منتصرات، أو أمام ألمانيا منتصرة، فلا بد لهم إذاً أن يختاروا بين أمرين: إما

(٣٦) مذكرات جمال باشا، ص ٢١٢.

(٣٧) Cemal Pasha, Hatıralar, p. 139.

(٣٨) مذكرات جمال باشا، ص ٢١٧.

(٣٩) مذكرات جمال باشا، ص ٢١٦-٢١٧-٢١٢-٢١٣. Halide Baki, Ibid.

للحرب، وهذه محاذيره، أو المخامرة بدخول الحرب. علماً بأن انكساراً وحليفتها كانت ترفض التحالف مع تركيا أو غيرها من الدول الإسلامية، أو قبول مساعدتها في الحرب الفائرة، حتى لا تقوت عليها فرصة اقتسام أراضيها التي كان لها طمع فيها^(١٠).

لم يكتف الأتراك بالانحياز مع الانكليز، بل حاولتهم المساومة، بل جرى اتصال آخر بين أنور باشا والملحق العسكري الروسي في الآستانة، الجنرال ليونيف في ٥ آب، أكد الأول خلالها للملحق الروسي أن الغاية من التعبئة العامة، التي قامت بها دولته، ليست موجهة ضد روسيا، وإنما مستعدة لسحب قسم من جيوشها من حدود قفقاسيا الروسية، وأن تركيا ليست، في الوقت الحاضر، مرتبطة بأية دولة من الدول^(١١)، وأنه إذا أرادت روسيا مصالحة دول اليلقان بعضها مع بعض، ومع تركيا على أساس التعويض المتقابل، فإن الجيش التركي على استعداد لمساعدة دول اليلقان ضد الدولة النمساوية. ولما سأله الملحق العسكري: ما عسى أن تكون ماهية هذه التعويضات أجاب أنور: «أن يكون لتركيا جزائر بحر إيجة مع نواحيها الغربية، وطيونان أبروس، ولبلغار مكدونيا، أو قسم منها، وللصرب البوسنة والهرسك». ولما أظهر الجنرال ليونيف شكه في لادلية تطبيق هذا الحل، أجاب أنور بإمكانية تطبيقه في نظر الأتراك، وأنه من شأنه أن يحوز رضى الحكومة التركية.

وفي مقابلة ثانية عندما جلت الملحق العسكري نظر أنور باشا إلى بقاء الضباط الأتراك في أوساط الجيش التركي، وبين له دعوته من هذا الأمر، أجاب إنه لم يحتفظ هؤلاء الأتراك بإرادته، غير أنه لم ير لزماً لإعادتهم إلى بلدانهم، قبل انجلاء الموقف السياسي، وأن إقصاءهم في وقت تقرر فيه قيام التعبئة العامة ليس في مصلحة الجيش التركي. غير أنه إذا تراءى لأحد أن ألمانيا تريد إبقاء هؤلاء الضباط في تركيا لاستمالة الدولة العثمانية إلى صفها، فإنها سوف لا تصل إلى غايتها هذه، لأن تركيا لا تصرف إلا بما يؤمن لها متعتها الخاصة. فإذا ما تسنى لها أن تصل إلى تفاهم مع روسيا، بحيث تصبح الدولتان بدأ واحدة، عندئذ تستطيع تركيا أن تقول هؤلاء الضباط، «إنكم أعدائنا فاعرجوا من أراضينا»^(١٢).

وتوالى الاتصالات بين الملحق الروسي وأنور باشا، وبقى الأخير مصراً على شروطه السابقة

(١٠) نوريوب سولود، حاضر العالم الإسلامي، من ملحق الأكر شكوب أرسلان، ج ١، ص ٣٢٩، محمد شفيق خيال، المعامل الخليفة في بلاد الأمة العربية، ص ٩٤.

(١١) P. RENOUIN, Ibid. p. 229

(١٢) (تقلاً عن الوثائق الدبلوماسية السرية الروسية) BAYUR, Ibid. I, pp. 133-134

لقاء عقد معاهدة صديقة وتحالف بين الدولتين لمدة ٥ - ١٠ سنوات، فغرسل سفير روسيا برفقات متتالية إلى حكومته، مؤكداً أن أنور هو المسؤول الوحيد عن مقدرات تركيا، لأنه هو المسيطر على الجيش، وهو لا يخشى معاداة ألمانيا باختيار أنها ليست متحالفة لأرضي دولته، وأن تركيا لم تعقد حتى الآن أية معاهدة مع ألمانيا^(٤٢)، وأن الفرصة هي الآن أكثر مواتمة من أي وقت آخر للاتفاق مع تركيا على الأسس التي نطلبها. لكن الجواب الذي تلقاه السفير الروسي De Giers من وزير خارجيته Sazonof بتاريخ ١٠ آب كان محيياً للآمال. إذ يوصي سفيو بوجوب مداورة وزير الخارجية التركي لجرد اكتساب الوقت، وأن ينبغي على حسن الصلات معه في حين يحرص على إقناعه أنه إذا قامت حكومته بأعمال لا تحوز رضی الروس فإنها بذلك قد تجلب الدمار لآسيا الصغرى. كما جاء في البقية الجوابية أن روسيا مرتبطة مع إنكلترا وفرنسا، وأنها وإياهما تملك مقدرات هذه المنطقة، بينما الأتراك لا يستطيعون أن يثأروا الروس بأي أذى^(٤٣). والواقع أن روسيا لم تكن تهرب المضاهمة مع الأتراك، لأنها كانت تخشى وقوف تركيا على الحياد، أو الانضمام إلى الحلفاء، وفي هذه الحالة منتهطر إلى عدم التدخل في شؤونها، تحت ضغط إنكلترا وفرنسا، مما يضطرها إلى صرف النظر عن امتلاك الآستانة والمضائق^(٤٤). فلقد جاء في تقرير سري قدمه وزير خارجية روسيا إلى القيصر قوله «إن الاستيلاء على المضائق منوط بإمكان نشوب حرب ملائمة. إن العمل على خلق هذه الحرب هو الغاية التي تسعى وزارة الخارجية إلى تحقيقها». كما جاء في تصريح للسفير De Giers لوزير روسيا في الآستانة في أثناء اجتماع الدبلوماسيين الروس قوله «ينبغي أن تدخل تركيا الحرب ضدنا. هذا أمر ضروري بالنسبة إلينا»^(٤٥).

أما الدول الأخرى فقد كانت سياستها تقضي بمساواة المطامع الروسية، فإذا عدنا إلى أحداث ما قبل توقيع المعاهدة، عرفنا أن جمال باشا حينما فاتح الفرنسيين بأمر التقارب بين تركيا الفتاة وفرنسا وعدّها وعداً ملائماً بقوله: «إذا ضمنت فرنسا سلامة تركيا وأمانها من مطامع الروس فستكون تركيا قريبة منها» أجابته وزارة الخارجية الفرنسية بأن فرنسا لا تدخل في عهد كهذا، ما لم تصارح حليفها روسيا به وتجاهها راضية عنه^(٤٦).

(٤٢) BAYUR, 1966, p. 137.

(٤٤) Ibid, p. 135.

(٤٥) مجلة الحرب العظمى، ج ٤، ص ٣٦.

(٤٦) JACQUES KAYSER, L'Europe et La Turquie Nouvelle, pp. 17-19.

(٤٧) علي فزاة، المصدر السابق، ص ١٤ - ١٢.

في هذه الأثناء بالملات (١١ آب) اجتاز المطرودان الألمان «غوبن» و «برسلاو» المضائق فأدّى ذلك إلى تطور الأحداث تطوراً إلى اشتراك تركيا في الحرب. وقد لعب أنور في الأحداث دوراً جعل منه المحرك الأول لتطورات الجبهة. وانتصر الاتجاه النابدي بالحرب في تركيا على الاتجاهات الأخرى، وكان ثمة ثلاثة اتجاهات بصورة عامة:

الأول: ويضم أنور وطلعت وعلملي بك، والجماعات التي تؤمن بأفكار أنور ووجهة نظره بأن الحرب سيكسبها الألمان بسرعة، ما في ذلك شك، وهؤلاء ميالون إلى ألمانيا.

الثاني: ويضم جاهد بك وزير المالية، وسليمان الهستاني وزير التجارة والزراعة، وثلاثة من هيئة أركان حرب أنور باشا، وهم كاظم قره بكير، وحافظ حققي، وعلي إسمان سايس، وغيرهم. وكانت هذه الفئة ترى أنه إذا لم يتبلور وضع التجارئين تبلوراً واضحاً، وما لم تم الدولة استعداداتها الحربية، وتتدارك النقص الهائل في تسليحها وتجهيزاتها العسكرية، فينبغي الإحجام عن دخول الحرب، وأنه من الضروري أن يركز وضع الدولة المالي قبل كل شيء. وكان ألبينس سعيد حلیم متردداً بين الاتجاه الأول والثاني، ولكنه كان أكثر ميلاً إلى الثاني، وكذلك جمال باشا في بادئ الأمر، لكنه مال بعدئذ إلى الاتجاه الأول، قبل بضعة أسابيع من دخول تركيا الحرب.

الثالث: ويضم القائلون بوجوب المحافظة على الحياد المطلق، وعدم الدخول بوجه من الوجوه في الحرب، وكان على رأس هذه الفئة الزهراء جوروك صولي محمود باشا وزير الأشغال العامة، وأوسكان أفندي وزير البرق والبريد^(١٨).

كان السلطان محمد الخامس تصوراً للحياد، وممانعاً لدخول الحرب، لكنه كان كالدمية في أيدي أنور والخطرفين من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، التي رفعتة إلى سدة السلطة. كما كان ولي العهد ألبينس يوسف عز الدين (ابن السلطان عبد العزيز)، من رأي السلطان. وكان أنور والاتحاديون يمشون بأسسه، لذلك بدؤوا يعملون على خلعهم من ولاية العهد، وبمحاولة الدسائس حوله، حتى أدى الأمر به إلى الانتحار بعد عام واحد تقريباً من بداية الحرب.

أما الصدر الأعظم سعيد حلیم باشا فقد كان، علاوة على رغبته في الحياد، من المياليين إلى إنكلترا. وكان كثير الدفء عن الحياد والسلم في مجلس الوزراء، ويعطي حول المعاهدة التركية — الألمانية تفسيرات، منها أن الجانب التركي ليس ملزماً بالتقيد بتوصياتها، لأنها

— حسب فتايعه — قد عقدت لاجتماعات للاحقة، قد لحصل في المستقبل، وأن السغير «فانجتهام» قد مدح الجانب التركي بأن كتم عنه خبر إعلان ألمانيا الحرب على روسيا، في مساء اليوم السابق لمبدأ للماهدة، لذلك فإن باستطاعة الأتراك أن يتصلوا من تنفيذ موادها^(٤٩).

وعنالك من الوزراء من كان يؤيد فرنسا، كجنايد بك وزير المالية، وجمال باشا الذي كان قد ألف جمعية المصادقة التركية — الفرنسية، وأصبح رئيساً لها، وذهب قبيل الحرب إلى فرنسا للاتفاق معها على قرض تقدمه للدولة العثمانية، والبحث في مسألة جزائر بحر إيجه وضرورة إعادتها إلى تركيا، لكنه عاد عن تأييده لفرنسا والحلفاء، بعد عودته إلى الأستانة وقضته في مهنته^(٥٠). كما كان ثمة وزراء مثليون مترددون بين الميل لألمانيا أو لدول الحلفاء، والميل للحرب أو الحياد، وبصورة عامة كان نصف أعضاء الحكومة تقريباً من المخالفين لرأي أنور في دخول الحرب مع ألمانيا مخالفة تامة وحاسمة^(٥١). وكان له معارضون في هيئة أركان حربه أنفسهم (كأظم قره بكير ورفاقه)، لكنه تمكن في النهاية من السيطرة على معارضيه سواء بالعرف أو الإغتراف أو الإبعاد إلى قطعات الحدود، وكان المركز العام لجمعية الاتحاد والترقي مسنداً له، ولقي من مستشاره الضابط الكبير محمود كامل باشا الداهية عوناً كبيراً على ذلك^(٥٢).

دخول الطرادين «غوبن» و «برسلاو»

على أن دخول الطرادين «غوبن» و «برسلاو» المياه التركية، بأمر لانسلكي من الأدميرالية الألمانية، بعد الاتفاق على ذلك مع السلطات التركية إتفاذاً لها من المطاردة^(٥٣)، قد ساعد أنور على الانتصار ضد أنصار السلم مساعدة كبيرة.

كان للطرادان «غوبن» و «برسلاو» من أسرع قطع الأسطول الألماني. ولم يكن بإمكانهما في هذه السرعة سوى ثلاث قطع من الأسطول الإنكليزي. ولذا فإن اقتحامهما لمياه البحر الأبيض المتوسط قد أحدث ذعراً شديداً في أوساط الأدميرالية الإنكليزية، الأمر الذي حداً بالمستر تشرشل

RAYUR, Ibid. p. 148, V. I. (٤٩)

Ibid. I, pp. 196-197. (٥٠)

Ibid. I, pp. 194-195. (٥١)

A.L. SARIS, Ibid. I, p. 48. (٥٢)

(٥٣) مجلة الحرب للمظفر، ج ٦، ص ٢٩.

إلى إعطاء لمعان سريع إلى أمورية أسطوله في البحر المتوسط بوجوب مطاردتهما حتى قبل نشوب الحرب ، وذلك خوفاً من أن يعمداً — فور نشوبها والذي كان يبدو وشيكاً — إلى تدمير القطعات البحرية الفرنسية ، أو إلى إغراق القطعات الناقلة للمجنود واحدة بعد أخرى^(٥٤) . وقد استمرت المطاردة أكثر من أسبوعين أرغم الطرادان بهما إلى الحرب واللجوء إلى المضائق التركية .

لقد فرح أنور بدخول الطرادين فرحاً شديداً ، ثم عنه دخوله مجلس الوزراء الذي كان في حالة الانعقاد ، وإمارات البشر والاحتياط باحثة على مجيء ، وإعلانه الخبر لزملائه بقوله وأبشركم لقد رزقنا ولدَيْن^(٥٥) . وقد ثبت أنه هو الذي وافق على دخولهما ، عندما طُلب منه السماح بذلك ، فسمح به فوراً دون الرجوع إلى رأي السلطان ، أو الصدر الأعظم ، أو مجلس الوزراء^(٥٦) ، متجاهلاً ما جاء في معاهدة لندن (١٨٧٦) من اعتراف تركيا بوجوب حظر مرور السفن الحربية الأجنبية في الدردنيل في أثناء الحرب ، لأنه كما قال : ليس من اللياقة رفض طلب دولة لنا اتفاق معها^(٥٧) .

ويظهر أنه قد وقع تحت ضغط شديد من الجنرال الألماني وقون كريس الذي لم يترك له حتى مجال عرض الأمر على الصدر الأعظم^(٥٨) .

كان دخول الميارجين الألمانين ، إلى المياه التركية ، وقبول تركيا لهما بمثابة التصويض عن البارجين للوصى عليهما في مصانع إنكلترا ، أو هكذا اعتبره الأتراك^(٥٩) . أما موقف الحلفاء من هذه المبادرة فقد كان شديد السخط والاستنكار ، إذ يادر سفيرا إنكلترا وفرنسا إلى تقديم احتجاجهما إلى الصدر الأعظم ، ذلك أنه كان من واجب الدولة العثمانية ، وفقاً للقوانين الدولية ، باعتبارها قد أصلحت الحياد ، أولاً : إما أن تحول دون دخول الطرادين المياه التركية ، أو إذا لم تستطع ذلك أن توعد إليهما بمغادرة المياه التركية خلال ٢٤ / ساعة . ثانياً : أو أن تنزع سلاحهما وتحجزهما في أحد الموانئ^(٦٠) . لكنهما لم تلجأ إلى الحل الأول ، لأنها كانت قد أصبحت حليفة لألمانيا منذ

(٥٤) WINSTON CHURCHILL, Ibid. pp. 202-203; WİHY SPERCO, Mouetapha Kémal Atatürk, p.25. (٥٤)

A.B. KURAN, Ibid. p. 641. (٥٥)

İSMAIL HAMİ DANİSMANLI, İnkılâp Osmanlı Tarih, p. 413. (٥٦)

(٥٧) مجلة الحرب العظمى ، ج ٤ ، ص ١٧ ، مجلة الحرب العالمية الأولى ، ج ٥ ، ص ٢ .

DAGOBERT VON MÜLLER, Mouetapha Kémal, p. 130-131. (٥٨)

JACQUES KAYSER, Ibid. p. 20. (٥٩)

(٦٠) الفيلفيل والفيلفيل ، تاريخ الحرب العظمى ، ج ٥ ، ص ٤٠٥ ، لطفى سبازي ، سلطان محمد رشاد خاتك وحلفاء صليبه كورد كليم ، ص ١٠٥ .

١٩١٤/٨/٢، فإذا ما فعلت ذلك وقع الطرادان غرسة للأسطول الإنكليزي. أما بشأن الحل الثاني، فقد اتصلت بالسفير الألماني وحاولت إقناعه بترع سلاحهما ظاهرياً. ولما لم يقبل جرى الاتفاق على حل وسط هو أن تعلن تركيا شراءها بموافقة ألمانيا المصنوعة، بشرط أن يمين أمير البحر الألماني سوشون في خدمة الحكومة العثمانية، وأن يمنح لقب قائد عام للأسطول الشلهانز، وهكذا كان^(١١٠). وأطلق على أحدهما اسم «هاوز» وعلى الثاني «ميدبلي» وتحمل الأميرال ونوبته على ارتداء البرزة العسكرية العثمانية والظربوش، مع وجوب رفع العلم العثماني عليهما^(١١١) فلم يرفع إلا على أحدهما لمدة وجيزة.

على أثر ذلك أبلغ الصدر الأعظم السفير الإنكليزي في الآستانة أن هذا الإجراء قد اتخذ بناء على حيزر الحكومة الإنكليزية للدارعيتين التركيتين، وأنه لا غنى لتركيا عما يعرض عنها لتسليم بهما اليونان في مسألة الجزائر المختلف عليها معها، وتكون وإيلاها على مستوى واحد في القوة البحرية، وأن حكومته لا تريد بشرائهما بحماية روسيا. لكنه في الوقت نفسه أبدى رغبته في بقاء البعثة الإنكليزية في الأسطول العثماني، فكان جواب إنكلترا أن بقاء الوفد المذكور مرهون بإعادة نوبة الطرادين الألمانين إلى بلدتهم^(١١٢). ولكن بدلاً من أن تعتمد الدولة العثمانية على إعدادهم عملت، بوسائل التضييق والحيل الباردة، إلى التخلص من الأميرال «لمبوس» رئيس البعثة البحرية الإنكليزية وسائر أعضاء البعثة^(١١٣).

مع ذلك ثابر الصدر الأعظم، الميال للإنكليز، على تظلمين دول الائتلاف بهزم حكومته على التزام الحياد، مبيهاً أنها مضطرة إلى إبقاء بعض السفين الألمان في الطرادين لعدم قدرة العثمانيين على إدارة شؤونهما، في حين كان الجيش قد عصى، وقام الاستعداد للحرب على قدم وساق. ومن جهة أخرى تجمعت أساطيل الحلفاء أمام مدخل المضائق وضرب عليها الحصار الشديد^(١١٤). وفي الوقت نفسه كانت المفاوضات لا تزال جارية مع المصادر الأعظم على أساس التعهدات التي تقدمها دول الحلفاء إلى الدولة العثمانية، والتي كان الأتراك يظليون أن تقدم من كل دولة على حدة أولاً، ومن

(١١١) مذكرات جمال باشا، ص ٢٠٩ - ٢٠٧.

(١١٢) A.L. SABIS, Ibid. pp. 161-162 Karim Kara Bekir Ibid. II, p. 312. (١١٣) انظر ج ٦ ص ٨٦.

(١١٤) المنتظم والمقطم، تاريخ الحرب العظمى، ج ٥، ص ١٤٠. ساري ملزمتريك، المصدر السابق ص ١٢٥.

(١١٥) مذكرات جمال باشا، ص ٢١٠.

(١١٦) P. RENOUVIN, Ibid. p. 228. المنتظم والمقطم، تاريخ الحرب العظمى ج ٥، ص ١٠٦.

الدول المذكورة مجتمعة ثانياً، ولم يرضوا أن تكون مقتصرة على حفظ كيان الدولة وسلامة أراضيها فحسب، فيها إذا لزمتم تركيا الحياض، هذا الذي لم تشأ دول الخلفاء أن تنعدها إلى غيرة، بل كانت غاية الأتراك أن تحجب جميع مطالبهم التي مر ذكرها على لسان جمال وأنور^(٦٦).

نجاح الحروب

وكلما مرث الأهم كان أمل السلم يتبدد، وشبح الحرب يقترب. وقد ساعد على رواج فكرة الحرب إلى جانب ألمانيا لتخصس أنور لها حماسة عجيبة، تلك الحماسة التي لم تخل من رغبة في كسب الشهرة، وكان مغروراً بنفسه، تزوج من إحدى أميرات البيت المالكي، واعتبر صهرًا للسلطان، فعاش في أبهة ورفاهية في قصر يطل على البوسفور، وأصبح يحلم بمشاريع عظيمة: أن يوحد المسلمين جميعاً تحت زعامة السلطان (الخليفة)، وأن يجمع كل الشعوب الناطقة باللغة التركية حول تركيا الأم. كما يعتقد أنه رسول هذه الأمة لإحياء أجداد الإمبراطورية العثمانية، وأن العناية الإلهية نكلتوه^(٦٧). والمعروف عنه أنه كان عظيم الجراءة، وكثيراً ما كان ينشئ بنابليون الذي كانت صورته وصورة فريدريك الكبير مطلقين في مكان يارز بمنزله^(٦٨). وكان رفاقه يلقبونه باسم نابليون الصغير (نابوليونك)، كما كان الضباط الصغار ينظرون إليه نظرة ملؤها التقدير والاحترام، أو كما لو كان هو المنقذ الموعود للوطن، لما يعتقدونه من شدة إخلاصه لبلاده وشجاعته ووطنية العالية^(٦٩).

كان أنور هو الرجل الذي يستطيع، أكثر من غيره، أن يفرض إرادته على جميع زملائه^(٧٠)، بعد أن يسعثر على الموقف بأفصاء معارضيه من كبار الضباط الذين نادوا بعدم كفاية استعداد الدولة للحرب، وإرساله الدعاء وبعض نواب مجلس المبعوثان إلى الولايات للتبشير بفكرة الحرب — مزوداً لهاهم بمقادير كبيرة من الذهب الأتالي — وإعلامه عن كل معارضة تلاقيا هذه الفكرة

(٦٦) BAYUR, Ibid. p. 199.

(٦٧) هـ. كوسمنغ، توكما ناصل توقدي، ص ٢٢.

(٦٨) هـ. كوسمنغ، الذئب الأكبر مصطفى كمال، ص ١٥، على قواد، المصدر السابق، ص ٢٦ هـ. مورخو المصدر السابق، ص ١٨.

(٦٩) SEINOBIOS, Tures et Tarquie, pp. 41-44.

(٧٠) A. EMİN, Ibid. pp. 68-69.

ليحصل على قمعها^(٧١)، علاوة على أن أكتفيتها ضباط الجيش، وبخاصة منهم أولئك الثيانيون الذين تسلموا القيادات العليا، كانوا متحرقين للانتقام والثأر لهزيمة البلقان، وبتريقون الفرصة كي يغسلوا هذا العار. كما كان أنور، حينها يتحدث عن الانتقام من البلقانيين والصربيين والمليونان والجبل الأسود، فتلكه ثورة من الحماسة فحمر عيناه وتبدوان كأن الشرر يظهر منهما، ويقول إنه على استعداد لاحتحام جميع الصعاب في هذا السبيل^(٧٢).

عند ذلك كانت الميول التوسعية قوية بين المهاجرين من مكدونيا التي احتلها البلغاريون، فقد كانت نسبة كبيرة من زعماء جمعية الاتحاد والترقي، ومن الضباط قد عاشوا سابقاً في هذه المنطقة، كما كان كثيرون منهم يملكون أراضي ويمتلكات في أجزاء تركيا السليية، التي يودون عودتها إلى الوطن الأم، وعلى هذا لم تخل فكرة الدخول في الحرب من دافع شخصي مستتر في اللاشعور^(٧٣).

لم تقتصر الميول التوسعية على الأراضي السليية، فقد أدت سيطرة القوميين على وسائل النشر والإعلام، وترويج فكرة الوطن الطوراني الكبير، وتغديسها إلى الانسلاف مع الأوهام في جمع العناصر الطوراني، أنها كانت أراضي، في ملكة واحدة، تضم هذه الأراضي بعضها إلى بعض بقوة السلاح والحرب. كان هؤلاء القوميون — ومعظمهم من المهاجرين الروس — يمشرون بأن الوطن الطوراني يمتد إلى ما وراء جبال ألپ (Altai) وتقاسيا والقوقاز والقرم وأوزبكستان وتركستان... الخ، بحيث يجب أن يشكل إمبراطورية طورانية واسعة الأرجاء يترغ عليها فجر يوم جديد من القوة والمنعة والعظمة والشباب^(٧٤)، وأنه لا ينتهي قط، ولا في حال من الأحوال، عند الحدود الحالية للسلطنة العثمانية^(٧٥)، وأن الجنس الطوراني إنما هو الجنس الذي سيؤد العالم قابضة سيادة كاملة دون منازع، وأن ذلك لن يكون إلا بانتصار الإمبراطورية الروسية. ولا بد للوصول إلى هذه الغاية من الاستعانة بأعدائها في هذه الحرب^(٧٦).

كان زعيم هؤلاء «ضيا كوك آلب» من أشد الناس غمساً لهذه الأفكار، فلقد صنف رطل

(٧١) A. I. SABIS, *Ibid.* I, pp. 143-145.

(٧٢) H. BERTURK, *Ibid.* p. 121; HALIDE, *Ibid.* p. 112.

(٧٣) A. EMIN, *Ibid.* p. 64، هـ. أرسنوف: لوزكا نامل جوغدي، ص ٩٢.

(٧٤) DAGOBERT VON MUKUCH, *Ibid.* p. 132.

(٧٥) H. BERTURK, *Ibid.* p. 251.

(٧٦) ليروب ستودلر: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٥-١١٦.

للحرب العالمية بكل صدق وإخلاص. كانت الحرب بالنسبة إليه أن يسيطر جو من الحماسة ملائم تمام للملازمة لنشر الأفكار القومية بحيث يتحقق فيه حلم الجامعة التركية الطورانية^(٧٧). وقد تناقض عن ضرور الحرب والمقاسد والأخطار التي ارتكبتها الزعماء اللذين قاموا بإعلانها، ولم يمكن زميله أحمد آغا أوزغل (آغايف) أقل منه حماسة في هذا المجال.

فتح «كوك ألب»، خلال الحرب، نفوذ عظيم، إذ أفسح له الزعماء المسؤولون مجالاً لم يصبح «الكتاتور الفكري» Intellectual Dictator، لتلك الفترة. وكانوا يقبلون نظرياته التي كانت تأخذ شكل عقائد فلسفية. وكان يساعد على رواج أفكاره أنه كان زعيماً قومياً، ورجلاً بارزاً من رجال جمعية الاتحاد والترقي، ومن ذوي التأثير العظيم فيهم^(٧٨).

كما بللت المساعي لإعداد الأفكار العامة للحرب، وجندت الصحافة للقيام بالدعاية، وترويج فكرة الاشتراك فيها، وأدخل في روع الجمهور أن النصر الألماني في الحرب العائرة لا يهب فيه، وأنها تستطيع أن تسحق الجيش الفرنسي في ستة أسابيع فقط، وأن الأتراك لا يستطيعون اجتناب خطر تهديد روسيا للدائم لم إلا بالتزام جانب أعدائها. وأمسّت الصحف التركية في العاصمة ألبنة ألمانية بلا استثناء، فضحكت كل نصر حقيقي أو خيالي تسب إلى ألمانيا والنمسا، وهونت من شأن كل عدلان ناهما، وجعلت المؤسسة التفرغرافية العثمانية الشبهة بالرسمة، وهي من دوائر وزارة الداخلية، وفقاً لمروحي القضية الألمانية، وفرضت الرقابة الشديدة على الصحف، ومنعت كل الأتجار والنشرات المضادة لهذه الأفكار^(٧٩). وكان لهذه التدابير أثرها في شحن عواطف الجماهير التركية، وغرس محبة ألمانيا والليل إليها في قلوبهم، بحيث أخذ العامة يطلقون على الامبراطور الألماني لقب «الحاج غليوم» (Hadj Walibelm). ودرجت الحكومة التركية، من جهتها، على إرضاء كل مطالب الألمان، فنصبت أمام السفارة الألمانية محطة لإرسال لاسلكي، لكي يستطيع السفير الاتصال مع برلين اتصالاً مستمراً. وبدأ الألمان يمرضون سيظرونهم وإرادتهم على الأتراك. ففي ٢٧ أيلول ١٩١٤ أعطى الجنرال الألماني «ويبر باشا» Weber سدوكان يتولى قيادة معاقل الدردنيل إثر دخول الطرادين الألمانين المياه التركية — أمراً بإغلاق المضائق، فنقل الأمر في خلال نصف ساعة فقط^(٨٠).

(٧٧) BAYUR, Ibid. 1, p. 63.

(٧٨) A. EMIN, Ibid. pp. 193-196.

(٧٩) A. I. SABIS, 1, pp. 143-144. تاريخ الحرب العظمى، ص ١٠٧-١٠٨.

(٨٠) JACQUES KAYSER, Ibid. p. 20.

ولم يسمح حتى للبواعر الأميركية وغيرها من الدول المحاربة في اختراق المضائق وتغريف بضائعها في موانئ بحر مرمرية، بل كانت تُحوّل إلى مرفأ إزمير لتُفرغ شحناتها فيه. والسبب الذي دعا إلى ذلك أن مركب طروبيد عثماني قد خرج إلى بحر إيجه، فأوقته السفن الحربية الإنكليزية، التي كانت تراسط عند مدخل الدردنيل، متريفة ما يحتمل أن يقوم به الطرادان الألمانيان من أعمال عنائية للإنكليز خارج المياه التركية. ولما فشله وجدت فيه عدداً من بحارة الألمان، فأمرته بالعودة من حيث أتى. عندئذ أمر الجنرال الألماني بإخلاق المضائق دون الرجوع إلى موافقة السلطات التركية. ولم يكف بصدر الأمر حتى أطفئت الماشر وأتزلت الأتغام والشباك إلى البحر، وأصبح الدردنيل في حالة حرب فعلياً. وبإقفال تركيا المضائق ودخولها الحرب كانت سبباً في إطالة مدة الحرب^(٨١).

وبما رُوجه دعاء فكرة الحرب أن وضع تركيا الجغرافي هو الذي يفرض عليها الانسحاق في الحرب بشكل محم، ويعمل من غير الممكن بقاها على الحياد. وهي حتى لو التزمت لا بد لها أن تصبح مجبرة على التهاون فيه، متصاعدة لهذا الجانب أو ذاك، بحكم سيطرتها على المضائق التي تشكل ممراً له أهميته الخاصة، وأنه بحكم تفوق دول الحلفاء بالقوى البحرية، ومن بينها جارة تركيا وعدوتها للبلود روسيا، فإن هذه الدولة ستزعم للدولة العثمانية على الاستسلام لعملية اختراق المضائق، وحرق الجهاد من قبل أساطيلها، وسوى الأتراك بأنهم أعدائهم دوارعها تحرق البوسفور ناقلة الجنود والمهمات، مارة من تحت شرفات القصر السلطاني. حتى إذا انتهت الحرب بظفر هذه الدول لا يمكن للأمر أن ينتهي ببساطة لا بل إنها ستزعم الدولة على إيقادها مفتوحاً من جانبها كصمر حر أمام الدول في حالة السلم، بل سيضطر الباب العالي إلى التسليم بتدويله^(٨٢). ويناقش بعض الأتراك هذه المسألة حديثاً بقولهم إن وجود المضائق في الرقعة التركية كان من شأنه أن يجر الكولوث على رأسها، لأنه لم يكن من المعقول ألا يحرق أحد، من أطراف النزاع الدائر، الحياض الذي أطلته. فمن ما نرى سيكون البادى؟ أهى روسيا من جهة قفقاسيا؟ أم ألمانيا من ناحية البلقان؟ أم إنكلترا وفرنسا من جهة المضائق؟ بما لا شك فيه أن أية دولة من هذه الدول ستحاول أن تكون السبابة إلى هذا العمل^(٨٣)، كما قال الكاتب التركي فاردار.

كما كان من المدافعين الهامة لدخول تركيا الحرب، إلى جانب ألمانيا، سخط الأتراك على إنكلترا

(٨١) GENERAL DUFFOUR, 1866, p. 412, I, 1; هنري موريسو، المصدر السابق، ص ٦٦.

(٨٢) مجلة تريك بوردي، عدد (١) ١٩١٥/٣/٥، من مقال بقلم رئيس التحرير يوسف آديمرة.

(٨٣) O. VARDAR, 1960, pp. 256-257.

الطامعة في الجزيرة العربية والعراق، وعلى فرنسا الطامعة في سورية، وروسيا الطامعة في الآستانة والمضائق، وخوفهم من نيات هذه الدول العدوانية^(١٩١). ولما أنهم كانوا واثقين من نزاهتها ومن عدم تأمرها في السر، ومن وراء ظهر الباب العالي، على اهتمام الممتلكات الآسيوية للدولة العثمانية لربما بقوا على الحياد^(١٩٢).

وكان من الأسباب التي أدت إلى توتر العلاقات بسرعة، بين تركيا والحلفاء، الإجراءات الخاصة التي اتخذتها حكومة الاتحاديين بإلغاءها الامتيازات الأجنبية، اعتباراً من أول تشرين أول (١٩١٤) بمذكرة من الباب العالي مؤرخة في ٩ أيلول. ذلك أن هذه المسألة كانت مما يعلق عليها الاتحاديون أهمية كبيرة، فقد بين طلعت وأنور، في حديث لهما مع وزير المالية الألماني «ماتياس إرنزبرجر» Matthias Erzberger أن إلغاء الامتيازات أمر عظيم الأهمية بالنسبة لتركيا، وأنه قد آن أوان اعتراف لثانياً بهذا الإلغاء، وأنها إذا ما أقدمت على هذه الخطوة نالت كل ما تريد من تركيا: استثمار متاجم، امتيازات ضخمة لم يسبق لها مثيل في شتى النواحي الاقتصادية، لأن تركيا قد دخلت الحرب لتحقيق هذا المطلب الهاموي^(١٩٣). حتى إذا تحقق يصبح في استطاعة تركيا أن تسير في الإصلاح إلى نهايته تحت حماية ألمانيا. وللمعير بالذكر أن ألمانيا، حليفة تركيا، قد احتجت على هذا الإلغاء بالشدّة نفسها التي احتجت بها دول الحلفاء، وفعلت مثل ذلك النمسا - المجر، وأرسلتا مذكرة إلى الباب العالي قالتا فيها إن نظام الامتيازات ليس من أنظمة الدولة الخاصة المستقلة، وإنما نشأ عن معاهدات دولية لا يجوز إلغاؤها من طرف واحد. لكنهما لم تلبثا أن أظهرتا رضاهما عن عمل الدولة العثمانية، بعد أن أعلنت هذه الحرب إلى جانبهما ضد الحلفاء^(١٩٤). وفي نهاية أيلول ألغت الدولة العثمانية مكاتب البعث الأجنبية وأغلقتها، وزادت في نسبة الرسوم الجمركية على البضائع الأجنبية^(١٩٥)، إذ رأت في نشوب الحرب فرصة تنجح لها أن تتحلل من القيود التي كانت مفروضة عليها، وتعاين منها بسبب التدخل الأجنبي. وفي الوقت نفسه كانت دائرة الدردنيل والبوسفور والأسفانة تتحول بسرعة إلى منطقة ألمانية، فقد جيء بأكثر من ستمئة من ملاحي الألمان وضباطهم، مع كثير من الاختصاصيين الفنيين، وأقيموا على قلاع الدردنيل وحصونه. ثم أطرّد قديم

(١٩١) دوجور وينا نور، ترك تاريخي، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(١٩٢) أحمد مرة الأعظمي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٧.

(١٩٣) M. ERZBERGER, SOUVENIR DE GUERRE, p. 87.

(١٩٤) HURBUTZ, Ed. p. 2, D. 2. Vol. II.

(١٩٥) MOHAMED FERID BEY, ETUDE SUR LA CRISE OTTOMANE, p. 64.

الألمان حتى يبلغ عدد من وجد منهم في الآستانة فقط ، في أواسط شهر أيلول ، أكثر من أربعة آلاف رجل ، وأصبح أميرال الطراد « غوبن » والضباط الألمان ، وعلى رأسهم الملايشال « فون ساندروس » هم المستأثرين بالأمر ، يستغلون إكراهه للترك على عمل ما يريدون في الوقت الذي يريدون ، وحادثة البحر الأسود أبرز شاهد على ذلك^(٨٩).

حادثة البحر الأسود

وقعت هذه الحادثة يوم الأثنين المصادف في ٢٩ تشرين أول ١٩١٤ ، في البحر الأسود ، إذ هاجم الأسطول العثماني بقيادة أميرال الألمان « سوشون » موانئ « أوديسا » وسبها « شيبول » وغيرها الروسية وأصلها بمداغرة^(٩٠). ثم هاجم قطعان الأسطول الروسي التي خرجت لمقابلته وأغرق بعضها . وكانت هذه الحادثة — بعد المعاهدة التركية — الألمانية ، ودخول الطرادين « غوبن » و « برسلو » — ثالثة الحوادث التي سببت دخول تركيا الحرب^(٩١). وهنا فقل على إحسان سايس ، عن تحليل بكت ميتشه ، قوله « لأنه لا يوجد دليل على أن أنور قد أعطى الأمر باعتداء البحر الأسود »^(٩٢) ، ودون العقيد حسام الدين أتورك ، في ملكراته المنشورة باسم « الأسرار الخافية لأحداث عهدين » (iki Devrin Perde Arkası) ، رأيه بقوله : « أراي مضطراً إلى القول بأن ما جاء في كتب التاريخ أن أنور باشا هو الذي أمر بحادثة البحر الأسود ليزج بدولته في الحرب عمداً ، هو كذب واختلاق »^(٩٣) ، نرى أن أغلب المصادر التركية متفقة في القول إن الذي أمر بالحادثة هو أنور باشا بالذات . أما كيف حدث ذلك فهذه خلاصته :

لقتح الألمان بالحيد الموقف الذي أعلمته تركيا حتى يحون الكون ، ويكفونوا بحاجة إلى قوتها الحربية . ولما كانت المصاعب تتزايد أمامهم في هجومهم على فرنسا ، وإذ شعروا بأن ما صرح به زعمائهم العسكريون من استطاعتهم القضاء على الجيش الفرنسي في ستة أسابيع ، لم يكن إلا وهماً ، بعد اندحارهم في معركة المارن ، بدؤوا بمأوسون الضغط على الحكومة العثمانية كي تنفي بالتزاماتها التي

(٨٩) محمد طاهر قصري: تاريخ مقلدات العراق السياسية ، ج ١ ص ١٦٨ المقطع وللقلم: تاريخ الحرب العظمى ، ص ٤١٠-٤١١.

(٩٠) جان ميشون: بواحد الحرب العالمية الأولى ، ص ١٤٩.

(٩١) I.H. DANESHMAND, Ibid. p. 415.

(٩٢) A.I. BAKIS, Ibid. p. 45, Vol. II.

(٩٣) H. KURTUL, Ibid. p. 122.

قطعتا في المعاهدة التركية - الألمانية . ولم تغل تصرفات الألمان من التلويح ببعض الإجراءات ، حينما
 لسوا من المسؤولين الترك بعض التردد - إثر بلوغهم خبر المزايم المتلاحقة التي منيت بها جيوش
 حليفهم - متذرعين بالمصاهيب المالية^(٩١) . فدعت السفارة الألمانية في ١١ / ١٠ / ١٩١٤ ، المصدر
 الأعظم سعيد حليم باشا ، وطلعت ، وخليل متشه ، وأنور ، وجمال إلى ولعة غداء ، لم يدع إليها إلا
 الوزراء الموالون لألمانيا . وما إن انتهى تناول الطعام حتى باشر السفير الألماني « فانتهايم » مدعوه ،
 والبسمة نعلو شفقيه ، بقوله إن ألمانيا قد وافقت على إقراض تركيا المال الذي طلبته . وعلم كلامه
 بالإيماء إلى أنه لم يعد من مانع يمنع تركيا من دخول الحرب^(٩٢) . كما كان الألمان يلوحون للأتراك بما
 تستطيع الدولة العثمانية أن تلبه من الاسراع ، نتيجة دخولها الحرب بجانب ألمانيا ، وانتهايم بظفرهما :
 حيث تمتد حدودها من شمال القفقاس مارة بمجوار نهر الفولغا ، وتضم القرم والتركستان ، وتحوي
 فضلاً عن ذلك مصر حتماً^(٩٣) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لما علم سفير ألمانيا في الآستانة بأن ثمة اتصالاً يجري بين
 السفارة الروسية وأنور للبحث في الأحوال الناجمة عن دخول « غوبن » و « برسلو » المياه العثمانية ،
 وأنه من المحتمل أن يحصل اتفاق وتقارب بين الجانبين ، بحيث تسمح تركيا بمرورها من حدود
 روسيا ، وتحولها إلى جهة الغرب ، وفي هذه الحالة قد يعمل الضباط الألمان على مغادرة تركيا على ظهر
 الدارحيتين الألمانيتين ، وتعلن الدولة العثمانية الحياد ، اتصل بإمبراطوره وأبلغه ذلك لاسلكياً ، واتفقا
 على القيام بعمل يضع الحكومة العثمانية أمام الأمر الواقع^(٩٤) .

عدا ذلك فإن جميع التصرفات التي قام بها الألمان « سوشون » كانت تدل على رغبته في
 استفزاز الحلفاء . فبالرغم من أن الطرادين الألمانين احتجرا عثمانيين ، أصر الألمان على إبقاء
 العلم الألماني مرفوعاً عليهما . وكان يضغط على السلطات التركية بلزوم إعطائه الأمر بالانطلاق إلى
 البحر الأسود ، متذرعاً بحجة لزوم تمهيد البحارة العثمانيين على ركوب البحر ، لأنهم يعانون من دوار
 البحر ، وهم بحاجة إلى تمرين متواصل عليه في عرض البحار الواسعة^(٩٥) .

(٩١) F. RENOUVIN, *Ibid.*, p. 229. جان ميشون ، المصدر السابق ، ص ١١٩ .

(٩٢) A. I. SABIS, *Ibid.* II, pp. 32-33.

(٩٣) BA'YUR, *Ibid.* II, pp. 198.

(٩٤) H. ERITURK, *Ibid.* p. 121.

(٩٥) A. I. SABIS, *Ibid.* I, p. 176, II, pp. 27, 32; BA'YUR, II, 200.

كان الأموال «سوشون» و«ملاؤه» الأركان مطمئتين إلى مساندة أنور باشا لهم. وفي أوائل تشرين الأول اجتذبوا جمال باشا إليهم. وكان هذان الوزيران مستعدين لإحياء رغائبهم، بل كانا يتناوئان كل صوت يرفع في انتقاد وضع الأكران وتسلطهم على الأمطول، ويتكلمان بكل من يقول بوجود إزالة السيطرة الأكرانية عنه، والاستعاضة عنها بسيطرة تركية، مع علمهما بأن الأكران يستطيعون بهذه السيطرة أن يزعجوا تركيا في مصاعب لا حصر لها^(٩٩). غير أن بقية أعضاء مجلس الوزراء، المعارضين في دخول الحرب، قد تشعلوا في الآونة الأخيرة لتجنب دولتهم وهلاكها وشروعها. واستمرت الاتصالات بين الحكومة العثمانية وسفراء الجاليين المتحاربين، كما كانت جلسات مجلس الوزراء تنعقد بشكل متوال، وتظهر فيها النزعات والجهول المتضاربة. والصدر الأعظم متردد بين الاتيهاين الرئيسيين: الدخول فوراً أو عدمه. ولما ازدادت مصاعب الأكران العسكرية في الغرب، بعد هزيمة «المارن» أمام الجيش الفرنسي، وغولهم من الهجوم إلى الدفاع — بينما كانت الجيوش الروسية تتوغل مغلظة في بروميا الشرقية، بعد أن أوقعت بالأكران هزيمة شتاء في معركة فارسفيا، فكان دخول تركيا الحرب في هذه الظروف الحرجة مما يقدم العون الكبير لحليفها، بحكم سيطرتها على المضائق، واستطاعتها أن تقطع الاتصال بين روسيا وحليفاتها، كما تقطع عليها سبيل تصديرها الحبوب واستيراد الأسلحة والذخائر التي لا تكفي مصانعها لتزويدها بها^(١٠٠)، كل هذا ولم تزل تركيا مترددة في دخول الحرب — لم يرَ المشر ليمان فون ساندريس بداً من اتخاذ موقف حاسم بالنسبة للضغط على الأتراك، فاقبل في ٢٠ / ١٠ بمليار شعبة الاستخبارات في هيئة أركان الحرب العثمانية كاعظم قره بكير، وبحث معه سياسة الماطلة واللوب التي تتبعها تركيا، ومزج حديثه بالتهديد بأنه ما لم يستخدم الطرادان «غوين» و«برسلار» في أغراض الحرب الدائرة، فإنه سيصططع مع ضباط الجيش والأسطول الأكران الموجودين في تركيا ويغادرها. فإذا ما حدثت الهزيمة بالجيش النمساوي — المجرى، عندئذ سوف لا يبقى أي عائق أمام الروس لاحتلال الآستانة والمضائق.

ثم دخل «ليمان فون ساندريس» بعد ذلك وفي اليوم نفسه على أنور، وتكلم معه بأسلوب جاف وعشن. وكرر قصة الخطر الروسي على تركيا في حالة انضمام النمساويين أمام الجيش الروسي، الذي بدأ يوالي ضغطة هنجاح على الجيش النمساوي — المجرى، فأحدث في نفسه التأثر المرغوب بحيث رجع أنور عن أفكاره السابقة بوجود تأجيل دخول الحرب حتى الربيع القادم، وأصبح منذ

(٩٩) A. I. SAKIS, *ibid.* I, p. 163.

(١٠٠) M. FBRIDERY, *ETUDE SUR LA CRISE OTTOMANE ACTUELLE*, pp. 70, 72.

هذا التاريخ مفتحاً بدخولها فوراً^(١٠١). لكنه كتم ذلك عن هيئة أركان حربه، وتظاهر بالتردد، وطلب من ثلاثة أعضاء من هذه الهيئة وهم: علي إحسان سايس، وكاظم قره بكير، وحافظ حتى أن يقدم كل منهم تقريراً حول الموضوع. وكان هؤلاء من معارضي دخول الحرب فوراً قبل الاستعداد الكافي لها، ففعلوا ذلك. وجاء في تقرير علي إحسان سايس «إن تركيا خرجت حديثاً من حرب البلقان مكسورة مهينة الجناح، ولم يمض الوقت الكافي لتنظيم جراحها، وتلافي النقص في الرجال والمعدات والتنظيم، لذلك فقد أتهكتها التعبئة المعاملة التي أعلنتها. إن الجيش غير قادر على السور للحرب، خاصة إذا جرى ذلك في الشتاء القريب، فهو يشكو النقص الشامل في اللباس والمعدات والتجهيزات، ولا بد أن تقضي عليه أمراض النوزانتريا والتيفوس والكوليرا وغيرها من الأمراض إذا دخل الحرب فوراً. وبصورة خاصة إذا لم يؤمن الاتصال مع ألمانيا بالسكة الحديدية فإنه ليس بالإمكان الاستمرار في حرب طويلة. على أنه يمكن تلافي هذه الصعوبات حتى الربيع القادم. لذلك فإن دخول تركيا للحرب لن يأتي بفائدة ما على الدولة، بل فيه ضرر عظيم على حياتها العامة وعلى قوة جيشها»^(١٠٢).

لكن أنور لم يحجم عن تناحته الأخيرة، وبدأ يخطط مع الألمان المخطط للدخول في الحرب فوراً. واشترك مع الجنرال الألماني بريوزارت باشا، رئيس هيئة أركان حرب أنور باشا، في تنظيم تقرير أرسله فوراً إلى القيادة العليا للجيش الألماني هذا نصه:

«إن القوات العثمانية مستعدة بإجراء الحركات التالية:

١ — سيفرم الأسطول العثماني، قبل قيام حالة الحرب، بالهجوم على الأسطول الروسي في البحر الأسود لتأمين التفوق البحري عليه. وقد ترك تحديد موعد القيام بهذه الحركة للأمور الموسوية.

٢ — بعد إعلان الحرب سيقوم حضرة السلطان بإعلان الجهاد والحرب المقدسة على الأعداء.

٣ — ستقوم القوات التركية الموجودة على الحدود الروسية بحركات غامضة لجميع القوات الروسية.

٤ — سيقوم الفيالق الثامن، وإذا لزم الأمر الفيالق ١٦، بالهجوم على مصر، علماً بأن هذه الحركة لا يمكن القيام بها قبل مضي ستة أسابيع.

٥ — لقد تم تحضير هجوم لاحتلال أوديسا من جهة البحر قوامه ٣ — ٤ فبائن. وهذه الحركة

A. I. SABIS, Ibid. II, pp. 32-33; YH. BAYUR, Ibid. I, pp. 212-219. (١٠١)

A. I. SABIS, Ibid. II, pp. 34. (١٠٢)

متوقعة على تأمين التفوق البحري، وعلى قيام صداقة رومانية - بلغارية، مع إعلان الدولتين حيادهما^(١٠٢).

وقد وردت الموافقة على ما جاء في هذا التقرير من المقرر العام الألفاني بعد يومين من إرساله ومما يلاحظ عليه:

- ١ - أنه قد وضع بيد الأدميرال سوشون مقدرات المصلحة للمعاشية في دخول الحرب (المادة ١).
- ٢ - أنه وسط الدولة يتعهد هي عاجزة عن إيفائه، حيث لا يوجد لديها من الوسائط البحرية ما يكفي لنقل مرتبين عسكريين فقط، ناهيك عن نقل ٣ - ٤ غيالي^(١٠٣) (المادة ٧).
- ٣ - إن الهدف من مهاجمة الأسطول الروسي في البحر الأسود، كما يقول «بايور» ليس التفوق عليه، ذلك الذي يستحيل تأمينه نظراً لقوة الأسطول الروسي، بل غايته خلق حالة الأمر الواقع، من حيث دخول الحرب، وقطع السبيل على المصدر الأعظم والوزراء المترددون أو المخالفين لدخول الحرب، والتقصاء على كل أمل لهم في التزام الحياد^(١٠٤).

وفي ١٠/٢٢، بعد يومين من حصول هذا الاتفاق، أعطى أنور أمراً شفهيّاً إلى الأدميرال سوشون بالتحجيم على الأسطول الروسي لتأمين التفوق عليه، دون الرجوع إلى هيئة أركان حربه، وبدون علمها وبغيرها. غير أن الأتكان لم يفتنحوا بهذا الأمر الشفهي، وطلبوا أمراً خطياً^(١٠٥).

على أن أنور باشا قد اصطحب زميله طلعت، في مساء اليوم نفسه، وذهبا إلى منزل خلیل بك رئيس مجلس المبعوثان، وبدأ الثلاثة يتداولون في الموقف. وقد بدأ طلعت الكلام وقالاً إن سفيري حليفتنا ألمانيا والمحمية بضغطة علينا لدخول الحرب، ومن جهة ثانية بضغطة علينا منغراء الحلفاء، دون أن يعطونا الضمانات التي نطلبها، لإخراج الضباط الأتكان من تركيا، وفي حيننا بين الطرفين فقدنا ثقة حلفائنا بنا، وفوق ذلك نجر على أنفسنا نزاع خصوصية الأتخمين لنا يوماً بعد يوم، فيجب علينا أن نتخذ قراراً قاطعاً بهذا الشأن، فأجابه خليل بك «إننا إذا دخلنا الحرب نكون كمن نحاشي خطراً متوقعاً للوقوع في خطر محتم ودمار أكيد. فإذا خطونا هذه الخطوة فمن يضمن لنا أن بلغاريا، التي نقاوض الآن كلا الجانبين، لا تهاجمنا من الغرب، فيما إذا انضمت إلى أعدائنا فنضع

(١٠٣) Y.H. BAYUR, Ibid. I, pp. 215-216; A.I. SABIS, Ibid. II, pp. 36-37.

(١٠٤) مؤلف الديان من عدة فرق، والجيش من عدة لجان، تكون للقبلة الكبيرة عادة على جبهش.

(١٠٤) Y.H. BAYUR, Ibid. I, pp. 216-217; A.I. SABIS, Ibid. II, p. 37.

(١٠٤) Y.H. BAYUR, Ibid. p. 229.

بين ناين ؟ انني لا أرى من المنطوق أن يضغط سفرو ألمانيا والحقنا علينا ، أقللا بكفهما الخدمة الكيوية التي باستطاعتنا أن نرجعها إلى دولتهما بضبط مدخل المضائق طبيطاً محكماً ١٩ . عندئذ وجه طلعت كلامه إلى أنور قائلاً : « إن كلام خليل بك في متبى الصواب . لماذا لا نعرض الأمر على الصدر الأعظم ، ونرسل خليل بك إلى برلين وفيينا ليعرض هذا الرأي على حليفينا ؟ ولماذا لا نرسل حافظ حقي معه ليوضح موقفنا العسكري ، فنخلص بذلك من لزاج سفيرهما ، ولحافظ على صداقتهما » .

فاقتنع أنور بهذا الكلام ، وعرضوا الأمر على الصدر الأعظم ، واجتمع مجلس الوزراء في ١٠/٢٥ وقرر إرسال خليل بك وحافظ حقي إلى برلين وفيينا (ذهباً برفقة بيروزارت باشا)^(١٠٦) . وفي الوقت نفسه ، استجابة لطلب الأدميرال سوشون بوجوب تعويد البحارة العثمانيين على دوار البحر ، وبناء على إضراح من أنور بأن سوشون محق في طلبه ، وأنه لا يجوز الاستمرار في الحؤول دون خروج « غوبن » و « برسلاتو » إلى البحر الأسود ، اتخذ قراراً ينص على تحويل وكيل «^(١٠٧) القائد العام (أنور) الاضطلاح بمسؤولية الشؤون المتعلقة بالأسطول ، ولكن بشرط الحدرد والتوقي من إثبات أي عمل من شأنه أن يزعج الدولة في أتون الحرب^(١٠٨) . غير أن أنور تجاهل هذا القرار ودخله مخالفة صريحة عندما أصدر في اليوم نفسه الذي اتخذ فيه (١٠/٢٥) ، أمراً خطياً موجهاً إلى الأدميرال سوشون بناء على طلب السفير الألماني هذا نصه : « يقتضي على الأسطول أن يقوم بكامل وسداته بناورة في البحر الأسود ، وحالاً ترون الوقت مساعداً هاجموا الأسطول الروسي . وقيل المباشرة بالعقدان لفتحوا الرسالة السرية التي صلحتنا إليكم في صباح هذا اليوم ، وأعطوا على عرقلة نقل المهمات إلى صربيا من قبل الروس عبر البحر الأسود ونهر الدون » وأما الرسالة السرية فهذا نصها : « يجب على الأسطول العثماني أن يحجز السيطرة على البحر الأسود بالقوة . احتشوا عن الأسطول الروسي ، وأبنا وجدتموه هاجموا دون أن تعلموا للحرب عليه » .

الواقع أن الأدميرال سوشون لم يكتف بالأمر الشفهي الذي أعطى إليه يوم ١٠/٢٢ من قبل أنور ، وأعلم سفيره به فلم يقلق السفير أن يحصل الهجوم على الأسطول الروسي بأمر شفهي ، عموماً

(١٠٦) Y.H. BAYUR, *İst. 66*, pp. 229-230 ، لعلي سيماي ، الصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(١٠٧) « بحر السلطان هو القائد الأمن قترناً ، لكن السلطان محمد رشاد لم يكن بمستوى هذه المهمة مما جعل أنور باشا هو القائد الأمن عملاً » (COL. LAMOUCHIE, *HIST. DELATURQUIE*, p. 362) .

(١٠٧) CEMAL PACHA, *HATIRALAR*, p. 149 ، مذكرات جمال باشا ، ص ٢٢٧ .

من أن تقع مسؤولية زج الدولة العثمانية في الحرب على عاتق الأتراك، ويتخذ الأتراك في حالة انكسارهم وتعرضهم للمصائب، من ذلك سبباً للإخلاء باللائمة على حليفهم ألمانيا. وقد ينفذون عنها في النهاية. لذلك بحث السفير الألماني في الآستانة إلى القيادة الألمانية العليا بطريقة شديدة مؤرخة في ١٠/٢٣ يشرح فيها الوضع، ويركي وجوب الحصول على أمر كتابي موقع من أنور باشا زكحل القائد العام التركي، كي تقع مسؤولية هذا الطلوع على عاتق الأتراك أنفسهم. وقد وافقت القيادة الألمانية العليا على ذلك، وجرى الاتصال مع أنور فأصدر الأمر الكتابي المذكور^(١٠٨).

وما إن نظمي الأنكزال سوشون هذا الأمر الكتابي حتى يادر إلى تنفيذه فوراً، فأغاروت ثلاث سفارات عثمانية على مبانئ أوديسا وسياستبول، وأغرقت سفينة روسية لحراسة الميناء، وعطلت باخرة فرنسية وثلاث بواخر روسية، وضربت المدينة بقناصلها، كما ضربت نهر دنيوبوسيا^(١٠٩). فما كان من هذا الحادث إلا أن خلق بين تركيا والحلفاء جوّاً من التوتر. واجتمع سفراء فرنسا وإنكلترا وروسيا وتنفيذاً لأوامر تلقوها من حكوماتهم جعلوا الباب العالي بين عمليتين: إما قطع العلاقات السياسية معه، وإما عزل الموظفين الأتراك في البحرية العثمانية والجيش. علماً بأن إنكلترا قد وجهت إنذاراً نهائياً لتركيا طلبت منها فيه الاعتذار عن ضرب المراقء الروسية، وتجهيد العرادين الأتراكين من ضباطها وخارجها الأتراك، وإخراج البعثة الألمانية من تركيا في مدى ١٢ ساعة^(١١٠). وإن السفير الروسي قد حصل على جواز سفره فور تلقيه خبر وقوع الحادث، وذلك بناء على أمر تلقاه من دولته للعودة إلى بلاده، وتضامن معه سفراء إنكلترا وفرنسا، بناء على اتفاق سابق، وطالبوا بمقابلة الصدر الأعظم للحصول على جواز سفرهما. وقد استقبلهما الصدر الأعظم، كما استقبل السفير الروسي، وأظهر الصدر الأعظم استياءه من الحادث الأخير، وأقنعهما عليه بأنه لم يكن على علم سابق به، ولا كانت له يد فيه. وأقنع عن اعتفاده بإمكان إصلاح الأمور. فأجاباه السفراء بأن هذه الأزمة لا بد أن تخلق حالة حرب بين الحلفاء وتركيا، ما لم يحصلوا على ترضية كافية يعزل الضباط الأتراك من الخدمة، منعاً لحديث أزمات جديدة، كمنهاجة مصر أو روسيا، فطمأنهم الصدر الأعظم بأنه يستطيع، حتى في هذه الساعة الأخيرة، أن يحمل ما أبرمه حزب الحرب، ويحمر ما أكتبه، وأن مجلس الوزراء سيقر في منزله مساء ذلك اليوم، وسيطلب من

Y.H. BAYUR, 1964, I, pp. 230-233. (١٠٨)

(١٠٩) القتل والقتل - تاريخ الحرب العظمى، ج ٥، ص ٤١١.

(١١٠) مجلة الحرب العظمى، ج ٤، ص ٦، من مقال بقلم لستر وستن نشر في ١٩١٤.

زملائه أن يهتدوا في عزمه على منع وقوع حرب مع الخلفاء، دون أن يشير إلى إمكان عزل الضباط الأتراك^(١١١).

في الواقع عقد مجلس الوزراء ورجحت كافة أنصار الحيداء، واستطاع سليمان البستاني، وزير التجارة والزراعة، الحصول على أغلبية الأصوات على اقتراح قدمه، يقضي بوضع مذكرة ترفع إلى الخلفاء تؤيد الصدر الأعظم في دفاعه عن السلم، وفي موقفه من وجوب التزام الحيداء في الصراع الدائر^(١١٢). لكنه اتضح أن الوزراء الذين صوّتوا للسلم كانوا عاجزين عن عمل شيء آخر غير إعطاء أصواتهم في مجلس الوزراء. وقد تناقشوا في مسألة إقصاء ضباط البحر الأتراك، لكنهم لم يصلوا إلى قرار بهذا الشأن. وانبى أنور وجمال في وجه الصدر الأعظم حينما عرض اقتراحاً يقول بتسوية القضية على أساس إرسال مذكرة إلى سفراء الدول بأن تسحب تركيا أسطولها إلى المضائق، كما تسحب روسيا أسطولها إلى مرافقها، وأن لا تترك قيادة الأسطول العثماني بيد قواد وضباط من الأتراك، وانبى أنور وجمال الصدر الأعظم هازئاً أهل لديكم قواد مستطعمون قيادة هذه السفن؟ وحسب جمال على قوله: أقول بأسف إنه لا يوجد لدينا قواد وضباط يصلحون لقيادة سفن صغيرة فكيف لقيادة هذه السفن الكبيرة؟ إن الخلفاء يطلبون منا إرسال قواد ومهاراة الطرادين غوهر و برسلار إلى ألمانيا، ولكن هل هناك ما يمنع، فيما لو فعلنا ذلك، أن يقوم ضباط حليين الطرادين فيحملون قذائف مدافعهم إلى العاصمة..؟^(١١٣) إن هذه الإجابة وإن لم تقنع الوزراء غير أن أحداً منهم لم يجرؤ أن يقترح إقصاء ضباط الجيش البري الأتراك. ذلك أن الحزب المتناهي بالحرية قد قرر السمو قديماً في إتمام خطته. واد أنور باشا إلى نشر بلاغ رسمي على الشعب قال فيه إن روسيا هي التي بدأت بالعدوان في البحر الأسود، وإن الأسطول العثماني كان في موقف الدفاع. وقد صدق قسم عظيم من الجمهور هذا القول^(١١٤)، وتمكن أنور باشا من استئالة الصدر الأعظم الذي هدد بالاستقالة^(١١٥) فأحبط بذلك محاولات الوزراء اليايين للسلم لتحقيق غايتهم. وإذا شعرت

(١١١) الفتىف والفتىف، الصدر السابق، ج ٥ ص ٤١١-٤١٢.

(١١٢) أحمد رؤوف بك، كيف دخلت تركيا للحرب، ص ١٦-١٩.

(١١٣) الصدر السابق، ص ١٢-١٤.

(١١٤) الفتىف والفتىف، الصدر السابق، ج ٥، ص ٢١٢.

(١١٥) عندما تأكد الصدر الأعظم من كذب مشور بأن الرئيس هم الماديون بالمعول، كتب استقالته لهرضها على هيئة جمعية الاتحاد والفرقي، فلما سمع أنور وطلعت وجمال بذلك أخذ كل منهم يسمى للوصول إلى هذا المنصب، بالإستة إلى الصلو. ولما رأيت الجمعية ذلك أفركت أن الأمر سيؤدي إلى اختلاف عظيم بين الزعماء، فغروا

روسيا بشمل كل محاولة لإصلاح الموقف أعلنت الحرب على الدولة العثمانية فور انتهاء مدة الإنذار الإنكليزي^(١١٦)، فبادرت الدولة العثمانية، وبناء على ضغط أنور، إلى إعلانها بدورها (في ١١/١١/١٩١٤). وصدر المرسوم الشاهلي بذلك، فاضطر أعضاء الوزارة المعلقون وهم أربعة: سليمان البستاني، وجاويد بك، وجورج صولي محمود باشا، وأوسكان أفندي إلى الاستقالة^(١١٧). وكان أنور هو الذي يمت في قلوبها عندما كان أصحابها يجابهونه بها في مجلس الوزراء، فيجيب كلًّا منهم بقوله: فُلت^(١١٨). ولم يبق من الوزراء سوى الثنايين الذين يحملون مع مصالحهم الشخصية، ويؤيدون كل متسلط^(١١٩)، وهؤلاء لم يكونوا أصلاً على شيء من الأمر، لا هم ولا الذين استقالوا، بل كانت الحوادث تجريهم، ولم يكن باستطاعتهم ولو مجتمعين أن يسيطروا عليها، بل كان تفوذ أنور يعلو على إرادتهم ويشل حركتهم^(١٢٠)، ويستطيع أن يرغمهم على القبول بكل إجراء يتخذه لاستعادة على الجيش والأسطول^(١٢١).

وهكذا حقق أنور بأشأ أمنية ألمانيا في تخفيف الضغط عن قواتها في الجيبتين الغربية والشرقية، واضطرار الخلفاء لإبقاء قسم كبير من قواتهم في القوقاز ومصر^(١٢٢). واستعصر من السلطان ومن شيخ الإسلام إرادة سنية وتؤى بالجهاد، وهو ما كانت تنوق إليه حليفته ألمانيا.

الجهاد وأثره في العالم العربي والإسلامي

علقت ألمانيا من الأهمية على قوة تركيا الروسية أكثر مما علقت على قوتها الحربية، نظراً لما تملكه من إمكان التأثير على نفوس المسلمين في جميع أرجاء العالم^(١٢٣) بفضل المركز الذي يحتله سلطانها

عمل للمستعمل لحمل الصدر الأعظم على سحبها وإبقاء في منصبه (مجلة الحرب العظمى ج ٥ ص ١٤) فلم أحمد رؤوف بك).

(١١٥) مجلة الحرب العظمى ج ٤ ص ٦ من مقال تشرشل.

(١١٦) محمد كرد علي خطط الشام ج ٢ ص ١٣٣-١٣٤.

(١١٧) أحمد رؤوف بك المصدر السابق ص ١٨-١٩.

(١١٨) لطفي سيماري المصدر السابق ص ٧-١٠.

(١١٩) JACQUES KAYSER, *ibid.* p. 22.

(١٢٠) W. CHURCHILL, *ibid.* p. 436.

(١٢١) مذكرات جمال باشا ص ٢٢٢.

(١٢٢) HALPERIN, *CONFLICT OF EAST AND WEST*, p. 113.

بصفته خليفة وسلطاناً في آن واحد، واعتقاداً من الإمبراطور الأتاني أن الجهاد سيكون قهراً يشعل العالم الإسلامي بأجمعه في تركيا والهند ومصر وبلاد المغرب، الأمر الذي يساعده على محو الإنكليز وطردهم من أرض الإسلام^(١٢٣).

ففي تصريح للبارون لود فاشينهام جاء قوله: «إن تركيا بالذات لا تهبنا بمقدار ما نهبنا أمة الإسلام. فإذا استطعنا أن نثير هذه الأمة ضد الإنكليز والروس أمكننا أن نرغم هاتين الدولتين على الانسحاب^(١٢٤)». ولم يكن إعلان السلطان الجهاد، بصفته خليفة للمسلمين، إلا بناء على طلب الأتاني^(١٢٥). ففي خلال شهر تشرين الثاني صدرت، على مراحل متعددة، سلسلة من البيانات والفتاوى تحض المسلمين على محاربة أعداء الدين الإسلامي، وقبها شيخ الإسلام بصفته صاحب أرفع منصب ديني في الدولة العثمانية، وعدد من العلماء من ذوي المناصب الدينية الكبرى. وقد أذن السلطان بنشرها «إنا نأمر بأن يوزع هذا البيان على جميع الأقطار الإسلامية»، جاء فيها «إن الجهاد بالمال والبدن فرض عين على جميع المسلمين في العالم، فعليهم أن يحددوا لمقاومة دول الأحلاف بنقلانيا وفرنسا وروسيا، وعلى من يستطيع حمل السلاح من رعايا هذه الدول من المسلمين أن يحاربها وحارب حلفاءها دفاعاً عن الإسلام والأماكن المقدسة. ومن تمتنع عن ذلك يجلب غضب الله عليه ويستحق العقاب. وأن يمتنعوا — حتى ولو تعرضوا لعقوبة الإعدام — عن مساعدتها ومساعدة حلفائها في هجومها على الدولة العثمانية، والدول الحامية لها، وهي ألمانيا والنمسا والمجر، ومن لم يمتنع عن ذلك يعثر من القتل ويستحق الجحيم». وقد قرئت هذه الفتوى على ملاء الناس في جامع محمد الفاتح، من قبل أمين الفتوى الشريف علي حيدر، ونشرت في الصحف في اليوم التالي^(١٢٦). وقد تبع هذه البيانات الرسمية والفتاوى سيل من نشرات الدعاية، وضعت على شكل كتيبات وكريكات، كان مؤلفوها من الأتاني والأتراك والعرب، اشترك في تحرير النسخ العربية منها الشيخ عبد العزيز جازيش، ومحمد فريد بك رئيس الحزب الوطني المصري^(١٢٧). وقد كتبت بمختلف لغات العالم الإسلامي، ووزعت بالملايين في الداخل والخارج: مصر، السودان، الهند، إيران،

(١٢٣) علي ملزيمليك، المصدر السابق، ص ١٣٥، T.T.T. CEMİYETİ, TARİH, III, p. 309.

(١٢٤) J.P. ICHON, LEPATAGE PROCHE ORIENT, p. 5.

(١٢٥) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 317.

(١٢٦) H. DANISMEND, Ibid. p. 419. أنطوليوس، بغلة العرب، ص ٢٢٢ (ج) (راجع النص الكامل في

كتاب أحمد شفيق باشا: مذكروني في نصف قرن، ج ٢ ص ١٦٦ — ١٦٧.

(١٢٧) جلال يحيى، الثورة العربية ص ١٣١، T.T.T. CEMİYETİ, Tarİh, III, p. 309.

أفغانستان ، تركستان ، وغيرها . منها ما كان يحض الجنود للمسلمين على الفرار من جيوش الخلفاء ، ومنها ما يدعو إلى القتل والاختطاف ، وكانت كلها مجمعة على أن الإسلام في خطر ، بسبب أطماع الخلفاء ، وأن الجهاد في سبيل الدفاع عنه ، إنما هو فرض على كل مسلم^(١٢٨) .

كان خيال الاتحاديين من السعة بحيث يجمع بهم إلى تصور الأوهام وكأنها حقائق قربة الخلال . فقد حلموا بالسيطرة على أفكار الشعوب الإسلامية في كل مكان ، وبالتالي بزعمهم الفشل المعادية لهم ، والتي تستعمر هذه الشعوب . كانوا لا يترددون في أن يقولوا : ستضرب انكلترا ضربة قاضية ، ستقيم العالم الإسلامي وتقعده على رأسها ، ستولد البحوث والرسائل للعمل بإصرار وعناد ويلبر بنور الثورة بين مسلمي أفغانستان وبلوجستان وإيران وإفريقية ... وسيدخل المشاكل والمصاعب أمام الإنكليز والفرنسيين في آسيا وإفريقية ، وسرعان ما سينضوي العالم الإسلامي تحت لواء الخلافة العثمانية ، وستلعب الاضطرابات التي ستبثها أمام أعدائنا في كل مكان دورها العظيم في تقصير مدة الحرب واندحار الأعداء . وأما روسيا فما من قوة تنقذها من هذا المصير ، حيث إن القياثل في شرق تركستان وخرميا ، وفي قفقاسيا والقرم ويختلف أنحاء روسيا ستكون يهن إشارتنا^(١٢٩) .

من أجل ذلك قدح أنور وطلمنت زناد الفكر فانبثقت عنه مشروع «التشكيلات الخاصة» التي سلما أزمة أمرها إلى صديقهما المقدم سليمان عسكري ، الذي مهيئت له خدمات وحروب موفقة في بغداد ، وبنغازي ، والبلقان قبل الحرب ، ووضعوا في مصيته عدداً من الضباط الشجعان المقدرين ، يقدر عددهم بأكثر من مئتي ضابط من أمهر الضباط^(١٣٠) . وكان من أعضاء هذه التشكيلات محمد فرهد بك رئيس الحزب الوطني المصري ، والشيخ صالح التونسي ، والشيخ عبد العزيز جانيش ، وعلي باشا حنيا (تونس) ، وغيرهم من العرب والأتراك ، ومعظمهم من زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، أمثال الدكتور بهاء الدين شاكر ، والدكتور قواد ثابت ، من أعضاء اللجنة المركزية للجمعية ، والأمير آلاي حسان الدين أرتورك^(١٣١) H. Brik ، وغيرهم . وقد خصصت لها الاعتمادات الكبيرة ، بحيث تكون كافية لتوسيع ملاكاتها وخطط شرازم كلوية العدد من المعصيات المسلحة تأثر بأمرها . ومن وظائف هذه التشكيلات خدمة الدولة في الداخل والخارج ، وإسداء

(١٢٨) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(١٢٩) G. VARDAR, Ibid. p. 274 .

(١٣٠) محمد لطفي جبه ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(١٣١) H. Brik ، المذكور محمود عزاد شكري المسترسية دين ودولة ص ١٦٢ .

العون اللازم للجيش المهابر ، سواء بالعمل القسّال داخل أراضي الأعداء ، أو بتزويده بالمعلومات التي نفّذه في عملياته الحربية ، وتكون من حيث نشاطها وبرنامج أعمالها مرتبطة بوزارة للحربية^(١٣٣) . وأما هدفها فهو العمل على توحيد العالم الإسلامي ، وجمعه تحت لواء واحد ، من جهة ، وبهذا تحقق غاية الجامعة الإسلامية ، والعمل على تحقيق الوطن الطوراني الكبير ، وتكون بذلك قد حققت غاية الجامعة التركية الطورانية من جهة أخرى . وقد استلهم أتور هذه الفكرة من إمري أخندي (Emir) زعيم دعاة الجامعة الإسلامية في جمعية الاتحاد والترقي من جهة ، ومن ضيا كوك أكب زعيم الطورانيين في الجمعية من جهة ثانية^(١٣٤) ، ذلك أن الأتراك قد عاودوا إثّر اشتراكهم في الحرب ، إلى اتجاه الجامعة الإسلامية جنباً لجنب مع الجامعة التركية الطورانية ، إذ اعتقدوا أن ليس من تناقض بين الاتجاهين^(١٣٥) .

كانت البحوث الموفدة للدعاية إلى مختلف أقطار العالم العربية والإسلامية تابعة لهذه المهمة . وقد كلفت بالدعوة للجهاد وتأييد ما دعت إليه المنشورات العثمانية سائدة الذكر ، لتزيد من حوافزها . وكان الرسل من جميع اللغات : من الوعاظ المتجولين والضباط والعلماء والفقهاء والمحرضين المحترفين والمستشرقين الألمان ، يرحلون إلى جميع الجهات التي يستطيعون الوصول إليها^(١٣٦) . وقد قاموا بالمهام الملقاة على عاتقهم خير قيام ، ووفقوا في إحداث بعض القلائل في مختلف الجهات ، إنما لم يحققوا الهدف الذي علقه الاتحاديون على دعوة الجهاد .

لقد أرسلت إلى الأناضول الشرقية بعثة برئاسة رئيس العصبة المشهور « قره كمال » لتعمل إلى جانب الجيش النظامي بقيادة أتور باشا ، الذي صار نفسه على رأس ٩٠ ألف مقاتل إلى جهة القفقاس بقصد محاربة الروس . وأُرسل أخاه المقدم توري ، الذي منحه رتبة باشا فخرية ، وبمصنبة عدد من الضباط المعتمد عليهم ، إلى طرابلس إفريقية وزعمهم هذا في مصر والحبشة والسودان . وأعطيت الأوامر إلى البعثة المرسلة إلى مصر والسودان بنسف السدود وخزانات المياه . كما أرسلت بعثات إلى تونس والجزائر ومراكش . وترأس البعثة المرسلة إلى العراق « سليمان عسكري » نفسه ، وهناك بدأ بعمل بمساعدة الأشخاص المحليين الذين له معرفة سابقة بهم . ومن العراق توجهت بعثة ألمانية

G. VARDAR, *ibid.* pp. 274-275. (١٣٣)

H. BRTURK, *ibid.* p. 110. (١٣٤)

(١٣٤) محمد جمال بيم : قرائل المروية ومواكبها ج ٢ ص ٢٥ - ٢٦ .

(١٣٥) أنطوليوس ، المصدر السابق ص ٢٢٣ (ج) .

بقيادة «فون كلاين Von Klein» نحو شط العرب، لتخريب المنشآت البترولية وأنابيب النفط البهيمانية على ضفاف نهر قارون، في الوقت الذي أرسلت فيه حملة عسكرية تركية بقيادة المارشال «فون شروغولتز» إلى الحدود الإيرانية ليطرد من إيران عساكر الروس والإنكليز، وبغرض بعدد تحالفاً على إيران وأفغانستان تمهيداً لشن هجوم على الهند. ومن أجل هذا الغرض أرسلت بعثة عسكرية ألمانية بمقردها الملازم «نيدرماير Nidermaier» والمستشار «فون هرتسغ Von Herting» و«زوغمار» عبر إيران إلى أفغانستان، مهمتها تسليح الأهالي، واستئالة حكومة الأفغان، وزجها في حرب ضد الإنكليز والروس^(١٣٦).

وأما سورية فقد أرسلت إليها بعثة برئاسة المقدم الخيال «أيزمبل ممتاز» التحقق به الشيخ عبد العزيز جابوش وغيره من السوريين الموالين للترك، بحيث وجد في دمشق، في الفترة الأولى من إعلان الحرب، أكثر من ٦٠٠ / رسول، منهم من شُخص للعمل في سورية، ومنهم من مر بها مروراً لبتجه إلى بقية الأنظار. وقد توصلت بعثة سورية إلى إيجاد شبكة من الصلاوة بين القبائل العربية لعبت دوراً هاماً في مساعدة إدارة الحركات العسكرية التي توجهت إلى قناة السويس. وفي الحجاز تمكنت البعثة المرسلة إليها برئاسة المدعو «غوشجي باشي زاده أشرف» من تكوين تشكيل ممتاز من عرب الحجاز اشتركوا في عمليات السويس العسكرية. كما أرسلت بعثة إلى طوابعين برئاسة المقدم الخيال «جوروملي عزيز بك» الذي استوثق من صداقة شيوخ العرب، وعاد إلى الآستانة وبعض هؤلاء بمجته، وأخذ معه، بأمر أنور باشا، أولاد بعض شيوخ القبائل السورية يدعي تعليمهم في مدارس الآستانة، ولكن في الحقيقة للاحتفاظ بهم كرهائن. وكان هنالك أيضاً بعثة نيات لتذهب إلى الحبشة، يعطرق الحجاز واليمن لتأمين الاتصال مع إفريقيا الشرقية الألمانية^(١٣٧). وأما البعثة التي أرسلت إلى ليبيا برئاسة يوسف شتوان بك وجعفر العسكري ووجد فيها نوري باشا المحوانور^(١٣٨) فسأقي على ذكرها في محله.

على الرغم من ذلك كله لا بد من التساؤل: هل نجحت الدعوة إلى الجهاد النجاش المرمي؟ وما الأثر الذي تركه دعوى الأتراك في الحرب الدائرة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي والعربي؟

من الوجهة العامة فشلت الدعوة إلى الجهاد فشلاً تاماً، ذلك أن الاتحاديين لم يتركوا للخلافة

(١٣٦) J. PICHON, Ibid. pp. 6-7. «فليب آبلاند، العراق—دراسة في تطوره» ص ٧.

J. PICHON, Ibid. p. 7. (١٣٧)

H. BERTHELEMY, Ibid. pp. 112-113. (١٣٨)

الإسلامية — التي أعلن الجهاد باسمها — أي معنى، لذلك أتعفقت دعوتهم^(١٢٧)، ولم يحب الشعوب الإسلامية في مختلف الأقطار التابعة لدول الخلفاء هبة واحدة، ولم تطمح بحكامها الإنكليز والفرنسيين، ورفض نهم عن هاتفيها، ولا باهرت. جنود هذه الدول من المسلمين إلى المقرار والانتحاف بجيوش دولة الخلافة^(١٢٨)، لا بل نرى أن مئات الآلاف من الجنود المنيوس المسلمين قد حاربوا الدولة العثمانية، سواء بملء اختيارهم أو رغباً عنهم، إلى جانب مستعمرهم الإنكليز، على حدود الدولة في أراضيها (العراق) هذا من جهة ومن جهة أخرى قامت جهادات أخرى من المسلمين المحكومين من الدولة العثمانية (العرب) بالثورة على الدولة نفسها^(١٢٩). أما الأسباب التي دعت إلى ذلك فهي كما يلي:

١ — لم تكن الشعوب التي وجهت إليها الدعوة، لتعطيم نور الاستبداد من أعناقها، بالشعوب القوية الفادرة على ذلك، بل كانت ضعيفة مقهورة بفعل الاستعمار المستمر الذي تخاضى في إضعافها، وبحكم الأنظمة العسكرية والأحكام العرفية التي كانت ترزح تحتها^(١٣٠).

٢ — لم يكن السلطان العثماني الذي أصدر أمر الجهاد بالخليفة المعروف به في نظر بعض الشعوب وزعمائها كالغرب والحجاز وغيرها.

٣ — إن بعض الشعوب الإسلامية التي اعتمدت عليها سلطات الآشنة، كالهند مثلاً، كانت نسبتها إلى السكان غير المسلمين أقل منهم، وكان المستعمرون قد اجتلبوا رؤسائها وأغروهم بالمتاحب وشبهي المغريات الأخرى، بل كانت بالنسبة للاحتلال الإنكليزي الهند الذي يتركز عليه هذا الاحتلال يوازن بها قوة الهندوس التي كانت تطالبه باستقلالها^(١٣١).

٤ — إن الدول المدعوة للسلطنة كانت واقفة وقوفاً تاماً على دقائق الدين الإسلامي والآيات الكريمة ذات العلاقة بالموضوع، فكانت تلبس الجهد الكبير بواسطة صناعها لإقناع المسلمين بعكس ما تتمناه الدولة العثمانية منهم^(١٣٢).

(١٢٩) جمال بيم: العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، ص ١٣٢.

(١٣٠) COLONEL LAMOUCHÉ, 1966, p. 962.

(١٣١) T.J.T. OMİYETI, TARIH, III, p. 308.

(١٣٢) محمد لطفي جمعة، المصدر السابق، ص ٢٢٢.

(١٣٣) P. RENOUVIN, Ibid. p. 143.

(١٣٤) مثلاً: «لقد أُنشد من القتل» «لا تغسلوا في الأرض» «أطعموا المأرموسله وكوفي الأكر متكم».

٥ — إن السلطان الخليفة الذي وجه للدعوة للجهاد ضد من سماهم «الكفار» الذين يحاربون دولته هو رئيس دولة تعمل يداً بيد وتحارب مع دولة من دول «الكفار» أنفسهم^(١٤١).

٦ — طلب السلطان من شعوب عاجزة مستضعفة القيام ضد حاكميها، وهو لم يرودهم سلفاً بإمكانات هذا القيام، فلم يكن إعلان الجهاد إذاً إلا أمراً مرغباً غير مفروض^(١٤٢).

٧ — لم ينطق أحد من قادة المسلمين في سائر الأقطار الإسلامية بكلمة نداء منه للثورة، بل بالعكس قام عدد من هؤلاء الزعماء يستمعون دخول تركيا الحرب، ويعدونه سياسة غير رشيدة. وقاموا بتهدئة النفوس الثائرة، لأنهم أيقنوا أن هذه الآفة ليست بالسابعة التي تختتم لتقويض سيطرة الغرب، بسبب عدم التأهب للأمر، بل أذكروا أن تركيا باتت ضعيفة طيحة بين أيدي الأتكان، تنزل على أمرهم طائفة متفاداة، وأن المسيطرين على الحكم فيها هم طغمة من المتخذبة الملحدين، غالبهم ليسوا مسلمين، أو ليسوا مسلمين إلا إسماعاً، لذلك لم يمكن من رأي عقلاء المسلمين الانقياد إلى ما رجسته ألمانيا من المخطط للسيطرة على العالم، لأن في ذلك استبدال عيوبة بأخرى. إذاً كان جل ما يتخوفون هو أن تلتزم تركيا جانب الجهاد، وتترك الغرب وشأنه يحارب بعضه بعضاً، إلى أن يحل به الضعف وتعتدّد يسهل القضاء على سيطرته واستعمار^(١٤٣).

٨ — إن الإنكليز والفرنسيين قد نشطوا في الدعاية بأنهم لا يحاربون السلطان كخليفة، بل كسلطان، وأنهم إنما يحاربون مستشاريه الأتكان. وقد وعدوا بأن لا يمسوا الأضرحة الإسلامية بسوء^(١٤٤)، كما نشطوا في استصدار بيانات وضوا مضادة من علماء الإسلام في البلاد التابعة لسيطرتهم^(١٤٥).

ولكن ليس معنى ذلك أن دعوة السلطان قد ذهبت صرخة في واد، ولم يستجيب لها أحد أبداً، بل كان لها بعض المصدى، وإن اختلف سلباً وإيجاباً، أو شدة وضعفاً من بلد إلى آخر، وهذه لمحة عن مردودها:

(١٤٤) Y.H. BAYUR, *Ibid.* I, pp. 323-330.

(١٤٥) I.H. DANISMAND, *Ibid.* pp. 119-120.

(١٤٦) لويوب سبولو، المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٦-٣١٧.

(١٤٧) J. PICHON, *Ibid.* p. 7.

(١٤٨) T.T.T. CMIYETI, *TARİH*, III, p. 309.

كانت الدعوة إلى الجهاد موجهة في الدرجة الأولى إلى الشعوب الإسلامية غير التركية ، إذ لم يكن واضحاً أن المسلمين الأتراك ، ومعظمهم من فلاحى الأناضول المحدثين ، في حاجة إلى استئالة نظراً لما يمرض لأن يكونوا عليه من الطاعة والولاء لحكومتهم التركية^(١٢٩) . ومع ذلك فقد وجب أن ترسل راية الرسول ، التي استغنت من المدينة إلى المناطق المختلفة في تركيا ، وأن يعمد إلى التبشير للجهاد ابن الفلاحين السذج . وقد استجاب بعض البسطاء إلى هذه الدعوة ، غير أنه سرعان ما ظهر أن القلق قد بدأ يهدب في نفوس الأكراسط المسيحية في المنطقة ، إذ أخذ هؤلاء يهاجرون ، ولماذا يجب أن نقاتل ؟ لأن هذه الحرب هي حرب مقدسة ضد عقائدنا^(١٣٠) .

غير أنه إذا كان قد ظهر بعض الفتور في المناطق الداخلية للأناضول ، إلا أن الأمر قد اختلف في المدن ، حيث السكان على اتصال أوثق بالأفكار والدوافع التي تحرك الشعور الوطني ، يضاف إلى ذلك النشاط الذي كانت جمعية الاتحاد والترقي تبذله لتعبئة الشعور القومي ، وإثارة كوامن الحقد على الخصوم . فما إن أعلن أن قوى الجهاد ستداع على الناس في الآستانة ، في جامع محمد القانح الذي يرمز إلى ذكرى أكبر انتصار أحرزه الترك العثمانيون على المسيحيين عام ١٤٥٣م ، حتى نظمت المظاهرات الضخمة ، وسارت في مختلف شوارع العاصمة ، لتلتقي في الجامع المذكور ، حيث تليت نصوص الفتوى وأقيمت الصلوات ، وتعالى التكبير ، وكان الفرح بالغاً حد الرعدة . ثم تجول هذا الموكب العظيم عبر الشوارع الرئيسية في المدينة ، ومر أمام القصر السلطاني ومقر الوزارة . وبعد الحناط بهارات الإجلال والتنظيم للسلطان والصبر الأعظم ، طاف بسفاري ألمانيا واحسباً إظهاراً للتضامن والصدقة^(١٣١) . كان شعب الآستانة هائجاً مائجاً ، ويبدو كأنه يهن إلى الحرب والقتال . فقد استمرت المظاهرات في شوارع الآستانة ، بعد إعلان غنوى الجهاد في الجرائد ، أياماً عديدة تخرج للحرب في حماسة عظيمة^(١٣٢) . وفي هذا يقول علي إحسان سايس : لما رأيت هذه المشاهد خطر لي حالاً ما كتبت أشاهده عشية حرب البلقان من مظاهرات صانعة لجيوب شوارع العاصمة متنادية : (كره لنا ، هي روحنا ... إلى الحرب .. إلى الحرب) ، والسيف في

(١٢٩) أنطوليوس ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

G. STITT, A PRINCE OF ARABIA, THE EMIR ALI HAJDAR, p. 148. (١٣٠)

GEORGES SAMBÉ, LA SYRIE, p. 323. (١٣١)

(١٣٢) علي غزك ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

ألهدي الرجال بالمحسون بها ويمناً وهماً^(١٥٣)، ولم يقتصر الأمر على الآستانة، بل دقت طبول الحرب في كل مدينة من مدن السلطنة العثمانية، وفادى المتادي في الأسواق: «إلى الحرب، إلى المنادى عن الوطن، إلى الدفاع عن الدولة»^(١٥٤). وصارت المهرجانات العظيمة تقام في كل مدينة من المدن العثمانية^(١٥٥). وكانت قطعات الجيش وخاصة ضباطها أكثر السكان حماسة وتحملاً للحرب. وقد أفصحوا عن شعورهم وسرورهم بنياً لإعلانها بشكل مثير، إذ أخذوا فور تلقيهم الخبر بالتهليل والهناء والعناق بعضهم لبعض، وصاروا يخفون السدارات عن رؤسهم ويطلقونها في الهواء جزلاً^(١٥٦).

أما القوميون المتروك فقد اعتبروها حرباً عنيفة، باعتبار أن مناطق القلقاس الروسية تضم كثيراً من الأتراك، الذين انتزعت روسيا استقلالهم وحرمتهم من حريتهم، وأن حرباً تنبصر فيها تركيا لكفيلة بتحريرهم^(١٥٧). وراح الشعراء الطورانيون يتسابقون إلى نظم القصائد، التي تحض على الحرب والتوسع من مثال قولهم: «ستصبح ديار العدو خراباً، وستسبح تركيا ونصبح لظوران مآباً» (دوهمان أو لكه سي ويران أوله جق، توركيما بويويوب طوران أوله جق)^(١٥٨).

ومع ذلك فقد كان المتحفظون من دخولها كثيرين، فعلاوة على الفئات التي عارضت في اشتراك تركيا في الحرب، كما رأينا، بادرت مختلف الشخصيات التي لها وزن لدى الرأي العام التركي إلى إظهار شعورها. ولقد عبر السياسي والأديب التركي المعروف سليمان نظيف عن رأيه بكلمته المشهورة ذلت المغزى العميق: «إن أنور باشا — بدخوله الحرب — قد قتل أنور بك» (أنور باشا أنور بكى اولديدي)، كناية عن أنه قد مسح بذلك ماضيه الذي كلفه بفار الجهاد في بنغازي وأدرنة^(١٥٩). وفي رأي هذا الأديب أن دخول تركيا الحرب، في ظرف غير ملائم كالظرف الذي زجها فيها ثلاثة أو أربعة مسؤولين، كان من الخطأ بحيث لا تبرره أية حجة نذرع بها هؤلاء^(١٦٠). ومن رأي رجل الدولة لطفي سيمايي أن دخول تركيا الحرب كان جوناً بقدر ما هو جناية^(١٦١).

(١٥٣) A.I. SABIS, *ibid.*, II, p. 34.

(١٥٤) الحري أنطونين، لبنان في الحرب، ج ١، ص ٦٠.

(١٥٥) G. VARDAR, *ibid.*, p. 253. «مذكرات جمال باشا»، ص ٢٣٢ — ٢٣٣.

(١٥٦) مجلة توبكاي يوردي، السنة الرابعة، عدد ١ تاريخ ١٩١٥/٣/٥، ص ٢٥١٩.

(١٥٧) A.R. KURAN, (INKILAP TARİHİ) Nihai Ve Tıraklı p. 303. من جريدة طنج حله الامارات

جاءت في المصدر التركي بالحرف اللاتيني، فأوردتها بالحرف العربي.

(١٥٨) G. VARDAR, *ibid.*, p. 212. صغرت عرق، ضهاكوك آلب ومفكوره، ص ٢٩.

(١٥٩) PIERRE LOTI, *ibid.*, p. 132.

(١٦٠) لطفي سيمايي، المصدر السابق ص ١٠٧.

هذه الآراء قبلت بعد انتهاء الحرب ، غير أن المعارضين لاشتراك تركيا فيها لم يكتسوا شعورهم حينذاك . فالعقيد حافظ حقي العضو في هيئة الأركان العامة وقب من أنور باشا موقفاً شديداً ومناخه بعنف مؤثراً ، ودخل في خصام مرّ مع برونزات باشا الرئيس الأتكاني لبيعة الأركان العامة ، ومع جميع ضباط الهيئة الأتكان ، يؤازره في ذلك رفاقه فيها ، مما اضطر أنور باشا — بناء على تقرير من برونزات باشا — لتفريقهم إلى جبهات القتال . وحرم حافظ حقي من حقوقه في الشريعة ، وكانت نهاية الاستشهاد في ساحة القتال في جلود القوقاز^(١٦١) . كما لم يكن العقيد مصطفى كمال (رئيس الجمهورية التركية فيما بعد) من الفاتلين بدخول الحرب ، بل كان يرى أن الحكمة تقتضي بأن تغف تركيا على الحياذ ، حتى ترمى أية كفة ترجع لتساومها على مؤازرتها لها^(١٦٢) . ولم يحكم شعوره هذا بل أصبح عنه ودخل في جدل مع طلعت باشا حول هذه القضية ، ودلل على الخطأ الذي ارتكبه هو وزمرته في إقدامهم على هذا الأمر^(١٦٣) . وهكذا فعل السلطان الظلوع عبد الحميد . إذ استدعى أنور باشا إلى قصر « بكنلركي » ، الذي خصص لإقامته في الآستانة ، بعد جليده من سلاتيك ، وجلس إليه معاتباً متودداً ثارة ، وناصحاً مؤثراً ثارة أخرى ، ضارباً له الأمثلة ومنها كيف صوت مجلس ١٨٧٧ على دخول الحرب ضد روسيا ، وما جره من الوبال على الدولة العثمانية^(١٦٤) . وقد مر معنا أن السلطان محمد رشاد (الخامس) المزعج على المعرش لم يكن راضياً عن دخول الحرب . وأما حسين جاهد ، الذي كان قبل الحرب صاحب ومدير جريدة (طبرن) الشهيرة ، فقد أخذ الانفعال منه مأخذاً ، مرة في منزل جاهده يثك ويثر المائلة المستقبل ، بميث راح يعارض دخول دوله للحرب بقوله « إن ارتقاءنا في هذا السعير الذي أضرمته دول أوروبا لما يدعو إلى الحرية والألم . فهل كان باستطاعتنا أن نتصور فرصة أجدى لنا وأعظم من هذه الفرصة التي تقتل فيها دول أوروبا . إننا — بدخولنا للحرب — قد أضعنا هذه الفرصة ، التي كان من شأنها أن توطد كياننا ونحفظ مستقبلنا »^(١٦٥) .

أما المعارضون من حزب الحرية والائتلاف ، المبعدين عن أراضي السلطنة ، فقد كان اعتراضهم على لفتها تركيا إلى جانب ألمانيا وهما معللاً تعليلاً منطقياً في قولهم إنه كان على حكام الترك أن يعملوا على مداراة المعسكرين المتحاربين ، غير مستعجلين الدخول في الحرب ، بل الانتظار

(١٦١) A. I. SAHIS, Ibid. II, pp. 56-66-134.

(١٦٢) هـ. آرسنيليك ، اللب الأخر مصطفى كمال ، ص ٣٠ .

(١٦٣) G. VARDAR, Ibid. p. 273.

(١٦٤) G. VARDAR, Ibid. p. 265; H. ERGURK, Ibid. p. 160.

(١٦٥) A. B. KURAN, İNKILAP TARİHİNİZ VE İTTİHAT VETERANLARI, pp. 303-305.

ورقب الفرص حتى منوحها، فربما لا يكون ثمة من داع واضطرار لدخولها، ذلك أن تركيا تستطيع أن تجني منفعة كبيرة من عدم زج نفسها في الحرب، إذ تستفيد استفادة اقتصادية عظيمة بحيث تزدهر تجارتها، ويزيح أرباحاً طائلة من بيع المواد الغذائية إلى المتحاربين فتتدفق عليها الثروات من كل جانب تدفقاً هائلاً، وتتجنب عسكرة ملايين القتلى من أهانتها، وتكسب اعتبار الطرفين، وتكون كليتها مسموعة في العالم، إذ في حين تخرج جيوش للعسكريين المتحاربين من الحرب منهكة القوى، تظل هي محتفظة بمحس قوي مناسك كالعليق الشام^(١٦٦). هذا علاوة على أنه ليس لألمانيا والنمسا حدود مع تركيا. ولم يكن ثمة خوف من تجاوزهما على حدودها، وأن الخطر كان من شأنه أن يأتي بالعكس، من قبل الحلفاء لأن موقع تركيا الجغرافي يساعد على هجوم هذه الدول عليها. وقد نشط أعضاء هذا الحزب، وكانوا يقيمون خارج أراضي الدولة، فاجتمع فريق منهم كالبرنس صباح الدين وجهاته، وعقدوا جلسة في باريس وناقشوا هذه المسألة، وانتهوا إلى قرار بأن دخول بلادهم الحرب فيه دمار للسلطنة ومحو لاستقلالها، وأنه جريمة وخيانة للوطن. وأبرق البرنس بذلك إلى السلطان وطلعت بك، قبل اشتراك الدولة في الحرب، للوقوف في وجه أكلفه الجمر، طلاب الحرب، وبعد إعلانها، محتجاً على هذا العمل الفظيع، وطالياً وقفها حالاً. وحفا حلوله رفعت باشا سفير الدولة في باريس، فأبرق إلى طلعت بك وزير الداخلية، قبل الدخول فيها، يستصرخ وجنانه العمل لتجنب السلطنة العشائية ضرورها، ويحلوا إياه من فاجعة أخرى كفاجعة «غرناتلة». كما يادر المقدم «غاليبولي كمال بك»، مؤسس «جمعية الإنقاذ»، إلى تقديم مذكرة بواسطة الملاحق العسكري التركي في روما «ديار بكرلي كاظم بك» إلى رفيق دراستهما أنور باشا منذراً إياه بالنتيجة التي سيسفر عنها اشتراك الدولة بالحرب^(١٦٧).

٢. في سورية وبقية البلاد العربية

إن الأثر الذي تركه دخول تركيا الحرب، في سورية والبلاد العربية، كان مختلفاً بين قطر

(١٦٦) دوقتر رضا لور: العصر السلتي، ص ١٩٠.

A.B. KURAN, OSMANLI IMPARATORLUĞUNDE VE T. C İNKILAB HAREKETLERİ, (١٦٧)

وأخراً ، إذ كان تُسمّ شتات في الرأي العربي : كان في الشام غيو في مصر ، وفي اليمن غيو في الحجاز
ولجند^{١١٨}.

آ - في سورية

لم يكند الجهاد يعلن في سورية حتى نظمت المظاهرات يومي ١٣ ، ١٤ / ١١ / ١٩١٤ ،
وسارت في شوارع دمشق ، تحقّق فوقها الأعلام ، وصار المظاهرون يرددون الأناشيد الحمريّة^{١١٩} .
هذا من حيث الشعور العام ، أما من حيث النشاط الذي كان يبذله للقوميين في هذه البلاد في
سبيل الإصلاح والحكم اللامركزي ، فقد طرأت على الموقف فترة جمود ، تشوبها مسحية من الترفيع
والخوف ، وقد اختلف موقف السوريين قبل اشتراك دولتهم في الحرب عنه بعد اشتراكها فيها . ويبدو
أنّ لقيفاً من زعمائهم قد تداولوا الأمر فيما بينهم ، كما تداول بعضهم الأمر مع المسؤولين الترك ،
وتحكّن عبد الكريم الخليل ، ومن ورائه بالطبع عبد الحميد الزهراوي ، من الحصول على وعد منهم بأنّ
تحية الحكومة إلى « كل المطلب العادلة باسم الأمة العربيّة ، أو باسم الأحرار من أهلها »^{١٢٠} . وإذا
كانت مقصد الدولة العثمانيّة غير واضحة في الفترة التي التزمت فيها الجهاد ، من أول آب إلى آخر
تشرين الأول ، أذاً استغلال هذا الموقف للحصول على ضمانات لتحقيق مطالبهم القوميّة ،
ملتزمين في ذلك جانب المصلحة والخلف الشديد^{١٢١} ، غير مستعطين من حسابهم ما للدول
الأجنبيّة من مطامع شريفة في بلادهم . لذلك وبانتظار انجلاء موقف الدولة العثمانيّة من حيث إيجابيتها
لمطالبهم ، وموقف الدول الأوروبيّة من حيث أطماعها في بلادهم ، والموقف العام من حيث اشتراك
الدولة العثمانيّة في الحرب أم عدمه ، اتخذ فريق من الزعماء العرب خطة التأييد العام للدولة في الأزمّة
الدوليّة القائمة ، وشدّ أزرها حتى لا تقع في براثن الطامعون ، لأنهم لم يفكروا يوماً في أنّ يستبدلوا
بالحكم التركي حكماً أجنبيّاً يكون شرّاً وأدهى^{١٢٢} . ولم يكن طلبهم للإصلاح فيما سبق إلاّ رغبة

(١٦٨) أمين سعيد ، الدولة العربيّة الحديثة ، ص ١٢ .

(١٦٩) مجلة الحرب المظلي ، ج ١٦ ص ١٥ .

(١٧٠) أمين سعيد ، الدولة العربيّة الكبرى ، ص ٥ (عن كتاب أرسك عبد الحكيم من الأستانة في ١٩١٤/٨/٦ إلى
صديق له في سورية) .

(١٧١) جورج كيوك ، موجز تاريخ الشرق الأوسط ، ص ١٩٢ .

(١٧٢) ج - كيوك ، الفصل السابق ص ١٩٢ مذكرات أحمد لدري ص ٣٨ .

منهم في أن يكون لهم دور ومساهمة في الدفاع عن كيانها ضد كل دولة أجنبية لها طمع في أراضيها .
 فأوقفوا نشاطهم المعادي للأتراك ، وتوقفت جرائدهم عن الخوض في المطالب العربية ، ولقى شبانهم
 نداء التعبة العامة ، ولم يتأخر عن ذلك حتى الزعماء والموقوفون في جمعية «النهضة العربية» . ومن
 الأدلة على ذلك أن السيد محمد المحمصاني من أركان هذه الجمعية كان يوم إعلان النفي العام يقوم في
 مصر بمهمة لها فتعجل العودة إلى بيروت ، طلباً واجبه في الالتحاق بخدمة وطنه في مهادين القتال ،
 كفيوه من شبان الجمعية وسائر شبان العرب المقيمين^(١٧٣) ، قائلاً لأحد أصدقائه الذين نصحوه
 بالبقاء «إن الوطن في حاجة إلى كل فرد من أبنائه في هذا الأوان العصيب ، فمن الخيانة أن لا تقوم
 بالواجب علينا نحوه»^(١٧٤) . كما يتضح إخلاص زعماء العرب للدولة من الرسائل التي تبادلها بعضهم
 بهذا الشأن ، ومنها رسالة كتبها عيد الكرم الحليل في ٨/٦ ، أي بعد إعلان النهضة العامة
 بأربعة أيام ، إلى أحد أصدقائه في دمشق ، وذلك قبيل شغوصه إليها ، موفداً من الاتحاديين لبعضهم
 لهم ولأمم العرب ، وإقبال شبانهم على التجند ، يقول فيها إن التدابير التي اتخذتها الدولة ذرواً لخطر
 الحرب العظمى تقضي على كل عنائي فخلص لدولته وأمت أن يذل جهده في سبيل تنفيذها على
 أحسن ما يرام . وأوصى بوجوب شد أزر الحكومة وإزالة النفور بين العناصر العثمانية ، والعمل يداً
 واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوروبية ، وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها ، منع اعتداء
 الدول الغربية ، والخروج من هذه الأزمة أرفع شأناً وأعلى مقاماً^(١٧٥) . ومنها رسائل بعث بها الشيخ
 رشيد رضا ، السوري الأصل ، وصاحب مجلة «النار» القاهرية إلى من تلق بهم في سورية يحثهم فيها
 على الولاء للحكومة ، وكتب في جريدة «الأهرام» في ١٩١٤/٩/٢٦ رسالة نشر خلاصتها في
 «النار» شكر فيها السوريين على إخلاصهم وطاعتهم للدولة ، وتوقفهم عن طلب الإصلاح فتدنوا
 لأحوالها الحاضرة^(١٧٦) . كما بعث أحمد مختار بهم في ١٩١٤/١٠/٢٦ برسالة إلى صديق له في مصر
 قال فيها «لقد ألعينا أحرابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية ، لأن المصلحة المشتركة تقضي
 بذلك ، وسوف يرى إخواننا الترك ، لاسيما الاتحاديون ، من أعمالنا في هذه الحرب ما يظهر لهم
 عظيم إخلاصنا للعرش العثماني ، وتقائنا في خدمة الوطن المشترك ، ونحن الآن على أحسن ما يرام مع

(١٧٣) مصطفى الشهابي ، قضية العربية ، ص ١٠٦ .

(١٧٤) أحمد داغر ، ثورة العرب ص ١٢٩ .

(١٧٥) عبدج شريف ، أحمد عزت عيد الكرم دراسات في النهضة العربية ، ص ١٠١ .

(١٧٦) النار ، مجلة ١٧ ، ج ١٢ ، ١٨/١١/١٩١٤ ، ص ٩٥٥ .

حرب الحكومة الذي أظهر وطنية عظيمة في هذه الأزمة الشديدة، وستظل كذلك إن شاء الله إلى الأبد»^(١٧٦).

قد تكون بعض هذه التصرفات فردية، أو تعبيراً عن رأي جماعات من غير المنتمين إلى جمعيتي «العربية الفتاة» و«العهد»، لكنها متوافقة من حيث النتيجة، مع مصلك الجمعيتين المذكورتين قبل دخول تركيا في الحرب. ولم يكن موقف أعضاء الجمعية اللا مركزية الثنائية الموجودين في القاهرة أو طبرية من رجال الجمعيات الأخرى مختلفاً، فيعضهم كالسيد أسعد داغر تملكه الحساسية عند وفوفه على إعلان إنكسار حمايتها على مصر، وصمم على الشخص إلى تركيا ليكشف لمواطنيه ما اكتشفه من حقيقة نيات الإنكسار، وما تأكد من وجوب عدم الاعتماد عليهم في تحقيق الآمال التي كان العرب يسمعون إليها وما يزالون، لأنه توهم أن إخوائه في الآستانة وسورية والعراق قد يمدعون برسل الحلفاء ووعودهم، فيسلمون على أعمال لا تقتصر نتيجتها على إضاعة البلاد، بل تكون خيانة مفضوحة. وبفأش «عزم على المصري» يعززه هذا فشجعه عليه، وأبدى استعداده لمساعدته. لكن الصعوبات قامت دون ما عزم عليه واضطره إلى البقاء في مصر^(١٧٧). ونفي عن القول إن المواليين للحكومة التركية موالة مطلقاً قد وقضوا إلى جانبها بكل جوراحهم، ويلبون قيد ولا شرط.

كان هذا قبل اشتراك تركيا في الحرب، أما بعد اشتراكها فقد تبلور الموقف في سورية على ثلاثة آراء متميزة:

١ - رأي يقول بتأييد الترك في تضالهم مع الحلفاء، والإخلاص لهم، ومساعدتهم بكل الوسائل ليخرجوا من المعترك فالذين، على أن ينظر بعد ختام الحرب، وبعد خروج الغول ظافرة، في نسبة ما هنالك من خلاف بين العنصرين العربي والتركي. وكان من هؤلاء الأمير شبيب أرسلان، وعبد الرحمن باشا اليوسف، ومحمد باشا العظم، ومن لف لفهم من السوريين، ومعروف الرصافي، ومحمد صديق الزهاوي من شعراء العراق^(١٧٨).

٢ - رأي يقول باغتنام الفرصة السانحة - فرصة وقوع الحرب - لتتخلص من الترك،

(١٧٧) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٥٨، دمع شريف، أحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق، ص ١٠٣.

(١٧٨) أسعد داغر، مذكراتي على حاشي الصفحة العربية، ص ٧٧.

(١٧٩) بدوي طبانة، معروف الرصافي، حياته وبعثه وشعره، ص ١٢.

وطرح نيهم الثقيل، وبلغ الاستقلال التام — مع شيء من الحفظ بسبب أطماع الدول الأجنبية — وكان هؤلاء يحملون بتكوين الدولة العربية الكبرى إما موحدة، أو على شكل اتحاد فدرالي أو كونفدرالي يضم جميع البلاد العربية في آسيا وحتى في إفريقيا، وأغلبهم مثقفون ثقافة عالية ويرتفعون بالنضال العربي إلى مستوى المثالية، وهم الذين أطلق عليهم اسم «الإصلاحيين»، وقد ضحى زعمائهم بأرواحهم شهداء في سبيل مثلهم العليا وحلهم من أعضاء جمعيات العهد والعربية الفتاة.

٣ — رأي القائلين بالانضمام إلى الحلفاء وشد أزهم ومساعدتهم على الترك، وتسهيل السبل أمامهم للاستيلاء على بلاد الشام، وسط حكمهم عليها، ومن هؤلاء فريق من النصارى الذين تنفقوا بالثقافة الأجنبية اللاتينية، وأغلبهم الساحقة من لبنان، فصاروا يكرهون كل ما هو عربي وتحتون الانضواء تحت علم دولة أوروبية. وقد قضى بعض هؤلاء أيضاً على أعواد المشائق^(١٨٠).

وإذا كانت الكتلة المطلقة في ابتداء الحرب لأصحاب الرأي الأول بدليل إقبال العرب، في الشام والعراق، على الانضواء تحت رايات الجيش العثماني المهاب، إذ انخرط في الجيش من الشام ٢٧ فرقة، كادت معها حركة العمل تقف وتوقاً مروهاً^(١٨١)، فإن الأمر فيما بعد لم يلبث أن اختلف بعد المشائق التي نصبها جمال باشا للأحرار، فانتهى الأمر بانتصار الفريق الثاني. وعليه وخلافاً لرأي مندوب التامس الحرثي^(١٨٢) أستطيع أن أقول إن دعوة الجهاد قد لاقت في سورية نجاحاً لا بأس به في بداية الأمر، بمساعي الشيخ عبد العزيز جازيش، والأخير شكيب أرسلان وغيرهما من الدعاة الذين ملأوا البلاد، ليبقى بعضهم فيها، وليلقدها الآخرون إلى جهات أخرى، فخرج المنطرحون إلى مكاتب النفير العام، واشتركوا في الحرب، وراح منهم عشرات آلاف الضحايا طعاماً لها في مختلف الميادين، وإن كان المثقفون السوريون، وهذا ما اتفق به مع رأي مندوب التامس، قد وقفوا منها موقفاً فيه بعض الجمود، لا موقف المتفجع كما يقول. وأما العلماء فقد يكون بعضهم، لا كلهم، كما يقول، قد أخذوا يتسائلون: أي جهاد، هذا الذي نرى فيه دولة إسلامية تتأخر دولاً مسيحية على دول مسيحية أخرى؟

(١٨٠) أمين سعيد، الدولة العربية المتحدة، ص ١١٢ و ١١٣، NADIA MOUTRAN, La Syrie de Damas, p. 33.

(١٨١) محمد كرد علي، المصدر السابق ص ١٢٣ — ١٢٤.

(١٨٢) THE Two's HISTORY OF THE WAR, p. 332 (نظراً من جهة الحرب العظيم ج ص ١٠٠).

في الواقع كانت دعوة الجهاد في العراق أكثر نجاحاً منها في سورية بسبب سخط الإنكليز المذاهم^(١٨٤). فقد استجاب علماء الدين في الشجف وكربلاء إلى طلب الدولة تأييد الدعوة للجهاد، فأصدروا فتوى مؤيدة لفتوى شيخ الإسلام في الآستانة^(١٨٥). وقد حررت نسخة من فتوى الشيعة في العراق باللغة الفارسية لترسل إلى السلطنة الإيرانية التي منعت دخولها، إنما عملت القطعات العسكرية التركية على عبورها إلى الأراضي الإيرانية لإثارة الشيعة الفاطنيين فيها. وقد جاء في نصها أنه «بالنظر لأن دول الكفار قد اجتمعت كلمتها على مهاجمة ديار الإسلام، وتقتيل أهلها وسلب أموالها، وإعلاء كلمة الكفر، وتسفيه كلمة الدين الإسلامي، فقد اتفقت كلمة علماء السنة والإمامية والإسماعيلية والزيدية والهابية والخورارج على الاتفاق بأن الواجب يقضي على كل مسلم أن يذلل كل ما في وسعه من قدرة على دفع هجوم الكفار والمشركين وقتلهم وكسر شوكتهم»^(١٨٦). هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كان إعلان تركيا الحرب على الحلفاء إلهاناً بزوال الخلافات الداخلية الصورية بين العرب والترك في العراق، ولو مؤقتاً، وتوحيد صفوف الأمة للدفاع عن الوطن المشترك. وشرع الإصلاحيون العرب «بناء على برقية من أنور باشا، يحثون الشعب على التصروع في الجيش، ويظهرون منتهى الرضا في التعاون التام مع الحكومة. واندفعوا في العمل بهمة ونشاط، فأسسوا جمعية الحلال الأحمر في البصرة، وبنوا مجمع التبرعات السخية لها، في حين تجمعت بواخر الإنكليز المشحونة بالجنود أمام البحرين، تنتظر الإشارة للهجوم. وسارعت الدولة بإرسال بعض قواتها إلى البصرة للدفاع عنها. وفي هذه الفترة اتصل الإنكليز بطالب النقيب (وكان الأتراك يحشون بأسمه ويتآمرون على قتله)، فلم تنجح مفاوضاتهم معه لتصلبه في مطالبه القومية، وقد اضطر إلى إخلاء الميدان عندما اقترب خطرهم من البصرة»^(١٨٧). وظل العرب، بعد احتلال الإنكليز هذه المدينة، على ولاء للترك بحارون ولإمامهم العدو المشترك، إلى أن ظهرت ثبات الترك السيف نحوهم فعالوا إلى تأييد ثورة الحسين والسعي لاستقلال بلادهم.

(١٨٤) محمد كرد علي، المصدر السابق، ص ١٢٢-١٢٣.

(١٨٥) مجلة اسلام مجموعة سني، العدد ٢ (١٣٢٣ هـ - ١٩١٤ م) ص ٢٤٥، أنطونيوس، المصدر السابق ص ٢٢٧.

(١٨٥) Y.F. BAYUR, 1964, I, p. 325.

(١٨٦) سليمان نبي، في عصر التفتل، ص ١٨٨.

لعمل الجهاد كان أقل نجاحاً في لبنان منه في غزوه من الأقطار العربية، باستثناء الحجاز والعصور، ولم يستجب له سوى غلة من أهالي بيروت المسلمين^(١٨٧). بل ما إن بلغ الآذان اليهودية صوت النفر العام الأمر بمحمد الجنود - حسباً بين الحوري أنطون بون - حتى ابتلخت القلوب حزناً وريعاً، ففترق شبانهم أيدي سيأ، منهم من اختبأ في بيت نسبه، ومنهم من لجأ إلى دار صديقه، ومنهم من فر إلى جبل لبنان حيث تظن صومعة متفردة، لو عاش في دير من أديار الرهبان، ومنهم من ساقه الحظ إلى اللوع في أيدي رجال الأمن...^(١٨٨). وهذا الوصف المحي للحالة هناك في تلك الفترة - تقدمه آتية أمريكية قضت مدة الحرب في لبنان وبيروت - شاهد على ذلك: «... وفي صباح الاثنين وبينما نحن في طريقنا إلى بيروت.. إذ بنا تصادف جماهير من الشعب هاربة من المدينة، وكان الدهر والخوف والوجل يقر كل شخص، حتى ذهب أكتوهم يلح علينا بأن تعود أديارنا إلى الجبال. وحيث حاولنا معرفة سبب هذه الليلة العظيمة...، ولما بلغنا المدينة واتصلنا بمصادر الأخبار الموثوق بها علمنا سبب الدهر. ذلك أن الحكومة التركية قد بادرت إلى دعوة الأهالي إلى حمل السلاح. والخاوف من الخدمة العسكرية هي التي حملت اللبنانيين على التفرار كتلة واحدة من بيروت»^(١٨٩). وفي مرجع آخر بقلم نطف الله البكاسيني نلاحظ تمة للموقف بقوله «وربما بلغ الأمر ببعض شبان ولاية بيروت ومتصرفية جبل لبنان أنهم قد صمموا على الحرب خارج بلادهم، والانخراط في سلك الجندية الفرنسية، كرهاً بدولتهم العثمانية، ولكن العقلاء أقنعوهم بأن يخلدوا إلى السكينة، تدفعاً لوتجيم المواقب على أهلهم»^(١٩٠).

د - في مصر

أما مصر، فبالرغم من بعدها عن مركز الخلافة، وعدم ارتباطها رسمياً بالسلطنة العثمانية إلا برباط إسمي واه، فإنها تعطينا صورة متناقضة تماماً لما كان عليه الأمر في لبنان. ذلك أن الحركة الوطنية في مصر كانت قد بلغت أشدها في سني ما قبل الحرب. وإذا كانت عواطف المصريين قد اتجهت

(١٨٧) مجلة الحرب العظمى، ج ٥، ص ٩٥.

(١٨٨) الحوري أنطون بون، للصدر السابق، ج ١، ص ١٠.

(١٨٩) مجلة الحرب العظمى ج ١١٦، ص ٨.

(١٩٠) لطفي الله نصر البكاسيني، لبنة من وقائع الحرب الكونية ص ٤٨٩.

بكلينا إلى الإخلاص للمعنيين، فلم يكن ذلك لأن الإسلام كان يجمع بين تركها، دولة الخلافة، وبين مصر فحسب، بل أيضاً لشدة كره المصريين للاحتلال الإنكليزي والدولة المحتنة، وهذا ما جعلهم يلتصقون بالإخلاص والفرج فيمن يعادي إنكلترا، ويسير على هوامهم في كراهيتها. وإذا كانت تركيا، في تلك الفترة، قد ربطت مصيرها بمصير ألمانيا، وانحازت إلى مصيرها، فقد ازداد لذلك حب الأتكان في قلوب المصريين، ما داموا يجتمعون معهم على كراهية الإنكليز^(١١١). وفي هذا كفاية لكي تلاقى دعوة الجهاد آذاناً صاغية لدى المصريين المتعطشون للثورة على مقتضي استقلالهم وحرمتهم. كانت الأواصر التي تشد المصريين إلى الجماعة الإسلامية قوية بالرغم من كل العوامل التي كانت تعمل على إضعافها. ولم يكن الإنكليز يجهلون ذلك. فما إن ثارت غيوم الحرب، ولاحت نذرها في البحر حتى بدؤوا يتوجسون خيفة من المصريين، ذلك أن عوامل الثورة باتت تغلي في مصر غليان المرجل على النار، وصارت على مقربة من الزوبعة الحارقة، نجواً مع دعوة الجهاد، فيأخروا إلى الإجراءات والاحتياطات الملائمة^(١١٢)، فقرضت السلطات المختصة الرقابة على البعثات والرسائل، وسنت قانوناً يمنع التجمع لأكثر من خمسة أشخاص، والعقاب عليه عقاباً يصل إلى سنتي سجن، لمن يغامر رجال الشرطة في تفريق التجمع، ولو لم يكن له قصد جنائي، متى رأى رجال السلطة أن ذلك يهدد السلامة العامة في شطر. ثم أعلنت الأحكام العرفية واتبع ذلك بمرض الرقابة على الصحف، وبكثير من البلاغات الملبة بالتحذير والتهديد، لمن يحاول الإخلال بالأمن العام^(١١٣)، علاوة على حشد الجيوش الجارية في القطر المصري، وقد استقدمت على عجل من مختلف أنحاء الإمبراطورية البريطانية، نظراً لأهمية موقع مصر بالنسبة للحرب الدائرة.

كل ذلك كان مقدمة لإعلان الحماية على مصر، ذلك الذي تم في ١٨/١٢/١٩١٤، وقد ضلع الخديوي عباس حلمي الثاني، وتوج البنس حسين كامل سلطاناً على مصر مكانه، فقبول هذا الانقلاب بأشياء بالغ من قبل سكان مصر إلى درجة أنهم عندما كان يدعو الخطيب يوم الجمعة للسلطان الجديد، لا يؤمنون على الدعاء، وصارت حياته في خطر من المؤامرات، وتعددت محاولات اغتياله، وليس الطلاب أربطة عتق سوداء إعلناً للحداد للعام، وأصبح رجال الحزب الوطني الذين كانوا ضد الخديوي السابق عباس حلمي، أصبحوا في صفه، حينها علموا أنه مضطهد من

(١١١) حسين فوزي فتاح، المصدر السابق ص ٣٤٣.

(١١٢) دكتور محمد حسين، الامتلاءات الوطنية في الأدب للعاصر، ج ٢، ص ١٠٠-١٠٢ لوترب ستوارد، المصدر السابق ج ١، ص ٣٩٦.

(١١٣) عبد الرحمن المرزوقي، ثورة ١٩١٩، ص ١١-١٢.

الإنكليز^(١٩٤). غير أن إجراءات الإنكليز العسكرية والأحكام العرفية، وبعض الإجراءات الاقتصادية، التي لجأت إليها إنكلترا مثل إقفال الأسواق الأجنبية في وجه القطن المصري في أول الحرب لإشغال الناس عن السياسة، وصرفهم إلى التفكير في مصالحهم الاقتصادية، قد أرغمت المصريين على السكوت والصبر طيلة الحرب^(١٩٥).

هـ - في السودان وليبيا وتونس

أما في السودان فقد كانت الحالة هادئة على الإجمال، إذ كان التأثير التركي فيه ضئيلاً. وقد أبدى سكانه شيئاً من اللامبالاة لدى إعلان الحرب بين تركيا والحلفاء. لكن المصريين الوطنيين الذين كانوا يستذكرون وجود الإنكليز في السودان، ويعتبرون أن وجودهم فيه إن هو إلا تجاوز على حقوق مصر^(١٩٦)، أخذوا في إثارة النفوس وإضرام الشعور الإسلامي والوطني، واشتدت جهودهم هذه مع جهود الرسل والبعوث العثمانية المرسلة سراً إلى السودان، فقامت من جراء ذلك ثورة في دارفور، سرعان ما قمعتها الإنكليز، وسيطروا على الموقف بعد أن راح سلطانها وعلي بن دينار شهيد قيامها. وقامت مثل هذه الثورة في الصومال، إلا أنها انتهت أيضاً إلى الفشل^(١٩٧).

وأما في ليبيا فقد اتخذ السيد أحمد الشريف السنوسي والليبيون موقفاً إيجابياً من دعوة للجهاد، وسرعان ما انخرت دعاية العثمانيين وإفصاحهم عن رغبتهم في مساعدة الليبيين، مما أثر تأثيراً حسناً على الموقف في برقة، وأحيا آمال السنوسيين في القدرة على مواصلة الكفاح ضد إيطاليا^(١٩٨)، ذلك أنهم أيقنوا من مساعدة تركيا لهم، من جديد، بعد أن أعلنت الحرب على دول الحلفاء، ومن ضمنها إيطاليا، فأصبح كل ما بين هذه وتركيا من المعاهدات والاتفاقات بحكم الملغى^(١٩٩). فاشتد ساعد المجاهدين وأحرزوا انتصارات باهرة على الإيطاليين، وردوهم على أعقابهم نحو السواحل، فزاد لارتياحهم وصاروا يتوجسون من سوء العاقبة، ولما يتظفروهم من كوارث. وقد لاقى الجيش الإيطالي في هذه

(١٩٤) الحاج أحمد شقيق باشا، متكواق في نصف قرن ج ٣ ص ٩٨.

(١٩٥) مجلة الحرب العالمية الأولى ج ١١ ص ٣٢.

(١٩٦) مجلة الحرب العالمي ج ١٢ ص ١١ من مقال بقلم الجنرال مكماهون.

(١٩٧) أمين سعيد العولة القرية المتحدة ص ١١٦ لوثروب ستورلدو المصدر السابق ج ١ ص ٣١٦ من تعليق للأثير شكيب أرسلان.

(١٩٨) الدكتور محمد قزاد شكري، المصدر السابق ص ١٦١.

(١٩٩) الطاهر أحمد الزوي، جهاد الأبطال، ص ١٩٢.

الفترة في التدخل صموحات جملة لم يقو على مقاومتها فخارت قواه ، وانقضت أطرافه ، وكان عند انتهاء الحرب العامة قد امتلكت القززان ، فلم ير نفسه إلا وقد انهارت عزيمته في تلك الصحراء فاجتلبته ، وأصبح أثراً بعد عين^(٢٠٠) . هذا وقد اعتبر السيد أحمد الشريف السنوسي نفسه مثلاً للخليفة العثماني في بلاد الشمال الإفريقي ، فأخذ في توجيه الرسائل — وقد وقعت مجموعة منها في يد الجنرال ماكسويل بالمصادفة في آب ١٩١٥ — إلى ملوك المسلمين وأمراءهم ، وإلى الصحفيين في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وفي الهند يدعوهم فيها إلى الجهاد^(٢٠١) ، وكان ذلك مقدمة لاقتحامه الحدود المصرية لقتال الإنكليز كما سنرى في ما يلي من فصول هذا البحث .

وفي تونس قامت ثورة أضرمها الشيخ «سعيد ديان» ، زعيم جنوب تونس ، دعيت باسم «ثورة الحلمة» . وكان قد جهد لما بعض الشخصيات التونسية التي كانت تعمل مع الاتحاديين أمثال : علي ياسين حبا ، والشيخ صالح الشريف التونسي ، والشيخ إسماعيل الصفاشي ، ولقيت تشجيعاً من الأتراك والألمان . لكن المساعدات التي رُفد بها التونسيون لم تصلهم فأخفقت بعد أربعة أو خمسة أيام من نشوبها ، وتمكنت فرنسا من قمعها ، بعد أن دفعت ثمن ذلك مئة فصيل فرنسي ، وأسفرت عن استشهاد قائد الثورة ولجمله وشهادته وعدد من رجاله بعد أنها أرغمت فرنسا على أن تحشد في تونس جيشاً كبيراً بحشية من تشوب ثورات أخرى عليهم^(٢٠٢) .

و — في الجزيرة العربية

أما موقف أمارات الجزيرة العربية من دعوة الترك إلى الجهاد فقد كان في أول الحرب أقرب إلى عدم الاستقرار . ويمكن القول إن دعوة الجهاد لم تلاق نجاحاً في جزيرة العرب . فبالرغم من بعض المساعدات التي قدمها فريق من أمراء العرب إلى الترك في أول الحرب ، كإرسال بعض المتطوعين ، مع عدد كبير من الجبال ، لاستخدامها في نقل التجهيزات الحربية ، إلا أن موقف كثيرين منهم لم يكن بالمتوقف الذي يتم عن المصطفى العميق على الدولة العثمانية^(٢٠٣) . والواقع أن موقف كل من أمراءها كان مختلفاً عن الآخر ، فبينما التزم ابن سعود أمير نجد جانب الحلياء المشيع بالمصطفى نحو

(٢٠٠) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٢٠١) ج . أطلوس ، المصدر السابق ص ٢١٨ نقلاً عن خاريج الرسمى للحرب .

(٢٠٢) أمين سعيد الثورة العربية المتحدة ص ٧٨ — ٧٩ .

(٢٠٣) RICHARD ALDINGTON, LAWRENCE L'IMPOSTEUR, p. 809 .

إنكسروا... وكان قد قدم عدداً كبيراً من الجمال إلى جمال باشا بمناسبة حملة السويس — فإن حياه ابن الرشيد، أمير حائل، كان مقرّراً بالمعطف على الدولة العثمانية، إذ أرسل إليها المتطوعين، ووجه أحد الأثرياء الثابطين له إلى مدائن صالح، بعد إعلان الشريف حسين ثورته، ورابط فيها على حدود الحجاز جنباً لجنب مع الترك. وأما مبارك الصباح أمير الكويت فقد كان صريحاً في انضمامه إلى الإنكليز، بالرغم من أن بعض عناصر السكان — التي امتلأت من عزه على مد صدوقه الشيخ خزعل نخاع أمير الحمرة بالمحاريق لقمع الثورة التي قامت عليه في بلاده لمساعدته الإنكليز ضد الدولة العلية — قد عصت أوامره وكادت تنور عليه لولا أن يادر إلى مدارئها بحكمته^(٢٠٤). وكذلك كان موقف السيد محمد علي بن أحمد الإديسي أمير العسور — فقال إلى أعدائها، وكان يسبطر على جزء من ساحل مهمة، فأرسل قواته كي مهاجم المراكز التركية في بلاده، واستولى على بعضها، واستسلم له الجيش التركي الذي كان فيها^(٢٠٥).

لكن الإمام يحيى محمد الدين في اليمن التزم جانب الحياه، مقرّراً بالمعطف على الدولة العثمانية، ونقل بدفة نصوص الاتفاق الذي جرى بينه وبين الترك سنة ١٩١٦^(٢٠٦). ولم يمر أذناً صاغية إلى جميع المحاولات التي بذلها الإنكليز لإقناعه في تغيير موقفه، ومهاجمة الجيش التركي — وكان شبه محصور هناك — واستخلاص بلاده منهم، ووعدهم بإياه بأن يعقدوا معاهدة معه، لكنه لم يكتف بالإعراض، بل أمدى إلى الجيش التركي في بلاده مساعدات عالية ومعنوية مكنته من مهاجمة الإنكليز في الجنوب فاحتل «الحجج» ودق أبواب عدن^(٢٠٧).

وأما الحجاز فإنه يعلو صورة خاصة عن موقفه من الجهاد، ذلك أن الشريف حسين — الذي كان قبل اشتراك الترك في الحرب قد وجه إلى السلطان رسالة استتخلف بجلالته فيها أن لا تشترك بلاده في الحرب، بسبب ما اعتراها من ضعف وهزال في حرب البلقان، وما هي بحاجة إليه من الأسلحة والمعدات، وما مستعرض له ولائها في الجزيرة العربية، كاثيرة واليمن والحجاز من

(٢٠٤) عبد العزيز الرشيد تاريخ الكويت ج ٢ ص ١١٧-١١٩.

(٢٠٥) مجلة الحرب العالمية الأولى جلد ٣ ص ٢٧، ٢٢-٢٤، مجلة الحرب العظمى ج ١٦ ص ٤.

(٢٠٦) راجع كتابي العرب والترك... ص ٢٣٩-٢٤١.

(٢٠٧) JACOB HAROLD, KINGS OF ARABIA, pp. 138-139; لمين سعيد الدولة العربية للصحة

هجمات الدول المعادية المحيطة بها من كل جانب، وهي ليست على شيء من التنظيم والتسليح اللذين تستطيع معهما أن ترد أي هجوم يقع عليها من جانب جيوش منظمة. وبمجم رسالته بقوله إنه يعتقد في كل من يرى الحرب إلى جانب الألمان عدم التمييز أو المحيطة الكبرى^(٢٠٨) — قد تهرب من تأييد دعوة الجهاد، حينها طلب منه ذلك بصلته صاحب أعلى سلطة دينية في بلاد العرب، ولجأ إلى المرافعة والتخلص من هذا التكليف بأسلوب لم يخل من الدهاء، قال فيه إنه سيؤيد الدعوة بكل قلبه ويزارها في صمت، ويسأل الله أن يكملها بالنجاح، لكنه يخشى انتقام الأعداء فيما لو يادر إلى تأييدها علناً، لأن الأسطول الإيطالي مسيطر على البحر الأحمر، وتغور الحجاز كلها تحت رحمته، وهو يخشى أن ينتقم منه بمحاصرها وربما قذفها بالفتائل، وبذلك ينقطع عنه وصول المؤن بحراً، فتعرض بلاده للمجاعة وبالتالي إلى ثورة القبائل عليه، وهو واثق أن السلطان وبمحكمته البالغة التي لا حد لها، سيقدّر حقيقة الأمر. ولم يتزجر عن هذا الموقف، فاضطر الأتراك إلى الإذعان لأوامره. لكنه مع ذلك أمر بأن تستخرج راية الرسول من مقرها في المدينة بموكب رثع — وقد اقترح ذلك هو بنفسه على رجال الحكومة فوافقوه عليه — وأن ترسل في احتفال مهيب إلى دمشق، ليتيّد بها الجيش المحتجز لفزوة مصر، تلك الغزوة التي كان الترك يخططون لها. وقد اتخذ من النداءير ما يكفل حشد كحالب من المجاهدين لنشترك في هذه الغزوة، وأرسل أتباعه للإشراف على حشد المتطوعين، كدليل على اهتمامه بالأمر^(٢٠٩)، وذلك بالرغم من أن القوانين العثمانية قد امتنعت الحجاجيين من الخدمة العسكرية خوفاً لهم وأرضهم المقدسة. وقد سار قسم من هذه الكتائب إلى الشام بقيادة مفتي المدينة المنورة، تقدمها راية الرسول، واستقبلت بخفاضة زائلة حين وصولها إلى دمشق^(٢١٠). بيد أن الأتراك قد استصدروا فتوى جهاد من الشيخ خير بن عولي المرقوبي، وكان من أسرة الحسين نفسها، لكنه كان مناقساً له^(٢١١).

وفي الوقت نفسه كان الشريف حسين يرسل أمراء العرب ورؤسائهم، ليسبر غورهم ويعرف موقفهم من الترك، استعداداً لما يزمع تخطيطه للمستقبل^(٢١٢) كما سنرى في الفصل التالي.

(٢٠٨) ملكرات الملك عبد الله، ص ١٩٨، المذكرات، ملكرات عن الثورة العربية ص ١٥٦.

(٢٠٩) أنطونيوس، المصدر السابق ص ٢٢٤ — ٢٢٥.

(٢١٠) أمين سعيد، الثورة العربية المتحدة ص ١٢.

(٢١١) COLONEL FREMOND, LE HEDJAZ DANS LA GUERRE MONDIALE, p. 23.

(٢١٢) أنطونيوس، المصدر السابق ص ٢٢٥.

لم يكن أثر إعلان الجهاد في الهند — وهي المملكة التي يقطنها أكبر عدد من المسلمين — كما توقعته سلطات الآستانة، إذ لم يتمكن مسلموها، بالرغم من الاضطرابات التي قاموا بها، من إضرام ثورة عارمة على غاصبي حقوقهم، تكفل طردهم من بلادهم. ذلك أن إنكلترا قد حشدت جيشاً كبيراً من ٢٥٠ ألف جندي بريطاني، لقمع كل حركة من هذا النوع^(٢١٣). هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الشعب الإسلامي في الهند يختلف عن الشعب المصري الذي كان حافداً على الإنكليز، وشمسكاً بعقائده، التي عقد عليها آماله الوطنية في التحرر، بينما كان المسلمون في الهند — فيما سبق الحرب العالمية — عنصر توازن بيد الإنكليز ضد الهندوس المطالبين بالاستقلال. ومع ذلك لم يكف المسلمون في الهند استياءهم من دعم الإنكليز لشرقية مكة في ثورته على الآستانة، وهذا ما دفعهم إلى قبول التحالف مع الهندوس عام ١٩١٦ والسور مهم بمدلد جنيأ لجنب في طلب الاستقلال^(٢١٤).

خير أن هذا الاستياء لم يترجم قط، إلى ثورة عارمة، لا في الهند ولا في غيرها من البلاد الإسلامية، وحتى التي ذكرته منها في البلاد العربية لم تكن سوى ثورات محدودة الأثر. وحتى مسلمو روسيا، الذين كان اعتماد الأتراك عليهم عظيماً، لم ينظروا إلى الجهاد النظرة المرتقبة، بل أنصح بعض أسراهم المخابرين في صفوف الجيش الروسي (وهم من أتراك قازان)، الذين وقعوا في أيدي الأتراك عن رأيهم حول الجهاد بقولهم «إن الحرب للدائرة ليست حرباً دينية، بل دنيوية، وليس للخليفة شأن في ذلك كي يعلن الجهاد، ذلك أنه ليس للإسلام في هذه الآونة دولة واحدة تجمع شتات شعوبهم يقوم على رأسها أمير للمؤمنين»^(٢١٥).

ومع ذلك أخذ للخلقاء حذرهم من دعوة الجهاد، وأخذتهم الخشية والاضطراب مما يحصل أن يتبع عنها من مصاعب في بلاد المسلمين، التي تحكمها، فقرضت إنكلترا الأحكام العرفية في مصر، واتخذت تدابير مشددة في الهند، ودفعت عتائمها من شيوخ العرب في أطراف الخليج العربي ليهذل جهودهم ونفوذهم لدى بني جنسهم من العرب، كي يلتزموا طرف بريطانيا في هذه

(٢١٣) مجلة الحرب العالمية الأولى ج ٦ ص ١٠ — ١١.

(٢١٤) صوريون، المصدر السابق ص ١٤٢.

(٢١٥) Y.H. BAYUR, Ibid. II, p. 331.

الحرب . كما أن فرنسا لم تتوان عن اغلاق التدابير الكفيلة بتأمين الهدوء في ممتلكاتها التي يقطنها العرب المسلمون في شمالي إفريقيا ، فحظرت على الصحف أن تعرض للترك المسلمين بكلمة سوء ، مخافة الإساءة إلى مسلمي مراكش وتونس والجزائر^(٢١٦) . وبقت الأرصدة لاحتقال دعمه للدولة العثمانية ، وأعلنت الأحكام العرفية فساوت الأمور سبوا الطيحي ، حتى أن القطعات التي أرسلتها فرنسا إلى الحجاز كي تشتبك في ثورة الحسين كان ضباطها وأفرادها من مسلمي شمالي إفريقيا . وهكذا لم تحقق دعوة الجهاد الغاية التي أحدثت من أجلها ، ولم يستفد حلفاء تركيا من دخولها الحرب الاستفادة المرجوة ، اللهم إلا إغلاق الدردنيل واليوسفور أمام كل ملاحاة متجهة نحو روسيا ، وإعاقة إنكلترا وفرنسا في إمدادهما روسيا بالعتاد والأسلحة الموجهة إليها^(٢١٧) .

خلاصة القول لابد من إلقاء سؤال : هل كان لدخول تركيا في الحرب أثر في تحول العرب عن الترك ؟ والجواب على ذلك ومن بما سيعقب هذه الخطوة من إجراءات ، وما سيتبع عنها من أحوال تؤثر على طمأنينة السكان العرب ، وعلى أحوالهم الاقتصادية ، وعلى مستقبلهم سياسياً أم إيجابياً ، هذه الأحوال التي أصبحت بمثابة السوء كما سيأتي معنا . فكان من الطيحي إذاً أن يلجأ غضب المتنبيين من أحرار العرب ، لا المتطرفين الذين صنفهم في الفئتين الثانية والثالثة فحسب ، أي المطالبين باضتغاف فرصة الحرب للثورة في سبيل الاستقلال ، والمطالبين بالانضمام للحلفاء ، بل أيضاً غضب فريق كبير من السكان المؤمنين للاجئين الأول ، الذي يقول بالإخلاص للدولة ومساعدتها حتى خروجها ظفارة من الحرب ، بحيث انقضت أغلبية جماهير الشعب عن حكومتها ، وعن الذين يؤيدونها من الفئة الأولى فيما سعى من التصنيف ، وتمت زوال الحكم التركي بأسرع وقت ، فأعلنت سهام النقد توجهه إلى المسؤولين من راج الأثرة في هذا المصير ، مما دفع الأحرار إلى العمل للخلاص من هذا الوضع الشدي . ولم يكن ثمة وسيلة سوى الثورة ليعملوا لها ، وراح كثير منهم وقدراً على مذبح الجريمة والتضحية .

(٢١٦) (٢١٦) Y.H. BAYUR, *ibid.*, p. 270. مجلة الحرب العظمى ج ١١ ص ١٧ .

(٢١٧) بوزونوف ، الفصل السابق ص ٤٧ .

حملة قناة السويس وأثرها في الانفصال

وصل جمال باشا إلى دمشق في ١٢/٦/١٩١٤ حاملاً معه مرسوم تعيينه قائداً لأهل للجيش الرابع لها، وولياً هاماً على مناطق كيليكية وسورية وفلسطين والحجاز، مع احتفاظه بوزارة البحرية. وقد أسندت إليه مهمة القيام بهجوم على قناة السويس، وكان لولب هذا الهجوم ومرديه ومهيته الضابط الألماني «فون كرس» رئيس هيئة لركان حرب الغلق الثامن^(١)، إذ كانت هذه الغزوة من نتائج فكره، وقد أوحى إليه بها من المعسكر الألماني^(٢).

سمع أن الألمان هم أصحاب فكرة هذا الهجوم إلا أنه قد وافق هوى في نفس جمال باشا، الذي كانت تراوده أحلام الجلوس على عرش مصر، بعد الاستيلاء عليها. بل في الواقع كان تسم ثلاثة أطراف كل طرف منها له أحلامه الخاصة بالنسبة لحملة مصر: أولاً — جمال باشا، ثانياً — عبدوي مصر عباس حلمي الثاني المبعود عنها، ثالثاً — الألمان خلفاء تركيا. كما كان هناك طرف رابع هو الصدر الأعظم البرنس سعيد حلم باشا.

أولاً: بالنسبة لجمال باشا: لقد أثر عنه، قبل دخول تركيا الحرب، قوله للمسئور هومار سفير فرنسا في الأستانة، إن مصر بالنسبة إليه كالأكراس واللون بالنسبة لفرنسا. وقد جاء في مذكرات جوارده بك، وزير المالية السابق، إنه قال له، عشية سفره إلى دمشق لاستلام مهامه

(١) Y.H. HAYUR, Ibid. p. 4147 V.1.

(٢) على قزاق، المصدر السابق، ص ٤٥.

الجديدة، بأنه لم يقبل أن يلعب الخديوي عباس حلمي^(١) برفقته في هذه الحملة لأنه ليس لهذا الشخص أي شأن بمصر، وأنه ليس من الصواب ترك هذه العائلة، بعد انتهاء الحرب، مستمنة غرضها الذي اهتمت به بالمؤامرات والدسائس. ثم تساءل: لماذا لا يكون هو حاكماً عليها، بعد أن يتم فتحها على يديه؟ وأضاف إن رفقاء الاتحاديين القانعين بهذا الاتجاه سيقررون ذلك في حينه^(٢).

قال للكاتب التركي صفوت عري في كتابه «ضيا كوك آلب والعائلة» إنه لم يكن القصد من فتح مصر إعطائها استقلالاً، بل ضرب الإنكليز ضربة قاصمة، تزهق منهم الروح، وفي الوقت نفسه إسداد حكمها إلى جمال باشا، وأن كل الترتيبات قد رمت إلى هذا الهدف^(٣). والواقع أن طموح جمال قد لقي ترحيباً من أنور الذي كان يريد التخلص من متاعس قوي له في قاعدة السلطنة، قدّم له هذه الترضية على أنها لقمة سائغة، وعلم أن فتح مصر عمل عالمي يخلد اسم صاحبه، ويجعله من رجال التاريخ، وهو يعتقد أنه في حال فشل الحملة يكون قد أورد موارد التهلكة، ويكون في الوقت نفسه قد تخلف من معارضته لمشروعاته وتصرفاته، التي كان مضطراً في غالب الأحيان أن يقوم بها في السر، وبحسب حقيقتها عن منافسه القوي هذا الذي يضاياه ذكاء وتفرداً^(٤). ولم يكن طلعت بك أقل ترويحاً منه، فقد تأمر مع أنور على إبعاده عن الأستانة، مصرحاً أمام أحد أصدقائه المخاضين، قائلاً: «جام»^(٥)، على الأقل إذا لم تتحقق حملة السويس فإن جمال إما أن يهلك، أو يحل بجيشه الكارثة بسبب نواقصه، وعندئذ يصبوب مبدمه على رأسه ويتحجر لتخلص منه^(٦). أما جمال باشا فقد كان سادراً في خيالاته وأحلامه التي كانت تلبده في الوصول إلى حاكمية مصر، والتي كان يتحدث عنها في كل مناسبة. وقد شغلت ذهنه لمدة طويلة، حتى أصبح يتحدث عنها والأسى بملأ فمه. قال مرة للبطرك الماروني في لبنان «لو لم تكن قوة الإنكليز متوقفة خمس عشرة مرة على قوتنا لكانت اليوم سلطاناً على مصر»^(٧).

(١) انضمت سلطة الإنكليزية في مصر غياب الخديوي عباس حلمي، الذي كان في زيارة للأستانة، لبقائه عن خديوية مصر، واستمرت لغاية في الأستانة أثناء الحرب عند إعلانها.

(٢) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 412.

(٣) صفوت عري، «المصر السابق»، ص ٩٢.

(٤) A.I. SABIR, Ibid. I, p. 90.

(٥) كلمة تركية تعال كفاية لحديث ونحو «روسي».

(٦) A.E. KURAN, INILAS FAHRETTİN VE JÖN TÜRKLER, p. 351.

(٧) G. GAUTHEROT, LA FRANCE EN SYRIE ET EN CHALDEE, p. 39; Y.H. BAYUR, Ibid. I, p.

ثانياً: ومن جهة عباس حلمي الثالث، الخديوي مصر الذي قصد الآستانة في الصيف قبل الحرب العالمية، فقد كان الخصاص قد اشتد بينه وبين اللورد كاتشير المعتمد البريطاني في مصر، والذي فكر في خلعهم، واستدعاء البرنس محمد سليم باشا الصدر الأعظم نفسه^(٩) من الآستانة لولي الخديوية مكانه، لولا أن رفض البرنس ذلك. حتى إن الخديوي نفسه فكر في التنازل عن العرش لولي عهده، نجله الأمير عبد المنعم^(١٠)، إذا ضمن له الإنكليز إمارة سورية، لكن وساطته لدى الإنكليز في هذا الشأن لم تنجح. وفي هذه الأثناء اندلعت الحرب العالمية، وكان لا يزال في الآستانة، حيث حاول شاب مصري يدعى محمود مظهر من شيوخ الكومنتيال^(١١)، وأصابه بجروح من مدس أسلحة النار منه عليه، وقد أشبهه الخديوي بأن التجاسر مدفوع من قبل ابن عمه الصدر الأعظم^(١٢).

حاول الخديوي، بعد نشوب الحرب العالمية، العودة إلى مصر، لكن الأتراك والألمان أحسوا بدمون من يقول له إن الأمير صغرت للأستولون البريطاني المرباط نجاة الدردنيل للقيض عليه وليرسله إلى مملكة^(١٣). كما أنهلته بعد ذلك السلطة الإنكليزية في مصر — التي يثت أثية على خلعهم — رفضها ذلك وأنها ستعنه من دعوها فيما إذا أقدم على العودة^(١٤)، متهمه إياه بالبول العثمانية، ونحرم الأتراك على احتلال مصر، مينة لوكيله خشيتها من نفوذه ودسائس بعض حاشيته، مع للميحها إلى موقفه من مسألة العقبة (عقابها)^(١٥). وقد أخذ الإنكليز في غيابه يضطهون على الحكومة المصرية لقطع علاقاتها مع ألمانيا، واتخاذ التدابير الحربية ضدها، فالتخذ مجلس الوزراء المصري قراراً بمنع التعامل معها، وحظر التصدير إليها، ومنع السفن المصرية من دخول موانئها.. ومن جملة قراراتها

(٩) عمر ابن الأمير سليم باشا بن محمد علي، وكان والده سليم باشا يسكن الآستانة وقد نشأ لولاده فيها، وانضم كبحم الأمير محمد سليم وأخوه الأمير عباس سليم إلى جمعية الاتحاد والترقي (الأمور شكيب أرسلان — للمصدر السابق، ص ٢٩٨).

(١٠) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ج ٢، قسم ٢، ص ٣٢٦ — ٣٢٨، ٣٤٦.

(١١) أمين محمد، الدولة العربية المتحدة، ج ١، ص ١٢١.

(١٢) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(١٣) أمين محمد، الدولة العربية المتحدة، ج ١، ص ١٢٢.

(١٤) محمد الرحمن الرافعي، للمصدر السابق ص ١٥، أحمد شفيق باشا، المصدر السابق ص ٣٣٧.

(١٥) أحمد شفيق باشا، للمصدر السابق ص ٣٣٤، ٣٥٢ من أجل قضية طابا وجميع كتابات العرب والترك ص ١٤.

فرض الرقابة على البعثات والرسائل والصحف ، ثم إعلان الأحكام العرفية ، ومنع تصدير كميات القمح التي كانت ترسلها سنوياً إلى الجمحاز^(١٠).

وقد حاول الخديوي في أثناء وجوده في الأستانة أن ينشئ وكيله ورئيس وزرائه حسين رشدي باشا عن السير وفق رغائب الإنكليز ، فأرسل إليه رسوياً لكي يقضيه بوجوب الاتفاق مع الأتراك ضد الإنكليز ، وأن يتخذ في وجهه المخطين خطة حازمة ، بدلاً من قبول كل ما يطلبونه منه ، فلم يوفق في ذلك لشدة ضغط الإنكليز على حسين رشدي باشا^(١١).

تقادت إنكلترا في إجراءاتها فأعلنت في ١٨/١٢/١٩١٤ مهاجمة على مصر ، وزوال لمرضاها الاسمى بتركيا ، ولم يكن هذا الإجراء في الحقيقة سوى حلول الحماية السافرة محل الحماية المقتعة^(١٢). وفي اليوم التالي (١٩ / ١٢) أعلنت خلع الخديوي عباس حلمي ، ونصبت مكانه الأمير حسين كامل بلقب « سلطان مصر » ، وبررت عيها هذا في التبليغ الذي وجهته إلى السلطان الجديد قائلة إن « لدى حكومة جلالة الملك أدلة وافية على أن سمو الخديوي قد انضم انضماماً قطعياً إلى أعداء جلالة منذ أول نشوب الحرب مع ألمانيا »^(١٣). وتحتت بلاغها بهذه الجملة المعيرة عن نيأتها المبينة « وبذلك تكون الحقوق التي كانت لسلطان تركيا وللخديوي السابق على بلاد مصر قد سقطت عنهما وآلت إلى جلالة »^(١٤).

في الواقع لم يخلف الخديوي عباس حلمي عداوه للإنكليز ، بل كانت حركاته بالأستانة تنم عن العداء لكل العداء لهم ، بعد أن بلغه ممانعتهم عودته إلى مصر . فقد جرى الصلح ، بعد جفاء ، بينه وبين محمد فرهد بك ، رئيس الحزب الوطني المصري ، على أساس الرغبة في إعلان الخديوي

(١٥) عبد الرحمن الرافعي المصدر السابق ص ١٠ - ١١ ، أحمد شوقي باشا المصدر السابق ص ٣٦٠ .

(١٦) أحمد شوقي باشا ، المصدر السابق ص ٣٥٧ .

(١٧) عبد الرحمن الرافعي ، المصدر السابق ص ١٤ - ١٥ .

(١٨) المصدر السابق ص ١٥ - ١٦ .

(١٩) لم يقف الشعب المصري موقف قلاباً لا تجاه عدله لفتنويات ، فقد تلقته الصحف بتعزير واحصبت بعضها من القهور ، واستصاعت الفشرات التي يهدد السلطان أن يجد طريقها إلى داخل القصر ، وأعلن طلاب الحقوق إضرابهم عن المحضر يوم نازته لكتلتهم ، وجرت محاولات لانجسالة ٨/٤/١٩١٥ ، ٩/٤/١٩١٥ ، ولاحتفال أحمد وزرائه ١٥/٢/١٩١٥ . هذا جداً من ضغط الشعب المكبوت بالأحكام العرفية بحيث أخذ ملووز للشعب يتساقطون فلاز لم يعلن إنكلترا استقلال مصر بعد ذلك لمرضاها بالأستانة إذا لم يكن إعلان الحماية مما تحسنى إليه في حذر حقوق مصر في استقلالها الفعلي تمام (لرافعي المصدر السابق ص ٢٢ - ٢٦) م . محمد حسين المصدر السابق ص ٢٣ .

الدستور للشعب المصري، وأصبحت هماً^(١٩) والشيخ عبد العزيز جاديش وأصحابه ليسب بك، وغيرهم من أركان الحزب الذين وجدوا في الأستانة في تلك الفترة، يعملون لمصلحة مصر، وصاروا يتصلون بأركان الحكومة التركية يتداولون معهم في سلوك الطريق الموصلة إلى تحرير بلادهم، كتنظيم نوامح الغدائين، وتحرير طلبة مصر ضد الاحتلال الإنكليزي^(٢٠). إلا أن الخلاف بين وجهتي النظر المصرية والتركية سرعان ما ظهر إلى الوجود حينما لمس المصريون سوء نية الأتراك، ورغبتهم في تحرير مصر، لا لتتركها للمصريين، بل لجعلها ولاية مثل باقي ولايات الدولة العثمانية. كما لمسوا من الصدر الأعظم سعيد حليم باشا سعيه ليكون حديدياً عليها، وهو الذي رفض هذا المنصب عن يد الإنكليز. فقد أعد هذا الأمر — الذي كان يحلم بالحدودية حتى صار مهووساً بها، كما جاء في حديث نقل عن أنور باشا^(٢١) — يستند محمد فريد بك على وضعه في عروة سترته، هو وإخوانه، شارة مكتوب عليها «مصر للمصريين»^(٢٢)، وقال عن الحزب الوطني بأنه دجال لا برنامج له يسير عليه. وكان يجمع في غرفته الشيخ عبد العزيز جاديش والدكتور أحمد فؤاد، وفؤاد سليم بك من المصريين المنشقين على جماعتهم، ويسمى لتأليف حزب جديد باسم «حزب مصر العثمانية»، بينما لا يرضى الجانب المصري عن حديديه الشرعي، وعن حزبه الوطني بدلالة^(٢٣)، ويظهر أن أنور وطلعت قد وعداه بالحدودية لإرضاء لما لسوء فيه من حب الظهور والصفحة والعظمة، فأصبح آلة في أيديهم^(٢٤).

كان الحديدي، كما يظهر من ملكرات رئيس ديوانه الحاج أحمد شفيق باشا، في هذه الفترة، كمن يعيش في «دائمة تكتنفها الإشاعات والذرائع، يحكمها الصدر الأعظم، بينما يسمى جمال في السر كمن يُعْمَى فائداً للحملة، ويهددها تعقيداً موقف المراوغة الذي وقعه منه كل من طلعت وأنور بطمئنتانه عن وقوفهما بجانبه، بينما هما يرمحان الحيلة لعزله عن كل شأن من شؤون الحملة التي كان يجري إعدادها لاسترداد مصر، فلا يطمئنه على شيء من أمورهما، ويوعزان لمصلحة المراقبة على المطبوعات والجرائد بشطب كل ما يظهر في برقيات الأنباء عن «حقوق مصر» و «حدودية عباس

(١٩) عبد الرحمن الرافعي، بطل الكفاح الشهيد محمد فريد، ص ١٧٨.

(٢٠) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص ٣٦٢ — ٣٦٣.

(٢١) المصدر السابق، ص ٤٢٣.

(٢٢) عبد الرحمن الرافعي، بطل الكفاح الشهيد محمد فريد، ص ١٧٩.

(٢٣) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص ٣٦١ — ٣٦٢.

(٢٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١٤، ص ٢.

على مصر^(٢٥) ولقد كشفت ملوكات جلويديك ، ونهر الخالصة المستقيل ، عن موقف بعض المسؤولين الأتراك من هذه القضية ، ذلك أن جلويديك قد بحث مع طلعت في شكوى الخديوي من مسألة الحملة فأجابها هذا بقوله : وما العمل إننا لا نزال مضطرين لتحمل هذا الشخص ومداراه . ولما تكلم في الموضوع نفسه مع خليل بك مستشار رئيس المجلس اتضح له أن هذا مقتنع بالاحتفاظ بمصر في حالة فتحها ، وبإبقاء الجيش التركي فيها ، وعدم خروجه منها^(٢٦) . إن هذه التاورات لم تكن ضافية على الخديوي وعلى الزعيم الوطني المصري محمد فريد ، اللذين تبنا أن الأفكار التي كانت تراود ذهن الأمير سعيد حلم لم تكن أفكاره هو فقط ، بل شاركه فيها معظم زعماء الترك ، وخاصة طلعت وجمال وخليل ، وكان هؤلاء يكتسبون نجاحهم ويتقدمون المصريين ، حتى يتم لهم فتح مصر ، وعندئذ يتصرفون فيها كما يريدون ، لذلك لم يرضوا أن يقبلوا أنفسهم بأي عهد نحو المصريين ، ولم يرضوا بأن يرافق الخديوي الحملة وأن يشرف عليها ، بل عهدوا بذلك إلى جمال باشا . وهذا ما زاد الزعيم محمد فريد صبراً وصلابة وتبسكاً مبدأً مصر للمصريين ، لا للترك ولا للإنكليز^(٢٧) ، بينما ضاق صدر الخديوي بهذا الجلو الذي يعقبه براحة الخديوة ، ويوقف حائراً بين تصريح أنور له بأنه سيجعله ملكاً على مصر ، خوفاً في إدارتها بعد تحريرها هي وإيران وأفغانستان من الاحتلال الإنكليزي والرومي ، بحيث تربط بين هذه الأقطار والدولة العثمانية رابطة أخوية إسلامية ، في حين يمسد إلى محاطته وتأمير التحالف بالحملة — بعد أن سارت إلى دمشق — يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع^(٢٨) ، وبين مناوأة الصدر الأعظم له ، وعدم كفه عن توجيه اللوم عليه : إذ كيف يقول بتعيين محمد فريد بك رئيساً لمجلس مصر التالي بعد تحريرها ، ولماذا يدعي فريد بك بأن مصر للمصريين ، ويقول بوجوده خروج الجيش التركي منها بعد تحريرها بأربع وعشرين ساعة^(٢٩) ، لا سيما وأنه قد لمس من الصدر الأعظم قناعته بأن لا لزوم لأن يتوجه (الخديوي) مع الحملة ، يدعي أن الجيش الزاحف على مصر عربي ، فإذا كان المقصود عند الخديوي وعند محمد فريد بك ، أن مصر للعرب فإنه يحسن حينئذ أن يحصل اتفاق بين الجند الشامي والخديوي والمصريين ، ولذلك لا يصح أن يكون الخديوي مصاحباً للحملة^(٣٠) .

(٢٥) أحمد شوقي باشا ، المصدر السابق ، ص ٢٧٠ — ٢٧٥ .

(٢٦) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 413 .

(٢٧) عبد الرحمن الرافعي ، بطل الكفاح محمد فريد بك ، ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢٨) أحمد شوقي باشا ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤ — ٣٦٦ .

(٢٩) عبد الرحمن الرافعي ، بطل الكفاح ... ، ص ١٧٩ .

(٣٠) أحمد شوقي باشا ، المصدر السابق ، ص ٣٨٨ .

لقد وقع حائراً بين هذه التصرفات وبين ما اعتقد من إسعاد بعض المصريين مثل الشيخ عبد العزيز جليلش والكتور أحمد فؤاد في الدرس عليه، والاشتراك مع وكيل الصدر الأعظم في نشر الإشاعات عن اختلاف المصريين في آرائهم، وما قصدهم من ذلك إلا تشييش الأذهان، وتجهيد الجو لجعل مصر ولاية عثمانية^(٣١). فما يدري أي دور سببته العثمانيون إليه في الحملة، هل سيكون قائدها، وهو لا يريد أن يتحمل هذه المسؤولية العسكرية، لم يكون بمثابة المعجزة الخامسة، وهذا ما يكرهه، أم سيكون بين يدي، يؤخذ رأيه وتوجيهاته، ويستعان به في دخول مصر، ثم يعاد إلى منصبه، وتحفظ لمصر حقوقها السياسية، فلا يغرق فيها الجيش التركي، والذي حررها، إلا فترة محدودة تنتهي بظهور نتيجة مؤتمر الصلح^(٣٢).

ولم يبقَ - بالرغم مما نُسب من سوء النية - ينسك بمحيط واحدة من الأمل، وتسايل: هل يبادله الأتراك إعلامياً بإعلامي مصطفى مصطفى؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا عينوا جمال باشا قائداً عاماً للحملة، دون أن يأخذوا رأيه، ولماذا لم يتنازل جمال باشا بعد أن صدرت الإذاعة السنية بقيادته لها، على الحضور لمقابته، قبل مغادرته الأمشة إلى دمشق؟ ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل سمعوا بأن يرافقه الشيخ عبد العزيز جليلش، وفؤاد سليم بك، والكتور أحمد فؤاد وغيرهم، وهم يعلمون أن هذا الأخير عدوه اللدود، وقد اشترك في مؤامرة اغتياله، فلم يتخذوا ضده أي إجراء أو تحقيق. لذلك أعدت الوسائل من نفسه ما ضلها، إذ أثبت أنهم متى دخلوا مصر سعوا في جعلها عثمانية بحيث يصبح للمصريون حينئذ، كما هو شأنهم في عهد الاحتلال الإنكليزي. كما أبدى خوفه الشديد من أن يمينوا الدكتور أحمد فؤاد على رأس دائرة الأمن في مصر، وأدرك أن ما أقدموا عليه حركة مقصودة من تدبير الحكومة العثمانية^(٣٣)، وأنها بمثابة نقض لما جرى الاتفاق عليه بينه وبين أنور والسفير الألماني في السفارة الألمانية، حينما عرض هذا الأخير فكرة توجيه حملة لاحتلال مصر على نفقة الحكومة الألمانية، فوافق أنور عليها، وتم التفاهم بين الثلاثة على السور بالاتفاق والحرص على الجوانب الثلاثة^(٣٤). وهذا هو الذي كان دفعه هو وجماعة الحزب الوطني إلى تحضير منشور يوجهه إلى شعب مصر يلقى عليهم بالطائرات. وقد طبع المنشور وأمر بالتدوير بوضع نسخته في صندوق وأرسلها، مع باورة توفيق فهمي بك، إلى دمشق حيث ينتظر جمال باشا الذهاب إليها على رأس

(٣١) المصدر السابق، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٣٢) المصدر السابق، ص ٣٦٧.

(٣٣) المصدر السابق، ص ٣٩٠-٣٩١.

(٣٤) المصدر السابق، ص ٣٧٢.

الحملة. كما تحركت التجريدة التي ألفها الخديوي — بعد تأسسه من إشرافه في الحملة النظامية، وهو يردد أن لا يكون في منزل عن الهجوم على القناة — نحو الجنوب في ١٥/١١/١٩١٤، وكانت مؤلفة من عدد من الضباط المصريين والسودانيين، يرافقها إسماعيل لبيب بك، وهاور توفيق فهمي بك، والشيخ محمد عثمان، وما يقارب الخمسين من صف الضباط والجنود، وبضعة عشر حصاناً، وأربعة بقال وعدد من الخيام... وصلت فعلاً إلى يبلان بين الاسكندرية وأطاكبة. وما كان أشد كسره وغيظه عندما علم أن أمراً من جمال باشا قد صدر، إلى منسوبه وأعضاء البعثة، بأن يعودوا إلى الآستانة ولم يسمح لهم بالبقاء — ولو لمدة وجيزة —. انتظاراً لأمر يعطى إليهم من مرجعهم الخديوي بالعودة^(٣٥). ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل علم أن أمراً تلغرافياً قد سلم إلى علوره توفيق فهمي بك بوجوب حرق وإتلاف نسخ المنشور الموجودة بحوزته، وكان الخديوي قد أرسلها مع التجريدة^(٣٦)، لأن ما جاء فيها بالنسبة للسلطان حسين — أي بتعيينه سلطاناً على مصر — غير محقق، ولأن للأتراك بعض ملاحظات على نصه^(٣٧). وهذا ما جعله يتفجر غضباً، ويزداد وسواساً وتأساً من إخلاص العثمانيين له ولقضية مصر. وقد ندم على كونه قد وضع يده بينهم، ووصف حالته بأنه لم يقع مرة على «بريء» مثل هذه الوقعة. وفكر في توجيه رسائل إلى المسؤولين في مصر يخبرهم فيها من جمال باشا في حالة دخوله مصر. ثم إنه حشنى على سماته فيما إذا بقي في الآستانة، فغادرها إلى طيسا نحائياً باسم^(٣٨) تلقاً من عدم صدور لإرادة شاهانية بتحديد مهمة حملة القناة، ومن عدم التصريح برجوعه إلى عرشه، ويحفظ امتيازات مصر، كما كانت عليه قبل الاحتلال الإنكليزي^(٣٩).

غير أن الإرادة الشاهانية قد صدرت بعد مغادرته الآستانة، ونصت فقط على تحديد مهمة الحملة بإرجاع مصر إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال الإنكليزي، والاحتفاظ بالامتيازات التي عولتها

(٣٥) المصدر السابق، ص ٤٠٧ — ٤٠٨.

(٣٦) جاء في المنشور تنديد الاحتلال الإنكليزي لمصر وأصلاؤه وسفوفه وحصفه، وشكر إنكفاره لرجوعها في الجلاء، وتعبها عودته إلى عرصة خلافاً للبرينات التي كانت للشاهانية ذات السيادة العليا على مصر، وبين أنه ولد الحزم على تحرير مصر والإشراف في الحسنة السيرة لاستردادها، وإن باستطاعة المصريين أن يجهدا التسلل إلى ظفرها بالمعادهم وسباغهم إليها. وتأمم بأن يبع الخلاص له ذاك، وأنه وثق من النصر، وأنه يعلن منذ الآن للحكم الدستوري للقرن الحفوق الشعب السياسية (المصدر السابق، ص ٣٨١، من نص المنشور).

(٣٦) المصدر السابق، ص ٣٨٦ — ٣٨٢. من جملة ما تعرض عليه الأتراك النقطة التي تمنح لها الخديوي الحكم الدستوري للشعب المصري.

(٣٧) المصدر السابق، ص ٤١٢، ٤٢١، ٤٣٤، ٤٣٧.

(٣٨) المصدر السابق، ٤٤١.

لها القرارات الشاعانية . لكنها لم تشر إلى إرجاع الخديوي إلى عرشه ، ولم تصدر إلا بعد مراجعات كثيفة ومستمرة من قبل المصريين لسفير ألمانيا في الأستانة ، وللصدر الأعظم الذي كان يتضابق من المراجعة ويقول : « مالي أراكم تستعملون هذا الطلب يا مصريون ؟ لست شهرين وأنتم تلتحون علينا » . ولما أجابوه بأن ذلك في صالح الحملة قال : « بل في صالحكم أنتم » ، ثم وعدهم بإصدارها^(٢٩) . وفي الوقت نفسه أصدر السلطان العثماني تصريحاً موجهاً إلى المصريين في ١٢ شباط ١٩١٥ قال فيه : « أحمد الخالق المقدير الذي أتاح لي الفرصة السعيدة بأن أرسل أحد جيوشي السلطانية لتخليص بلدكم الجميل ، وأنا على يقين بأن عسكري سوف يوفق بإذن الله في تحريركم من رقة العدو ، ومن تدخله في شؤونكم ، وأن تعمد إليكم استقلالكم وحريتكم »^(٣٠) . غير أن جميع الدلائل كانت تشير إلى أن كل ما كان يصدر عن السلطات العثمانية ، بشأن مصر ، لم يكن إلا لتغطية لباهم في استعمارها بعد أن يحتلها ، وأن تصورها بأن الهدف من تحريرها هو إعادتها إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال الإنكليزي لم يكن إلا وهماً وتضليلاً ، وأن إلحاق مصر بالدولة إلحاقاً تاماً بعد تحريرها قد قُدر في الاجتماع الألماني التركي الذي عقد لتقرير مهام الحملة^(٣١) . ومع ذلك جازت توبيخات الأتراك على زعماء الحزب الوطني المواليين للعثمانيين ، وعلى رأسهم أحمد فريد بك ، الذي ظل على ولائه للرابطة العثمانية ، ورجا الأخير على يد الحملة ، موقفاً بأن المصريين سيهبون إلى دعمها ، ولكن بعد اجتيازها القناة وبعد توزيع الأسلحة عليهم ، وأن الدعاية التي تقول بأن الترك سيلاحظون مصر إلحاقاً تاماً بعد تحريرها ليست إلا من دسائس الإنكليز ، وأن مصر والسودان ستشكلان ، بعد تحريرها الدغامة الأولى للاتحاد الكونفدرالي الإسلامي الذي دعا إليه محمد فريد في رحلاته إلى شمال إفريقيا (١٩٠٦ ، ١٩٠٧) والذي يفكر فيه أنور باشا^(٣٢) .

ثالثاً : موقف الأتراك : أما موقف الأتراك فإنهم بالطبع لم ينظروا إلى مصلحة الأتراك ولا إلى مصلحة المصريين . وإذا كانوا قد أظهروا بعض الميل إلى إسناد قيادة الحملة إلى الخديوي عباس حلمي ، وإبراز العنصر المصري فيها ، فلم يكن ذلك إلا رغبة منهم في تسهيل انضمام الشعب المصري إلى جانب الحملة ، والمبادرة إلى دعمها ومساعدتها داخل مصر بالذات . وإذا كانوا قد

(٢٩) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٢ ، ٢٨ .

M.F. BEY, Ibid. p. 79. (١٠)

AL-IHSANIS, Ibid. I, p. 179. (١١)

M. PERID BEY, Ibid. pp. 78-80. (٢٢)

أنفصحو عن رغبتهم في إبقائها، بعد التحرر، كما كانت عليه قبل الاحتلال الإنكليزي^(١٣)، فإن ذلك من مصلحتهم أكثر مما إذا تولى حكمها الأتراك مباشرة، وقد امتدت أحلام قادتهم لي بادي الأمر حتى إلى إدخال مصر في حوزتهم^(١٤).

الواقع أن الناحية الحربية هي التي كانت مهم الألمان أكثر من أي شيء غيرها، ذلك أن الحملة:

١ — تخفف الضغط عن الجبهة الغربية بإزحام الإنكليز على تجميد قسم كبير من جيوشهم في مصر، بدلاً من إرسالها إلى تلك الجبهة^(١٥).

٢ — بما أن قناة السويس هي المر الذي تنقل إنكلترا مهماتها وجيوشها عبره من مستعمراتها في مصر وأوقيانوسيا فإن احتلال مصر، في حال نجاح الحملة، يحررها من هذا المر وبالتالي من مساعدة هذه الجيوش. وأما إذا تعذر فتحها، فلا يكون متعللاً بإعاقه هذه الجيوش وإبقائها ألبماً طويلاً في قناة السويس، وإقصائها عن الساحة الغربية التي فيها يكون تقرير العصور^(١٦) فضلاً عن كونها تحول بين الإنكليز وشرورهم الذي هم بحاجة إليه من شواطئ الخليج العربي^(١٧).

٣ — إن من شأن هذه الحملة أن تشغل الإنكليز بالدفاع عن مصر، وتحول بينهم وبين التفكير في أية محاولة للهجوم على المضائق وقلاعها.

على هذا الأساس وضعت ألمانها خطتها الحربية بحيث إن العمليات الحربية التي أوكلت إلى الجيش العثماني تلتخص في أن يركز أقدامه في الخليج العربي، وأن يسيطر على باب الخندق، بواسطة قواته الموجودة في اليمن، وأن يحتل قناة السويس، وفي الوقت نفسه كانت المهمة التي أوكلت إلى الأسطول الألماني السريع هي أن يجوب المحيط الهادي لمرقلة ملاحه الإنكليز وقواتهم بين هذا المحيط وأستراليا، وبين أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح^(١٨). قال: الفيلد مارشال هندنبورغ رئيس أركان حرب الجيوش الألمانية في مذكراته: «كان على تركيا أن تحافظ على أراضيها وتبقي القوات التي

(١٣) أحمد شوقي باشا، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٠، ٣٩٦، ٤٢٦، ٤٣٥.

(١٤) J.H. BAYUR, Ibid. I, p. 415.

(١٥) حمد الله بن الحسين، مذكرات... ص ١٠٠.

(١٦) علي فريد، المصدر السابق، ص ٤٥.

(١٧) J. PICHON, Ibid. p. 4.

(١٨) Ibid. pp. 3-4.

تصادمها بعيدة عنا ، فإذا فازت بهاتين التبعيتين تكون قد أثبتت المهمة التي تخصصها في نطاق أعمالنا الحربية الهامة^(١٩) .

لقد نفور مبدأ القيام بعملية قناة السويس ، منذ ١٦ آب ١٩١٤ ، في اجتماع عقد بين الجانبين الألماني والتركي في مكتب أنور باشا بالمقر العام للجيش في الأستانة ، حضره عن الجانب الألماني السفير فون فانجنهيلم والمشير ليمان فون ساندروس ، ووزارت باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش العثماني ، والأميرال سوشون قائد الأسطول ، والكولونيل فون كهرس ، وكان حينذاك يتولى منصب الرئيس الألماني لشعبة الحركات العسكرية في هيئة الأركان العامة المشتركة ، والمحقق العسكري والمحقق البحري الألمانيان ، ولم يحضره عن الجانب التركي سوى العقيد حافظ حقي إلى جانب أنور باشا . وقد عرض بعض الضباط الألمان اقتراح القيام بعملية على قناة السويس ، فقال هذا الاقتراح أرجحية الأهداف على أساس الأهداف المذكورة آنفاً ، مضافاً إليها أنه في حال نجاح العملية ستلحق مصر إلحاقاً تاماً بالسلطنة العثمانية^(٢٠) .

وإذا قلت إن الناحية الحربية هي التي كانت بهم الألمان بالدرجة الأولى ، فليس معنى ذلك أنهم لم ينظروا إلى التواصي الأخرى ، فقد كان للمسألة وجوهاً السيامية والاقتصادية في نظرهم . فمن الناحية الأولى كان هدفهم من حملة السويس إيقاع المترك مع الإنكليز ، والحيولة دون التفكير بإمكان عقد صلح منفرد بينهما . هذا ما جاء في ص ٤١ من مذكرات فون كهرس نفسه في كتابه « مع الترك جنباً لجنب شطر قناة السويس »^(٢١) قال « لم يفتني أن أدرك قبل أي أحد آخر أن الحركة التي أخذنا على عاتقنا للمتهم بها للاستيلاء على قناة السويس سوف لا تنجح إذا أقدمنا عليها في العام ١٩١٤ ، ولكننا لم نضغط من حسابنا ما كانت عليه الميول السيامية تقسم كبير من العسكريين والمدنيين الأتراك المعارضين لسياسة أنور وطلعت ، وفقدنا الأمور على أساس احتمال وقوع انقلاب على هذين السياسيين ، فلذلك عقدنا معنا معاهدة التحالف ، وكانت نخشيتنا عظيمة من أن تمتد الوزارة الجديدة ، في حال حدوث ما قفرتاه ، إلى إلغاء هذه المعاهدة والتوصل من الالتزامات التي ربط الأتراك أنفسهم بها لحونا . لذلك اقتضت مصلحتنا أن نشير للحرب ، بأسرع ما يمكن بين

(١٩) مذكرات هاندرلج ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٢٠) A.B. KURAN, Osmanlı İmparatorluğunda Ve Türkiye Cumhuriyetinde İktisadi hareketleri. (٥٠)

p.63; A.I.SABIS Ibid. I, p. 179.

(٢١) راجع كتاب Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 413.

الأكراد والإنكليز، وتفتح الفرصة لسفك الدماء بينهما. وقد علقنا أهمية كبرى على إخلاص الترك لتلك المعاهدة في كلا حالتي إحرازهم النصر على الإنكليز أو الشعور بحس الانتقام فيما إذا عسروا المعركة معهم .

هذا من الناحية السياسية أما من الناحية الاقتصادية فإن الألمان حللوا بميزة أسهم قناة السويس، وهو ما دونه جايهيد بك في مذكراته نقلاً عن أقوال أحد المالكين الألمان «فون ووتز Von Wetz» قال «نفي خلال محادثتنا عن المسألة المصرية جليت انتباهي عبارة قال بها قائلاً إننا بعد الاستيلاء على مصر سنرغم حاملي سندات قناة السويس أن يبيعوها لنا، عن طريق القوة»^(٥٢).

على أن السفير الأمريكي «مورجانثو»، الذي كان في الآستانة حينئذ، رآياً حول موقف الألمان من الحملة لابد من التنويه به هنا. قال بأن ألمانيا قد فكرت بالصلح في أواخر ١٩١٤ وأوائل ١٩١٥، بعد إخفاق هجومها في معركة المارن، واحداً منها أن الحرب ستطول، بينما هي قد استعدت الحرب بصورة محاطة، وأن سلمها في الآستانة قد اقترح مبدأ لعقد الصلح، هو أن يمتنع ساسة الدول المتحاربة لإنهاء النزاع على أساس «خذ - هات» وهل أن تعقد الهدنة أولاً، ثم تعقد جلسات المفاوضات لتلا تعزل المروض المسبقة فكرة الجلوس للتفاوض، وقد قدمها إلى سفير أمريكا كي تتوسط دولته بين المتحاربين، فأرسلها هذا إلى حكومته، فرفضت لتحمل مسؤولية التوسط في الصلح على أساسها.

وقد أضاف السفير الأمريكي على هذا قوله إن الذي دفع السفير الألماني للتصجيل في عقد الصلح هو ذهاب الحملة التركية إلى مصر. فقد قلن الألمان من احتمال نجاح الحملة، لأنه في هذه الحالة قد يقف نجاحها سداً منيعاً في سبيل سياستهم الشرقية، لأن ألمانيا كانت ترهق الحصول على وعد من إنكلترا بالاعتراف بنفوذ ألمانيا في العراق، مقابل اعترافها بنفوذ إنكلترا في مصر^(٥٣). وإن دل هذا على شيء فهو إنما يدل على عدم جد ألمانيا في إرسال للحملة، واشغافها وسيلة للمساومة، ولكن ليس معناه قلن الألمان من احتمال نجاح الحملة، كما قال السفير. وهل رأي أن ألمانيا تكون في متبني الاعتباط لو نجحت، لأن الأهداف للبعثة من نجاحها عظيمة الشأن بالنسبة إليها.

(٥٢) Opelt, p. 413.

(٥٣) مجلة الحرب العالمية الأولى ج ١٢، ص ٣٢ بقلم سفير أمريكا في الآستانة.

وأخيراً : أما الطامع الرابع في شهوية مصر ، وهو الصغر الأعظم البرنس سعيد حلم باشا ، فقد تحدث عنه بما فيه الكفاية ، خلال حديثي عن المحدثي عباس حلمي والمسألة المصرية .

معركة الحملة

خاضت الحملة محطة الأستانة في ٤/١٢/١٩١٤ باحتفال مهيب حضره الوزراء وكبار الرجال في الدولة وحشد كبير من الجماهير . وألقى جمال باشا خطاباً حماسياً — جواباً على كلمة أحد الخطباء بأن الأمة تنتظر منه أعمالاً عظيمة — قال فيه : « إنني أفتر تماماً خطوة المهمة المقبلة على عاتقي ، وجسامتي المضاعف التي تنتظري ، فإن لم أدرك الغاية المرجوة ، وسقطت ومن معي جثثاً هامدة على صفحة القناة ، فإن على من يقفون وراءنا من أبناء هذا الوطن المخلصين أن يجعلوا من أجسامنا جسوراً يمشون عليها لتحرير مصر — وديعة الإسلام — من أيدي غاصبيها »^(٥٢) . ثم تاهمت سيرها إلى دمشق ، وكانت تستقبل في كل محطة تقف فيها مظاهر الحفاوة والإتياج . وكان المستقبلون من مختلف الطبقات : من العلماء والوجهاء ، وعامة الأمة وطلاب المدارس ، وبأيديهم الرايات ، ورجال الإدارات الملكية والعسكرية ، تُلقى الخطب بين يدي جمال وترفع الأصوات بالدعاء ويشند أناشيد الانتقام للرومالي ، يشعرك في إنشادها بنات يحمتهن حروب البلقان ، بصوت شجي يندر العبريت ويرمض الخواطر^(٥٣) .

ولعل ما لقيه الحملة من مظاهر الحفاوة في حلب وحماه وحمص ودمشق قد فاق كل مكان آخر ، إذ زينت دمشق بأجمل حللها ، وتراخض الأكراد إلى موقف القطار ، وذُبحت الأضاحي ، وأُقيمت للتصائد الحماسية^(٥٤) . وقد توالى هذه المظاهرات في كل منامة ، ولكن كثيراً منها كان مصطنعاً ، بحيث يُشرى الصنفون والمتحافون بالمال ، يجتمعون حول الجوامع الكبير عندما يؤم جمال للصلاة ، فينادي المتحافون عبارات لغتها لهم المداهنون^(٥٥) . وأصبحت شائعة مألوقة على الأسماع : « إن الله جميل يحب الجمال » ، « يا الله النصر » ، « يا الله النصر جمال باشا افتح مصر » ، « يا وائي الشام

(٥٢) CEMAL PASA, *Histoire* p.155; I.H. DANISMEND, *Ibid.* p.421.

(٥٣) على قزاق ، المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٥٤) للمصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٥٥) I.H. DANISMEND, *Ibid.* pp. 421-422.

يا ولي، نحن علينا العرض غالي»^(٥٦). وهو نداء يستثير حمية جمال لإنفاذ المصريين من جور الإنكليز وغيرها من العيادات التي تحت جمالاً على فتح مصر، جميعها في دمشق، كما سمعها في كل مدينة تركية أو عربية كان يمر بها قطاره.

في الواقع إن الحيلال والحماسة قد تغلبا على كل شيء في حملة مصر، ولم يتعم أحد النظر في الناحية التقنية وسوق الجيش. لم يخطر أحد في صعوبة الزحف في الصحراء، وما سيعرض الجيش في طريقه عنها من مهالك، فقد ملك الزهر والقصر مشاعر جميع المسؤولين والعسكريين، ولم يعلم أحد بغير الفتح الذي سلب لب الأمة، واستهوى قواها بمناظر «الأهرام» الخلابه. كان جميع المسؤولين في هذا الأمر سواء، إلا واحداً راح مركزه ضحية اعتراضه، أو بالأحرى ضحية فكره الثمر وتجربته وذلك هو القائد الذين برهن عنهما قبل الآن في معارك البلقان، ووصم رأيه بالسحق ومقدرته بالعجز، ذلك هو الفريق زكي باشا الحلبي العربي، الذي كان قائداً للجيش الرابع وولياً عاماً على دمشق وكيليكيا وفلسطين... وكان اعتراضه مبنياً على حسابات دقيقة مدروسة وسراير ساطعة^(٥٧). لقد بين الحاجة الملحة إلى سكة حديد لمسافة ٥٠٠ كم، بين نابلس وقناة السويس، ولم تكن موجودة في منطقة صحراوية جرداء قاحلة، وبين صعوبة نقل الأوزان والمؤن والمعدات على ظهور الجمال طيلة هذه المسافة، وغير ذلك من الصعوبات الفنية، فلم يمه إلى براهنه الساطعة وحُرم على التايين البحث في مجال الحقائق والمسكنات، وتقرر القيام بالغزو كيفما اتفق^(٥٨). وصدر مرسوم بتعيين زكي باشا الحلبي ممثلاً للقادة العامة التركية في مقر القيادة العليا الأتمانية، ومرافقاً للإمبراطور الألماني، وجيء بالمقابل بالجنرال فون درغولتز مرافقاً للسلطان العثماني، لكنه مرعان ما ولي عملاً عسكرياً في العراق بعد مجيئه^(٥٩).

وإذا وجب على الإيجاز في للتواحي العسكرية المصرفة، لضيق المجال، فلا بد لي مع ذلك من أن ألقى نظرة خاطفة على الصعوبات الفنية، هذه الصعوبات التي سرعان ما اعترضت للقائمين على الحملة منذ أيامها الأولى، وأهمها فقدان الفحم الحجري الذي كان قبل الحرب يرد إلى الإسكندرونة عن طريق البحر، فامتنع استيراده بسبب الحصار البحري الذي ضربه الأعداء على الشواطئ.

(٥٦) يروي ذلك المزارع القري «إسماعيل حامي دانهشند» في كتابه «حولية التاريخ التركي» كشاهد عيان مكث عشرة أيام في دمشق في هذه الفترة.

(٥٨) (٥٨) A.I. SABIS, *ibid.*, p. 103. علي فزاد، المصدر السابق، ص ٤٦.

(٥٩) علي فزاد، المصدر السابق، ص ٤٧.

(٦٠) A.I. SABIS, *ibid.*, p. 111.

العثمانية. فقد وجب على المسؤولين أن يستعملوا المحطبات والخشب في تسير القطر، علماً بأنه لم يحظر لأحد أن يخرج من الفحم ما يكفي لتسيير عجلة الحرب قبل وقوعها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقبضاً على قنصلان الخطوط الحديدية التي توصل القوات حتى القناة، فإنه لم يكن ثمة طرق برية صالحة ولا سيارات نقل (كميونات) إلا القليل. صحيح كان بالإمكان — ولكن بصعوبة بالغة — جلب ما يكفي من هذه الوسائل من ألمانيا، ولكن الصعوبة كل الصعوبة كانت تتمثل في نقل التورود السائل اللازم لها من ألمانيا إلى القناة، ولم يكن مستطاعاً، بحال من الأحوال، جلب ما يكفيها من هذه المادة. في هذه الحالة كان من المتعذر جداً تأمين القوات والأرزاق وماء الشرب والمعدات والذخائر الحربية، وسائر المهمات التي كان الجيش الزاحف بحاجة إليها، والتي كان من الواجب أن يأخذها معه حال حركته^(٦١)، وهناك ناحية هامة لم يمررها المهاجمون أهمية هي أنه بوجود قناة السويس بين القارتين الآسيوية والأفريقية، أصبح من المهم على القوة المهاجمة لا أن تفكر في القوة البرية المدافعة فحسب، بل أيضاً بالسفن الحربية الانكليزية التي ستصادفها في القناة، والتي تستطيع مدافعها المضخمة أن تنثر عقد الحملة وتردها على أعقابها. وكان من المفروض على القوة المهاجمة، والحالة هذه، أن تنقل مدافعها المضخمة معها إلى ضفة القناة، ليكون باستطاعتها إغراق السفن البحرية المذكورة، أو إجبارها على الانسحاب أمامها. لكن عدم وجود السكك الحديدية حال دون نقل هذه المدافع^(٦٢).

أمام هذه الصعوبات قصفت الضرورة بأن ينقص عدد أفراد الحملة إلى لقل ما يستطاع بحيث وجب عليها أن تبدو ضعيفة هزيلة. إن من يطلع على أخبار الاستعدادات الحربية المضخمة التي قام بها الانكليز بالمقابل، بعد ستين في صحراء سيناء، عند بدء عملياتهم الحربية في هذه الجبهة، يرى الفرق واضحاً جلياً بين الحالتين^(٦٣).

الفيلق الثامن — بقيادة جمال باشا (الصغير) ورئيس أركان حربه الجنرال الألماني فون كريس — هو الذي شكل العمود الفقري لهذه الغزوة، وكانت معظم مرتباته من العرب، وقد تراعى للمسؤولين أن لا يتقوا بهؤلاء، فأرسلوا معظمهم إلى الأناضول واستبدلوا بهم عناصر من

(٦١) A.L. SABIS, Ibid. 1, pp. 192-193.

(٦٢) مجلة الحرب العظمى، ج ٥، ص ٩١.

(٦٣) A.L. SABIS, Ibid. 1, p. 193.

الترك^(٦٤)، فتألفت القوة الزاحفة من فرق الفيلق الثلاث (٢٣، ٢٥، ٢٧)، وفيها ١٠ كتائب و ٣ سرايا مدافع رشاشة و ٧ بطاريات مدفعية فيها مدافع صحراء، ومدافع جبلية، وطاقات مدافع سرعية الطلقات، ولواء هجائي، وكتيبة استحكام وغيرها، وعدد أفرادها ٤٣٦ ضابطاً، و ١٣٩٢٥ جندياً، و ١٧٥٣ حصاناً، و ٤٥٢ سائلاً و ٣٠٥٧ بعيراً بعث بها أمراء العرب، ومنهم ابن سعود وابن الرشيد وغيرهما من أمراء العرب، بالإضافة إلى الفرقة العاشرة وغيرها من الوحدات التي إذا أضفنا عدد أفرادها إلى ما سبق بلغ ٢٥ ألفاً. وقد أبقى في سورية وفلسطين بقية مرتبات الفيلق الثامن بالإضافة إلى الفيلق ١٢ الذي استقدم من الموصل، ولم يكن لدى الحملة لا طائرات ولا برقي أو لاسلكي، ولا غيرها من العدد الغنية الحديثة^(٦٥).

والجدير بالذكر أن جمال باشا لم يمس أن يحتل منصبة جبل لبنان، وأن يوجه إلى ولاية بيروت قوة عسكرية إضافية، حماية لظهوره من هجوم مفاجيء يأتيه من العدو بحراً، وزعها على طول الساحل اللبناني، يفسد المراقبة لحركات الأعداء، وفي مختلف النواحي منذ ٢٢/١١/١٩١٤، بعد أن طلب من حكومة الجبل موافقتها، وحصل عليها. وفي الوقت نفسه أعلنت حكومة الأمانة ووزارة خارجية الدولة الإيطالية، التي لم تزل حينذاك وحدها الوافدة على الحياد من بين الدول للفرقة على نظام جبل لبنان والضامنة لاستقلاله الذاتي، مؤكدة أن هذا التدبير ليس (لا تدبيراً مؤقتاً)^(٦٦). وبعد ذلك أذاع على أهالي جبل لبنان، وولاية بيروت بلاغاً حثهم فيه على الانتفاخ حول العرش العثماني، لحماية الوطن المهلوس^(٦٧)، داعياً إياهم إلى موازنة الجند لدى أي هجوم يقع من الأعداء على المنطقة، مطمئناً عواظهم إلى بقاء أنظمتهم السابقة على ما كانت عليه، وإلى أنه، بالرغم من وجود الأحكام العرفية، فإن الأمور التي لا تشملها هذه الأحكام، مثل الإعفاء من الخدمة العسكرية، ودفع بعض الضرائب، ستبقى مراعياً للإجراء، محلواً كل من يحاول منهم الإخلال بالأمن من سوء العاقبة^(٦٨). لكن جمال باشا لم يكن صادقاً في قوله هذا، لأن الدولة العثمانية قد أقدمت — قبلها العمل فعلاً — على إلغاء امتيازات لبنان واستقلاله الذاتي، لأنها عمدت، من ذلك الوقت، إلى تعيين منصرفي الجبل دون استشارة أي دولة من الدول الضامنة لاستقلاله، لكونها في حالة حرب

(٦٤) مجلة الحرب العظمى، ج ٥، ص ١٦، من مقال بقلم المحرر السياسي والحربي لجرميد التامس.

(٦٥) علي لؤي، المصدر السابق، ص ٥٤.

(٦٦) S. KANAAN, *Le Liban*, pp. 43-45. خير الله خير الله: معطلة الشرق، ص ٧٠.

(٦٧) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١٤، ص ٣٠.

(٦٨) الحوري أنطون عون، المصدر السابق، ج ١، ص ١١، ١٦-١٧.

معها^(٦٧)، ولم تعتمد إلى تجر عملها هذا إلا في العام ١٩١٧، حيث أعلنت رفضها لمعاهدتي باريس وبرلين، وعملت لإفادها استقلال الجبل بقرها «إن استقلال جبل لبنان النوعي الذي ضمنه الدول العظمى إنما كان قد أعطي بضبط الحكومة الفرنسية^(٦٨)».

وهكذا سارت الحملة بعد أن سقطت نهجيات من العربان المطوعين غير النظاميين بذات عمل قبل عدة أسابيع من مسير الحملة^(٦٩)، وكانت مؤلفة من كتيبتين الأولى بقيادة المقدم لفيال «أزميرلي ممتاز» مرافق أنور باشا سابقاً، وقوامها ألفان من العربان، والثانية بقيادة «أزميرلي أشرف بك قوشجي زاده» وفيها عربان بالعدد نفسه، استولت الثؤل على العرش وتحصنت فيها، واستولت الثانية على قلعة النخل وسط صحراء سيناء^(٧٠).

الإنكليز والحملة

من اليديى أن قناة السويس كانت تشكل أهمية كبرى لإنكلترا من الناحية الاستراتيجية، لذلك ما إن وقعت الحرب بينها وبين ألمانيا حتى عمدت إلى تعزيز جيشها في مصر، ولم يكن عدد أفراد حاميتها فيها قبل الحرب ليزيد عن خمسة آلاف جندي. فأنصرفت بمساعدة فرنسا إلى تحصين القناة لمنع الاعتداء عليها، وأخذت السفن الحربية المشتركة تقوم بحمايتها من جميع أطرافها، كما ولت إنكلترا أن تصحب حاميتها الموجودة في شبه جزيرة سيناء خشية من احتكاكها مع الأتراك، ذلك أن معلومات سرية كانت قد وصلت إلى الإنكليز، عن طريق بعض عميلهم المبتثة في صفوف العرب السوريين^(٧١)، بأن الأتراك يجهزون جيشاً كبيراً لغزو مصر من جهة فلسطين، كما بلغ السلطات الإنكليزية في (٢٣ أيلول) أن بعض البدو قد اخترقوا الحدود في جهة رفح، فأعدت في إرسال القوات اللازمة إلى ضفة القناة حتى لا تفاجأ وتؤخذ على حون غرة^(٧٢).

S. SANAAN, Ibid. pp. 4-5. (٦٩)

K.T. KHAIRALLAH, Les régions Arabes Libanes, p. 68. (٧٠)

G. CAUZEROT, Ibid. p. 26. (٧١)

H. ERTURE, Ibid. pp. 112-113. مذكرات جمال باشا، ص ٢٥٣ + أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص ٤١٧. (٧٢)

Y.K. BAYUR, Ibid. I, p. 208. (٧٣)

مجلة الحرب العظمى، ج ١٦، ص ٨-١٢ من مقال بقلم السير مكسيموف. (٧٤)

في محاولة من الألمان لتذليل صعوبات النقل بدىء بمجد بعض الخطوط الحديدية وإنشاء طرق للسيارات باتجاه القناة بدءاً من بحر السبع^(٧٥)، وبذلت المساعي الحديدية لتأمين الماء، وتديد أنابيب تؤدي بها إلى أحواض اختيوت لها أمكنة مناسبة. كما كان من المتفق عليه بين القيادة التركية — الألمانية والبعثة الفرنسية إلى ليبيا لإثارة السيد أحمد الشريف السنوسي، وكانت برئاسة صليحان باشا الباروني، وجعفر العسكري، ونوري بك أخى أنور بك، بأن يحصل هجوم جماعى لجمال باشا على القناة في الوقت نفسه مع الهجوم المقرر قيامه من ليبيا بقيادة أحمد الشريف السنوسي من غرب مصر، بحيث يوضح الإنكليز بين فكي كلمة^(٧٦). غير أن جمالاً، المفروغ بنفسه، لم ينتظر مبادرة أحمد الشريف ليقوم هو بهجومه، لاعتقاده بأنه يستطيع لوحده أن ينال هذا النصر، الذي لم يشأ أن يشاركه فيه أحد، فبدأ للزحف من دمشق في أول كانون الثاني ١٩١٥، ورغم الصعوبات الكثيرة التي لاقها الحملة في طريقها عبر صحراء النهر وصلت في مساء ١٩١٥/٢/٢ إلى ضفاف القناة والوقت ظلام^(٧٧). وقد ساعدها على السير في هذه الصحراء أن الأمطار كانت قد هطلت فيها، قبل مسيرها بقليل، فجعلت أرضها صلبة، ومكنيتها من متابعة السير والأحلمت أن إلى وجود الآبار والحصول على الماء اللازم^(٧٨).

بدأ الهجوم في الصباح الباكر من ١٩١٥/٢/٣، في أثناء هبوب عاصفة هوجاء تسير بسرعة ٥٠ ميلاً في الساعة، وفي جو غامق، وساعد الحظ سريتين من السرايا العثمانية باجتياز القناة^(٧٩)، على جسرين عوامين من الجسور التي جليت مع الحطمة. فتعالى تهللها وتكبيرها على الضفة الأخرى، لكنه لم يلبث أن تحققت بعد وقوع أفرادها في الأسر، بينما غرقت بقية السرايا المهاجمة مع الجسور العائمة التي ألقاها بفعل المدفعية المعادية^(٨٠).

كان الاعتقاد الذي سيطر على لب جمال أنه متى ظهر شبح الجند العثماني عبر قناة السويس

(٧٥) LAMBERTS, Ibid, p. 222.

(٧٦) محب الدين الخطيب، جعفر العسكري، ص ٨.

(٧٧) G. GAUZROT, Ibid, p. 24; A. I. SABIS, Ibid, II, p. 165.

(٧٨) مجلة الحرب المظلي، ج ١٥، ص ١١، الطاهر الراوي: ص ١٩٤ — ١٩٥.

(٧٩) A. I. SABIS, Ibid, II, p. 165; محمد كرد علي، العصر السابق، ج ٢، ص ١٢٦.

(٨٠) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١٢، ص ٢٠، من المصادر الإنكليزية.

ستندلع ثورة الشعب المصري في طول البلاد وعرضها^(٨١)، فيصبح الإنكليز بين عدوين أحدهما داخلي والثاني خارجي، وأن الثورة الداعية هي التي ستساعد الأتراك على طرد الإنكليز، والاستيلاء على مصر^(٨٢). وهذا هو الأمل الذي تعلق بأهدافه بدلاً للاستعداد الكافي الذي أعفقت في تحقيقه، فبهن بذلك عن قصر نظر شنيع، لأن المصريين لم يشعروا، ولم يتجاوبوا مع هجومه. وهكذا لم يحاول الأتراك معاودة الكرة حتى أصلتهم المدافع الإنكليزية، من الضفة الغربية، تروناً حامية زومت العرب في صليونهم. واشتركت طائراتهم وجوارعهم متعاونة تعاوناً وثيقاً في المعركة، فازداد الأتراك على أعقابهم بغير انتظام. لم أعقب ذلك نصف بقية الجيوش التركية للقفزة على الضفة الشرقية، وتدميرها من قبل مدققة السفن الإنكليزية والفرنسية، خوفاً من عودة الأتراك إلى استعمالها، فيما إذا فكروا في معاودة الهجوم^(٨٣). كانت القناة نفسها، بعرضها الكبير، حصناً قوياً يمنع كل قوة مهاجمة من النجاح في عبورها^(٨٤)، فكان للترك، والحالة هذه، أن يفكروا في الموقف. عندئذ ياتر جمال باشا إلى عقد اجتماع ضم الكولونيل فون فرتكنبرغ، رئيس أركان الجيش، والكولونيل فون كريس رئيس هيئة أركان الضيق، وعلى فؤاد الرئيس الثاني هيئة أركان الضيق. وقد أبدى الكولونيل فرتكنبرغ رأيه بوجوب الخروج حالاً من خط القتال، لإنقاذ البقية الباقية من الجيش والانسحاب بانتظام. ولما سأل جمال باشا الكولونيل فون كريس رأيه قال إنه لا ينتظر نجاحاً أبداً، ولكن الحمية والمرورة تقضيان بأن يحمل الجيش كله على القناة ولو ذهب عن آخره، وذلك خوفاً من الكومر على أعقابنا. وأعلن عن رغبته في متابعة القتال، فقال جمال بأنه إذا لم يكن هناك أمل في النجاح فإنه يرضى أن تراق دماء الجنود والضباط في سبيل الشرف والخض والمرورة. وصحت عزيمته على الخروج من المعركة وأمر بالانسحاب^(٨٥)، في مساء اليوم نفسه (١٩١٥/٢/٣) يجر أذيال الخيبة، بعد أن عجز جيشه عن الصمود والبقاء على الضفة القناة أكثر من يوم واحد، علماً بأنه لم يساعدهم على التقدم نحوها إلا لجوء الإنكليز إلى سحب جميع قواهم من الضفة الشرقية وتركيزها في الضفة الغربية^(٨٦). وقد بلغت خسارة الترك ما يقارب ٢٠٠ جندي وضابط من القتلى، و ٦٠٠ من الجرحى، وهرب وأسر

(٨١) COLONEL LAMOTCHE, Ibid. p. 362.

(٨٢) مجلة الحرب العظمى، ج ٥، ص ١١، مذكرات جمال باشا، ص ٢٦٦.

(٨٣) COMTE DE GONTAUT-BIRON, Comment La France s'est installée en Syrie, p. 36.

LAMOMENS, Ibid. II, p. 223.

(٨٤) مجلة الحرب العظمى، ج ٥، ص ١١.

(٨٥) علي فؤاد، النصر السابق، ص ١٤٧ — ١٥٨.

A.I. SARIS, Ibid. II, p. 162.

ما يقارب ألف رجل. ولو تابعهم الإنكليز إلى الضفة الشرقية لأنزلوا بهم كارثة مفاجئة^(٨٧). وعندما وصل جمال إلى فلسطين أصدر بلاغاً رجبياً جاء فيه «إن القوات العثمانية انتصرت انتصاراً عظيماً على القوات الإنكليزية» تنظية لغشله الفزع^(٨٨).

عاد جمال من حملة السويس غاضباً مضطرباً حافداً لا يلوي على شيء: غاضباً لأن الأحلام التي زينت له عرش مصر وكأنه بين يديه قد خابت، غلاة على عار الهزيمة والفشل، ومضطرباً لأن أعداءه في الآستانة أخذوا يوجهون إليه سهام النقد المر، وبذلك يرون الناس أخبار فشله مصحوبة بالتهكم اللاذع، فالتبن كيف يجري جمال على العودة من القضاة، وهو الذي طالما صرح وتبجح، وأعلن على رؤوس الأشهاد بأنه عقد النية على أن لا يعود إلى الآستانة إلا وقد فُتح مصر وطرد الإنكليز منها^(٨٩). بل لماذا عاد حياً وهو الذي قال في خطابه، عند مغادرته الآستانة، أنه إذا لم تتحقق غايته فسيجعل من جسده جسراً يعبر عليه من بقي ورايه من أبناء وطنه المخلصين لبحرروا مصر. ألم تكن مهمته طرد الإنكليز أو الموت، فلماذا لم يموت، لماذا عاد حياً؟^(٩٠) إن من يطالع مذكراته ولمس أثر هذا الاضطراب في رده على خصومه، ذلك الرد الذي طُفح بالمغالطات القوية، إذ يقول إن الحملة قد حققت غايتها في كونها مجرد مظاهرة حرية ترمي إلى إرغام الإنكليز على تجسيد ٢٠٠ ألف جندي في مصر، بحيث اضطروا إلى تأخير حملة الدردنيل، وحرموا جيوشهم القوية من هذه القوى المضخمة^(٩١). ومع ذلك نراه ينكث سموم حقدته على الشريف حسين — لأنه حجب عنه معونة قوة من المتطوعين العرب بقيت في المدينة بقيادة نجدة الأمير علي، بعد أن وعد بأن يسير للانحياز بالحملة مع فرقة الحجاز بقيادة وهيب باشا — وقد كمال له الشناعم، ووصفه بالخيانة التي لا تخفى بحق العالم الإسلامي، وحمله مسؤولية فشل الحملة^(٩٢). وهكذا وقع في تناقض غريب، إذ كيف تحقق الحملة غايتها من كونها مجرد مظاهرة حرية كما يقول، ثم فشل بسبب إحصام قوة من المتطوعين لا قيمة لما تذكر من الوجهة الحربية، إذا قيست بالجيش النظامي ومعداته الحربية الحديثة. هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يحكم جمال ضيقته على العرب، لأنهم لم يقلعوا لحمته الجمال

(٨٧) LAMOND, Ibid. II, 223.

(٨٨) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١٢، ص ٢٠، عن المصادر الإنكليزية.

(٨٩) عهد كرد علي، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣٦.

(٩٠) L.H. DANTON, Ibid. p. 421، مذكرات جمال باشا، ص ٢٢٧.

(٩١) CAMAL PASA, Ibid. p. 171-175، مذكرات جمال باشا، ص ٢٦٧ — ٢٧٥.

(٩٢) مذكرات جمال باشا، ص ٢٣٨، للنسخة التركية، ص ١٥٦.

اللازمة للنقل، أو قدموا منها مقداراً لا يلي بالمطلوب، وأخذ يتساءل كيف لا يمكن الحصول على ١٢ أو ١٥ ألف رجل في بلاد كسورية والحجاز، في حين أن مئات الآلاف، بل الملايين من الجبال موجودة فيها^(٩٢)، ثم يبالغ في مغالطاته، ويرد أن خيانة الحسين هذه، عدا عن كونها قد منعت تحقيق ذلك المشروع الجليل، فإنها قد أوجدت الشقاق بين الأتبعين الإسلاميين: الأمة العربية والأمة التركية^(٩٣).

مع ذلك إذا أسعنا النظر في ملكرات جمال باشا نشاهد أنه نفسه لم يكن مقتنعاً بنجاح حملته إذ يقول «ومع أنني لم أكن واثقاً من النجاح النهائي — لعلمي بمناخ الاستحكامات الإنكليزية في القناة — فإنني أخذت على عاتقي أن أبحث في نفوس أفراد الحملة الإيمان اليقين بإمكان ظفرها، فصرحت أحداث من أصادقه من وجدها في كل مناسبة وفي كل مساء عن النصر المرتقب وأنه سيكون نصراً ميبهاً»^(٩٤).

المواقع أن جمال باشا الذي كان يهضم، ووفاته الاتحاديون، الحقد على العرب منذ زمن سابق، قد جعل من فشل حملته متعللاً للتكبد بأحرار العرب، والانتقام منهم، بدليل أن صفحة الخصام قد فُتحت على المكشوف أولاً بين الاتحاديين والشريف حسين، وثانياً بينهم وبين أحرار العرب من جهة أخرى، بالرغم مما يبلله الجنود العرب في حملة السهول من الشجاعة والتضحية والإخلاص بشهادته هو نفسه، إذ يقول «لقد ساد بين رجال الحملة — لا فرق بين الأتراك والعرب — أعمق الشعور بالمعطف الأنثوي، ولم يكن منهم من يرض بحياته قضاء لإنهائه ودفاعاً عن القضية المشتركة... فالحملة على القناة كانت إذن برهاناً صاعداً على أن أغلبية العرب قد ضربوا المثل الأعلى من الزباط قلباً وروحاً بمقام الخلافة الإسلامية»^(٩٥)، وبشهادة المصادر الأمريكية إذ تقول، «إن المسلمين السوريين أظهروا في معركة القناة من البسالة أكثر مما أظهروه الترك»^(٩٦).

وهكذا فإن جمال باشا، بعد فشله في حملة القناة، قد انقلب شخصاً آخر، وأخذ في سياسة التكبد بالعرب، كما سيظهر معنا في الفصل الرابع من هذا البحث.

(٩٢) Camel Page, *Memories*, p. 167، نسخة العربية ص ٢٦٠.

(٩٤) Camel Page, *Ibid.* p. 156، نسخة العربية ص ٢٣٩.

(٩٥) Camel Page, *Ibid.* p. 170.

(٩٦) Camel Page, *Ibid.* p. 169، نسخة العربية ص ٢٦٤.

(٩٧) مجلة الحرب العربي، ج ١٣، ص ١٥، نقل عن المصادر الأمريكية.

الفصل الثالث

إجراءات الحرب العسكرية والانحياز الاقتصادي وأثرها في الانفصال

قانون التكاليف الحربية

لم نكد تركيا نشترك في الحرب حتى بادرت إلى اتخاذ التدابير التي يفرضها الموقف. وأول ما فعلته في هذا الشأن تطبيق قانون التكاليف الحربية، ذلك القانون الذي كانت قد سنته قبل ثلاثة أشهر ونصف (١٤ تموز ١٩١٤). وقد جاء فيه أن السلطات العسكرية هي التي تتولى الإشراف على جمع ضريبة التكاليف الحربية، وتحديد مناطقها، بناء على اللزوم، واعتباراً من تاريخ إعلان التعبئة العامة، بحيث يتم في كل منطقة تشكيل لجنة باسم «لجنة التكاليف الحربية» من أكبر موظف إداري فيها رئيساً، وأكبر موظف مالي، وأكبر آمر عسكري (أو إذا لم يوجد فمن أكبر آمر للدرك) أعضاء، إلى جانب عضو منتخب من كل من المجلس الإداري ومصلحة البلدية. وتكون مهمة هذه اللجنة الاستيلاء على الأرزاق والمؤن والحيوانات وسائر الأشياء الضرورية لسير عملية الحرب، بعد أن يترك للمسكان ما يكفي حاجتهم منها. وتعطى لأصحابها وثائق موقعة من أعضاء اللجنة، وعلى تلك الوثائق لائحة بأنواع المواد المستلمة وكمياتها وأسمائها^(١)، إذ يقوم أعلى رئيس إداري في المنطقة بتشكيل لجنة أخرى مؤلفة من أعضاء مجلس الإدارة والبلدية وغرفة التجارة فيها، مهمتها وضع تعرفه الحاجيات والأشياء الخاضعة لأحكام ضريبة «التكاليف الحربية»، بحسب الأسعار

(١) دستور، تريب ثالي، مجلد ٦، رقم ١٦٦ (١٤ تموز ١٩١٤) ص ٤١٠١ مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١١، ص ٨٠.

الدرجة، وتطعيم قوائم جديدة بها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وإعدادها الجهة الإدارية المختصة. وبناء على هذه القوائم تثبت في الوثائق المتعلقة للأهالي قيمة الأشياء المستولى عليها منهم، بحيث يدرج بمحروخ المبلغ التي تنضمها هذه المحاضر، في كافة أرجاء المملكة خلال سني الحرب بكاملها، في ميزانية أول سنة مالية تلي السنة التي تنتهي فيها الحرب لتُدفع إلى مستحقيها حينذاك^(١).

في الواقع كانت اللجنة تذيّل هذه المحاضر بعبارة تفيد بأن القيمة ستُدفع بعد ستة شهور من نهاية الحرب^(٢). ولم يستثن من هذا القانون إلا العثمانيون الذين اضطروا إلى ترك مناطقهم بسبب الاحتلال الأجنبي، والتجأوا إلى الولايات العثمانية الأخرى، إذ صدر قانون نص على أن يُدفع للأشخاص المذكورين كامل المبلغ المدون في محاضر المضبط التي يجمعونها، إذا لم يتجاوز عشرة آلاف قرشاً ذهبياً (مئة ليرة ذهبية). أما إذا تجاوز ذلك فيُدفع لهم، علاوة عليه، نصف ما يتجاوز فقط، وذلك من مخصصات التبعية العامة^(٣). وقد صدر هذا القانون بعد ستة ونصف من دخول الدولة الحرب. وفي العام السابق لعام انتهاء الحرب أصدرت الدولة قانوناً يقضي بأن تُعطى صغار الحيوانات (مواليد الخيول، البغال، الحمير...) الموجودة لدى القطعات العسكرية، والتي لا يمكن بيعها بالمراد العائلي، لمطالبيها من الفلاحين مجاناً بدون ثمن، بعد حصول القناعة بأنهم سيُعتون جيداً بتربيتها^(٤). ولم تفكر الحكومة بإزالة الغبن عن أصحاب العلاقة إلا في آخر سنة من سني الحرب، إذ سنت القانون الذي يقضي بتحويل لجان «التكاليف الحربية» دفع ثمن المستولى عليه فوراً وفقداء، بشرط الحصول على كتاب من السلطة العسكرية يبين الحاجة الماسة للأشياء المستولى عليها، على أن تخضع معاملة الاستيلاء لتصديق مجلس الوزراء^(٥). والملاحظ أن هذه القيود الأخيرة، التي لم يخطر على بال الدولة أن تضعها في بادئ الأمر، لم تذكر بها إلا أئمة، وهي لو وضعتها منذ ابتداء الحرب لحففت نوعاً ما من وطأة هذه التكاليف.

كانت «التكاليف الحربية» شديدة الوطأة على السكان، لا لأنها شملت كل مادة وكل شيء بحسب، بل لأن أسلوب تطبيقها جاء قسوّفاً صارماً متفهماً بعيداً عن روح الإنصاف، إذ أسرفت

(١) دستور، ترتيب ثاني، المجلد التاسع والستون للمسا.

(٢) لائحة النصوص النظام في سرية، ص ٥.

(٣) دستور، ترتيب ثاني، مجلد ٩ رقم ١٠٨، ١٩١٦/٢/٦/١٦٨.

(٤) المصدر السابق، مجلد ١٠، رقم ١٢، ١٩١٦/٢/٦/١٦٨، ص ١٥.

(٥) المصدر السابق، مجلد ١٠، رقم ١٣، ١٩١٦/٢/٦/١٦٨، ص ٤٤٩.

الليجان المكلفة بتنفيذها إسرائفاً لا مير له ، واحتجبت كثيراً من المضامع التجارية التي لا علاقة لها بالخير ، ولا فائدة له منها^(٧) . صحيح أن القوانين ، لا سيما في أيام الحرب ، جدية بأن تُراعى ويُحترم ، سراً مع المصلحة العامة ومع سلامة الوطن ، لكنها لا تكون كذلك إلا في حالتين : أولاً : أن تطبق بعدل وبشون عصف ، وثانياً : أن تقبلها نفوس السكان بحالض الرضى ، ولا يكون الرضى متوفراً ما لم يشعر السكان بشعور الدولة ، وهذا لا يكون إلا إذا كان ثمة مصلحة مشتركة . بيد أن هاتين الحالتين لم تكونا متوفرين في البلاد العربية الحاضنة لحكم العثمانيين آنذاك . فالعصف والجور كانا موجودين ، ذلك أنه بالرغم من تعديد الحكومة الأصول التي يجب أن تتبع في تطبيق «التكاليف الحربية» ، كتحسين نوع الحيوانات الواجب الاستيلاء عليها ، وأمنائها ، واستثناء الحوامل منها ، وعدم أخذ سوى ما يقبض عن حاجة السكان منها ، فقد ارتكبت شتى أنواع المخالفات ، ولم يؤبه لهذا الصديد^(٨) . ثانياً أن سكان الأقطار العربية قد تلقوها بكره وتقور ، لعدم وجود للمصلحة القومية المشتركة بينهم وبين حكومتهم ، أو بالأحرى إن كان ثمة شيء من رابطة بينهم وبينها ، وأهني رابطة الدين ورابطة الخطر المشترك والانتفاء إلى «الجامعة العثمانية» ، غير أنها أولاً لم تكن عامة ، ثانياً قد عجل العصف في انتصام آخر عروة من عراها منذ استيلاء الاتحاديين على الحكم ، فلم تكن هذه الروابط إذاً بالدرجة التي تستسهل التضحيات الجسيمة في ظروف عملية قاسية وعصية ، تتلر بمستقبل قائم مجهول .

حقاً كانت هذه التكاليف مرهقة ، فلقد استوفيت ضريبة الألاك مع ضريبة بلغت ٥٠ ٪ ، وضريبة الأرض والعشر مع ٢٥ ٪ ، وفرض على كل شخص إعطاء ربع ما عنده من غنم وبقر وجمال ومن وئدت خُصصت قهراً . وإذا كانت هذه النسب قد فرضت رجباً ، فإن ما أخذ عسفاً بما يشبه السلب كان أكثر من ذلك بكثير ، وكان كفوياً بإثارة النفوس المخلصة لدولة الخلافة . فلقد بدأ رجال الأمن يهرون على قطعان الماشية السائرة في الحقول ، ويأخذونها بأجمعها باسم «التكاليف الحربية» ولم يستثنوا جمال البلو القريين من المدن ، فإذا ما خطر لأصحابها أن يراجمها الحكومة مطالبين بردها كان نصيبهم أن يُزج بهم في السجن ، ولا يطلق سراحهم إلا بعد أن يجزوا نصفها ، أما النصف الثاني فيعطى لهم به وثائق كالتي ذكرتها آنفاً^(٩) . وبهذه الطريقة اجتمع لدى الحكومة ما

(٧) مجلة الحرب العالمية الأولى ، ج ١١ ، ص ٨٠ .

(٨) غفر النصين ، المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

(٩) غفر النصين ، النظام في سورية ، ص ١٢٠ .

يزيد عن ١٥٠ ألفاً من الحيوانات، كما قال أنور باشا يوماً، بحيث لم يترك من الحيوانات في المزرع والحقول ما يكفي لأعمال الفلاحة، فضلاً عن فقدان الرجال بسبب سوقهم للمجندية، فانحطت الزراعة، وتآخرت وقل القوت لفقدان الحبوب^(١٠).

لقد هملت ضريبة التكاليف الحربية كل شيء مما يقتنيه الإنسان، أو يمتلكه، أو يملكه حتى عربات الجر ومعدات الحملات التجارية. فكثيراً ما كان الضباط يدخلون إلى هذه الحملات، وقد يكسرون أبوابها إذا لم يكن أصحابها حاضرين، حتى إذا لم يجدوا شيئاً يأخذونه باسم هذه التكاليف أخذوا ما وقع عليه بصرهم من كلصات حريرية ومشيدات للسيدات وغيرها. وقد بلغ الاستهثار بهم أن فرضوا مرة على تاجر ملابس عدداً من الحرامات، ولما ماطل في تقديمها داهموا مخزنه وأخذوا ما لديه منها ومن غيرها، وبعد أيام رأى التاجر بضاعته في مخزن آخر معروضة للبيع^(١١). ومن جملة ما فرض على السكان تقديم صفائح البترول المعدنية الفارغة، وأكياس القيش الفارغة والمضربيات^(١٢) والقمصان لكساء الجنود، ومن خلت يده منها أُجبر على دفع بدل نقدي عنها. وكان للتحقق من وجودها أو عدمه يجري بدخول المنازل والتفتيش عنها، حتى إذا رأى الجنود ما يصلح لحاجة الجيش من أدوات البيوت وأثاثها، مثل الفرش واللحف والأواني النحاسية وغيرها، أخذوه صنوة بهدوى توفير الراحة لضباط الجيش^(١٣). وكثيراً ما يتعرض المرء لوشاية بوجود كميات من المواد القار ذكرها، أو من الحبوب أو اللوز المختلفة عنده، فيأتي الجنود إلى منزله ويضيفون عليه للإقرار بما عنده، أو يدخلون المنزل ويفتشون ويحشون بأثاثه، فإذا لم يجدوا شيئاً مما أتوا من أجله، استعملوا المضرب والتعذيب لأخذ الإقرار بمحل وجودها. وقد يمتد التفتيش عن المادة المبحوث عنها إلى جميع أنحاء القرية، مع جلب احتقار والوجهاء فيضربون ويعدون، وأخيراً يفرمون ثمن المواد التي كانت موضوع الوشاية، في حالة عدم العثور على شيء منها^(١٤). أما التاجر الذي تلمس السلطة منه محاولة للتهرب من تقديم ما يطلب منه، فجزائره مصادرة جميع ما يملكه من الشيء المطلوب، فقد صودر من أحد التجار ١٩ / ألفاً من الأكياس الفارغة على هذه الطريقة دون أن يدفع له شيء من

(١٠) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١٤، ص ٦.

(١١) فاخر القمصين، المظالم في سورية، ص ١٢١ مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١٤، ص ٧.

(١٢) المضربة لباس من كماش يمشى لحذاء ويحاط معه، وليس فوق القميص شفاء.

(١٣) أنطون أمين، المصادر السابق ج ١، ص ٩٢—١٩٣ فاخر القمصين المظالم...، ص ١٥—١٦.

(١٤) الأب كميلوس لاضي، لمحيين حتماً في سوريا وجبل العلول، ص ٥٢.

ثمها^(١١٤)، علاوة على إحاقته للمجلس العربي. كما كانت السلطات العسكرية تعتمد إلى قطع الأشجار الحرجية والشمرة، لا فرق، لاستعمالها وقوداً للقطر بدلاً من الفحم الحجري الذي فقد من البلاد، كما وضعت يدها على كثير من المساكن والفتاق والخانقات والمدارس والأديرة والمساجد، لجعلها ثكنات عسكرية، أو لإتزال المختلين فيها، في أثناء سوفيهم إلى الجبهات، وذلك بدون أحرة أسهانة^(١١٥).

لم يقتصر الأمر على تطبيق قانون التشكليف الحربية، والنسب التي حددتها السلطات المحلية، بل تعدى ذلك إلى ما يمكن أن يقال عنه «جميع الإهانات». وكانت هذه متنوعة، فمنها إعانات النقود والحبوب بأنواعها، والديس والزيت والزيوتون والسمن واللحوم والخبز والبقول والبالغ والسمير والدخان والتين والحطب، وحتى البسط والسجاد والصبوف والخرد وكل شيء. وهما كله علاوة على ما يؤخذ من هذه الأشياء باسم «التشكليف الحربية»، وعلى ما يجبي من ضرائب كانت موجودة قبل الحرب مع ضمانها المستحقة. أما كيف كانت تؤخذ، فهذا ما يحدثنا عنه الهامي فائز الغصين إذ يقول «بدلاً من جلب وجوه القرى والقبائل والمدن، والسؤال منهم عن مقدرة الناس المالية والمقدار الذي يستطيعون أن يتبرعوا به للحكومة، كانت هذه تفرض على كل قرية مقداراً من هذه المواد، ويرسل رجال الأمن لتحصيلها بالقوة من الأغنياء والفقراء على السواء. وقد يلجأ نصفها إلى جبر جباها، وكل من يتولى عن دفع الإعانة، تنتقم منه الحكومة شر انتقام^(١١٦). وأما عن جمع الحيوانات فإنه ينقل عن قائمقام حوران قوله له «إن الحكومة شرعت تعمل بطريقة القزو وصهدت بهذه المهمة إليّ». ولما سأله فائز: وكيف ذلك؟ أجاب بأن مهمته أن يأخذ جميع أفراد الدرك معه، ويذهب، بعد منتصف كل ليلة، لِحِصَاصِ القرية التي يقصدها... حتى إذا طلعت الشمس، يدخل هو وبعض الأفراد إلى القرية، ويخرج جميع الخيل والبالغ التي فيها، ويختار أحسنها، ويعطي بعضها وثائق، ليندفع منها بعد انتهاء الحرب، وبعضها الآخر يؤخذ بمثابة إعانة^(١١٧).

على أن الحكومة لم تكشف بكل ذلك، بل فرضت على النساء في القرى العمل لمصلحة الجيش، كتطبيق القمح وسائر الحبوب وطحنها. يذهبن برفقة الجنود بجسمات، وإذا ما ثارت الحمية في نفوس رجالهن، واعترضوا على هذا العمل، حمدت الحكومة إلى ضربهم وتعذيبهم، مما أثار

(١١٤) فائز الغصين، النظام... ص ١٣.

(١١٥) فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ١٥ ذكر يوسف مزهر، تاريخ لبنان ص ٥٨٨.

(١١٦) فائز الغصين، النظام... ص ١١ (مجلة الحرب العالمية الأولى ج ٦، ص ٢٢ تهد هذا القول).

(١١٧) فائز الغصين، النظام... ص ٦ - ٧.

أهل حوران في القطر السوري، فصبموا على أن يعارضوا هذا العمل بالقوة إذا استمر. ولما علمت الحكومة بهمزمهم احتفلت كثرين من زعماء هذه الحركة، وزججهم في السجن، وعلبهم، وأقامت أفراد الترك في دورهم يعيشون بالمفارش والأثاث والمؤن، يحلقون الزيت بالسمن، والقمح بالشعير، والذرة والخمصر والعدس، وينثرونها على الأرض، وينثرون ما تحصل إليه أيديهم من غنم ودجاج وغيرها، ويأتون أصلاً متفرقة غابها إلقاء الرعب في قلوب الناس^(١٨).

الدعوة إلى الخدمة العسكرية

كان قانون الخدمة العسكرية قد صدر في ٢٩/٤/١٩١٤، مؤلفاً من ١٥٣ مادة، نصت الأولى والثانية منه على خضوع كل فرد من الشامية العثمانية لواجب الخدمة العسكرية الإلزامية، على أن يكون قد أتم العشرين من عمره، ولم يتجاوز الخامسة والأربعين، ونصت المادة ٤٩ على إلغاء أصول إعفاء المكلفين، بسبب عدم وجود معيل آخر لأبويهم، وعلى الحكومة في هذه الحالة أن تدفع نفقة إعاشة لا تقل عن ثلاثين قرشاً ذهبياً شهرياً لكل فرد من أفراد عائلة المكلف الباقيين بدون معيل بعد تقييده. كما نصت المادة ١١٨ على إمكان دفع بدل تقدي مقطوره محمولون ليرة عثمانية ذهباً مقابل الخدمة العسكرية الفعلية، لكن المادة ١٢٢ حظرت قبول البدل للنقدي اختياراً من إعلان التعبئة العامة حتى عودة الأمور إلى حالتها الطبيعية^(١٩). ولم يستثن القانون العثمانيين غير المسلمين من الخدمة العسكرية ولكنه استثنى أهل الحجارة واليمن، وبصرفية جبل لبنان، والعشائر العربية^(٢٠). غير أن الدولة قد درجت على عدم استخدام المسيحيين في الجيش بصورة عامة بعد الهزائم التي منيت بها في حروب البلقان (١٩١٢ - ١٩١٣). وقد أتاح إعفاء أهالي جبل لبنان من الخدمة العسكرية الفرصة أمام كثير من السوريين للحصول على بطاقات هيئة لبنانية، عندما أخذت السلطات المختصة في تنظيمها وتوزيعها على السكان اللبنانيين، فدخلوا بذلك من هذه الخدمة^(٢١).

وبناء على هذا للقانون بادرت الحكومة، إثر إعلان التعبئة العامة، إلى دعوة كل فرد مشمول

(١٨) للمصدر السابق، ص ١٣.

(١٩) دستور، ترتيب قانوني، جلد ١٦، رقم ٢٩٦ (٢٩/٤/١٩١٤) ص ٦٦٢.

(٢٠) O. STITT, *Ibid.* L. p. 146؛ لمار النصين، المظلم، ص ٧.

(٢١) للتطرق - تاريخ الحرب العظمى ج ١، ص ١٤٦؛ أنطونيين، المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٠ - ١٤١.

بأحكامه إلى حمل السلاح ، غير أن تنفيذ القانون جاء ، لي كثير من الأحيان ، مخالفاً لأحكامه . فقد راجع موظفو شعب التجنيد يتشددون في تطبيقها ، ويستبدون في الناس ، ويجحدون كل من وجدوه قادراً على حمل البندقية ، سواء كان أصغر أم أكبر من الممن المجددة للتجنيد ، صالماً للخدمة العسكرية أم غير صالح^(٢٢) . وبما ساعد على هذه الإجراءات كون قسم كبير من السكان غير مسجلين في سجلات النفوس ، الأمر الذي جعل تقدير الأعمار وفقاً على أهواء الموظفين^(٢٣) . كما بدرت منهم مخالفات حول قبول البدل التقدي ، يتفاوضونه من المكلف بهرونه إلى منزله ، حتى إذا مضت أسابيع استدعوه ثانية وقالوا له : نأسف إنه قد وردتنا من قائد الفيلق أوامر برفض البدل العسكري . لكنهم لا يهدون إليه ما دفع . كما كانوا يتفاوضون الرشوات الغريبة من أصحاب النفوذ ، لقاء غضبهم الطرف عن تجنيد ذويهم . وقد يتجدد طلب هذه الرشوة ، ويتجدد دفعها ، كلما خطر للمأمور لنفسه فكرة الابتزاز ، فيقوم بتهديد أصحاب العلاقة بتجنيدهم ، وبذلك يمكن الموظفين أموالاً طائلة عن هذه السبيل^(٢٤) . أما عن كيفية سوق المهندسين العرب إلى القطاعات المعتبرة إليها فحدث ولا حرج . فقد كان نصيبهم قاطرات الحيوانات ، يشحنون فيها بعضهم فوق بعض ، بينما الأثراك منهم يُنقلون في قاطرات الركاب^(٢٥) . هذا عدا عن إجبار المهندسين العرب ، أحياناً ، على حمل الأسلحة والتجهيزات الثقيلة إلى مسافات طويلة ، بدلاً من نقلها على الحيوانات^(٢٦) . وقد بلغ عدد الجنود الذين جمعتهم الدولة من القرعة العسكرية نحو مليون ونصف . وكان راتب الجندي التركي لا يزيد عن ربع ريال في الشهر^(٢٧) . أما ما يخص لأفراد عائلة المكلف الذي ترك والدين وأهلاً لا مهل لهم فلم تدفع لمستحقها أكثر من شهرين أو ثلاثة ، ثم عجزت الحكومة عن الدفع^(٢٨) . وقد أصدرت الحكومة ، فضلاً عن ذلك ، قانوناً يقضي بإبعاد عائلات الجنود ، الذين يقرون من الجنسية ، إلى أقصى البلاد ، ولم تطبقه إلا في سورية ، وحات من جوهر نساء الجنود المصونات ، فكان يتقن إلى الأفاضل ، ولو كن حاملات وأمهات أطفال صغار ، من وجميع أفراد عائلة الجندي الفار^(٢٩) .

(٢٢) مجلة الحرب العظمى ، ج ١٥ ، ص ٢٨ .

(٢٣) A.I. SABIS, TOME I, p. 111.

(٢٤) المجري أنطون زين ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٢٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

(٢٦) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٢٧) مجلة الحرب العالمية الأولى ، ج ١٤ ، ص ٧ .

(٢٨) فكر شخصين ، للظالم ، ص ٢٦ .

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

ما إن بدأت الحرب حتى أخذ الذعر — كما هو الأمر في كل حدث جليل مماثل — يذب في نفوس الناس، وبخاصة منهم التجار، وأصحاب المصارف، والمنتجين، وضيوهم من أصحاب الحرف والصناعات، وبدأ للدولاب الاقتصادي يميل إلى الاضطراب، ويزداد اضطرابه كلما تطلت الأيام وحالت الحرب، وكان على الحكومة في هذه الحالة أن تتخذ التدابير اللازمة لوقف هذا التدهور. لكنها لم تستطع، بما فعلته، أن تنقذ السكان من الكوارث التي أحدثت بهم، سواء لأن تدابيرها لم تكن جديفة مخصصة، أو لأن موظفيها أساءوا تطبيقها، أو لأن ما بدر من الذين استغلوا هذا الاضطراب من سوء النية قد زاد مهمتها تعقيداً، أو لأن كوارث الطبيعة والثوابت غير المنتظرة قد جعلت كل تدبير متخذ عقيماً. هذا عدا عن أن الحكومة لم تنظر إلى الخطر المحدق بعين التقدير الصحيح والاهتمام اللائق، ولم تشعر بشعور السكان شعوراً سليماً، بل كانت تدابيرها أقرب إلى السطحية منها إلى الحلول الأساسية. ذلك أنها لم تتنازل عن تشديدها في تطبيق قانون التكاليف الحربية إلا بعد قوات الأوان، ولم تضع حداً لسوء الاستعمال في تنفيذ موظفيها لأحكامه، ولم تحر مسألة التحويل حقها من العناية.

فاستدبر الذي يذكره جمال باشا في مذكراته بشأن التكاليف الحربية قائلاً: «وإذ كنت أعرف أن غير تدبير من شأنه أن يحوز رضى العرب هو أن لا يؤخذ شيء منهم باسم التكاليف الحربية، أو إذا أخذ شيء أن يدفع لهم ثمنه نقداً، كان أول أمر أعطيته عند وصولي إلى دمشق هو أن لا يؤخذ شيء من سورية وفلسطين ومناطق الجيش الرابع، باسم التكاليف الحربية، لو أن يدفع سلفاً ثمن أي شيء يؤخذ، سواء أكان طعاماً أو ثياباً أو متاعاً، ولما لم يمكن من العدل والمساواة أن يجري تطبيق هذا التدبير في سورية وفلسطين، بينما تؤخذ الأشياء من مناطق العشائرية، ويعطى أصحابها لإصلاات يجري تسديدها لهم في نهاية الحرب، كتبت إلى الحكومة في الأستانة أوصيها بتعميم هذه الطريقة»^(٢٠). غير أنه لم يهمل بذلك قانون سوى في آخر سنة من سني الحرب (١٩١٨/٤/٨)، كما بينت في الصفحة الثانية من هذا الفصل، ولا يستطيع الجزم فيها إذا جرى تطبيقه فعلاً، وعلى كل حال نجتمع كل المصادر التي بحثت في موضوع التكاليف الحربية، على أن القانون الموضوع بشأنها قد طبق على السكان بأساليب عنيفة متفرقة، ولحقها كثير من سوء

الاستعمال، أو بصريح العبارة كان نوعاً من عملية سلب ونهب. فهل أعطى جمال الأمر ولم ينفذ ؟ وهذا بعيد الاحتمال، أم أمثلة بعد عودته من المنفى خاضعاً حاقداً على العرب ؟ وهذا هو الأرجح. يضاف إلى ذلك أن جشمع الموظفين الأتراك، في البلاد العربية، الذين لم يكن لهم هدف سوى جمع المال بطريق الرشوة — وقد فسحت لهم الحرب مجالاً لوسع بما كان لهم وقت السلم — قد زاد الأمر سوءاً. وهكذا بقدر ما بقيت الحكومة عاجزة عن إيجاد الحل الملائم للأزمة الاقتصادية ظلت الأحوال في تدهور مستمر^(٣٦).

لم تمض عشرة أيام على إعلان الحرب حتى بدأ الاضطراب، وكانت انقلاب هائل، في حياة السكان. فبعد أن كان الفلاح في حقله، وللعامل في محله، وللصانع في مصنعه، وللناس عموماً يتابعون أعمالهم التجارية والمالية كالعتاد، لم يعد يظهر شاب في الشوارع أو في الحقول، فنعم من حمل السلاح ملياً دعوة الجهاد، ومنهم من توارى عن الأنظار خوفاً من ملاحقة دائرة التجنيد له. لقد صاد الجسود كل مكان، وشلت الأعمال، وبدأت إمارات الخوف والقلق على وجوه النساء والأولاد والشيخوخ، خوفاً من عجزهم عن تأمين قوتهم في الأيام الآتية، ولقفلت المصارف أبوابها أو كادت، وأعلن الموراتويوم^(٣٧)، واحتل الذهب من الأسواق^(٣٨).

كان المدغرون والتجار قد يافروا، منذ اضطراب الحالة الدولية، إلى سحب مودعاتهم من المصارف. فلهجات الحكومة، منذ ٧ تموز ١٩١٤، إلى إصدار مرسوم بتأجيل دفع الديون، وتعليق دفع السندات (الموراتويوم)، وحظرت سحب المودعات منها لمدة شهر، ثم اضطرت إلى تكرار ذلك مرات عديدة بلغت العشر، كان آخرها في أواخر عام ١٩١٧. ولم تسمح بأن يدفع للمائتين إلا نسبة ضئيلة من ديونهم في كل تأجيل^(٣٩). كما أخذ كل من يملك نقوداً ذهبية يصر عليها ويخفيها، فارتبك الناس في أمور معاشهم، لفقدان النقد من الأسواق، فبادرت الحكومة مضطرة إلى اتخاذ بعض التدابير في هذا الشأن، ذلك أنها لم تكن بالقانون الذي كانت قد أصدرته، قيل دعوتها الحرب، ومنعت بموجبه إخراج الذهب من البلاد^(٤٠)، بل اضطرت، فضلاً عن ذلك، إلى سكت

(٣٦) دوقور رضا تور، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ لطفي ميناوي، المصدر السابق... ص ١٠٧.

(٣٧) تأجيل أو تعليق المبالغ التي يمكن سحبها من الودائع في المصارف من قبل المدعنين.

(٣٨) مجلة الحرب الوطني ج ١٦، ص ٩، بقلم أنسة أسيركا لغتت مدة الحرب في سورية وبلاد.

(٣٩) دستور، تريب ثاني، جلد ٧، ص ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٥٧، ٢٤٧، ٧٥٥، وجلد ٩، ص ٧، وجلد ١٠، ص ٣٠.

(٤٠) المصدر السابق، جلد ٦، ص ٣٦٧، رقم ٥٧١ تاريخ ٢٣/١/١٩١٤.

نقود ورقية للدفعة الأولى في ١٧/٣/١٩١٥، بمبلغ يزيد قليلاً عن ستة ملايين ونصف المليون من هذه الأوراق، تكون صالحة للتداول في جميع أنحاء المملكة العثمانية، سواء بين الأفراد والدولة، أو بين الأفراد بعضهم مع بعض، وتكون قيمتها الاعتبارية بمقدار ما يعادلها من الذهب، أي ليرة ورقية بليرة ذهبية، وكل مخالفة لهذا القانون، بالامتناع عن قبولها على هذا الأساس، تقع تحت طائلة العقاب بجزاء نقدي يتراوح بين ليرة ذهبية واحدة و ١٥ ليرة، أو بالسجن من يوم إلى شهر. كما جاء فيه أن هذه الأوراق تبدل في الآستانة بما يعادلها من الذهب بعد ستة شهور من تاريخ انتهاء الحرب لجرد إخراجها. أما إذا لم تبرز في نهاية خمس سنوات من التاريخ المحدد للشروع بقبولها، حينئذ تصبح ملكاً للخزينة^(٣٥). ثم تكررت عملية سك النقود الورقية على مر الأشهر والسنين، وخلال الحرب، حتى بلغ مجموع الذي سكته الدولة منها ما يعادل ١٣٥ - ١٦٠ مليون ليرة ذهبية عثمانية^(٣٦). وكانت في كل مرة تضطر إلى ذلك تلجأ إلى عقد قروض مالية مع ألمانيا أو مع فرنسا، حتى بلغ مجموع ما استقرضته خلال الحرب ما بنوق على ١٨١ مليون ليرة ذهبية و ٨٠ مليون مارك ذهب من ألمانيا، و ٢٨٧ مليون كرون ذهب من فرنسا^(٣٧).

كانت هذه القروض المذهبية تودع في البنك العثماني (وإدارته أجنبية) لتكون أساساً لتغطية النقد الورقي المسكوك، ومع ذلك لم يحفظ هذا النقد بثقة الجماهير، بل أصبح غير مرغوب فيه حتى انخفضت قيمته الشرائية انخفاضاً مريعاً^(٣٨). وبالنتيجة وكلما لجأت الدولة إلى سك المزيد منه، ازدادت قيمته الانخفاض حتى انتهى الأمر إلى حيوط الليرة الورقية إلى خمس قيمتها الاعتبارية أو أقل. ولم تُجسد القوانين والبلاغات - التي صدرت بتحذير السكان من جررة عدم قبول هذه الأوراق وفقاً لقيمتها الاعتبارية، وبإلزامهم بالعقوبات الصارمة -^(٣٩) في رفع قيمتها. فنتج عن ذلك أن رفع للتجار أسعار بضائعهم إلى درجة فاحشة^(٤٠). كما اختلقت أسعار البضائع باختلاف النقد الذي يدفع ثمنها، فإذا كان وقتاً زاد سعرها أكثر من خمسة أضعاف ما إذا كان الدفع ذهباً. أما الذهب فقد

(٣٥) المصدر السابق، رقم ٢٠٧ تاريخ ١٧/٣/١٩١٥، جلد ٧، ص ٥٦٠.

(٣٦) المصدر السابق، ص ٣٦٨، جلد ٩، ص ١٤٠، ١٧٧، ١٣٧، ١٦٦، ٧٤١.

(٣٧) المصدر السابق، جلد ٦، ص ١٠٢٢، جلد ٧، ص ١٧٧، جلد ٩، ص ٧٧، ١٣٧، ١٦٦، ١٩٨، ٥٦٠، ٧١١.

(٣٨) غليب حني، لبنان في التاريخ، ص ٩٥، وكثير يوسف مزهر، المصدر السابق ص ٨٥٤.

(٣٩) دستور، ترصيف لائي، جلد ٦، ص ٩١٤.

(٤٠) أنطون جون، المصدر السابق، ج ١، ص ١١٨.

أعطى من الأسواق، وكثر في مصاديق الأختياء الذين دفعهم الجشع إلى طلب المزيد منه، ولجأ التجار إلى الاحتكار طمعاً في الربح غير المشروع^(١٢١). وما تغير الإشارة إليه في هذا الصدد أن جمال باشا لما رأى ندبي قيمة النقد الورقي أذاع بلاغاً، باسم قيادة الجيش الرابع، حدد فيه الصيرافة وأصحاب البنوك والتجار من متبة يحس النقد الورقي حقه، وعزا ذلك إلى الاحتكار والتلاعب بالبورصة، ووصف العملية بأنها مضطمة، وأنه ليس بالامتناع إعطاء حد لها إلا بالشدة والصرامة، وأن تجربة سنتين أثبتت له وأن الصرامة أصبحت أمراً مقدساً، وأنه يعد الشدة والصرامة فرضاً لأجل سلامة الجيش وقراء الأهالي والوطن، ولكنه قبل المباشرة باصطعال الشدة يرى أن يتوجه إلى من يهمهم الأمر بالإنذار التالي:

يقوم الولاة ولتصرفون بجميع الذوات، وأصحاب للفعاليات الاقتصادية، ومديري المصارف، والأختياء، وكبار التجار والصيرافة، فينبذونهم يلزم التحسّن بالواجب، واتخاذ التدابير الآيلة إلى مساواة قيمة النقد الورقي بقيمة الذهب تماماً والشرع في تنفيذها. أما إذا خاب الأمل فيهم، وبقي الفرق بين الثقلين حتى آخر مهلة وهي ١٥/٥/١٩١٧، ولم تصار أسعار شراء المولد بالثقلين الورقي والذهبي، بحيث لا يعود ثمة فرق في سعر السلعة سواء شريت بالذهب أو بالورق، فإنه سيُنفي بصورة الاقتراع عُشرُ الذوات الذين مر ذكرهم، مع عائلاتهم، إلى الولايات العثمانية في الأناضول والطورمالي. وبعد تجهد الفوج الأول ستة أسابيع تجري الفرقة على عُشر آخر ممن بقي من الذوات، ويُعدون بدوهم، وهكذا دواليك إلى أن يعاد النقد الورقي إلى قيمته. ويعترف في آخر البلاغ بشدة المصيبة قائلاً: إن مصيبة سورية وفلسطين في الحال الحاضرة، من جراء انخفاض قيمة النقد الورقي، بلغت درجة لا يمكن أن تكون مصيبة أشد هولاً منها، لذلك فإنه قرر وضع حد لها^(١٢٢). ومع ذلك لم يتردّ تهديده هذا، وظل الحال كما هو لأن ذلك لم يكن الحل الناجع لإعادة الثقة بالنقد الورقي.

الاحتكار

أحب أن ألق نظرة طويلة عند الاحتكار لأقول إن جميع طبقات السكان، من كل بلد من

(١٢١) مجلة الحرب العظمى، ج ١٦، ص ١٢، بقلم أنسة أمريكا.

(١٢٢) قال النصير، المظالم السورية، ص ١٧٧ ليوثوب ستوارو، المصدر السابق، ص ٣٩٠-٣٩١، بقلم شكيب أرسلان.

البلدان العربية، أحسست بالضيق والضغط الناتج عن الغلاء، إلا طبقة التجار الأغنياء الذين احتكروا كل أنواع البضائع، ولم يتورعوا عن احتكار مواد الغذاء الأساسية للحياة، وراموا الفنى ولو على أشلاء مواطنيهم الذين أضناهم البؤس واللعوز. لقد اغتضم هؤلاء الرأسماليون الفرصة السانعة فاحتكروا كل ما طالت أيديهم. فكل السكر في مدينة بيروت مثلاً كان محتكراً في مخازن تاجر ثرى واحد فقط، فغشيل أن يبيعه المقلب على أن يبيعه بالسعر الذي لا يرضى بجمعه، في حين لو تركت هذه الكعبة حرة في الأسواق لكلفت المدينة طيلة الحرب. وفي أوائل الحرب احتكر تجار يهود أغنياء من حلب نفساً عظيماً من البضائع الصوفية والقطنية في البلاد، وأرسلوها إلى بغداد والآستانة وغيرها، تاركين بذلك الأسواق السورية محرومة تماماً من كل ما يمكن اجتباؤه منها، ولو بمن فاحش^(١٣). على أن بعض أعمال الاحتكار كانت تحصل بسبب خوفه بالبيعها من أن تغند إليها يد السلطة العسكرية بالمصادرة، فعادوا ينقلونها إلى يديهم لعلها تنفعهم في الأيام السود للحملات^(١٤). ولبت الأمر اقتصر على احتكار السلع الكمالية غير الضرورية لحياة الناس، وإذا كانت البلية أهون شراً. غير أن بعض من غارت في قلوبهم الرحمة، من تجار بيروت وسورية وفلسطين والعراق، تجاوزوها إلى سجون الدقيق، واحتكروا لبيعوه عند الطلب الشديد بأعلى الأسعار، بحيث أصبح الفقير لا يستطيع الحصول حتى على الخبز فقط. ولو أن الأمر اقتصر على كون ما يبيعون بأسعار فاحشة شيئاً يؤكل حقاً لكان ذلك أهون الشرين، إنما الأذى والأمر أنهم كانوا يعرضون للبيع شيئاً لا هو بالدقيق ولا هو بالثراب، وإنما هو وسط بين الإثنين: مزيج من الثراب والدقيق الأسود، ومع ذلك كان الناس يتهاقون على شراؤه رحمة بصغارهم ونسائهم وشيوخهم من أن يموتوا جوعاً^(١٥).

لعل سائلاً يسأل: وأين هي الحكومة وما هو عملها في الواقع أنها كانت في وادٍ والشعب في وادٍ، إن صادرت شيئاً فباسم التكاليف الحرة، أو حاول موظفوها إعطاء حد للاحتكار كانت الرشوة دوايمهم، يقدمها لهم التجار الجشعون، فتتعاون الدولة والتجار على بؤس الفقير، وبدلاً من أن تلجأ إلى تحديد الأسعار، وإحداث دائرة للتأمين جديدة يحمل الأزمة، كانت تلجأ إلى تدابير تزيد في اللعيب، فثلاً، ذلك أنها كانت قد رفعت التعرفة الجمركية من ١١ إلى ١٥ ٪، اعتباراً من

(١٣) مجلة الحرب العظيم، ج ١٦، ص ١٢، بقلم آسة أمهكا.

(١٤) مجلة الحرب المالية الأول، ج ١٤، ص ٢٢.

(١٥) مجلة الحرب العظيم، ج ١٦، ص ٦٥.

١٧/٩/١٩١٤^(١٦)، بناءً على اتفاقات عقدتها مع الحلفاء قبل الحرب، لكنها ما إن دخلت الحرب وأصبحت في حل من التفيد باتفاقياتها السابقة حتى زادت في هذه النسبة إلى أن بلغت عدة أمثال ما كانت قد اتفقت عليه، بحيث تجاوزت نسبة الضرر الجبرية على بعض المولدات بالغة. وبدلاً من أن تلجأ إلى تخفيف الأعباء عن كاهل السكان، لجأت بالعكس إلى مضاعفتها حيناً وضعت قانوناً يوضع رسم استهلاك على السكر والبنرول والشمع والقهوة، والبنار على استثناء الضريبة الإضافية على أجور الميكينات والرسائل، وعلى أثمان التبغ بحجة دعم المؤسسات الصناعية وتأمين الأموال الضرورية لمؤسسات التعليم، وتعليم أبناء الشهداء. كما عملت إلى استبقاء ضريبة تحلل الأثمان مضاعفة^(١٧).

غير أن هذه المواد: السكر، الشاي، القهوة، الأدوية، غلب الثغاب، الورق، الأقمشة كانت قد فقدت من الأسواق، أو قلت وأصبحت نادرة منذ ابتداء الحرب، ذلك أنه لا انقطاع العلاقات السياسية بين تركيا والحلفاء، وامتنعت بواسر هؤلاء عن دخول الموانئ المنيانية، ضربت أساطيلهم الحصار على الشواطئ المنيانية وأكبحها حرية^(١٨).

وهكذا لم يعد هناك من وسيلة لجلب البضائع الأجنبية، فانقطع ورود هذه السلع. وقد بلغ الاستتار والصنف حداً أن جرك بيروت أغلق أبوابه، بالرغم من احتوائه على بضائع يأكلها من مليون دولار، لم يستطع أصحابها تخليصها واستمرارها منه^(١٩). وفي وقت قصير اختفى ما كان موجوداً في مخازن التجار من مختلف البضائع، بحيث فشل الاحتكار كل شيء: الزيت، السمن، الصابون، البصل، الرز، وكل ما له علاقة بالعيشة، فارتفعت الأسعار ارتفاعاً قاصحاً، حتى بلغ سعر ذراع اللحم أو القماش الرديء ليرة عثمانية ورقاً، ناهيك عن الصوف أو الجوخ فإن سعر الحر منهما كان يتراوح بين ثلثي ليرات وخمس عشرة ليرة. أما الأحذية فلم يمكن يستطيع المرء أن يشتري الزوج منها بأقل من عشر أو خمس عشرة ليرة^(٢٠).

(١٦) دستور، ترتيب ثاني، مجلد ٦، ص ١٢٧٦، رقم ١٧٦.

(١٧) المصدر السابق، مجلد ٦٠، ص ١٧٩، رقم ١٠٥.

(١٨) فليب جي، المصدر السابق، ص ١٥٩، المذكور يوسف مزهر، للصهر قسابق، ص ٨٥٤.

(١٩) مجلة الحرب العظمى، ج ١٦، ص ١٠، للكاتب نفسها - حنا خيال وحلفاء فارس الحوزي حيث وعصوه ص ٢٧.

(٢٠) الحوزي أنطونيين، المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٣، عهد السلام الأرمي، تضال قصرية لمرسة، ص ٣٢-٣٤.

وإذا استعرضنا أسعار بقية السلع في لبنان، في تلك الفترة، نشاهد أن ثمن الأقمشة^(٥٠) من القمح قد بلغ ١٦ قرشاً ذهبياً في السنة الأولى، و ٢٠ قرشاً ذهبياً (٥٠ قرشاً ورقياً) في السنة الثانية، و ٣٤ قرشاً ذهبياً (١٣٥ قرشاً ورقياً) في الثالثة، و ٦٠ قرشاً ذهبياً (٢٥٠ — ٣٠٠ قرشاً ورقياً) في الرابعة. وهنا يتضح لنا أمران: الأول أن ثمن القمح كان في تزايد مطرد، والثاني أن قيمة الأوراق النقدية كانت في تذبذب متزايد من سنة إلى أخرى. وعلى قياس القمح كانت ترتفع أسعار الحاجيات الأخرى، فقد بلغ ثمن الرطل من اللحم نصف ليوة ذهباً، ولبيزتين ونصف ورقاً، ورطل السمسم ليوة واحدة ذهباً، أو خمس ليرات ورقاً. أما الرز والسكر والقهوة فقد حُرِّمها الناس بتاتاً كما قدمت^(٥١). وقد نتج عن ذلك أن أغلب الناس أصبحوا عاجزين عن شراء شيء إلا الضروري للحياة، فأصلحوا شراء الأثاث وأدوات المنزل المختلفة، واقتصدوا في شراء الملابس، وانفتحو إلى تدارك ما يسكن آلام الجوع، وطمعهم يجنون الشيء البسيط منه. وهكذا تعطلت الصناعات، وأغلقت معامل، وضيّق صغار التجار دائرة أشغالهم إلى الحد الأقصى، وتكتلت الأعمال التجارية في أيدي جماعات محدودة العدد من كبار التجار المحتكرين. وأما في الأهداف فلم يبق الصكرية من الرجال من يعنى بالزراعة وإنتاج الغلال، وإذا زرع شيء منها فليس من يعنى بحمايته وحفظه بحيث يبلغ ثمن ما كان يثقل منها آلاف الليرات الذهبية، فقلت الحبوب وهلكت الجماعة بالانقراض ولم يشعر بالفاقة والمعوز فقرام الناس ومتوسطوهم فحسب، بل جميع الطبقات، حتى أولئك الذين عاشوا يعرف قبل الحرب^(٥٢).

لم يقتصر الأمر على المجتمع بصدر من بعض الناس الذين لا ضمير لهم، بل تعدى ذلك إلى الكوارث والنوائب تأتي من الطبيعة. ذلك أنه ما إن مرت الأشهر الأولى من الحرب، ولم تكن الحالة قد بلغت حد التأزم بعد، إلا وقد فوجئ الناس، في مطلع شهر نيسان ١٩١٥، بأرجاء الجراد جاءت بكثرة لم يسبق لها مثيل، فحجب نور الشمس عن الأبصار، وانقضت على الزرع والشجر والشمس لم تحرك أحصن ولا يابساً إلا التمتعه، ولم يسلم من يلائها أي قطر من الأقطار العربية. وقد

(٥٠) الأقمشة من الأريز هي كانت دراجة في العهد العثماني وتقدرها كيلو غرام واحد وثلاث (٤٠٠ درهم)، أما قريظ قزولة أقيان ونصف.

(٥١) لطف الله بكاسيني، المصدر السابق، ص ٢٦٠ — ١٣٦٦ أسطول بين المصير السابق ص ١٥٤.

(٥٢) مجلة الحرب العظمى، ج ١٦، ص ١٩١٤، بقلم آتسة أركية.

بلغ سبك العلقة التي غطت بها الأرض في بعض الأمكنة كالبقاع حلو ذراع أو أكثر ، ولم تُجَلَّ عن البلاد — في فواخر تموز — لشهد الكرة في العام التالي ، الذي كان في غاية القحط ، إلا وقد تركتها جرداء بلفاً . من ذلك الأوان أخذت أسعار الحاجيات تتصاعد تصاعداً جنونياً دام في انطرد مستمر إلى نهاية الحرب^(٥٣) .

وقد فعل الغلاء بصرة خاصة القمح الذي بدأت أسعاره بالارتفاع منذ شباط ١٩١٥ ، بعد أن كانت قد تصاعدت أسعار باقي الحبوب كالعدس والحمص والفاصولياء والشعر والذرة والرز والسكر وزيت الكاثر وغيرها ، إلا أن الارتفاع الجنوني في أسعاره لم يبدأ إلا بعد موجة الجراد . عندئذ بدأ الناس يشعرون حقاً بسوء المصير ، وبالمستقبل القاتم ، فيما إذا طالت مدة الحرب^(٥٤) . وقد زاد الأزمة استفحالاً أن متجعي القمح في أهم مناطق الجيش الرابع — حوران والكرك وغيرها — صاروا لا يبيعون شيئاً منها سواء للأحليين أو للتجار المحتكرين أو للحكومة إلا بالنقد الذهبي^(٥٥) ، إذ كانوا لا يعرفون أوراق النقد العثماني ، وإن عرفوها فإنهم لا يعترفون بها ، ولا يقبلونها ولا يخافون من فطائع جهال باشا ، بل كان جهال نفسه يخاف أن يلتحق أهالي الكرك والحوارة بالجيش العربي في الحجاز ، لذلك كان مضطراً أن يدفع لهم ثمن القمح ذهباً ، ليستطيع تمهين جيشه للحارب في جبهة فلسطين . وهذا ما جعل الخلاه يتضاعف ويستفحل شوا ، لعدم وجود الذهب إلا بيد أغنياء التجار المحتكرين والحكومة^(٥٦) . وما زاد الأمر سوءاً هو أن رسل الثورة العربية في أواخر عام ١٩١٧ بدأوا — عندما أخذت الثورة في قطاف ثمار انتصارها في التقدم نحو سورية — يتغلغلون في مناطق حوران وجبل العرب ، ويحرضون السكان على عدم بيع قمحهم للجيش التركي ، بل للإنكليز الذين أصبحوا يدفعون الذهب بدون حساب . وهكذا وقع الترك والألمان في أزمات ومشاكل معقدة ، بحيث لم يعد يصيب الجندي أكثر من مئة غرام من الخبز يومياً . لهذا بادر المشير فون فالكنهايم إلى طلب المال لشراء كميات القمح الموجودة في حوران والجليل والبالغة ٢٥ ألف طن ، فأجيب إلى طلبه فوراً واشترى القمح ، لكنه بدلاً من صرفه على إعاشة جنود الجبهة أخذ في شحنه إلى ألمانيا عملاً بأوامر

(٥٣) لطف الله البكاسيني ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، أطول يوم ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٥٤) الطوري ، أطول يوم ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٤ .

(٥٥) حسين حسني أمير ، بلد يوم ، ص ٧٢ .

(٥٦) فاكز الفصين ، النظام في سورية ، ص ٧٦ .

أركان حرب دولته^(٥٥)، فكان على القوات العثمانية أن تحصل على تدارك كميات غيرها وتحرم السكان من قوتها الضروري.

الجماعة ومخاطباتها

إن الغلاء لم يكن وفقاً على منطقة معينة في البلاد العربية بل كانت كلها — من العراق إلى سورية إلى فلسطين إلى لبنان — في الخطب سواء. وحتى الآستانة نفسها لم تسلم من الجماعة بسبب الغلاء، وقد كان المواد الغذائية^(٥٦)، وإذا كانت يادبة الشام وبقيّة العراق، وخاصة أهل حوران وجبل العرب، لم يتأثروا كثيراً بالفقر والحرب، بل بالعكس فزحوا بيوتهم وقلوبهم لاستقبال اللاجئين الجياع، وحققوا عنهم بعض ما كانوا يعانون^(٥٧)، فإن لبنان والمناطق الساحلية، كولاية بيروت وجهات اللائحة وفلسطين، كانت أشد الأقطار العربية تأثراً بالغلاء والمجاعة. وأما لبنان وولاية بيروت فلم يمان أي قطر ما عاناه من اليأس والشقاء، وكانا ضحية الحرب حقاً. والسبب في ذلك موقع لبنان الجغرافي وطبيعة أراضيه القاحلة، وقلة موارده من الحبوب والمواد الغذائية، واضطراره إلى الاعتماد في نمونه على البلاد العربية المجاورة، ثم هبوط سعر الحرير — الذي كان اللبنانيون يفتنون بإنتاجه وقرية دودنه — هبوطاً مروعاً أدى إلى كارثة اقتصادية، وربما كان ذلك سبب وضعه العام من حيث نقمة الأتراك على أغلبية سكانه من المسيحيين، الذين كانوا يتهمون بالخيانة والانصال مع الأجانب ضد الدولة، فعمدوا إلى تجويعهم بمحجز الحبوب عنهم^(٥٨).

فمن جهة شح مورد لبنان من حبوب سورية الداخلية، ومن جهة أخرى انقطعت عن أهاليه — بسبب حالة الحرب — المصنوعات المالية التي كان يرسلها إليهم ذريعتهم من المهاجر الأمريكية والمستعمرات الإنكليزية، إذ كان عدد كبير من اللبنانيين يمشون من الأموال التي ترسل إليهم عن هذا السبيل. ويحذر سبب انقطاعها إلى القانون الذي أصدرته الدولة، وحرمت به التعامل بالحوالات المالية المسحوبة على مصارف لندن، وكان ٩٩٪ من حوالات اللبنانيين تسحب على هذه

(٥٧) جمال باشا الفصحى، كيف جلت القوات العثمانية من بلاد العرب، ص ٩٨ و ١٠٦.

(٥٨) ساري ملز يارليك، الفصل السابق، ص ١٣٣ و ١٣٧.

(٥٩) حنا أنلي رشيد، جبل الصروز، ص ٨٢ — ٨٤.

(٦٠) ل. ن. البكاسي، المصدر السابق، ص ٣٥٧ — ٣٥٨ مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ١٨٥.

المصارف. لذلك كان لأصحابها يعرضونها للبيع بنصف قيمتها ولا من يشتريها^(٦١)، ناهيك عن حرمان المنطقة من واردات موسم السياحة والاصطياف. وأما الحكومة فكانت لم تكنف بما تكب به هذا القطر، فعمدت إلى تهريبه من أبداع تكوين جبهاء الخلق به وأصبحت الطبيعة عليه، عندما أقدمت على قطع أشجاره وأحراجه لتجعل منها وقوداً للغايطرات التجارية بدلاً من الفحم الحجري^(٦٢).

كانت الحروب الواردة من سورية إلى لبنان، على قلبها، لا يُسمح بنقلها إليه إلا بوثائق موقعة من متصرف جبل لبنان، أو والي بيروت. وكثيراً ما كانت هذه الوثائق موضوع متاجرة، بحيث تباع من قبل الذين يحصلون عليها (بالغزو أو الإغراء، مثل اللوجهاء وكبار رجال الأعمال والغائبين ونساء المجتمع الراقي) إلى كبار الأغنياء المحتكرين بأثمان باهظة ليناجروا بقوت الشعب، فيوقعون الأمصار على هوانهم^(٦٣).

هنالك من أهم جهال باشا بأنه هو صاحب فكرة منع الحروب عن لبنان ليشعر سكانه بوطأة الجوع، وتكديلاً بأهله جزاء إخلاصهم للدولة الفرنسية وكرههم للدولة العثمانية. وقد يكون ثمة شيء من ذلك، حتى أن بعض العقلاء المخلفين لثباتهم قد نصحوه بوجوب الإقلاع عن سياسة التجويع التي يتبعها مع السكان^(٦٤). إلا أن الضرورة الماسة لتكوين الجيش وأهالي سورية قد اقتضت أيضاً مثل هذا الإجراء، ولم يُحظر إرسال الحروب إلى لبنان فقط، بل إلى فلسطين أيضاً، واقتصرت الحظر على ستة واحدة هي سنة ١٩١٥، لأن ما كان في سورية منها تلك السنة لم يكن يكفي لإعاشة سكانها بسبب الجراد الذي دامها، ولكن على أن تُصنّر الليلين المتكويين في الموسم التالي^(٦٥). غير أن غزارة الأمطار، وتراكم الثلوج على الجبال الفاصلة بين لبنان ولشناطق الداخلية، في فصل الشتاء، وعرقلتها الانصاف بين الشطفتين، يهددها صعوبة فقدان وسائل النقل من العربات والحيلوانات التي استولى عليها الجيش، ونشاط دوريات الأمن التي كانت تصدر حتى الكميات القليلة (التي يتجاسر المواطنون وينقلونها على ظهورهم عبر الشطفتين) بداعي حاجة الجيش للقمح،

(٦١) مجلة الحرب العظمى، ج ١٦، ص ١١، بقلم آنسة أمركة.

(٦٢) فليب حتي، المصدر السابق، ص ٥٨٩.

(٦٣) الخوري أنطون عيين، المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٨.

(٦٤) دكتور ساسي الدمان، محاضرات عن الأمير شكيب كرسلا، ص ١٥.

(٦٥) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١٤، ص ٢١.

وكونها متقولة بدون رخصة، قد زادت في شدة الضائقة التي نزلت بلبنان وسببت له كارثة المجاعة^(٦٧).

ولقد زاد الأمر سوءاً بالإجراءات الصارمة التي لجأت إليها الدولة ضد اللبنانيين الذين يتوجهون إلى سورية لابتغاء الحبوب. ذلك أن اللبنانيين كانوا، قبل الحرب يتمنون بالحبوب من حوران، إذ كان الحورانيون يحملونها على جمالهم ويبيعونها هناك، واستمر الحال كذلك حتى بعد نشوب الحرب. لكن الحورانيين، لما شرعت الحكومة بمصادرة كل جمال غنمه في لبنان، امتنعوا عن نقلها إليه، فاضطر اللبنانيون إلى الذهاب بنفسهم إلى حوران لشراء ما يمسح حاجتهم منها. عندئذ أخذت الحكومة تقبض على من تراه منهم في سورية بدعوى خضوعه للخدمة العسكرية، وما كانت تسمح شكواهم ولا تطلق سراحهم إلا بعد أن يدفعوا المبدل للتفدي بالمبالغ خمسين ليرة عثمانية ذهباً، فامتنعوا بعد ذلك عن الذهاب لجلب الحبوب^(٦٨)، علماً بأن الحكومة لم تكن تسمح بنقل الحبوب إليهم بالمقطارات^(٦٩).

وهكذا فشلت المجاعة بلبنان، إذ ضاقت بأهله موارد الرزق، وضوّل الدخل، وحلت بهم ضائقة عناققة بلغ من أهوالها أن السكان حينها نفد ما بأيديهم من المال لشراء الدقيق أو الحبز أخذوا في بيع أمصتهم البنية، فكانت ترى في الأسواق إلى جانب الأمتعة البغيسة — كالطناقس والفرش والمحفف الوثيرة وكراسي الخيزران والمرايا الشمية التي يتزلفها المسوّرون إلى أيدي الباعة — الفطور والمصحون والكراسي الخشبية والناضد وغيرها من التي يتزلفها الفقراء^(٧٠).

كان المرء إذا فرغت يده من النقود يتدنى بأرضه يبيعها — إذا كانت له أرض — ثم يما يقتنيه

(٦٦) الحوري أنطون بين، المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٤ ل. ٥. البكاسيني، المصدر السابق، ص ٣٥٩.

(٦٧) فائق الحصن، الظلم في سورية، ص ٣٨.

(٦٨) قدم اللبنانيون عرضة إلى جمال باشا يتكون من فقدان التمتع لأجاليهم أن كميات كميات موجودة في مناطق حماه وحمص، وأن باستطاعتهم أن يشتروا حاجتهم منه، فجمعوا ٣٢ ألف ليرة ذهبية لوجهت بها بقية منهم إلى حمص، لكنها لما لم اشترت وضعت الثمن حتى يادر جمال باشا — عندئذ أعلمه موظفوه بذلك — إلى الثغائر منع نقل الفصح بالسكة الحديدية لأنها مخصصة للنقلات العسكرية، كما لم يسمع نقلها بواسطة الجمال لأن هذه نقل الأرزاق والمهمات إلى الجيش فاضطر اللبنانيون إلى تسليمها للحكومة، لكنهم بدلاً من أن ينفردوا بغيرهم للخدمة سلمت لهم الحكومة نقوداً وبقية بعد الاستيلاء على الفصح (CORRESPONDENCE D'ORIENT 10 Décembre, 1916, p. 460)

(٦٩) الحوري أنطون بين، المصدر السابق، ج ١، ص ١١٩، مجلة الحرب العظيم ج ١٦، ص ١٠.

في بيته من الأثاث غير الضروري أولاً ، ثم تمتد يده إلى الضروري حتى إذا باعها بأحسن الأثمان ، أي ما قيمته ألف بختين ، يادر إلى شراء القوت بأغلاها ، وللمعهد الموفق من وجد لأثاث بيته مستعراً ، أو لأرضه مستعراً أو مسترهماً ، وهو مع ذلك يرضى مع من يرهنها عنده أن يستدين منه المئة بختين بل بثلاث بل بخمسة لستة واحدة ، وهو مدرك أنه قد فقد أرضه نهائياً ، لكنه يدرك أيضاً أنه إذا لم يحفظ بالمال هلك وهائلته جوهراً^(٦٩).

أما المرابون الذين ماتت ضمايرهم ، ولم يفكروا إلا بالابتزاز وتمتصاص دم الشعب البائس ، فقد لعبوا دوراً من أسطح الأكوار وأقدرها ، ذلك أنهم رفعوا نسبة الفوائد على القروض إلى درجة غير معقولة (٧٠ — ١٠٠ — ١٥٠ ٪) . ولم يكونوا مسلمون المستدين قرشاً قبل الحصول على الضمانة الكافية بطريقة البيع بالاسرهان ، وذلك بأن يعقد بين الطرفين سند موثق لدى الكاتب بالعدل بأن للمستدين قد رهن أرضه أو ماله أو بيته ، أو أي ملك ثابت آخر عند الدائن ، لقاء دين واجب الأداء في مدة معينة . فإذا عجز المدين عن وفائه في الوقت النعين يصبح العقار المسترهن ملكاً شرعياً للدائن . أما المبلغ الذي يستلمه المستدين لقاء هذا الاسرهان : فلا يساوي على الأكثر عشر الثمن الحقيقي للعقار المسترهن^(٧٠).

وهكذا امتلك كثيرون ، ملكية دائمة ، عقارات كثيرة بشحن مجلس ، لأن المدينين لم يمكن بوسعهم قط أن يجيدوا ما استدانونه ، بسبب الحاجة التي تدفعهم ، دفعاً مستعراً ، إلى طلب المزيد من التمدد ، وبيع المزيد من المقتنيات . فإذا سلم المرء معاملته حتى نهاية الحرب ، ولو صغر الهدين ، عُبد من السعداء . الواقع أن بيوتاً كثيرة لم يبق فيها شيء مما له ثمن ، وبعضها بيعت أخشاب نوافلها وأبوابها ، وما على سطحها من آجر وما في سقفها من خشب ، ولو كان في الإمكان بيع حجارها لبيعت ، وذبح أصحابها يضربون في مشارف الأرض ومقارنها ، يلمسون القوت فيلاقون الموت جوهراً . والسعيد المظبوط من يستطيع أن يجد عملاً متواضعاً ، ولو مكنساً للشوارع بعد أن كان سيداً مرموقاً^(٧١).

أما النساء فقد شرعن في بيع حللين ، ثم ألواهن الثمينة ، فكسومن حتى يكفدن لا يعرفن ما يستر أجسامهن . وكشفت ثلاثي في الأسواق الأقفال ، صبياناً وبنات ، عراة لا يستر عورهم شيء .

(٦٩) ل. ن. البكاسيني ، المصدر السابق ، ص ٣٦١ .

(٧٠) أنطون ميم ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٦٠ ل. ٥ . البكاسيني ، المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(٧١) مجلة الحرب العالمية الأولى ، جلد ٣ ، ص ١٨٦ .

يرتقون على وجوههم في الأرض أينما قادتهم أقدارهم ، معرضين للحرق والليد والأمطار ليلًا ونهارًا^(٧٢). وإذا رمنا وصفًا ناطقًا وحيًا ، عن الحالة التي وصل إليها لبنان ، من الجاعة واليأس ، وجب علينا مراجعة ما كبد الحوري أنطون بين اللبنانيين كشاهد حي : « أنزل إلى المدينة تنصر هناك شيوخ لبنان وأطفاله ، ورجاله وساءه يسارعون من أعلى الجبال إلى الشوارع والأسواق ، جاثين يثبون من ألم اليد القارس والجوع المهلك ، يقفون وينظرون إلى الجهات الأربع مستغيثين وليس من يتاولهم كسوة من الخبز ، ولا حصة من الدقيق ، ولا غلظة من فضلات الطعام ... هناك في الأسواق عويل الصغار الجائعين ، هناك في الأزقة أنين الشيوخ المذنبين ، هناك على المطرقات دموع الأمهات يطلن بها أطفالهن ، هناك في الشوارع ومنعطفاتها الشباب منطرحون وهم غائبون عن المصواب لشدة جوعهم ... هناك في المساحات الأزداء يبحثون في القمامات ، علقهم يعفرون على قشور الفاكهة وعلى الأعظام القذرة ، هناك في أسواق الخضار السماء يلتقطن فضلات الأحشاش والأوراق الذابلة ، هناك تحت منازل الأثرياء الزقزقات والأذات ، هناك أشباح المساكين يحكمهم بلسان الحزن والألم ... » ، « ... والأسفاه أنظر إلى أولئك المساكين ، إنهم يتساقطون هنا وهناك كأوراق الخريف ، ... تتلاشى أجسامهم عضوًا عضوًا ييموتون تباعًا امرأة حفاة يساعد اليد المجموع في الاحتطاف أرواحهم المطهرة ، وترآك جثثهم في كل الأماكن والزوايا^(٧٣) .

صحيح أن الحكومة فكرت في معالجة الوضع لمشكلة شركة « بيروت — لبنانية » عهد إليها بحلب الحبوب وببها بأسعار معتدلة إلى ذوي الفاقة من أهالي بيروت ولبنان ، وأحدثت مستودعاً خاصاً لتلك الحبوب في كل مركز من مراكز المقاطعة . لكن الذين كلفوا بتوزيع الحبوب كانوا أناساً نظروا على الطمع والطمع ، فأخذوا يسرقون كميات كبيرة منها ، يضمون مكانها تراباً يمزجونه بما بقي منها ، فاغتني كثير منهم عن هذه الطريق . ولم تكن تلك الشركة تشد عوز الشعب ، ولا سيما أن الحكومة لم تسمح بحلب القمح من المناطق الداخلية إلا بكميات قليلة ، فضلاً عن أن بعض الأثرياء أخذوا يزاحمون الفقراء على الاستفادة من هذه الحبوب . هذا في جبل لبنان ، أما في بيروت فقد عمدت البلدية إلى توزيع الدقيق على الأفران ، ثم خصصت من موزع الخبز على بيوت المعوزين ، إذ أصاب الفرد ما يقارب أوقية واحدة (٢٠٠ غرام) في اليوم وصموها « الجرامة اليومية » ، غير أن التوزيع لم يكن منتظماً ، إذ يتم يوماً وينقطع يومين ، فضلاً عن أن الموزعين كانوا يحلبسون

(٧٢) ن. د. البكاسيني ، المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(٧٣) أنطون بين ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦ — ٧ .

نصف الكميات المخصصة للشعب^(٢٤). كما أنقص وزن «الجراية» فيما بعد، كما أنقص عدد من يتناولونها من أفراد العائلة، فأصبح لكل شخصين جراية واحدة في اليوم، ثم لكل ثلاثة أشخاص جراية واحدة، ثم أصبحت ثلاث دفعات فقط كل أسبوع، ولكل ثلاثة أشخاص أو أربعة جراية واحدة. أما الحليز الموزع فلم يكن يعرف تركيبة أهو عيز شعير أم كرسند أم ترمس^(٢٥).

وفي محاولة لإصلاح الوضع القهوي ألغيت الشركة المذكورة، وأقيم بدلاً عنها شركة مساهمة مغفلة ساهم فيها الأغنياء بقيمة / ٢٥٠ / ليرة عثمانية للسهم، بحيث اجتمع لديها في ١٩١٦/٦/٨ وأسماء بلغ / ٢٥ / ألف ليرة عثمانية. وبدأت الشركة بحلب الحبوب وتوزيعها على السكان لكن الذي لوحظ أن الشركة إذا باعت الفغير الجامع مت أقات باعت للمغني سعة فطاطير، وقد وزعت من الحبوب ثلاث دفعات فقط، ثم توقفت بداعي نفاذ ما لديها من الحبوب، بعد أن تسربت القناطر منها، وتكدست في أهراء التجار المحسرين. أما الرئيس الذي عين لها فقد كان ممن فسدت ضمائرهم وانحطت نفوسهم، فلم يلبث أن دفع للمساهمين ثمن أسهمهم، واستأثر لوحده بالشركة، عندما رأى أن أرباحها فاحشة، ليستغلها لنفسه، ولتلاعب بميلرات الشعب على هواه، بحيث إذا ورد للشركة خمسة ملايين من الكيلوات لم يوزع منها سوى نصف مليون، وأما الشكايات فلا من يسمعها، بل كان النفي أقل ما ينزله متصرف الجبل (على متيف بك التركي) — الذي جاء خطفاً لأوهانس باشا، بعد أن ألقى الأتراك نظام الجبل المستقل إدارياً وألحقوه بالسلطة إدارياً مباشراً كباقي الولايات — بمن يعرض على وجود مدير الشركة على رأسها^(٢٦)، لأن التواطؤ كان تاماً بين حكام الجبل وولاة بيروت الأتراك، وبين أغنياء لبنان ووجهائهم. وكان هؤلاء يتسلطون الولاية والحكام وكبار الموظفين، ويشاركون معهم في استغلال قوت للشعب وأرزاقه^(٢٧).

لذلك كان على اللبنانيين الوُعاه أن يأكلوا، بدلاً من الخبز، ثمر البيلوط والخزوب وجذور النباتات والأعشاب التي تأكلها البهائم، وما يروى أن امرأة من إحدى القرى بقيت أربعين يوماً بليلها في حرش قهري فقتلت من عشب الأرض. لقد أكل الناس من لحم الجراد والهررة والكلاب وقشور الليمون الحامض والبرتقال، يبحث بعضهم عنها وعن غيرها من بقايا الطعام أو قشور

(٢٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٥ — ٦٧.

(٢٥) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٣.

(٢٦) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢١ — ١٢٦.

(٢٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤ — ٢٥.

الغضائر والقواكه في القمامات، وحتى يلمسوا المكاسس والفسب طعنوها وصنعوا منها غييراً، وكان الجهاج إذا قشّر أحد برقالة في السوق تساقى عشرة منهم أو أكثر إلى القشرة والبلور يتهمونهم ما بعدهم. كان هؤلاء يحشون حتى في روث الدواب عن حبة الشعير، كما لم يكن أحد يجسر على الأكل علانية، وإلا اجتمع حوله عشرات منهم لا يستطيع دفعهم عن طعامه. ولم يعد أحد يأمن أن يرسل عجنه إلى المرقن ما لم يحشط لذلك بجميع الوسائل، خوفاً من أن تختطف أرغفته أيدي الجهاج^(٢٨). وقد أدى الجوع بعض العشارى إلى بيع عفاهن برطل من القمح أو الشعير فامتلات بيوت الشعارة بمن أصبح من عواصر ومومسات بفعل الجوع والحرب^(٢٩).

أما النهب والسلب والخطف والتعدي على باعة الخبز في الأسواق فحدث عنها ولا حرج، فلم يبق أحد يأمن على ماله وبيته وحائوته، بل يقوم على حراسته ليلاً ونهاراً. وقُل من نجا من مرقاة مناهه وباله. كما تألفت عصابة لصوص تختصب الأرزاق والأطعمة والأموال علناً، أو تختال ذوي الأموال ثم تسلب أموالهم، أو ترسل إليهم الإندارات لدفع المبلغ الذي ترده وتأديته في مكان تبعته، وإلا فالمرء يكون نصيب من يمتنع عن تأديته. وكانت الحكومة أعجز من أن ترد التمديات، بل اعتبرت جرائم السرقة غير موجبة للعقاب، لأن الجوع هو العلة الطبيعية لها^(٣٠).

لم يقتصر فلك الجهاج بالناس على جبل لبنان وولاية بيروت، بل عمل أيضاً كل البلاد العربية في الشرق كسورية والعراق وفلسطين. وقد بلغت وطأة الجوع بعض البؤساء في بعض المناطق، ولا سيما في العراق وطرابلس الشام، إلى أكل اللحم الآدمي، كما أوردت عن ذلك بعض المصادر، ومنها جريدة «علمدار» التركية تحت عنوان «مواليد الاتحاديين»، فحدثت عن قصة محاكمة امرأة وزوجها في الموصل، أُنحدا بحرم خطف الأطفال وذبحهم وأكل لحسهم، بعد أن كانا يطاردان الحررة والكلاب، لأكل لحمها حتى نفدت من الجوار. وذكرت الجريدة أن هيئة المحكمة قد قامت بتفتيش منزلهما فوجدت، في حفرة كانا يدفنان فيها عظام الأطفال، ما يزيد عن مئة جمجمة من جماجم هؤلاء^(٣١).

وبما روي في هذا الصدد لإقدام امرأة في قرية القلمون، كما إقدام أختين صبيتين في طرابلس

(٢٨) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢٩) أنطون ميم، المصدر السابق، ج ٦، ص ١٢٦.

(٣٠) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ١٨٨.

(٣١) ل. ن. أ. ألكاسبي، المصدر السابق، ص ٣٦٥ - ٣٦٧.

المشام على مثل هذا الفعل . وقد وجدت هيئة المحكمة ، التي تولت النظر في جريمة الأختين ،
٢٤ بجمعة من بهاجم الأطفال المذبوحين مدقونة في بحر مهجورة بمنزلهما .

وهناك قصص أخرى يقتصر لها البدن ، رويها شتى المصادر عن أكل لحم الأطفال ، في
الحرب العالمية ، أقومع عن سردها لغراتها ومشاعيتها^(٨٢) . ومع ذلك فإن جمال باشا لم يزل يكابر ،
ونفى وجود جماعة في البلاد . فقد ذكرت بعض المصادر أن وفداً تشكل وجاء لمراجعته بشأن المجاعة
وفقدان المواد الغذائية وغلاتها للفاشست ، وخاصة منها الخبز ، فما كان منه إلا أن واجه أعضاء الوفد
بهذا السؤال «هل أكلت الأم أولادها ؟» ولا أجابوه بالنفي قال «إذن لا مجاعة في البلاد»^(٨٣) .

ضحايا الأرملة

ومن المذكرات التي حلت أيضاً في سورية ولبنان والعراق وسائر الأقطار العربية ، وخاصة منها
لبنان ، انتشار الأمراض السارية ، كالطاعون والكوليرا والتيفوس والزحار وغيرها^(٨٤) من الأمراض التي
فتكت بخمس سكان لبنان ، كما يقول بعضهم . وكانت هذه الأمراض ، لا سيما التيفوس ، تنفث في
صفوف الجيش التركي ، ثم تنتشر بين السكان . وقد لوحظت أول إصابة بهذه المرض على جندي
بفرقة زحلة أصيب بها في آذار ١٩١٦ ، ثم انتقلت إلى الفقراء الضعفاء من أفراد الشعب . واشتدت
وطأة الإصابات في شهر تشرين الثاني ، كما كانت وطأة الجدري والكوليرا والزحار بغيلة إوطاة على
الجنود ، يموتون بالعشرات والمئات بل الآلاف ، فرمى جثثهم في الأحراش والوديان طعاماً للوحوش ،
فهمسده الهواء وانتشر الوهاب بشكل مخيف ، وبعم القرى والمدن ، بالرغم من الحجر الصحي الذي
ضرب على الأمكنة المؤبقة وعلى كل منزل فيه إصابة^(٨٥) ، فقد كان الدباب يتقل حصى التيفويد ،
والقمل حصى التيفوس ، والجردان عدوى الطاعون . وقد كثر لمعرض وتكاثرت الوفيات من حصى
الملاريا . وكان الناس يمشون المياه ملوثة بمجاثم الزحار^(٨٦) . وهكذا تعاقبت الأوبئة مع الجوع على

(٨٢) راجع منها لـ . ن . البكاستي ، ص ٣٦٥ — ١٣٦٨ مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص ١٨٨ — ١٨٩
المذكور أحمد خدي : متكرار من الثورة العربية ، ص ١٦٣ فائز النصين : القلالم في سورية ، ص ٨١ .

(٨٣) راجع خام : الدولة لعالمية في الحرب الكونية ، ص ٢١٩ ، ٣٣٢ .

(٨٤) M. BRZBERGIER, Ibid. p. 94.

(٨٥) أنطون بون . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦١٩ — ١٢٠ .

(٨٦) فليب جي ، المصدر السابق ، ص ٥٩١ .

القتل بمئات الألوف من السكان في جميع الأقطار العربية. كل ذلك ولا أطباء ولا أدوية، ذلك أن السلطات العسكرية قد استدعت، من لبنان وبيروت وسائر المدن السورية واللبنانية، جميع الأطباء الأذكياء لتشيطون أقاليمهم لحملة الجيش، ووضعت يدها على جميع المصالحات الوطنية، وأنعدت منها العقاقير. وقد قدر عدد ضحايا النيفوس وحده في بيروت ولبنان بما يقارب سبعين ألفاً^(٨٧).

أمام هذه المصائب، بل المأساة التي حلت بسورية ولبنان، اعتدت مشاعر السوريين واللبنانيين في المهاجر الأميركية وفي أرجاء العالم. فشككت فيها اللجان لجمع التبرعات التي صارت ترسل بواسطة الحكومات المشاهدة كالولايات المتحدة قبل دخولها الحرب وإسبانيا^(٨٨) وروسايط أخرى. كما كانت الولايات المتحدة، وقد فلفت هلاك مئات الألوف من الجوع والمرض، قد أنعمت ترسل البواخر المشحونة بالمواد الغذائية والأدوية والبحاث الطبية بمعرفة الصليب الأحمر. لكن الحكومة التركية كثيراً ما كانت تعرق وصول هذه الإعانات، ذلك أن كثيراً من البواخر لم تستطع الوصول إلى الموانئ العثمانية. فالحكومة التركية وإن كانت قد سمحت للبحاث الطبية المنظمة، من قبل الصليب الأحمر الأمريكي، بالتمركز في بيروت إلا أنها أقامت للعراقيل الكثيرة في سبيل وصول الأموال إلى المنكوبين^(٨٩). كما كان الإنكليز من جهتهم يمحزون في الاسكتندية البواخر التي تحمل الطعام والأدوية والمعدات المختلفة التي يتبرع بها اللبنانيون في المهاجر المختلفة، بداعي أنها إذا وصلت إلى لبنان وسورية فسوف يستفيد منها أعدائهم. وهكذا إلى أن يفسد ما فيها من أطعمة وأغذية^(٩٠).

عدد الموتى

أما الموتى من الجوع في سورية ولبنان وفلسطين والعراق، فيمكنون بمئات الآلاف، فدوهم بعض المظلمين، في بيروت ولبنان فقط، بما يزيد عن ٢٠٠ / ألف نسمة، وفي سورية ١٠٠ / ألف نسمة^(٩١). وقد فقدت سورية والعراق عام ١٩١٧ وحدها ما لا يقل عن ١٥٠ / ألفاً^(٩٢). ولتر بعضهم عدد ضحايا الجوع، مضافاً إليها عدد ضحايا الحرب والأمراض

(٨٧) تخطون بين، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٣.

(٨٨) راجع قائم، المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٨٩) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١٦، ص ١٥—٢٥.

(٩٠) الدكتور يوسف موه، المصدر السابق، ص ٨٥٣—٨٥٤.

(٩١) فخر الفصين، للظلم، ص ٣٨—٣٩—٤٣.

(٩٢) مقتربات الدكتور أحمد فكري، ص ٦٣.

الوهابية الفتاكة في سورية ولبنان فقط ، بما يقارب من مليون ونصف مليون نسمة . بحيث لو ذهب أحد ما إلى لرى لبنان مثلاً ، بعد انتهاء الحرب ، يجد أن القرى قد ألفت من سكانها . فالقرية التي كان عدد سكانها / ١٤٠٠ / لم يبق فيها إلا / ٢٠٠ / في القرية و / ٦٠٠ / في الخارج ، وفي حال ذلك^(٩٢) . وقدر بعضهم نقص سكان دمشق بما يقارب نصفهم^(٩٣) .

وقدر بعضهم نسبة النقص في سكان سورية ولبنان خلال الحرب بما يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ ٪ . ولعل أصدق عملية إحصاء ، جرت في هذا المجال ، ما قامت به إرسالية أميركية بالنسبة لجنوب لبنان وصيدا من حيث الأضرار المادية والخسارة في الأرواح ، فحين أن ١٨٢ قرية يسكنها البالغ عددها ١٠ آلاف مسكن ، وبعدد سكانها البالغ ٧٧ ألف نسمة ، شتم منها ٢٥٠٠ مسكن في أثناء سنوات الحرب ، وهلك ٣٣ ألف نسمة ، وأن الـ ٤٤ ألف نسمة الباقين : بينهم ١٦٤٠٠ فقير معدوم و ٢٦٠٠ يتيم ، وأن خسارة لبنان بلغت مئة ألف نسمة من مجموع ٤٥٠ ألفاً من سكانها^(٩٤) .

أما كيفية موت هذه الضحايا فمما تقشعر له الأبدان ، يراهم الناس منطرحون في الطريق ، وفي زوايا الشوارع يهنون ويضربون من ألم الجوع ولا رحمة ، بل يجازعهم المارة ، ولا يلتفتون إليهم ، ولا يهتمون بهم ، وقد تعثر بهم الأقدام فمجتازوهم غير آبهين . وبعض هؤلاء المساكين يطوفون في المدن الساحلية كبيروت وطرابلس تحسبهم ، لشدة الهزال والضعف ، غيالات أو أشباحاً بأثواب رثة ، أو عرق ممزقة يدون فيها وكأنهم عراة ، وجوه شاحبة وعيون غائرة ، وأعضاء فاحلة واللون صفراء ، وهم أشبه بالأموات منهم بالأحياء ، يمدون يداً التسول إلى كل إنسان ولا يتألمون شيئاً^(٩٥) . وقد قدر بعضهم عدد المفق من الجوع في دمشق وضواحيها يوماً به ٥٠٠ نسمة . وروى بعضهم مشاهد تنحصر لها الأهددة من الألم ، منها أن جثث المفق كانت تشاهد ، في بعض الزوايا والشوارع ، بالعشرات يجمع حولها اللدباب حتى يأتي عمال مصلحة التنظيفات ، يجرفونها إلى بعيد ثم يلقونها في

(٩٣) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص ٦٩٩ .

(٩٤) فالز الفصون ، المظالم ، ص ٦٤ .

(٩٥) فليب حي ، المصدر قسطنطين ، ص ٥٩٦ .

(٩٦) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص ١٨٩ .

حفر بعضها فوق بعض خارج المدينة كما هي عليه^(٩٧). وكَم من نساء شوهدن مائتات من الجوع
وهن محتضنات أطفالهن الرضع حل أثلاثهن وكلهم جثث هامدة^(٩٨).

قال جمال باشا المرسيني (المصغر) ، في مذكراته التي أطلق عليها اسم «كيف جلت
القوات العثمانية من بلاد العرب» ، عن ضحايا المجاعة : « اشتدت وطأة الحر في شهر تموز ١٩١٧ ،
فزادت في الألم الذي أشعر به من المناظر البائسة التي كانت تمر أمام أنظارني في شوارع بيروت ، فإن
هذه المدينة ، التي أحييت شعباً من كل قلمي ، كانت خالية تقريباً من السكان ، لا ترى في
شوارعها إلا نفرأ قليلاً من الأغنياء الذين اشتروا حياتهم بالمال ، أو بعض الفقراء يتقلبون على بلاط
المشوارع هنا وهناك ، يطلبون لقمة لیسدوا بها ومقهم فلا يجدون ما يقتاتون به ، ويتصلفون في
أماكنهم إلى أن يذهبوا ضحية الجوع ، فيأتي عمال البلدة في اليوم التالي ، وينقلونهم جثاً هامدة إلى
المدافن»^(٩٩).

خلاصة القول إن إجراءات الحرب العسكرية ، وانهيار الحالة الاقتصادية التي كانت السبب
في المجاعة ، وملاك الناس بمئات الآلاف ، قد أثرت تأثيراً مريعاً للغاية في العلاقات العربية - التركية .
فولدت الاستياء في النفوس بوجه عام ، لأن نقاعس الحكومة من جهة ، وعسفها في السكان من
جهة أخرى ، كانا ظاهرين للعيان ، فساد الخوف وتغلغل الاضطراب في النفوس ، وعمت الهلوي
فشملت جميع السكان .

قال حسين كاطم ، وهو أحد كتاب الترك ، كشاهد عيان : « اضطرت إلى البقاء في سورية
من أول الحرب إلى آخرها ، فكنيت طوال مقامي فيها شاهداً على ما نزل بأهلها من ظلم وعسف
ونكبات ، حتى لقد سالت جموعي حزناً على ما شهدته من تردي الإنسانية في سبيل المهانة . الحق
أقول إن أهل سورية قد برهنوا ، في لوائل أيام الحرب ، عن عطف وميل نحو الأتراك ، لكن مَرَّ
تسلط ، من موظفي الترك ، على رقاب أهلها كانوا من الخلفة بحيث لم يعرفوا السبيل الصحيحة
للاستفادة من هذه الإدارة الطيبة . بل بالعكس فإنهم ، بما أنفسهم من مجال لصنوف من الغدر
والظلم الشديدين ، قد نفروا منهم ومن حكومتهم كل فرد من أفراد الشعب السوري . ذلك أنه كان

(٩٧) فائز المصين ، المظالم ، ص ٢٧٠ مصطفى المشاي ، مقبرة العربية ، ص ١٦٠ .

(٩٨) CORRESPONDENCE D'ORIENT, 523 Sept. 1916 p.319.

(٩٩) جمال باشا المرسيني ، المصغر السابق ، ص ٦ .

بين كبار الموظفين من عمدوا — بدلاً من التفكير في تأمين قوت الشعب بما يستطيع من البسر — إلى الاشتراك ، مع زمرة جمعة من أهل البلاد الظلام ، في احتكار مواد القطن من قمح وسكر وتبوتل ، وتقاسموا المنافع ، وملكوا جيوبهم بالأموال على حساب قوت الشعب . وقد نردت الأحوال ، في نهاية الأمر ، إلى درجة أن الشعب العربي ، بمسلميه ومسيحييه بلا امتثناء ، قد ثنوا لو يأتي أي كان — حتى ولو كانت فرنسا أو إنكلترا — لإنقاذهم من المصير القاتم الذي آلت حالتهم إليه^{١٠٠} .

أنا لا أزعم أن كل البلاد الذي وصفته ، وكل الكوارث التي مررت عيها ، قد وقعت من أول يوم من أيام الحرب ، ولا ظهرت بوجهها المقيت المرعب من أول لحظة ، ولا أنها السبب الوحيد لانقراض العرب على الدولة العثمانية ، متادين بالانفصال التام والاستقلال الناجز ، إلا أن الذي ظهر منها في الأشهر الأول من الحرب كان من الكفاية بأن يندب بالشر المستطير الذي سيله إذا طالت مدة الحرب . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن ما وقع ، قبل اندلاع الثورة العربية ، كان كافياً لكي يكون من الأسباب الأساسية التي خفرت فكرة هذه الثورة ، إلى جانب مظالم جمال باشا الشخصية ، وإرهابه ، ولجأه بالعرب الأحرار ، خاصة وأن العرب لم يكونوا واضحين في الأساس عن فكرة الدخول في الحرب ، لحلمهم بما سوافقها من هلات ومصائب ، وهذه هي الفكرة التي كان يعتنقها الأحرار الذين مالوا إلى الاستقلال الناجز ، لور دخول الدولة الحرب . وما إن تردت الأحوال وعمت المصائب حتى اقتضوها فرصة لكي يجاهدوا في سبيل تحقيق استقلال بلادهم .

(١٠٠) Y.H. BAUVER, Ibid. III, p. 214 استناداً إلى كتاب «الانقلاب» ١٠ تموز ١٩٠٨ ، وبنسجته من المؤلف الكاتب المذكور .

نضال العرب الأحرار وإرهاب الطاغية أحمد جمال وأثرهما في الانفصال

نضال العرب الأحرار

لقد اعتاد معظم كتاب العرب ، الذين كتبوا في تاريخنا القومي ، القول بأن أحرار العرب — بعد إعلان تركها الحرب — قد أوقفوا نشاطهم السياسي ، ولم يتركوا مكاناً في سبيل مطالبهم القومية التي كانوا يناضلون في سبيلها قبل الحرب ، إلى أن نصب جمال باشا مشانقه للشهداء منهم ، وبدأ بحركة إغناء لشوريم وأذكتها لهم^(١) . وقد دفعهم إلى هذا القول أمور عديدة منها : إما عدم تفهمي الحوادث والتعقيد في البحث ، أو إظهار العرب بمظهر الخاضعين للجماعة الإسلامية التي كانت تربطهم بالترك ، أو إبعاد أي شبهة باتصافهم وتعاونهم مع الدول الأجنبية التي تحارب الدولة ، أو إمعاناً في تحريم الاتحاديين بإظهارهم بمظهر الطغثيان والعمسفة بدون سبب موجب ، أو تهرة العرب من كل محاولة للخروج عن نطاق الدولة العثمانية ، وبالتالي من كل وصمة يمكن أن تهر عليهم تهمة الخيانة والانفصالية .

وقبل أن أحاول كشف ما استطعت أن أحر عليه من حقائق توضح هذه النقطة ، أود أن أقول إن ثبوت كونهم قد عملوا في سبيل مطالب أمنهم القومية ، لا يعني مطلقاً أنهم قد ارتكبوا جريمة ما للدولة الخلافة . لأن الأفكار القومية كانت قد شجرت في نفوسهم إلى درجة أنها أضعفت صلته

(١) يوسف إبراهيم بريك ، مؤثر الشهداء ، ص ١٢٩ مسعد دالر ، ملوكال على عايش القضية العربية ، ص ٧١ .

بالدولة يرباط الجامعة الإسلامية، ولأن الترك أنفسهم قد تحولوا فضلاً، لا قولاً عن هذه الرابطة، وذلك ما استوثق من صحته القوميون العرب الذين كانت لهم الكلمة الأخيرة. أما الرابطة العنانية فغنى عن القول أنهم اعتبروها وهماً تغنى به الاتحاديين، وجعلوها ساراً لأغراضهم القومية. وأما تجريم الاتحاديين بالظلم والصف، فهو من الموضوع بحيث لا يحتاج إلى نكران النضال الذي ثابر عليه أحرار العرب إثر إعلان الحرب. بل إن هذا النكران يقتل من قيمة استشهادهم، إذ لعمري ما قيمة الشهادة إذا لم تكن تمهيداً للتفاني في الدفاع عن مبدأ يقف المزمع حيائه لتحقيقه، بدون حساب لأي اعتبار آخر يدعو إلى وقف نشاطه؟

صحيح أنهم أوقفوا نشاطهم مؤقتاً، واتخذوا موقف الترويض، حينما اكتمل الجهد السياسي الدولي، انتظاراً لما سيجلي عنه موقف الدولة العنانية من الحرب، وأظهر بعضهم غيرة عليها من أن تتناولها الأطلماع الأجنبية، كما يظهر من المكسب التي تبادلها بعض أحرار العرب، والتي أشرت إليها في فصل سابق — وهم لو استطاعوا لتعزوا من دخول الحرب — غير أن دخولها فيها أحدث ارتباكاً في نفوسهم، وأدخل الحزب والجزع إلى قلوبهم من أن تعرض ولايتهم للأخطار الشديدة، ففقدوا العزم حل بذل الجهد للوصول إلى ضاية مزدوجة: استدلال الموقف لتحقيق استقلال بلادهم حفاظاً على كيانها وتجنّبها وبلائات الحرب من جهة، والعمل على منع وقوعها في براثن الاستعمار الأوروبي من جهة ثانية. فلما اجتمعت اللجنة العليا للجمعية «العربية الفتاة» وبحت الأمر ملياً، وبعد إنعام النظر والإحاطة بالموقف العام، اتخذت قراراً تقول بأنه «نتيجة لاشتراك تركيا في الحرب، أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العنانية معرضاً لخطر شديد، ويجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها، ومن المقرر أنه إذا تحقق أن للدول الأوروبية مطامع في هذه البلاد، فإن الجمعية ملزمة بأن تعمل، إلى جانب تركيا، لكي تقاوم التدخل الأجنبي مهما تكن صوته». وكلما كنت أصدر عزمي على المصري، مؤسس جمعية «العهد» وكان مقيماً في القاهرة، تحذيراً لقادة الجمعية، في الولايات العربية العنانية، من أن ينساقوا إلى القيام بعمل عدائي تجاه الدولة، لأن دخولها الحرب معرض ولايتها العربية للغزو، وهذا ما يحتم عليهم الآن أن ينفقوا بجانها إلى أن يحصلوا على الضمانات الكافية بحماية هذه الولايات من المآرب الأوروبية^(٢).

(٢) أحمد فكري، أصدر السامي، ص ٣٨، ج. كوك، المصدر السابق، ص ١٩٢، GEORGE ANTONIUS. Arab awakening, p. 152. الترجمة العربية المجددة، مكتب أنطونيوس، ص ٢٣٨ (الترجمة القديمة المصدر السامي — ترجمة لوكاني ص ١٧٢).

(٣) ج. كوك، المصدر السابق، ص ١٩٦ أنطونيوس المصدر السابق (ترجمة لوكاني) ص ١٧٥.

كان هذا في بداية دخول الدولة العثمانية في الحرب، إلا أن الأحداث الطارئة قد طورت موقفهم فيما بعد، ذلك أن الأوضاع الداخلية، بما أثبت على ذكره في الفصول السابقة، واتصالات بمثل الحلفاء برزعاتهم في مختلف المناسبات^(١)، وانزهاب السلطات التركية من نهايتهم قد آتت ثمرتها في زيادة الشقاق والخلف بينهم وبين الدولة العثمانية.

الواقع أن دخول الدولة في الحرب قد أحدث حالة جديدة في نفوس الأحرار — وهم ممن صنفهم في الفئة الثانية في الفصل الأول من هذه الرسالة — إذ كانوا موثقين بضخف دولتهم، وقد خافهم الشك في انتصار حليفتها ألمانيا على أعدائها، وأدركوا أن اندحارها تدمر بزوال الإمبراطورية العثمانية وتقسيم الحلفاء لأراضيها، بما في ذلك البلاد العربية، وحينئذ تكون النتيجة وخيمة على العرب^(٢). لذلك ساءهم جداً ما فعله أتور وطلعت وغيرها من رجال تركيا الفتاة، الذين زجوا بها في حرب طاحنة لا ناقة لها فيها ولا جمل، خلافاً لرأي عقلاء الترك، وجميع العناصر العثمانية، لا سيما العرب^(٣)، فاندفعوا إلى العمل غلظين، وانحصر نشاطهم في السبيل المؤدية إلى تعزيز كياناتهم القومي سواء لحفظ هذا الكيان من أن تثبت به يد الترك — وقد تسوقهم مقصضات الحرب إلى دفع العرب نحو الفناء وقوداً للحرب، كما كانت البوادر تدل عليه من إجراءات الحرب العسكرية والاقتصادية، حسبما بينت في الفصل السابق — أو لتقادي وقوعه لمهمة للاحتلال الأجنبي مع سعي حثيث للاستقلال.

وهكذا نرى أن كتاب عزيز علي المصري إلى أعضاء جمعيته، وقرار الجمعية والنداء الموجه عنهما، وإن لم يكونا قد دجيا صراحة إلى الانتفاض على الدولة العثمانية، إلا أن ما جاء فيها لا يخلو من مغزى النضال. وفضلاً عن ذلك لم يكن ما طلبه عزيز من رفاقه، وما وضعه «الفتاة» من تحفظ، رفقاً بالدولة العثمانية، بل حرصاً على الولايات العربية من أن تتعرض للتفريق الأجنبي^(٤)، ومعنى ذلك أنه مع الحصول على الضمانات يمكن القيام بالثورة، وهذا هو الذي حصل فيما بعد. كما أرسل عزيز إلى ابن سعود أحد أعضاء جمعية العهد متلوهاً عنها يستحثه على عدم التعاون مع الترك والعمل في سبيل القضية العربية^(٥).

(١) سيأتي بحث هذه الخاصية في الفصل الأول من كتاب التالي من هذه الرسالة.

(٢) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٧٦.

(٣) أسعد داغر، ملوكوتي عن حاشي القضية العربية، ص ٧١.

(٤) جورج أفلونيس، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٥) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ١٤٧.

وإذا كان موقف « العهد »، وهي إحدى الجمعيتين السريتين اللتين قادتا النضال العربي في تلك الفترة، قد بدا قليل الفعالية من حيث الحصول للسياسي، فإن نشاط الجمعية الثانية « العربية الفتاة » في حلق المجال كان أكثر فاعلية وأكثر عمقاً، إنما أكثر تكتماً وحذراً. وكان يساعدها على ذلك النظام السري الدقيق الذي التزمته، سواء في تعيين أعضائها، أو في تنظيم علاقاتهم ببعضهم بعض، والتحكم الشديد في أمر وجودها. كانت « الفتاة » تشبه جمعية بروت السرية التي أنشئت عام ١٨٧٥، إلا أنها تختلف عنها بكون أكثرية أعضائها من المسلمين، وبكونها تسعى إلى الاستقلال عن الترك دون أن ترتبط بالتيبة لأي دولة من الدول الأجنبية^(٨). كما تختلف عن جمعية « العهد » بكون أعضائها خليطاً من مدنيين وعسكريين وشبان وكهول. أما العهد فمقتصرة على الضباط إلا أفراداً معدودين من المدنيين، وتتفق معها في كونها تستهدفان مصلحة العرب القومية العامة دون أية نظرة إقليمية، بل الشعور والعمل في جو أمة واحدة وكيان واحد. كما تختلف وتتنازع « العهد » عن الفتاة بمرور معنى التشكيل العسكري في تطور فكرة النضال العربي، واتجاهه انجهاً بعيد المدى شديد الخطورة، وبرز معنى العزم على الانتفاع من الفرص المتاحة والإقدام على خطوات جريئة، كما سترى عند ترك عدد كبير من ضباطها للعرب صفوف الجيش التركي، والشحاقهم بصفوف الثورة العربية^(٩).

غير أن نظرة تلقينا على تطور جمعية العهد تبين لنا أنه شبيه، إلى حد كبير، بتطور « العربية الفتاة » من حيث تشويها على فكرة اللامركزية الواسعة (الفدرالية) والبقاء ضمن الرابطة العثمانية، ثم تحولها عند نشوب الحرب إلى الانفصالية، كما يتجلى التشابه بين الجمعيتين في كون أعضائهما مزيجاً من أبناء الولايات العربية دون تفرق، مع ملاحظة أن أكثرية أعضاء العربية الفتاة من المسيحيين، وأن أكثرية أعضاء « العهد » من العراقيين. فمؤسسو «العهد» هم: الضباط عزيز علي (مصري)، سليم الجزائري (شامي)، نوري المسيد (عراقي). وكان من الأعضاء الضباط: جعفر العسكري، ياسين الهاشمي، طه الهاشمي، جميل المدفعي، تحسين علي، فؤاد الملحمي، تحسين العسكري، موفق الكامل، عيسى الورتري، يوسف حنظل، توفيق الدمولوجي، عبد الجيد الانكرلي، مهدي الرجال، مولود مخلف، صبح الحبيب، علي جودة الأتولي، نوري فلاح، عبد الله الدلامي.

(٨) من أجل جمعية «العهد» التي تأسست في ٢٨/١٠/١٩١٣ بمساعي عزيز القصري، راجع كتاب «العرب والترك» المصدر السابق ص ٥٥٧.

(٩) مجلة طرا دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج ١، ص ٢٧-٢٨.

عبد القفور البيدي، اسماعيل الصغار، يحيى الموصل، شريف الشريف، محمد زكي البصري، رشيد الخوجه، يوسف العزولي، إبراهيم أدهم البغدادي، حميد الشالجي. أما المهديون فمنهم: ثابت عبد النور، مزاحم الباجه جي (وهو طالب حقوق)، عبد الله اللدلوحي (طالب طب)، عاصم الجلي (طالب بدار الفنون)، ومهدي الباجه جي، وجميع هؤلاء من العراقيين. كما كان من أعضائها الضباط والمفوضين: محمود حلبي (طرابلسي)، ومصطفى وصلي، وعبد القادر سري، أمين لطفي الحافظ، يحيى كاظم أبو شرف، عارف التوم، علي رضا الغزالي، محمد إسماعيل الطبايع، محالد الحكيم، محي الدين الجبّار، صادق الحندي وجميعهم من السوريين، وعلى التشاشي من القدس. وكان عدد أعضائها كبيراً قد يكون ثيفاً وثلاثين على قول بعض الروايات. وفروعها في العراق كانت عديدة: في الموصل، بغداد، ولبصرة. تأسست الجمعية في الآستانة ثم ما لبثت أن أقامت لها فروعاً في دمشق وحلب علاوة على فروع العراق. أما الانتظار للعربية الأخرى كالبحار وطرابلس الغرب وفلسطين واليمن ونجد فكان لها فيها مندوبون أو فلول خاصة لبث الدعاية لها حسب برنامج مدروس. وكان أعضاؤها من الجبهة بحيث لا يهابون السلطات الحاكمة إذ كانت مناصبرها تطبع في أهم المطابع سواء في الآستانة أو غيرها من المدن. وكان الأعضاء لا يستترون في نقلها وتوزيعها لتدفعهم إلى ذلك الحماسة والجبهة والتضحية. وهذا ما دفع السلطات في باديء الأمر إلى ملاحقة مؤسسيها، فسجنحت وحاصرت عزم علي ثم نفتته إلى مصر، وهرب نوري السعيد إلى البصرة عند نشوب الحرب^(١٠).

وإذا استقيمت جمعية العهد فإن «العربية الفتاة» قد تميزت بتقدمية برامجها نسبة للأحزاب والجمعيات الأخرى التي كانت تسمى للحكم الداخلي الذاتي ضمن الرابطة العشائرية، وإن جاء برنامجها، في أول تشكيلها عام ١٩١١ في باريس، متضمناً «عدم الانفصال عن الترك»، غير أنها تحطمت هذا الشعاع مع الزمن حتى استحال إلى شعار انفصالي محض من أوائل سني الحرب العامة، كما تحطمت زميلتها «العهد». ولم تكن تقبل في صفوفها — على كثرة طائفي الدخول ممن يظهرون حماسة لأهدافها — أي عضو إلا بعد اختبار طويل وتحميص دقيق^(١١)، وتتشدد في قبول المنتسبين إلا من عرف منهم بحسن الخلق والأمانة والكتيان والصلابة وقوة النفس والجبهة، بالإضافة إلى تشبعه بالفكرة القومية وحماسه لها. وكان القبول يجري برشيع أو بتركية طالب الدخول — أو من

(١٠) محمد العسكري، مذكراتي، ج ١، ص ١٩ — المهدي البصر، تاريخ القضية العراقية، ص ١٢٨ م. حرة دروة، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢ — ٣٣.

(١١) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ٩٤ — ٩٥.

يرى المسؤولون أو بعض الأعضاء أن في دخولهم الجمعية فائدة لها - من قبل عضو سابق غير به خيرة نامة . ويجري التحقيق عن أحوال العضو المرشح بإحالة أمره إلى دراسة سرية دقيقة يكلف بها عضو من أعضاء الجمعية السابقين ، بحيث يسأل عائلته بشئ الأساليب ويختبره بالمحادثة ، حتى إذا أسفر ذلك عن قناعة نامة بأهليته أحيل للمناقشة - وهذا في حالة كونه مرشحاً دون علم منه بذلك - وعندئذ يفتح بأساليب متنوعة ، ويكون المكلف بمناقشته متحفظاً قادراً على التراجع وسد الباب ، دون أن يترك أي مجال لاكتشاف أمر الجمعية ، أو الإحساس بوجودها . فإذا أسفرت المناقشة عن الإيجاب أعطيت له تفصيلات قليلة ثم يدعى إلى الجين ، ويخلف من قبل عضوين آخرين على الإخلاص لمبدأ الجمعية ، يدل كل جهد لإيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة والمستقلة الكبرى ، ثم على التضحية في سبيله بالنفس والمال ، وكتبت أسرار الجمعية والطاعة للأمر هيئتها المسؤولة . عند هذا الحد لا يكون ما عرفه العضو للتضم إلا اسم الجمعية بالإضافة إلى أشخاص قلائل ممن فاتهم أو حلقوه ، وإذا أهد تكليفه بمهمة ثو لإبلاغه أمراً ما جرى ذلك بواسطة أحد هؤلاء ، أو بواسطة مأمونة أخرى . وقد يتعدى الأمر هذا الحد إلى الاستفادة من نشاط العضو والتوسع في إطلاعه على تشكيلات الجمعية ، وإلى عروضه مبادئ العمل تحت رايها ، إنما يكون ذلك رهناً بما يظهره من إخلاص شديد ونشاط فياض وقوة شخصية ، ومن سعي في سبيل مرامي الجمعية وأهدافها^(١٢) .

كما كان للجمعية رموز وشعارات سرية ومطبعة وصندوق مركزي للمال^(١٣) . وكانت تستعمل للمراسلات والاتصالات الكلمات الرمزية التالية : « بزغ فجر وطنك ، مت لعضد شخص أعني ثقة ... » ، وهو شعار يدل على الثقة والاعتزاز القومي والتضحية والتضامن بأجل معانيها . وكانت الجمعية تتألف من ثلاث هيئات : الهيئة الإدارية وقوامها ستة أعضاء ، وهي التي تتولى إدارة شؤون الجمعية ، والهيئة العاملة ، وهي التي تختار الهيئة الأولى وتتألف من الأعضاء المدين أمضوا مدة التجربة وهي ستة أشهر ، والهيئة الثالثة وتضم الداعلين حديثاً وهؤلاء لا يعرف بعضهم بعضاً^(١٤) .

بفضل هذا الأسلوب الذي سارت عليه الجمعية « العربية الفتاة » بقي أمرها مكتوماً إلى آخر الحرب ، بالرغم من تعذيب من ألقى عليهم القبض وأحيلوا إلى ديوان حرب عالية من أعضائها ،

(١٢) م . ج . - ندوة ، المصدر السابق ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(١٣) LAWRENCE: (ibid. p. 60) ترجمه العربية ، ص ٣٢ .

(١٤) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ص ٩ .

دين معرفة بحقيقة أمر انتهائهم الحزبي، بالرغم من أن نشاطها قد انتقل إلى قلب دمشق، مركز قيادة الجيش الرابع، حيث كانت سيطرة الطاغية جمال باشا على أشدها. علماً بأن الجمعية كانت قد نقلت مركزها، من باريس حيث تأسست، إلى بيروت عام ١٩١٢، حينما انتهى مؤسسوها من دراستهم في فرنسا، وعادوا إلى وطنهم، ثم نقلت مركزها مرة ثانية إلى دمشق، عند نشوب الحرب^(١٠). كما نقلت إلى دمشق مقر جريدتها «المفيد»، التي كان يصدرها عبد القني المرسبي، ومحمد الحمصاني، والأمير عارف الشهابي^(١١)، والتي كان العرب يتحمسون لما تنشره خاصة شديدة، ويترقبون بفارغ الصبر صدورها بحيث كان موزعوها، للذين ينتظرون تسليم أعدادها إليهم، من المكورة بحيث لا يستطيع الزائر أن يشق طريقاً من بينهم سواء على أبواب إدارتها، أو على السلام المؤدية إلى الداخل^(١٢). وفي انتقال مركز الجمعية وجريدتها إلى دمشق، في هذه الفترة الحرجة، دليل على جرأة القائمين عليها، ورجسهم في ممارسة التفاعل على أشده بكل شجاعة وإقدام، كما هو دليل على سرعة اليدوية في اقتناص الفرص التي هيأتها دعوة الحكومة للشبان العرب، المتعلمين في المدارس العالية، إلى ما سمي بـ «الخدمة المقصورة»، أي للتعليم الذي يبيعهم ليكونوا من ضباط الاحتياط. وكان كثيرون منهم متدجين في الحركة العربية. وكان اجتماعهم في دمشق، المركز الذي بدأوا يطلقون تعليقهم العسكري فيه، مما أتاح لهم مجال الاتصال والتحديث والنشاط والحماسة للتفكير القومي وأهدأها. كما أن اجتماع عشرات الألوف من جنود العرب المدعومين للخدمة، وتمركز ثبات من ضباطهم في محل واحد نتيجة للتفكير العام، كان يبعث في نفوس القوميين للعرب آملاً جسماً في تحقيق شأناهم القومية^(١٣).

شرعت الجمعية في العمل، بعد انتقالها إلى دمشق وفور إعلان التفريق العام، فقررت أولاً الاستشارة برأي زعماء الحركة الوطنية من السوريين العرب المقيمين في مصر، قبل أن تنقطع المواصلات، فأوقدت إليهم الشيوخ كامل القصاب للاتصال بهم، والتفاوض معهم على خطة معينة. فسافر بحراً في تشرين الأول ١٩١٤. وبعد أن قام بالهمة عاد بحراً دون أن يستطيع الوصول إلى الغاية المرجوة. أنزلته الباصرة في سكان ما على شواطئ الأناضول القريبة لعاد برأ إلى دمشق،

(١٠) محمد جميل بسم، تواريخ الحركة وبواكيرها، ج ٢، ص ٢٧، والعرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، ص ١٦٩.

(١١) فائق القيصون، ملكوتني من الثورة العربية، ص ٦.

(١٢) محمد جميل بسم، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، ص ١٥٤.

(١٣) محمد حزة مروزة، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤١ - ٤٢.

وسرعان ما اتصل أمره بالسلطة العسكرية فأمرت باعتقاله^(١٩)، حينها بدأ جمال بإظهار نياته السبقة نحو العرب، غير أنه استطاع أن ينجو بنفسه ويقعجى* إلى مصر بطريق مكة، لأن جمال باشا لم يكن قد لُوغِلَ بعد في سياسة الإرهاب والبطش والقتيل.

وحتى قبل قدوم جمال باشا حاكماً كانت الجمعية ماضية في بث أفكارها القومية في صفوف ضباط الاحتياط، وإذكاء مشاعرهم للوطنية. وكثيراً ما كانت تعقد لهم الاجتماعات في دور أعضائها البارزين، حيث يجري استعراض الموقف العام، ويبحث ومناقشة أفضل السبل التي تكفل تحقيق الأهداف القومية. وكان أبرز ضباط الاحتياط المدعو «جلال البخاري»، ذو الصوت العذب الرعيم، الذي كان يثير الحماسة في نفوس الحاضرين حينما تتطلق الخناجر ببعض الأناشييد الوطنية. وقد رأت للجمعية عوناً لها على العمل بتلك الحرية ما آتته من وجود الثميق زكي باشا الحلبي، العربي، على رأس قيادة الجيش الرابع في دمشق، قبل قدوم جمال باشا ليحل محله^(٢٠).

كان نشاط الجمعية منصبياً، في الوقت نفسه، على توسيع نطاق تشكيلاتها، وضم أكبر عدد من المنتسبين إليها، وبخاصة في صفوف ذوي الشأن والباس من كبار الضباط العرب، ومن شخصيات المبلاد ووزراء العشائر في مختلف الأنحاء، حتى أرى عدد المنتسبين إليها في بداية الحرب على ألفين^(٢١). فبالإضافة إلى مؤسسها: عوني عبد الهادي، رستم حيدر، محمد الحمصاني، عبد النبي فلمريسي، وليق التميمي، وجميل مردم، دخلها، قبل الحرب، الدكتور أحمد قدري، وكان رئيساً لفرع دمشق قبل انتقال مركزها العام إليها، والأمير طاهر الجزائري، والأمير عمر الجزائري، والأمير عارف الشهابي، وسليم طبارة، والشيوخ كامل السقصاب، ومحمود الضمصاني، وهوسف حيدر، وإبراهيم حيدر، وصالح حيدر، وأسد حيدر، ونوفيق البساط، وعمر حمد، ومحمد الشريفي، ورفيق رزق سلوم، وسيف الدين الخطيب، وفوزي البكري، وأخوه نسب وسامي، وشكري القوتلي، وفارس الحوري. وبعد إعلان الحرب دخل فيها بواسطة آل البكري، الأمير فيصل بن الحسين حينما أتى إلى دمشق، كما دخلها الهامي فائق القصصين، وعمر الأتاسي، وفوزي الشعلان رئيس عشائر الرولة، وفواز الفائز رئيس عشيرة بني صخر، ومحمد الملحم رئيس

(١٩) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ١٠٨.

(٢٠) الدكتور أحمد قدري، المصدر السابق، ص ٣٧-٣٨.

(٢١) ج. كوك، للمصدر السابق، ص ١٨٧.

عشيرة الحسنة^(٢٢٢). وقد رأيت الجمعية أن تدخل في عضويتها الضابط الكبير العقيد ياسين الهاشمي رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر (فيلق الموصل)، وكان يربط يومئذ في سورية للاشتراك في حملة قناة السويس، وهو من نخبة الضباط العرب النابضين، فقررت الاتصال به ودرس اتجاهاته وتطلعه لإدخاله في عداد أعضائها، وكلفت بذلك السيد عبد الغني العريسي الذي تمكن من الاتصال به، وتم قبوله عضواً فيها، وجرى تحليفه اليمن من قبل الدكتور أحمد قدرى وعبد المغني العريسي، وجعلته الجمعية عمدة الموصل بينها وبين جمعية «العهد» التي كان من أعضائها هو ومعظم ضباط العرب القوميين. كما انضم إليها بعد ذلك، رضا باشا الركابي ونسب بهك الأطرش من أعين جبل العرب، ونواف الشعلان نظراً لسميته الوطنية الطيبة، «وللاستعانة بقوى فاعلة عند الانضمام». وقد أهلت الجمعية رضا الركابي والأمير طاهر الجزائري أن يلفا قائم الغصين بالسفر إلى مضارب الشعلان^(٢٢٣) والمودة بالأمير نواف الشعلان إلى دمشق^(٢٢٤)، بناء على طلب الأمير فيصل، فلم يستطع فائز إلا أن يمثل الأمر الجمعية الذي «لا يرد» بالرغم من حرج الموقف، إذ كان جمال قد بدأ اضطهاداته لأحرار المغرب، فذهب وقام بالمهمة الموكدة إليه وأتى بنواف مندوباً عن أبيه ومعه بعض رؤساء العشائر. وتقابل الأمير نواف والأمير فيصل في دار آل البكري في القباوين، حيث اختلجا ساعة من الزمن^(٢٢٥). أما قائم الغصين فلم يسلم من غضب جمال عندما بلغه من أحد التوشاة ما قام به، فأمر باعتقاله ومحاكمته في ديوان حرب عظمى وحكم عليه بالنفي إلى ديار بكر، ومن هناك تمكن من الفرار واجتاز الطريق منها إلى البصرة مشياً على الأقدام^(٢٢٦). كذلك قررت الجمعية ضم الأمير علي النجل الأكبر للشريف حسين إلى صفوفها فأوقدت يوسف حيدر في هذه المهمة إلى المدينة المنورة لوفيق فيها^(٢٢٧).

لم يقتصر نشاط الجمعية على تقوية أوضاعها الداخلية، بل امتد نشاطها إلى الاتصالات السياسية الهامة بزعماء العرب البارزين عندما أرسلت وفداً من أعضائها إلى الأمير عبد العزيز بن سعود، أمير نجد، فقابل أعضاؤه في الرياض، وحاطبوه بقوفهم (نهم في سبيل القيام بحركة واسعة للتطابق

(٢٢٢) قائم الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ٣٨.

(٢٢٣) حصل ذلك إثر تدويع فيصل إلى دمشق وإنهاء مباحثاته مع أحرار العرب القوميين على لقاء بالثورة، ورفقه فيصل بالاجتماع إلى شيوخ العشائر لاختيار استعاضهم للثورة كما سيأتي تفصيله في الفصل الخامس من هذا البحث.

(٢٢٤) أحمد القري، للصدر السابق، ص ٤٩ - ٤٠.

(٢٢٥) فخر الغصين، مذكراتي عن...، ص ٣٩.

(٢٢٦) قائم الغصين، مذكراتي عن...، ص ١٦٦ - ١٤٩ وأحمد قدرى، للصدر السابق، ص ٤٠.

(٢٢٧) فخر الغصين، مذكراتي عن...، ص ٣٨.

ضد الدولة العثمانية، وأنهم يطلبون منه — تقديرًا لمزاياه الخيرية — نزعهم هذه الحركة، فأُنصت إليهم بانتباه تام، في حين ذهب تفكيرهم إلى أن أفكار مخاطبيه تسرح في جو من الخيال، وأنهم ليسوا إلا عابرة في الكلام، تتراءى لهم رغباتهم وكأنها حقائق ملموسة، ولم يرَ بدءاً من صفوفهم مريق العبارات، بعد أن انتهى به التفكير إلى تقدير صعوبة تحقيق هذا المشروع، بالرغم مما فيه من إغراء، ذلك أنه لم يسقط من حسابه احتمال الفشل، وتكرر مأساة جديده سعود الكبير وعهد الله، بحيث يمر أعداؤه لثرك إلى قلب الجزيرة العربية. ففضل أن يتوسع في جوار منطقتيه، وأن يفتوي أركان إمارته ويوسخ جذورها الداخلية بحيث لا تتجه أنظاره إلى محاربتها إلا بعد توليد قواعد لها على أساس صلد معين^(٢٧).

حيثما اتجهت أنظار الجمعية إلى الشريف حسين فأُرسلت إليه مندوباً عنها فوزي البكري، المضابط الشاب المجدد حديثاً، وقد انضم إلى الجمعية من عهد قريب، وأسفرت جهودها وسعيه لدى الحكومة عن تقليده وظيفة شرفية في حرس الشريف. وحينما استلم أمر سفره حثثته الجمعية رسالة شفوية إلى الشريف حسين، فحوّاه أن زعماء العرب في الشام والعراق، بما فيهم كبار ضباطهم، قد عقدوا المزمع على القيام بثورة للحصول على استقلال بلادهم، فهل يقبل الحسين تولي قيادة حركتهم، باعتباره أبا للعرب وزعيم المسلمين وأمهم الكبير، وشريفهم الأكبر، ليتقدم من شروط طلعت وأتور وجمال. وفي حالة الإيجاب هل يقبل وفقاً بآتيه من دمشق أو يرسل من ثلثه إليها مندوبين يتقوّم للتفاوض مع أركان الجمعية في أمر التنفيذ^(٢٨)؟

وبل هذا المندوب إلى مكة في وقت كان فيه الشريف يعمم التفكير فيما يجب عمله بعد أن أتمه الرسل — إثر دخول تركيا الحرب — من مختلف الجهات: من الترك ومن الإنكليز، وما هي تألي من أحرار العرب السوريين، وكان قد أرسل إلى رؤساء العرب في الجزيرة يستطلع رأيهم في الأحوال الحاضرة، ولم يلق منهم أي جواب بعد. فلم يشأ أن يقطع برأيه، بل أرسل ابنه فيصل إلى دمشق لاستطلاع الأحوال العامة هناك من جهة، والذهاب إلى الأستانة للاتصال برجالها، والمداولة معهم في سلوك نادي الاتحاديين في الحجاز، وما يقوم به من أعمال عدائية ضده بالاتفاق مع ولي الحجاز

(٢٧) BENOIST MECHEM, Ibn Saud, pp: 175-177 مصطفى الخنواوي، ابن سعود من ٨٣، CAPITAIN A.E. ARMSTRONG, Le Maître D'ARABIE Ibn Saud, pp. 96-97.

(٢٨) LAWRENCE, Ibid. p. 64، ترجمته العربية، ص ٣٩ — ٤٠ أنطوليوس، المصدر السابق، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ جلال محيى، المصدر السابق ص ١٣٩.

وقائده العسكري الجديد وهيب بك من جهة أخرى. فما إن وصل فيصل إلى دمشق، في أواخر آذار ١٩١٥، حتى التقى حوله زعماء الجمعية وأدخلوه في عضويتها، فأظهر نشاطاً واسعاً في اتصالاته، كما نزع لصلواتها مبلغ ألف ليرة عثمانية ذهباً^(٢٩). ثم قدم تقريره إلى أبيه عن الحالة في سورية، وتابع سفره إلى الآستانة، وحل مشكلة خلاف أبيه مع وهيب بك ونادي الاتحاديين، ثم عاد إلى دمشق حيث عاود البحث مع أركان الجمعية في الشؤون الوطنية، واستلم منهم مذكرة تبين مطالب أمتهم القومية كشرط من شروط الاتحاد المزمع عقده، بين الحسين والإتخايز، للثورة على الترك، كما سيأتي بيانه بالتفصيل في فصل آخر.

ومع ذلك لم تكن أعمال هذه المنظمات العربية هي التي سافت جمال باشا — بالدرجة الأولى — إلى إجراماته الوحشية الإرهابية في سورية، لأنه جاء دمشق وهو يحمل فكرة البطش، زوده بها أنور باشا بالذات، حينما استدعاه وأبلغه مرسوم تعيينه قائداً عاماً للجيش الرابع، وحاكماً عاماً على منطقة نفوذه «دعائي أنور باشا إلى منزله... قال لي: إنني ما جمال لهد للشرع في مهاجمة قتلة السوس... وتسل الأنباء الواردة من سورية على وجود هياج في داغية البلاد، مضاعفاً إليه النشاط العظيم الذي يمدده القوازل العرب، فنظراً لهذه الظروف اعتقد أن وطنيتك العالية غملك توافق حل قبول قيادة الجيش الرابع، فإن قبلت فعلياً بتبعية وتنفيذ الهجوم على القننة، على أن لا تغفل من أمر المحافظة على الأمن والنظام في داخل سورية». هذا ما جاء في مذكرات جمال باشا نفسه. وقد أضاف إلى هذا قوله إنه قبل المهمة بارتياح، واشترط في معاداة ثانية مع أنور حصوله على الحرية التامة التي يحددها القانون لأي قائد في الجيش، فحصل عليها محققاً بقلبه «ونهر الحرية» على أن يستلم هذه الوزارة منه أنور باشا بالوكالة^(٣٠). والذي بلغت النظر في هذا التكليف عبارة «وجوب المحافظة على الأمن»، في حين لم يكن قد ظهر من أعمال الأحرار العرب، في ذلك الحين (أوائل تشرين الثاني ١٩١٤)، ما يدعو إلى الخوف، بل إن ما ظهر منها — كما بينت سابقاً — كان في مصلحة الدولة، من حيث التصالح معظم العاملين في القضية العربية عن ميوهم الطوية تجاه الدولة في مواجهتها للوضع الجديد، لو أن القليل الذي ظهر منها كان من السرية بحيث لم يمكن باستعادة أجهزة مخابرات الترك أن تكشفها. وللعقد أن بعض الأنصار المزعومة كانت من قبيل الوهم أو خشية حدوثها، وأن أنور وزعماء جمعية الاتحاد والشرق أرادوا أن يتخللوا من هذا الوهم حجة لإثناء

(٢٩) قاتر النخسن، مذكورة من الثورة العربية، ص ٢٩، ٣٠٥.

(٣٠) مذكرات جمال باشا، ص ٢٣٤ — ٢٣٦.

أحرار العرب ، والانتقام منهم ، لما بلوه من نشاطهم وصلاتهم في الدفاع عن حقوق أمتهم في الفترة السابقة ، وعهدوا بهذا الأمر إلى أشرس رجل بينهم ، فضلاً عن كونه أفواهم شخصية وأشدهم بأساً .

تحدث عزيز بك - رئيس دائرة استخبارات الجيش الرابع ، وكان الساعد الأيمن لجمال باشا في سورية ، وقد تولى في أواخر عام ١٩١٧ مديرية الأمن العام في السلطنة العثمانية - في مذكراته التي ترجمت إلى العربية باسم « سورية ولبنان في الحرب العالمية » عن عزل الفريق زكي باشا الحلبي وتعيين أحمد جمال باشا مكانه قال :

« والفريق زكي باشا لم يكن من الرجال الحزميين ، بل كان قائداً عسكرياً شرفاً حياً عبقاً للجماعة العثمانية . إلا أن هذه الصفات ما كانت تروق للقائمين على زمام الحكم في السلطنة . فهم يريدون أن تكون البلاد التابعة للجيش الرابع مرتبطة مباشرة بهم ، وأن يكون هناك رجل قوي يعرف كيف يتخذ إرادتهم ويقضي نغماً على الفكرة العربية ، فالقائد زكي باشا عندما ذهب إلى سورية ... مثل هناك عظمة القيادة ، ونزاهة الجندي وإخلاصه ، وكان يعامل الجميع على السواء ، كثير التقرب من العرب ، فهذه الصفات الطيبة لم ترق لرجال الحكم فقرروا أن يستبدلوا به جمال باشا يدهم اليمنى ... » (٣١) .

سياسة جمال باشا المتقلبة

في الواقع بدأ جمال باشا سياسته العربية في دمشق باصطناع الملاينة وتضيق رجال الإصلاح الحقيقيين ، فاتخذ من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر طبيياً خاصاً له (٣٢) ، وقرب عبد الكريم الخليل إليه ، وصادق محمد كرد علي ، وعبد الغني العريسي صاحب جبهتي « المقتبس » و « المفيد » في دمشق ونجحهما بمبلغ من المال (٣٣) أصوة بهيئة الصحافيين الذين رتب لهم رواتب شهرية ، تساعدهم على إصداًر جرائدهم ، وأخذ يتحجب إليهم ، مظهراً رغبته في دعم المطالب الإصلاحية التي

(٣١) عزيز بك - سورية ولبنان في الحرب العالمية ، ص ٣٨ .

(٣٢) قال عزيز بك في مذكراته إن جمال باشا كان يرى في الشهبندر رجلاً شديداً الاندفاع في عهده الوطنية ، يحلم بمقدار عدم ثقة العرب بالأتاحيين ، لذلك أراد أن يكون الدكتور بجانبه ، فاستدعاه وأقنعه بمسحة القرب ، وزوجه الأكيدة في تحقيق ما يصبو إليه العرب من الإصلاحات اللازمة في بلادهم (عزيز بك ، المصدر السابق ، ص ١٠٨ - ١١٠) .

(٣٣) مذكرات جمال باشا ، ص ٢٢٨ ؛ الدكتور يوسف مرزوق ، المصدر السابق ، ص ٨٢٤ .

يريدونها ، متروهاً لهم بأنهم بدلاً من أن يتجهوا بأنظارهم إلى الدول الأجنبية لمساعدتهم على تحقيقها ، فإنه على استعداد لتقديم هذه المساعدة لهم ماداموا يلحون عليها . فالذي يعرفونه خير من الذي يجهلونه^(٣٣) . وعلق يشير في خطبه وتصريحاته إلى ضرورة تعزيز الصلات بين العرب والترك ، وإلى حسن ثبات الدولة العثمانية نحو البلدان العربية . فوقعت هذه التصريحات في نفوس العرب موقعاً حسناً ، وغرهم منها ملمسها الناعم ، ومظهرها الودي نحو قضيتهم القومية^(٣٤) . فاقترع عبد الكريم الخليل والشهينسر وكرد علي بصدقه ، وبادر الأمير سعيد باشا الجزائري بعرض استئالة الدروز ، فوافقه على اقتراحه ، خاصة وأنه كان يعتقد خطأ بأن لبنان ملأى بالسلاح ، وأن فيه ما لا يقل عن خمسين ألف بندقية ، فرأى في استئالة الدروز ما يساعده على قمع أي ثورة قد تقع في دوهه^(٣٥) . وصار عبد الكريم الخليل يتعاون معه تعاوناً وثيقاً ومخلصاً ، فبشرع في تنظيم الإحصائيات الدقيقة من عدد أفراد عشائر بادية الشام وإسكاناتها ، ومقدار وقعة الاستغاثنة منها والخدمات التي تستطيع أن تؤديها للدولة ، وبأخذ في إقناع أصدقائه من المهاميين الذين لهم علاقة ببعض رؤساء العشائر بالدخاب إلى مضاربهم ، وجلبهم إلى جمال ليقدموا فروض الطاعة والولاء له^(٣٦) .

وقد بذل جهوداً جبارة في جمع المنطوعة من أبناء طائفته « الشيعة » ، في القرى الساحلية من جنوبي لبنان ، تنميذاً للدعوة التي وجهتها الحكومة إلى سكان جبل لبنان وإلحمة بيروت ، واستنهضت وطنيتهم وروحيتهم في التطوع للخدمة الداخلية كل في بلده ، وللدفاع عن السواحل ضد كل غزو محتمل من قبل الأعداء ، دون أن يعطلهم هذا التطوع عن ممارسة أعمالهم اليومية المعتادة^(٣٧) . كما وقف محمد كرد علي قلعه وجريدته « المنقبس » على إطراد سياسة جمال ، وأخذ يدعمه في مواقفه المختلفة . وراح جمال من جهته يفتدي الألقاب والأوسمة بكمية على من تعاون معه من رجال العرب في سورية ولبنان والبلاد العربية ، فمنح كامل بك الأسعد من جبل عامل رتبة البكوية من الدرجة الثانية ، والمجدي الثالث ، واستصدر إرادة سنية بمنح عجمي السعدون رئيس عشائر المنطق (العراق) رتبة

(٣٣) مجلة الحرب العالمية الأولى ، ج ١٦ ، ص ١٢ — ١١٤ عهد بك ، للصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٣٤) أحمد كندري ، المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٣٥) مجلة الحرب العالمية الأولى ج ١٦ ، ص ١٢ — ١٤ .

(٣٦) فاخر قصص ، مذكراتي ، ص ٢٥ .

(٣٧) أميل يوسف حبطي ، جهاد لبنان واستشهاده ، ص ٣٩ — ٤١ .

الباشوية مع لقب «ميرزان»، وهو من ألقاب الجيش الرفيعة، جزاء له على إخلاصه في الحرب ضد الإنكليز في العراق، فضلاً عن إغداقه الأموال الطائلة على آل الرشيد في حائل^(٣٨).

وفضلاً عن ذلك أخذ يحرم بنظمة الجامعة الإسلامية التي زعم أنها تشد الترك إلى العرب شعباً وثيقاً، فلا يدع مناسبة تمر إلا ويعلن حرمين الدولة عليها ويدعو إلى تعزيرها^(٣٩). ولم يتردد في أن يسم مسافات طويلة لحضور الاحتفالات الوطنية، كيظهر مقدار ما أودعه من الثقة في من يشرقون على تنظييمها، مثل عبد الكريم الحليل وقومه، تعزيراً لمركزهم في عيون مؤيديهم. كما ذكر في مذكراته أنه كان، أيتها ذهب لي ولأهلي بيروت وسورية، يصطحب معه المصلحين في جولاته^(٤٠). وقد أصبح مضمون خطبته الأولى التي ألقاها في الحفلة التي أقيمت في دمشق — بمعاونة المناضلين العرب مثل عبد الكريم الحليل وعبد الرحمن الشهبندر — على شرف الشيخ عبد العزيز جاهدش، يتردد على كل لسان، وهي التي جاء فيها «إن الزناج الذي عقد حزناً عزيمته على تنفيذ مبادئه لإصلاح حالة العرب لأوسع بكثير مما قد يخطر ببالكم، ولست أنا من الذين يتوجسون شراً من بقاء العنصرين العرب والتركيتين متحدتين وتابعين للحليقة واحدة، مع انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين متحالفين....».

«لؤكد لكم أن الألمان التركية والألمان العربية لا تتعارضان مطلقاً، فالترك والعرب ليسوا سوى إخوان في غايهم الوطنية... وإن هذين الشعبين متقضي عليهما بالقضاء في اللحظة التي يتخاذلان فيها...»^(٤١) إلى آخر ما هنالك من العبارات المصنوعة.

لقد أظهر جمال باشا كامل ارتباطه لما كان من أثر الخطبة في نفوس الحاضرين، إذ جاءه كثير من وجهاء القوم إلى مركز القيادة لتقديم الشكر إليه على ما ورد فيها، وقابلها المصلحون من جهتهم بالارتياح. وفي خلال بضعة الأيام التالية تجمع سكان المدينة بأعلامهم شرائذم وأقسموا بالقرآن ليكون أولياء للحكومة، وليلدّن كل ما في استطاعتهم من المساعدة دفاعاً عن حقوق الإسلام ضد الإنكليز والفرنسيين^(٤٢).

(٣٨) مجلة الحرب العالمية الأولى، الجزء نفسه والصفحة نفسها، حزيران، المصدر السابق، ص ١١٩.

(٣٩) محمد جميل ميم، العرب والترك....، ص ١٣٦.

(٤٠) مذكرات جمال باشا، ص ٣٤٦.

(٤١) المصدر السابق، ص ٢٣٩ — ٢٤١ ذكرور بدیع شریف، وذكرور عزت عبد الكريم... المصدر السابق، ص ١٠٨.

(٤٢) جمال باشا، المصدر السابق، ص ٣٤٣.

لكنه لم يحكم، مع ذلك، ما شعر به من الاضطراب والاستياء للمظاهرة القومية العربية التي رافقت هذه الحفلة، إذ أخذ الشبان العرب ينشدون الأناشيد الحماسية التي رددت الآمال في تحقيق الوحدة العربية كتشيد «نحن جند الله شهبان البلاد، نكره الظلم ونأبى الانحطاد، تلك الأنشودة التي قال عنها جمال إنها «كادت تزلزل فوق رؤوسنا سقف المكان للذي كنا فيه»^(١٣). فلم يرح دمشق إلى قناة السويس — وكان على عجل من أمره في السير إليها — حتى أسر بحل كحية ضباط الاحياط العرب قبل أن ينتهي تدريجاً، ولرسل رجالها وكان عددهم يتوقف على ثمانية نصف ضابط — ومنهم جلال البخاري الذي كان صوتاً للرخيم الجهوي بهلجول بهذا المنشد في الحفلة — إلى ميادين الحرب في الدردنيل^(١٤).

وإذا استتبنا هذه البادرة السلبية من جمال باشا حتى ذهابه إلى قناة السويس غائياً وعودته منها خائباً، لم يحصل منه أي عمل يدل على سوء نيته نحو المصلحين من العرب. إننا لم نر يكده يعود من حملة القناة حتى قلب ظهر الجن لمن قهرهم منه، وانقلب من رجل ذي مظهر وديع إلى ما يشبه الوحش الكاسر في طغيانه وإرهابه، فما هو السر في هذا التحول المفاجئ؟

لقد كثرت التحليلات، وأورد الكتاب العرب أسباباً عديدة لهذا التحول. فكان بعضها معقولاً وبعضها الآخر غير معقول، فمن الأسباب المعقولة مثلاً أن جمالاً كان في صدد حملة عسكرية ذات شأن عظيم يخفي بها قمع مصر وليلطوس على عرشها، فلو مار في سياسة الشدة والبطش في البلاد العربية قبل مغربه إليها، لكان لسياسته هذه أسوأ الأثر عند عرب مصر — ولم تخل مذكرات جمال من إشارة خفية إلى هذه الناحية^(١٥) — فضلاً عن أن سياسة البطش قد تأتي بعكس ما يبتناه من المعونة التي كان يروجها من العرب في هذه الحملة^(١٦). وهذا الرأي يفترض بديحاً أن جمالاً كان يحمل معه، من الآستانة، التصميم الجازم على الفتك، والتفويض المكامل به باتخاذ كل إجراء يراه مناسباً على مبدأ «تفعل ولا تسأل»، كما عبر عنه الأتراك عند بحثهم في هذه المسائل^(١٧).

(١٣) المصدر السابق، ص ٣٣٩.

(١٤) مذكرات أحمد قنري، ص ١٣٩ مذكرات قنري الضمين، ص ١٨١. ذكر يوسف مزهر، المصدر السابق، ص ٨٢٤.

(١٥) مذكرات جمال باشا، ص ٣٣٨ — ٣٣٩.

(١٦) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١٦، ص ٢٩ — ٣٧، قال خير بك في ص ٧٩ من مذكراته «لم يشأ جمال أن يضل السويين المتجهين بالريثاق الفرنسية عوناً من عرقلة سبيلهم إلى خروجهم».

(١٧) A. B. KURAN, *Osmanlı İmparatorluğu'nda ve T. C. İnk. Harık*, ٤٤٧; G. YARDAR, *İnk. p. ١٥٥*.

وأن التوجيه اللازم للسور في هذه السياسة كان قد أتاه ممن فوقه في الآستانة، أي من أنور بالذات، ومن المركز العام لجمعية الاتحاد والترقي^(٤٨). وهذا ما تدعمه أدلة كثيرة ورد بعضها معنا، وأشادت إليها كثير من المصادر^(٤٩). ذلك أن أنور هو الذي بدأ سياسة الإلهاب في الأناضول، قبل أن يبدأ بها جمال في بيروت ودمشق. بدأ بها في شباط ١٩١٥ بالأرمن — إثر فشله المروع في حرب القفقاس ضد الجيش الروسي، وكان هو بالذات قادراً للحملة، حيث حلت بالجيش العثماني كارثة من أشنع الكوارث راح ضحيتها أكثر من ٨٠ ألف جندي، معظمهم من عرب العراق، سواء في المعارك أو تحت الفلوج، أو بتأثير الجوع والعري والحرمان — وقد اتهمهم بكونهم ساعدوا الجيش الروسي بتأليفهم العصابات الأرمنية، والفلتك بمواطنيهم الترك، وبمؤخرة الجيش التركي، فأصدر «قانون السوقيات» أي التهجير، الذي كان له الأثر العظيم في إلغاء قسم كبير من الشعب الأرمني، بحيث تعرض الأرمن لأقسى وأشنع أنواع الاضطهاد والهلاك. إذ بطش بهم الأتراك بطشاً هائلاً، وقضى منهم مئات الآلاف، ووافق ذلك كثير من الأعمال الوحشية وسوء الأخلاق، مما لم يشهد له التاريخ مثيلاً^(٥٠). كما كان أنور باشا — قبل وصول أحمد جمال إلى سورية — قد اتفق مع والي دمشق علوي بك على اعتقال الزعماء السوريين الذين وردت أسمائهم في الوثائق التي ضبطت من القنصلية الفرنسية. ثم جاء جمال فرفع الرقابة التي ضربت حولهم، تجنباً لحديث شقاق بينه وبين أبناء البلاد في حين كان الواجب يحجم عليه صرف اهتمامه على قضية الهجوم على القناة وفتح مصر^(٥١).

ومن الأسباب المقبولة أيضاً أن الثنائي الفكتيتوي قد رأى في الحرب فرصة للتخلص من نتائج اتفاق باريس بين الترك والعرب، والضرب بمقرراته عرض الحائط، فأراد الاتحاديون التصجيل في القضاء على أحرار العرب كي لا يحق أمامهم ما يسمى بالقضية العربية، لا سيما إذا أحرزوا النصر

غير المشترك عنها بمباراة لايمان أما تفعل el ayn el ayn el ayn.

(٤٨) مجلة الحرب العالمية الأولى ج ١٤، ص ٣١ — ٣٣.

(٤٩) قال حزب بك رئيس مستعجلات جمال باشا في كتابه فكر ذكره إن جمال باشا قديم إلى سورية سقراً على السلطة المطلقة، وحاملاً معه مشروعين عظمين الأول: إلغاء الانتيازات التي تمنح بها جبل لبنان منذ ١٨٦٠، وانضاع مكانه للسلطة النهائية المباشرة، والثاني: القضاء على الفكرة العربية التي اعتصرت في غيوس الفتح... وهيك العرب (حزب بك — المصدر السابق ص ١٢٨ — ١٢٩).

(٤٩) ISMAIL HANCI DANISMENT, Ibid. p. 428.

(٥٠) عزير بك، المصدر السابق، ص ١٦.

في نهاية الحرب^(١١). هذا من جهة ومن جهة أخرى يكونون قد أثروا الرعب والهلول والإهذاب في قلوب السوريين والعرب عامة، فلا يمحكون ساكناً يضر بالترك في هذه الحرب الضروس التي تقوضها الدولة^(١٢).

أما فشله في حملة قتاة السويس، ونكول الشريف حسين عن مساعدته بالرجال، وعار الخزيمة الذي أصبح يلاحقه أينما حل، والشوايات التي أخذت تنال عليه، منذ وصوله إلى حلب، من كل جانب، وبشكل جعله يحس بالكراهية والاحتشاز من مستقبله الذين أكتفوا من ثقله، والقاء قصائد المدح لشخصه^(١٣)، ثم ازدياد موجة الشوايات بعد ذلك بحيث أصبح الأخ يمشي بأخيه، والنسب بنسبه، دون وئزع من غربة أو من ضمير، حتى بلغ عدد ما تلقاه جمال من تقارير (مرسلة من السوريين ضد مواطنهم، في الأسبوع الواحد، وهو الذي عاد فيه من القنطرة إلى القدس، وقس على ذلك في بقية الأسابيع، كما قال رئيس استخباراته عزيز بك في مذكراته) ٣٩٢ تقريراً لو أراد جمال أن يتخذ محتوياتها مثلاً للسجون بالضحايا البيضة^(١٤).

كل هذه الأمور كانت من العوامل التي زادت في ضرام زريقه إلى الفتك والإهذاب، يضاف إلى ذلك الوثائق التي هزت عليها السلطات التركية في غصبلتي كل من دمشق وبيروت الفرنسيين، والتي كان من شأنها أن تحرم بعض زعماء العرب بالاتصال، ولكن قبل الحرب، بسولة أجنبية في سبيل الإصلاح. ومن جملة عوامل إجرائاته الفعمية ما وقع في يد الحكومة من مخابرات حزب اللامركزية العمالي في مصر، وما لسه - ولا شك - من حركة غامضة تدل على عودة الجمعيات العربية إلى سابق عهدها في التصال، مما أقض مضجعه فكشف القناع عن وجهه، ونبذ سياسة اللين والمسامرة، ليصبح ذلك السفاح الذي عرفه التاريخ. وأما السبب الأخير، أي شريك العرب للشوة، فهو الذي ألح عليه في مذكراته تنهياً وصراً للمحافظات الأخرى الكرامة في صميم سياسته العربية، بدعم وتأيد من سلطات الأمانة.

وأما تحليل بعض الكتاب العرب لما كان من سياسة اللين، التي سلكها في بادئ الأمر، بأنها لم تكن إلا لمحاددة الإصلاحيين العرب، إلا تظاهر أمامهم بأنه في سبيل إقامة عرش له في

(٥١) A.B. KURAN, Osmanlı İmparatorlugunde vs T.C. İnkı. hareketi. 645.

(٥٢) محمد كرد علي، المصدر السابق، ٣: ١٢٨.

(٥٣) مجلة الحرب العالمية الأولى، ١٤: ٣١-٣٢، المرحم آل الجندى، شهداء الحرب العالمية الكبرى ص ٣١-٣٢.

(٥٤) عزيز بك، المصدر السابق، ص ٨٥.

سورية، يجلس على أُنكرته مستقلاً عن الآستانة بمساعدتهم ولمصلحتهم، ذلك الذي قيل إنه قد فلتح عيد الكرم الخليل به لمعرفة رأيه وآراء رفاقه في شأن الاستقلال عن الآستانة^(٥٥)، فهو أمر يستحق وقفة أطول، ذلك أن جملاً كان في الواقع يعطى إلى المخاداة بنفسه خديبياً على سورية، عندما يحين الوقت^(٥٦). وقد يكون فاتح بعضهم كالشهيد عيد الكرم الخليل وغيره، ليعرف آرائهم وميولهم، لتكون له عليهم حجة في المستقبل، إذ إن اعتياده للوصول إلى هدفه لم يكن في الغالب على عناصر الإصلاح الصحيح، لا بل إن وصوله إلى هذا الهدف، في رأيي كان يوجب عليه التخلص من هذه العناصر التي تشكل عثرة أمام مشروعه، لأنها لم تكن في الواقع تناضل وتكافح للتخلص من نير الآستانة، لتضع تحت نير رجل معروف بترعته الطورانية الشديدة.

قال عزيز بك في مذكراته «وللمعروف عن أحمد جمال باشا أنه الرجل المصري، بين وزراء الدولة العثمانية، الذي يرغب أن يعزز الشبان والشابات، ولهذا عزز أندية «تورك أوجاخي» في تركيا وبواسطتها بات زعيم الشبان والشابات الحقيقي، وقد ودعه هؤلاء عند مغادرته الآستانة، وداع الفقة التي تقدس رؤسها، والعامل على التهور بها^(٥٧)».

في الواقع كان اعتياد جمال باشا للوصول إلى هذا الهدف على ثلاثة عناصر في سورية: أولاً: القضايات^(٥٨) وكان يصرف عليهم ما ينوف على مئمة ليرة ذهبية شهرياً، واتخذ منهم شبه حرس حوله يهيئون للدفاع عنه، كما كان يعتقد أن باستطاعته استخدام هذه الفئة ليس في مقاومة أعدائه داخل البلاد فحسب، بل في المناخلة بنفسه خديبياً على سورية عند منوح الفرصة.

ثانياً: فئة رجال الدين، لإدراكه نفوذهم على الشعب، فاستألفهم ليكونوا بجانبه قوة ثانية إلى جانب الفئة السابقة، وأكرمهم وبذل لهم الأموال والمؤن، بحيث زاد ما يصرفه عليهم عن ألف ليرة

(٥٥) أسعد دغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص ٦٨، كرم خليل ثابت، الدور والتميز السورية، ص ١٤٦.
NADRA MOUTRAN, La Syrie De Damas, p. 90.

(٥٦) عزوبك، المصدر السابق، ص ١٠٤.

(٥٧) المصدر السابق، ص ٦٥.

(٥٨) جمع قبايلي (أو قباطين)، وهي كلمة تركية معناها «شجعة» - مذهب الشجاعة - شجاع بجمعاً، ويُطلق على كل رجل معروف بأدعاء المسجاعة والرجولة، ويسيطر اقتصادياً عادة على الحي، يهيئون أنفسهم في خدمة وجهاء وأعيان الأحياء من باشاوات وكنوات وأندية. كما جاء في تفسير لفتحي البغدادي في مذكرته ج ١، ص ١١٣ أنه الحلال للدين أو المظلم، ففسواً سرقاً، حسب معناها الظاهر.

ذهبية شهراً. وكان في مقدمتهم: الشيخ أسعد الشقوي من فلسطين، والشيخ عبد الكريم الحسني، والشيخ بدر الدين الحسني، وابنه الشيخ تاج الدين، والشيخ النحاس، والشيخ عبد الرحمن الأنصاري والشيخ الجوري، والشيخ الصيادي، والشيخ عبد المقادر الخطيب... وغيرهم.

ثالثها: طبقة الأغنياء التي أخذت تجميع ثروة طائلة من ورائه، وكانت تتراكم، في كل فرصة، على إقامة الولائم والحفلات للباشا، ويحاول أفرادها بذلك تيل الخطوة في نظره ليعطيهم وثائق بكميات من القمح، يتاجرون بها ليزداد ثروتهم ويكثر جاههم^(٥٨).

لقد ذهب الخيال بأحمد جمال باشا إلى حد القول إن محمد علي، لما غادر بلده «قوله» إلى مصر، كان رجلاً عادياً، فما لبث أن ولى نفسه عديوية مصر، بعد أن هدم سلطة الدولة العثمانية القوية فيها، ولا يزال أحفاده يحكمونها، فلماذا لا يقوم هو نفسه بهذا الدور في البلاد العربية، فيعلن استقلاله في إدارتها وحكمها ؟ مستعيناً بقنات من «الزعانف» — على حد تعبير جمال باشا (الصغير) — منحهم من النفوذ ومن المال ما اعتقد أنه كاف لتزويدهم بالقوة التي تمكنهم من مقاومة زعماء البلاد الإصلاحيين الذين اعتقد أنه إذا منحهم شيئاً من النفوذ قاموا ضده^(٥٩).

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد روي عن أحمد جمال اتصاله بالجواميس الأجانب، الذين اكتشفت السلطات التركية في بيروت أمرهم، وقبوله مبدئياً بما عرضوه عليه من إضرام ثورة ضد الدولة العثمانية لحساب فرنسا، وكانت تعمل لها بواسطة جواميس من مسيحي لبنان، وبالاتفاق مع كتبه من اللبنانيين المقيمين في باريس والقاهرة، يتبنأ منها بأن للثورة التي يعدها الإنكليز في البلاد العربية لا تخدم إلا مصالحهم وحدهم. ولم يكن جمال — على ما يظهر — مستعداً للاستسلام إلى مشيئة الفرنسيين، بل كان ما يطمح به هو عرش سورية أو مصر، لا خدمة مصالح فرنسا، لذلك فطعن المفاوضات التي كان قد بدأها مع أحد الضباط الفرنسيين في حلا الشأن^(٦٠). إلا أن فكرة تسلم عرش سورية التي كانت متسكنة من رأسه قد ظلت مستحوذة على اهتمامه الدائم بحيث كان يخرّب الفرص لتحقيقها، غير أن سياسته الحمقاء في سورية قد حالت دون استغلاله

(٥٨) هزيب بك، المرجع نفسه، ص ١٠٤-١٠٦.

(٥٩) جمال باشا المرسي، (الصغير) المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٦٠) مجلة الغرب العلية الأولى، ج ١٦، ص ٣٥.

تتبعها^(٦١). واستناداً إلى ما تقدم قال بعضهم إن جمال باشا قد رغب في القضاء على متجوري العرب لأن بعضهم قد اطلع على مفاوضات مع الحلفاء^(٦٢)، بشأن الثورة على سلطات الآستانة، وإنشاء سلطنة مستقلة لنفسه، كما يتضح مما نشره البلاشفة الروس من وثائق سرية، بعد ثورة ١٩١٢ في هذا الصدد، وهذه خلاصتها:

تقدمت روسيا في شهر تشرين ثاني ١٩١٥ بمشروع تقسيم لتركيا دارت على أثره مفاوضات بين الدول الثلاث: روسيا، فرنسا، إنكلترا، من تشرين ثاني ١٩١٥ إلى آذار ١٩١٦، واستندت روسيا في تقديمها على ما تلقت من أخبار أنها، من المحافل الأرمية، تؤكد أن جمال باشا على خلاف مستمر مع الآستانة، وأنه مستعد للمضيان عليها، فإذا ساعده الحلفاء مساعدة فعلية يترك المضائق والولايات الأوربية للحلفاء، لقاء أن يجعل من كهلوكيا وسورية وفلسطين والعراق وخرستان وأرمينيا وكردستان حلفاً يعلن نفسه سلطاناً عليه. وتنتهي الوثائق المنتشرة موافقة إيطاليا على المشروع إذا كان ثمة أقل احتمال في نجاحه، وتلقي فرنسا له بتحفظ في بادئ الأمر، ثم موافقتها عليه مبدئياً، عندما طمأنتها روسيا على حصتها في سورية والبلاد العربية، على أن تتابع هي بنفسها المفاوضات مع جمال باشا بواسطة الأكرمن حول المشروع. وأما إنكلترا فقد قابلته ببرود وتردد، ورفضت الاشتراك في مباحثاته، لأن مفاوضاتها مع شريف مكة كانت تسير سيراً حسناً^(٦٣).

غير أن هذا التعليل يظهر الضعف من حيث حقيقة شروع جمال باشا بالتفاوض مع الحلفاء بهذا الشأن، ولا سيما أن كتاب ومؤرخي الترك قد اتفقوا دعوى اشتراكه في هذه المبادرات بجميع مفعولة، إلا لا يوجد أي دليل ملموس على اشتراكه فيها، وهي (أي المبادرات) لا تتضمن أي وثيقة موجهة منه بتوجيهه إلى المتفاوضين. لذلك يعتقد المؤرخ يوسف حكمت باير، وغالب قاردار المعاصر للحوادث، بأن هذه القصة هي من نسج الخيال، ولا تستحق أن تعار أي الثقات، ألهم إلا بمقصد الموقوف على تعلُّق الحلفاء إلى اقتسام أراضي الدولة العثمانية^(٦٤).

(٦١) جمال باشا المرسيني (الصغور)، المصدر السابق، ص ١٢.

(٦٢) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٣٧-١٨٨ أمين سعيد، القزويني الكبرى ج ١ ص ٦٣.

(٦٣) ساطع الحصري، يوم ميلاد، ص ٤٧-٤٨، راجع تصويص الوثائق كاملة في كتاب «الرائدين والمعاهدات في بلاد العرب»، من نشر جريدة الأيام الدمشقية ص ١٧-٢٤، ومجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٨٨.

(٦٤) G. VARDAR, Ibid. p. 304; Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 224.

ومع ذلك، فإن كل القرائن تدل على أن سياسة البطش والإزهاب كان موعراً بها من الاستثناء، حمل جمال عند قدومه إلى دمشق أولى تعاليمها، بالإضافة إلى ملفات جميع زعماء الحركة الحرة وتقارير الجواسيس بحجمهم^(٦٥). ومن ثم تالتت مع الألبان توجيهاً. وأنا لا أشك في صدق ما أوردته الشامي فاطر النصيبين في مذكراته (ص ٥) من أنه تحقق بنفسه أن الحكومة التركية وطدت العزم على البطش بشبان العرب ونشنتهم وإبعادهم إلى المنافي، وأن صديقه خالد بك الحكيم قد حذره في ٢٣ تموز ١٩١٥، وأعلمه بأن أحد ضباط أركان الحرب في الجيش قد أسر له عن «برقية وودت من الآستانة، لقيادة الجيش في دمشق، تفضي باتخاذ جميع الوسائل والطرق لتشتيت شبان العرب المؤمنين بقوميتهم، وتزجق قتلهم حتى والقضاء عليهم». كما أن جمال باشا نفسه قد أشار إلى ذلك في آخر خطاب ألقاه في دار الحكومة بدمشق وإن طائفي كان القتل، تديت لقتال الناشئين من الأتراك^(٦٦) كما عهد إلي ي قتل الناشئين عن الطاعة من العرب^(٦٧).

غير أن هذا المندب قد لاقى هوى في نفس جمال، واستجابة من طبيعته التي فطرت على الشر، فانساق في أعمال الإزهاب، بعد أن بدأها، إلى درجة أن الآستانة نفسها لم تستطع كبح جماحه في نهاية الأمر^(٦٨). كما أن أنور وطلعت لمسا فيه هذه النزعة، فلم يريا أقدر منه على تنفيذ الخطة التي رسمها لإغناء أحرار العرب، نظراً لقوة عارضته، وشدة بأسه. هذا من جهة ومن جهة أخرى فلشدة ما كانوا يعانون من مشاكساته ومناقضته لهما، ووقوفه حجر عثرة في مسيل مآزهما الشخصية، إذ كان مثلها طموحاً، يجب للأفراد بالسلطة والاستقلال في الأحكام، قر رأيهما على إبعاده عن الآستانة وزجه في مشاكل العرب، وإخراجه في بحر من المخرج^(٦٩).

ولكن التنافس بين أنور وجمال لم تلبث مشاهدته أن أخذت تغدو بالكرو في سوية، بعد

(٦٥) محمد كرد علي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٨.

(٦٥) إشارة إلى أعمال الملك التي لوبها بأعضاء جمعية الحرية والائلاف في الآستانة عندما كان حافظاً وحاكماً عسكرياً لها عام ١٩١٢، بمناسبة الخيال الصغير الأنظمة لفرع عمود شوكات الاتحاد، وراح ضحية جمال عشرات من محصور الاتحاديين، بينهم القائد صالح باشا التونسي صدر السلطان محمد رشاد نفسه.

(٦٦) محمد كرد علي، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٨.

(٦٧) Y.H. BAYUR, Ibid. 111, 221.

(٦٨) أحمد حافر، ثورة العرب، ص ١١٦ مجلة الحرب العالمية الأولى ج ١٢، ص ٢٨، راج ١٤ من ٣١-٣٢.

قدوم جمال إليها، كما أعدت يواجر الحسد والغيرة والندى والوقعة تلعب دورها بين بعض السوريين ممن عرفوا باقتناص الفرص. فقبل أن يسافر جمال إلى سورية أوفد أنور باشا مرافقه الخاص وبعض الشخصيات السورية، وفي مقدمتهم عيد الرحمن باشا اليوسف عضو مجلس الأعيان، والشيخ أسعد الشقيري، والأمر شكيب أرسلان وغيرهم، ممن عرفوا بإخلاصهم الشديد لأنور باشا، بصورة خاصة وللأتاحيين بصورة عامة، وبدعوتهم إلى انهمك بأهداب الجامعة الإسلامية - العثمانية، وبتأويلهم للإصلاح العربي على الطريقة اللامركزية، وذلك لكي يمهّدوا الجو الصافي لجمال قبل قدومه.

لكن جمال باشا لم يرنج للعمل الذي بدر من أنور باشا، واعتبر ما قام به موقبلوه - بعد وصولهم إلى سورية - ضرباً من القوض، فأبقر طلباً إليه أن يستدعي مرافقه، وأن يتكل عليه وحده في إدارة شؤون هذه المنطقة. ذلك أنه لم يكن يرغب قط أن يكون بجانبه أشخاص يعملون لحساب غيره، بل أن يتصرف في شؤون سورية وكأنه السيد المطلق فيها. بهذه الصورة استطاع أحد جمال القضاء على ما كان يرمي إليه أنور من منافسة تفوّده في سورية بواسطة صناعته المعروفين من العرب.

في الحقيقة كان كل من أنور وجمال يعمل لنفسه، وكذلك بقية أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، كطلعت بك وحليل بك، ولم يكن الحزب الذي يتبعون إليه سوى الوسيلة التي تساعد كلاً منهم على ترويج الدعايات الشخصية. كان هؤلاء الأربعة يمثلون أربعة اتجاهات متناقضة في قلب جمعيتهم، ولكل منهم أنصار في شتى أنحاء السلطنة. كان هناك أنصار لجمال عرفوا باسم «جمالين» كما كان لأنور أنصار عرفوا باسم «أنوريين»، وقس على ذلك^(٦٦).

غير أن الأشخاص الذين كانوا يؤيدون أنور باشا من السوريين لم يلبثوا - بعد الذي رأوه من قوة جمال وقدرته - أن تفرّوا إليه، وأصبحوا يتمسكون بأذياله، وينقلون من «أنوريين» إلى «جمالين»، ويفتخرون بأن يكونوا من أتباعه، يدّيع براعهم قصائد المدح لشخصه، وينطق لسانهم بحطب الحميد لسلطانه. وظلوا كذلك حتى استطاعوا اجتذاب عطفه عليهم، بعد أن أبدى سأمه من تعلقهم له. فلم يلبث بعدئذ أن اعتاد هذا الخلق، وبات يهتز سروراً وطرباً لدى كل مدح، ويأخذ الاعتزاز، ويهز المنشوة عندما يصل إلى علمه أن الشعب ينظر إليه كغول مخشئ بأسه وسيطرته. كما بدأ الحسد والغيرة يمتلكان شعور المتلقين من تفرّبه الظاهري للإصلاحيين العرب،

(٦٦) عزيز بك، المصدر السابق، ص ٦٣.

كالشهيد عبد الكريم الخليل وغيرها، فأعطوا يدسون للدسائس للإيقاع بهم، يوغريون صبر اليأشا عليهم، وكانوا السبب في إعدام بعضهم. وقد اعتمد جمال باشا على هؤلاء الصنائع، اعتماداً تاماً، بعد أن اتفوا حوله، وفي مقدمتهم الشيخ أحمد الشقري، الذي عينه جمال مفتياً للجهش الرابع، ومستشاراً له يرشده في السياسة التي يجب أن يسلكتها في بلاد الشام. فوقع عليه نسط كبير من مسؤولية التكتيات التي حلت بأحرار العرب — كما شهد بذلك عزيز بك رئيس استخبارات جمال باشا — ذلك أن اليأشا قد أُوكل إليه، في أثناء غيابه في القدس وانصرافه إلى هيئة المندبات اللازمة لحملة قناة السويس، دراسة الحالة العامة في البلاد وكشف الحركات التي تبدو عن أحد من أبنائها، أي بصريح العبارة قد جعل منه دائرة استخبارات مستقلة^(٧٠). وقد عرف الشقري كيف يستغل اللحظة المناسبة لمناقشة جمال بالوشاية التي حاكها ضد الشهيد عبد الكريم الخليل، ذلك أنه سرعان ما اهتمهم فرصة عودة الطاغية من غزوة قناة السويس فاشتباهاً، وعلى درجة كبيرة من الاستياء والغضب، فدخل عليه وأدخل في روعه أن ثورة عارمة تدبر ضد الدولة في جنوبي لبنان، هدفها التمهيد لتدخل الحلفاء. وتصححه ألا يخفى بعيد الكريم والشهيد اللذين استقدمهما جمال إلى القدس ليتدارس معهما الحالة في الجبهة فائلاً له: إنها على اتصال بإخوانهما السوريين لقائهم إلى مصر، يزودانهم بكل ما هم بحاجة إليه من معلومات في سورية^(٧١)، ولأنه إذا أراد مزيداً من الإيضاح لما عليه إلا استدعاء كامل الأسعد ليعطيه التفاصيل.

كما كان من هؤلاء الأمور شكيب أرسلان الذي تحدث عنه عزيز بك فائلاً: «أما الأمر شكيب أرسلان فقد كانت مطالبته أهم، فهو يريد أن يكون المستشار الأول لجمال كي يصبح السبب المطلق على مواطنته، مادام غير قادر على أن يكون حاكم جبل لبنان أو أمير. وكان له شيء من النفوذ الذي أسره لدى جمال باشا، ويخدم به أمعاء الأمر عادل، الذي كان مراقباً بسيطاً على الرسائل في إدارة البريد، فقدم بذلك خدمة كبرى للدولة إذ أصبح مطلع السلطات الحكومية على كل الأسرار الواردة في تقارير مواطنته، فكافأه جمال باشا بأن عينه قائماً لقضاء الشرف»^(٧٢).

كما يتحدث عزيز بك عن الأمر شكيب فائلاً أنه أصبح مستشار جمال باشا الوحيد في

(٧٠) المصدر السابق، ص ٦٤-٦٧.

(٧١) المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤.

(٧٢) المصدر السابق، ص ١٣٧.

السياسة اللبنانية، وأن المشاريع التي نفذت في ذلك الوقت في لبنان كانت بناء على نصائحه، وأنه قد ساعد صاحب المذكرات^(٩٠) في إعداد لائحة طلبها جمال بأسماء زعماء البلاد وقادة الرأي فيها، لكي يمتدح مسؤولين إذا احتل الأمن، فجاءت القائمة مستندة في بعض الظروف على حزازات شخصية. وقد روى (عزير) حديثاً دار بينه وبين الأمير بلغهم منه أن الأمير كان عجباً لإعدام للشهداء، لا يبل كان من رأيه أن يكون ثمة مزيد من هذه الأحكام، وأن الشعب العربي يعتبر أن العمل الذي قاموا به حيانة. ولما اعتنق الكاتب قول الأمير، وأبدى شكه في صحة ما ينسب للشعب العربي، أجابته إنه سيروي اليهذهان على قوله هذا بعينه، ويقتصد بذلك أن أهالي جبل لبنان من الدروز سيقومون حفلة تكريم لجمال باشا. وفعلاً دير الأمير حفلة شائعة في الباروك أقامها الدروز لجمال باشا، وكان قصد الأمير منها — كما قال عزير بك — تشييل روايتين في آن واحد، الأولى: مدانة جمال وحمله على الاعتقاد بصداقته وإخلاصه ليؤمن له الفوز في مضمار السياسة اللبنانية، وبمين أحباء الأمير عادل في قائمقامية الشرف، والثانية: أن يبرهن للباشا أنه ذو نفوذ مطلق على دروز الجبل، ومولوته معاً. وهكذا أقيمت المأدبة، بعد يومين من تنفيذ أحكام الإعدام بالقاذفة الأولى، وكانت غاية في الضخامة والشرف، تقدم لدعوة الباشا إليها عجاج بك العصاد، وتامر بك، وفريحان بك أبي علوان من زعماء دروز لبنان، ورافقهم الأمير شكيب. وعلى كل حال فقد نال الأمير مكافأة إخلاصه للدولة بأن منحه الوسام المجيدي من الدرجة الثانية^(٩١).

وإذا كانت للشواهد التي من شأنها أن تدمغ الشقيري بوصفه الدس والوقحة متوفرة في المصادر التاريخية، فإن التقليل منها يأخذ على الأمير شكيب أرسلان^(٩٢) أنه كان يعتقد بوجوب البقاء في حظيرة الرابطة العثمانية — الإسلامية تحت راية الاتحاديين^(٩٣)، الذين آمن بكل جوارحه بأنهم مخلصون في وطنيتهم، وفي اتباعهم السياسة التي تحبب السلطنة العثمانية، بما فيها البلاد العربية،

(٩٠) يعتمد عبارة صاحب المذكرات: هو نفسه (أي عزير بك).

(٩١) عزير بك: المصدر السابق، ص ٢٨٢-٢٨٣.

(٩٢) يذكر الكاتب أدهم الجبدي في كتابه شهداء الحرب العالمية الأولى، (ص ١١٩-١٢٠) أن جمال باشا أولم وجهه في أواخر الملوك ١٩١٥ دعا إليها أكثر من ثمانين من أمهات دمشق، ألقى خلالها شكيب أرسلان خطاباً حرض فيه جمال باشا على المزيد من القطع وقشتقت بين دعامهم بالحزنة، الذين أسسوا أحزاباً قلة باسم الإخاء العربي وطولوا باسم الحرية والإصلاح أو باسم الإصلاح أو اللاتركية، وأن شقيق الموقد العظيم كتب رسالة لجمال تسامل فيها ضمن بينهم شكيب أرسلان بكلامه المتعلل الحالي من الباطل، غلبها جمال بعبارة «من كان في مرزعه مسئلة وعزرة»، ولم تخض ألام حتى اعتقله.

الوقوع في براثن الاستعمار الغربي ، الذي كان يحقنه شلجده الخفت ، والذي كانت نظيرته إلى مطامعه فيها نظرة صحيحة لا تشوبها أية شائبة . وهو وإن لم يتكر اليادىء التي قامت عليها سياسة الإصلاحيين العرب ، إلا أنه كان يرى أن الإصرار في المطالبة بها من جهة ، وتعت الأتراك وترددتهم لي إقرارها من جهة أخرى ، من الأسباب التي تؤدي إلى انقسام قد يقضي على الدولة ، وأن أية حركة تؤدي إلى تعزيز الدولة لا بد أن يعقبا استيلاء الأجانب على سورية وفلسطين والعراق ، وهكذا بقي طيلة الحرب يعمل للوحدة العربية التركية والتضامن الإسلامي . قال الأمير لعارضيه في إحدى المناسبات التي جمعه بهم :

« لا أعتقد أن بينكم من هو عربي أكثر مني ، اتحدوا هيونكم إلى ما يهدد البلاد العربية من خطر ، إقرأوا الجرائد الأجنبية ، انظروا إلى المعاهدات التي أعلنت ، وإلى الاتفاقات التي أذيع عبر عقدها ، ولم تنشر ، تروا أنها كلها ترمي إلى تقسيم الدولة ، وذهاب الأقطار العربية للإنكليز والفرنسيين^(٧٥) .

وليس أنصف للأمير شكيب أرسلان من رأي الأمير فيصل فيه ، ذلك أن فيصلاً كان يعتقد بإخلاصه للقضية العربية ، وأنه من المؤمنين بخدمتها والساعين في إعلاء شأنها ، وأنه قد عمل للعرب تحت ظل الخلافة الإسلامية . خلاصة القول كان فيصل يعرف عنه ما كان الناس مجهلون ، ومقدوره حق قدره ويأدله الود والحقبة ، كما ذكر الكاتب سامي الدعان^(٧٦) .

جمال باشا

ينتمي جمال باشا في أصله إلى العرق الكردي ، وقد ولد من أب عمل جلاداً في خدمة السلطان محمود الثاني ، وكان اسم « الجلاد » هو السامع عن أبيه في الأستانة . عُرف بالكأء المتوقد وسرعة الفهم ، والمهابة ومضاء العزم ، كما عُرف بالشدة والعنف والفظاظة وسرعة الانفصال والقطرسة ، وشدة المراس مع غرام بالجدد وولع بالكسب ذوي الذكر ، ومقدرة على كتم نياته الحبيثة ، والظهور بمظهر مختلف عن الخبير ، فإذا ما استشر وغضب أصبح مخلوقاً فظاً لا تتورع عن شيء ، وهو في

(٧٥) أحمد داغر ، مذكراتي على حاشي القضية العربية ، ص ٦٩ .

(٧٦) سامي الدعان ، المصدر السابق ، ص ١٧ .

الدفاعه إلى الانتقام والبطش شبه بالوحش الضاري فكاً بمقصومه^(٧٧). شغل طيلة وجوده في الأسالة، وإلى جانب المنصب التي تقلدها، إدارة فرع الجواسيس والفدائيين في جمعية الاتحاد والترقي، وكان الرأس المدير لجميع المؤامرات والافتدالات التي انتج عييتها الاتحاديون، كما روي عنه أنه هو الذي دبر مذابح الأرمن في آدنة عام ١٩٠٩^(٧٨).

وعندما جلع على صدر سورية استطاع، بما أحاط به نفسه من مظاهر السلطان والأبهة^(٧٩)، وما اصطنع من وسائل الجبروت والقسوة أن ينشر جواً قائماً من الإهذاب الشديد، قاسى العرب في ظله عظيم المعت والبلاء والذعر، وزاد ديوان عاليه الذي أقامه للتشكيل بالعرب — بما رافقه من تحقيقات ومطارادات ومآس — الشدة شدةً والبلاء بلاءً، إذ أخذ يبطش بعيشته الكبرى، أخذاً البريء بحرم المذهب، والمحق بعمل البطل، حتى صارت القلوب تهلج من اسم «جمال»، والبلد الذي ينزل فيه يتر رعباً من قدومه. وكان وجوده ورحلاته تتراهى للسكان كأنها بلاء نازل وداهية ذهباء، يحار الناس كيف يدفعون شره، ويدعون ربه باللطف فيهم منه، ويفشّ الذين كتب عليهم أن يحسبوا به في ضروب التزلف إليه جلباً لرضائه ودفعاً لسخطه^(٨٠).

بعد غطلان جمال في حملة القنافة، وعودته إلى سورية — مدعياً أن الحملة لم تفشل، لكنها قاصت بمهمتها المرجحة من حيث دراسة الحالة عن كسب، وأخذ العبرة اللازمة لإعادة الكرة، وأنه في صدد الاستعداد لحملة أخرى فريضة^(٨١) — ألف حوله المتعلقون، وازدادت موجة الوشاشات قنفاً عليه بكثرة هائلة، وتراكت أمامه تغاير جواسيسه ورجال استخباراته، وكلها تضرب على وتر اتصال السوريين بالفرنسيين وبالخلفاء، وأخذت فكرة نزول قوات حدود في الاسكندرونة تتناقلها

(٧٧) CAPIT. SEIGNOBOSE, *ibid.* pp. 33-34؛ أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٢٣٥؛ ثوروب ستورد، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٩٠. من مقال يقسم الأمر شكيب أرسلان.

(٧٨) أسعد خاخر، ثورة العرب، ص ١٦٢.

(٧٩) لعل ما وصفه به أمين سعيد غير ما يكون فكرة من شبهه للصفحة، قال: «كان يركب ركبة الملوكة، يسير في مركب لا يقل عن مركب السلطان نفسه عظيمة وجلالاً، والموسيقا تعرف بين يديه، والشعراء ينشدون قصائدهم يعفون بحمده يعفون بوضف أعضائه وإصلاحاته، وقادة الجيش رهن إشارته، والحكام طوع أمره، والقضاء يباهي يعطي ويبب، ويحطو بهنظم، لا كلمة فوق كلمته ولا نفوذ يعلو شؤله (أمين سعيد، الثورة المربية، ١: ١٦٦)».

(٨٠) محمد حرة دروزة، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣.

(٨١) مذكرات جمال باشا، ص ٢٧٤.

الأقوال^(٨١)، وراجعت شائعة قوية في بيروت وسورية بأن مسيحي لبنان وطردوا العزم على التمسك بشورة^(٨٢)، فاشتد جزعه واستغل الحلفاء هذه الهيلة، فأخذوا ينشرون الأراجيف المختلفة التي من شأنها التفريق بين الشعبين العربي والتركى^(٨٣)، في الوقت نفسه الذي أخذ فيه الحقد على العرب، وخاصة منهم الشريف حسين، يتغلغل في صدره من جراء فشل حملته، فصار يستمع إلى كل ما يقال، ويصدق كل ما يسمع. وراح يتوهم أنه عايط بالخونة والجواسيس من جميع الأطراف، وأن أحرار العرب يتحذرون لثورة جاحمة تطيح به ويدولفه، فزادته هذه الأوهام حدة وغضباً، ورغبة طاغية في الانتقام والاقتصاص، بحث أو يلدن حتى، من كل من سبق له نشاط في العمل القومي العربي، ولو قبل نشوب الحرب. وكان جمال قد صرف جل اهتمامه إلى تنظيم دائرة الاستخبارات في سورية ولبنان وفلسطين. فأعفى رجال الصحافة من الخدمة العسكرية أو أجلها، وخصص لهم مبالغ ضخمة. كما خصص مبالغ طائلة للجواسيس بحسب أهمية مناطقهم، وغني خاصة بالجاسس في متطقتي دمشق وللسطين، وقد أرى عدد الجواسيس فيهما على مقفين، يترأخ راتب كل منهم بين ٥ — ١٥ ليرة عثمانية ذهباً شهرياً. فجمال هو الذي خلق الجاسوسية في سورية نأيداً لمركزة^(٨٤)، فأصبحت تُعصى على الأحرار أنفاسهم، عدا من ذهب كليل منهم ضحية التفاهير الكاذبة.

وما ليث أن يش قضية الوثائق التي عثرت عليها سلطات دمشق وبيروت في قنصليتي فرنسا لمصفا، تلك الوثائق التي قال إنها تتناول شخصيات هامة من العرب منهم: الأمير علي عبد القادر الجزائري وكيل رئيس مجلس المبعوثان، وأخوه الأمير عمر التائب في مجلس المبعوثان من دمشق، وشفيق المؤيد العظم، وعبد الحميد الزهرلوي عضو مجلس الأميان، ويحيى الأطرش من شيوخ جبل العرب، وعبد الوهاب الإنكليزي المفتش الإداري، وشكري العسلي، ورشدي الشسعة مبعوثي دمشق السابقين، وغير هؤلاء من كبار وجهاء العرب. وادعى أنه كان قد احتفظ بها في أحد أدراجة عندما عرضها عليه والي دمشق خلوصي بك فور قدومه إلى دمشق، ولم يشأ أن يتخذ — كما قال في مذكراته — لأي إجراء فوري بشأنها خوفاً من تعرض وحدة الإسلام للمخطر، وضناً من أن تظهر أفتار إسلامية، انقطع اتصال الدرك بها كمصر والجزائر ومراكش، إلى الأتراك وكأن ثورة من

(٨١) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٨٢) مذكرات جمال باشا، ص ٣٤٦.

(٨٣) المذكرات بديع شريف، أحمد عزت عبد الكريم...، المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٨٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج ١٤، ص ٣١ — ٣٣.

الانتقام قد تملكهم أو أنهم يسعون لتحقيق سيادة الأمة الطورانية عن طريق الفلكت بوجهاء العرب ، وأمثالاً في أن يرعوى من تناولتهم هذه الوثائق فيقلعون يوماً ما عن غريم^(١٨٦) .

كما وقعت في يد السلطات التركية مراسلات هامة ، بعضها بعث بها حقي بك العظيم أمين سر حزب اللامركزية العثمانية في مصر إلى محمود الحمصاني في بيروت ، صادرتها دائرة الاستعلامات أو مصلحة المراقبة على الرسائل ، وسلمتها إلى قيادة الجيش ، وبعضها الآخر وهي عبارة عن مراسلات وأوراق بينها نسخ متاثير قديمة العهد ، وأوراق شتى تتعلق بحزب اللامركزية والجمعية القمطانية والجمعية الشورية ، وكانت محفوظة عند حقي العظيم ، وقعت في يد الحكومة بطريقة ما . قال أمين سعيد في كتابه « الثورة العربية الكبرى » ، دون أن يذكر المصدر ، إن بعض ذوي الثقة أكدوا له أن محمد الشنطي الهالي ، أحد مساعدي حقي العظيم ومعتمديه ، قد اغتصب إحدى الفرص فسامر في أوائل الحرب إلى آتينا فسلمها بكاملها إلى السفير العثماني غالب بك^(١٨٧) ، طمعاً في مكافأة

(١٨٥) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٣٥ - ٣٣٧ .

(١٨٦) في الواقع أن من تلقى نظرة على كتاب « الملاحظات عن المسائل السياسية التي جرى تحقيقها في دوران حرب عالمية » ، الذي أصدره جمال ليهبر الأسكلم بمن التهمين ، يندش من كثرة هذه المراسلات وترصدها . كما تدور كتبها وترصدها ، ورجوع أكتها لتواريخ قديمة ، إلى استغراب كيفية بقوها مدة واحدة يد الأتراك ، إذا لم تكن هناك من يد سلتها إليهم قصداً ، في حين يقول المحكم الصادر من الشنطي أنه آق مراسلات وسلمها إلى أصحابها من أعضاء حزب اللامركزية « الملاحظات » ص ١٦١) . ومع ذلك قد يكون هو الذي سلمها للحكومة وقصد جمال بما لديه في كتاب « الملاحظات » تجربته بعد ما بلغه من اساتة إلى الحقبة التي أولته لهاها الحكومة . هل أن القصر ليس صوري ، وقد حصل في خدمة الاستخبارات الفرنسية ؟ إذ أرسل من مصر إلى سورية لاستقصاء أخبار الجيش العثماني فيها . وراسلها إلى الفرنسيين ، قال في كتابه « الرحلة السورية في الحرب العمومية » ، الذي تحدث فيه عن الأحوال التي قام بها في سورية ، تلياً لهذه المهمة ، إنه اتصل في دمشق بأحد المضايف العرب واستوضحه عن سبب إعطام الشهداء الذين شاهد مشانقهم منصوبة في ساحة للرجة ، فأجابه قائلاً : « إن أحمد جمال باشا بعد أن أطلق سراح المختلين عاد للهموم واحتفظهم ثانية ... هناك سبب : قد برز بعد المعاهد رجل عظيم يدعى محمد الشنطي (من ملقا) ، كان يجتهد المصالح في مصر ، كما كان من كتاب جمعية اللامركزية المطلعين على أسرارها . وقد دعمت الحرب هذا لجان وهو في عاقل فذهب حول مركب شراحي إلى مصر لكن السلطة الإنكليزية في بورسعيد منعه من النزول ، لما اشتهر عنه من الأعمال السيئة قبل الحرب . ولما استقلت مدحاً أن إذا عاد إلى بلاد الشام يكون نصيبه الإعدام ولا شك ، سقرو السلطات الإنكليزية إلى اليونان حيث قابل سفير تركيا في آتينا ، وطلب إليه أن يندس له الطريق من طلبت باشا لقائه أن يطلع الدولة على أسماء أعضاء حزب « اللامركزية » وأن يملأه إلى فلك ليس إلا شفة لإسلامه للدولة وجاهلها من دسائس العرب ، فأبى السفير إلى طلعت ولؤيد الشنطي إلى الاستانة مع وحده بمكافأة لينة ، ومن هناك أرسل إلى جمال باشا في سورية ، فخره وأكرمه إلى أن سلمه سجلات الجمعية وبقاؤها السرية ، فاحتقل جمال لأعضاء هذه الجمعية التي كشفت الشنطي مشرفها أمام المجلس العربي (ذي . ب . صوري - الرحلة السورية في الحرب العمومية ص ٣ - ٣٦) .

مالية كبيرة من الدولة فأحيل بالتوالي إلى طلعت بك وزير الداخلية ثم إلى جمال باشا ، فقصده دمشق ونزل ضيقاً عزيزاً على الحكومة ، بعد أن سلسها الأوراق ، وتوثقت صلته بأركانها ، وصار يتناول الأموال من صندوقها . وعندما بدأ يستغل نفوذه هذا لانتزاع الأموال من الشبان العرب ، وكانوا يومئذ في أزمة نفسية ، ذهب أحد الوجهاء العرب المقيمين من جمال وقص عليه قصة الشنطلي ، فأمر باعتقاله وبمحاكمته في سجن عاليه ، فأعدم مع القافلة الثانية (١٩١٦/٥/٦) (١٨٦) .

لقد ألف جمال لجنة خاصة لدرس هذه المستندات مع الوثائق التي ضبطت من القنصلين الفرنسيين وكانت هذه تحوي على صور مغابرات جرت بين السفارة الفرنسية في الآستانة والقنصلين الملتزمين ، وبين وزارة الخارجية الفرنسية ، حول سياسة فرنسا في سورية ، وبلاغات وإرادة من وزارة الخارجية الفرنسية ، وتقارير مقدمة إليها من بعض الجمعيات العربية في لبنان ، أو صور محادثات جرت مع بعض رجال السياسة من العرب (١٨٧) . ولما أُخبرَت دواستبا وقُدِّمت إلى جمال أحاطها مع المتهمين إلى ديوان الحرب العسكري الذي أُلْفِه وجعل عاليه بولاية بيروت مقراً له .

وكي تكون الأمور واضحة أرى أن ألقى نظرة على مضمون هذه الوثائق . فبالنسبة لوثائق القنصلين الفرنسيين :

أولاً : إنها بأجمعها ترجع إلى الأشهر الأولى من عام ١٩١٣ ، أي الفترة التي كان العرب فيها يفكرون في الخروج من مأزق التعصيق الشديد الذي تعرضوا له من الحكومة ، بعد الانقلاب الاتحادى على الانتكاهيين ، فانسحب بهم الأمر إلى عقد مؤتمر باريس في ١٨ حزيران ١٩١٣ ، ومعروف أن الأمور قد سُوِّجت بين العرب والترك على وجه مرضي عنه من الطرفين ، بعد نجاح ذلك المؤتمر .

ثانياً : بينما لم تعرض الوثائق قط إلى عبد الحميد الزهراوي ، حتى إنها لم تذكر اسمه ولم تشر إلا إلى أسماء الأجهن عمر وعلي عبد القادر الجزائري واسم شقيق المؤيد العظيم فقط ، ترى كتاب إضاحات يزوج بأسماء كثيرة ويحشر أصحابها بين من ذكرتهم هذه الوثائق ، مثال ذلك المزهرابي وشكري العسلي وحيد الوهاب الإنكليزي وغيرهم ، ذلك أنه ، بعد أن أورد نص الوثيقة التي ذُكرت اسم شقيق المؤيد العظيم ، أضاف بعدها أن «الأول» - أي العسلي - لم يتورع عن مراجعة قنصل فرنسا في الشام ، وأن الأمر عمر الجزائري ، الذي هو من تبة فرنسا ، «ويقتاضى راتباً شهرياً

(٨٦) أمين سعيد ، الثورة العربية ... ج ١ ، ص ٦٦ - ٦٧ ، أدهم آل لحيدي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٨٧) ساطع المصري ، نشوء الفكرة القومية ، ص ٢٣٦ - ٢٣٣ .

٣٠ لوي من القنصل الفرنسي في الشام» (وقد ورد اسمه في الوثائق بهذا المعنى فقط)، قد جاء بشكري العسلي إلى القنصل، وعرفه به فطلب القنصل من شكري أسماء الأشخاص الذين يمكنهم أن يقوموا بخدمة ماء، وأمه ذكر للقنصل، عدا عن نفسه، عبد الوهاب الإنكليزي، ورشدي الشمة، وبعض أشخاص آخرين، وأن يحى الأكرش قد ذهب إلى مصر ودخل الجمعية اللامركزية هناك، وأن شكري قد قدمه إلى القنصل. لقد جاء في كتاب إيضاحات بعد هذه المقترحات قوله إن الوثيقة التي تتضمن هذه المعلومات مستشر، وبالطبع لم تذكرها المصادر العربية ولا التركية التي بين يدي، فلو كان ثمة وجود حقيقي للوثيقة المذكورة فلماذا لم يُنشر في الكتاب مع غيرها من الوثائق؟

أما الاهتمام الذي استتج من هذه الوثائق بحق شفيق المؤيد العظم، وهو المهم الرئيسي فيها، يظهر من الوثيقة المنشورة، المتضمنة كتاب سفر فرنسا في الآستانة المؤرخ ١٩١٣/١/١٣ إلى ونهر الخارجية الفرنسية، أنه عبارة عن استفسار من السفير عن المعنى الذي ترمي إليه بيانات فرنسا عن المسيحيين المقاتلين في البلاد العثمانية... وهل سيكون اهتمام فرنسا محصوراً بالمسيحيين فقط أم سيشمل مسلمي سورية الذين اعتادوا أن ينظروا إلى فرنسا نظرة وطن تان. فأجابه إن فرنسا صادقة في مودعها ومظاهرها القديمة لأهالي سورية من غير تفرق بين دين وآخر، أو مذهب وآخر، وأن هذه الإيضاحات قد شفت قلبه، فطلب منه تكرارها مراراً عديدة مع بيان شكره الحار له، وأن شفيقاً قد كُوخل في روح المسألة وبحث له عن الإصلاحات الواجب تنفيذها في أصول إدارة سورية وعن اللامركزية، وعن قلب وإنيات سورية الثلاث إلى إمارة، وعدم قبول الأتراك في الوظائف العمومية.... وسأل: هل فرنسا مستعدة لسوق جيش إلى حلب فيما إذا ساءت الدولة العثمانية قوة لإبقاء سورية تحت سيطرتها؟^{٢٩٩} ونغم الوثيقة قولها إن شفيق المؤيد العظم سيتوجه إلى مصر هذه الغاية.

وهذه كتاب «إيضاحات» إلى تأكيد أن اجتماعاً قد جرى في بيت اسكندر عمون بمصر، ترأسه الزهراوي وحضره شفيق المؤيد العظم ورفيق العظم والشيخ رشيد رضا وسائر اللامركزيين، وأنه قد تقرر في هذا الاجتماع الغاية التي انتهت إليها الجمعية من عقد هذا المؤتمر باليس. وتصدّقاً لقوله بثبت نص كتاب مؤرخ في ١٩١٣/٣/٢٥، موجه من ونهر خارجية فرنسا إلى قنصل فرنسا العام في

(٨٨) الجلس الرابع، إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى مناقشتها في ديوان عاليه، ص ٥٧-٥٨.

(٨٩) المصدر السابق، ص ٥٢.

دمشق، جاء فيه أن البقية الواردة من المسير دو فرانس، مأمور فرنسا السياسي في القاهرة، تقول إن اجتماعاً هاماً جداً عُقد في القاهرة من قبل هيئة إدارة حزب اللامركزية، المؤلفة من السوريين المسلمين والمسيحيين (دون ذكر الأسماء)، وأن مقرراته تضمنت العزم على قلب سورية إلى إمارة ممتازة تحت حماية فرنسا ندار من قبل أمير مسلم يتخيه الأهالي بكمال الحرية^(٩١). لكن الوثيقة لم تذكر من الأسماء سوى اسم للمسير فوجي، ترجمان القنصلية الفرنسية في بيروت، مندوباً عن الجمعية اللامركزية في سورية. وعلى كل حال لا تخفى غاية جمال من إدخال اسم الزهراوي ورفاقه في هذا الاجتماع وهو قد عقد للعزم على البطلان بهم.

على أن الشيء الذي يلفت النظر، ويجعل قيمة هذه الوثائق ضعيفة أنها جاءت يناقض بعضها بعضاً. فلقد أثبت كتاب «مضاحات» نص كتاب مرسل في ١٩١٣/٤/٢٨ من قبل وزير خارجية فرنسا إلى قنصلية فرنسا العامة في بيروت، جاء فيه أن مأمور فرنسا السياسي في القاهرة كتب عن المعلومات الواردة في الكتاب السابق أن مأمور فرنسا السياسي في القاهرة أعلمه أن المقررات التي اتخذها حزب اللامركزية «هي غير قطعية، وهو مقارنة لاتفاق الآراء»^(٩٢). فإذا عرفنا أن آراء المسلمين من الإصلاحيين تختلف على طول الخط مع المسيحيين منهم، بخصوص النفوذ الأجنبي، اتضحت لنا رغبة جمال في استغلال هذه الوثائق إلى أقصى حد، دون أن يعو ما جاء فيها متناقضاً لغايته أمة أهمية، مثل قول الوثيقة الأخيرة نفسها «إن رفوق بك العظيم رئيس الحزب يرى أن لا يكون أحد أمراً على هذه الإعادة المستقلة سوى شقيق بك المؤيد العظيم رئيس أسرهم، وأنه — أي مأمور فرنسا — لم يسمع أن مسألة جعل سورية على شكل إمارة ممتازة قد وضعت موضع البحث في اجتماعات الحزب أصلاً، ولكن كثيراً من أعضاء الحزب يشتغلون بهذه المسألة»^(٩٣)، وكقول الوثيقة المؤرخة في ١٩١٣/٤/٢٢ أن شقيق المؤيد العظيم قد زار قنصل فرنسا في بيروت، وأبدى ارتياحه لوشك تسوية الأمور بين العرب والترك، وأن بعض المندوبين ومنهم أحمد مختار بهم ستهوجهون إلى دار الخلافة وأوروبا، لأجل المفاوضة في مسألة سورية، مع ممثل الحكومة العثمانية، وحكومات الدول العظمى في لندره وباريس^(٩٤).

(٩١) للمصدر السابق، ص ٥٩، نسخة التركية، ص ٥٠-٥١.

(٩٢) للمصدر السابق، ص ٥٥.

(٩٣) للمصدر السابق، ص ٥٦، نسخة التركية، ص ٥٦.

(٩٤) للمصدر السابق، ص ٥٧.

وإذا ضربنا صفحاً عن التناقض الظاهر في هذه المراسلات فإن ما يدعو إلى الاستغراب يكون جمالاً باشاً قد أخذ، بجمرة القلائل الذين ذكرت أسماءهم فيها، جميع منشوري العرب الذين اشتركوا في الحركة الوطنية العربية قبل مؤتمر باريس، ضارباً عرض الحائط بمقررات المؤتمر المذكور التي سوت الأمور بين العرب والترك، والتي كانت هذه المخبرات سابقة لها، ولم يجر أية أهمية لما ثبت له بالتحقيق في ديوان حرب عالية بأن شقيق المؤيد العظيم — الذي نُسب الوثائق — لم يكن ممن يثق بهم رجال الحركة الوطنية، بل جاء في التحقيق ما يثبت أنه قد أبعد عن رئاسة المؤتمر وعن عضويته لأنه « من الرجال الذين يشبه بأمرهم »^(٩٤). فاعتبار أعضاء « حزب الألامركية » مجرمين، فجرد وريد اسم شقيق المؤيد العظيم — والذي علم جمال بأنه منتسب إلى الجمعية المذكورة — وأخذهم بمجرمتهم وإعدامهم، لاختيار الديوان العربي وثيقة التفصيلة الفرنسية كافية لانتهام الحرب بالتأمر على الدولة، خدمة لمصالح فرنسا، شيء لا يأتلف مع المنطق والعقل^(٩٥).

هذا عن الوثائق التي نُسب المسلمين من رجال سورية، أما الوثائق التي نشرت عن وصف المسيحيين منهم بالحياة، فإنها تختلف تمام الاختلاف. ذلك أنها كتب ومذكرات سياسية هامة، قدموها هم بأنفسهم، وتحت توقيعاتهم وأسمائهم المعروفة إلى التفصيلات الفرنسية، وفيها مطالب انفصالية ورغبة في التبعية لفرنسا واضحة تمام الوضوح. مثال ذلك المذكورة المؤرخة في ١٢/٣/١٩١٣ المقدمة بتوقيع ميشيل تهنسي، يوسف الهاني، بشرو طراد، أيوب ثابت، رزق الله أرش، وتحليل زينة إلى المسبو « كوجه » قصيل فرنسا بالشام الموجود في بيروت، والتي تشكو زيادة الضرائب، وإزهاق تعصب الترك ضد المسيحيين — مما يجبرهم على الهجرة — انتقاماً لمزعة البلقان، التي كانت عبارة عن اتحاد الصليب ضد الهلال، ورغبة من الترك في إحلال مهاجري الولايات الأوروبية المنتهية (الأتراك) محلهم، وأن هذه الأسباب هي التي دعيتهم إلى توحيد مساعيهم مع المسلمين في تنظيم اللامحة الإصلاحية على أساس إيجاد رقابة أوروبية على جميع أقسام الإدارة، وأن تصاري سورية مرتبطون مع فرنسا بصورة لا تقبل الانفكاك، وأكبر آمالهم أن نستولي فرنسا على بلاد الشام، وأن الحبل يكون على الوجه الآلي: امتيلاء فرنسا على سورية، وإعطاء الحكم الذاتي لولاية بيروت، وإلحاقها بلبنان على أن يكون كلاهما تحت مراقبة فرنسا وحمايتها الفعلية^(٩٦).

(٩٤) المصدر السابق، ص ٥٨، نسخة التركية، ص ٥٦.

(٩٥) ساطع المصري، لشوء ففكرة القومية، ص ٢٣٢ — ٢٣٣.

(٩٦) إيضاحات... ص ٣٩ — ٤١، نسخة التركية، ص ٣٥ — ٣٧.

أما الوثيقة التي حوكم نخلة باشا مطران - من متفليدي بعلبك - من أجلها فتاريخها ١٩١٣/١/١٥ ، موجهة من قنصل فرنسا في دمشق إلى وزير خارجيته ، وقد تمتلكت من مراجعته للتوصلية سناً ولأه لأفرنسا ، مفاوضاً إليها للعمل بشأن إلحاق بعلبك ووادي البقاع بلبنان ، لأنها بحسب التقسيمات الجغرافية عائدة للجليل ، وأنهم باحتياج إلى حكومة فرنسا لأجل تحقيق أمنهم الوطنية ، مسلمين ومسيحيين ، وجميعهم متفقون في الهدف ، سواء أرضيت الحكومة العثمانية أم لم ترض ، وسيستعينون على ذلك بمصاهبات من البلدة ، على أن يذهبوا إلى بيروت للمفاوضة بهذا الخصوص مع المسيو كوجيه الذي له اهتمام بمسائل لبنان^(٩٨) .

لقد قدم نخلة باشا مطران إلى الحكومة العسكرية قبل قدوم جمال باشا إلى دمشق ، فحكمت هذه عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة في أثناء غياب جمال في حملة السهول^(٩٩) . إلى هنا تبدو المسألة وكأنها عادية ، إنما الأمر المستعجّل هو التشنيع الذي تعرض له نخلة باشا ، والمصير الذي آل إليه ، وهو وجهه في قومه عزيز عليهم ، ذلك أنه بعد أن يُبلغ الحكم في ١٩١٥/١/٦ ، في دار الحكومة بدمشق ، ويضع في عربة أحاطها أفراد الدرك ، وألبس طاقية قفزة استبدلها أحد القرويين بغطاءوش الباشا الجديد ، ووقف القروي يثابه الوثة أمامه في العربة ، ويده حذاء قدم يغطسه في سطل ماء ويصفع به وجهه نادياً : « هذا نخلة مطران خائن الوطن » ، ويحمله ضابط يدعو الناس لأن يصقوا في وجهه ، فيأتون أقواجاً ويصقون ، والقروي يصفعه بالحذاء ، وهو يمسح البصاق عن وجهه ... وهكذا حتى طاقوا به جميع أحياء المدينة ، يقدفه الناس بالطين والوحل والقاذورات^(١٠٠) . وبعد أن طاقوا به على هذا الشكل أنحاء المدينة أعادوه إلى القلعة مكيلاً بالحديد .

أما جمال قبضيف (في مذكراته) إلى هذه القصة قوله : « بعد زيارتي للقدس أخبرني خلوصي بك بأن بقاء نخلة باشا في دمشق غير مرغوب فيه ، وأنه قد حصل على موافقة من الأستانة بإرساله ، مع من يحرصه ، إلى ديار بكر ، وهذا هم في طريقهم إليها حاول الباشا الفرار ذات ليلة بالقرب من جرابلس ، ولكنه وجد قتيلاً بجانب حراسه^(١٠١) . غير أن الحقيقة قد تكون بخلاف ذلك ، فقد أورد

(٩٨) المباحثات ، ص ٣٣ .

(٩٩) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٤٩ .

(٩٩) فازر النصارى ، للظالم ... ، ص ٣٠ - ٣١ ، لطيف الله البكاسيني ، المصدر السابق ، ص ١٢٠٦ ، الطولون ، ص ١٢٠٦ ، المصدر

الساكن ، ج ٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٢ .

(١٠٠) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٣٩ .

الخوري أنطون بين قصة مقتله بقوله إن مأمور محطة تل أبيب قد حدث سائق القطار إنجلو الغراوي الذي له معرفة سابقة بنخلة باشا قائلاً: «مس الضابط المكلف بمراقبته في أذن الثغرين الحارسين له، غلبها والباشا يرتقيهما، ولم تفسد ربح ساعة حتى سمعنا صوت طلق رصاص، وبعد هنية عاد الثغرين وأخبرنا الضابط أن الباشا حاول الحرب فأطلقا عليه الرصاص فقتل». ثم سلباه عاتقه الذهبي وحذاه وسلباهما للضابط الذي شوهد يرتديهما^(١٠١). وليس لخلة باشا مطران وحده الذي ذهب ضحية اتصاله بالفرنسيين بل تبعه في هذا المصير الخوري يوسف الحايك، ويوسف الطائي، والأخوان فهد وبليغ الحازن وغيرهما.

هذه قصة الوثائق الفرنسية، أما قصة وثائق الجمعية اللاهوتية والقحطانية والثورية، فإن معظمها — وهي إما رسائل خاصة أو حزبية أو منشورات قديمة — تحمل تاريخ عام ١٩١٣ أو ما قبله، وليس بينها ما كتب بعد دخول تركيا للحرب. ومنها رسالتان هامتان تحمل إحداها تاريخ ١٩١٤/٤/١٦، أي قبل نشوب الحرب العامة، والثانية في العام ١٩١٤، بعد نشوب الحرب وقيل أن تدخلها للدولة العثمانية، وقد أرسلتا: الأولى من قبل حفي العظم إلى محمود الحمصاني في بيروت، والثانية موقعة بحري ع. ر. ر. وموجهة إلى كامل أنندي هاشم^(١٠٢)، جاء في أولها المؤرخة في ١٩١٤/٤/١٦ — وهي التي اعتمد عليها جمال باشا في الحكم بالإعدام على من وردت أسماءهم فيها عن شكلوا القافلة الأولى، وبعض أفراد القافلة الثانية — إنه تم قبول مصطفى أنندي سيمسه عضواً في الحزب، وأنه اقترح قبول محمد أنندي (الحمصاني) فيه قبل بكل سرور، دون استئذان من هذا الأخير، وأنه يوجد للحزب فروع في مدن حماة وحمص وجنين وتابلس وعلبك والبقاع ووادي الحشم والموصل والبيصرة. ولها وصلة بمقابلة عدد من الأشخاص بعد أن تميز لهم بطلاقة الحزب لاثبات التكلف بذلك هوته ومنهم: علي الأرناؤزي (صاحب جريدة العاصي)، وخالد أنندي درويش البرازي في حماة، وصالح بك حيدر رئيس بلدية عبلبك، وسليم أنندي

(١٠١) أنطون بين، للمصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٢ — ١٣٣.

(١٠٢) الرسالة منشورة في مفكرات جمال باشا بكونها مرجعة إلى سيد أنندي شكيري، وفي كتاب «إيضاحات» إلى كامل أنندي هاشم، وقد طفت صبرها الزنكوفولية في كلا نسختي «إيضاحات» العربية والتركية، فوجدت أن الاسم مطسوس قصداً بالخط الأسود، وبشكل كثيف لا يقرأ منه سوى كلمة «علي» بين كلمتين دقيقين آخرين غير مقروئين، لا تناسب دقيقتا مع بقية الكتابة، وهي محصورة في فراغ ضيق لا يسمح لها لو كتبت بخط مناسب مع خط الرسالة كجراً، ويظهر أن الفراغ ترك قصداً لوضع الاسم — أي اسم كاتبه — بعد كتابة الرسالة وهذا ما يجرى لشك العظيم حول صحة الوثيقة القانونية.

الأحد عبد الهادي في جنتين ، وحسن أفندي حمادة في نابلس ، وثابف أفندي تلبو مأمور التحصيلات في البقاع ، وحافظ بك السعيد في يافا . أما بيروت فتذكر الرسالة أهميتها ، ووجوب تأليف فرع كبير للجمعية فيها ، وأن عدد الداخلين فيها رسماً قد بلغ خمسة : « هم حضرتكم والأخ (أي أخوه) محمد المحمدي ، ونور الدين القاضي ، ومصطفى أفندي سميسه ، وعبد القادر أفندي الخرسا ، وهذا الأخير تعرفوه وهو الذي كان يحمل إليكم الأتخام قبلاً » . وبعد أن يطلب منه إبل المهمة لإبلاغ عدد المنتسبين إلى عشرة كي يؤلف الفرع رسماً فتتخب هيئة إداية وترسل إليه الختم قال : « أحسنم جداً بتعليه عمر أفندي حمد ، فهو عامل بصالحكم وإرشاداتكم وقد سرتنا عنكم في مسألة نصريف البضاعة البغدادية » . ويشرح كتاب « البضاعات » البضاعة البغدادية بأنها البلاءات والمنشورات المطبوعة بحتم « جمعية الثورة العربية »^(١٠٦) .

والرسالة الثانية ، وقد ضبطتها مصلحة الاستعلامات ، كما قال جمال باشا ، تذكر دوران رعي الحرب ، واحتمال طوفان شرارتها إلى الشرق ، وإنه إذا اشتركت الدولة العثمانية فيها فسوف لا تخرج منها سليمة أبداً ، وربما كانت نهاية أجلها ، وعندئذ تقسم أراضيها وفقاً لرغبة روسيا ، وتعرض البلاد العربية للأخطار نفسها ، وسيضطهر الأتراك للدفاع عن أراضيهم باستاتة . إنما الخطر الذي سينهد العرب سيكون أعظم ، فمن المهم إذن أن يتأهب العرب للذود عن استقلالهم المهدهد ، « لذلك ترى جمعية اللامركزية اتخذت الوسائل الفعالة في الحال لصيانة الوطن ، فوجى الإعاجبة عما يلى :

- ١ — ما هي القوة التي عندكم ويمكننا الارتكان عليها عند الحاجة لعمل ما ؟
- ٢ — هل لي إمكانكم جمع شيء من المال وإساعلتنا به أو إيقاؤه عندكم حسب الحاجة ، وما هو المقدار الذي يمكنكم جمعه ؟
- ٣ — هل عندكم ملجأ لو أكثر عن بناط بهم إدفرة الحركة الوطنية وأن تؤمن معيشتهم تمام التأمين ؟
- ٤ — هل يمكنكم إرسال شخص تتفقون به بنوب عن فرحكم إلى جهة نعيها لكم لينقلني منها التعليمات اللازمة ؟^(١٠٧)

(١٠٦) إيضاحات... ، ص ٦٤ — ٦٧ ، لمحة فكرية ، ص ٦٢ — ٦٣ .

(١٠٧) إيضاحات ، ص ٩٢ — ٩٤ ، CEMAL PASA, Rezaie, p. 244 .

• عند إذا لم يمكنكم إرسال شخص ، هل ترون من اللازم أن تأتبعكم موقد مخصوص لإعطاء هذه التعليمات (٥٥)؟

وقد علق جمال باشا على هذا الكتاب بقوله « وما مكنت آتي على آخر الرسالة حتى وضحت حقيقة الموقف ، فقد قام الدليل على أن الثوار العرب لم يعدلوا بحال ماء عن فكرة العصيان في سورية وفلسطين » (٥٦) .

وهناك رسائل أخرى أقل شأنًا كالرسالة المخططة رقم ٢٢ ، وليس لها تاريخ ، مذيلة بتوقيع ح . المصري ، موجهة إلى شخص لم يذكر اسمه ، بل اكتفى بعبارة « أخي الأفيخيم » ، قال جمال إنها مرسلة إلى محمود الحمصاني ، وقد أتت على ذكر « الهدية » وأنه قامت أولان إرسالها ، وأن لديه مقدار ما أرسل إليه منها سابقاً — وقد فسر الأتراك « الهدية » بأنها منشورات — ولي الرسالة حث على الثبات والحلر ، وضرورة وجود تشكيلات سرية للحزب ، ووجوب إحداثها على أنظمة عسكرية كل عشرة تابعون لفاقد عشرة ، وكل عشرة قواد يتبعون فاقد مئة ، « وهكذا إلى أن تصور في يدنا كل القوى العاملة » كما يذكر « البضاعة البغدادية وتوزعها لحورقها » ، ثم يختم الكتاب بقوله « باشرت كتابة مفتاح شفرة أرسل عما قريب نسخة منها إليكم ، لتكتبوا لنا التلغرافات ولتكتبنا عند اللزوم حسب ما ورد فيها من الكلمات السرية ... » . ثم هناك رسائل لتذكر بإيجاد عَلم وشارات بألوان وطنية وأخضر ، أسود ، أبيض .

وإذا كانت هذه الرسائل ، المرسلة من حقي العظم أو من غيره ، تنقسم بطابع عدم التحفظ ، فإن ثمة كتباً بتوقيع رفيق العظم لا يستشعر منها شيء غير قانوني ، باعتبار أن الحزب علني ومعترف به ، وهي لا تتعرض لغیر المسائل المالية للحزب : اشتراكات ، حسابات ، أو المسائل التنظيمية : إكتثار مواد الحزب ، تنظيمه على أساس عشرات عشرات ، تأدية يمين الإخلاص من قبل الأعضاء (٥٧) . على أن كتاب إيضاحات يحتوي على كثير من المنشورات التي لم ينشر منها شيء

(٥٨) لدى تدوين المخط الذي كتبت به الرسالة الكثيرة بالتركيز لم أجد أي وجه للشبه بين عظماء الرسائل الأخرى المنسوبة لحقي العظم أو لرفيق العظم ، مما يدل على أن حرفي ح . ر . للمذيلة به الرسالة ليس بتوقيع هذا الشخص (رفيق العظم) رئيس الجمعية للأمة المركزية ، كما جازر إلى الذين من كتبها الحرفين قلدين بدأ بهما اسمه وكتبته ، ثم إن الشخص المرسلة إليه غير واضح الاسم كما بدت آنفاً .

(١٠٤) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٦٠ .

(١٠٥) إيضاحات ، ص ٦٧ — ٧٤ .

بالتنكشاف ، وكلها قديمة ، كالمصرحة الفلقة ، وبلاغ للأمة العربية تحض على النهوض واليقظة وعدم الرضوخ للظلم ، ونبذ اللذل والاستعداد ، إلى جانب التشديد بأعمال الترك وتخفيفهم حرمان العرب ، وبمسلة جابود باشا على عرب العراق ، وبأمر الشيخ عبد العزيز جابرش ، وشكيب أرسلان ، وعبد القادر المغربي ... وغيرهم مع الترك ، وباحتفال ذكرها طيارة من بيروت ... الخ . وقد جاء في عتام أحدها « بلاغ للأمة العربية » - (ومعهم من نصه أنه أذيع بمناسبة الحملة الانتخابية عام ١٩١٣) - : « فالبدار البدار ، إننا قادمون إلى يوم الجلاء أعدوا عندكم ، وهبوا أنفسكم للموت في سبيل الحياة ، فقد كفانا سلباً ونهباً ، وكفى أبناءنا ظلاماً وتعسفياً ، وكفى دمارنا خراباً وتدميراً »^(١٠٦).

قال أمين سعيد إن حفي العظم استقل صلكه بحزب اللامركزية ، فكسب الرسائل وأذاع بعض المنشورات دون إطلاع رجال الحزب ، وكو فعل لَمَّا أقرره ولَمَّا وافقوه ، لفتور العلاقات بينه وبينهم^(١٠٧) . وبالرغم مما لحق القول من وجهة - نظراً للعداوة التي شجرت بينه وبين عبد الحميد الزهراوي ، إثر تولي هذا الأخير عضوية الأغبيان ، وكان معروفاً عن حفي العظم طموحه إلى الوظائف الكبيرة التي كان يسعى إليها بالطريق السلمي ، متخذاً من شدة الهجوم على رجال الدولة وسيلة للوصول إليها ، ومسلحه بعد الاحتلال الفرنسي ، وسره في ركاب الدولة المحتلة ، طمعاً بالتراسات لا بجهله أحد من السوريين ، فإنه ليس من سبيل إلى نكران شدة هجوم حزب اللامركزية ، في الجزائر المصرية ، على الدولة بعد دخولها الحرب^(١٠٨) ، مما حدا بحمال باشا في يوم من شهر أيار ١٩١٥ إلى دعوة عبد الكريم الخليل وسؤاله عن سر هذه الهجمات . وقد بين جمال في مذكراته أن عبد الكريم قد اعتراه اضطراب عند إلقاء هذا السؤال عليه ، وأنه (أي عبد الكريم) زاره بعد عدة أيام ، وعرض عليه أن يذهب إلى مصر ليشرح لزعماء اللامركزية سياسة جمال باشا في سورية ، وليحملهم على تغيير خطتهم ، مما أثار ارتياحه بعبد الكريم ، لأن إيطاليا كانت قد أعلنت الحرب على الدولة العثمانية ، بالإضافة إلى أعدائها السابقين ، فانقطعت آخر صلة بين الشاطئ السوري وبين العالم الخارجي ،

(١٠٦) المصدر السابق، ص ٩٨ - ١٠٣ .

(١٠٧) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(١٠٨) قال عزيز بك رئيس استخبارات جمال باشا « إن أعضاء اللامركزية قد أسلوا كثيراً ليس إلى جمال باشا فحسب ، بل إلى مواطنيهم ، بالتمسكات المصطنعة القديمة التي وجهوها إلى الباشا ... لأن توظيف بعض أنصارهم جعلهم يشبهون الحملة ، وهو كلما قرأ هذه التمسكات ازداد حسداً على رفاقهم السوريين حتى كان ما كان ... » (عزيز بك ، المصدر السابق، ص ١٩٤) .

فسأله : « كيف تستطيع إذن الوصول إلى مصر ؟ » ، فأجابه بأنه سيجد وسيلة لذلك لقوي شكه فيه إلى درجة اليقين^(١٠٨) . وبني جمال على هذا الشك ، إلى جانب الوشاية التي قُدمت إليه بحق عبد الكريم من قبل أسعد الشقيري ، موضوع تحريم هذا الشبهة وإعدامه .

ومن الحق ألا تنهب عن لمباحث غريبة أن يعمد حفي العظيم إلى هذه الأعمال الصيبانية في العمل غير المحرز ، التي لا تفسر لها إلا طموحه في الوظائف الكبرى ، وحفده على من تولوها دونه ، أو جهله لطرق النضال وأساليبه ، غير مدرك أنه بعمله هذا قد دفع يرقاب كتبيين من مثوري العرب إلى قبضة طاقوة غشوم لا وزن عنده لمطلق أو حق ، فصارت إلى حبل المشنقة ، لأن جمال باشا امتد إلىها في تحريم حزب اللامركزية بالخيانة ، ثم يتجرم كل منتهب إليه بالتهمة نفسها والحكم عليه بالإعدام .

سوق الوشائيات والتزاع الاعترافات بالقوة

ولم يكن عمل كامل الأسعد مبعوث بيروت أقل ثلماً من عمل حفي العظيم ، عندما تقدم بوشاية إلى جمال — مهد لها قبله الشيخ أسعد الشقيري ، مفتي الجبلش كما ذكرت سابقاً ، وهو من أعمدة الأحرار ومن المشاهير عليهم منذ انعقاد مؤتمر باريس وقبله ، بالاشتراك مع عبد الرحمن باشا يوسف ، ومحمد باشا العظيم ، والشيخ عبد العزيز جباريش وغورهم ، بمجهته إلى جمال مؤمراً إياه بأن اثورة قد ذر قربها في صورة ، وأن باستطاعته أن يستدعي كامل الأسعد لإعطائه التفاصيل — وفصلاً — وجهت الدعوة إلى كامل الأسعد فأبى ، وحذر جمالاً من تقريره جماعة الإصلاحيين وتحويلهم حرية مطلقة في طول البلاد وعرضها ، خشية من إساءة استعمال تلك الثقة ، بدليل أن رضا بك الصلح مبعوث بيروت الأتقي وعبد الكريم الخليل بعدان ، في هذه اللحظة ، عصياناً في جهات صور وصيدا^(١٠٩) . وبعد أن انتهى كامل الأسعد من بسط وشايته ، تقدم الشيخ أسعد الشقيري من جمال وطلب منه مكافأة الأسعد بلقب أو بوسام رفيع فمنحه البكوية والمجدي الثالث^(١١٠) .

وعندئذ يأمر جمال بالتحقيق فيقول في مذكراته إنه أسفر عن إدانة الاثنين ، وأنهما أحياناً إلى

(١٠٨) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٥٢ — ٣٥٤ .

(١٠٩) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٥٥ .

(١١٠) عزيز بك للمصدر السابق ، ص ١٦٩ .

الديوان العرفي الذي حكم على الأول بالنفي المؤبد، وعلى الثاني بالإعدام^(١١١)، في حين كان جمال باشا يعلم أن كامل الأسعد من الأعداء المعروفين لعبد الكريم ورضاً الصلح، بسبب المخالفات الانتحائية بين الطرفين باعتبار أن الثلاثة من منطقة انتحائية واحدة^(١١٢). وهو نفسه يحترف في مذكراته بروج سوق الوشابات والدسائس وحبكها ضد من ينال حظوة لدى المسؤولين^(١١٣)، يؤيده في ذلك ما جاء في شهادة شاهد عيان بأن كل إنسان من الطبقات ذات النفوذ في سورية كان يعيش لنفسه ويهدس على الآخرين، «هل كان الأخ ضد أخيه، والابن يغدر بأبيه»^(١١٤). ومع ذلك سمح جمال لنفسه بتصديق هذه الوشابة مع أن هناك من الشواهد ما هو كافي لنقضها. قال ناظر النصبين إنه عندما كان مسجوناً في سجن عاليه تحدث إليه القائمقام السابق أرطغرل بك التركي، وأخذ يقص عليه قصة اعتقاله قائلاً: «في اليوم الثاني من وصولي إلى عاليه استدعيت إلى حقة التحقيق في الديوان وسئلت عن أمر لم يخطر لي يوماً ببال، وهو أنني يوم كنت قائمقاماً في قضاء جبلة... ورضي بالبهذ كتاب من الولاية بأمرني... بأن أحقق عن أخبار اتصلت بوزارة الداخلية، تتضمن أن عبد الكريم الحليل يقوم بتوقيع مضايقات من الأهليون يطلبون فيها حماية بعض الدول الأجنبية، فقصت بالتحقيق الذي أثبت لي أن هذه الوشابة كاذبة لا نستند إلى أساس»^(١١٥). وينتهي حديث القائمقام بقوله إن سبب اعتقاله هو كونه أطلع عبد الكريم الحليل على هذا الأمر.

كما أورد عزيز بك في مذكراته برقية شيفرة مرسلة من قائمقام صيدا (منطقة عبد الكريم الحليل) إلى قيادة الجيش الرابع قال فيها: «لقد عرضت في برقياتي السابقة حل مقام الولاية الجبلية وعلى مقام صاحب الضخامة قائد الجيش الرابع، حقيقة المتاورات الحزبية الموجودة في هذه المنطقة، والتي ترمي إلى استئثار بعض هذه العائلات بالنفوذ، لإذلال الفقة الثانية، بقصد جر مغنم أو اجتماع بنفوذ لا تتمتع به الكتلة الثانية، وهذا كلوت الوشابات وصمت للفاسد في البلاد».

وإنني ألتقي يوماً جملته أخبار من عتلف الحزبين أو الكتلتين المتعاديتين، وفي أخبار كل فئة منهما مفاسد ومطامع بالفقة الثانية، الأمر الذي يتركني في حيرة من أمري. إذ كيف أستطيع معرفة

(١١١) إيضاحات، ص ١٢٤.

(١١٢) أمين سعيد، الثورة العربية... ج ١، ص ٧٩.

(١١٣) مذكرات جمال باشا، ص ٣٥٥.

(١١٤) مجلّة الحزب الحطبي، ج ١٦، ص ١٥ (نظم أسرة أسيرة تحت مدة الحرب في بيروت وسوى).

(١١٥) ناظر النصبين، مذكراتي... ص ١٩.

الحقائق من وراء كل هذه الأمور، ولهذا اكتفيت في التقارير التي أرسلتها يومياً... بنقل سائر الأخبار الواردة إلي من مختلف الجهات....، ولهذا يمكنكم الرجوع إلى تلك التقارير وفيها ما ترضون معرفته من هذه الأمور^(١١٦).

والأغرب أن حملة الموشايات على عبد الكريم الحليل ورضا الصلح كانت مذبذبة وعجوبة بشكل دقيق، بحيث سبق سعاية الشقيري وكامل الأسعد لدى جمال ضدهما، أن أحد الأشخاص كان يرسل الرشابة تلو الأخرى بحقهما في البهد باسم مستعار وبعقول، ثم تستطيع السلطة أن تكشف هويته، ولكنها على كل حال، وعلافاً للأصول المشبعة، اعتبرت مقبولة، وقال عنها عزيز بك، رئيس استخبارات جمال باشا، إنه كان لها الفضل في الوقوف والحيلولة دون حدوث ثورة في جنوبي لبنان.

هذه هي مجمل عناصر الاتهام التي اجتمعت لدى جمال باشا في بادئ الأمر، فأمر بأن تحال إلى الديوان بعد أن أمر باعتقال كل من ورد اسمه في الأوراق المضبوطة، وبدأ التحقيق مع المعتقلين، وأخذت دائرة الاعتقالات بالانساع يوماً بعد يوم، بازدياد ورود الأسماء على شفاء الموقوفين، حتى ولو مهما كانت الصلة بينهم (أي بين أصحاب الأسماء) وبين المسائل المبحوث فيها ضيقة. وقد وصل الأمر بالسلطات التركية أنها كانت تعتقل أي شخص يرد اسمه ولو غرضاً في أية رسالة موجهة من خارج البلاد إلى شخص آخر في داخلها، وفيها بعض ما يمس الدولة^(١١٧). أما دائرة الاستخبارات والجواسيس فقد نشطت في العمل، وصارت تقاريرها تقرأ على المجلس متضمنة اتهامات جديدة. وكان الضرب والتعذيب من وسائل انتزاع الاعترافات التي لعبت دوراً كبيراً في إنزال حكم الإعدام بمن تناوئتهم، حتى ولو مهما كان نصيبها من الصحة أو مهما كانت قيمتها^(١١٨).

لقد اتهموا بالضرب والتعذيب على الشهداء فانتزعوا اعترافات من بعضهم، واستمعني عليهم الأمر مع آخرين. ففي الكتاب الذي دسه الشهيد رفیق رزق سلوم بيد الكاهن الذي ألقى لهتم له

(١١٦) عزيز بك، المصدر السابق، ص ٢٤٦-٢٤٢.

(١١٧) فليب حتى: المصدر السابق ص ٥٨٩.

(١١٨) روى محمد كرد علي أنه سأل خليلي بك والي الشام آنذاك— وقد وصفه بقوله إنه من الأحرار المغلاء، وهو أعلم تركي وكفيل عامل رأته للقيام في الأربعين السنة الأخيرة— عن رأيه في قضية إعدام المثاقلة الأولى، فأجاب بما عساه بالحرف سلسلة من التزييدات والتضخيمات عليه فتلهم الله وأخواهم أي قتل قلة للزورين والمثاقين يعني يوم الإعدامين (محمد كرد علي المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢٩-١٤٠).

الواجبات الدينية قبل الإعدام، والذي وجهه إلى والدته، صورة ناطقة عن هذا التعلُّب، وعن الوشائج التي كانت تقدم بحقه، وعن ألوان المغالطات التي كان للفكر يوقعونه في حبالها، قال « ربطوا يدي ورجلي بالحبال، وبدأوا يضربونني ضرباً ألبساً فأغمي علي ثم أفتت فأعادوا الكرة... » وهكذا دواليك بحيث أغشى عليه ثلاثة واربعة.. وتكسرت عدة عصي في أيديهم في أثناء ضربه، ثم اتبعوا ذلك بتعليقه بقطع أظفاره وإهلاكه ورمي جثته للوحوش^(١١٨)، فلم ير بدأ من الاعتصاف بالجمعية السرية التي تألفت في باريس من بعض شبان العرب دون أن يذكر اسمها، بل ذكر أسماء مؤسسيها... وهي جمعية (العربية الفتاة) - وأنه دخل في عداد أعضائها. ولما عذب الشهيد سيف الدين الخطيب اعترف بأن مقصد هذه الجمعية هو لإيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم « جمعية الأمة العربية في مصاف الأمم، وأنها هي التي دعت إلى عقد مؤتمر باريس^(١١٩) ».

وقد أنزل الإزهاق الجسدي والعذاب الذي لا يُطاق، بصورة خاصة بالشهداء عمر حمد، وثوفيق البساط، وعبد الكريم الخليل، ورفيق رزق سلوم، وسيف الدين الخطيب، وعبد الغني العريسي، وعازف الشهابي. روى فائز الحوري (أسعد فارس الحوري)، الذي اعتقل في عاليه مع المعتقلين، أنه عندما دخل السجن، وكان يرتجف من البرد، أرسل إليه عمر حمد الكاتبون الذي كان يصطلي عليه في الغرفة المقابلة. قال فائز « وبعد أن اصطليت بالنار قليلاً التفتُ إلى الغرفة المقابلة فشاهدت توفيق البساط متكاً على سريره، ولما وقع نظره على نظري خلع نعله ونزع جواربه ومد رجله كأنه يقول « أنظر فتطورت إلى رجله ورأيت ضربات السياط قد اخترطت رجله عرضاً، وثرت فيهما أثر أسود قائماً، وكان قد مضى على هذه الضربة ما يزيد على العشرين يوماً وأكثرها لا يزال كما رأيت^(١٢٠) ». ومع ذلك لم يستطع المحققون أن يتزعموا من أقوالهم إلا القليل مما يكشف عن حقيقة أسرارهم، أو عن اسم جمعيتهم السرية، أو أي خبر من أخبارها، أو أي نشاط من نشاطاتها^(١٢١). قد يكون صحيحاً أن عبد الغني العريسي، وسيف الدين الخطيب، ورفيق رزق سلوم قد أفضوا، من شدة التعذيب، بأمور ادعى جمال باشا أنها ذات شأن، لكنه لم ينشر منها في كتاب « المضاحات » بالزكخرف، سوى إضافة (بصحاتف كثيرة) بدون توقيع ادعى أنها للعريسي جاء فيها عن « المتبدى الأدنى » أن الغاية من تأسيسه « أن يجمع كل الطلاب العرب، بحيث فهم

(١١٨) تطويرون، المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٥ - ١١٩.

(١١٩) المضاحات، ص ٤٩.

(١٢٠) تطويرون، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٦.

(١٢١) أمية سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٧٥.

فكرة القومية ونهضة العرب بأية واسطة كانت، ولو بمساعدة الدول الأجنبية التي تؤدي إلى احتلال أو حماية^{١٢٢}، وعن «الجمعية المقططانية» أن مؤسسها هم خليل حمادة وعبد الحميد الزهراوي وغيرها، وأن غايتها نشر فكرة العمل على ترفي العرب وإصلاح حالتهم ونهضتهم، وأنها كانت سرية لها إشارات خاصة للتعارف بين أعضائها، وعن «الجمعية اللبنانية» أن غايتها تمهيد السبيل لفرنسا في سورية، وأن رزق الله أرقش كان يجب أهمالها، وأنه تسلط على صاحب جريدة الاتحاد العثماني (الشيخ أحمد طيارة) وأدخل في غمرها صيد عقل المعروف بنزعة الفرنسية، وأن الأكرس قد تداولت أن تحصل فرنسا قد تخصص لها مبلغاً من المال، وأن سليم البخاري كان رجلاً يتحدث كثيراً في مثالب الدولة العلية، ويرجو احتلال أمة دولة كانت فرنسية أو إنكليزية بدلاً منها^{١٢٣}.

غير أن ما ادعاه جمال باشا مبالغ فيه، أو غير صحيح، ولا يخلو من التزوير، وليست إفادة العرسي التي أدرجتها هنا لتخلو من شيء من هذا القبيل. ومن المشكوك فيه أن يفضي العرسي في حالته الطبيعية — بقول يفيد أن المتدنى الأدنى كان يسعى الوصول إلى غايته القومية ولو بمساعدة الدول الأجنبية التي تؤدي إلى احتلال أو حماية، وأن سليم البخاري كان يدعو لاحتلال فرنسا أو إنكلترا لهذه البلاد. وهو قول يخالف الحقيقة والواقع، مخالفة صريحة، ويناقض تماماً أهداف «المتدنى الأدنى» وكل الجمعيات العربية السرية والعلنية، التي كانت على العكس تشن حرباً شعواء على النفوذ الأجنبي في بلاد العرب ومن المعلوم جداً أن يكون جمال باشا قد دس هذه الأقوال في تلك الإفادات ليبر فتكهم بهم. وما عدا ذلك فإن معظم ما ادعى به جمال من أن هؤلاء الشهباء قد أدلوا به لا يزيد عن معلومات كان بعضها معروفاً لدى العرب والترك معاً، عن بقية الجمعيات العلنية المعروفة، وعن اشتراك العرب في الجرائد العربية في سورية ومصر، تلك التي كانت تأتي إلى «المتدنى الأدنى» ويجري تشجيع الاشتراك فيها لإيقاظ الشعور القومي، وكان المتدنى يوزع المنشائر التي كانت تأتيه ضمن الجرائد^{١٢٤} وعن علاقة المتدنى مع كل جمعية وخاصة «جمعية اللامركزية»، وعن القصائد الوطنية التي كان من شأنها أن تسمي الشعور القومي لدى العرب، وعن «جمعية المعهد» واتحادها «بالجمعية اللامركزية»^{١٢٥}، ثم عن المؤتمر العربي في باريس، وما دار فيه من مطالب لامركزية، وما تبعه من نشاط جانبي بدل المؤتمرات جهدهم كي يحموا عنه شبهة اتصاله بالدول

(١٢٢) إيضاحات، ص ٦، والصور الزكوجرافية الأولى والثالثة وقاسدة عن إفادة العرسي في آخر الكتاب.

(١٢٣) إيضاحات، ص ١٤ - ١٥.

(١٢٤) إيضاحات، ص ٢٠ - ٢١.

الأجنبية، وتلقي الترحيم منها، وإظهار تعطفهم بالدولة تعلقاً وثيقاً، وسمي بعض أقطاب حزب اللامركزية لإبعاد شقيق الشهيد العظم عن المؤتمر لأنه مشتبّه بأمره^(١٢٥)، وما جاء على لسان العربي عن قوة علاقة الجمعية اللبنانية في مصر بحزب اللامركزية، لأن رئيسها اسكندر عمون من أعضاء الحزب، وأن الجمعيتين كانتا قد اتفقتا، قبل إعلان الحرب العامة، على أن يعمل للفريقان سوية فيما إذا دخلت تركيا الحرب^(١٢٦). والجدير بالذكر أن هذه الأقوال ليست منشورة بالزيكوغراف، وقد تكون مدسوسة هي وغيرها على إفادة الشهداء الملتزمين. فهناك من يقول بأن الاتحاديين قد احتفظوا بعض الرسائل السياسية وعزوها إلى أحرار العرب، كما احتفظوا بإفادات لم يدل بها الموقعون. أما التي احتفظوها فلم ينشروا صورها بالزيكوغراف، أو نشرها بدون توقيع أو عملوا فيها حذفاً وتشويهاً ومسحاً، بحيث لم يتركوا إلا عبارات ومقاطع ميتورة تتيح لهم الوصول إلى أغراضهم الدموية^(١٢٧).

في الواقع لدى تدقيقي كتاب «إيضاحات» والمصور الزيكوغرافية المنشورة فيه، لاحظت أن ثمة أكثر من رسالة نسبت إلى زعيم واحد مثلاً يختلف خط الواحدة منها عن خط الأخرى، وأن الرسالة المنشورة تحت عبارة «الاستنساخ ٣٤» التوقيع في ذيلها محكوك، وموضوع تحت بخط مختلف توقيع: ح. المصري، الذي ادعى كتاب «إيضاحات» أن المقصود به: حقي العظم، وأن الاستنساخ ٣٧ موجه إلى شخص لم يذكر اسمه بل إلى «سيد الأخ»، والتوقيع في ذيله غير مقروء بتمامه، والاستنساخ ٤٢ الخط الفرنسي فيه مكتوب باليد، والاستنساخ ٣ الملصق بأنه إفادة عبد الغني العربي فيه فراغات كثيرة وواسعة في منتصف السطور وفي أواخرها وفي أوائلها، فدل على حذف أقسام منها، وهي عالية من التوقيع ومكتوبة بخط جميل جداً، لا يظنها القاري، إلا من عمل عطايا بارع جلس يكتبها بتأن وتؤدة، دون شطب أو تمشية، علافاً للمنفوق والمعتاد في حالات ضبط الإفادات التي تؤخذ في جو لا يسمح بالتأني والعناية والحرص على التفتن في الكتابة.

قال الدكتور أحمد قدرى^(١٢٨) في مذكراته — وكان من جملة الموقعين في عاليه — في حديثه عن

(١٢٥) «إيضاحات»... من ٥٨ — ٦٠.

(١٢٦) «إيضاحات»... من ٣٩.

(١٢٧) مجلة الحرب العالمية الأولى، جلد ٣، ص ٣٩.

(١٢٨) كان الدكتور أحمد قدرى طبيباً في الجيش برتبة طبيب، وكان هو المسؤول عن فرع جمعية «المرية للقاء» في دمشق، قبل انتقال مركزها العام إليها، وبعد من أبرز وأنشط أعضائها، اعتقل لردده اسمه في التحقيقات قسراً دون أن تذكر نشاطه ولا اسم الجمعية، وقد بذل جهوداً كبيرة في السجن، في حفظ التراث التي اعتقل

تعذيب المعتقلين ، أما عبد القتي العريسي فقد كتب صفحات مستقبضة ، فوجب علي الاتصال به تحذيراً وتنبيهاً ... ، وبعد رشوة الخفير قابله ، فكان جوابه بأنه لم يكتب شيئاً له صلة بأعمال جمعيتنا ، وأن كل ما كتبه وقُفَّ حل مؤتمر باليس والجمعية الإصلاحية في بيروت وغيرها ، مما هو مدون ومنشور في المصحف ، وأنه لم يعمد إلى ذلك إلا بغية تضليل المحققين واستمناح شفقتهم ، ولا سيما أنهم استشاطوا غضباً أمام تكلم توفيق البساط الشديد ... ، ولا شك أن إفادة العريسي قد كان لها أثرها القوي في إبعاد الظنون عن جمعيتنا ، إلا أن المحققين استغلوا أقواله وحكموا عليه بالإعدام ، نظراً لجهلهم ما كان منشوراً منها في بطون المصحف^(١٢٨) .

قوافل الجند

وهكذا أسفرت سياسة جهال باشا الإزمالية في سورية عن سلسلة من أحكام الإعدام جرت على قافلتين رئيسيتين ، الأولى بدأت محاكمة أعضائها باعتقال عبد الكريم الخليل في أواخر حزيران ١٩١٥ وانتهت في ١١ آب ١٩١٥ بتعليق أحد عشر شهيداً في ساحة البرج في بيروت وهم : عبد الكريم الخليل ، وصالح حيدر ، ومسلم عابدين ، ونابغ تللو ، ومحمد الحمصاني ، وأخوه محمود ، وعبد القادر الحرساء ، وعمود المعجم ، وسليم عبد الهادي ، ونور الدين القاضي ، وعلى الأرمنازي^(١٢٩) . والقافلة الثانية ، وكانت محاكمة أعضائها مستمرة مع المقابلة الأولى حتى انتهت في ٦ أيار ١٩١٦ ، فقصفت عشرين شهيداً ، ثلاثة عشر منهم عُلقوا على الأعواد في ساحة البرج في بيروت وهم : عمر محمد ، عبد القتي العريسي ، عارف الشهابي ، توفيق البساط ، سيف الدين الخطوب ، الشيخ أحمد طيارة ، سعيد عقل ، ياترو باولي ، جرجي حداد ، سليم الجزائري ، أمين لطفي الحافظ ، جلال المبخاري ، ومحمد الشنطي^(١٣٠) . وسبعة علقوا في اليوم نفسه (٦ أيار) في ساحة للشهداء في دمشق وهم : عبد الحميد الزهراوي ، شفيق الخثعم ، المعظم ، عمر الجزائري ، رفيق

واستوب فيها ، كالاتصال بالبورجون وتضحيهم وتحذيرهم من الوح بأمر الجمعية ، وقد ساعد اختصاصه في فرج معين من الطلب على الفداء بجلده ، لذلك أن شفيق جهال باشا ، وكان من رجال ديوان حرب عالية ، قد أصيب بمرض هو من اختصاصه وليس هناك فيه من المخلصين فيه ، فعالجه وأصبح صديقاً له ولرجال الديوان .

(١٢٨) الدكتور أحمد قنبري ، مذكرة في ... ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(١٢٩) المصدر السابق ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(١٣٠) من الأمور المشهورة أن الحكومة المصرية الفصلية قد أدرجت اسم الشنطي في قائمة الشهداء التي أصدرتها .

رزق سلوع، شكري العسل، عبد الوهاب الإنكليزي، ورشدي الشسعة^(٢٠). هذا إلى جانب تنفيذ أحكام أخرى بالإعدام في فلسطين وبيروت في لوفات مختلفة.

وقد نفذ جمال الحكيم في القافلة الأولى، بعد أن أخذ رأي مفتي الجيش الشيخ أسعد الشقوي، غير متظر تصديق السلطان عليه، وقال في مذكراته إنه كان يمكن الحصول عليه قسراً بعد، وإنه قد حصل بالفعل على موافقة وزير الحربية والداخلية (أنور وطفت)، وأنه نظراً للحالة العامة، أي الخطر المهيمن بالدردييل وحلوه سورية إلا من الكتاب العربية، وبالفشية من أن تنور ولا قوة لديه لتقمع ثورتها، لأنه لا يستطيع جلب قوات من الدردييل، لذلك وبما أنه قد وجب عليه تخليص كل العاملين على خلق القلاقل والساعين فيها، فإنه أمر بالتنفيذ حالاً^(٢١). غير أن جمال باشا لم يحسر على طلب موافقة وزير العدلية لعلمه بضعف مستنداته القانونية فأسخطه. قال سيد أمين جيمسي الذي عثر محققاً في مذابح الأرمن، بعد الهدنة، قد عثر على برقيتين متبادلتين بين أنور وجمال. وقد جاء في برقية أنور أن تحليل بك الذي أصبح وزيراً للعدلية في أثناء الحرب متضرر من إعدام جمال على تنفيذ الإعدام في الشهداء دون إرادة شية، فكان جواب جمال «إني أعرف ميوعة تحليل بك وتعقباته، أما الإرادة السنية فليس أسهل عليكم من تدمير أمرها»^(٢٢). وإن دل هذا على شيء فهو يدل على تولؤ جمال وأنور وطفت، بحيث أعطاه الموافقة على الإعدام، بدلاً من الوزير المختص «وزير العدلية» والسلطان، ثم يطلب منها أن يدير له الإرادة السنية من قبل «المقدار».

خلاصة القول إن جمال باشا ورجال ديوانه قد جهلوا أو تجاهلوا — عمدًا — أن معظم ما ورد في إقادات المعتقلين هو ما لم يكن يحمله أحد، وهم وإن لم يتسوا أن «المتدعي الأدبي» كان بطوري، وراء أهدافه الأدبية، أغراضاً قومية ترمي إلى التهور بالأمة العربية عن طريق العلم والمعرفة — وهم الذين كانوا يُحَسِّسون حقلاته — كما لم يُتَكْرَر أن وجود حزب اللامركزية العناني، واشتغاله للحصول على كيان داخلي للعرب في ولاياتهم، كان في نطاق القانون، غير أنهم تجاهلوا كون برنامج كل منهما يقضي ببقاء العرب ضمن نطاق الرابطة العثمانية، وعدم الخروج عن هذه الرابطة. وعلاوة على ذلك راح جمال باشا ينفذ وجود هذه الجمعيات وعملها — في كتاب «الملاحظات» — تنفيذاً بخدم وجهة

(١٣٠) لإعدامات، ص ١١٥ — ١١٢٣، تطوين بين المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٢.

(١٣١) مذكرات جمال باشا، ص ٣٦٩.

(١٣٢) محمد حرة دروزة، المصدر السابق، ج ١، ص ٤١.

نظر الأتراك قال : صحيح أن الجمعيات المذكورة في هذا الكتاب قد تأسست في الظاهر بشكل قانوني ، فكان بعضها أدبياً وبعضها سياسياً ، وقمعت جميعها العمل على رقي العرب وقامون الرفاه لشبانهم ، ومن هذه الناحية فإن إعطاء الحكومة الترخيص اللازم لها لم يكن عملاً قبيحاً ، ومثل ذلك انضمام الناس إلى هذه الجمعيات وترجيهم بها ما دامت برامجها تنطق بسعيها إلى إسعادهم ، إنما أصل الجرم هو في كون القائمين على أمر هذه الجمعيات قد ضلوا عامة الناس ، إذ غرروا بهم فأدخلوهم في عضويتها ، فاستغلوا بذلك حسن نيتهم ، وهؤلاء هم الذين طالتهم يد القانون ، ذلك أنه كان لهذه الجمعيات برامج خفية تختلف عن تلك التي أعلنوا عنها ، كما كان لها تشكيلات بسعى من وراءها أشخاص معدودون نحو آمال دنيئة . إذ أخذوا يتصلون بالدول العنوة ، وبمواطنيهم الفارين إلى مصر اللذين انتهت حياتهم السياسية ، وبميكون معهم خبروط المؤامرات ضد الدولة^(١٣٣) .

هذا هو رأي جمال في الأحزاب العربية ، وهو مليء بالمغالطة من حيث تضليل زعماء العرب للشعب العربي ، في حين اعتقد القائمون على أمر الجمعيات العلنية — باستثناء جمعيتي « العهد » و « العربية الفتاة » والسريتين — أن ليس من عاصم للعرب من برائن الاستعمار إلا بقائلهم مخلصين لثورتهم ضمن الرابطة العثمانية . وبالرغم من ذلك أخذ جمال باشا يتكلم ويهبط بهم ويعتبر الانسحاب إلى الجمعيات التي يشربون عليها ، وبخاصة منها « للملازمكية » ، جرماً يستحق الإعدام . وراح يتهمهم بالانفصالية ، وبأن نضال العرب ، بعد إعلان الدستور ، كان لإعلاء شأن قوميتهم وحفظها من الاندثار ، وعد هذه الأفعال جرماً مجازي عليه بالشتى ، كأن مؤتمر باريس لم يعقد ، وكأن الأتراك لم يوقعوا على الاتفاقية التي انبثقت عن مقرراته ، وكلها تنطق بما يحز في القومية العربية ، في حين أن الأمور قد سويت بين العرب والترك بعد ذلك المؤتمر ، وكان ذلك يعني أن الأتراك قد اعتزقوا بكل ما قام به العرب من نضال سابق في سبيل تعزيز قوميتهم . ومع ذلك فقد دسوا جميع ما أوجت به صيقرتهم من هم تعود لأعمال سابقة للحرب وللمؤتمر ، وراحوا يفسرون كل حركة بأنها انفصالية استناداً إلى مراسلات من خارج سورية ، ظهرت فيها عبارات من آخرين لمس أحرار العرب ، وقد لا يكون هؤلاء رأي مرسلها ، في المسائل التي عاجلتها ، وإلى وثائق فرنسية ليس فيها عظيم أمر ، خاصة وقد يثبت ما جاء فيها من تناقض ، وعلى إفادات واعترافات لم ينشروها الزنكوهراف ما يشكل الدليل القاطع على خيانة الشهداء .

كما تناسى الأتراك أن زيادة نسبة كاثنته قد صدرت بتاريخ ١٩١٣/١/٢٩ بالفضو العام من

جميع الجرائم السياسية التي ارتكبت قبل هذا التاريخ^(١٣٤)، قراح جمال، بعد أن تقضيها وأرضى شهوته للانتقام من أحرار العرب، بفلسف عمله بقوله «إن أوثق الأشخاص اغتلبوا العفو العام وسيلة للقيام بأعمال جنائية جديدة، إلا أن إدانتهم ترجع إل جرائمهم بعد ذلك العفو. وإذا كانت الوثائق الخاصة بإدانتهم قبل العفو تعتبر قوية قوية، هذا للمحكمة أن تمنحها وتشرها لتبين للملأ مبلغ شناعة خيانتهم^(١٣٥)»، متجاهلاً أنه اغتلبها مستنداً أساساً للحكم. غير أن مغالطة جمال هذه بكشفها كونه قد أخذ البريء بجريرة المذنب، ذلك أن كتاب «إيضاحات» قد ألح على الوثائق الفرنسية — التي وصفها أحد كبار مؤرخي الترك بأنها باطله مادامت تتعلق بأعمال سابقة لمرسوم العفو^(١٣٦) — في تجريم عبد الحميد الزهراوي، وشكري العسلي، ورشدي الشنعة، والشيخ أحمد طهارة، مع أنه لم يرد لهم أي اسم فيها، وعلى رسائل الدلاكركية في تجريم من وردت أسماءهم فيها. مع أن ذلك لا يصحح إلا إذا أثبت التحقيق علاقتهم الفعلية في ما احتوته من هجوم ومقاصد مبيتة نحو الدولة، بشرط أن يكون قد بدر منهم عمل ملموس، أي أن يكونوا قد شرعوا في القرد أو الثورة فعلاً، وهذا ما لم يحدث. كما ألح على اعترافات عبد الغني العريحي، وسيف الدين الحلطبي، ورفيق رؤف سلوم، في تبرير الأحكام مع أن هذه الإقادات — إن كان كتاب «إيضاحات» أميناً في نقلها — لم تتناول أعمالاً معينة، إنما تناولت أوضاعاً عامة سابقة عن مقاصد أحزاب وجهاعات، وآراء أشخاص عرفت علانية عنهم قبل إعلان العفو^(١٣٧)، ولم تدر حول أعمال عصيان ارتكبت وضت اشترك الشهداء فيها، ولم يرد ذكر أو تنويه بأعمال ونشاط جمعية «الفتاة» بعد الحرب، حتى ولا اسمها. وهذا يرهان على وقوف أجهزة استخبارات جمال، التي صرف على تنظيمها الأموال الطائلة، عاجزة عن أن تكشف سرها. وكل ما كان قد انفصل بالأثراك أشياء عامة عن حركة غامضة تنشر التهم في معاء سورية، وهذا ما جعل جمال باشا يتقد غيظاً، فقصه جام غضبه على المعتقلين كي يمتزفوا بما يكشف له مجرى الأمور فلم يوفق. لذلك جاءت الأحكام مبنية على الظن والشبهة، بحسب اعترافه هو نفسه عندما تحدث عن شكه بعبد الكريم الخليل، عندما طلب هذا منه إيفاده إلى القاهرة.

وإذا آمن الإنسان النظري في الاتهامات ومستنداتها يتضح له أن جل ما كان يمتيه جمال هو القضاء على متتوري العرب وتاريخهم، أولاً عشية منهم على الدولة، وثانياً ليرد الانتقام منهم من

(١٣٤) دستور، كتيب ثاني، مجلد ٥، ص ٦٢.

(١٣٥) مذكرات جمال باشا، ص ٢٨٣ — ٢٨٤.

(١٣٦) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 221.

(١٣٧) «إيضاحات»، ص ٦، ٣٢.

أصنام سابقة. فبعد الكريم هو مؤسس «المتنبي الأدبي»، الذي نزع النبوة بشيابه العرب، وله مكانة ممتازة، لذلك حكم عليه بالإعدام، بينما حكم على رفيقه في الجرم المزعوم رضا المصلح بالعتق المؤبد، والفرق عظيم بين الحكمين، مع أن الأول كان من المفرين إليه وأن الثاني تموت منه حسب قوله. وأما رضا بك المصلح فكنت، على العكس، أعني دسأً ذنباً، ولذلك كنت أرفض مقابله^(١٣٨). وهذا يدل على أن الحكم كان متناسباً مع درجة نبوغ الشخص وخطورته، ذلك ما اعترف به جمال نفسه بقوله «أما أنا فكنت أرى أن عقاب الخائن لدينه ووطنه ينبغي أن يكون متناسباً للمركز الاجتماعي الذي يشغله، لأنه لا يتأتى في هذه الحال أن تُعزى أعمال مثل ذلك الرجل الجنائية إلى جهله أو حمفه، وكذلك النتائج التي تترتب عليها، فإنها تكون بطبيعتها أشد مخطراً وأعظم ضرراً...»^(١٣٩). أو كقوله في مكان آخر «يقول البعض: لقد كان ينبغي أن لا يتخذ الحكم إلا بعد تصديق السلطان، ورداً على هؤلاء أقول: أولاً لقد حولت السلطة القانونية أن أفعل ما فعلت، وثانياً أن المبادرة بتنفيذ الحكم كانت في نظري الوسيلة الوحيدة للضرب على أيدي الملوثة. وفي بلاد العرب يرى الإنسان لأبواب الرجاعة نفوذاً كبيراً حتى إن وجود أحدهم في الغالب قد يكون له من التأثير ما ليس لبقيل من القبائل...»^(١٤٠)، أو كقوله أيضاً «وما أن محاكمة عبد الغني العريسي قد كشفت الستار عن عدة حقائق آتية، فقد أيقنت أن الوقت قد حان لاستخدام الوثائق التي ضبطت في القنصلية الفرنسية، فطلبت إلى وهري الداخلية والحرية تحويل السلطة اللازمة لذلك، فوفقنا على طلبي بعد تبادل الرسائل الطويلة، وقد عززت ترددها إلى كون الأشخاص الذين تدبرهم الوثائق من ذوي المناصب العالية، بينما كنت أرى أن عقاب الخونة يجب أن يسير طرداً مع علو منزلتهم الاجتماعية»^(١٤١). وما يلفت النظر أن جمال ياشا لم يكن يعير أهمية لغیر موافقة طلعت وأنور، لأن الوزارة بمجموع هيبتها قد رفضت طلبه في محاكمة القافلة الثانية. ولكن لإصراره الشديد هو الذي دفع زميله المذكورين كي يوافقا على طلبه نعمت مسؤوليتهما. عندئذ استلهم الشهيدين عبد الحميد الزهراني والأمير عمر الجزائري من الآستانة وأعدمهما، بدون محاكمة، مع جملة الشهباء^(١٤٢).

(١٣٨) مذكرات جمال ياشا، ص ٣٥٦.

(١٣٩) المصدر السابق، ص ٣٧١.

(١٤٠) المصدر السابق، ص ٣٨٢.

(١٤١) مذكرات جمال ياشا، ص ٣٧٠ - ٣٧١، الفصل التركي، ص ٢٥٦.

(١٤٢) Y.B. HAYUR, t64d. III, p. 221.

كان الديوان العربي — المؤلف من هشتون: إحداهما للتحقيق برئاسة ضابط اسمه صلاح الدين والثانية هيئة قضاء يرأسها الضابط المزعوم شكري بك، والذي لم تكن له جلسات علنية ولا مرافعات ولا دفاع بكل ما هذه الأسماء من معنى — يسترشد بأمر جمال نفسه. كان يكفي في الغالب بدراسة نفسية للشتم ومزاياه الفكرية ومركزه الاجتماعي — هذا إذا لم يكن من الزعماء المعروفين — فإذا تبين أنه من الأكذابين الذين يشكلون خطورة على الدولة يُشار إلى ذلك بجانب اسمه، فيأمر جمال بإعدامه للتخلص منه^(١٦٦) خشية من خطره على الدولة.

قال الدكتور أحمد قنري في مذكراته «وحدث أنني اجتمعت بكيمان بك مستطلق ديوان الحرب، وذلك قبل يومين من الإفرنج عني، فكان مما قاله لي: إنا نحكم بالشنق على كل من يؤثي به إلى هنا، كي لا يبقى في بلاد العرب من يفكر بالانتفاض على الدولة العثمانية. أما أنت فقد غلبت صديقنا، واعتقد أنك من الذين سيخرج عنهم، إذ لا نعطرك منك، فإذا سئلت فظاهر بأنك لا تعرف شيئاً واتكرك كل شيء». ويضيف الدكتور أحمد قنري قائلاً «وعلى أثر الإفرنج عني حضر شكري بك رئيس الديوان إلى دمشق فلم أجده بدأ من دعوته إلى حفلة ساهرة، وقد استمرت عواطفه رحمة وعطفاً لإنقاذ إخواني، ولكنه أجهلني والدفع بترق في عينيه، بأن ليس في وسعه تلبية طلبي، لأن جمال باشا مصر كل الإصرار على شنق أكبر عدد ممكن من المعتقلين، وبخاصة أولئك الذين يخشى أن يقوموا بحركة من الحركات في سبيل قضية بلادهم، وأنه لم يتمكن من حمله على الحصول عن رأيهم، رغم المحاولات الكثيرة في هذا السبيل^(١٦٧). كما يذكر عزيز بك في مذكراته أن جمال باشا كان يبالغ في التشديد على ديوان الحرب بضرورة الحكم على الموقوفين بشدة متناهية، وأنه قد حصر كل همه في هذا الصدد، إذ كان يجاهر رئيس الديوان وأركانهم يومياً، متبعاً بدقة زائدة سر القضية. كما بين عزيز بك أن سخط جمال باشا عليهم ناشئ عن اعتقاده بأنهم أقدموا على التأكيد له في ضيابه بحملة القضاء، بينما كان يقاتل العدو واقعاً مطمئناً^(١٦٨).

فعلماً كان الديوان العربي آلة بيد جمال يريد بها أن تكون طوع أمره، فعندما أُحيلت إليه قضايا القافلة الثانية من الشهداء لم يحكم بالإعدام سوى على ثلاثة أو أربعة أشخاص من مجموع عشرين منهم، وما إن عرض القرار على جمال باشا حتى رفض قبوله، وأضاف بخط يده إلى جانب

(١٦٣) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٧٥.

(١٦٤) مذكرات أحمد قنري، ص ٢٠ - ٢١.

(١٦٥) عزيز بك، المصدر السابق، ص ٨٤.

بقية الأسماء كلمة إعدام ، بحيث يشمل هذا الحكم جميع من وردت أسمائهم في القائمة . هذا ما روثه
مذكرات رئيس أركان حربه علي غزاد إردن^(١٤٦) .

كما اعترف شكري باشا ورئيس الديوان العرفي بأن جمال باشا هو الذي كان يحدد عقوبة كل
شخص ، ولا يقبل بسواها ، ويتصرف في التعديل على هواه^(١٤٧) . وقد جاء في مقال نشره الأمير
شكيب لرسالة في مجلة « النصار » القاهرية سنة ١٩٢٢ ، وهو عليم ومطلع على خفايا السلطة التركية
حيث لم يحكم قرينه منها ، أن جمال باشا حينما صمم على إعدام أحرار العرب استدعى شكري بك ،
وأبلغه وجوب الحكم بالإعدام على ١١ / شخصاً ممن يتناولهم التحقيق ، فناقشه شكري بك ودافع
كثيراً عن المتهمين ، فهدده جمال بالقتل ولما أصر على أن الذين يستحقون الشنق هم ثلاثة أو خمسة
على الأكثر ، وأن وجدانه لا يرتاح إذا حكم على غير هؤلاء بهذه العقوبة ، استقدم جمال باشا أعضاء
الديوان — وكانوا شيئاً لا يخرجون على إرادته — وأمرهم بتنفيذ رغبته ، وكانت النتيجة أن جرى الحكم
على ٢١ شهيداً^(١٤٨) .

قال عزيز بك في مذكراته إن جمال باشا عندما كان يوقع بالحبر الأحمر مصدقاً على أحكام
الإعدام بحق الشهداء ، كان يضع توقيعاً بانفعال زائد كأنه يتشقى من الحكم عليهم ، ويردف كل
توقيع بكلمات عتيقة كقوله « إن كل نقطة من هذا الحبر الأحمر تذكرني بدمائهم التي سنسلك
لحياتهم أمتهم ودينتهم »^(١٤٩) .

وإذا أمعنا النظر في أسماء القافلة الأولى من الشهداء نشاهد أنه لا يوجد بينهم من هو من
ذوي المكانة المرموقة المعروفين سوى اثنين : عبد الكريم الخليل وعبد الحميد مصالي ، ولم يكن الثاني
بأهمية الأول ، بعكس القافلة الثانية التي تضم شخصيات مرموقة لها مكانتها في نظر الأمة العربية
لنضالها المجيد وسخطها الشديد في نظر الاتحاديين ، نجد مثلاً : عبد الحميد الزهراوي ، عبد القني
العرسي ، الشيخ أحمد طيارة ، شفيق المؤيد العظيم ، شكري العسلي ، رشدي الشمعة ، عارف
الشهابي ، عمر حمد ، توفيق البساط ، سليم الجزائري ، فالثلاثة الأول كانوا من أقطاب المؤتمر العربي
في باريس ، وبرزوا بخطبتهم الثابتة في مهاجمة الاتحاديين ، وتحرف الثلاثة الآخرون بمهاجمتهم الاتحاديين

(١٤٦) Y. H. BAYUR, *Op. cit.*, p. 221 (استناداً إلى مذكرات حل غزاد إردن) .

(١٤٧) أمين سعيد ، الثورة العربية ، ... ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(١٤٨) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(١٤٩) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

بحسب في مجلس المبعوثان وأولهم شقيق المؤيد العظيم كان ، في مجلس المبعوثان ، قد طرح طلفت بك وزير الدعاية أرضاً وأهانه ، أما الثلاثة الآخرون فإن مدالهم الناهية في جريمة «المفبد» كانت تلهم الشعور القوس عند العرب ، وتزلزل كيان القوميين الترك ، وأما الأخير سليم الجزائري فلم يكن نشاطه مع عزير المصري في تأليف الجمعيات السرية مجهولاً ، كما لا تنكر أهمية الأحد عشر شهيداً الباقين ، إذا استثنينا منهم المشبه بجلياته محمد الشنطي فيما إذا قبسوا بأفراد القافلة الأولى .

بناء على ذلك أعتقد أن جمال باشا بدأ بإعدام القافلة الأولى عن هم أقل أهمية لغايتين : أولاً : إلقاء الرعب والأوهاب في قلوب العرب حتى لا يجرؤوا ساكناً ، ثانياً : الترويض كمي يرى نتيجة ضررته الأولى فينبهها بعد ذلك بضربة أشد إذا أنس أن الجو ملائم ، واعتدلت يستتب له الأمر تماماً بعد أن يكون قد روى غليله من دماء الأحرار العرب . وقد وفق ، ولا شك ، في الغاية الأولى ، لأنه زرع الرعب في قلوب الناس ولم يعد أحد يجرؤ على إظهار نشاطه^(١٠٠) . قال في مذكراته «وقد أحدثت هذه الأحكام ذعراً كبيراً في نفوس العصاة ، وأدخلت المفزع في قلوبهم»^(١٠١) . لكنه أخفق في الغاية الثانية ، ذلك أن ليس العرب وحدهم ، خلافاً لما قال الضابط الألماني فوق كرمي الذي كان يشغل منصباً قيادياً كبيراً في الجيش الرابع ، بل أن الأتراك أنفسهم دعموا جمال باشا بالأجرام في العمل الذي قام به^(١٠٢) . أما علي فؤاد ، رئيس أركان حرب جمال باشا فقد جاء في مذكراته «كان رأيي أن جمال باشا لم يكن غافلاً في إجراءاته الخاصة بتنفيذ حكم الإعدام برجال القافلة الأولى ، فقد كان في موقف حرج يبرر عمله ، ولو لم يقم على ما أقدم عليه ، لما استطاع أن يسيطر على الموقف ، ويحول دون الساع نطاق الثورة ، وليبقى كرمي السلطنة مهدداً في البقعة العربية .

لقد كان عليه أن يتفقد عند هذا الحد ، خصوصاً وقد لمس تأثير عمله في البلاد ، إذ هابه رجال الحركة الثورية ووقفوا جانباً . ولكنه لم يفعل ذلك بل واصل الكتابة إلى أنور باشا وطلعت باشا ملحاً يطلب تحويله السلطة اللازمة لمحاكمة جميع الذين وردت أسمائهم في الأوراق التي صودرت في

(١٠١) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 221.

(١٠٢) CBMAL PAŞA, Hatıralar, p. 251. نسخة العربية ، ص ٣٦٩ .

(*) أما فرن كرمي نفسه فيقول إن هذا التجريم الجمال في غير محله لأنه إنزله للعقاب الشديد في هذه الشريعة من المحنة قد أعطى حداً لكل من تسول له نفسه القيام بحركة حصان وضرب الجيش للثوارب في مؤخرته . (Y.H. : BAYUR, Ibid. III, 222) (القصاص من كتاب فرن كرمي جنباً لجنب مع الأتراك في حرب فلسطين) .

للقنصلية الفرنسية . وهذا خطأ قاذح ارتكبه وجعل للعرب بمقتونه ، حتى أعطوه لقب سفاح سورية ، وهم على حق^(١٥٢) .

ويقول الأستاذ ساطع الحصري عن الاعتقالات الأولى بأنها لم تمر هواجس للناس ، حتى للقوميين منهم ، كثيراً لأنهم كانوا يقولون فيما بينهم إنه قد يكون ثمة ما يورثها ، ولكن عندما توسعت دائرة الاعتقالات وصارت تشمل بعض الرجال المعروفين بإخلاصهم القومي ، وحماستهم الوطنية ، صار جميع الناس يعتقدون أن هذه الإجراءات إن هي إلا حركات إرهابية يُقصد بها الانتقام من رجالات العرب المخلصين الذين تآؤوا للدولة فيما مضى^(١٥٣) .

على أثر إهدام القافلة الثانية انسحب من مجلس المبعوثان كل من الأمير علي عبد القادر الجزائري وكيل المجلس وفارس الخوري ، فآثراً من هذا العمل الشنيع . وقد يكون انسحاب الأمير علي مضطرب من جمال باشا الذي أبقى على حياته ، بالرغم من ورود اسمه في الوثائق الفرنسية ، لأنه قعر ضرورة وجوده على رأس إخوته الصغار وأولاد أخوته معيلاً لهم . لكنه لم يسمح بإبقاء عضواً في مجلس المبعوثان ، وقد جاء في استغاثته « بما أنني قد شعرت بأنني لا أستطيع القيام بواجبات عضويتي في مجلس المبعوثات لأسباب صحيحة ، لذلك أطلب قبول استغاثتي منها » . وقد قدم الطلب بواسطة والي دمشق بدلاً من إرسالها رأساً إلى رئاسة مجلس المبعوثان ، مما يدل على تأثير جمال في تقديمها . أما فارس الخوري فقد جاء في مستندات المجلس أنه قد انسحب منه لاعتزله المشروعة^(١٥٤) . وقد يكون لرفض مضطرب من جمال أيضاً على الانسحاب لأنه كان ، قبل تنفيذ الأحكام ، حاول إقناع جمال باشا بالعفو عن المعتقلين قائلاً له إنه يلتزم ذلك منه بعد ما رأى من طمأنينة وجاوبه وأنور وزعماء الجمعية من أصدقائه ما يشجعه على طلب ذلك منه ، فأجابته جمال بأن العدل سيأخذ مجراه ، وما عليه (أي علي فارس) إلا أن يشتغل في تنظيف صفحته ، وأن مسأله هو أيضاً قيد الدرس^(١٥٥) . وبالفعل أوقف ، بعدئذ ، فارس الخوري وشكري القوتلي وشكري باشا الأيوبي ، بالإضافة إلى جماعة من الأحرار الآخرين ، في عزان الياشا بدمشق ، بتهم سياسية كان من المحتمل أن تؤدي بأعتاقهم إلى المشائق لولا قيام ثورة الحسين في الحجاز ، وتهديده جمالاً بالانتقام من الأسرى للترك فيما إذا حاول

(١٥٢) أمين سعيد ، الثورة العربية ، ص ٧٦ - ٧٧ (نقلاً عن مذكرات علي فؤاد) .

(١٥٣) ساطع الحصري ، نشوء فكرة القومية ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(١٥٤) Y.H. BAYUR, Ibid. III, pp. 221, 223, 224 .

(١٥٥) حنا ، عراز ، مرجع . جلد - المصدر السابق ، ص ٢٨ .

من جديد قتل أحد من زعماء العرب . ويظهر أن للترك قد حصلوا على فارس الخوري كونه قد أثار في مجلس المبعوثان — بالإضافة إلى وقوفه فيما سبق الحرب موقف المعارضة للحكومة — قضية اختفاء المثاليين الأرمنيين زهراب وروثيكوس اللذين قدما احتجاجاً إلى السلطات التركية ضد اعتقال الأرمن بالآلاف إثر التوتر الذي حصل بين الترك وبينهم ، فقدر الاتحاديون مؤامرة ضدهما إذ دعيا إلى شهادة في ديار بكر فاعتقلهما حراسهما في الطريق . ولما نفي مرسوم انتخاب نائب عن الآستانة — وكان معروفاً أنه جاء بدلاً عن النائب زهراب — قدم فارس طلباً لمعرفة اسم النائب الذي جاء هذا المنتخب الجديد بدلاً منه ، فأخرج بذلك الترك اللذين أرادوا حكم مقتل زهراب ، فأوقفت الجلسة واستدعي فارس إلى غرفة الرئيس وأوعز إليه بعدم إثارة هذه المسألة ، فغضب عن الجلسة التالية وانتهى الأمر^(١٥٦).

إن من يرجع إلى كتاب «المباحثات» (ص ١١٥ — ١٢٤) عن مرد التهم التي ألصقت بالشهداء يشاهد أنها ناقصة بل في غاية الطهارة ، فقد ذكر أن عبد الحميد الزهراوي كان مؤسساً للمتدري الأدبي وروحاً لبرنامج السري (مع أن عبد الكريم الخليل هو مؤسسه ، وقد تأسس بعلم من الحكومة واستمر ست سنوات يعمل تحت علم الحكومة وبصرها) ، وأنه ترأس حزب اللامركزية ومناكراته السرية وترأس المؤتمر العربي عنها (وكان الأتراك لم يعترفوا بشرعية المؤتمر ولم يتفقوا مع محله على شروط الإصلاح) ، وأنه لم يقبل عضويته في مجلس الأعيان إلا بإذن من مقر اللامركزية (والمعروف أن ذلك كان تطبيقاً لقرارات المؤتمر العربي في باريس التي كان من جهلتها عدم قبول أحد من الإصلاحيين لأي منصب إلا بموافقة الجمعية التي ينتمى إليها^(١٥٧)) ، وليس لحزب اللامركزية شأن في ذلك) . وقالوا إن عمله هذا معناه أنه قبل المنصب لاثقة الحكومة به واعتمادها عليه ، بل كان قبوله على أثر مذاكرة اللامركزيين وتصويبهم أن يكون ممثل حياتهم رحيماً في المجلس التشريعي العثماني^(١٥٨) . كما استند الحكم عليه بكونه تولى إدارة الأملاك التي أوقفها عزت باشا العابد للنهي في تحقيق الاستقلال للعرب ، وهنا اقترأ ليس له أي سند أو مبرر قانوني .

وإنوا حكمهم على شكري الصلي على أساس انتسابه إلى حزب اللامركزية ، وتصريحه بالانفصال في خطاب ألقاه بمصر أمام جمال إبراهيم باشا ، مع أن ما ذكر في ما أورده كتاب

(١٥٦) المصادر السابق، ص ٢٤ .

(١٥٧) حسب العيون الخطيب، للمؤرخ شكري، ص ١١٩ (وقد ساء ذلك في النسخ رقم ٦) .

(١٥٨) لمباحثات، ...، ص ٦١ .

«إيضاحات» من خطابه لم تأت فيه كلمة انفصال قطعاً بل جاء فيه حرفياً «إلى أين بشر هذا الخيال؟ ... إن مصر والشام أختان بينهما رابطة الدين واللسان والعنصرية، وهذا الهيكل بشر بينه إلى البلاد الشامية». وهذا القول المبهم يحتمل للتأويل طبعاً لكنه لا يستحق الإعدام، كما نسبوا إليه اتصالاته بمتعمد فرنسا في الشام بواسطة الأمير عمر الجزائري، مما لم يحم عليه دليل، وأنه أدخل بعض الناس في اللامركزية.

واستندوا في إعدام عبد القني المهرسي على دخوله اللامركزية وتشكيلاتها السرية، وأنه كان مأموراً لترتيب الثورة في سورية، وأنه كان من المفوامل التي هيأت الأفكار المضرة قبل المؤتمر العربي بعده، وأنه كان يسعى بكل قواه لاستقلال العرب، وأنه حرض العثمان على القيام بالثورة. وقد بنوا الاتهام الأخير على كونه قد هرب إلى جبل العرب، بعد أن علم بعزم الحكومة على اعتقاله، ثم إلى البادية قاصداً الحجاز مع رفيقه عارف الشهابي وعمر حمد، وبينما كانوا في القطار متكرهين بزري العريان، وصعد وصلوهم إلى محطة «تيوك» أو «مدائن صالح»، اكتشف أمرهم فاعتقلوا وسبقوا إلى الدبوان^(١٢٢). وهذا دليل على قصر ذكاء من تلقى عليه هذه التهمة، إذ كيف يستطيع طريد العدالة أن يقوم بأي نشاط في بلاد لا يعرفها، ولا يتعرف عليه فيها أحد، بل كان يبالغ في التنكر خوفاً من اكتشاف أمره هو ورفاقه.

أما التهم التي أُلصقت ببقية الشهداء فلم تعد الانتساب إلى «اللامركزية»، والتوقيع على المنشورات التي كانت توزع في أمر انفصال العرب عن السلطنة — بما لم يقيموا عليه أي دليل محسوس — والذهاب إلى مصر والحديث مع أعضاء «اللامركزية»، ولنظم بعضهم أشعاراً بغية تبيح الأفكار والدعوة للاستقلال العربي. وبما يستوقف النظر أن التهمة الموجهة إلى عمر حمد انحصرت على كونه من أعضاء «اللامركزية»، وكونه أنشد في أحد مسارح التنبؤ قصيدة ترفع النور بين الترك والعرب، وأنه فر مع عبد القني المهرسي، وعلى السيد حافظ السعيد نائب باقا، أن اسمه ورد في المكاتيب الواردة من مصر بأنه معتمد «اللامركزية» في بلدته، وقد استبدلت عقوبة السجن المؤبد بحكم الإعدام الذي أعطى بحقه وذلك لكير سنه. والتهمة نفسها أُسندت إلى رفاقه الذين وردت أسماءهم في الرسالة المرسلة من حقي العظم إلى محمود الحمصاني — وقد مر ذكرها بالتفصيل — فأعدموا جميعاً. والأغرب من ذلك كله أن عاُسند إلى الشهيد محمود العجم أنه كان من الداخلين في لرح بيروت للامركزية، وأنه قرأ المنشورات، فاستحق على ذلك الإعدام.

(١٥٩) مذكرات أحمد قنري، ص ٢٢.

خلاصة القول : بعد أن اعتقد الاتحاديون أنهم يرهقوا على جرعة حزب اللامركزية ، وعلى نهائيه بالاستناد إلى الوثائق التي صادروها ، صاروا يتهمون كل عضو فيه بالخيانة ، غير أنهم أعدموا كتيبتين من لا علاقة لهم بأي حزب ، بل كان جل ما ارتكبهوا أنهم عارضوا الاتحاديين معارضة شديدة في مجلس المبعوثان ، في فترة ما قبل الحرب ، كرشدي الشمعة وشكري العسلي ، ولا ذنب لهم إلا تبوغهم . قال أحد صنائع جمال ، عندما ناقشه أحدهم في الذنب المستند إلى شقيق المؤيد العظيم ، إن لشقيق المؤيد العظيم ذنباً قديماً أخفى كل حسنة هو إهانة لطلعت بك عندما كان عضواً في مجلس المبعوثان ، ولا بد أن يُقتل بهذا الذنب تلاً^(١٦٠) .

وأخيراً لابد لي أن أثبت هنا — على سبيل المثال — ما جاء في حيثيات الحكم التي قُدمت إلى جمال باشا ، من قبل ديوان الحرب ، فيما يتعلق ببعض المتهمين ، كما جاءت في مذكرات عزيز بك^(١٦١) .

سليم الأحمد العبد الهادي : من أهالي جنين (فلسطين) ، وعضو مجلس إدارة المنطقة المذكورة . ليس للرجل في الحقيقة أقل تدخل في شؤون هذا الحزب (حزب اللامركزية) إلا الكتاب الوارد من مصر ، والذي يثبت أنه معتمد الحزب في جنين . (أعدم) .

عبد القادر الحرسا : من وجهاء بيروت ، إنه ليس منصرفاً خطراً على سلامة الدولة في الوقت الحاضر .

محمد مسلم عابدين : مأمور في دائرة أوقاف اللاذقية ، إن الأدلة أثبتت أنه لم يكن عضواً في الجمعية اللامركزية ، ولا قام بأي عمل في منطقته أو غيرها في سبيل تأييد هذا الحزب أو غيره . والرجل — وإن كان متمسكاً في دفاعه عن اللغة العربية — إلا أنه لم يتم بعمل ما تشتمل منه علاقته بالأعمال العدائية ضد الدولة أو إثارة الفتن بين العرب والترك . إن الرجل صديق لديم لطفي العظيم وبينهما علاقات قديمة وهذه الصداقة هي التي دعت حقي بك أن يحرر له بعض المكاتب داعياً إياه للاشتراك في الحزب . (أعدم) .

حافظ السعيد : وجيه من يلقا ، خدم بلاده بأمانة وإخلاص ، وانتخب نائباً عن القدس ، إلا أن لطفي فكري بك (من أعضاء حزب الحرية والائتلاف) أثار عليه قبحه عدواً للاتحاديين

(١٦٠) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص ٤٢ .

(١٦١) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص ٢٥٢ — ٢٥٦ .

ولهذا نقم عليهم ، ووجوده معتمداً للحزب في بالغا لا يكون خطراً على سيادة الدولة خصوصاً وأن أهله من أصدقاء الدولة المخلصين . (السجن المؤبد لكبر سنه) .

صعيد الكومي : مفتي بني صعب ، لم يكن مندفعاً في تأييد اللامركزية ، وهو وإن كان معتمداً لها في بني صعب ، إلا أنه لم يكن هدواً يخشى خطره على سيادة الدولة ... وقد أظهر في مختلف الأدوار رغبة أكيدة في خدمة الدولة ، وتأيد أواصر الصداقة بين الترك والعرب .

ومع كل ذلك لم يفتش جمال باشا براءة هؤلاء الأحرار وأصر على الحكم عليهم بالإعدام فكان له ما أراد .

لقد حاول بعض كبار رجالات العرب ، وبعض فضلاء الترك ، إنقاذ رقاب المعتقلين بالتوسط لدى جمال باشا وحكومة الآستانة من أجلهم ، لكن جهودهم ذهبت سدى . فقد تناقلت معظم المصادر العربية ذات الإطلاع أن خلوصي بك ولي دمشق^(*) قد وعد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وغيره من رجال العرب أنه ما دلم في دمشق فلا خوف على أحرار القافلة الثانية من المعتقلين ، لكن الخلاف لم يلبث أن ثلث بينه وبين جمال باشا بشأن إعدامهم ، فاقبل بطلعت بك ونهر الداخلية محتجاً على تصرفات جمال قائلاً : « إن إطلاق يده على هذا الشكل يقتل ويشق دون استئذان معناه انتهاك حرمة القوانين والأنظمة والاعتداء عليها » ، وطلب أن يؤذن له بالسفر إذا لم يوقف جمال عند حده فأذن له .

ولم يفتاد دمشق إلا وقد يادر إلى تخدير الدكتور الشهبندر قائلاً : « إنني عازم على السفر لأني مريض ولا يناسبني هواء هذا البلد ، وأظنك ، وأنت دكتور ، تدرك أن حالتي كحالتي ، فالهواء لم يعد يوافقتك » . ودعاه إلى متافرة دمشق ، فصدع إلى هذا التحدير ، وغادرها إلى البصرة ثم إلى مصر . وكان الشهبندر قبل ذلك — أي في أيلول ١٩١٥ — قد اختتم مناسبة إقامة حفل في الجامع الأموي ، لتخليق القنديل المهدى من إمبراطور ألمانيا لمرض صلاح الدين الأيوبي ، وكونه من بين الخطباء ، لكي يحمض جمال باشا على العفو عن المعتقلين ، فتكلم عن تاريخ صلاح الدين وعدله وسعة صدره وانصافه ، حتى في معاملة أعدائه ، ثم قال : « وما على جمال باشا ، إذا أراد أن يحفظ التاريخ اسمه ، كما

(*) كان خلوصي بك ولياً على دمشق ، وجمال باشا والياً على حمص منعتة الجبتي الرابع .

حفظ لاسم صلاح الدين، إلا أن يسر على متواله. فما كان من جمال إلا أن تقدم إلى المنصة متخطياً دوره في الخطابة وقال: «ليس صلاح الدين، الذي أسهب الذكور في مدحه، الخليفة الوحيد في عظمته، بل إن التاريخ حفظ اسم السلطان سليم بين كبار الخلفاء، مع أنه تلى بأخوته وبأهله وبرجال دولته، لأنه وجدتهم قد تأمروا عليه وهددوا المملكة الإسلامية، وسأخذ القانون بحجراه في معاقبة الذين تمردوا على معاداة الدولة والتأمر على سلامتها»^(١٦٢). عندئذ أدرك الشهبندر أن لا رجاء في إنقاذ المعتقلين وأسر ذلك إلى بعض أصدقائه. كما حاول الشريف حسين وابنه الشريف فيصل التوسط لدى الباب العالي لإنقاذهم، حينما ذهب الأخير إلى الآستانة، وتحدث إلى أنور باشا عن سياسة جمال الإرهابية وطلب الإفراج عن المعتقلين^(١٦٣)، وحينما أبقى الشريف حسين إلى أنور برفقة هذا المعنى. ولم يدر فيصل جهداً في هذا السبيل لدى جمال باشا بالذات في دمشق، إذ كان يكرر عليه الرجاء بأن يظهر شيئاً من التسامح معهم^(١٦٤). لكن هذه الوساطات ذهبت جميعها سدى. بل إن جمال باشا كان يرفض هذه الوساطات باستمرار، وقد أجاب مرة الأخير فيصّل الذي دعاه إلى الغداء معه في القابون، وكرر عليه رجاءه في هذا الشأن، بقوله: «هل تعلم مقدّر جريمة المتهمين؟» فاقسم فيصّل أنه لا يعلم شيئاً عنها. عندها أجابيه جمال بأنه لو علم بذلك لندم تمام الندم على كونه قد طلب العفو عنهم. وهم جمال حديثه عن مسألة العفو في مذكراته قائلاً: «إن فيصلاً لم ينقطع عن التوسط لئلا يشأن المعتقلين حتى اليوم السابق لإعتناهم، إذ أوصل إليه الشيخ بدر الدين الذي يحبه ويحترمه، ومعه الشيخ عبد القادر الخلوّب، أحد خطباء الجامع الأموي، لكي يستعطفوا بالعفو عنهم، فطلب من الشيخ أسعد الشقيري أن يترجم له كلام الشيخ بدر الدين، لكن هذا الأخير بدلاً من طلب العفو طلب إزلال العقاب بمن ثبتت خيانتهم منهم عملاً بالآية الكريمة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ جزء ما يقومون»^(١٦٥) به من الفتنه والفساد^(١٦٦). ومن جملة الذين توسعوا للشهداء فارس الخوري، كما مر معنا، قصده جمال صديقاً

(١٦٢) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٢، ص ٣٧-٣٨.

(١٦٣) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٦٣، استعاد إلى مذكرات علي قزاق أرنبه.

(١٦٤) مذكرات جمال باشا، ص ٣٧٢.

(١٦٥) CBMAL PASA, Hatıra, pp. 266-267: الترجمة العربية، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(١٦٦) وهنا لا بد لي من الإشارة إلى تعريب مترجم مذكرات جمال باشا في المعاني بشكل يحورها عن مدلولها الصحيح، بقصد التشديد على تجريم الشهداء من قبل الشيخ بدر الدين، في حين كان كلام الشيخ المذكور يحصل لتأجيل بحث جمال على المختلف.

عنيفاً^(١٦٦). كما توسط لهم الأمير شكيب أرسلان — وكان من أعضاء مجلس المبعوثان — بتصحده جمالاً عن القادي في سياسة العنف. لكن جمال باشا خيب رجاءه ولم يهره أذنناً صاغية^(١٦٧).

بطولة الشهداء

إن من يقرأ ما كتب عن البطولة التي أظهرها الشهداء، ساعة مثولهم أمام الموت، ليفقد مندهشاً حقاً، حتى يكاد لا يصدق أنهم قد استقبلوه بهذه الشجاعة التي لم ينكرها عليهم حتى المؤرخون الترك. قال يوسف حكمت بايوز: «لقد قابل الضحكون الموت بكل شجاعة وروعة جاثي»^(١٦٨).

في الواقع أظهر الشهداء شجاعة عظيمة وبطولة رائعة عند الإعدام، كما أظهروها في الاستطاق والمحاكمة، نجد مثلاً الشهيد عمر حمد: «كان هذا الشاعر الشاب أجراً المتهمين وأعزهم جانباً في أثناء الاستطاق، فبينما كان الضابط رئيس هيئة التحقيق يستجوبه مرة قال له: أنت تكذب»، فثار الدم في رأسه، وكاد يهجم عليه، لولا أن حال الجندي بينه وبين ما عزم عليه، مهدداً بالسلاح، فاكتمى يان أجاب الضابط التركي بقوله: «نحن لا نكذب ولا نحترم الكذابين»، فحمل الضابط فيه ونهره قائلاً: «صكت.. كلب..»، فلم يستطع عمر حمد ضبط شعوره وأجاب: «بل أنت الكلب». ولا تسل حينذاك عن حالة الضابط الذي نهض عن كرسيه وهرب كالقيل الطالع، وهاجم على عمر حمد المكيال بالحديد، وصفعه ثلاثاً ثم أعاده إلى السجن. قال فائر الحوري الذي روى هذه القصة: «كنا نحب جميعاً تجربة عمر حمد، فإنه لم يكن يبالي بالموت، ويقضي وقته ينظم الأشعار»^(١٦٩).

لقد أظهروا — سواء منهم أفراد القافلة الأولى أو القافلة الثانية — من ضروب الشجاعة ما يميز الشعور وبشر العيشة. فلما بلغوا أحكام إعدامهم لم يعرف الخوف والجزع إلى قلوبهم شيئاً، ولم تبدل هيباتهم، ولم تدمع عيون أحد منهم، ولا علا وجه أحدهم اصفرار، لا بل كانوا يتكلمون

(١٦٦) سلا. خيبر. جورج. حناد، المصدر السابق، ص ٢٨.

(١٦٧) ذكرور سامي الدعان، المصدر السابق، ص ١٥.

(١٦٨) Y.H. DAVUD, Ibid. III, p. 222.

(١٦٩) أنطون يون، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٨ — ٨٩، استناداً إلى مذكرات «فاخر الحوري» و«شاهد العيان» الذي نشر مذكراته في جريدة البعث، وكان قد قضى فترة في سجن عالية موقوفاً.

بعضهم مع بعض وكأنهم في حلقة أدب^(١٧٠). ووقف معظمهم على منصة الإعدام مطرون الحكام الظالمين وأبلا من عبارات التصريح في مواقف عظيمة رائعة الجرأة والبطولة. فقد وقف عبد الكريم الخليل - وهو من القائلة الأولى - أمام المنصة، رابط الجأش، ثابت الجنان، وانطلق بصوته الجمهوري قائلاً: «يا أبناء أمتي وأهل بلادي يريد الأتراك أن يحتنقوا أصوات حريتنا في صلواتنا...، لكننا مستكلم، سنعلن للملأ أننا نريد الاستقلال...، وتسعى إلى الخلاص من نير الترك. أنت يا أرض الوطن احفظي تذكارتنا، وأنت يا معاء بلادي احملني إلى كل سوري، بل إلى كل عربي، سلام هؤلاء الشهداء، ورددي عليهم مأساتنا وكلامنا. لموني لهم أننا عشنا لأجل الاستقلال، وما نحن نموت في سبيل الاستقلال...»، إن الاتحاديين أبوا إلا أن يعلنوا عداوتهم لهذا العنصر الكرم الذي لا يملك من أسره شيئاً. فإذا كان جمال باشا يهتفنا بإضراب الثورة لاستقلال العرب، فلا بد من ضحايا لهذا الاستقلال، ولكن نحن أول هذه الضحايا...^(١٧١). ولم يتركه الجلاء بهم كلامه، بل أسرع إلى وضع الأنشطة في عنقه، ورفس الكرسي من تحت رجله فهوى وفاضته روحه.

بلا جاء دور الشهيد محمد الضمصالي، وهو من المهاجرين في الحقوق من جامعة باريس، تعانق مع أخيه الشهيد محمود طويلاً، وصعد إلى الكرسي في غير تحاذل ولا وجل، وقال: «إني أشهد الله في هذا الموقف الرهيب أن هؤلاء الإخوان الذين يساقون إلى الإعدام أبرياء... أشهد الله أن ما فعلته وما قمت به من الحركات التي اتهمت بها، إنما كان عن اعتقاد ثابت بأنني أخدم بلادي وأنجيها. فإذا كان من يتعشق الحرية ويسعى في سبيل تحرير بلاده مجرمًا فأنا هو ذلك المجرم. لقد أردت الحرية لبلادي، وما كنت لأندم، لا بل أراي مسروراً أن أكون شهيداً في هذا السبيل. إن مراجعنا لتقلى، نحن الذين كانت حضارتنا من ألمع الحضارات التي عرفها التاريخ، من الصغار الذي يهدنا عليه هؤلاء القساء الظالمون، برايرة الأناضول. كفأكم أيها القوم، وحسب العرب ما لاقوه من نير الترك حتى اليوم».

فلما بلغ من كلامه هذا الحد ضربه الجلاء بقبضة يده على فمه فأدماه، ولكنه لم يستطع أن يمنعه من المضي في كلامه صارخاً بأعلى صوته:

(١٧٠) يوسف إبراهيم نزيك، المصدر السابق، ص ١٧٠.

(١٧١) أنطون كين، المصدر السابق، ج ١، ص ٦٩ - ٧٠، أمين سعيد، الثورة العربية، ج ١، ص ٨٥.

« يل حسبنا من الرق مالفينا ، وما علينا من الإعدام ما دامت الفكرة التي نعملها باقية حية لا تتطرق إليها يد الأكام » .

وأراد الكلام بعد ذلك فحال دونه خصام بنه وبين الجلال الذي تمكن من وضع الحبل في عنقه ووفس الكرسي من تحته^(١٧٢) .

أما شهداء القاطلة الثانية فقد قضوا أيامهم الأخيرة في السجن بالنسل بلعب ورق الشدة والمطاول والموبينر ، وبالحدث عما جرى لهم في أثناء الاعتقال ، وما دار في جلسات استمطاقهم . ذلك أن السلطة قد سمحت لهم بالاجتماع بعضهم مع بعض ، بعد أن انتهى التحقيق معهم^(١٧٣) ، وبعد أن كانت لا تسمح لأحد منهم بالاتصال مع الآخر ، ولو بكلمة واحدة ، تحت طائلة إخلال الرصاص عليه ، مثلما حدث لأحدهم « توفيق التطور » الذي اختبر رصاصة الخواص جسمه حينما حاول التحدث إلى أحد رفاقه^(١٧٤) .

كان القسم الأعظم منهم لم يقطعوا أملهم في النجاة ، ولا سيما أن الأتراك في الديوان العرقي ، وخاصة هيئة التحقيق ، كانوا يملكونهم بالخلاص وعدوتهم بالنجاة . إلا أنه قبل إعدامهم يومين سرت في بيروت وجبل لبنان إشاعة ثائرة بها الناس بأن الموقوفين في عاليه سيُعدمون ، فلم يمهض خلاصا للناس جفن ، كل واحد يسأل ويتساءل : من سيعدم ، من سيتقى ، من سيسجن^(١٧٥) ؟ وهكذا إلى أن كان اليوم المشؤوم ، فجر يوم ٦ أيار ١٩٦٦ ، إذ جاء الدهيدان بطرق باب مهجع المعتقلين ويتنادي بصوته الأبحش : عبد الفتحي العرسي ، ألبس ثيابك ، « فنظرنا كلنا - والقول هنا نقائر الحوري - دفعة واحدة إلى عبد الفتحي فإذا هو عالي الجبهة يتسم . إلى رأيته في تلك الساعة أشجع منه في كل المواقف ، رأيته لا تشوبه شائبة الخوف ، ولا تدل أسابره وجهه على الجبانة ، وكانت سنة المذهية تلمع من خلال ابتسامته^(١٧٦) .

ثم يتنادي الدهيدان : عمر حمد ، ألبس ثيابك ، وكان عمر قد أكمل ارتداء لباسه الذي بدأه

(١٧٢) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص ٥١ ، عمر الدوير لله ، مضلة الشرق ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(١٧٣) أنطون كين ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٨ .

(١٧٤) مذكرات أحمد قنري ، ص ٥٦ - ٥٣ .

(١٧٥) يوسف ابراهيم بزيك ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، ١٦٦ .

(١٧٦) المصدر السابق ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ، نقلاً من مذكرات فائق الحوري .

بما تودى باسم عيد الغفران، لعلهم أن مصيره مقرون بمصير صديقه، ويخرج وهو يتشد: نحن أبناء الألى شادوا مجداً ومُحلاً... « ولم يكن بين الشهداء أشجع منه »^(١٧٧). ولم يشأ رفيق رزق سلوم أن يقادر السجن إلا بعد أن عاتق جميع من كانوا فيه من رفاقه، وهكذا تودى على المعتقلين وهددهم عشرون، واحداً بعد آخر، ثم توجه الديدبان إلى بقية المساجين قائلاً « الآن يمكنكم أن تناموا. تم تُسم المعتقلين إلى اثنين ثلاثة عشر سيقوا في جنتح الظلام بالسيارات إلى بيروت، وسبعة بالقطار إلى دمشق. أما محافظ السويد نائبه يافا فقد استبدل السجن المؤبد بحكم الإعدام الذي صدر بحقه نظراً لثبوت كذبه. ولما وصل المرسلون إلى دمشق، وضعوا في دائرة الشرطة، ثم قُدموا واحداً بعد آخر إلى المشانق، فقدموا إليها برباطة جأش نادرة المثال، وفي مقدمتهم شفيق المؤبد العظيم، وهو أكبرهم سناً، فألقى كلمة بليغة مختصرة نوه فيها عن موته في سبيل الغاية الشريفة التي يسعى أحرار العرب إلى تحقيقها، والاصلاح الأساسي الذي كانوا يشهدونه للبلاد العربية، وختمها بقراءة الفاتحة. وتكلم رشدي الشمعة مندداً بالدولة وختم كلامه بالآية الكرسي ﴿ ولا تحسبن الله يقاتل عما يعمل الظالمون ﴾. فقال الأمير عمر الجزائري « إن مقتل ابن الأمير سيحود على الدولة بالوهاب » وقال شكري العسلي « إن الله بالمرصاد، وستنقم من الكفرة الظالمين »^(١٧٨).

أما الذين سيقوا إلى بيروت فإنهم ظلوا يتشدون الأناشيد الوطنية الحماسية طويلاً الطريق. ولما وصلوا إلى المدينة، وضعوا في غرفة واحدة جميعهم، فجمعهم عمر حمد حوله، وأخذوا يرددون بصوت جهوري عال، وهم يزرعون الغرفة ذهاباً وإياباً « نحن أبناء الألى، شادوا مجداً ومُحلاً، نمل قحطان الألي، جد كل العرب ». ثم أحضر الطبيب لفحص أجسامهم فقتض « بآثرهاولي »، وصرخ بالموظفين الترك قائلاً « عجلوا بتنفيذ حكمكم، وخلصونا من وجوهكم القبيحة. كان الأولى بكم، بدلاً من أن تفحصوا أجساماً بندق، أن تحاكمونا بعدل...، نأكلوا أننا لا نخاف الموت ولا نهاب المشقة، خلصونا عجلوا ». ونحى مسرعاً إلى المشقة وصعد إليها، ووضع الحيلة في عتقه بنفسه، ورفض الكرسي برجله^(١٧٩).

ولما جاء دور عمر حمد أخذ يتقدم إلى المشقة وهو يتشد ثلاثة أبيات حماسية من الشعر نظمها قبل قليل، ثم وقف على المنصة وأخاطب رضا باشا ومدير البوليس باللغة الفرنسية إلى

(١٧٧) المصدر السابق، ص ١٥٩، من قشاهد نفسه.

(١٧٨) مجلة المغرب للعالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٥٣-٥٤.

(١٧٩) الأطول عين، المصدر السابق، ج ١، ص ٧٦-٧٩.

أخطأ بكما باللغة الفرنسية لأنكما لا تعرفان العربية^(١٨٠). بلقا حكومتكما التركية الظالمة أن العمل الذي يقوم به رجالها الآن سيكون سيئاً لحرابها وتقويض أركانها». ثم التفت إلى الحاضرين وقال باللغة العربية: «إني أموت غير خائف ولا وجل، أموت فداء الأمة العربية، تخفيفاً باهلال وشئت بذلك يا جمال، فليسقط الأتراك الخونة، وليحبنا العرب». ولما وصل إلى هذه الكلمة انهمز المضابط المشرف على عملية الإعدام منه، ورفض الكرسي من تحته، ولم يكن الحبل قد وضع في عنقه، فهوى إلى الأرض بين سحي وميت فبادر المضابط إلى رفعه بسيفه، ثم رفعه إلى المنصة وعلقوه برغم الدم الذي أخذ يسيل من جرح بليغ في رأسه. قالت عتيدة الغني عند ذلك، وكان قد أخذ مكانه على المنصة المجاورة إلى مأموري الحكومة وقال لهم: «عار عليكم أن تعذبوا المحكوم عليه إلى هذه الدرجة. إن الإنسانية ستتقم منكم على هذه الأعمال». وعندما حاول الشرطي أن يسرع في وضع الحيلة في عنقه التفت إليه وقال بالهتزاز:

«دعنا نتكلم يا هذا، واحترم زيادة وجل يموت». ونفر منه عندما أراد تكرار العملية، والتفت إلى الناس، وقال بصوته الجمهوري:

«بلعوا جمال باشا أن المشفى قريب، وأن أبناء الرجال الذين قُتلوا اليوم سيقطعون في المستقبل بسيفهم أعناق الشرك. إن الدولة لا تبنى على غير الجماع، وإن جماعتنا ستكون أساساً لاستقلال بلادنا».

وهكذا إلى أن بلغ مجموع من رفضوا على الأعداء عشرة شهداء. فلما شاهد توفيق البساط ذلك المشهد المؤثر تجسست فيه روح الشجاعة والبطولة، وصاح بصوت جمهوري غاطباً تلك الآلة:

«مرحباً بأرجوحة الشرف، مرحباً بأرجوحة الأبطال، مرحباً بالعمد التي تستند إليها الشعوب في استقلالها، مرحباً بالموت في سبيل الوطن الحراً، وكان في أثناء كلامه يسر إلى المشتقة بسرعة الطور. وما أنجز كلامه حتى كان قد اعتلى المنصة، فوضع يده الحيلة في عنقه، وبسرعة البرق رفض الكرسي برجله وفاضت روحه إلى جانب رفاهة^(١٨١).

(١٨٠) أمين سعيد، الثورة العربية، ج ١، ص ٨٨.

(١٨١) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٥٦—٥٧، أنطون زين، المصدر السابق، ج ١، ص ٨١—٨٢.

أما الضابطان سليم الجزائري وأمين لطفي الحافظ فكان دورهما آخر الجميع ، وكانا من كبار ضباط الجيش ومن لركان حربه ، فقدم أمين لطفي من رضا باشا ، المشرف على عملية الإعدام قاتلاً ، ليقل لنا الديوان العرقي ، على الأقل ، كيف حكم علينا بالإعدام ، كيف لم يستنطقونا ولم يسمعنا كلامنا ؟ أهنا هو جزاء خدمتنا الدولة ؟ ، فقال له رضا باشا : «إني أعتبر الآن القيادة العليا للعفو عنكما ، ثم طلب جمال باشا قليل له إنه متغيب ، وإن فخري باشا لوجده في القيادة . فاقبل به وطالت المخابرة بدون جدوى لأن كلمة «أولئذا» (لا يمكن) هي التي كانت ترد في بوق الهاتف . ولما حاول الجزائري إقناع فخري باشا ببراءتهما ، تلقى الجواب نفسه فضرب السماعرة في الأرض فكسرها . ثم مشى مع رفيقه إلى المشقة بشاهبا العسكرية ، ولما أراد الشرطي أن يتزع فبهيمهما وشاراهما العسكرية رفضاً ، فتركت على حالها ، وحينما صعد سليم الجزائري — بعد أن صافحه رضا باشا وعاد إلى مكانه ليشهد إعدامه بصفتة الرسمية — نظر إلى الحاضرين ، وكانت أنوار النهار قد انشربت على بيروت ، وقال مرجعها كلامه إلى رضا باشا :

« قل لهذا السافل جمال أن لا يفرح بموتي ، فإن روحي ستظل حية وستعظم أبناء بلادي من وراء القبر درس الوطنية الحرة وتُحصى الأثرى » . وعندما حاول الشرطي نزع نظارته عن عينه مانع قائلاً : « أعدمني على حالتي كما عشت لأني لا أريد أن أموت وفي شيء ناقص » .

ولما صعد أمين لطفي الحافظ إلى المنصة كان وجهه يطفح بالأجسام المزوج بالتهكم ، مردداً الشتات هازئاً بالدولة التركية . وعندما أزيك الشرطي في وضع الحيلة في عنقه ، انفتت إليه وقال له سائراً : « ألم تتعلم طريقة الإعدام حسب الأصول بأرجل ؟ » ضغ الحيلة في عنقي بغر ولطافة على الأقل جزاء خدماتي للدولة . وحينما لم يحسن الشرطي وضع الحيلة أخذها منه ووضعها هو بنفسه في عنقه ، لكن الكرسي وفتت قبل أن يملكها من جوزة اللعق للهوى وظل يتعذب ما يقارب من عشر دقائق قبل أن يفيض روحه^(١٨٢) .

إلى جانب أحكام الإعدام الوجاهية التي نفذت فعلاً ، كان ثمة أحكام غيبية كثيرة بحق رجالات البلاد المسلمين والمسيحيين المقيمين في الخارج أمثال رفيع العظم ، حتمي المعظم ، رشيد رضا ، عزيز المصري ، شكري غانم ، عزت العابد ، داود مركات ، فارس عمر ، شبلي فجيل ، خليل مطران ، نجيب هازوزي .. وكثير غيرهم ممن لم تأت أية وثيقة من الوثائق الثبوتية على ذكرهم . وذلك

(١٨٢) أمين سعيد ، الثورة العربية ، ج ١ ، ص ٩١ — ٩٢ ، أنطون مهن ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٢ — ٨٤ .

بالإضافة إلى أحكام أخرى أمخف كالخكم بالسجن المؤبد والمؤقت والتفني . وقد قال جمال إن مجموع عدد المحكوم عليهم بلغ مئتي شخص^(١٨٦) . وكان لأكثر من نصفهم حكم الإعدام .

ولم يكف جمال باشا بذلك ، بل أخذ في نفي عائلات الشهداء بأجمعهم ، نساء وشيوخاً وشباناً وأطفالاً إلى الأناضول ، وبينها أشهر عائلات سورية مثل عائلات آل المؤبد العظم ، والأمير عبد القادر الجزائري ، وآل الكيلاني ، والشعبي ، والعسلي ، وعبد الهادي ، والحسيني ، والمطران ، وحيدر ، ولطيط ... وكثير غيرهم . كما نفي الأتراك إلى الأناضول عائلات عراقية كثيرة من مسلمين ومسيحيين ويهود ، وبينهم آل الألوسي ، والكيلاني ، والسويدي وغيرها ... وكان الأتراك يصطرون هذه العائلات ميوتاً من بيوت الأتراك الذين أخذوا في إفتالهم بالقتل أو النفي إلى سورية ، ويستولون على ميوتهم وأملأهم ، ويأخذونها للأتراك بأعس الأثمان ، أو يخلصونها للمهاجرين العرب . وقد جردت الحكومة التركية خمسة طوابير على منطقة اللجاة (في جنوبي سورية) ، بقيادة فخري باشا وبرقته ضابط ألماني كبير ، وغارت بأهلها ، وقبضت على كثير من العائلات ونقلتها برمتها إلى قضاء الزتون ، وهي من مواطن الأتراك في ديار بكر ، بعد أن قتلت أهلها ، وإلى غيرها من مناطق الأناضول ، وسلمت أراضي للجبلة للكرد والشركس والترك القادمين إلى سورية^(١٨٧) .

كان قصد الحكومة ، من إبعاد العائلات السورية العربية العريقة ، إخلاء سورية منها وتتركها وإفقاد سورية طابعها العربي ، وإضعاف العصبة العربية فيها ، لكي يسهل دمجها في الطورانية^(١٨٨) ، حيث أخذت فكرة التترك تقوى في أذهان الاتحاديين بعد دخولهم الحرب ، فأخذوا في جلب المعلنات التركيات من الآستانة إلى دمشق وبيروت لهذه الغاية . وكان على رأسهن الأدبية المعروفة خالدة لمدي التي عهد إليها بإدارة دار المعلنات في بيروت ، كما أرسلت كتبرات من المعلنات العربيات إلى الآستانة والمدين التركية الأخرى بقصد تتركهن^(١٨٩) . وقد بلغ مجموع عدد العائلات السورية التي نفيت إلى مختلف مدن الأناضول ما يزيد عن ٣٠٠ / عائلة^(١٩٠) . وقد أشغل جمال من انفي سياسة مرسومة بحيث أمتس في دمشق وحلب وبيروت والقدس وغيرها من البلاد العربية

(١٨٣) لهضحات ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(١٨٤) لفر النصارى ، للظالم ... ، ص ١٥٦ كولفس قاضي ، المصدر السابق ، ص ٥١ .

(١٨٥) أنور الجندى ، ريد القومية العربية ، ص ٩٧ .

(١٨٦) محمد جميل بيم ، للحرب والترك ... ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(١٨٧) أنور الجندى ، المصدر السابق ، ص ٩٢ ، دكترة بديع شريف ، وأحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق ،

ص ١١١ . ولقد قدر الأمم شكيب أرسلان عدد نفوس هذه العائلات بأكثر من ثلاثة آلاف نسمة .

ما سمعنا ومدينة المهاجرة^١ رعى من إيجادها إلى استبدال الأهالي السوريين بنفوسهم من الجنسيات الأخرى كالآرمن والأكراد والجرمانيين، وعين هذه المدينة في دمشق رجلاً متعصباً لطورانيته ذميماً هو دنوري بك^٢ المعروف بكونه من كبار الجواسيس. كما عثر في حلب رجلاً آخر لا يقل عنه تعصباً هو أحمد أيوب بك^٣ وقد واصلنا مع الموظفين الأتراك الذين وضعوا في معيقتنا، العمل ليلاً ونهاراً لتجهيز العائلات السورية. وكان من جملة مخططاتهم الضغط على الملاك السوريين — بإذكاء أزمة القمح والخبز لتجوعهم — كي يُرغمهم على بيع أملاكهم بأبخس الأثمان، بحيث يكون الترك هم الذين يادرون إلى شرائها^٤.

وعندما قاتع الشريف على حيدر جمال باشا بشأن تهجير عائلات الشهداء وسوء المعاملة التي يمارسون بها قاتلاً له وإذا كان فرد من أفراد العائلة قد أخطأ فملاحم يؤخذ جميع أفراد عائلته بجرمته وما هو الوزر الذي ارتكبه؟ أجابه الباشا بقوله: «في رأي أن العدل يقضي بذلك»، فإذا ما ارتكب رب العائلة عملاً فيه نسياناً للنبوة، حيث لا يكون عين العدل أن يتحمل جرمته جميع هؤلاء الذين ينتمون إلى أسرته^٥.

هذه السياسة أسخطت العرب وعمقت عوامل الحقد في قلوبهم على الترك، بفعل الآسي التي تعرضوا لها، من مجاعة وشكاليب حرية ومكثفة عسكرية وإرهاب، فأصبحت الكتابة مطبوعة على وجه كل فرد من السوريين، ولم يعد ثمة من وجه ضاحك ولا ثغر مبتسم، بل كان كل فرد منهم، مسيحيين ومسلمين، يدعون الله أثناء الليل وأطراف النهار أن يتخذهم من هذا المصير القائم^٦. وقد بلغ الاستياء في سورية مبلغاً أخذ يتدرج بشر مستطير، لم تكن حكومة الأستانة خشيتها وجزعها من سوء نتائجه، فاضطرت إلى إرسال لجنة من أعضاء المركز القومي لجمعية الاتحاد والترقي، مؤلفة من الدكتور ناظم بك^٧ وبهاء الدين شاكر وغيرها لدراسة الحالة في سورية عن كثب، فقدمت تقريرها الذي جاء فيه أن جمال باشا يتصرف في سورية تصرفاً لا يأتي بمثله إلا من يعد نفسه ملكاً مطلقاً عليها. ذلك أنه، حتى ولو بقرض كونه محمداً في سياسته، قد زرع الرعب في قلوب الرعايا الخائفين نظراً لسياسة العنف والقهر والإرهاب التي يمارسها في سورية، مما جعله في نظر الناس كفرعون مصر، أو حمود الرافدين، أو كسرى إيران^٨.

(١٨٨) غازي القصين، النظام، ص ٦٢.

(١٨٩) C. STITT, Ibid. p. 167؛ استناداً إلى مذكرات الشريف المذكور.

(١٩٠) غازي القصين، النظام، ص ٦٣.

VARDA, Ibid. p. 305. (١٩١)

في الواقع أصبح جمال حاكماً بأمرة ، وسلطاناً غير منوح لسورية ، لكنه سلطان مصعد ومطامحة غشوع ، اضطلع به جميع الطبقات ، وعم ظلمه جميع الناس ، فكانت سياسته هذه من العوامل التي عطلت في قيام الثورة العربية^(١٢٢) . ذلك أن القوميين العرب من أعضاء جمعية « العربية الفتاة » أخذوا يستغلون هذا الاستياء لإثارة النفوس والتمهيد للألكنار الثورية . قال المذكور أحمد قنري :

« وقد كان لهذه المآسي القاسية ، والسياسة المطامحة التي لجأ إليها جمال باشا دوراً وأى دوراً في العالم العربي ، إذ ثارت الحواطر واضطربت الأفكار ، وأدرك العرب أنهم تلقاء سياسة جائرة ترمي إلى القضاء على جميع أمانهم ، والنصف بهم لإلغيات صوبهم .

ولما كان للقضاء إهداماً على أمثال هؤلاء الشهداء الذي يمثلون صفوة الشباب العرب ونخبهم ، ومنهم من ينتمي إلى جبهة أمثال محمد الحمصاني ومحمود الحمصاني وصالح حيدر ، ولما كان هذا الحكم قد أظهر للنيات التركية نحو العرب ، فقد قوت الجمعية القيام بدعاية واسعة للتطابق لإحلال العالم العربي على حقيقة نيات الاتحاديين ، فسمينا جهدياً ، وبكل ما أوتينا من حول وقوة لتحقيق هذه الغاية^(١٢٣) . وهكذا إلى أن نجاب الشريف حسين مع هذا المسخط العظمي والنفوس المثارة ، ووافق هوى في نفسه واتفاقاً مع مصالحه ومطامحه ، فانبثق عن كل ذلك ثورة عارمة ستكون القاضية على الإهاب والمطامح .

والرغم من قيام الثورة العربية ، ومعرفة أنور وطلعت مقدار ما كان لجمال من يد طولى في إضرامها بسياسة الخرقاء ، لم يستطعا سحبه من دمشق إلا في آخر سنة من سني الحرب ، ذلك أنه كان يقف من الوزارة موقف الإهلاء والتحكم ، بل التحدي ، فلم يجد وسيلة لاستدعائه إلا بالخدمة فاتحاً من إمبراطور ألمانيا استدعاه إلى برلين للمشاورة ، ولم يكذب بلادر البلاد حتى نزعوا منه صلاحياته^(١٢٤) ، تمهيداً لعزله ، وهذا هو الذي حدث كما سيأتي معنا في سياق البحث .

(١٢٢) لورنس ، أحمدة لمكة السبعة ، ص ٣٥ .

(١٢٣) مفكرات أحمد قنري ، ص ٤٤ .

(١٢٤) محمد حزة حريوة ، المصير السابق ، ج ١ ، ص ٤٣ .

علاقة الشريف حسين بالترك وأثرها في الانفصال

قبل إيضاح علاقة الشريف حسين بالأتراك الاتحاديين ، لا بد لي من إعطاء نظرة عن علاقة الحجاز وشرافة مكة بتاج السلطنة العثمانية ، بعد الرجوع إلى نيضة من تاريخ هذه الشرافة .

عندما ضعفت الخلافة الإسلامية في بغداد ، كان رئيس عائلة الشرفاء في مكة محمد العلوي ، الذي ينحدر من سلالة الحسن بن علي حفيد الرسول ﷺ ، يتمتع بنفوذ وسلطان فريون فيها ، فاستطاع الحصول على استقلال بلده ، ضمن شروط اقتضت ظروف تلك الأيام تعديدها . وهي تتضمن بعض مهام الخلافة التي أصبحت هزلة ، وكان ذلك في عام ١٠٣٧ م . وعندما تم الفتح العثماني لسورية عام ١٥١٦ ، أرسل الشريف يركات أمير مكة آنذاك ابنه «أباغي» وبمعه مقاتليه الكعبة إلى السلطان سليم ، عنواناً لانضمام الحجاز تحت سلطانه . غير أن سلطة العثمانيين في الحجاز لم تمتد كونها سلطة إسمية ، بحيث بقيت السلطة الفعلية في يد الشريف الأكبر (الأمير) . أما ولاة الإمارة فقد كانت تسير وفقاً لمبدأ انتخالي معين بين بيده ، ولكن نظراً لامتداد عائلة الأمير ، كان من الضروري تعديل هذا المبدأ بحيث صار الأمير يعين واحداً من أولاده خلفاً له ، وكان على الحقيقة أن يتبلوا بذلك بصورة عامة^(١) .

ظل الأمر كذلك ، يحكم الحجاز شرفاء من أسرة تعرف باسم «فوي زيد» إلى عام ١٨١٦ ، حيث كان على رأس الإمارة الشريف شديد القوة والنفوذ هو «الشريف غالب» ، الذي عثماني بأبيه

(١) G. STITT, Ibid. pp. 15-17.

كل من السلطان العثماني محمود الثاني، ووالي مصر محمد علي باشا، الذي احتل الحجاز بأمر السلطان لإخضاع الحركة الوهابية. غير أن محمد علي قد تمكن بالدميسة والحيلة من إلقاء القبض عليه مع أفراد عائلته، وأرسلهم إلى الآستانة حيث دُس لهم السم بأمر من السلطان، وقضوا نحيبهم في سلاحيك^(١). ثم عُين أخاه سرور بن يحيى شريعاً مكانه. إنما لم يستقر عزم محمد علي على اعتماد شريف معين واحد، بل كانت سياسته تتمثل في تشجيع استمرار الخلافات العائلية بين الأشراف لتوطيد نفوذه، حتى إذا انسحب الجيش المصري من الحجاز تمكن الشريف محمد بن عبد المعين بن عون، من أسرة «عون» التي قوّى نفوذها، بعد الانسحاب المصري، من تسلم سدة الشرافة^(٢)، وهو ينتمي إلى أصغر فرع من آل الرسول وهكذا انتقلت الإمارة من أسرة «ذوي زهد» إلى الأسرة الجديدة التي دعمت باسم أسرة «ذوي عون»، باسم أول أمير لها^(٣)، وكان الشريف حسين بن علي من هذه الأسرة^(٤).

منذئذ بدأ نفوذ الترك وقوتهم بالنمو في الحجاز، وشيئاً فشيئاً أصبح تعيين أمير مكة من صلاحية واختصاص السلطان العثماني بيمينه باختياره، بعد أن كان بالوراثة. وبعد موجات من الدعائس والمؤامرات والثورات تقلبت فيها الإمارة بين هاتين الأسرتين (ذوي زهد وذوي عون)، استقرت أخيراً في يد الشريف «عون الرقيق» من أسرة «ذوي عون» ١٨٨٢. غير أن الشريف حسين — الذي كان هو وشريفان عبد الله وعلي وهما من أسرته، من جملة الذين حاربوا الأمير السابق الشريف «عبد المطلب» بن غالب والذي كثرت مفااسده من أسرة «ذوي زهد» حتى تمكنوا من دفع السلطان إلى خلعهم — بدأ يثير الغبار حول سياسة الظلم والاعتساف التي اختطها الأمير الجديد، لكن السلطان عبد الحميد باهر إلى استشهائه إلى الآستانة بسعي من الأمير «عون الرقيق» الذي أراد التخلص من معارضة. فأقام فيها على جبر وإكراه، وعين عضواً في مجلس شوري الدولة،

(٢) Ibid. pp. 24-25.

(٣) د. عبد الكريم غرابية: مقدمة تاريخ العرب الحديث — مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠، ص ٣٢٢.

(٤) O. STITT. Ibid. pp. 26-28.

(٥) ولد الحسين بن علي بن عون في الآستانة عام ١٨٥٣. ولما اختلف مع عمه الشريف «عون الرقيق» من محمد استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الآستانة ومعه عضواً في مجلس شوري الدولة. يقول ابنه الأمير عبد الله في مذكراته أن هذا الاستدعاء إلى العاصمة وهذا التحعين كانا عبارة عن نفي من الحجاز تقادماً لمعارضة الحسين القوة للشريف فقام على لمرور مكة. (عبد الكريم غرابية: المصدر السابق: ص ٣٢٣).

وهبت له دار مفروشة على ساحل البوسفور فيها^(٦٦)، فأنصرف إلى تنشئة أولاده وتعليمهم، على أيدي معلمين خواص^(٦٧)، علوم اللغتين العربية والتركية، والعلوم العسكرية.

ولما حدثت ثورة ١٩٠٨ الدستورية، عزل الشريف «علي» خليفة «عون الرفيق» من الإمارة مع من عزل من خواص السلطان عبد الحميد، وولي مكانه الشريف «عبد الآله» الذي وافقه المثية قبل استلام منصبه. عندئذ سعى الشريف حسين في تعيين مكانه باعتباره الأحق منا يتوليا، وقدم طلباً إلى السلطان بواسطة الصدر الأعظم كامل باشا^(٦٨). ويقال إن السلطان عبد الحميد قد تردد عند توقيع الإرادة السنية التي عرضت عليه بداعي أن الحسين لا يكتفي بالإمارة، بل إنه يطمع بأكثر منها، وأبدى تخوفه من أن يخرج الأمير الجديد الحجاز من أيدي الترك^(٦٩). وقد يكون مبحث هذه الرواية ما عرف من طموحه العظيم وما تجلّ فيما بعد في سعيه الخفي لتحقيق ذلك الحلم الميعد في تكوين الدولة العربية الكبرى^(٧٠).

وبعد أن ودع السلطان الذي وضع وسام الافتخار المرصع بيده على صدره، غادر الحسين القصر إلى الباعرة، حيث وافاه الصدر الأعظم كامل باشا، وسلمه مذكرة جاء فيها «... إن الخطوة الحجازية المباركة مربوطة رأساً بمقام الخلافة العظمى، وإنه لا يسري عليها، بمناسبة إعلان الدستور الجديد، ما يخالف الحقوق المقدسة، القائمة بين الإمارة الشريفة والسدة السلطانية السنية. وبحسب أساس التعامل القديم، وبحسب شرائط الإمارة، أمرنا المشار إليه (الحسين) أن يستقبل الحجاج... من سائر ممالكنا الشاهانية، ويوصلهم إلى مكة المكرمة سالمين آمنين، وبعد أدائهم مناسك الحج الشريف على الوجه اللائق أيضاً بشيخهم ويستكمل أسباب عزيمتهم بكل اعتناء ودفعة إلى الشام، وأن يكون المتأخر على توزيع وتقسيم النصبة الهاشمية^(٧١)، المرسلة من طرف سلطنتنا السنية إلى أربابها بواسطة المؤمنين بموجب الشفاعة الموجودة^(٧٢)... وأن يتم في توفيق الأمور

(٦٥) حسين بن محمد نصيف، داخلي الحجاز وسفرو، ص ٤، أمين قرطبي، ملوك العرب، ج ١، ص ٦٣.

(٦٦) عيوض القزويني، غزواتهم وأكابرهم.

(٦٧) مذكرات عبد القادر الحسين، ص ١٧-١٩.

(٦٨) محمد طاهر قهصري، تاريخ مقتدرات العراق السياسية، ج ١، ص ١٧٧.

(٦٩) حسين نصيف، المصدر السابق، ص ٦.

(٧٠) مبلغ من المال يُمنح سنوياً للحجاز يصفى أرض الإسلام المقدسة.

(٧١) حسين بن نصيف، المصدر السابق، ص ١٥-١٦ مذكرات الأمير عبد الله، ص ٢٧-٢٨.

والمصالح الواقعة والجارية بالعدل والحقانية متحداً مع ... وإلى الحجاز ... وأن تكون حركته دائماً وفق الشريعة القديمة ...^(١١).

وبنما يرون الأمر عبد الله بن الحسين أن الخلاف على اتباع المسبيل الدستورية في حكم الإمارة أو عدمه قد شجر بين أبيه وبين ممثلي الباب العالي في الحجاز ، وبالتالي بينه وبين الأستانة ، مثل أول يوم لقدمه — مما دعا ممثلي الباب العالي أن يكتبوا إلى مرجعهم يقولون «بعث عبد الحميد برجل جالس على مقام أسلافه لا يعبأ بأحد ، ولا يقر بدستور ولا بتجديد»^(١٢) ، أي أنه لا يعترف بشيء سوى «دستور بلاد الله وشريعة الله وسنة نبيه»^(١٣) — نرى أن والده لا يتأخر ، من جهة أخرى ، عن تلبية ما كان الاتحاديون يكتفون به من مهام حربية ولو فيها قتال لأبناء قومه من رؤساء العرب . من هذا القبيل الحملة التي كُلف بتجديدها لقتال الأمر عبد العزيز آل سعود في ربيع ١٩٠٩ ، إذ بلغ الدولة أنه يمرض العرب على الثورة وعدم دفع الضرائب^(١٤) . ومنها أيضاً الحملة التي كلفه بتسييرها في شهر أيار ١٩١١ لقتال أمير العسير ، محمد علي بن أحمد الإدريسي ، الناظر على الدولة . فقام بما كلف به خير قيام هو وأولاده ، وعدم الدولة خدمة كبرى ، وأُنقل مدينة «أبها» من أيدي ثوار العسير بعد أن دخلوها عنوة . لكن جميع الدلائل كانت تشير إلى أنه لم يستجب إلى هذا التكليف إلا لتفوه نفوذه ، وتوسيع حدوده ، وخاصة في العسير التي ما إن أنقل عاصمتها حتى بدأ في استغلال تصواره ، ولو على حساب الدولة العثمانية ، والاستظهار بجندها الذي يرافقه حمله ، مما أثار ارتياح سليمان شفيق باشا متصرف «أبها» وقائدها العسكري ، فاشتجر معه ، ورفع المتصرف أمره إلى الباب العالي ، مبيناً أنه لا يقل عن الإدريسي خطورة ، بل هو «إدريسي مجهز بالتباعد والمقاومة»^(١٥).

كانت للدولة تعين ، إلى جانب أمير مكة ، والياً توكل إليه أمور الجيش النظامي والحاكم والأمور

(١١) مذكرات الأمر عبد الله ، ص ٣٥.

(١٢) جريدة الأهرام ، العدد ٩٤٢٨ ، ١٩٠٩/٣/١٨ ، والعدد ٩٤٣٠ ، ١٩٠٩/٣/٢٤ ، فنكسر محمد عبد الله ماضي : المظاهرات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ١١٧.

(١٣) «... وقد يكون هنا صحيحاً ، إذ لا يُستغرب أن يكون الحسين ... وقد عرف هذه اعزازه بنفسه قد أجاب متشدق قبان الترك المنزوعين ، حين جاءوا للسلام عليه مرحبين ، محاملين إياه بدم الأمور الدستوري ، بما يكرههم ضد الاهتمام بأعنائهم ، بترك الحجاز على ما كان عليه يسو لي سبيل «تعزيز شريعة القبول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

(١٤) الأهرام ، العدد ١٠٠٧٧ ، ١٩١١/٥/٨ ، كمال : العرب والترك ... ، ص ٢٢٩ — ٢٣١.

(١٥) علي مؤيد : المصدر السابق ، ص ٧٨.

الخالية، وسائر ما يتصل بالمصالح النظامية للدولة، مع مراعاة الامتيازات المنوحة لولاية الحجاز، مثل الإغفاء من الضرائب ومن خدمة العلم^(١٢٢)، وكان مقره بجانب الحرم الشريف. أما الشريف فآلية شؤون الحج وأسر البدو، بحيث يكون صاحب الكلمة العليا في تصرف شؤونهم، ورجعهم الأهلى وصلة الوصل بينهم وبين الدولة وما إلى ذلك. ولكن نفوذ الشريف ومهامه كانت تنمو وتوسع، أو تضعف وتقلص بحسب ضعف الوالى أو قوته^(١٢٣)، وبحسب كثرة الموظفين الحجازيين الموالين له في دوائر الحكومة. وإذا عرفنا أن منصب إمارة مكة من المناصب الكبيرة في الدولة، وهألى صاحبه في الترتيب يعد الصدر الأعظم وخديوي مصر، وفيلد — علاوة على الإمارة — منصب الوزارة ليعلو بذلك مقامه، أدركنا إذن أنه لم يكن ثمرة بد من ازدواج السلطة في الحجاز، ومن تصادم القوتين، قوة الوالى وقوة الأمير، في حال عدم وضوح أحدهما لسيطرة الآخر. لذلك ونظراً لما عرف عن الحسين من قوة الشجاعة العربية وشدة الطموح وصلابة الرأي وقوة المراس، كان على الاتحاديين أن يتركوا مقدر المناصب التي وجب عليهم أن يواجهوها من توليته إمارة مكة. ذلك أنه أعد في مشاكسة الولاة والاستبداد بكل الأمور دونهم، حتى إنه منع الأهالي من التقاضي في قليل أو كثير إلا لديه، سواء في ذلك الأحوال الشخصية، أو الأمور المدنية^(١٢٤)، ووقف دون محاولاتهم التدخل في شؤون الحجاز الداخلية، كمنحاولة فرض تعيين النواب لمجلس الميخنة، بحسب مشيئة جمعية الاتحاد والترقي، أو التدخل في مسائل الحج وقهرها. وفريق ذلك كان يفرض على الدولة — بنفوذ الانتخابي طبعاً — أولاده نواباً في المجلس المذكور، بحيث كان الأمير فيحصل نائباً عن جنة وعبد الله نائباً عن مكة. وكثيراً ما كان الاتحاديين ينزلون عند مشيئته، ويقفون عاجزين أمام صلايته وهنائه وقهظهم نفوذه يوماً بعد يوم، بعد أن بقسوا من إيجاد وسيلة لهرله^(١٢٥)، مما جعل وظيفة رجال الحكومة في الحجاز — من عسكريين ومدنيين — مقصورة في الغالب على مراقبة أعماله وتقديم تقاريرهم إلى الآستانة عن كل عمل وكل حركة من أعماله وحركاته. لذلك، وبعد أن وردتهم التقارير من مكة بتودي الحفاة فيها، فكروا في أواخر عام ١٩١٣ جدياً بهزله^(١٢٦)، وتعيين الشريف علي حيدر، حفيد

(١٢٢) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٧٧.

(١٢٣) فقد تعاقب على ولاية الحجاز في مدة خمس سنوات، بدءاً من عوني الحسين وإدارها، ثمانية ولاة كانوا يُعزلون منها. إما بمساعده أو لمجزهم عن الإدارة بسبب وجوه على رأس الإشارة (Y.H. HAYUR, *ibid.* III, p. 236).

(١٢٤) حسين نصيف: المصدر السابق، ص ٧ — ١٨ مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٦٢.

(١٢٥) محمد ظاهر المصري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٧.

(١٢٦) G. STITT, *ibid.* p. 143.

الأمر عبد المطلب من أسرة «ذوي نهد» مكانه، بعد أن كانوا قد فصلوا المدينة المنورة عن ولاية مكة، وجعلوها ولاية مستقلة تابعة رأساً لوزارة الداخلية، يدعي أنها مرتبطة بالآستانة بخطوط تلغرافية وسكة حديدية، مما يسهل اتصالها بالآستانة، بدلاً من الرجوع في هذا الاتصال إلى مكة التي لا تتوفر فيها هذه الشروط^(١٩)، وعقدوا العزم على تمديد السكة الحديدية من المدينة إلى مكة، بهدف السيطرة على مكة وعلى أمورها بإرسال الجند إليها من أهون السبل.

لقد أخذ طلعت ورجال الحكومة يتناقشون في أمر حوله، وكان من رأي الصدر الأعظم سعيد حليم باشا أن الوقت غير ملائم لذلك، باعتبار أنه سيثير تعقيدات ومشاكل من شأنها أن تؤثر على الدولة من وجهة علاقاتها مع الدول الأجنبية، وبين عزمه على إرسال أحد خاصته بنصحته ويحذره ويهجمه المآخذ التي تأخذها عليه الحكومة. ولما لم تتمر هذه النصائح، صمم أنور باشا على اتخاذ الإجراء اللازم، وأعد العدة لتسيير فرقة عسكرية، عن طريق البحر، تنزل في الحجاز وتعمل على خلع الشريف حسين من الإمارة. لكن الوزير جوروك صولي محمود باشا وزير الأشغال العامة، والصدر الأعظم وفقاً دون إجازة هذا المشروع، وأبدى الصدر وجهة نظره بقوله إن تركيا عقدت مع فرنسا قرضاً يبلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون ليرة ذهبية، فإذا سمحت بهذا الأمر سرعان ما تعتقد أن الدولة مقبلة على حرب ختنت عن إعطاء القرض، وأشار جازيل المسألة إلى ما بعد استلامه، فأبدى أكتيه الوزراء هذا الرأي، وامتنعوا آخرون مهدين قلقهم من كون الحسين سيجلب الفجار للسلطنة^(٢٠).

إلا أن هذا لم يمنع أنور باشا من حربة التصرف في أوائل عام ١٩١٤، إذ استصدر لإرادة منية بتعيين الزعيم العسكري وهيب بك والياً على الحجاز وقائداً عاماً لقطعات الجيش فيها. وقد زوده بتعليمات سرية للقضاء على كل ما للشريف من نفوذ وصلاحيات، وتطبيق قانون الولايات الجديد على الحجاز — شأنه كشأن بقية الولايات — وإبطال العرف المتأضي بإعفاء أبناءه من الضرائب وخدمة العلم، وأمدّه بفرقة عسكرية لتقبل مهمته^(٢١)، علماً بأن وهيب بك كان ممن اجتمعت لديهم، إلى جانب الشجاعة، قوة العزيمة وصرامة الرأي والعمل، لكنه جاء في وقت قد اتسع الحرق فيه على الرأى، بعد أن تعزز موقف الشريف حسين بعصبية لا يمتيتان بها، فعمل الوالي الجديد

(١٩) مذكرات الأمير عبد الله، ص ٤٧.

(٢٠) C. S. RITT, *Ibid.*, pp. 143-144: اتهاماً عن مذكرات غير مطبوعة للشريف علي حيدر.

(٢١) مذكرات تحسين العسكري، ص ١٦٠٧ مجلة الحرب المالية الأولى، مجلد ٣، ص ٧٧.

بهمة لا تفتر على تحسین مركز الحكومة ، والضرب بيد من حديد على يد كل من يحاول الانتفاض على سلطة الدولة^(٢٢) ، وكل من يغف حائلاً دون رغبتها في تطبيق قانون إدارة الولايات في الحجاز . وبدأ عمله بأن كتب إلى الشريف أن يسلم إلى السلطة العسكرية مائة بندقية كان مسلح بها حرسه ، فلم يجبه على كتابه .

ولما أُلح الوالي في طلبها أصر الشريف على تجاهله ، ولم يكن ثمة يد من الاصطدام وبداول إطلاق النار بين حرس الشريف والجند التركي ، أسفر عن سقوط عدد من القتلى^(٢٣) . عندئذ فار الرأي العام واستظهر به الشريف ، ونجسهم الناس احتجاجاً على المبدعة التي صدرت عن وهيب بك ، فامتثلت بهم دار الحكومة « من غرفة الوالي إلى الشارع ، إلى دار الإمارة إلى ثكنة «جرويل» وقلمة «جهاد» يصيحون بسقوط تغيير امتيازات الحجاز » ، وطالبون بعدم مد المسكة للحديديّة من المدينة إلى مكة ، ويحتفون للأمر « دم دائماً » . وأعقب ذلك ثورة العشائر التي حصرت كل النقاط العسكرية بين جدة ومكة ، وامتنع أهل الأودية عن جذب الخضار والقواكه والسمن والأغنام إلى مكة ، وكادت المجاعة أن تحل في المدن الحجازية ، فازتلك موقف وهيب بك ، وكتب برقية مستعجلة بالمال الرهنة إلى الآستانة ، ولم تفرج الأزمة إلا بورود برقية من الصدر الأعظم تفيد بأن « لا إخلال بحقوق الإمارة وامتيازات الحجاز وأن الدولة لا تلح في الوقت الحاضر على مد الخط الحديدي »^(٢٤) .

حصلت هذه الحوادث قبيل نشوب الحرب العالمية ، ولم يكن الهدوء الذي عيم بعد سكونها ، وعودة المياه إلى مجاريها بين الشريف ووهيب بك ، إلا كالرماد الذي يغطي الجمر ، سريعاً ما اشتد بهاج المشك بعد اندلاع الحرب واشتراك تركيا بها ، وعندما يحصل الحسين على دليل يؤكد أنه مؤيد تبة الاتحاديين ووهيب بك نموه .

عندما دخلت تركيا الحرب كان موقف الشريف معروفاً ، حذرهما قبل الدخول ، وامتنع عنها بعده ، ورسالته إلى السلطان بهذا الشأن — وهي التي مر ذكرها في الفصل الأول — واضحة من حيث المخاطر التي تحيق بالأمارات العربية نتيجة لهذه الخطوة . ولم يكتف بذلك بل أجاب على برقيات الآستانة المشكورة ، التي جاءت تستطلعه رأيه ، بأن دخول الحرب « خرق عظيم ومهانة كبرى » ، وأن البلاد بأجمعها لا ترضى عن دخول حرب ضد الحلفاء ، وأن رجال الحكومة ، إذا كانوا

(٢٢) حسين نصيف ، المصدر السابق ، ص ٩ .

(٢٣) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص ٧٧ ، أحمد داغر ، متفكراتي على مأساة القضية العربية ، ص ٨٦ .

(٢٤) متفكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٩ — ٨٠ .

قد عقدوا العزم على دخولها، فقبل أن يخطوا ذلك، يجب عليهم أن يزودوا الجيش الرايض في اليمن والعسر والحجاز بما يكفيهم لثلاث سنوات من الذخائر والمعدات، وخزن مقدار كاف من المؤن في هذه الولايات، يكفي الجيش والشعب لمدة لا تقل عن خمس سنوات، أما إذا لم يؤمنوا هذه الأشياء فإنهم سيضعون هذه المنطقة في أخرج موقف قد يفضي إلى ما لا تحمد عقباه. فبجاءته برقية تقول إن الدولة فكرت في كل شيء وأنها تشكر مباداته السامية على نصائحه^(٢٢). وقد ثبت سابقاً كيف كان موقفه من دعوة الآستانه لإعلان تأييده للجهاد، وما هي المعاذير التي تدرج بها لتخلص من هذا التكليف.

لكن الظاهرة بينه وبين السلطة المركزية من جهة، وبين جمال باشا في سورية من جهة أخرى، لم تنقطع من ذلك الوقت. ولقد تظاهر الاتحاديون بأنهم إنما قبلوا عليه، لكنهم في أعماق أنفسهم تمزوا غيظاً من فعلته، فأخذوا يفكرون من جديد في عزله، وصدرت الأوامر إلى ولي الحجاز كي يجهز السبيل سراً لاعتقاله، بحيث لا يثير اعتقاله ثائرة القبائل. وكجزء من هذه الخطة وجهت إليه دعوة تنبض بالركة لزيادة دمشق، بغرض المباحثة مع جمال في شؤون حملة مصر. غير أن الحسين كان من الحذر بحيث لم يلب هذه الدعوة^(٢٣). ومع ذلك تظاهروا له بالود والمداينة، عل باستطاعتهم أن يستقبلوا من خدمته لهم، مع الحيلة والحذر التامين في نسج تحيوط المخطط الذي رموه للغد به. ذلك أنهم كانوا يقدرين ما كان عليه من قوة ونفوذ، وأنه قد بلغ من السيطرة على قبائل الحجاز ما يجعله قادراً على أن يحمده، إذا أراد، جيشاً لا يقل عن أربعين ألفاً من العربان، وإن ليس باستطاعتهم أن يستفيدوا من هذه القوة البشرية إلا إذا كان ذلك عن طريقه هو نفسه، لأن قواتهم في الحجاز كانت شبه محصورة في ثكناتها لا تستطيع التوغل في البلاد، والاتصال بالمعشائر، وبالتالي ليس لها أي نفوذ عليها، فإذا ضمنوا معونته أصبح باستطاعتهم أن يعتمدوا على قوة من المتطوعين تشترك في حملة السويس كقوة مساعدة للجيش النظامي^(٢٤).

لذلك باذر جمال باشا إلى تسطير كتاب إليه يطلب منه فيه أن يبيء قوة من المتطوعين العرب بزعامة أحد أبطاله، يبرز بها قائد فرقة الحجاز، الذي استُدعي مع فرقته ليشترك بحملة

(٢٢) المصدر السابق، ص ٩٨ - ١٠٠.

(٢٣) أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٢١٨ - ٢١٩.

الصوم، أو أن يتولى هو القيادة ويكثف بالجيش^(٢٩). فأجاب الحسين أن الأفضل عنده أن لا يرح مكة بقصد الدفاع عن الحملة الحجازية إذا ما تعرضت لأي هجوم، وأنه قد كلف ابنه علياً بأن يسير على رأس فريق من المجاهدين، يلتحقون بفرقة الحجاز في طريقها إلى القناة^(٣٠). وكان استدعاء فرقة الحجاز قد أثار جدلاً في هيئة أركان حرب الحملة، نظراً لما كان قد وثر في الأذهان من احتمال قيام الحسين بشورة إثر خلافه الشديد مع وهيب بك والحكومة المركزية، ولم يكن ثمة يد من أن تتساعل هيئة أركان الحملة: هل يجوز لإشراك فرقة الحجاز في الهجوم على القناة وترك الحجاز تحت رحمة الشريف؟ فجرى قلب الأثر على وجوهه المختلفة، واستقر الرأي على أن إشراكها مفيد حتى ولو فرض احتمال ثورة الشريف، لأن الفرقة ليست من القوة والتمتع بما كان يجعلها قادرة على مقابلة الطوارئ، وإشراكها في هذه الحملة خير من بقائها في الحجاز. لا بل يجب دعوتها بسرعة إنفاذاً لما من مصيبتها المتهوم، بحجة نهضة مصر، أما إذا كانت نية الشريف حسنة فخير وأولى^(٣١).

بالفعل سار الأمير علي على رأس فصيلة المتطوعين البالغ عدد أفرادها (١٥٠٠) رجلاً من الممران ولكنه ما إن وصل إلى المدينة حتى امتنع عن مواصلة السير مع وهيب بك وفرقه، وبقي فيها بناء على أمر تلقاه من أبيه، واعتذر لوهيب بك عن مرافقة الحملة قبل إعداده عليه^(٣٢). ولهذا امتلأ صدر جمال باشا غيظاً من تكول الشريف عن إمداده بهذه القوة، فوجسه في مذكراته بأقصى مراتب المهانة، كما بينت فيما سبق من فصول.

وبهذا تذكر المصادر التركية أن بقاء الأمير علي في المدينة، متخلفاً عن ركب نهضة الحجاز، ليس إلا رأس السلسلة في مؤامرة الشريف حسين مع إنكلترا ضد الدولة العثمانية، تلح المصادر العربية على أن السبب في ذلك هو أن الأمير علياً قد عثر على حقيبة تتضمن طائفة من الرسائل، سقطت من أمتعة وهيب بك، في أثناء السير إلى المدينة المنورة، فالتفتها أحد رجال الأمير وسلمها إليه، فعدل عن السير وقلل راجعاً إلى مكة ليطلع أبيه عليها، وكانت من الخطورة بحيث اقتضت مضجع الحسين، لأن فيها من الظواهر السرية بين الحكومة المركزية والوالي ما يشير إلى تكليف الأمير باغتيال الحسين وأتباعه، والتقصاء على استقلال الحجاز الذاتي، مع بيان التدابير والخطط

(٢٩) مذكرات جمال باشا، ص ٢٦٢.

(٣٠) علي توفد، المصدر السابق، ص ٨٠.

(٣١) المصدر السابق، ص ٢٩.

(٣٢) مذكرات جمال باشا، ص ٢٦٢ ومذكرات الدكتور أحمد لبي، ص ٤٥.

الواجب ترتيبها لتفصيل المؤامرة ضده، وقد حال دون ذلك تشوب الحرب واشتراك تركيا فيها، وانسحابها في استعداداتها^(٢٢). ومهما يظهر من غموض في أمر هذه الوثائق، واحتوائها على رغبة الاغتيال، فإن بما لا شك فيه أنه كان ثمة رسائل وقعت بطريق ما يهد للشريف فاستغلها أكبر استفلال للتخلص من مضايقات وهيب بك، وتوطيد سلطته ونفوذه في مكة.

في هذه الأثناء كانت بوادر الاتصالات قد جرت بين الإنكليز والشريف حسين، كما كان الشريف قد استقبل رسول جمعية «العربية الفتاة» فوزي البكري، ولم يكن الحسوس يجهل أن زعماء السوريين العرب كانوا في ذلك الحين متفهمين، في آرائهم السياسية، إلى فئتين: إحداهما معادلة تقول بوجوب السعي إلى الاستقلال العربي بخطوة خطوة، لأن الثورة على الترك، في مثل هذه الظروف القائمة، قد تقضي على السلطنة العثمانية والبلاد العربية معا، وكان إنشاء لمصل وعلى من رأي هؤلاء، والثانية متطرفة ترى وجوب قيام الثورة على الترك حالاً دون التفكير بالاستعداد والتريث، وكان نجدة عبد الله من مؤيديها^(٢٣). فراح الأمر حسين يقلب الأمر على رجليه والتفكير، وينعم النظر فيما يجب عمله خاصة وأنه لم يثنى بعد من رؤساء وأمراء العرب في الجزيرة: محمد علي الإدريسي، الإمام يحيى، ابن الرشيد، ابن سعود—الذين بحث إليهم برائل يستوضح منهم الموقف الذي سيفوقه من دولتهم التي دعمت للحرب، ويشرح لهم الأسباب التي تمنعه من تأييد إعلان الجهاد^(٢٤)—ردودهم على استفساره فرأى استتماماً للدراسة والتحريض، قبل اتخاذ الموقف الحاسم، وانتظاراً لردود أمراء ورؤساء العرب أن يوفق نجدة الثالث فيصلا إلى دمشق فالأستانة لدراسة الأحوال في سورية، وجس النبض، واختبار قوة الحركة الوطنية، ومقنن استعدادها للثورة من جهة—وهذه أهم نقطة في نظره—ثم دراسة الموقف العسكري التركي من جهة أخرى^(٢٥)، والاتصال برجال الحكومة المركزية وبسط موضوع شكايته من وهيب بك والمطالبة بعزله من جهة ثالثة^(٢٦). كما أعاد الحسين، في الوقت نفسه، إنه الأكبر الأمر علماً إلى المدينة لكي يعمل على استنباض القبائل

(٢٢) مذكرات الدكتور أحمد قنوي، ص ٢٥؛ أنطونيس، المصدر السابق، ص ٢٣٣، مجلة الحرب العالمية الأولى، جلد ٣، ص ٦٢—٦٣.

(٢٣) سز ستورز أركسكن، فيصل ملك قمران، ص ٥٧.

(٢٤) حلال يحيى، المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٢٥) Y.H. BAYUR, *ibid.* III, pp. 216-217؛ أنطونيس، المصدر السابق، ص ٢٢٤ ف. و. قزو، نقطة العالم

الإسلامي، ص ١٨٠.

(٢٦) أنطونيس، المصدر السابق، ص ١٣٤.

العربية ، وإيقاظها على قدم الاستعداد للعمل متى حان الأوان ، ومراقبة محافظ المدينة « بصري باشا » وتبصير حركاته . وأوعز إلى ابنه عبد الله أن يثابر على الاتصال بالإنكليز لمعرفة ما يستطيعون تقديمه للثورة العربية المزمع إعلانها ، ومدى استعدادهم لدعم استقلال العرب^(٣٧) .

وصل فيصل إلى دمشق في ٢٦ آذار ١٩١٥ ، ونزل في دار عفا باشا البكري ، وكان ابنه نسيب من أعضاء جمعية « الفتاة » . وقد اجتمع هناك إلى كتبتين من أصحاب الزعامة والأحرار المتاضلين ، ورجال الدين والأدباء من مختلف الطبقات وشتى الأحزاب ، وبعض ضباط العرب ، ومنهم الزعيم ياسين الهاشمي رئيس هيئة لوكان القليل ١٢ الذي كان بقيادة الفرقة فخرى باشا وكييل قيادة الجيش الرابع^(٣٨) . وقد حصل لقاء الأمر مع أعضاء الجمعيات السرية المتطرفة في جو ساد التردد والحذر من قبل هؤلاء ، في بادئ الأمر ، لكنهم لم يلبثوا أن اطمأنوا إلى داخلته حينما كشف لهم عن شيء منها ، وأقنعهم السبب الذي كان من أجله يفتقر الأكراد لإخلاصه ، وهو شدة مخاوفه من المطامح الأوروبية ، فانطلقوا بمحذونهم عن أفكارهم وشرحوا له الأسباب التي تدفعهم إلى الانتماء على الدولة^(٣٩) ، وأعدوا يعملون على إدخال الطمأنينة إلى نفسه من جهتهم ، ويقولون إنهم على استعداد لرفع علم الثورة وإنهم ينتظرون منه الإشارة لتفجيرها . فأجابهم أنه موافق من قبل والده ليدرس الحالة السياسية في دمشق والعاصمة ، وأنه ليس بوسعهم أن يتحمل مسؤولية الثورة دون تأييد من جهة قوية ، أو مساعدة من إحدى الدول ، وأن عليه الذهاب إلى الآستانة ، ثم العودة منها إلى سورية ، ومنها إلى مكة لرفع تقريره إلى والده عن نتيجة الدراسة التي تكلف بها ، وكان فيصل إلى ذلك الوقت غير متفرق في التطرف ، معتدل الرأي^(٤٠) .

لقد اجتمع لديه من اتصالاته في سورية ، من المعلومات الأولية ، ما أتاح له أن يقدم تقريراً بها إلى والده ، أرسله إليه ، وقد جاء فيه أن حالة الحرب العامة لا تساعد على تحقيق الآمال . غير أن الوضع المحلي حسن على كل حال ، ذلك أن ثلاث فرق في دمشق مستعدة لإعلان الثورة ، وأتت أنخريان ، فهما كثير من الوطنيين العرب ، مستعدتان للانضمام إليها متى بدأت ، وأن باستطاعة الثوار أن يستولوا على سورية بسهولة ، إذ لا يوجد للترك في هذه المنطقة سوى فرقة واحدة . لكن

(٣٧) لورنس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٣٨) سيز أرسكون ، المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٣٩) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٤٠) سيز أرسكون ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

الرأي العام على غير استعداد كبير لخلق هذه الأعمال، فضلاً عن أن العسكريين شديدي الثقة عموماً بأن ألمانيا ستكسب الحرب وستكسبها بسرعة. ومع ذلك إذا أنزل الحلفاء حملتهم الأسترالية^(٤١) في الإسكندرية ليحوموا بذلك الجناح الشمالي من سورية، فقد يصبح من المعقول عندئذ أن تخطر غير مبالين بانتصار الأتراك، والوصول إلى هدنة منفردة تعقدها مع الأتراك وحدهم^(٤٢).

إلا أن هجوم الإنكليز على شواطئ غاليليو والدردنيل، بدلاً من مهاجمة الإسكندرية، قد دعاه إلى مواصلة دراسة موقف تركيا العسكري في الآستانة نفسها التي كان عليه أن يقصدها لغرض أعمال وهيب بك، وسوء نياته نحو والده، فواصل سفره إليها وبلغها قبل منتصف شهر نيسان ١٩١٥، ووجدتها في اضطراب عظيم نظراً لكان على أثر هجوم الحلفاء على الدردنيل^(٤٣). وهناك اتصل برجال الحكومة — المصدر الأعظم وأتور وطلعت — وعرض عليهم شكوى والده من وإلى الحجاز وهيب بك وسقط أمام أتور وطلعت مجموعة من الرسائل التي وقعت بيد والده، والتي تبادلها نادي الاتحاديين في الحجاز مع مركزه في الآستانة، يتهم فيها الشريف بموالاة الإنكليز — وبعد أن كانوا فيما سبق يتهمونه بالنسج لخدوي مصر — ويطلب فيها عزله وتعيين الشريف علي المقيم في مصر مكانه، وذلك لأن الأخير استمال إليه أعضاء هذا النادي. وبين لما تفصل سوء نية وهيب بك، وما كان من معاملته الشديدة لوالده، وأن والده عازم على الاستقالة إذا لم يُعزل هؤلاء المفسدون من الحجاز، وإذا لم يُعزل وهيب بك، من الولاية. وقد أصفى أتور وطلعت لأقواله بانتباه تام ثم أجاباه بأن العلاج لهذه الأمور إنما هو في يد والده نفسه، فلو أنه استجاب للدعوة التي وجهها إليه السلطان للجهر بالجهاد، وهياً المنتظرين، وأرسلهم إلى قناة السويس لدعم حملة مصر، إذن لكان من السهل إصلاح الموقف لمصلحته في الحجاز^(٤٤). ومع ذلك طمأ خاطرهم وأبدا أسفهما لما حصل وأكدتهما بوالده. فقال لهما إن كانت ثقة الحكومة العثمانية بوالده لا تزال كما هي فما عليها إلا أن تقدم الترشية اللازمة، مؤكداً لهما أن والده مستعد للتخلي عن الإدارة إذا لم تكن الثقة به متوفرة، أما إذا توفرت هذه الثقة فإنه مستعد لإرسال الرجال، وما على الدولة إلا مساعدته بالسلاح والمذخورة والمال.

(٤٠) كانت قد الإجماع في مصر.

(٤١) لورنس، المصدر السابق، ص ٤١؛ LAWRENCE, *Ibid.* p. 65.

(٤٢) عز أرسكين، المصدر السابق، ص ٥٨.

(٤٣) أنطونيو، المصدر السابق، ص ٢٤٢ (المصدر السابق، ترجمة الزكي، ص ١٧٧).

واجه فيصل في أثناء إقامته في الآستانة، الحاج أحمد شفيق باشا، رئيس المديوان الاتحادي سابقاً والمتبع في العاصمة العثمانية، وفتح هذه المحادثات التي أجزاها مع أقطاب الحكومة، وحذره عن معاملة وهيب بك السيفي لوالده، وأنه ربما كان متبعاً فيها أوامر الاتحاديين، وأظهر شعوره الغضب بمساعدة الدولة بتجريدة من المتطوعين — فهم الحاج شفيق باشا منه أنها قريب من عشرة آلاف رجل للإشتراك في حملة قتال الموسوس — وقال من عرب الشام إنهم «طيبون ومتى شاهدوا عرب الحجاز تشد الحماسة في قلوبهم». وقد حصل الأمر فيصل بعد ذلك، مع الحاج أحمد شفيق باشا والبارون «أونيهم» الأتالي^(١٢)، مدة أسبوع في عقد اتفاق نهائي نيابة عن والده مع الحكومة العثمانية، وكانوا يجتمعون تارة في فندق «بريالاس» وتارة في منزل «الشريف فيصل» في أعالي «بيوك دره» أو في منزل الرئيس إبراهيم حلمي. وكان الشريف ناصر أخو الشريف حسين يحضر بعض الاجتماعات. وفي أثناءها شرح الأمر فيصل لمخلص الأزنة القائمة بين والده والأتراك، بقوله إن الحجاز يعتمد في مروته على المحاصيل الخارجية التي ترد إليه بواسطة السفن الإنكليزية، لقله ما تنتجه الدول العربية منها، وحاجتها إليها موضعياً، بما لا يدع مجالاً لتمهين الحجاز بكفائته منها، علاوة على أن الخط الحجازي، وهو فردي غير مزدوج، ينتهي بالمدينة المنورة، ولا يستطيع القيام بسد حاجات الحجاز من المواد المجهزية في الداخل فإذا انقطعت الواردات من الخارج حصلت مجاعة تجر إلى ثورة العرب. وهذا ما يجعل الشريف مضطراً إلى التعامل مع السفن الإنكليزية. فعمل الحكومة العثمانية وحلفائها أن يأخذوا هذا الأمر بنظر الاعتبار. ثم أشار إلى علاقات الوالي وهيب بك مع والده، وما يتخللها من جفاء وسوء ظن، ولفت النظر إلى الدعائس التي يقوم بها الأمير جعفر الأخ الأصغر للأمير علي حيدر، المشترك في نادي الإتحاد والشرق في الحجاز، والذي يطمع في عودة الإمارة إلى أسرته «ذوي هذا»، وما يلقاه من أسخيه الأكبر من مؤازرة. ثم بين ما يجنيه للشريف، ومن حوله، من التدخل العظيم الذي يأتيهم من الحجاج على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم، هذا الذي سيحسوه — علاوة على هبوط نفوذه — فيما إذا وقع الحجاز تحت الحكم الإنكليزي. إذن فهو (أي والده) من هذه الوجهة مرتبط بالخلافة لازدياد جميع المسلمين بها ضد العدو المشترك، لذلك يجب أن يثق به الأتراك، ويعدوا عن أذهانهم فكرة عزله، وبذلك لا يدعوني به إلى اليأس، بل يجب عليهم

(١٢) كان البارون أونيهم مسؤولاً بقيادة الفيلق الأتالي العامل إلى جانب الجيوش التركية في آسيا. وقد تولى وفقاً ما مساعدة الحاجبهايم في السفارة الألمانية بالآستانة.

أن يقدروا موقفه حتى قدره حتى يستطيع أن يتظاهر أمام الإنكليز بحجاده التام، فيضمن ثمنين الحجاز، ويمنع عنه الجماعة والثورة، وهذا يحفظ كيان الولايات العربية^(٤٤).

وبعد أن انتهت هذه المداولات بين الثلاثة المذكورين، بدأ الحاج أحمد شفيق باشا بالاتصال على أساس ماسبق، مع أنور وطلعت، وانتهى الأمر بالاتفاق على ترسية شريف مكة وتأمنه على مركزه، وسلم السلطان لفصيل سيفاً هدية لوالده، وكتاباً من طلعت بك يؤكد فيه ثقته به. ثم اجتمع الأمر فيحصل بعد ذلك البارون «أونيهايم» في فندق «بيروالاس»، وحضر معه المذكور سيد كامل المصري، ودار الكلام بينهما حول تنظيم دعابة يقوم بها الشريف حسين في البلاد الإسلامية لإثارة شعورها وحميتها لنصرة الدولة العثمانية. فأبدى الشريف فيحصل أن هذا المشروع يشمل إرسال مندوبين للدعابة في بلاد إسلامية هي خارج نطاق السلطنة، وهذا سهل. أما إذا أراد منه أن يمدى ذلك إلى إشغال ثورات في السودان المصري والهند الشمالية والصومال الإنكليزي، فإنها مسألة ثابة، ولا بد من ملاحظة ما يلزم لهذا العمل الكبير من نفقات، مبيتاً أن والده غادر على مثل هذا العمل الضخم، لكنه استترك قائلاً «إنه يقول هذا القول بصفتة الشخصية، ولا بد من أخذ موافقة والده وتصريحه بقبول القيام به». ثم لم يلبث أن تراجع مكشفاً بما قال حول الدعابة. لكن البارون تشبث بما عرضه فيحصل وألح عليه في بيان ما يلزم من النفقات فأجابته بأن المبلغ يتراوح بين ٣٠ — ٥٠ ألف جنيه ذهباً، مضيفاً إلى ذلك قوله إنه قبض خمسة آلاف جنيه من أنور باشا لتجهيز المطعومين لحملة السويس، وهو يخشى أن يخرج أنور بين هذا العمل الحربي وبين المشروع الذي يجري البحث فيه حالياً، والواجب أن يفرق بينهما^(٤٥).

ذهب بعد ذلك البارون فون «أونيهايم» وقابل سفور دولته البارون فون «فالجنهايم» وأطلعه على خلاصة ما دار بين الإثنين، فأظهر السفور لرتاحه وكلفه بمقابلة أنور باشا لأتخذ رأيه، مبيتاً أن الدولة العثمانية إذا لم تدفع المطلوب من المبالغ لهذا المشروع، فإن ألمانيا مستعدة لدفعه. وفي مقابلة جرت بعد ذلك بين الأمر فيحصل والمذكور سيد كامل نصبح هذا الأخير فيحصل بأن لا يحدد مبلغاً معيناً خشية عدم كفايته، وأن يترك ذلك لوالده، وأنه يحسن عدم التعهد بإحداث الثورات في هذه البلاد من الآن، حتى إذا لم يفلح السعي الكففي بالدعابة السلمية، فوافق على تعالجه ثم طلب من المذكور أن يبلغ البارون أنه يطلب لوالده سلطة تامة في كل ما يتعلق بالشؤون الحكومية في الحجاز

(٤٤) الحاج أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص ٦٠ — ٦٢.

(٤٥) المصدر السابق، ص ٦٢، استناداً إلى تقرير أرسله المذكور سيد كامل إلى أحمد شفيق باشا.

تسهيلاً لهذا العمل، فلما أبلغ البارون ذلك رفض الحديث فيه، لأنه بعد تدخله في شؤون الدولة، ووعد بالكلام مع أنور باشا بشأن ما سبق من أمر الدهاية والثورات التي دار البحث حولها. ولما فُتح أنور بالمشروع وافق عليه مبدئياً دون التدخل في التفاصيل. وفي يوم ١٩١٥/٥/٩ قابل فيصل أنور باشا وسلمه رسالة الترضية وفي طيها ورقة تشمل فقط المشروع المراد تنفيذه وتتلخص بما يلي^(١):

- ١ — تسيير أحد ألحاج الشريف مع قوة منظمة للاستحصال بحملة مصر (القناة الثانية).
- ٢ — إذاعة إعلان للجهاد في البلاد الإسلامية.
- ٣ — إرسال مندوبين لهذه البلاد وتوزيع الرسائل والمشورات.
- ٤ — السعي للفكك بين براد قتلهم من الأعداء.
- ٥ — توصيل الأخبار التي تُنسى إلى الشريف من الخارج لرجال الحكومة.
- ٦ — الاتفاق مع الوالي على التفقات اللازمة لهذا المشروع.

وهكذا بعد انتهاء مفاوضاته في الآستانة على ما تقدم غادر فيصل الآستانة عائداً إلى دمشق في ١٩١٥/٥/١٠. ولم يلبث قليلاً حتى لس نتيجة مساعيه التي بذلها في الآستانة، إذ صدرت لإرادة سنية بعزل الوالي وهيب بك من ولاية الحجاز، واستُبدل به غالب باشا قائد الفيلق الحادي عشر. وقد عُرف بطوب سريره ووجهه للمسألة، وأُفهم بأن يتقرب إلى الشريف، وأن يقيم علاقات طيبة معه^(٢).

قال فيصل في حديث طويل أدلى به إلى المكتبة الإنكليزية «مسز ستورس أوسكين»، عصبنت له قسماً كبيراً من كتابها «فيصل ملك العراق»، إنه قد اجتمع في العاصمة التركية إلى قائدين من كبار قواد الترك، ومن الذين كانوا على جانب عظيم من الثقافة والمعرفة بالفنون الحربية — دون أن يذكر اسميهما، ولا قوميتهما، ولا الحزب الذي ينتميان إليه — فلما نظرنا إلى ضرورة العودة سريعاً إلى مكة، ولغيت نظر والده إلى خطة جماعة الاتحاد والترقي وسياستهم التي تدفع بالسلطنة إلى وادي الهلاك، وإلى أن الواجب يدفعه إلى إنقاذ الأقطار العربية من المأزق الذي زعمها في الاتحاديون. وأضاف فيصل إلى ذلك قوله إنه رأى المسؤولين قد أخذوا يتقنون أرواقهم الرسمية ومستنداتهم المحفوظة

(١) أحمد حقيق باشا، المصدر السابق، ص ٦٢ — ٦٤.

(٢) مجلة الحرب العالمية الأولى، جلد ٣، ص ٦٢.

إلى الأناضول، خوفاً من أن يتمكن الحلفاء من اقتحام المضائق واحتلال العاصمة. وأنه قد قرر من ذلك الوقت أن يعمل مع المتطرفين من بني قومه، في سعيهم إلى إنقاذ البلاد العربية، لأنه أحس بالخطر القريب الذي أصبح يهدد الإمبراطورية العثمانية. ورجع مسرعاً إلى دمشق حيث وجد الأفكار في غليان شديد، ورأى ما يشبه الإجماع بين زعماء العرب على ضرورة تحرير البلاد العربية بأسرع ما يمكن^(٤٨).

كانت الفترة الوجيزة التي قضها فيصل في دمشق، قبل سفره إلى الآستانة، كافية لتجمله قريبا من نفوس أعضاء جمعية «العربية الفتاة»، فتداولوا أمر اغتنام فرصة وجوده بينهم لإدخاله في جمعيتهم وأجمعوا على هذا الأمر^(٤٩). فكشفوا له عن أسرارها، بعد عودته من الآستانة، وأطلعوه على القرار الذي كانت الجمعية قد اتخذته إثر دخول تركيا الحرب — بإذلال جميع الجهود لضمان حرية البلاد العربية واستقلالها، وإن التحفظ الذي أورده القرار بالوقوف إلى جانب الدولة العثمانية لم يضعوه إلا خشية من أن تتحقق محاولتهم من أن يكون للدول الأوروبية مطامع في هذه البلاد، كدليل على الأساس المشترك في انجذابهم السياسي واتجاهه — ثم دعوته إلى الانضمام في عضوية الجمعية فقبل ذلك، وحلف بين الإعلاء، وتبرع لها بمبلغ كبير من المال^(٥٠). ثم اجتمع ببعض أعضاء جمعية «العهد» بتدبير أحد الأعضاء الذين ينتمون إلى الجمعيتين، لم رأى أن هدفها لا يختلف عن هدف «لجنة الفتاة»، أي الرغبة في الانفصال عن الترك، ولكن هذه الرغبة كان يكبحها الخوف من المطامع الأجنبية، فقبل أن يدخل عضواً فيها أيضاً، وقد أعجب إعجاباً شديداً بتنظيمها، إذ كان زعمائها قادرين على إيقاد نار الثورة متى يشاؤون، باعتبار أن للجمعية ضباطاً من العرب في صفوف الجيش الذي كانت آكلية أفرادها من العرب في منطقة الجبل الرابع^(٥١).

رغب الأمير بعد ذلك، في معرفة مدى قوة الحركة العربية في سورية، فاجتمع أولاً بالشيخ بدر الدين الحسيني (والد الشيخ تاج الدين رئيس للدولة السورية فيما بعد)، ثم ياسين باشا الهاشمي، ورضا باشا الركابي، وسأل عما يحتاجه الأحرار السوريون ليشاركوا في حركة التحرير، عند الانضمام، فأجابهم ياسين باشا بأن سورية لا تحتاج إلا إلى قبول الحسين ترويض هذه الحركة. فكان

(٤٨) سزر لوسكين، المصدر السابق، ص ٥٨ — ٥٩.

(٤٩) مذكرات المشهور أحمد قنبري، ص ٤٦.

(٥٠) أحمد سعد، الثورة العربية، ص ١٠٩، أنطونيس، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٥١) أنطونيس، المصدر السابق، ص ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٢.

لهذا القول، أثر عميق في نفس فيصل، باعتباره صادراً عن شخص له صفة المتكلم باسم قوى الجيش المرابط في سورية وأكثية أفرادها وضباطه من العرب^(٥٢). فاعتصمت في ذهنه فكرة الثورة التي كان يكبح جماحها في السابق الخوف من وقوع البلاد العربية في براثن الاحتلال الأوروبي، إذا لم يكن ثمة ضمانات وعطيدة، وباعتبار أن هذه الضمانات أصبح متلفاً قريباً إثر العروض التي قدمها الإنكليز لوالده، والتي تدور مقايضات بينه وبينهم بشأنها، رأى فيصل أنه قد آن أن يكشف لهم عن عرض كشتنر لوالده كي يطمئنهم على مستقبل البلاد العربية، ويبدد عن أذهانهم المخاوف التي أشار إليها قردلر جمعية «العربية الفتاة»، الذي ألححت إليه، كما أشار إليها أيضاً تلميذ عزيز المصري لأفراد جمعيته في سورية، وقد أشرت إلى ذلك فيما سبق، وهو أن لا يقوموا بأي عمل عدائي ضد الدولة إلا إذا حصلوا على ضمانات فاطمة^(٥٣).

وبعد أن أنهى فيصل اتصالاته مع أعضاء الجمعيتين تركهم ليتدبروا الأمر في ضوء المعلومات التي أطلعهم عليها، وسافر مع جمال باشا في رحلته إلى جبهة سبنا، وكان جمال باشا قد تلقى برقية من أنور وطلعت يعلمانه بقدوم الأمر ويلزم استقباله استقبالاً فخماً. وأن يعمل كل ما في وسعه لاستئائه وكسب مودته، فذهب جمال بنفسه إلى المحطة لترحيب بمقدمه. وأعد له حفلة تكريم رائعة في مقر القيادة، وبالغ في التودد إليه والحنو له، حتى إنه قد اصططحه إلى القدس لزيارة ميدان الحرب في سبنا، حيث سخطب فيصل في الحفلة التي أقيمت لشكره في الجبهة، متوجهاً إلى الضباط الذين حضروها بقوله «يجب على الأمة العربية أن تشترك في الجهاد، وأنا ذاهب إلى الحجاز لأعود على رأس جيش كبير من المنتوعة، ليشترك في الحملة الثانية التي مشعر مصر^(٥٤)». ثم عاد إلى دمشق. على أن جمال باشا لم يعدل، مع ذلك، من بوادر خطة الشدة التي بدأ يتبعها في سورية، وكانت الاعتقالات في أولى مراحلها. أما إذا كان قد جامل فيصل هذه المعاملة فما ذاك إلا أملاً بأن يوافقه على رأس تجريدة حجازية في حملته الثانية على الفتاة، وقد صرح فيصل بأنه سيأتي لمؤثرته على رأس قوة مؤلفة من ألف وخمسمائة رجل^(٥٥).

وجد فيصل، عند عودته إلى دمشق، أن زملاءه في جمعيتي العهد والفتاة قد اتفقوا على خطة

(٥٢) مذكرات فلكتور أحمد قنري، ص ٤٦.

(٥٣) أنطونوس، المصدر السابق، ص ٢٤٦ (المصدر السابق، ترجمة الزكاني، ص ١٦٥).

(٥٤) مذكرات جمال باشا، ص ٣٧٠، مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٦٤.

(٥٥) مذكرات فلكتور أحمد قنري، ص ٤٧.

للمعمل في أثناء غيابه ، ووضعوا ميثاقاً ينص على الشروط التي يرى المخاضلون العرب وزعمائهم أن يقبلوا العمل مع إنكلترا وحلفائها ضد تركيا على أساسها ، وطلبوا منه أن يأخذها معه ويعرضها على والده ، لدراستها ومفاوضة الإنكليز على مقتضاها . وقد جاء في هذه الوثيقة الهامة (٤٦) :

- ١ — أن تعترف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الموافقة ضمن الحدود التالية :
شمالاً : بخط مرسين — آدنة إلى ماهاوزي ، خط العرض ٣٧ شمالاً ، على امتداد خط بودجك — أورفة — ماردين — مديات — جزيرة ابن عمر — العمادة إلى حدود إيران .
شرقاً : على امتداد حدود إيران إلى خليج العرب جنوباً .
جنوباً : المحيط الهندي ، باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحالي كما هو .
غرباً : على امتداد البحر الأحمر ثم البحر الأبيض المتوسط إلى مرسين .
- ٢ — إلغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية .
- ٣ — عقد معاهدة دفاعية مع إنكلترا وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية .

نعود أهمية هذا الميثاق إلى أنه قد رسم الكيان النظري لدولة عربية كبيرة موحدة ، وإن تكن ناقصة ، ترتبط مع دولة أجنبية بمعاهدة تولية على أساس استقلالها التام ، وإلى أنه سيكون الأساس الذي سيتكسر الشريف حسين عليه في مفاوضاته مع الإنكليز . وغني عن القول إن استثناء مصر وبقيّة الأقطار العربية في شمالي إفريقيا لم يكن ناشئاً من عدم اعتبارها جزءاً من هذه الدولة الكبيرة ، بل كان ذلك بسبب احتلالها من قبل الحلفاء الذين ستكون الاتفاقية معهم ، شأنها في ذلك شأن عدن المستتاة هي أيضاً منها ، وإذا كان فيصل قد أبدى شكه في أن يقبل الحلفاء بهذه الشروط ، أساساً للمفاوضة ، لأزيائه في نابعهم ، إلا أنه كان يرى أنها أقل ما يمكن أن يُطالب به العرب في سبيل الثورة على الترك (٤٧) .

أخذ فيصل بعد استلامه هذا الميثاق ، يوسع اتصالاته ، فطلب استدعاء توري الشعلان أمير الجوف ورئيس عشائر الرزلة في بادية الشام ، وهي من أهم القبائل العربية ، وأنه نواف الشعلان ، وهما من أصحاب النفوذ القوي في البادية ، فطلب أحد أعضاء الحزب «فاخر القصين» إلى

(٤٦) أنطونيوس المصدر السابق، ص ١٢٤٣ الجرنال كهلر، المغرب والاستعمار (وهو ترجمة الكتاب اللاحق)، ص ١٤٠
LE GENERAL KELLER, La Question Arabe, p. 24.

(٤٧) أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٢٤١ — ٢٤٥ .

مضاربهما ، بناء على أمر الجمعية ، غير عاليء بالهلكة التي عرضت نفسه لها ، إذ حوكم بالفعل في ديوان عاليه من أجلها ، وحكم عليه بالتقي إلى ديار بكر ، دون أن يدرك جهال ما كانت تنطوي عليه هذه الاتصالات من أسرار خفية . وبالرغم من أن موجة الاعتقالات كانت قد بدأت في دمشق ، نفذ الهاشمي فائز النعنع هذه المهمة ، وأتى بالأمير نواف الذي قابل الأمير فيصل وطالت مدة اختلاصهما ساعة من الزمن^(٥٨) ، كما اجتمع برجال آخرين من السوريين . قال فيصل في حديثه إلى المزمز أرسكين : « قبل مغادرتي دمشق أعطاني العلماء مضبطة باسم جميع علماء دمشق وبينهم كبريهم الشيخ بدر الدين الحسني ، يحرقون فيها مملكية والذي الحسون بن علي على البلاد العربية ، وكان بين الذين وضعوا توقيعهم عليها : رضا باشا الزكائي رئيس بلدية دمشق في ذلك الحين ، وناب عن ضباط العراق في توقيعها اللواء شكري باشا الأيوبي ، والزعيم ياسين باشا الهاشمي ، وناب عن الدوروز نسيب بك الأطرش ، وعن قبائل العرب توري باشا الشعلان ، والشيخ نوار القهدة ، والشيخ محمد الملهان »^(٥٩) .

وبعد أن حلف ستة من كبار زعماء العرب بين الولاة للشريف حسين ، وبكونهم يعتبرونه ممثل الشعب العربي ، وعلى أن تبادر فرق الجيش العربية الموجودة في البلاد إلى الثورة متى تم الاتفاق بين الشريف والإنكليز على أساس الشروط السابقة الذكر ، عقد فيصل العزم على العودة إلى الحجاز لإطلاق والده على نتيجة اتصالاته وإعلان الثورة . وقد خاضت فلسطين عن الميثاق كتبت بخط دقيق داخل بطاقة حذاء أحد رجاله وبلغ مكة في ١٩١٥/٦/٢٠ ، وقدم لوالده تقريراً مفصلاً عن كل ما قام به^(٦٠) في دمشق والأمناء ، قائلاً له بأنه أصبح من الحزب المتطرف ، لما رأى من الموقف الخطير في البلاد العربية^(٦١) ، فأخذ الولد بفرقه يسبل من الأشئلة إمعاناً في الوقوف على دقائق الأمور .

كان كل شيء مما أتى به فيصل جديراً بأن يقال رضي الشريف ، إلا أن الذي لم يرتج له علمه بأن الإنكليز بدلاً من أن ينزلوا جيوشهم في الإسكندرون ، كما كان متوقفاً ، أنزلوها في الدردنيل ، وأن الأتراك صابدون في هذه الجبهة لا يتزحزحون ، ينفعون من وطنهم بمنتهى اليأس والاستهانة ، ومن شأن هذا أن يؤثر قيام الثورة العربية التي يجب أن تبدأ عندما يتم انكسار الترك فيها^(٦٢) . ولم تفض

(٥٨) فائز النعنع ، مذكراتي عن الثورة العربية ، ص ٣٩ .

(٥٩) سيز أرسكين ، المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٦٠) أنطوليوس ، المصدر السابق ، ص ٢٤٥ ، لفتو ، ف ، ج : المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٦١) سيز أرسكين ، المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٦٢) لويوس ، المصدر السابق ، ص ٤١ .

أسابيع أخرى على عودة الأمر فيصل إلى الحجاز حتى أتمه أخبار أشد سوءاً وإقلاقاً، ذلك أن الحكومة التركية في دمشق قد قامت بإجراء تنقلات عسكرية، بعثت فيها القاطعات العربية العسكرية في سورية وأبعدتها إلى الأناضول وبقيت الجبهات الشمالية، إذ إن الأتراك لم يبق لهم في المنطقة الممتدة من جبال طوروس حتى المدينة — بعد أن أرسل جمال إلى القضاة بناء على طلب أنور معظم الجيش الموجود في سورية — سوى فرقتين معظم أفرادهما وضباطهما من العرب، وكيفية من مشطوعي المروية^(٦٣).

فلما شعر جمال بحركة غامضة في الأوساط الوطنية في سورية، أخذ الخلع والرعب يعجاء قلبه من أن تقوم حركة ثورية تطيح بالحكم العثماني في هذه المنطقة، فأمر في نقل الفرقة (٢٥) العربية التي كانت للدعم الأساسية لجمعية «العهد» إلى «جناح قلعة» في جبهة المدردنيل، في شهر حزيران ١٩١٥، وشرع يرسل بقية الوحدات العربية واحدة تلو أخرى من سورية إلى الأناضول^(٦٤). وكان ممن أساليب هذا التشريد /١٥٠/ ضابطاً عربياً معظمهم من الإصلاحيين، بينهم الزعيم ياسين الهاشمي، الذي لم يكن فائد فلقه فخري باشا وثقاً من إخملاصه^(٦٥) — نُقل معهم أيضاً خمسون ضابطاً تركياً تمويهاً على العرب بأن هذا الإجراء لم يكن مقصوداً ضدهم — وزعوا في جهتي الملققاس والمدردنيل واستبدل بهم معاً ضابط تركي وضعضوا مكانهم^(٦٦). وعندئذ شعر جمال بأشياء مبهمة من الأتراك. ووجد نفسه قوي المشكوك، شديد اليأس لا يملئ أحداً، فأنصرف إلى تنفيذ خطته الجهنمية في القضاء على الروح المعنوية للعرب يقتل أحرارهم، والتشكيل برصاصهم^(٦٧).

أما الشريف حسين فقد ازدادت هواجسه، ووجهت لديه فكرة التهرب، وخاصة وأن مفاوضاته مع الإنكليز — وقد بدأت دورها الجدي — لم تنته بعد. إنما لم يمتنع ذلك من أن تأخذ نشوة الانتصار — بعد عودة نجله فيصل موقفاً في مهمته، بحيث غادر وحبب بك مكة والحق بها الوالي الجديد في ٦/٦/١٩١٥ — فأخذ يسطر نفوذه على الموظفين وقاطعات الجيش وضباطها وأمرأه القبائل والشيوخ، مستفيداً من ضعف وطيب مريوة غالبه باشا الوالي الجديد، الذي ما إن وصل

(٦٣) مذكوات جمال باشا، ص ٢٣.

(٦٤) المذكرات بدع شريف، أحمد عزت عبد الكريم... المصدر السابق، ص ١٠٩ — ١١٠.

(٦٥) لأجل أن يقتضيه، هو والضابط محمد بك القاضي الذي كان من أعضاء هيئة الأركان، شعبة الاستخبارات، يقول هذا النقل منحوا كلا منهما ثلاث سنوات قلم حرب.

(٦٥) Z.H. BAYUĞ, Ibid. II, p. 219; عن مذكوات علي عزاد أورد.

(٦٦) المذكرات بدع شريف، أحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق، ص ١١٠.

إلى مركز عمله — واتخذ الطوائف مقراً له نظراً لحرصه ، مما جعل الشريف حر التصرف في مكة — حتى أذاع بلاغاً على الموظفين يندبهم فيه بالطرد وسوء المصير فيما إذا تجاسر أحد منهم على الوقوف ضد «مقام الإمارة الجليلة» مما جعلهم يطأطئون رؤوسهم أمام الشريف الذي أخذ يجمع الشيوخ المحليين ، وينظم لهم مجالس وديعات اختيارية في كل حي وكل قصبة وقرية . كما راح يلتقي أفراد الجيش من أبناء العرب — الذين أرسلوا إلى الحجاز لحماية حدوده ، وكانوا يتقاضون رواتبهم النظامية من الدولة — بأنهم نعت أمره ، ويجب أن لا يدينوا بالولاء لأحد غيره ، دون أن يلقى معارضة ما من غالب باشا الذي أورد المؤرخ التركي يوسف حكمت بانهور كثيراً من الشواهد على ضعفه ، منها أنه حينما قدم إلى الحجاز فلقاه الملبو بين المدينة ومكة ، واعترضوا طريقه وطالبوه بحق المرور ، فاضطر أن يدفع لهم ثلاثمائة ليرة ذهبية ، دون أن يحرك ساكناً ضدهم ، بالرغم من وجود القوة الكافية من الجنود معه ، بينما كان سلفه وهيب بك ، عندما تعرض في إحدى سفراته لحمل هذا الإزعاج ، قد هدد المتجاوزين عليه بالسلح فانسحبوا له الطريق وإن هذه الحادثة كانت أولى علامات الانحناء التي أظهرها خلال إقامته في الحجاز^(٦٧) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أخذ الحسين يكرر طلباته إلى الحكومة التركية بطلب النقد وال سلاح والذخيرة ، لتشكيل جيش المتطوعين من العربان ، للإشتراك في الهجوم الثاني على القنطرة^(٦٨) . وفي أواخر عام ١٩١٥ عقد في الطائف اجتماعاً سرّياً ضم ، بالإضافة إليه ، أولاده الثلاثة علواً وفصلاً وعبد الله ، بعيدن عن أعين الجواسيس الترك الذين كانوا يراقبونهم مراقبة حثيثة . وفي هذا الاجتماع اتفقوا على الاستمرار في الاستعداد للثورة ، وإنجاز الاتفاق مع الإنكليز ، وكان رسل هؤلاء يتنقلون إلى الحجاز لمفاوضة الشريف ، ورجع الأربعة إلى مكة بعد أن صمموا على الثورة ، وحددوا موعداً مبدئياً لها يقع بعد مرور الشتاء والصيف^(٦٩) .

بعد أن مكث فيصل في الحجاز مدة من الزمن عاد إلى دمشق ، في شهر كانون ثاني ١٩١٦ . على رأس كوكبة من الفرسان يبلغ عدد أفرادها خمسين متطوعاً كمفصلة لفرقة متطوعي الحجاز إلى حملة القنطرة ، وحلوا في منازل آل البكري في القامون^(٧٠) ، وعاد فيصل إلى الاتصال برجال

(٦٧) T. OZMERT في مذكرات الكاتب التركي Y.H. BAYUR, Ibid. III, pp. 240-241. (٦٨) Ibid. III, pp. 240-241.

(٦٩) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٦٥ ، مجلة الحرب العالمية الأولى ، جلد ٣ ، ص ٦٥ .

(٧٠) مذكرات الدكتور أحمد قنري ، ص ١٨٨ ، مجلة الحرب العالمية الأولى ، جلد ٣ ، ص ٦٦ .

الجمعيات العربية ومفكرهم ، كما راح يدرس معهم الخطط والاستعدادات للثورة في جو مكفهر يسوده ارداب الطاغية جمال .

كان معظم الأحرار في تلك الفترة قد أصبحوا في المعتقلات رهن للتحقيق والتعذيب ، ووصل التعذيب على الناس حدّاً كرم منهم الأنفاس ، بعد أن صلبت المقاومة الأولى من الشهداء على أعواد المشاتي . وما بقي من القوات العربية القليلة ، بعد أن نقل معظمها إلى جبهات القتال البعيدة ، جُزئهم ووزّع بين المقرى التركية المختلفة في المنطقة ، مما أحدث لدى لبصل شيئاً من عيبة الأمل ، وبدأ يكتب إلى والده الرسالة تلو الرسالة ، يعلمه فيها عن الوضع بدقة تامة وتكتم شديد ، يحصلها علم أسرهم القدماء ، الذين ينتقلون بين سورية والحجاز ، على الخط الحديدي ، يحملونها في أعماد السيوف أو دأعل علب الحلويات ، أو تخفي في أحشائهم بين النعل والطرقي ، أو مكتوبة بمر غير منظور على أوراق تغلف زبياً برجة المظهر^(٧١) . أما الأخبار السريعة منها ، فقد كان يرسلها إلى والده عن طريق خطوط الدولة التلغرافية ، مستعملاً شيفرة خاصة لم تكن قيادة الجيش الرابع تستطيع أن تفك رموزها ، لأنها لم تتمكن من إيجاد مفتاحها — كما قال الجنرال علي قوّاد اردن في مذكراته — مبيناً دليله على غلّة جمال باشا وأجهزة استخباراته في هذه الناحية^(٧٢) .

وهذا من أن هذه الرسائل كانت كلها غير مشجعة لإعلان الثورة ، فإن وضع الخلفاء العام كان حرجاً في تلك الفترة ، ذلك أن مجيهمهم على المردنيل ، وأحكام المضائق قد أضعف ، ورأوا أن لأمناص لهم من الإزداد أمام الضربات المضادة التي كالها لهم الترك في «جناق قلعة» و «آنا غارطة» و «أرق بورنو» و «سد البحر» ، والتي لعب فيها الجنرال مصطفى كمال باشا (أنا تورك فيما بعد) دوراً بطولياً ، وجمّد حركات القائد الإنكليزي السير «جان هيلتون John Hamilton» مدة ثلاثة أشهر بكاملها بهضبه خلاها سميرواً من اثار الخامية^(٧٣) . كما كان نزع الموت البطيء في حصار كوت الأمارة في مرحلته الأخيرة ، وكان الهجوم السنوسي من جهة ليبيا على الحدود المصرية يهدد الجيش الإنكليزي في مهادين جديدة^(٧٤) . لذلك وجد الأمر فحصل نفسه في دمشق — وقد حل ضيفاً على جمال باشا وقيادة الجيش الرابع — بداعي مساعدته في تجهيز المتطوعين الذين وعد

(٧١) لويس ، المصدر السابق ، ص ٤٦ — ٤٧ .

(٧٢) Y. H. BAYUR, Ibid. III, p. 217.

(٧٣) WILLY SPERCO, Ibid. p. 27.

(٧٤) LAWRENCE, Ibid. p. 66 ، ترجمت لعربية ، ص ٤٩ .

بإشراكهم في حملة القنّة التي حدد موعداً لها شتاء (١٩١٥-١٩١٦) في وضع حرج، يسمع بأذنه شتائم الترك لقومه العرب، تخرج من فم جهال نفسه عندما يكون في حالة السكر، كما تخرج من فم غيرة من الضباط، أو يرى بعينه المصلوبين من أخواته. على أن أحداً من المعتقلين لم يذكر اسمه، وهو من جهته لم يكن ليخرج على النطق بكلمة واحدة مما يفكر فيه، تحت طائلة الموت شتافاً. لكنه لم يتألم نفسه مرة، فاندفع يقول لجمال بأن سياسة الشنق التي يتبعها قد تعجل في وقوع ما يسأل الله أن لا يسمح بوقوعه، فلم يتجدد من دفع ثمن هذه العبارات إلا شفاعاً أصدقائه في الآستانة، وكلهم من كبار رجال الدولة، كما قال لورنس في مذكراته^(٧٥). لأنّ جمال يابسا لم يكن يتورع أن يقول له مثلاً: — عندما تشفع بهم، طالباً مراعاة عواطف العرب — بأن ما يقوم به ضروري، ولو أن والده الشريف حسين حدث منه ما حدث من وطني الشام للآل الجوزة نفسه الذي يلاحقه^(٧٦).

وفي شهر شباط ١٩١٦ حضر أنور باشا إلى سورية وهو يقي معاينة نظام خط مواصلات سيناء، فاقترح عليه جمال باشا أن يزور المدينة المنورة أيضاً^(٧٧). وقد وصل أنور إلى حلب قبل منتصف الشهر، فقبيل مظاهر الحفاوة، وأحيط بالترغفين. وكانت تلقى الخطب والقصائد أمامه، وتتر الدور في مدحه ومدح جمال باشا، ثم تجمع هذه «الدور النادرة»، في كتاب يخرجه الأستاذ محمد كرد علي، باسم «الرحلة الأنثوية إلى الأصفهان الشامية والحجازية»، ويقدم له بمقدمة من أروع ما ديجت براعه كاتب، تحوي من المديح والتضخيم ما يفصر عنه كل مداح ضليع. ولم يكن أخوه أحمد كرد علي أقل منه صولة وجولة في هذا الميدان في المقالات التي دجها براعه في جريدة «المفيس» التي كانت في يوم من الأيام إصلاحية متحمسة هي وصاحباها الأخوان محمد وأحمد كرد علي، ولكنها الآن تفعل من أنور وجمال بطلين من أبطال الإسلام ومن «مجددي أمر الدين» الذين بعث الله بهم على رأس كل مئة سنة. كما لم يتورع الشيخ مصطفى الغلاييني نفسه، وقد عُرِف بأفكاره القومية والإسلامية، عن نظم القصائد «بالطلين العظيمين»^(٧٨). أما الشيخ أسعد الشقيري فلم يفصر بالواجب، ولكنه معروف بميله للإتعاذيين من أول ظهورهم بعد الثورة الدستورية. ويزور أنور باشا بهذه المناسبة جبل لبنان وبيروت وحلب ودمشق والقدس وبافا وصحراء

(٧٥) لورنس، المصدر السابق، ص ٤٣.

(٧٦) أحمد شلبي باشا، المصدر السابق، مجلد ٣، ص ٦٥.

(٧٧) مذكرات جمال باشا، ص ٣٧٢.

(٧٨) محمد كرد علي، «الرحلة الأنثوية إلى الأصفهان الحجازية والشامية»، ص ١١، ١٢، ١٩٨٦، ٢١٨.

إليه وعماله والمدينة المنورة، وعلى أثر وصوله إلى المدينة المنورة طلب إلى الشريف حسين أن يوافيه إليها للإجتماع به^(٧٩). لكن الحسين بحث إليه معذراً عن عدم تمكنه من ذلك، وأرسل إليه وإلى جمال باشا سيغاً مرصعاً بالحجارة الكريمة هدية منه لكل منهما، كما أهدي أشياء أخرى لرجال معسكريهما^(٨٠). وقد قادهما فيصل إلى حيث تجتمع حشود المتطوعين العرب معسكرة في السهل خارج أسوار المدينة، حيث أجريت أمامه استعراضات كان أصحاب الإبل يقومون فيها بتركيض إيلهم في كل جهة كأنهم في أثناء القتال، والفرسان منهم يركضون خيولهم وهم يطلقون سهام من عليها حسب تقاليدهم. وروي لورنس أن أحد الشيوخ اقترح على فيصل القتل بالقائدين التركيين وإنهاء المعركة بضربتي سيف، فرفض فيصل بشدة قائلاً: «إنهما ضيوفا»^(٨١)، وأخذ يتحدث للأمر ويبالغ في تشديد الحراسة عليهما، بالرغم من ضخامة المؤكب الذي كان يرافق الضيوف، ومنهم «بروزارت باشا الألماني، وملك ألمانيا وهما العسكريان، وحشد من الضباط والموظفين الملتزمين»^(٨٢)، علاوة على الحرس الضخم من العسكريين الترك الذي كان يسهر على سلامتهم في المدينة.

في هذه الأثناء كانت الاعتقالات والاحتجالات لازال مستمرة في دمشق، وتفاظمت كثيراً بعد عودة أنور إلى الآستانة، وفيصل وجمال إلى دمشق، فامتلات السجون بالأحرار، وثارت المواجهات عروفاً عليهم، وكانت تقارير فيصل تترى باستمرار على أبيه، وفيها أنه قد فشل في إقناع جمال باشا في التخلي عن من حدة السياسة الإزهاية التي يتبعها الطاغية. ومن جهة أخرى كانت مفاوضات الشريف مع مثل إنكليزاً ومكملتون قد انتهت على نحو مرض نوعاً ما، فحاول إلقاء آخر سهم في جعبته — مع علمه بضعف احتمال نجاحه — عليه يستطيع أن يتال من حكومة الإنجليز القليل بما تنوq إليه نفسه، بالسلام والحسنى مع إنقاذ رؤوس المعتقلين من الشنق، مفضلاً هذا القليل على نوال الكثير بسفك الدماء في ثورة قد لا يكون لها من ردود الفعل ما يفي بمصنوعه من كل نقد في العالم الإسلامي^(٨٣). فظهر في آذار ١٩١٦ برقية بالشيفرة إلى أنور باشا، جواباً على برقية منه يستجته فيها على إرسال المتطوعين، ويبلغ عليه في إعلان الجهاد المقدس من مكة باسم الخليفة جاء

(٧٩) مجلة الحرب المالية الأولى، مجلد ٣، ص ٦٦.

(٨٠) محمد كرد علي، الرحلة الأنورية، ص ٢٦٩.

(٨١) لورنس، المصغر السابق، ص ٤٤.

(٨٢) محمد كرد علي، الرحلة الأنورية، ص ١٠.

(٨٣) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 248.

فيها وإن خروج الدولة العلية منتصرة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها، ولا سيما العرب—والجانب الأهم من ميادين القتال في بلادهم—وعلى تأييدهم لها قلباً وقالباً في نضالها.

• ولوح لي أن ارضاء الشعب العربي يتوقف على ملاواة قلبه الذي جرحه اتهام جدد كبير من أبناءهم سياسة عنصرية... والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية، وسيلة الفؤاد الآتي:

- ١ — إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين في سورية والعراق.
- ٢ — إعطاء سورية مائطليه من نظام لامركزي.
- ٣ — جعل إمارة مكة وراثية في أولادي وإيقاظها على حالتها الحاضرة.

• فإذا قبلت هذه للمطالب اتعهد بمحمد القبائل العربية بقيادة أبنائي في ميدان العراق وميدان فلسطين، وإذا لم تقبل فأوجوكم أن لا تنتظروا مني شيئاً، سوى الالتئال للحق جل وعلا بأن يجب للدولة النصر والتوفيق^(٨٤).

إن من يدق في توقيت إرسال هذه البرقية، لا تخفى عليه المناورة التي قصد إليها الحسين، ذلك أنه كان يعرف ولا شك ضعف الاحتمال بقبول الترك لهذه المطالبات. فإذا استجابوا لها فإن لديه من الوقت الكافي للتفكير في ما يلي ذلك من الخطوات. وفي تأخيره توقيت الثورة، إلى ما بعد انتهاء المفاوضات بسبعة أشهر على الأقل، ما يهيئ له قرعاً عديدة، سواء منها ما يعطيه مجالاً للاستعداد، أو للمناورة، أو للتفكير في كيفية وقاية نفسه وبلده من الهجوم الإنكليزي على بلاده—في حالة التكرس عن اتفاقه مع الإنكليز—وبالتالي المماثلة بين الإنكليز والترك، متربحاً على كل حال تطور ميز الحرب بين العسكريين، وأي كفة منهما تميل إلى الرجحان. وأما إذا لم يستجيبوا لها، فيكون قد حصل على مزيد قوامه بالنوعية المتفق عليها مع إنكلترا. وعلى رأي الكاتب التركي يوسف حكمت باغور، ربما يكون الحسين قد رمى إلى هدف آخر، هو امتداد أطماعه إلى مدى بعيد، بحيث تفضي الدولة إلى قبول عروضه هذه نظراً لوضعها الخارج الذي تعانيه، وبعد أن يصبح المسيطر على مملكة تمتد على مسافة ألف كيلومتر، يجعلها بطريقة ما تسحب جيوشها من هذه

(٨٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، جلد ٣، ص ٦٦، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ١١٠-١١١.

المنطقة، ومختلف يستطيع العمل جنباً إلى جنب مع الإنكليز بسهولة أكثر، وطريقة تضمن حمايته
ولمستقبله، كما يكون موضع أكثر مساعدة له على ضم باقي المناطق العربية^(٨٥).

تلقى أنور البقوة فأحاطها إلى جمال باشا الذي رأى فيها من غموض المرمى ما جعله هو وأنور
عاجزين عن فك طلاسمها — كما قال — فأرسل جمال يطلب فيصل، وأشار إلى علي فؤاد بك رئيس
الركبان بأن يكون شاهد المحادثة بينهما، وأخذ يؤبّه قائلاً إنه عندما علم أن أعداء علياً يتدخل في
سلطة حاكم المدينة يدعوى أن ذلك جزء من سلطته بصفته إماماً، عزى ذلك إلى حداثة سنة وحلم
تجاربه، ثم ذكره بما كان قد قاله له، في محادثتهما مراراً، من أنه لن يمدح وسعاً في المحافظة على
حقوق الإمارة الموثقة بالفرمانات السابقة، وأنه سيحصل على إحقاق الحق، وأن الشريف حسين
نفسه قد شكره على ذلك. كما كتبت نظره، مهدداً، إلى أن لأبيه أعداء كثيرين، منهم من هو موجود
في الآستانة، يعملون صباح مساء لإثارة الحكومة ضده — يقصد بذلك أبناء عمومته من «ذوي
نيد» — وحذره من عقبة إعطاء هؤلاء الأعداء الخجة والمستمسك عليه، ثم سلمه البقية قائلاً: «وإذا
قرأت هذه البقية علمت أن أباك إنما يسهر في الطريق السجاء، وأنه يعمل هذا يسلم أعداءه سلاحاً
بمباركته به»^(٨٦).

فلما قرأ فيصل البقية امتنع لونه، وظهرت على وجهه إشارات الإنضطراب، كما قال جمال،
وأبدى أسفه وضعه لما تضمنته، واحتذر عن والده بأن ذلك قد يكون ناشئاً عن سوء فهم والده للغة
التركية، إذ ربما يكون الترجيح الذي نقلها إلى التركية قد عجز عن فهم النص العربي، فبعثت ترجمته
معرفة لمبارات والده، وأنه يؤكد أن ذلك ناشئ عن سوء تفاهم، وأن أباه لا يقصد بهذه البرقية شيئاً
ضاراً، واستعاذ بالله أن يخطر لأبيه مثل هذا الحاطر، وأنه سيكتب في الحال إليه يسأل العذول عن
هذه النيات. وبعد أن تلقى هذه الإيضاحات من فيصل بادر جمال إلى إرسال الجواب للشريف
حسين بريقة جاء فيها أن ليس بالاستطاع إجابة طلبه بالعمو عن المعتقلين بعد أن قامت البواهي
على خيانتهم للوطن، وإلا أدى ذلك إلى ضرر شديد للمصلحة العامة، لأن حكومة تصنع عن
الحلوة خليفة بأن يتهمها الجمهور بالضعف الذي كثيراً ما يفرى الناس بالخيانة وطن الدولة والملة
طلعة نجله، وأنه لو عرف محبته الوثائق التي ظهرت في المعركة لرأي إلى أي حد من الخيانة قد
اشتمر أولئك المتهمون. أما عن مسألة جعل الإمارة وراثية في أسرة الشريف فقد أجاب جمال أن

(٨٥) Y.H. BAYUR, *Ind. III*, p. 349.

(٨٦) مفكرات جمال باشا، ص ٣٧٤ — ٣٧٥.

الفرصة ليست مناسبة للحدث بها ، وأن الإعراب عن مثل هذه الرغبات من شخص مثل الحسين يشغل منصب إمام في أهم بقعة من بقاع الدولة ، ومن أكلها تعرضاً للأخطار ، وفي وقت هذه الحرب ومحاطها الجسيمة لا بد أن يكون له أسوأ الوقع في نفوس الجمهور . ثم لفت نظره إلى أن جميع الجهود يجب أن تلبس الآن لغرض واحد هو إحراز النصر النهائي ، وأنه بفرض أن الحكومة ليست عليه مجرد الرغبة في تجنب مشاغبتها الآن ، ثم كان النصر حليفها في النهاية ، فما الذي يمنع الحكومة أن تعامله بمنتهى الشدة ، بعد أن تضع الحرب أوزارها . ونتم الرقبة مهدداً بقوله إن رجال الحكومة الخاضعة للدين جرؤوا على القيام في وجه عبد الحميد ، الذي أمضت استبداده ، لن يصفحو عمن يجترى على شل أيديهم في هذه الحرب التي دخلوها لمصلحة العالم الإسلامي ، ومن جهة أخرى لن يتسوا المحصول من جلالة السلطان على جنل الإحسان وعظيم الكأفة ، لكل من عمل لتحقيق الغاية المقدسة^(١٨٧) .

وأما برقية أنور باشا الجبوية إلى الشريف حسين فقد كانت أشد حرماً وأقوى لهجة ، وهامي بالحرف «وصلت برقيتكم الهاشمية القائلة إن إحراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الأمة قلباً وقالياً... ولا كان طلب إعلان العفو عن بعض المتهمين ، وتطبيق نظام اللامركزية في سورية ، واستبقاء إمارة مكة في شخصكم السامي وفي أولادكم ، خارجاً عن اختصاص سيادتكم ، فالاستمرار في طلبه ليس من مصلحتكم في شيء» .

«وإني أبلغكم بأنه لا بد من أن ينال المعتقلون عفايهم ، كما أن حقوق سيادة ملجأ الخلافة مستظل في الحجاز كما كانت عليه ، وكما هي في جميع الممالك الشاهانية ، وأوصيكم ملجأ بأن تستدعوا ولذكم الموجود في المدينة إلى مكة فوراً ، وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بإرسالهم إلى دمشق ليكونوا بقيادة ولذكم فيصل ، وينتهي أنه سيظل (أي فيصل) ضيقاً على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب»^(١٨٨) .

غير أن جمال باشا ، بعد أن مر على ذلك فترة من الزمن وهذا روعه ، أرسل كتاباً إلى الحسين يعني من ورائه تلطيف الجو بينه وبين الشريف قال فيه «لقد بلغني أنكم تأثرتم بما بدر مني نحوكم على أثر الأحداث التي فاتتني بها تجللكم ، أو المخافات التي وردتنا من مقام دولتكم ، قرأيت أن معكم الحق في بعض ما اتفقتم من أجله ، وأن ليس معكم حق في بعض الآخر . واليوم نظراً لأن ما يعانيه

(١٨٧) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٧٦ - ٣٧٨ .

(١٨٨) مجلة الحرب العالمية الأولى ، جلد ١٣ ، ص ٦٦ - ٦٧ .

العالم الإسلامي، وبخاصة منه الوطن العثماني، يضطر رجال الإسلام ممن يشكلون أركانه أن يتناسوا مطالبهم الخاصة، ويتجهوا بكلّهم إلى بلل التضحيات التي تؤمن السلامة العامة للوطن. لذلك فإنه إذا كان قد بدر مني شيء مما اقتضته الظروف الطارئة، فمن الموافق جداً أن يدرج لي علي النسيان^{١٨٢}. فما كان من الشريف حسين إلا أن أجاب على هذه الرسالة بما يتفق مع لهجتها الملطفة قائلاً إنه لا يزال يكرر المدعاء آناء الليل وأطراف النهار أن يجعل النصر والتوفيق حليف دار الخلافة الإسلامية، ومقام السلطنة السنية، وأنه تظفراً لما يعانيه العالم الإسلامي وبخاصة منه الوطن العثماني من المخاطر العظيمة، فإنه قد أحسّى هامته بكلّ لحر، ولا يزال يحثها في كثير من الحالات لما تقتضيه مصلحة الوطن وسلامته^{١٨٣}. لكن الشريف حسين، حينما أجاب جمال باشا بهذا الجواب للطريف بتأثير برقيته التي تحمل للروح نفسها، لم ينس مع ذلك ما كان في برقية جمال الأولى من تنديد وتهديد، فأردف قوله السابق بما أثار الغرور في نفس جمال، فقد بين له أن طلبه المعفو عن المعتقلين ليس إلا من مصلحة الحكومة، ولم ينس أن يشكو مر الشكوى من بصري باشا حاكم المدينة المنورة، مضيقاً إلى ذلك قوله إنه بأني أن تسلب منه بلا مسوغ حقوق منحها إياه الخليفة العثماني. فثارت نائرة الطاغية عند ورود هذه البرقية إليه، ثم عنها ما جاء في مذكراته عن سلوك الشريف علي حيال بصري باشا في المدينة، ذلك السلوك الذي وصفه بأنه أصبح لا يطاق، فاستدعى الأمر فيحصل وأطلعه على رد أبيه، ثم أئذره بحدة بأنه إذا لم يكف عن تدخله في شؤون الحكومة، فلا بد من استعمال القوة معه، مبيّناً أنه لم يستطع إدراك القرض من سلوك أبيه وأخيه، فمن جهة يعملان على تجهيز المتطوعين لحملة القنّاة، والحكومة جاهدة في إمدادهم بالمال والرجال، ومن جهة ثانية يلاحظ على أبيه نزعة الإنقصال، وهى سلوك أخيه في المدينة أنه يتفق وما يتزعج إليه الوالد، وأنهم إذا أرادوا أن يفوزوا أصدقاء لما عليهم إلا مرعاة قوانين الصدقة. ثم يختم كلامه قائلاً: «أما إذا كنتم ذوي غايات أخرى فالأولى أن تلتجئوا إلى السلاح وتجهنموا إلى توريكم في الحال، وبذلك تنتهي المهزلة ويصبح كل منا ظاهر العداء للآخر... وأما إذا كنتم لا تهتدون الثروة، ولا تضعمرون الشر، فاكذب إلى أخيك على بك كمي يحضر إليّ في الحال...»^{١٨٤}.

وبعضي جمال في مذكراته قائلاً إن هذا الكلام كان له من الأثر على فيصل بحيث علا وجهه

(٨٩) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 251 ; استناداً إلى مذكرات الجرنال علي فؤاد أودن المنشورة في صحيفة «دنيا» في

١٩٥٥/١٠/٧.

(٩٠) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 252.

(٩١) مذكرات جمال باشا، ص ٣٨١ - ٣٨٦.

الإصرار ونهض من مقعده، واستغرب كيف يحظر لجمال أن يعزو لأسرته هذه التهم، وكيف يليق بأسرته أن تُنسب إليها الخيانة بينما هي من سلالة الرسول، وقرى من أكبر الشرف لها أن تكون من الرعايا المخلصين للخليفة، وأنه أبدى استعداداً لتسوية الخلاف بين أخيه وحفاظ المدينة بهصري باشا^(١٢٦).

ثم يفيض أسبوع أو أسبوعان على ذلك حتى تُقذت أحكام الإعدام بالقافلة الثانية من الشهداء، بعد أن جاهد فيصل في الحصول على صفو عن أفرادها، وكان لا يني عن مقاطعة جمال بذلك في كل مقابلة، بحيث تحول الحديث إلى جهة العفو كلما سئمت له الفرصة، لا بل كان يصف بعض الأعيان الذين يشهون لزيارة جمال ولا يستنحون المقرض لفاتحته بأمر العفو والعمل على إنقاذ رقابهم، حتى إن فيصل قد أولم لجمال ولعة في القابون، قبيل تنفيذ الأحكام بأيام قلائل، خاصة لفاتحته بهذا الأمر، لكن أمسه بحباب وجمع جواباً حازماً من الطاغية، كما مر معنا فيما سبق. غير أن حكم الإعدام لم يكن قد نفذ بعد بالشهداء حينما تلقى الشريف حسين من أنور باشا برقية المشددة للهجة التي حدده فيها بإبقاء ابنه فيصل رهينة لدى الجيش الرابع، فلما استلمها الأمر عبد الله، وفك رموزها عرضها على والده، فتلاها وقال: أيهدني، وأردف ذلك بيت شعر:

سوف ترى إذا انجلي الغيارُ أفـرَسَ نَحْتَك أُم حمار؟

ثم التفت إلى الأمير عبد الله قائلاً: أكتب الجواب حالا للمصدر الأعظم ولوكيل القائد العام (أنور) ١.

ليس لي ما أقوله سوى النصيحة الأخيرة في برقيتي، وبها ضمانة اغتيال العرب إلى صفوفكم بقلوبهم. أما ابني فيصل فلم أبعث إليكم وأنا أعتقد أنني أراه مرة أخرى، فما عساي أن أقول عن إبقائه رهينة في دمشق؟ وبعد يومين وردت برقية من المصدر الأعظم تقول: بعد التأمل رأينا شكر سيادتكم على أجنحتكم. فإذا بعثتم بالمجاهدين إلى الشام أشعروا جمال باشا لهذا نكر نجلكم للسامي الشريف فيصل ملك فيما يتعلق بالمجرمين السياسيين^(١٢٧).

لكنه لم يفض أيام قليلة حتى بلغت مسامع الشريف أنباء تنفيذ حكم الإعدام بالشهداء،

(١٢٦) المصدر السابق، ص ٣٨٦—٣٨٧.

(١٢٧) مفكرات الملك عبد الله، ص ١٠٦.

فاضطربت أفكاره ، وشغل فكره بصورة خاصة ما جاء في برقية أنور باشا بشأن استبقاء لجهل فيصل رهينة في دمشق . كما كان قد شغل فكر فيصل ما جاء في طلب جمال منه أن يكتب إلى أخيه علي بلزوم القلوم إلى دمشق ، وتبادر إلى ذهنه حالاً أنه يريد استبقاءهما معاً رهينة لديه ، فأخذ فيصل من جهته يعمل على الإغلاقات بين الأكر ، كما أخذ والده من جهة أخرى يعمل على إنقاذه مما هو فيه بأية وسيلة وبأي ثمن ، فراح يجمع النظر في ما عساه يخرج من هذه المروطة . فعيننا عزم على إرسال برقية الجوابية إلى الصدر الأعظم شرع يعمل الفكر في كيفية صياغة جوابها ، وسكب فيها كل ما أوتي من دقة ومعاودة في التعبير ، فجاءت تنطق بالخطر والدهاء . وقد بحث بها في ١٢/٥/١٩١٦ وقدمت ما على « أننى ممن على تطلقكم بالجواب ، أما بشأن المجاهدين فإنهم مستحركون كما عرضت لكم في برقيتي المورثة في ٢٧/٤/١٩١٦ ، ولكن سوفهم من مكة يتطلب أن يكونوا مزودين بكامل السلاح والذخيرة ، فضلاً عن أنهم أصروا على عدم السفر إلا إذا حضر فيصل ليأخذهم ، فإذا كانت الرغبة حقيقية يكون من الأفضل أن أرسل فيصل لقيادتهم »^(٩١) .

لقد خاف الشريف على ولده فيصل من أن يساق إلى المشتقة كما سبق غيره من الأكر ، ومن جهة أخرى يريد استدعاه قبل أن يعلن الثورة التي يستعد لها . وكان في ٢٦/٤/١٩١٦ قد أبرق إلى جمال أنه يحده إلى مكة على أن يرجع إلى دمشق بعد شهرين ، لكن جمال باشا أجابه برفقة يقول له فيها بأنه لا يمكن إرساله بداعي الاستحضار لحملة السويس المقبلة^(٩٢) . وهكذا كان على فيصل وأبيه أن يفكروا في طريقة للخروج من المأزق .

في هذه الأثناء كانت المراسلات السرية تجري بلا انقطاع بين فيصل والده وأشقائه ، ويطلبهم بكل ما يقع في دمشق من حوادث ، وما يدور بينه وبين الترك فيها ، وأخيراً جرى الاتفاق بينه وبين والده وأخيه علي بأن يوعز هذا الأخير لزعما المتطوعين أن يقرحوا استخدام الأمير فيصل من دمشق ليذهب معهم إلى جبهة القتال ففعلوا . وقام فيصل بمثل هذه المساعي في دمشق ، فرار جمال باشا ، وأبلغه أن شقيقه علياً تلقى أمراً من والده بأن يسافر إلى القناة ، وأنه يريد الذهاب إلى المدينة ليأتي على رأس المتطوعين مع أخيه إلى القدس^(٩٣) . وأكد له أن ذهابه سيؤثر في نفوس المجاهدين تأثيراً

(٩١) Y.H. BAYUR, Ibid. III, 234. نقلها عن مذكرات علي قزاق أورد الموه عنها سابقاً أمين سعيد ، الثورة العربية ... ج ١ ، ص ١٦١ أمين الريحاني ، ملوك العرب ، ص ٦٨ .

(٩٢) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 238.

(٩٣) أمين سعيد ، الثورة العربية ، ج ١ ، ص ١١٥ مجلة لشرق شامية الأولى ، مجلد ٣ ، ص ٦٩ — ٧٠ .

حسناً، فأجابه إلى طلبه قائلاً له «أخذ إلى المتطوعين واستقبلهم باسمي، ثم الكتي بهم هنا» مينا له أنه سيوصل معه بعض العلماء من دمشق ليكونوا في ركابه، وبذلك يؤلف وفداً خاصاً لاستقبال المجاهدين^(٩٧).

يقول جمال باشا بأنه أحس بالخدمة التي ينهها فيصل من فرجه الشديد لما ولفق على ذعابه، وأنه أشرك مع رئيس أركان حربه بأن الثورة وشبكة الوقوع^(٩٨). لذلك أوجز إلى والي المدينة بأن يُغني لديه الكمية المؤلفة من ٣٥٠٠ / رجل التي كانت أرسلت مؤخراً من الآستانة إلى اللجنة الثورية لتكملة ملاك فيلق الجيش، وأن يقوم الضباط الموجودون بتمرير الجنود وتسلحهم بالبنادق التي كان في النية إرسالها إلى متطوعي مكة، الذين أمر جمال بأن يأتوا من مكة إلى المدينة مشياً على الأقدام ويكون سلاح، عندما ساروا للشك في وضع الحسبون من مراسلاته الأنخوية، وأنه أوصاه بالهذر والبقاء على أهية الاستعداد للدفاع عن المدينة في حالة مهاجمتها نظراً لسلوك الشريف حسين الباعث على الرمية.

ثم رأى جمال أن يرسل، من باب الاحتياط، قائد الفيلق فخري باشا إلى المدينة بمجعة زهارة الروضة الشريفة، بعد أن شرح له الحالة، وأنه يتوقع من الشريف أن يثور قريباً، وأوصاه أن يرتب مع مصري باشا وسائل الدفاع عنها، وأن يبادر فوراً، ومتى شعرا بحركة تدل على قيام الثورة، أوهما إلى استلام قيادة الجيش والثاني إلى استلام الإدارة الملكية^(٩٩).

سافر الوفد بطريق مكة حديد الحجاز في منتصف شهر أيار ١٩١٦، وكان مؤلفاً من الأثوري فيصل رئيساً، وكاظم بك مفتش المنزل (الذخيرة والمؤن)، وآصف بك المستشار العدلي للجيش الرابع، ونسب بك البكري، والشبيح عبد القادر الخطيب، أعضاء^(١٠٠). لقد فرح فيصل فرحاً شديداً لخروجه من المأزق، وعندما وصل إلى المدينة أقام في منزل شقيقه، كما وصل إليها فخري باشا، ثم تواردت عليها قوات جديدة تعزز القوات الموجودة فيها، فأوجس الشريف حسون نتيجة من

(٩٧) مذكرات جمال باشا، ص ٣٨٩.

(٩٨) يناقض جمال باشا نفسه هنا، فقد جاء في الصفحة ٣٨٨ من مذكراته، إنه لم يعلم بأمر اتفاق الحسبون مع الإنكليز وجره على الثورة، لأن بقاء قبض على فيصل وأمنه حل، ولأرسل لفرقة إلى مكة احتلت الشريعة حسين وأولاده، واقتصاص على تلك الثورة في مهدها.

(٩٨) مذكرات جمال باشا، ص ٣٩٠ - ٣٩٩.

(٩٩) هنا أبو راشد، للصدر السابق، ص ٨٦.

هذه الحركات العسكرية التي يحشدتها الترك في المدينة بحجة السفر إلى اليمن ظاهراً، لأنه فهم أن خافهم الأولى هي الاستيلاء على قاصية الحلال في مكة، بالاتفاق مع القوة التركية الباقية فيها، وعند ذلك تنهار آماله ويضعف مركزه. وعليه قرر الإسراع بإعلان الثورة يرغم عدم إتمام استعداداتها، خوفاً من المفاجآت، وأعلم فيصلاً في المدينة بفراوه، وأصر على ذلك عندما طلب منه فيصل تأجيلها إلى شهر آب، حيث ينتهي جمع الغاصيل.

نزل فيصل عند إرادة أبيه وقرر ألا يعود إلى دمشق مع أعضاء الوفد، واعتذر إليهم بأن ثمة مشاغل ضرورية تضطره إلى البقاء في المدينة أياماً أخرى، وأنه لا يزال يناقش جهلاً بشأن المطوعين أسافريين بالقطار إلى دمشق، أم يذهبون رأساً إلى القنطرة؟ وأن عليهم ألا ينتظروه، إذ إنه سيلحق بهم متى انتهت هذه المفاوضات. فذهب الوفد معه نسيب البكري الذي ما إن وصل إلى دمشق حتى بدأ يسفر عائلته بالقطار ويستعد للسفر، إلى أن أنه يرقية تتضمن لغزاً اتفق مع فيصل عليه، يعني قيام الثورة، فهرب مع الخمسين فارساً الذين كانوا بمعية فيصل في دمشق، وكان جمال حينئذ في بيروت، فلما عاد إلى دمشق وعرف بالأمر لوعز بمطاردتهم عنياً^(١٠٠).

وبعد أن تم الاتفاق على إعلان الثورة قابل الأخوان (فيصل وصلي) يوم ١٩١٦/٥/٣٠ فخري باشا، وأعلماه على يريقة أنور الأحمري الشديدة اللهجة المرسله إلى والدهما والمليقة بالتهديد. وقد مر ذكرهما. وأقهما أنهما بعد هذه البرقية لم بعد باستطاعتها الدوام على العمل مع الحكومة، وأن أحدهما علياً سيمود إلى مكة عملاً بإشارة الشريف. فاعتذر فخري باشا بأن ما جاء فيها هو نتيجة لتسرع غير مقصود، وأنه لا يد من تسوية الأمور في المستقبل، فأظهر الرضى من كلامه، وجرى الإنفاف على أن يبقى فيصل في المدينة ليقود المجاهدين إلى القنطرة بدلاً من شقيقه، ثم برح الأمير علي المدينة في ٦/١ متوجهاً إلى موقع «سيدنا حمزة» حيث يحسك المطوعون، على أن يبيت فيه ليلة ثم يسافر في الصباح إلى مكة، ورافقه أخوه لوداعه، على أن يعود بعد وداعه لأخيه إلى المدينة، ففضيا ليلتهما في المعسكر. وفي الصباح التالي ٦/٢ كتباً مشتركاً إلى فخري باشا وبصري باشا، أرسلاه مع مرافق فيصل. وهو ضابط تركي. جاء فيه «حيث إن رجال الحكومة أساءوا فينا الظن، ولما كان ذلك يحول بيننا وبين الاستمرار في التعاون مع الحكومة، فقد عدنا إلى مكة بناء على البرقية التي تلقيناها من والدنا لعدم استطاعتنا البقاء».

(١٠٠) المصدر السابق، ص ٨٦.

ثم سارا مع معني هجلا إلى مكة، وفي الطريق أخفا بوجهان الرسل إلى القبائل يدعوها للانضمام إليهما حتى اجتمع لديهما نحو من ٦٠٠٠ مقاتل في أسبوع واحد، هاجما بها الخط الحديدي واشتبكا مع قوة تركية خرجت إليهما من المدينة بقيادة فخري باشا نفسه. ثم انسحب الأتومان على أثرها نحو «بر الماشي» بالغدير. وكانت أول معركة جرت بين الطرفين قبيل إعلان الثورة، ثم اخترق الأتومان فسار فيصل إلى «ينبع»، وبقي علي وحده مع هذه القوة ليقاتل الترك فيما بعد ويحاصر المدينة^(١٠١).

قال جمال باشا في مذكراته «لما بلغ فيصل المدينة كتب إليّ مبرأ عن سروره لأن شقيقه عليّ سيقاتلي قريباً، وما أن الشريف حسين سألني أن أرسل إليه مبلغاً من المال لإغاثته على المجاهدين فقد أبرقت إلى محافظ المدينة ليسلمه ما طلب، وذلك قبل إعلان الثورة»^(١٠٢). وهم جمال حديثه غاملاً إن فخري باشا طلبه يوماً على الهاتف وأقبحه أنه ذهب بدعوة من فيصل وعلي إلى موقع «سيدنا حمزة» حيث شهد ألبانياً قروسة من المتطوعين، وحيث جرى الإنفاق على أن تسافر أول كتيبة من كتائب المتطوعين في هذين اليومين إلى درعا، إلا أن الموقف تبدل في الصباح التالي، إذ وردته ثلاثة كتب: الأولى من الأمير علي إلى فخري باشا، والثاني والثالث من الحسين - بطريق الأمير علي - أحدهما لجمال باشا، والثاني للصدر الأعظم. أما الكتاب الموجه إلى فخري باشا فيقول يتوقف إرسال المتطوعين إلى فلسطين بناء على أمر والده، وأنه متوجه مع المتطوعين إلى مكة، وأنه آسف للهابية دون أن يودعه. وأما الآخران فمكتوبان بالشفرة، لذلك أرسلهما فخري باشا إليه تلك رموزها، وأن فخري باشا أعلمه أنه أرسل إلى المكان الذي كان فيه المجاهدون بالأس كتيبة فوجدته تناوباً على عرشه. ثم أمر جمال بذلك رموز الكتائب فإذا بهما ما يلي: يعتذر الحسين في أولها الموجه إلى جمال من عدم استطاعته الإسهام في حملة القناة حتى يجاب طلباته التي تقدم بها سابقاً، وإلى أن يكف المسؤولون الأتراك عن اتباع خطة الإيهام والغشوض حياله. أما الخطاب الموجه إلى الصدر الأعظم فقد جاء فيه أنه لا يعرف أي الرجلين يصدق وأهذا السياسي الذي يتعامل معه مباشرة، ولطالما أظهر له الجحالة والود (وتقصد بذلك سعيد حليم باشا)، أم ذلك الذي استعمل معه أخطاءاً جارحة مهينة (وتقصد به أنور باشا). لذلك فهو يرى نفسه مضطراً إلى قطع العلاقات مع

(١٠١) أمين سعيد، الثورة العربية، ج ١، ص ١١٥ - ١١٧ مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٧١ - ٧٢.

(١٠٢) يقول نسب التبركي إن الأتراك سلموا فخري في يومه ١٨/١٠ ألف بندقة مع ٢٠ ألف ليرة ذهبية (مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص ٧٢).

الحكومة حتى تهباب المطالب التي طلبها من أتور باشا منذ شهرين^(١٠٦) . ولم تمض بضعة أيام على هذه الحوادث حتى اندلعت الثورة التي كانت نهاية المطاف في سياسة الجذب والنفذ بين الترك والحسين بخاصة وبينهم وبين العرب بمامة .

(١٠٦) مذكرات جمال باشا، ص ٣٩٢ - ٣٩٦ .

الباب الثاني

عوامل الانفصال الخارجية وثورة الشريف حسين

الفصل الأول : المفاوضات الإنكليزية - العربية وانزعا في الإنفصال .
 الفصل الثاني : الصفقات الخفاء لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وتصريح بطور .
 الفصل الثالث : الفسوة العربية .
 الفصل الرابع : حرب العراق وسورية وفلسطين .
 الفصل الخامس : المراحل التالية للعلاقات العربية - التركية .
 الخاتمة : الانفصال والانهيار العثماني .

~~~~~

~~~~~

الفصل الأول

المفاوضات الإنكليزية - العربية وأثرها في الانفصال

حينما قامت الحرب العالمية الأولى كانت مطامع الدول الأجنبية في الأراضي العربية قد تبلورت ، وسياستها في هذا المجال قد استقرت على شكل يجعل إنكلترا تحدد منطقة نفوذها بجنوب الجزيرة العربية والخليج العربي ، بالإضافة إلى مصر ، مع السيطرة على قناة السويس ، ولأانيا يمر سكة حديد بغداد والحلم في السيطرة على وادي الفرات ، وبحق إنشاء مرفأ الإسكندرية ووصله بمدينة العثمانية بخط حديدي ، وفرنسا في سورية ولبنان^(١) . وكانت كل دولة من هذه الدول تعتمد على عنصر من عناصر السكان في المنطقة ، فالإنكان كان اعتمادهم على قسم كبير من الضباط الأتراك الذين درأوا عسكرياً في ألمانيا ، والفرنسيون على موارد لبنان والسُكَّيين فيها ، والإنكليز على الدروز وهم أصدقاءهم القدامى . ولم تكن روسيا بعيدة عن هذا الصراع ، فبالإضافة إلى مطامعها في الآستانة والمضائق ، كانت تنافس فرنسا في بلاد الشام ، وخاصة منها الأراضي المقدسة في فلسطين ، وإن ظهر من الدولتين المذكورتين تعاون ملحوس ، في فترة ما قبل الحرب بقليل ، تجلي في افتتاح المدارس الجديدة وإنبيال الطلبات لتقديم الصين المال للمطبخ القائمة ، وتأسيس الشركات ، وازدهار للتدخل في الشؤون المدنية ، مع حرص كل من الدولتين على التأكيد أن هذا النشاط لا يرمي إلا إلى أغراض ثقافية واقتصادية . وكان الروس يعتمدون على الطائفة الأرثوذكسية^(٢) .

(١) مطلع المصري ، يوم ميلاد ، ص ١٣٥ ذكر نور الدين حاطيم ، العرب والدولة العثمانية وأوروبا ، ص ١٥ - ١٦ .

(٢) أنطوليوس ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨ ، وفيه تفصيلات وافية عن هذه القضية ، NADRA MOUTRAN, La Syrie De Damas, p. 29 .

وإذا كانت فرنسا لم تكن مخاوفها، في ذلك الوقت، من منافسة إنكلترا لها في هذه البلاد التي طالما احتدم الحصار بينهما على مناطق النفوذ فيها^(٣)، فقد كان لها ما يبرر هذه المخاوف، ذلك أن الحكومة البريطانية التي حفرها على العمل ما لمسته من امتداد الخطر الألماني نحو الشرق العربي، بما يكاد يهدد نفوذها في أكثر المناطق حساسة بالنسبة إليها، وهو العراق، قد عملت في الشياهرن: أولاً الوقوف في وجه الامتداد الألماني في العراق والثاني في بسط سيطرتها، إذا أمكن، على المناطق الغربية من العالم العربي، حتى ولو كلفها الأمر تجاهل مصالح فرنسا فيها، كجزء من العمل لتعزير اتجاهها بالقول، إن يونانكاره لم يكن واحداً عندما أطلق تصريحه الشهير سنة ١٩١٢م^(٤)، الذي كان - في الواقع - تمهيداً لإنكلترا، وفي الوقت نفسه توثيقاً لحق فرنسا المزعوم في سورية. فقد جاء الدليل المبرر لمخاوف رئيس وزراء فرنسا في ما أثبتته - بعد مرور سنتين على تصريحه المشؤم عنه - محاضر مجلس العموم البريطاني ١٧/٣/١٩١٤ من تدمير النائب الإنكليزي «مارك سايكس» حينما وقف يستند التصريحات المطمئنة التي كانت قد أعطت آنذاك لفرنسا، فيما يتعلق بالموضوع الذي أثاره خطاب «يونانكاره» في مجلس الشيوخ. فأجابته اللورد غراي، وزير الخارجية الإنكليزي، بأن الأمر لم يكن سوى عبارة عن عهدة لروع الفرنسيين، فيما يختص بالمسائل الاقتصادية فقط، وأن تلك التصريحات المطمئنة لا تمس مسألة اقتسام مناطق النفوذ في الشرق العربي^(٥).

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المطامع الألمانية في البلاد العربية لم تكن لتخفي نفسها، ولم يكن سعي ألمانيا للتوسع الاقتصادي في آسيا الصغرى، وتظاهرها بدعم المسلمين، وتجنبها إليهم واهتمامها بأموالهم، ولو مهما تسر بالمظهر البري، إلا ليس من هذه المطامع^(٦)، التي لم يُخفها الكتاب الألمان. فقد كتب البروفسور «هلفريخ»، وزير المالية الألماني، في بداية الحرب، كتاباً عن «منشأ الحرب العامة»، جاء فيه صراحة أن من أسباب هذه الحرب «رغبة الثغوق في الشرق،

(٣) J. PICHON, Les ORIGINES ORIENTALES DE LA GUERRE, P. 199.

في كتابي السابق «الحرب والفكر في العهد الدستوري المتأخر» بحث وف من مطامع كل من إنكلترا وفرنسا في البلاد العربية، ص ٢٨، ٤٢، ١٧٦، ١٩٠، ٤٢٥، ٤٣٤، وفيما من الصحائف.

(٤) جاء في ذلك المصريح الذي نقوه به في مجلس الشيوخ «ولا أرى لزوماً أن أذكر مجلس الشيوخ أن لنا في لبنان وسورية حقوقاً تاريخية تقليدية، ونحن نريد دائماً أن نراعي مناصتنا وحقوقنا». لم أجد أن لأصح ما أرجله المرحوم عن وجود خلاف بين فرنسا وإنكلترا على هذه المنطقة، وأن الحكومة الإنكليزية قد ثقت أن لها مطامع في سورية ولبنان.

(٥) J. PICHON, Les Origines Orientales De La Guerre, p. 217.

(٦) أمين سعيد، الدولة العربية المتحدة، ص ١٥ - ١٦.

وتحقيق السيطرة على العالم الإسلامي، ثم الرغبة في تعطيل كل قوة تمنع دولة تحكم قسماً كبيراً منه في أن تيسط سيطرتها على جميع أقاليمه الباقية^(١٦). ومعنى ذلك أن ألمانيا لم تكن لتكتفي بيسط نفوذها على أراضي السلطنة العثمانية بشكلها القائم — وفقاً لما نشره المستشرق «سيرنجر» سنة ١٨٨٦ م يكون آسيا الصغرى «تحتل أخصب حقل للاستعمار» بالنسبة لألمانيا^(١٧) — بل هي تريد مساعدة السلطنة في الاستيلاء على جميع البلاد الإسلامية، لتجعلها مطية للاستعمار الألماني على هذه البلاد بأجمعها.

لقد جاء في مقال لأستاذ ألماني، كتبه بعد نشوب الحرب، قوله «إن هدف ألمانيا يمكن أن يلخص بوضع كلمات يجمعها قولنا: البحر الشمالي — الأستانة — بغداد — الأفغانوس — الهند». على أن الإمبراطور الألماني نفسه قد عرف مقاصد ألمانيا بقوله «لأسفون ألماني تمتد من هامبورغ إلى خليج فارس». لذلك وضع القائمون على «البنك الألماني» أيديهم على سكة حديد تركيا — أوروبا، وفر الرأي على أن تكون سكة حديد بغداد أهم الوسائل في بسط السيطرة الألمانية على الشرق الأوسط^(١٨).

في الواقع بدأت ألمانيا اعتمادها الفعلي بقضايا الشرق منذ مؤتمر برلين (١٨٧٨)، ذلك أنها قد أصبحت — خلال الثلاثين سنة الأخيرة — بلداً صناعياً كبيراً، فوجب عليها أن تعنى بإيجاد منافذ تصريف لمنتجاتها الصناعية، وبجالات تشغل بالتعهدات والأعمال العمرانية لشركاتها، وبجالات توظيف لرؤوس أموالها، وأعمال مصرفية لإنعاش بتوكها. لذلك سرعان ما اتجهت فعالية الرأسماليين وأطماع الصناعيين الألمان نحو الشرق: الأناضول، سورية، العراق، هذه البلاد التي تتمتع بالعنصر العظيم غير المحدود^(١٩). فأتخذت ألمانيا تتطلع نحو السيطرة عليها، وشرعت بعض جرائدها وبعض كتاباتها يتكلمون عن طموح إلى ما سموه بـ «الهند الجرمانية» في بلاد الشرق. وقد كتبت مجلة «داي بوست Die Post» في ١٦/١١/١٩١٢ «إن سورية وبلاد ما بين النهرين ثخسان ألمانيا، فإذا كانت فرنسا تريد لها لها عليها إلا أن تستولي عليها بالقوة»^(٢٠) وحدد الكتاب «هانز دلهبروك

(١٦) مجلة «تورك بورد» السنة الرابعة، عدد ١٩١٦/٦/١٨، عن كتاب البروسور هلفريخ.

(١٧) لردان وليه، «الأسس التاريخية لمشكلات الشرق الأوسط»، ص ٢٩.

(١٨) مطبعة المتوسط، تاريخ المغرب العظمى، ج ٥، ص ٤٨٤، عن المستر ويسن.

(١٩) ATALA La Syrie ... p. 32.

(٢٠) NADRA MOUTRAN, Ibid p. 50 «تكتب نور الدين حاطوم - العرب والنفقة العثمانية وأوروبا في الحرب العالمية

الأولى، محاضرات (على المتأخرات) ألقيت على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٢ ص ٦٢.

HANZ DELBRUCK « في كتابه المسمى «*Le Legs de Bismarck*» هذه الهند
 الألمانية بأنها آسيا الصغرى وما بين النهرين. أما الكاتب «ماكس هوشيللر»
 HOSCHILLER في مقال نشرته جريدة «*La Cose de la Banque et de la Bourse*» فيقول إن
 ألمانيا إذا كانت ترمي إلى الاستيلاء على الآستانة، فهي الدرجة الأولى لتضمن توليد أركان سكة
 حديد هامبورغ — بغداد. ويعترف «فون كيردوف» VON KIRDOFF رئيس نقابة الفحم ورئيس
 شركة مناجم وصناعة «جلسنكيرشين» GELSENKIRCHEN بأن «الحاق أراضي الشرق ضرورية
 لحماية لألمانيا، لأن مصالح الإمبراطورية الحيوية تقضي بإنشاء مناطق جديدة للإستعمار الزراعي،
 وتنمية الموارد الزراعية، إلى أن يصبح بإمكانها أن تكفي نفسها بنفسها...». وفي محاضرة أقيمت
 بحضور «غليوم الثاني» أيرز «فون غوينر» VON GWINER مدير البنك الألماني «الغوائد العظيمة
 التي تنجم عن استصلاح واستثمار سهول الأناضول وما بين النهرين التي تصلح لزراعة الحبوب
 والقطن بشكل عجيب». ويلاحظ «ماكس هوشيللر» بأن «الهند الألمانية» قد اكتشفها
 الإنكليز، مشيراً بذلك إلى الكتاب الذي وضعه المهندس الإنكليزي الشهير «وليم ويلكوس» W.
 WILCOCKS بعنوان «ري العراق» *Irrigation de la Mésopotamie* (نشر في القاهرة ١٩٠٩)،
 وعرف فيه على الفكرة الجريئة التي تبنتها ألمانيا. وصرح البرنس «بولوف» De BULOW بأن «مشروع
 خط بغداد تمتعته للمشايخ الألمانية الهادفة إلى السيطرة على المناطق الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط
 والخليج الفارسي (العربي) وعلى حوضي الدجلة والفرات، حيث توجد ممتلكات لا مثيل لها في
 الخصب. وإذا جاز القول فإن في العراق آفاقاً لا نهاية لها^(١١). ويظهر أن ألمانيا قد جندت إمكاناتها
 المختلفة لهذه الغاية، إذ كان لضباطها الوافدين إلى تركيا مهمة أخرى غير التي أوكلوا من أجلها. فإلى
 جانب عملهم العسكري كانوا ينتحلون مهنة الصحافة، ويحللون منبى الجهد للحصول على
 الرسوم والخزائن المصولة، والمعلومات الدقيقة الضافية عن كل قطر من الأقطار العربية. كان كل
 واحد من هؤلاء إذا احتجته وجدته يلم بالتفاصيل الدقيقة، وكأنه من الاختصاصيين المتعمقين في
 هذه الدراسات: يعرف نزعات زعماء القبائل العربية، وأحوال قبائلها وآراء مفكرها، باختصار
 يعرف معرفة دقيقة أحوالها الجغرافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية^(١٢).

وهكذا فإن شركات ألمانية قوية مدعومة من حكومتها من جهة، ومتضامنة بعضها مع بعض

(١١) NADRA MOUTRAN, Ibid. pp. VII, VII.

(١٢) أحمد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص ٥٢.

في مجال المنافسة الاقتصادي من جهة أخرى، قد اندفعت في تيار التوسع الاقتصادي. مثل البنك الألماني و«بنك درسدن» و«بنك ديسكونتو جيسلشتاقت» Diskonto Gesellschaft... الخ. وقد أنهى قبل الحرب العالمية بضع سنوات «البنك الفلسطيني» — الألماني La Deutsche Palästina Bank في فلسطين، ولم يلبث أن فتح له فروعاً في القدس وحيفا ويافا وغزوها، وذلك تطبيقاً لمبدأ الماليين الألمان بأن المصارف يجب أن تتقدم التجارة وتسيء لها الاعتبارات اللازمة والدعم المالي الكافي^(١٢).

ثم لم يلبث هذا المتفجع الاقتصادي أن برز بشكل آخر بالخطوط الملاحية، فحوالي سنة ١٩٠٤ لم يكن ثمة سوى شركة ملاحية ألمانية واحدة: لخط الشرق الألماني (Le Deutsche Levante Linie) والذي كان يجوب شرق البحر المتوسط. ولكن من سنة ١٩٠٤ إلى ١٩١٤ أنشئت ثلاث شركات ملاحية في أقل من عشر سنوات، وأصبحت يواخرها تجوب البحر الأبيض المتوسط منافسة في ذلك الخطوط الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والروسية والمصرية، مشكلة شبكة من الخطوط غابتها تعهد مراقب للشرق رؤية ألوان العلم الألماني أكثر من جني المنافع الآتية^(١٣).

ولما لم يكن الإنكليز يجهلون ذلك، فقد أقض مضجعهم هذا الخطر الاستعماري المداهم في منطقة يعتقدون أن من حقهم السيطرة عليها. ولم يفتأ اللورد كاتشجر — المتحدث البريطاني في مصر، قبل الحرب، والذي عرف بمهيق خبرته في الأمور الشرقية، نظراً للخدمة الطويلة التي قضاها في الهند والسودان قائلاً عاماً للجهش — يتابع بقلق تام نمو النفوذ الألماني في هذه المنطقة، فاختصرت في ذهنه فكرة اقتطاع جزء من الدولة العثمانية، جنوب محط حيفا — عكا — العقبة، يؤلف منه دولة عربية مستقلة^(١٤)، توضع تحت الحماية البريطانية، أو تشجيع الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية ومساعدتها في الحصول على استقلالها، وتكون دولة واحدة، أو مجموعة من الدول مستقلة استقلالاً داخلياً، وترتبط بانككترا برباط الصداقة، وتشكل حزاماً إنكليزياً — عربياً يمتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط غرباً حتى حدود إيران شرقاً، ويقف سداً منها أمام المد التركي — الألماني^(١٥) ويحطه

(١٢) PINON, René — L'Europe et l'Empire Ottoman, p. 322.

(١٤) ATALA, Ibid, p. 33.

(١٥) فريتل وفيه، المصدر السابق، ص ٦٢.

(١٦) فليوتيرس، المصدر السابق، ص ٢٠٨.

على قناة السويس والمحيط العربي ، وعلى الطريق البرية المؤدية من سواحل البحر المتوسط إلى ساحل الخليج العربي ، وحقول البترول في العراق وإيران^(١٧).

شرع اللورد كيتشر في التجهيد لهذا العمل منذ شتاء ١٩١٣ ، إذ كلف بعثة أثرية برئاسة الكنتين « نوكمب » ، وعضوية لورنس (المعروف) الهجاز في الآثار - وكان حينذاك يعمل في حطرات كركميش (جرابلس) مع بعثة أثرية لحساب المتحف البريطاني - بالذهاب إلى شبه جزيرة سيناء ، وتنظيم خرائط طولوغرافية غدام أغراضاً عسكرية ، تحت ستار العمل الأثري ، بحيث لم يكن لورنس ورفيقه « دوبي » WOOLLEY سوى الواجهة التي تستر « نوكمب » NEWCOMBE وراءها لتنظيم خرائطه العسكرية . ولم يكن تكليف هذه البعثة بهذه المهمة - التي كان اللورد كيتشر قد بدأها عندما كان ضابطاً شاباً^(١٨) عن قهر وجبت ، بل بناء على الخطة التي رسمها ، كما بينت وشرع في تنفيذها ، إذ لم يكده بمضي عام واحد على هذا العمل (أوائل شباط ١٩١٤) حتى اقتسم اللورد كيتشر مرور الأمير عبد الله من الحسين بالقاهرة في طريقه إلى الآستانة ، وقام بزيارته في مقر الخديوية بمصر ، ثم استقبال الأمير في مقره عندما رد إليه للزيارة^(١٩).

صحيح أن مقابلته للأمير عبد الله لم تنطرق إلى مواضيع خطية - إذ إنها لم تتناول سوى إبلاغ الأمير لانتان حكومة صاحب الجلالة البريطانية عن الحالة الراهنة في الحجاز ، وتأمين راحة الحجاج ، وعدم رضاها بأن يجري أي تغيير في مقام الإمارة ، ثم مبادرة اللورد - لدى زيارة عبد الله له - إلى سؤاله عن احتمال إجراء الترك تغييرات أساسية في بلاد العرب ، وعمّا إذا كان الشريف حسين سيسكت إن تناوكت هذه التغييرات ، وتوجه الأمير عبد الله سؤالاً مغابلاً عن موقف إنكلترا من مساعدته فيما إذا حاول المقاومة ، ذلك الذي أجاب عليه كيتشر بأن بين إنكلترا وتركيا صداقة تقليدية لا تسمح بالتدخل في شؤونها الداخلية ، فذكره الأمير عبد الله بدفاع الإنكليز عن الكويت . وأنهيت المداولة بأن اللورد سيكتب إلى حكومته بهذا الشأن^(٢٠) . إلا أن حدوث هذه المفايلة في مثل الوقت الذي جرت فيه ، بعد ما كان من قلق كيتشر من التفضل الأتاني في الشرق ، وظهور بوادر الحذر وسوء الظن بين الشريف حسين والأتراك ، في وقت صادف قدوم وهيب بك والياً على

(١٧) أرسكين تشابلدز ، الحقيقة من العالم العربي ، ص ٦٥ .

(١٨) J. GRAVES, Lawrence Et Les Arabes, pp. 28-29; A. ARMITAGE, Lawrence D'Arabie, p. 27.

(١٩) أنطونيز ، لصغر قسطنطين ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢٠) مذكرات الأمير عبد الله من الحسين ، ص ٧٢ - ٧٣ ، HUREWITZ, ibid. II, p. 13, N° 3.

الحجاز ، وخوف الحسين وبني من نيات الترك نحوهم ، يدل دلالة واضحة على استئطاد الجانبين للجواب والتفاهم إذا منحت الفرصة في مقلب الأيام ، ولم تكن هذه المقابلة ، إذن ، إلا بمثابة جس النبض من الطرفين .

في الواقع تكررت الإتصالات بين السلطات الإنكليزية في مصر ، وبين الشريف حسين قبل الحرب ، وبعد نشوبها ودخول تركيا لها . ولم تكن هذه السلطات تجهل قيمة الشريف ومقدار الاستفادة التي تجنيها من صداقته في حالة نشوب حرب ، وإحياز تركيا لها إلى جانب ألمانيا التي أصبح نفوذها متغلباً إلى الأعمق في ربوعها . ذلك أنه عدا ما للشريف حسين من نفوذ معنوي — بصفته سليل أسرة هاشمية وشرف على الأماكن المقدسة — يمتد إلى ما وراء حدود بلاده ، فإن لسلطة الحجاز التي يجلس على إمارتها أهمية عظيمة . فالحجاز يقع في قلب شبه الجزيرة العربية ، ولي وسط للقوات التركية التي تعسكر في حوائط الحجاز وأهمها جدة ، ولي كبرى مدنه وأهمها مكة والمدينة . فإذا استطاعت إنكثرا أن تستميل الشريف وتحالف معه بحيث تمدد بالمال والسلاح ، وهو من جهته يحدد القبائل التي تمتد سيطرته عليها ، تستطيع عندئذ أن تضرب القوى العثمانية في الجزيرة العربية ضربة قاصمة ، أو على الأقل تعطلها عن العمل ، وتحجز بذلك قوة كبيرة عنها عن الاشتراك في العمليات الحربية ، فضلاً عن أهمية البحر الأحمر الحربية ، من حيث تشكيله واجهة الحجاز العربية ، وتحكم موانئه في الطريق العالمي للمواصلات^(٢١) ، علاوة على كونها تكمل نجاح بريطانيا في فرض حصارها البحري في منطقة الشرق الأدنى والأوسط . كما لا تنكر فائدة التحالف مع الحسين في الحجاز — فيما إذ اقترن بتحالف آخر مع إمارة السور — في دق إسفين بين القوات التركية في الشمال (بلاد الشام) وبين القوات التركية في الجنوب (اليمن)^(٢٢) . فضلاً عن ذلك كله فإن الحسين إذا ما استطاع أن يزيل السيادة العثمانية من الجزيرة العربية عموماً ومن الحجاز خصوصاً ، يكون عمله مطلقاً مع سياسة إنكثرا التفهيدية في شبه الجزيرة العربية ، من حيث زعزعة الحكم العثماني ، وتوطيد النفوذ البريطاني . كما أن إنشاء سلطنة عربية في الحرمين الشريفين خاضعة لنفوذها ينفق مع سياستها الإسلامية أيضاً ، فهي إذا تمكنت من إثارة تستطيع أن تستخدم حركته في الحجاز في إثارة الأقطار العربية السورية والعراقية أيضاً ضد الترك ، ولتبهين من أمر الجهاد الذي أعلنه السلطنة العثمانية بعد دخولها الحرب^(٢٣) .

P. L'YAUTZEV. Ibid. p. 112. (٢١)

(٢٢) دكتور محمد عزت عبد الكريم ، محاضرات في مطبوعة المقيت في جامعة دمشق عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ .

(٢٣) محمد شفيق غزال ، العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية ، ص ٩٥ .

أما الهاديء بالاتصال قبل الحرب فهو الجانب الحجازي (بعد المحاولة الأولى) ذلك أن الأمير عبد الله عندما مر بالقاهرة في نيسان ١٩١٤، في طريق عودته من الآستانة، واجه السير ورنالد ستورز السكرتير الشرق في دار الاعتماد للطبانية بمصر، وحين له استياؤه من السياسة التركية، مستوضحاً ما إذا كانت إنكلترا مستعدة لمُدَّ أيَّه بالسلاح والمؤن للدفاع عن نفسه في حال علوان تركي، فأجابته بالتقي قفراً لصداقتها مع تركيا^(٢٢). والواضح أن الأمير عبد الله لم يطالب بذلك إلا بعد أن شعر بالخطر الذي يحيط بمركز أبيه من أعمال الوالي وهيب بك، وبعد أن اتسمت علاقاته مع المسؤولين، في الآستانة، بسمة التوتر وإرهاق الأعصاب في محاولة من رجال الدولة للوصول إلى أحد مواقف الشريف حسين على مد المسكة الحديدية من المدينة إلى مكة أملاً في إحكام سيطرتهم على الحجاز^(٢٣)، بينما كان الحسين يشعر بينهم السيقة نحوه، ويترك أن تغفل هذه المسكة داخل الحجاز حتى مكة، ثم وصلها بجدة، فيه عرقلة لسلطانه على العشائر، وتقوية للسيطرة التركية، وقضاء عليه وعلى نفوذه في الحجاز^(٢٤). لكن الإنكليز ظلوا في إعراضهم الصوري، في حالة ترقب للموقف في الشرق الأدنى، إلى أن تشتت الحرب، ودخلتها إنكلترا في المعسكر الغربي.

كان كشنر آنذاك في لندن حيث عُهد إليه بوزارة الحربية، فأبرق إلى سكرتيره السابق في مصر عنواً إياه أن يستعلم من الأمير عبد الله، بواسطة رسول سري، عن موقف والده في حال نزاع يقع بين إنكلترا وتركيا، وهل سيقف مع الإنكليز أم ضدهم^(٢٥). فكلف السكرتير بذلك نائراً مصرياً يدعى «علي أفندي أصغر» تنكَّر بزي حاج، وقصد مكة في ١٠/٢٠/١٩١٤، وقابل الأمير عبد الله في الطائف، وسلمه رسالة المستر «ستورز»، فعرضها الأمير على والده الذي جمع ولديه فيصلاً وعبد الله، واستمزج رأيهما، فتصححه الأول بالترتيب ومراقبة الحوادث عن مكتب، باعتبار أن الضمانات غير متوفرة، والبلاد العربية غير مستعدة للثورة، وأرقأى الثاني القيام بثورة. عندئذ أمر الحسين بصرف الرسول أمناً مكرماً مع جواب من الحسين فيه من التمسوى مالمس يرضى الرفض ولا القبول^(٢٦)، قال فيه إنه راغب في الوصول إلى تفاهم مع بريطانيا العظمى، ولكنه مع ذلك غير قادر على أن يغير موقف الحياء الذي يقرضه عليه مركزه الديني في الإسلام، ولَمَّع أنه قد

(٢٤) ذكرور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص ٤٤.

(٢٥) مذكرات الأمير عبد الله ص ٨١.

(٢٦) أحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق.

(٢٧) ذكرور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٢٨) ذكرور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص ٤٥ مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٠٢.

بمطالع إيماناد نار ثثورة إذا ما اضطره الأتراك إلى ذلك ، على شرط أن تمتهد له إنكلترا بتقديم مساعدة فعالة ، فأبرق السكرتير بذلك إلى اللورد كتنشر .

تلقى اللورد هذا الجواب بعد أن كان قد تلقى رسالة من السير جيون ماكسويل ، قائد القوات البريطانية في مصر ، بحث بها إليه في ١٦/١٠ ، من القاهرة بقول «إني لا أعرف ما هي سياسة وزارة الخارجية ، ولكنني لمعتد أنه يجب التقرب إلى العرب المهبطون بمكة واليمن ، وتأييهم على الأتراك » ، فأبرق كتنشر في ٣١/١٠ ، بنص رسالة جوابية بقصد إيهال مضمونها إلى الأمر عبد الله ، وقد استنهلها بإعلان نبأ دخول تركيا في الحرب ، وضمنها وعداً قاطعاً من إنكلترا بأنها تضمن للحسين ، في حالة وقوعه وأتباعه في جانب إنكلترا ضد تركيا ، يقامه في منصب شرافة مكة ، مع احتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته ، وأنها ستحميه ضد كل اعتداء خارجي ، وعهداً بأن تساعد العرب في تحقيق حريتهم ، بشرط أن يتحالفوا مع بريطانيا ، مع التسليم للحسين بإمكان الاعتراف به خليفة للمسلمين ، فيما إذا دعمه المسلمون وباعوه بهذا المنصب^(٢٩) .

وبالرغم من أن عرض الإنكليز قد اقتصر على وعد عامة ، حاولت بها أن تكسب الحسين ، مع حصر مساعدتها له بتأييد كيانه في الحجاز ، وإرضاء طموحه الذاتي بجعله خليفة على المسلمين ، أما بالنسبة للقضية العربية العامة فليس هناك سوى مجرد وعد عام بالمساعدة في سبيل الحرية ، دون تحديد للأقطار العربية التي ستساعد ، ولا مدى هذه المساعدة ، ولا مدى الحرية التي ستساعدهم في إحرازها ، إذ بقيت هذه الأمور كلها عبارة عن ألفاظ عامة مطاطة^(٣٠) . بالرغم من ذلك كله فهم الحسين من هذه البرقية أنها دعوة للقيام بالثورة ، وأن ما جاء فيها خطوية واسعة إلى الأمام ، رأى فيها أشياء محسوسة لم يكن يراها من قبل في الكتب البريطانية السابقة ، أشياء فتحت أمامه أبواب الأمل في تحرير العرب ، فبدأ يوجه جهده إلى تحقيق تلك الغاية بحيث أوجز إلى ولده عبد الله بأن يكتب جواباً لها بعدم مقدرة الشريف على الشهادة بأي عمل عدائي للأتراك قبل استكمال الاستعدادات اللازمة ، وطلب إمهاله بعض الوقت للنظر في جميع الاحتمالات ، ثم يجمع قواته وينتشر

(٢٩) لندلويش ، المصدر السابق ، ص ٢٦٢ — ٢٦٣ ذكره أ. ج. عبد الكريم ، المصدر السابق ، ذكره حليم ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٣٠) ذكره أ. ج. عبد الكريم ، المصدر السابق .

الفرصة المؤاتية لإعلان الثورة، ووعد بأن يكتب إلى المستر ستورز في هذا الموضوع متى حان الأوان. وهكذا توقفت الاتصالات مؤقتاً لتستأنف ثانية بعد ثمانية أشهر^(٣١).

وبينا انصرف الحسين إلى دراسة الموقف من جميع وجوهه إذ أرسل رسالاً يكتب منه إلى أمراء العرب، كما أرسل فيصلاً إلى دمشق فالأستانة وعلياً إلى المدينة، كما مر معنا في الفصل السابق، انصرف الإنكليز إلى متابعة التفاوض مع بقية أمراء الجزيرة العربية، وزعماء الحركة العربية في مصر، وبمختلف الجهات تلك التي بدورها عند تشوب الحرب.

حينما دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط تبحرت آخر ذرة من الأمل الذي كان يراود إنكلترا في وقفها على الجهاد. فأدركت حيث ما سيكون هذا الانضمام، إلى جانب الأعداء، من نتائج خطيرة على سير الحرب، وما يستفيدة الألمان من الأوضاع الجغرافية والعراض الطبيعية، والتموى العسكرية التي تملكها تركيا، ومقدار القوة المعنوية التي سيحمدون عليها من كون السلطان العثماني هو خليفة للمسلمين أيضاً، وإعلانه للجهاد سيحدث، ولا شك، تأثيراً عميقاً في نفوس أهالي المستعمرات الفرنسية والإنكليزية المسلمين، لا سيما الجنود منهم. لذلك رأيت أن تستفيد من قوة العرب للحد من الإنكسارات التي حصلت عليها ألمانيا باجتماعها الدولة العثمانية إلى جانبها^(٣٢)، فبدأت في العمل فوراً لإحداث الإضطرابات في أرجاء العالم العربي، وبجانب إعلان تركيا الجهاد بنشاط كبير، فصر أتره، ونفادي خطره العظيم على موقف الحلفاء. فاتصلت بواسطة رسلها الذين وزعهم في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية بآبن سعود أمير نجد، والشيخ مبارك الصباح أمير الكويت، والأمير محمد علي الإدريسي أمير العسمر، والشيخ العربي عززل باشا أمير الحمرة الواقعة على حدود الأراضي الإيرانية الذي وعدته بأن تعينه والياً على البصرة مدى الحياة^(٣٣). كما اتصلت بالسوريين العرب من زعماء الجمعية اللاهركزية العثمانية وجمعية «العهد» الموجودين في القاهرة، وخاصة يعززل علي المصري والشيخ رشيد رضا، ودارت المفاوضات مع هؤلاء حول ما جاء في برقية اللورد كاتشر إلى الشريف حسين، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة إيجابية. ذلك أن إنكلترا التي هدفت إلى إقناع العرب بالتحالف مع إنكلترا ضمناً لمستقبلهم، اصططحت برغبة هؤلاء الزعماء — الذين كان باستطاعتهم أن يؤثروا على بني قومهم في سورية وبمختلف ولايات الدولة العثمانية، ودفعهم إلى الثورة

(٣١) أكتوبولوس، المصدر السابق، ص ٢٦٤.

(٣٢) ساطع المصري، يوم ميلاد، ص ٤٠ — ٤١.

(٣٣) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 227.

ضدها - في أن تضمن لهم استقلال البلاد العربية، كشرط أساسي لدعوة العرب إلى الثورة، بينما لم تكن السلطات البريطانية في مصر مستعدة لإعطاء مثل هذا الضمان^(٣٥). فقد طلب منهم عزيز المصري، عندما فاضوه بأمر الثورة، أن يعلنوا هم وحلفائهم أن لا طمع لهم في أي قطر من الأقطار العربية، وأن يتعهدوا للعرب بتحقيق أملهم بالوحدة والاستقلال الثامنين، وأن لا يميزوا جيوغرافياً إنكليزية في العراق، ولا جيوغرافياً فرنسية في سورية. ولما سألته المقدم ج. ف. كلايتون، مدير المخابرات العسكرية البريطانية في القاهرة، الذي نوى مع المستر ستورز مهمة الإتحصال بالعزماء العرب في القاهرة، عن وسائله لتحقيق هذا الاستقلال بأيدي العرب أنفسهم، قال إنه يستطيع أن يستأجر بأسرة ونقله وبعض أسحابه إلى البصرة حيث يؤثرون قوة ترحف نحو الشمال والغرب، وفي حالة نجاح الخطة يكون من واجب الحلفاء أن يمدوه بالسلاح والفتوة اللازمين، وإذا لزم الأمر بالتجديد العسكرية. ولكن بشرط أن تكون فرنسية في العراق والإنكليزية في سورية^(٣٦). لكن الإنكليز لم يكونوا على استعداد للموافقة على هذه الشروط فضلاً عن أنهم شعروا بأن إمكانيات عزيز ووسائله ضعيفة ومطالبه كثيرة، وإذا كان ثمة احتمال لنجاح الثورة على يده فإنها لا تحقق لهم الاتساع والسيطرة الاستعمارية التي يتوخونها منها^(٣٧).

اتصل الإنكليز في الوقت نفسه بأعضاء الجمعية اللامركزية، إذ تباحث المستر «رونالد ستورز» مع زعمائهم وسألهم عن خططهم فيما لو دخلت تركيا الحرب، وعن المساعدة التي يستطيعون أن يقدموها للحلفاء في مقابل موازنة هؤلاء لهم في الحصول على الاستقلال، وعما إذا كان باستطاعتهم أن يقوموا بأعبائه، فأفصحوا له عن أملهم في الوصول إلى هذه الغاية فيما إذا كانت انجبار الدولة العثمانية أمراً لا بد منه. وأنهم على استعداد للعمل على استقلال بلادهم، وتأيد كل حركة في هذه السبيل. وبعد اتصالات عديدة تم الاتفاق على أن يكتبوا شروطهم، ويرسلها السيد «رونالد ستورز» إلى الحكومة البريطانية، حتى إذا وافقت عليها أعلنتها رسمياً بواسطة شركة «روجر» للأبناء بحيث تكون معروفة ومذاعة على ملأ الناس. وعلى أن تتعهد بريطانيا بحمل حلفائها على قبولها، والتعهد بها للأمة العربية، كي لا يبقى أمامها أي مجال للطمع في أراضيها. وفي مقابل ذلك تتعهد الهيئات السياسية العربية بالسعي لتفجير الثورة للعربية في كل مكان من بلاد العرب، وشل حركة الجيوش العثمانية. وقد كتب اللامركزيون البيان المطلوب إذاعته وأرسله ليعاد إلى لندن. وكان

(٣٥) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٣٦) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص ٧٤ - ٧٥.

(٣٧) مؤرخ الثورة العربية، الملك فيصل الأول، ص ١١.

من مقتضاه أن يرسل إلى البلاد العربية لدرس الحالة فيها ، والاتصال برعايائها ومكبريها ، واستطلاع آرائهم في الموضوع ، على أن تتولى دار العمادة البريطانية دفع نفقاتهم . وبناء على ذلك غادر محب الدين الخطيب القاهرة متوجهاً إلى البصرة ، كما سافر الشيخ محمد الفلقول إلى سورية ولبنان . وبينما قُض على الأول من قبل الإنكليز في البصرة - لاختلاف في وجهات النظر بين سياسة الإنكليز في الهند ولتكتب البيهاتاني العربي في مصر حول المسألة العربية - وكان الهجوم الإنكليزي على العراق قد بدأ إثر اشتراك تركيا في القتال إلى جانب ألمانيا ، وظل ما يقارب من عشرة أشهر في غياهب السجن ، عاد الثاني على الفور ، ولم يطل الإقامة في دمشق وبيروت خوفاً من سوء العاقبة . وبعد أسابيع عاد البيان من إنكلترا مشوهاً متوجهاً ، فامتعض الملامركزيون وقطعوا مفاوضاتهم مع السلطات الإنكليزية وأسكوا عن العمل معهم^(٣٧) .

إلى جانب هذا النشاط الذي بذله البريطانيون في مصر ، كان لهم أيضاً نشاط مماثل في العراق . فما إن أعلنت الحرب بين تركيا وبريطانيا العظمى حتى غادر القنصل البريطاني في البصرة المدينة متوجهاً إلى «الخمرة» . ومن هناك أرسل أحد رجال أميرها ، الشيخ خزعل ، مع رسالة سرية إلى السيد طالب النقيب يرجوه الحضور ليعرض عليه بعض المقترحات البريطانية بشأن مستقبل العراق . فجنأ السيد طالب ، ثم اصطحب معه الأمير خزعل ، وتوجه الاثنان إلى مقر القنصل حيث استمع إلى المقترحات البريطانية ، وهي تلخص بأن يقدم طالب النقيب للإنكليز جميع المساعدات اللازمة لاحتلال البصرة لقاء تنصيبه حاكماً عادماً على ولاية البصرة ولوائى الناصرية والعمارة ، وجعل اللغة العربية لغة رسمية في دوائر الحكومة والمدارس ، وتعيين موظفين عراقيين في جميع مناصب القضاء ، وفي الدوائر الرسمية ، وغير ذلك من الأمور الطامحة التي لا تؤمن المطالب القومية التي طالما ناضل طالب من أجلها ضد الترك .

فاستعمل طالب القنصل بضعة أيام للتفكير في هذه المقترحات ، وبعد أن تباحث بشأنها مع أخوانه الذين سبق لهم جهود في النضال معه ، عاد إلى الخمرة سراً وتقديم مقترحات مقابلة جاء فيها : إن البلاد العربية ترغب في التخلص من نير الاستعمار التركي لتعيش مستقلة ، لا لتبطل باستعمار جديد ، لذلك فإنه يتعهد بإعلان الثورة ضد الترك مستعيناً بالقباط والجند العرب ، وبالعشائر العراقية ، بدون تدخل الجيش الإيطالي ، على أن يمدد الإنكليز بالسلاح والدخول والمال

(٣٧) أمين سعيد، ثورة العربية، ج ١، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

والطائرات والطيارين والفتين فقط، وأن تبقى البواخر والقطعات البحرية الإنكليزية في الخليج العربي، خارج مياه شط العرب، وألا تنزل برهاتها جيوياً في البلاد، إلا إذا اشتركت الجيوش الألمانية في القتال، أو إذا اتفقت الضرورة العسكرية. وإذا تم إخراج الترك من البلاد، تؤسس فيها دولة مستقلة دستورية ملكية أو جمهورية، حسب رغبة الشعب، تحت حماية الإنكليز، على أن تمنح إنكليزاً امتيازات اقتصادية، ويكون المستشارون الفنيون منهم دون سواهم. أما النفقات التي يتكبدتها الإنكليز في مساعدة الثورة فتعتبر قرضاً على البلاد، يسدد على شكل أقساط من الميزانية، تنتهي الحماية بتسديده، وتبقى الإشتيازات الاقتصادية وحدها نافذة. وأخيراً أن تصبح هذه الشروط أساساً لمعاهدة دولية يوقع عليها مندوب رسمي عن الحكومة البريطانية.

ولما رفضت السلطات البريطانية هذه المقترحات، وأصررت على مقترحاتها السابقة أجابها السيد طالب النقيب برسالة ضمنها للعبارة التالية «إني لأؤلفي على ذلك بتاتاً، وإني ساعاضد الترك مهما كلف الأمر...»^(٢٨).

لقد جاء ذكر هذه المفاوضات في كتاب السير «أرنولد ويلسون»، الذي شغل بعد الاحتلال الإنكليزي للعراق منصب المفوض السامي الإنكليزي المدني، لكن المؤلف لم يورد من تفصيلاتها سوى قوله «إن السيد طالب تفاوض معنا، بواسطة شيخ الحمرة، وكانت مطالبته تحمل من سمات المطامع الشخصية ما لم نستطيع قبوله أساساً للتفاوض، فاضطر إلى الالتجاء إلى المناطق الداخلية في الجزيرة العربية»^(٢٩). وما لا شك فيه أن هذا القول ليس إلا من مغالطات الإنكليز العظامين في الاحتلال والحكم المباشر للبلاد. أما السيد طالب النقيب الذي أصبح مندوباً من الإنكليز، فصرح أن ما أكد لديه أنه، في الوقت نفسه، محقوت من الأتراك الذين قامت الدلائل لديه على أنهم عازمون على اعتقاله مع جميع الإصلاحيين في البصرة، متى وصلت الجيوش العثمانية التي وجهت إليها مقاومة الهجوم الإنكليزي المنتظر. فترك البصرة بحملة جازت على واليها التركي، يدعو أنه مكلف بمفاوضة ابن سعود من قبل أنور باشا. وقبل وصوله إلى الكويت جافته رسالة، بواسطة الأمير خزعل من القنصل الإنكليزي، فيها تعديل لمقترحات الإنكليز السابقة، بحيث يعمدون له بمجمله حاكماً عاماً مدى الحياة على العراق من المفاو (مدخل شط العرب) إلى آخر نقطة يصل إليها الاحتلال الإنكليزي، فيما إذا التزم جانب الحيد في أثناء الحرب. فأجاب بالرفض قائلًا «إني

(٢٨) سليمان نبطي، المصدر السابق، ص ١٨٨ - ١٩٠.

(٢٩) SIR ARNOLD T. WILSON, *Loyalist Mesopotamia*, J, p. 18. (٢٩)

عزمت على السفر إلى نجد، فابحثوا عنكم على استعمار بلاده، وأعلموا بأن الذي لا يرضى بحكم الأتراك، أسيوانه في الدين، حرى به أن يأخذ حكم الإنكليز^(١٠). وقد كرر الإنكليز عروضهم عليه، في أثناء مروره بالكويت بواسطة قنصلهم فيها، الذي أعلمه أن التعليمات التي نلقاها تقضي بأنخذله إلى البصرة الإنكليزية الرسمية قرب الفاو، والتي تعمل على ظهرها السير «برسي كوكس»، المقيم البيطاني في الخليج العربي سابقاً، وأن يفي فيها إلى أن يتم احتلال البصرة، فيدخلونها سوية: السيد طالب حاكماً عاماً، والسير «برسي كوكس» ممثلاً للحكومة البيطانية، فما كان من طالب التنبه إلا أن أجاب قائلاً بأن ذلك لو جرى يكون وصمة شنيعة وجريمة وطنية لا تنسى، ولما أخذ القنصل في إقناعه استعمله وثماً يفكر في الأمر، لكنه أسرع في الفرار من الكويت خوفاً من الإعتقال^(١١). ومع ذلك لم ينتج من الاعتقال كما سترى.

في الواقع كان الإنكليز يتحاشون في بداية الحرب — وخاصة في العراق — أن يوقعوا أي عهد يعترفون فيه باستقلال البلاد، ذلك أنهم كانوا يعتمدون على موارد قوتهم أنفسهم، ولا يرغبون في محالقات قد تعقد أمامهم قضية تقرير مصدر للعراق^(١٢). فقد جاء في كتاب السير «آرنولد ويلسن» قوله: «إننا لم نستطع أن نعطي أي نصيب من زعماء العرب أي عهد يتناول تشكيل حكومة عربية في العراق، إذ لم نجد أن الوقت قد حان لوضع خطط يهدف إلى هذه الغاية، بل كانت فكرة إقامة دولة عربية مستقلة بمثابة الوهم». وقد حددت رسالة برقية من اللورد «هاوردنج»، نائب جلالة الملك في الهند، المسألة بقوله إنه يعتبر أن اتخاذ أي إجراء من شأنه أن يقر نسوة نهائية لمسألة العراق، وبإني أجزء السلطنة العثمانية، شيء سابق لأوانه، ولا ينتج عنه سوى مزيد من تعقيد الأمور^(١٣).

بهذه السياسة لم يستطع الإنكليز — في أثناء تقدمهم في البلاد — أن يتألبوا إلا قليلاً من مساعدة العشائر العربية في العراق، ذلك لأن هذه القبائل، شأنها كشأن بقية السكان، لم تقبل التعاون مع الإنكليز، لأن هؤلاء — عدا عن رفضهم التعهد بما يؤمن للعرب ما يطمعون على مستقبل بلادهم — لم يكونوا على استعداد أن يقدموا أي إنغراء لزمائلها، مما جعل هؤلاء يفضلون مساعدة الترك ضدّهم، خاصة وأن الخوف من جلاء الإنكليز عن الأراضي التي يحتلوها، ثم احتمال هزيمة

(١٠) سليمان قاضي، المصدر السابق، ص ١٩٠ — ١٩٢.

(١١) المصدر السابق، ص ١٩٢.

(١٢) ليليب آيولاند، المصدر السابق، ص ١٨٢.

(١٣) STR ARNOLD T. WILSON, Ibid. I, p. 17.

الترك إليها وانتقامهم منهم كان بمتهم من أن ينضموا إلى الإنكليز^(١٠). وهكذا فشل الإنكليز في استمالة أحد من العراقيين، ولم يُجدهم قبلاً ما حاولوه من إغراء زعماء من الدرسة الثانية. إذ برز المحامي سليمان فيضي، النائب في مجلس المبعوثان، في مذكراته للمسماة^(١١) في غمرة النضال، حديثاً عن قدوم لورنس إلى البصرة عام ١٩١٦ - قبل شهرين من نشوب الثورة العربية - وبحلوله إغرائه (هو) ودفعه إلى العمل للثورة ضد الترك، إذ أخذ يقتل له في الذرية والغارب طويلاً، لكنه لم يصل إلى نتيجة ما، إذا أفهمه المحامي سليمان بأن العرب غير واثقين من نيات الإنكليز، ولا يستطيعون أن يمدوا يدهم إليهم إلا بشرط أن يضموا لهم حريتهم واستقلالهم الناجزين بعهود موثقة وتوقيع المسؤولين في الحكومة البريطانية، فانكفأ لورنس وغادر البصرة فجأة^(١٢).

لم يكن أشد من سياسة بريطانيا مكرراً في هذه الفترة من الحرب وهي في بدايتها:

تريد من العرب أن يهروا على الدولة العثمانية مستقلة ما كان بينهم وبينها من تقور وخلاف فيما سبق الحرب من سنين، ولكننا لا نتمتعهم من المطالب التي كانوا يناضلون في سبيلها سوى وعود مبهم: دفاع عن بلادهم ضد كل خطر أجنبي، أو مناصب محلية نحاول أن نقرى بها ذوي النفوس الضعيفة. أما ضمان استقلال بلادهم ووحدتها فهذا أبعد من أن نلتزمه بالعهود به. وهي من جهة أخرى تزن الأشخاص الذين تتعامل معهم بميزان ما لهم من قوة أو ضعف، فتسنع ما تمنع نسبة ما تستفيد من قوتهم، أو نسبة ما يجره إليها موقع بلادهم الجغرافي من مساعدة ونفع، هذا إذا لم تستطع نوال مبتغاهم بالإغراء دون مقابل. فإذا فاضلت مثلاً بين الحسين شريف مكة وبين ابن سعود أمير نجد، فإنها تفضل الحسين على ابن سعود، نظراً للمزايا التي يتمتع بها هو وبلاده من حيث موقعها الاستراتيجي الممتاز، فضلاً عن قوته وسيطرته على قوة بشرية من القبائل ليس لابن سعود مثلاً في ذلك الوقت. أما ابن سعود المقابع في وسط الحضيبة المتجدبة المعزولة عن البحر - فيما عدا الإحصاء التي يستطيع الاستغناء عن مساعدة من يملكها (إلا إذا كان على قوة خطية) والاستعاضة عنها بمساعدة باقي أمارات الخليج - فليس له اتصال بالترك من الشمال، ولا بقناة السويس، وليس له ذلك النفوذ الديني الواسع. وإنكلتوا - هذا ذلك - لم تفتن إلى أهميته إلا بعد احتلاله الإحصاء عام ١٩١٣ واتزاعها من أيدي الترك، وتجريد رجال حاميتها من سلاحهم بشرية قليلة من رجاله، واستعماله ذلك السلاح في غزواته الجديدة. ثم إشرافه إشرافاً مباشراً على الخليج

(١٠) Ibid. pp. 16-19.

(١١) سليمان فيضي، الصدر السابق، ص ٢٠٨ - ٢٢٦.

العربي، بعد أن كان في نظرها مجرد زعيم بدوي كبقية من المشايخ والأمراء^(١٦). لكنها كانت — مع ذلك — شرة وثقة من قوته، فضلاً عن أن يجانبه خصماً كدوداً لا يقل عنه قوة هو ابن الرشيد أمير حائل، فإذا ما اتصلت به وحاولت مفاوضته فليس للغاية أكثر من أن يهاجم خصمه المتخالف للترك، وإثارة الحرب بينهما، أي أن يقرع بدور محلي لا يؤثر إلا من بعيد في مجرى الأحداث العامة، أو حتى للوقوف على المحياد في الحرب الدائرة، إذا لم نستطيع دفعه إلى تجريد الحسام.

لما للترغبات الأهلية لأمرأ وشبه الجزيرة العربية، بل استقلالهم المحلي، وتوسيعهم في حدود ضيقة على حساب الترك، يشترط أن يبقوا مواليين لها أو تحت حمايتها، فهذا مما لا تخاف فيه، بل تشجعه ما دام لا يتجاوز نطاق حدودهم الأهلية إلى المحيط العربي، الذي لها أو لجليقاعها منافع فيه، وما دام هو يحكم سياستها الاستعمارية، ويساعد في حماية طرقها إلى الهند، ولا يقف مانعاً من استغلالها الاقتصادي لمخبرات البلد، وهذا من الكفاية لها بحيث لا تنطبع في احتلال فعلي تغني عنه التهمة الوثيقة.

ولسوف تثار إنكثرا على هذه السياسة فترة من الزمن إلى أن ترغمها الظروف وعطفاً حسابها في تقلص قوة العرب، وصلاتهم ومقدار تعلقهم بالمبادئ السامية، إلى تغير خطتها في بعض المناطق^(١٧)، وإلى همسك بها في مناطق أخرى جهد المستطاع. ومع ذلك نظل سياسة ممثلها في الهند مختلفة عن سياسة ممثلها في مصر حول هذه الناحية. فبينما اقتنع المكتب البريطاني العربي في القاهرة، في مفاوضاته مع العرب — كما سيأتي الحديث عنها — بمنحهم وعوداً بالاستقلال، وتشكيل دولة عربية من طوروس إلى عدن، مع الحرص على إحاطة قضية الوحدة العربية بالغموض والإبهام وتقييدها بالتحفظات، ظلت حكومة الهند على (صرارها في عدم التفاهض مع العرب، وعدم إعطائهم أي ضمان بالاستقلال^(١٨))، واستمرت في اتباع سياسة الفتح والاحتلال، وترسيخ قدم بريطانيا في المناطق التي تريد استعمارها، ولو جلبت على نفسها عداوة السكان واشتراكهم في مقاومتها جنباً لجنب مع أعدائها الترك. وما كانت تمهد عن هذه السياسة إلا قليلاً بعد أن تدرك مقدر خطرهما على حملة العراق. هنا من جهة ومن جهة أخرى كان رجال الاستعمار البريطاني العاملون في حقن السياسة العربية منقسمين في رأيهم إلى فريقين: الأول يعتقد أن مصلحة بريطانيا

(١٦) جلال جلال بيومي، الخلق العربي، ص ١٣٨.

(١٧) أرسكين تشايلدرز، المصدر السابق، ص ٦٥.

(١٨) Mme BERTHES GEORGE GAULIS, La Question Arabe, pp. 73-77. (١٨)

تقضي بأن تسيطر على القسم الجنوبي للبلاد العربية وأن تستولي على عدن والخليج العربي والعراق
 الأسفل، من بغداد إلى الجنوب، والثاني يرى أن تسيطر بريطانيا على مصر وتجهل من البحر الأحمر
 بحيرة إنكليزية، وأن تستولي على سورية وذلك تصون طريق الهند، وتسيطر على الأماكن المقدسة:
 مكة والمدينة والقدس، وهذا تفت في عضد الترك، وفي مقدرتهم على توطيد عرى الوحدة
 الإسلامية. وكان يمثل الفريق الأول رجال حكومة الهند الذين نجحوا في توثيق المصلات بين الاستعمار
 البريطاني وبين أمراء شبه جزيرة العرب، وفي بسط النفوذ البريطاني في الخليج العربي، وبرشون ابن
 سعود لرعاية العرب. أما الفريق الثاني فكان يضم موظفي الحكومة البريطانية في المكتب العربي
 بالقاهرة Arab Bureau of Cairo، وهؤلاء برشون الشريف حسين لرعاية العرب^(١).

وجهاً على هذه السياسة تبادر إنكلترا، منذ الأيام الأولى لدخول تركيا الحرب — وبغية توطيد
 مركزها في جنوب البلاد العربية — إلى الاعتراف باستقلال إمارة الكويت تحت الحماية البريطانية
 ١٩١٤/١١/٣، في مقابل اشتراكها في الحملة المزمع تبنيها لاحتلال العراق، بمذكرة قدمها المقيم
 البريطاني العام في الخليج العربي إلى أميرها الشيخ مبارك الصباح، جاء فيها أنه مكلف من قبل
 الحكومة البريطانية بأن يقدم إليه شكرها وامتنانها لجميل ولائه نحوها ومساعدته القيمة لها، وأن
 بدعوه إلى شن الهجوم على «أم القصر» و«صفوان» و«دهيان» (جزر واقعة بين الكويت ومدخل
 شط العرب) واحتلالها، وأن يسعى بالاشتراك مع الشيخ خزعل، والأمير عبد العزيز آل سعود،
 وغيرهم من الشيوخ المواليين لإنكلترا إلى توحيد البصرة من الحكم العثماني، حتى إذا تم ذلك يمدد
 الجهد الكبير لمنع الإمدادات التركية من الوصول إليها، أو إلى «القرنة» بها تصل الجيوش البريطانية
 المزمع إنزالها في جنوبي العراق. وأن مدرعتين حربيتين بريطانيتين ستدعمانهم عند الهجوم على
 البصرة، وأن المقيم العام مكلف، من قبل حكومته، بأن يتعهد له، لقاء هذه المساعدة القيمة، بأن
 الإنكليز سوف لا يمدون البصرة إلى الترك، بعد احتلالها، وأن الكرائسي الواقعة بين «الغلاو»
 و«القرنة» (بين مدخل شط العرب من الجنوب ومنتهى في الشمال حيث التقاء القنات بالذجلة)،
 بالإضافة إلى الأراضي التي في حوزته الآن، وإلى الجزر التي سيجعلها، ستبقى له ولذريته، معفاة من
 جميع الضرائب والعائدات الأخرى^(٢).

ثم تعقد بريطانية إتفاقية «صداقة ولاء» مع السيد محمد علي أحمد الإدريسي، أمير العسير في

(١٩) رسائل الأمراء، على طريق الهند، ص ٣٢٠ — ٣٢١.

(٥٠) J.C. HUREWITZ, 1966. II, p. 4. D. N°3.

١٩١٥/٤/٣٠، وقمها باسمه السيد مصطفى بن السيد عبد الحلي، وعن الحكومة البريطانية مستنداً في عدن المبحر جنرال «شو» SHAW غابها إعلان الحرب على الترك^(٥١). وقد علق الإنكليز أهمية كبيرة للتحالف مع إمارة العسير، لأن عطلتهم الحربية تقضي بقتل البحر الأحمر أمام النشاط التركي، وللعسير موانئ عديدة على هذا البحر، وعليهم أن يطمئنون إلى عدم استخدامها ضدهم، فضلاً عن استفادتهم من موقع العسير في الفصل بين القوات التركية في الحجاز والقوات التركية في اليمن، ولجولة دون اتصالها بعضها ببعض، بحيث يخلق الضغط العثماني على الحجاز من جنوبه، وعلى المهمات البريطانية في الجنوب، بفعل الضغط الذي تعرض له القوات العثمانية في اليمن من طرف قوات العسير^(٥٢).

تمهد الإدريسي، في هذه المعاهدة، بقتال الترك، وبذل الجهد لطردهم من اليمن، وأن يتعقبهم ويوسع أراضيه على حسابهم، وأن عمله هذا موجه ضدهم فقط، بحيث يمتنع عن كل حركة عدائية ضد الإنعام بحبي، ما دام هذا لا يضع يده بيد الترك. وتعهدت الحكومة البريطانية، من جهتها، بالمحافظة على أراضيه ضد أي اعتداء يقع على سواحل بلاده، وبضمان استقلاله في أراضيه الخاصة، وباستعمال كل الوسائل السياسية في ختام الحرب للتأليف بين مطالبه وما يتقاضها من مطالب الإنعام بحبي، أو أي عصب آخر له، وبعدم المال والمؤونة طوال مدة الحرب، على أن يكون ذلك متصفاً مع ما يقوم به من أعمال^(٥٣).

استمرت للمعاهدة بين الإدريسي والإنكليز طوال الحرب، وقد علق هؤلاء عليها أهمية كبيرة، حتى إنهم سلموا إليه ميثاق الخليفة الذي احتلوه في النهاية. لكن إمارة العسير لم تكن من القوة بحيث تستطيع مهاجمة الترك في اليمن، بالرغم من أن أمورها أعلن الحرب عليهم في بلاده والجزر المجاورة له، وكان أول أمر عربي قام بهذا العمل^(٥٤). ومع ذلك لم يتحقق المفعول الإيجابي للمعاهدة لأن الإدريسي اكتفى بتوطيد أقدامه في العسير، واقتصر الأمر على بقائها في نطاق التدهور اليوافي ضد ما يحصل أن يقوم به الإنعام بحبي، من اعتداء على الإنكليز باعتباره أنه قد بقي، لوحده بين أمراء هذه المنطقة الغربية من الجزيرة، مؤالفاً للأتراك طوال مدة الحرب^(٥٥). وعلى كل حال اعتبر الإنكليز

(٥١) حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٣٢٠.

(٥٢) الدكتور أحمد عورت عبد الكريم، المصدر السابق.

(٥٣) HUREWITZ, Ibid. II, p. 12, D. N°7.

(٥٤) صلاح الدين المختار، المملكة العربية السعودية، ص ١٧٣، ج ٢.

(٥٥) محمد شفيق خريال، المصدر السابق، ص ٩٥.

إمارة الإدريسي حليفة لهم أكثر من كونها محمية، وعقدوا مع أميرها إتفاقية لاحقة ١٩١٧/١/٢٢ اعترفوا له فيها بكون جزائر لمرسان التي انتزعها من أيدي الترك خلال الحرب، جزءاً من أراضيه التي اعترفوا باستقلالها^(٥٦).

أما شبه جزيرة قطر، فهي المعاهدة التي كانت بريطانيا قد عقدتها مع الدولة العثمانية في ١٩١٣/٧/٢٩^(٥٧)، تخلت تركيا عن جميع مآلها من مدعيات فيها، فتركت لحكم شيخها قاسم بن ثاني وخلفائه، كما في السابق، ولم تعتمد بريطانيا إلى بسط حمايتها عليها حتى عام ١٩٦٥، حينما عقدت مع شيخها عبد الله بن قاسم، الذي خلف والده على الإمارة إتفاقية في ١٩٦٦/١١/٣، حوفظ فيها على العهود التي كان قطعها الشيخ على نفسه فيما سبق. شأنه في ذلك كشأن جميع مشايخ الشايع، للمهادن في «أبي ظبي والشارقة ودبي والعجمان ورأس الخيمة وأم القيوين» - والاتفاق معهم، على مكافحة تجارة الرقيق، والحفاظ على سلامة الملاحة في الخليج العربي، وعدم التنازل عن أي شيء من أراضيه لغير بريطانيا التي يتخلى لها عن إدارة سياسته الخارجية، ومنح المرعابا البريطانيين امتيازات اقتصادية. وقد تعهد الشيخ عبد الله في هذه الاتفاقية الجديدة بما تعهد به شيوخ الإمارات المذكورة، وأعطى حق التمتع بالامتيازات التي تتمتع بها، على أن يمنع استيراد وتجارة الأسلحة في إمارته، وأن يكون له حق شراء ما يلزمه منها، ومن الذخيرة من الخزن البريطاني الحربي في مسقط، أو من أي مكان آخر توافق عليه إنكلترا، لاستعماله الشخصي وتسليم أتباعه، بشرط أن لا تخرج من منطقتهم وأن لا يبيع للأهالي، بل يقصر استعمالها على توطيد الأمن الداخلي، والدفاع الخارجي. كما تعهد بأن لا يعقد علاقات خارجية مع أي دولة من الدول أو أن يقبل ممثلاً من ممثليها، وأن يقبل في بلاده ممثلاً لبريطانيا، ويسهل أمور التجارة لأبنائها، ويسمح بإقامة مكاتب للبريد وشبكة تليفون... في أراضيه^(٥٨).

وهكذا نرى أن إنكلترا لم تترك أميراً من أمراء العرب بمن قرخي منهم الاستفادة — مهما كانت ضئيلة — إلا وبادرت إلى استمالته، وعقدت تحالفه معه. ولم يفلت من يدها سوى ابن الرشيد أمير حائل، وإمام اليمن يحيى حميد الدين، اللذين فضلوا الانضمام إلى الأتراك، أولاً لأن كليهما كانا حليفاً لتركيا قبل الحرب، وأدركا أن بقاءهما إلى جانبها فيه فائدة لهما بعد الحرب. لأن الأتراك لا بد

(٥٦) HUREWITZ, Ibid. II, p. 12.

(٥٧) Ibid. Doc. 22, Doc. 11, Ibid. I, p. 269, D.N° 106.

(٥٨) Ibid. II, p. 22, D.N° 11.

أن يقدموا لها هذا الجمل فيما إذا أحرزوا النصر في النهاية . أما إذا هزموا فيبقى في استطاعة كل منهما أن يوطد أركان ملكه على أنقاض الهزيمة المشتركة . وقد استفاد الإمام يحيى فعلاً من هذه السياسة بعد الحرب ، وكان من الممكن أن يستفيد ابن الرشيد منها ، لولا أن المعاصرة السعودية قد اجتاحت بلاده عقب الحرب العامة . كما أن من الأسباب التي حملت الإمام يحيى على البقاء موالياً للترك أنه كان لهم قوة كبيرة في اليمن ، بحسب لما للأمم ألف حساب ، فشلت محاولة الإنكليز في قتل معاهدته التي عقدها عام ١٩١١ مع السلطنة إثر ثورته عليها ، وفي جرده إلى فاحشهم والتحالف معهم ، بل بالعكس قدم للقوات التركية في بلاده العون المادي والمعنوي ، حتى استطاعت الاستيلاء على بعض المصميات (خنج والضالع) ، ودقت أبواب عدن . ولما كانت نهاية الحرب انسحب الأتراك وسلموه بعض هذه المصميات (الضالع) ، فحاول التثبيت بها إلى النهاية^(٥٩) .

خلاصة القول وبالرغم من أن المعاهدات الإنكليزية مع إمارتي الكويت والبحرين ، والمعاهدة التي سبقتها أن إنكلترا ستعقدها مع الأمير عبد العزيز بن سعود ، قد بقيت في النطاق السلسلي أكثر من كونها إيجابية ، إذ لم تفدها في محاربة تركيا ، إلا أنها قد استفادت منها ، مع ذلك ، في منع هذه الأمارات من الانضمام إلى الأتراك ، وفي إحكام الحصار البحري على تركيا في البحر الأحمر ، وفي توطيد قعودها السياسي على شاطئ الخليج العربي بأسره — مضمة هذه المناسبة النادرة ، ألا وهي نشوب الحرب العامة — ودعمت هذا النفوذ السياسي باحتلال عسكري للمراكز الهامة ، فاحتلت البحرين نقطة تجمع فيها قواتها التي حشدتها لاحتلال العراق ١٩١٤/١٠/٢٣ ، ثم احتلت مسقط في أوائل ١٩١٥ عسكرياً بمحجة مساعدة سلطانها على قمع الثورة ، التي أعلنها عليه إمام عمان في ذلك العام بمساعدة قبائل الداخل^(٦٠) . ثم بدأت باستئالة ابن سعود ضمن الخطة التي سارت عليها ، وهي بذل أقصى الجهود ، واجتذاب أكبر عدد من الحلفاء نجابية الأتراك في هذه الحرب ، متناقصة في ذلك مع الترك في جهودهم المبذولة في السبيل نفسه ، متسابقة معهم لاقتصاص الأمارات العربية المتعددة .

لم يكن ابن سعود بحاجة إلى من يقره بالتعاون مع الحلفاء ويغض الترك ، لأنه كان مبعوضاً لهم ناقماً عليهم ، لما لقيه أسلافه من جورهم والتكيد بهم قتلاً وغشياً^(٦١) . وكان نفسه قد كتب إلى

(٥٩) المذكور أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق .

(٦٠) دكتور صلاح العقاد ، الاستعمار في الخليج الفارسي ، ص ١١٩١ جان جاك بيجي ، جبهة العرب ، ص ٢١٣ .

(٦١) حسين حلف فليخ حرجل ، تاريخ الكويت السياسي ، ص ١٠٦ .

الشريف حسين ، ردأ على رسالته ، يقول إنه كن ينضم إلى حركة الجهاد ، وشرح له أنه كن يتعاون مع الأتراك^(٦٢).

قبل أن تنشب الحرب ويدخل الأتراك فيها ، أصبحت شبه الجزيرة العربية تتعج بالعملاء السريين : من الإنكليز وألمان وفرنسيين وأتراك وإيطاليين وروس وحتى من اليابانيين . أتوا من كل مكان : من السويس والهند وبومبي وبلهران ، مهمم أن يقتشوا عن حلفاء ينضمون إلى جانب دولهم في البركان الذي يكاد أن يتفجر . خير أن ابن سعود ، الذي كان شغله الشاغل أن يهزم بقضايا شبه الجزيرة العربية الداخلية ، لم يشعر بهبوب العاصفة ، وبالتالي فإن انتصاب مارد الحرب الجهار ، حينها انتصب ، كان مفاجأة تامة له . وإذا كان قد خطر له يوماً أن تنفجر الحرب ، فإنه حسب أن دخول تركيا فيها لما يتيح له تحقيق غاياته في التوسع ، وأنها فرصة مؤاتية له كي يفض على عدوه الحسين في مكة ، فبأثر منه طويته أمامه عام ١٩٠٩^(٦٣) ، دون أن يسقط من حسابيه أمر معارضة إنكلترا له^(٦٤) . وإذا استشار صديقه مبارك الصباح في هذا الأمر ، إثر نشوب الحرب ، حذره أشد الحذر من هذا العمل العسبالي . لذلك كان عليه أن يفكر ، ويعلن في التفكير قبل الإقدام على عمل ما . وانتهى به الأمر إلى إرسال ثلاثة كتب ، أتفدها مع بعض رجائه ، إلى ثلاثة من زعماء العرب : مبارك الصباح أمير الكويت ، وابن الرشيد أمير حائل — وكان بينهما عهد مصالحة — والشريف حسين ، يقترح عليهم فيها أن يعقدوا اجتماعاً للمذاكرة فيما قد يؤدي إلى اتفاق عله ينقذ العرب من أهوال الحرب القائمة^(٦٥) ، والتحالف مع دولة من الدول لصون حقوقهم وتعزيز مصالحهم . ولكن أحداً منهم لم يلب طلبه بغير مواربة ، إلا خصمه القديم ابن الرشيد ، الذي صارحه وبأنه من رجال الدولة ، يحارب إذا حاربت ، ومصالح إذا صالحت . أما الشريف حسين فقد أرسل إليه نجده الأمير عبد الله للنظر فيما تضمنته رسالته ، فاجتمعا على الحدود ، واتفقا دون أن يصلا إلى قرار ما^(٦٦) .

وقبل ذلك كان قد أجه الكيبن « شكسبير » . مثل إنكلترا السيامي في الكويت ، موافداً من حكومته ، مزوداً بتعليمات تقضي بمباحثته في « أمر هو في مصلحة العرب » ، فيما إذا دخلت تركيا

(٦٢) جلال محي ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٦٣) راجع من ذلك كتابي « العرب والحرك في العهد الدستوري العثماني » ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٦٤) HENOIST MEBCHIN, *Ibid.*, pp. 193-194.

(٦٥) ARMSTRONG, *Ibid.*, p. 105.

(٦٦) أمين الرضائي ، تاريخ عهد الحديث ، ص ٢١٨ - ٢٢١٩ أكتوبر إبراهيم جيلو ، السلطان الجزيرة ، ص ٩٧ .

الحرب، يستحسنت لانتقام جانب الإنكليز^(٦٦)، لأن هؤلاء وقد فرروا مهاجرة البصرة، فيما إذا اشتركت تركيا في الحرب، رأوا أن في استقالة ابن سعود فائدة لهم. ذلك أن باستطاعته أن يجعل قبائل عمر (ورئيسها ابن الرشيد) والمثلثات (ورئيسها عجيبي السعديين الموالي للترك) مضطرة للبقاء على الحيلاد، بدلاً من أن مهدد الجناح الأيسر للجيوش البهلوانية، عندما تتقدم من الموالي إلى الشمال في العراق^(٦٧). كما أنه، بعد دخول تركيا الحرب، وفد تركي من المدينة يحمل معه مبلغاً من المال، ويترقب إليه بواسطة صديقه محمود شكري الأتوسي، أحد أعضاء الوفد، كي يلتزم جانب الترك^(٦٨). واتفق وجود هذا الوفد مع فلول طالب النقيب وبمعه صديقه سليمان فيضي، وعبد الوهاب الشديب من وجهاء البصرة، وضابط تركي مرافق، يستشر شهادته العربية لمقاومة الهجوم الإنكليزي على البصرة، فوقع في حيلة من أمره^(٦٩). وبينما كتب إلى الشريف حسين يطلب منه طالب النقيب، معيماً له من حوثه، مستخدماً منه الرأي، ووعداً غير جاد — طالباً النقيب بأنه سيسير على رأس جيش لمقاومة الإنكليز في البصرة، وهو في حقيقة الأمر ينوي الترتب وكسب الوقت، ربما تتجلى المعركة المنتظرة بين الترك والإنكليز عن نتيجة ما، في حين أبقى طالب من جهته إلى طلعت وأتوبر بينهما بموافقة الإمام على مساعدة العثمانيين^(٧٠) وأوصاهما بتجهيز الجيش الوهابي بالمؤن والدعائم^(٧١)، أنه من مبارك الصباح — الذي كان يعثو ابن سعود بمقام والده، لما كان له من أباد بمضاء على أسرته التي استضافها لديه في الكويت، إبان محنتها عندما طردها آل الرشيد من الرياض، وقبل أن يستعدها ابن سعود — ما يشعره بوجوب التحذر من الوفد التركي والتصلب معه، كما كانت قد أكتفه رسالة تحمل العبارات نفسها فيما يتعلق بتطلب الإنكليز^(٧٢)، ولم يكن قصد أمير الكويت من ذلك — على ما يظهر — سوى خوفه الشديد من تزايد نفوذ ابن سعود، وخشيته من أن تمتد أطماعه إلى الكويت نفسها، فيما إذا وثق صلاته بالترك أو بالإنكليز. لذلك زادت حيرة ابن سعود زيادة شديدة، وقد تشعبت أمامه السبل. فقد فهم من نصائح مبارك له أن

SIR ARNOLD WILSON, *Ibid.* I, p. 30. (٦٦)

J. FICHON, *Le Faits Du Proche Orient*, p. 75. (٦٧)

كين الهمالي، تاريخ نجد الحديث، ص ٢١٨. (٦٨)

ARMSTRONG, *Ibid.* p. 103. (٦٩)

(٧٠) حينما ألقى طالب النقيب له استرضاء الترك، وبشّل في مفاوضاته مع الإنكليز، داخل الناس نفسه، لقرار الاستسلام للإنكليز على أن ينسحب إلى بريدي، وقضى أيام الحرب في الهند ثم عاد إلى العراق بعد انتهاء الحرب.

(٧١) سليمان فيضي، المصدر السابق، ص ١٩٥ — ١٩٦.

(٧٢) أمين الهمالي، المصدر السابق، ص ٢١٣.

عليه لأن يلتزم الحياذ، لكن بقاءه على الحياذ معناه بقاؤه وحيداً، ومعنى ذلك أن يكون حرضة لطمع
الطامعون من جيوانه، وهو عاجز عن الدفاع، ولم يكن لأمره وحكام المناطق المجاورة لتجده ليهملوا
مغبة الحياذ. فقد كان كل واحد منهم يسابق الآخرين إلى التحالف مع هذا المعسكر أو ذلك،
حسباً لقرض مصلحته^(٧٢). ولكن الانضمام إلى أحد المعسكرين المتحاربين يجب أن تليه معرفة من
منها سيحالفه النصر في النهاية. صحيح أنه كان يكره الترك والانضمام إليهم لأنهم أعداؤه
صراحة، ولكن هل له أن يأمن سياسة الإنكليز؟ وهل يستطيع أن يعرف حقيقة نياتهم نحو شبه
الجزيرة العربية فيما لو أصرروا النصر؟ وفي مقابل ذلك أستطيع أن يتجاهل قوة الإنكليز في الخليج،
وعلاقتهم الودية مع مشايخه، وقوتهم وميولهم في الهند، وقوة أساطيلهم ومقدار عظمها على
الإحسان التي عظمها حديثاً، وإمكانات حرماته منها^(٧٣).

هذا هو وضعه وهذا هو الذي كان يحيل في فكره عندما عاد «شكسبير» إليه — وقد
استدعى من إجازته، وأرسله السير «برسي كوكس»، الذي أصبح الضابط السيامي الأهل في
قوات الحملة الإنكليزية على العراق، لتمثيل مصالح بريطانيا في الرياض — وكان «شكسبير» ذا ثقافة
عسكرية عالية وإدراك وبداية سياسية حسنة^(٧٤). فأخذ يثقل له في الذروة والغارب، محاولاً زجه في
أتون الحرب ضد الترك، ومعاقبة الجيش الإنكليزي في هجومه على البصرة، ومساندة جناحه الأسر
بمهاجمة ابن الرشيد الضالع مع الترك^(٧٥). ولم يكن هدف الإنكليز من ذلك اكتساب مساعدة ابن
سعود فقط، بل في الوقت نفسه الهافه عن التفكير في متابعة توسعه في الخليج العربي من جهة،
وإضعاف قوة الترك من جهة أخرى^(٧٦). لكن ابن سعود، وقد أدرك خطر هذه المغامرة الرهيبة رفض
الإجابة إلى طلب «شكسبير» وأبان له، كما كان قد أبان للسير «برسي كوكس» من قبل، بأنه من
طرف الإنكليز، وأنه يود من صميم قلبه تدمير البصرة من الحكم التركي، لكنه يود أن تعقد بينه وبين
إنكليزاً معاهدة صريحة بمحدد الشروط والأهداف، كي يستطيع القيام بمثل حاسم^(٧٧). فظاهر

(٧٢) ARMSTRONG, *ibid.* pp. 103-104.

(٧٣) ذكره محمد المرفوع جده، المصدر السابق، ص ٨٦.

(٧٤) عبد الله طه، «الطبع الجديد»، ص ٢١٧.

(٧٥) SIR ARNOLD WILSON, *ibid.* p. 161, V.1.

(٧٦) جان بول بتي، «جزيرة العرب»، ص ٩٠.

(٧٧) SIR ARNOLD WILSON, *ibid.* I, p. 31.

« شكبير » بأنه يجهل مراسي ابن سعود ، وظالت المفاوضات أسابيع دون أن تؤدي إلى نتيجة ما ، إلى أن وضع الأتراك أنفسهم ، وفجأة ، حدا لها^(٧٨).

لم يكن سعود بن الرشيد غافلاً عن خصمه عبد العزيز بن سعود ، فقد اجتمع بوالى البصرة وتم الاتفاق بينهما على مهاجمة ابن سعود . ويظهر أن أنور وظلعت لم يتفقا بما جاء في برقية طالب التقرب التي أرسلها إليهما من الرياض ، إذ تراسى إلى علمهما ما يدور بين أمير نجد والإنكليز ، فخشيا أن يتم بين الطرفين عهد مكتوب قادراً إلى الحيلولة دون عقده ، ووافقا على مد ابن الرشيد بعشرة آلاف بندقية ، ويكثر من الذخائر ويبلغ كبير من المال . فلما علم ابن سعود بذلك كتب إلى ابن الرشيد يذكره بما بينهما من «عهد مصالحة» فأجابه «إني من رجال الدولة وليس لي صلح معك إلا إذا رضيت الدولة بذلك» ، فكتب ابن سعود إليه «إذا كنت مصراً على نكث العهد فالمقاومة أولى ...»^(٧٩) . ثم جمع على عجل جيشاً من الأحواض والعجمان خف به ملائكة ابن الرشيد ، الذي رافقت جيشه عدة أفواج من الجيش التركي النظامي بدفعيتها . وجرت المعركة في موقعة «جرباب» . وقد رافق الكتبتين «شكبير» حلة الأمير التجدي ، بقصد الوقوف بالذات على المقدرة الحربية التي تتمتع بها القوات السعودية ، ولم يقبل نصيحة الإمام بالبقاء في الرياض قائلاً «أنا مأمور بأن أكون معكم ، فإذا تركتكم أكون قد تخالفت حكومتى ، وما يمتنع على شرفي ، وعلى أن أبقي على كل حال» ، وكان يشرف على مدفعية الوهابيين ويدير النار من أحد المدافع ، حينما جاءته رصاصة من بعيد أصابت منه مقتلًا فلفظ أنفاسه^(٨٠) . وما حل المساء حتى أخذ الإغناء من كلا الجانبين مأخذهم . دون أن يكون أحدهما قد أحرز نصراً حاسماً على الآخر ، إذ كان النصر حليف المشاة الوهابيين في أحد الجناحين ، بينما كانت الغلبة لحياة شمر في جناح آخر . وقد لحق بجيش ابن سعود خسائر فادحة بسبب خيانة «العجمان» من جنده ، وفرارهم من المعركة إبان احتلالها^(٨١) . ومع ذلك أخذ كل الخصمين يدعى النصر على الآخر في هذه المعركة ، التي حدثت في شهر كانون ثاني ١٩١٥ .

هذه الأحداث أقنعت ابن سعود بأن من مصلحته ألا يبقى وحيداً ، وأصبح يحساعل ما الذي

(٧٨) BENOIST MECHIN, Ibid. pp. 194-197. ج. الحنفياوي، المصدر السابق، ص ٨٦ .

(٧٩) الرحاوي، تاريخ الحديث، ص ٢١٧ — ٢١٨ ، صلاح الدين المغار ، المصدر السابق، ج ٢ ، ص ١٦٦ .

(٨٠) Mmc. GAULIE, Ibid. p. 76 ؛ جان جاك ميسى ، الخليج العربي ، ص ١٢٩ ، رسائل الأمالي ، المصدر السابق، ص ٢٢٤ حسين خليل الشيخ عزله المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٨١) B. MECHIN, Ibid. p. 198 ؛ عبد القلبي ، المصدر السابق، ص ٣١٧ .

يتنظرون من الترك والألمان ، بعد أن كشفوا عن حقيقة نهايم عمود . لكن المصاعب الداخلية كثورة العجمان وغيرها أخرجت نبضة أشهر ما أجمع عليه من إجابة الإنكليز إلى طلبهم في الاتفاق معه . فقد شغل في إخضاع « العجمان » الذين خانوه ثم ثاروا عليه في الأحساء^(٨٢) ، وفي تقوية موقفه الداخلي خاصة وأنه شعر بأنه محاط بالأعداء من كل جانب ، فهو يتوجس خيفة من الشريف حسين ، ولا يثق بالشيخ مبارك الصباح ، وابن الرشيد عدو للمود . وأما القبائل الأخرى التابعة له فقد أحدثت تنحيزاً للثورة إثر السمعة السيئة التي انتشرت عن تخاذله في معركة « جراب » ، والشائعات التي حيكت عن ضعفه وإنهيار سلطانه^(٨٣) . لذلك أدرك أن أسلم طريق له أن يتخذ موقف الحياد الخارجي ، لأنه أصبح في مركز لا يستطيع فيه أن يؤثر في التطورات الجارية في أنحاء شبه الجزيرة العربية . فقد جعلته كثرة « جراب » في مركز ثانوي بالنسبة للسياسة العربية ، فضلاً عن أنها زادت أعداءه وضغطت قوتهم^(٨٤) . فلم يحارب الترك ولا الحسين ، حتى ولا منع وصل الدولة العثمانية من المرور ببنجد ، وهم يحملون المال إلى أحرابهم الأتراك المحصورين في اليمن في يادى الأمر^(٨٥) . ولم يكن عليه في ذلك الوقت إلا الانصراف إلى قمع الفتن الداخلية . وقد وفق إلى ذلك بعد جهد كبير ، إذ ثكن العجمان درسا قاسياً ، فأحرق قراهم وقتل رجالهم ، بلا شفقة ولا هوادة^(٨٦) . لكنه بعد أن وطد مركزه الداخلي ، وقضى على الفتن ، أخذ حياده ينسجم ، من جهة ، بشيء من العداء للترك ، إذ راح يجمع وصول الإمدادات إليهم^(٨٧) ، ومن جهة أخرى ، يتردى طابع العطف والميل للإنكليز .

كما كان السير « برسي كوكس » نفسه يهتم بأمر ابن سعود ، إذ كانت بينهما اتصالات وعلاقات ودية أحسن حيكتها عبد اللطيف بن قدييل ، ممثل ابن سعود في البصرة (بعد الاحتلال) ، فأخذ ، بعد أن غوزته الحكومة البريطانية في متابعة الخط الذي سلكه « شكبير » ، في توثيق العلاقات مع ابن سعود ، فاستأنفت المفاوضات لعقد المعاهدة التي كان من المتوقع أن تُبرم قبل موقعة « جراب » ، وأسفرت عن إرسال مسودة معاهدة صداقة ، أخذها ابن سعود وأعمل فيها من التعديل ما أوجب دراستها من جديد . ولم يكن بإمكان الطرفين الاجتماع إلا في نهاية عام ١٩١٥ .

(٨٢) B. MCBCHIN, Ibid, p. 198 . ج. المجلدي ، المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٨٣) حافظ وهبة ، المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

(٨٤) عبد الله فليبي ، المصدر السابق ، ص ٣٦٧ .

(٨٥) أمين الزهالي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ — ٢٢٢ .

(٨٦) مصطفى الحفناوي ، المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٨٧) حافظ وهبة ، المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

وكان ذلك في « القطيف »، حيث وقّعت المعاهدة للسماة بالاسم نفسه في ١٢/٢٦/١٩١٥^(٨٨). وقد جاء فيها ما يؤكد توطيد الصداقة القديمة بين الطرفين، وتأييد منافعهما المتقابلة، واعتراف بريطانيا بشيعة نجد والأحساء والقطيف وجبيل ولسحقافيا، والمراعي التابعة لها على الخليج العربي لأبن سعود، وباستقلال هذه الأراضي ورأسه المطلقة على جميع القبائل الموجودة فيها، وبوراثة ذريته عليها، شريطة أن تكون حدودها حسب ما تمتخض عنه الغرب، و « على أن يكون خليفته منتخباً من قبل الأمير الحاكم والآ يكون مخلصاً لإنكلترا بوجه من الوجود ». وتعهدت إنكلترا له بأن تحميه من كل تجاوز يقع من إحدى الدول على أراضيه، وأن تعاونه ضدها، وأن تحافظ على مناصبه وتحميها. كما تعهد ابن سعود من جانبها ألا يبيع أو يهرن، ولا يمتلح عن شبر من أراضيه، ولا يمنح أي امتياز لأي دولة أجنبية، أو لأحد من أتباعها دون رضى الحكومة البريطانية، وأن يبيع تصالحها التي لا تضر بمصالحه. على أن أهم ما تعهد به هو أن يتجنب أي اعتداء أو تدخل في أراضي الكويت والبحرين وقطر وعمان وسواحلها، وبعبارة عامة أن لا يشهر السلاح بوجه حلفائها أو الموجودين تحت حمايتها أو الذين لهم معاهدات معها^(٨٩).

لم تكن هذه المعاهدة تختلف عن المعاهدات، التي عقدها إنكلترا مع أمراء الخليج، من حيث أن ابن سعود قد اعترف للبريطانيين بحق الإشراف على علاقاته الخارجية، وبالبيعة لهم، ووسط بلاده بمحامينهم^(٩٠). وقد غلب فيها قصر نظر مستشاري ابن سعود وجهلهم ما كان يجري في الخفاء بين إنكلترا ومالئ أمراء شبه الجزيرة العربية، أو في العلق بين الدول المتحاربة، ذلك أن الصعوبات الحربية التي كانت تحيط بالإنكليز قد جعلتهم يتلون مروراً للظروف التي اضطرت ابن سعود إلى الرغبة في التعاقد معهم. فلقد كان يحتاجهم الأكر في الحملة العراقية معرضاً لحملات البدو. غير أن ملاوحتهم مع الشريف حسين كانت في ذلك الحين تسير في طريق النجاح، ولم يبق أمامهم إلا ابن سعود الذي أخافهم منه احتمال معارضته لأعمال الشريف لما بينهما من منافسة وعداء قديم^(٩١). وقد ظهر لابن سعود فيما بعد، وهو الذي غادر « القطيف » بتأهيل طرياً لهذه التسوية — لأنه كان قد قبض من الإنكليز، علاوة على ألف بندقة حربية، مبلغاً من المال مقداره عشرون ألف جنيه

(٨٨) عبد الله نقيب، المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٨٩) HUREWITZ 1940. II. 9. 17, D.N. 9.

(٩٠) جان جاك بوتي، جزيرة العرب، ص ٣٣.

(٩١) حافظ ربة، المصدر السابق، ص ٢٤٨ — ٢٤٩.

إنكليزي — فداحة الخديعة التي وقع في شباكهها ، وأدرك أن ما ناله من الإنكليز ، من أسلحة ومن مساعدة ، لم تكن إلا ثمناً يخلصه لما حصلوا عليه منه في هذه المعاهدة .

لقد ظن ، إثر توقيعها ، أنه — مع عدم التزامه بمحاوية الترك — قد حصل على ضمانه تحميهِ من كل عودة منهم إلى عمارته ، وأن العماره التي تعهد فيها بأن لا يهشمر سلاحاً في وجه حلفاء إنكلترا ، وأن لا يساعد أعدائهم ، قد تركت له الباب مفتوحاً للإنقضاض على خصمه الحسين متى شاء ، في حين كانت هذه المادة بمنها هي التي فبقت بها إنكلترا قيداً وثيقاً لحماية الشريف حسين من اعتداله هو نفسه^(٩٢) بينما كانت مفاوضاته مع الشريف تكاد تنتهي إلى المتجاسع . وبينما حرص السير برسي كوكس على التزام التكتم الشديد في أمر محادثات هنري مكماهون البريطاني مع الشريف حسين ، في أثناء تفاوضه مع ابن سعود^(٩٣) ، عمد هذا الأخير فور عودته إلى الرياض — وقد يكون ذلك بإيعاء من المفاوضين الإنكليز — إلى إرسال مندوبه صالح باشا المبعوث إلى الشريف يعلمه بأمر المعاهدة التي عقدها مع إنكلترا ، وكان الشريف يبدى تصلباً مع مفاوضه البريطاني ، فخشى أن يتقدم ابن سعود أمام العرب في الزعامة والتفوق بعد تعاونه مع إنكلترا ، فاضطر إلى التساهل^(٩٤) في موقفه أمام المحفظات السير مكماهون .

بينت فيما سبق أن الحسين قد استعمل الإنكليز بعض الوقت ليشين جميع الاحتمالات قبل إعلان الثورة ، واستكمال الاستعدادات اللازمة لها ، ووعد بأن يكتب إلى السير « رينولد ستورز » في الوقت المناسب . ولم يعد الحسين إلى استئناف الاتصال بينه وبين الإنكليز إلا في شهر تموز ١٩١٥ بعد أن مرت ثمانية أشهر — اعتباراً من كانون الأول ١٩١٤ — على آخر رسالة بعث بها إلى السير ستورز في القاهرة^(٩٥) . وقد انصرف الشريف حسين في أثناء هذه الشهور الثمانية إلى الاتصال بأمرأه وزعماء العرب كما سبق وبينت ، وتلقى منهم ما يشجعه على المعنى في سياسته القائمة على مناهضة الترك وتخليص الأمة العربية من نيرهم ، بينما انصرف الإنكليز إلى الضغط غير المباشر على الشريف بواسطة السيد علي الميرضي صاحب أكبر مقام ديني بين العرب في السودان . فذلك أن السير « رينولد » ونفت « الحاكم العام للسودان » قد دفعه — بحافز من صداقته له — إلى أن يبعث برسالة ودية

(٩٢) B. MECHIN, Ibid. p. 198.

(٩٣) عبد القاسم ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨ أحمد طرين ، الوحدة العربية ، ص ١٢٩ .

(٩٤) صلاح الدين الخليل ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .

(٩٥) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

غير مقيدة بأي تعهد إلى الشريف، بحثه فيها على أن يعلن سياسته. أما الشريف، ولم يكن ليجهل المصدر الذي أوحى بهذه الرسالة، فقد أجاب بصراحة بمزوجة بالودود، محدثاً عن الاستبداد التركي وأمله في الخلاص منه. وبعد أن أجابه السيد الميرغني أن باستطاعته أن يساعد على صدقه الحاكم العام، وما عليه إلا أن يبين الطريقة التي يستطيع هذا أن يساعد بها، أجابه بتحفظ مذهباً رسالته بما يفيد أنه يود لو يتلقى الاقتراحات التي قد يقدمها «صدقه»، فأرسل إليه الميرغني يقول «لو أن الحسين وضع ما يريد، لربما استطاع هذا الصديق أن يزوده بالمال والسلاح والذخائر».

لم يكن من شأن هذا الاتصال إلا أن يشجع الحسين تشجيعاً كبيراً، وأن يقوي أمله في مخالفة إنكلترا له، لثقته بأن الميرغني صديق للإنكليز، وأن يقنعه بأن سياسته تلقى تأييداً من زعيم المسلمين في السودان، لكنه لم يؤدّ به إلى نتيجة حاسمة^(٩٦)، إذ لم يكن يعد قد انتهى من مشاوراته، ولم تنبأ له الرسائل التي من شأنها أن تدفعه إلى العمل.

وفي أثناء انقطاع المفاوضات بين الإنكليز والحسين اقتنع الإنكليز — بنتيجة الاتصالات التي جرت بينهم وبين زعماء العرب في القاهرة، وفي كل مكان كما سبق وبحث — باستحالة دفع العرب إلى الثورة بمجرد الوعود الشفهية والكلام المعسول، ورأوا أن لا بد من إعطاء بعض الضمانات المحددة التي تكفل مستقبل البلاد العربية، فعرض مسؤولو الإنكليز في القاهرة الأمر على حكومة لندن وإذ انضمت هذه بما عرض عليها فوضت معتمداً في القاهرة السير هنري مكماهون، خليفة اللورد كينشن في مصر، بإصدار بيان (صدر في ٤ حزيران ١٩١٥) جاء فيه ما يرمي إلى هزيمة مخاوف المسلمين أكثر مما يرمي إلى تحقيق آمال العرب السياسية^(٩٧). وقد تضمن تعهداً من إنكلترا بأن تنص إحدى فقرات معاهدة الصلح — التي منعت في نهاية الحرب — على الاعتراف بشبه جزيرة العرب، التي تضم أماكن المسلمين المقدسة، دولة مستقلة ذات سيادة تامة مصونة من أية تضيعة للإنكليز أو لأية دولة من الدول الأجنبية. كما جاء فيه ما يعطى لقوم المسلمين عن احترام الإنكليز للدين الإسلامي، وسلامة نياهم نحوه، ورضيتهم في إعلاء شأنه وإجلاله، وما يعطى لسكان الحجاز على معاشهم، إذ «إن إنكلترا التي حُرّ في نفسها أن تراهم في عوز، وشفقة منها عليهم، قد أدت لهم يجلب الحبوب إلى ميناء جدة»^(٩٨). ومن المحتمل أن يكون قد تضمن — كما ذكر جورج

(٩٦) المصدر السابق، ص ٢٢٥ — ٢٢٦.

(٩٧) المصدر السابق، ص ٢٤٦ — ٢٤٧.

(٩٨) J. H. BAYUR, Ibid. I, pp. 340-341. من دائرة المخطوطات في وزارة الخارجية التركية.

أنطونيوس— وعدا من إنكلترا بالترحيب بقيام خلافة إسلامية عربية. ووزع البيان في مصر والسودان، وهرّبت منه أعداد كثيرة إلى الشام، وأثّقت الطائرات البريطانية عدداً كبيراً منه فوق مدن الحجاز الساحلية.

صحيح أن هذا البيان قد قطع شوطاً أبعد مما كان كئشعر قد عرضه على الحسين من حماية الجزيرة العربية ضد أي اعتداء خارجي، بوصفه قد وُعد بقيام دولة مستقلة في جزيرة العرب، لكنه، مع ذلك، قد أغفل مطلب العرب الأساسي، ألا وهو استقلال بلاد الشام والعراق أسوة بالجزيرة العربية^(٩٩)، وهذا ما لم يكن لبريطاني العرب فلم يفتنوا به.

كانت المدة، التي مرت بين توقف المفاوضات وعودها في تموز ١٩١٥، لبذل فترة تبلورت خلالها— لدى الجانبين العربي والإنكليزي— الحطة التي يجب على كل منهما اتباعها تجاه الآخر. فلقد عرف الشريف حسين مقدار ما يعلقه الإنكليز من أهمية على مشاركته لهم في هذه الحرب، كما عرف بواسطة نجله فيصل— العائد من دمشق— المطالب التي تستطيع أن تنال رضى الزعماء العرب، والقوى التي يستطيع الإعتماد عليها في حركته التي قُوم الإقدام عليها. كما اقتنع الإنكليز بأن سورية— بالرغم من كونها قد أصبحت البؤرة الأساسية لليقظة العربية، بفضل تغلغل الفكرة القومية بين أبنائها، لا سيما الشبان المتنوعين منهم— لا تستطيع أن تكون المركز الذي تنطلق منه شرارة الثورة، ومثلها العراق الذي لم يكن ليقبل عنها استمساكاً بهذه المبادئ، نظراً لأنهما كانا من مراكز احتشاد الجيوش العثمانية، ومن المناطق التي تستطيع الدولة أن تزيد حشودها فيها، وأنه إذا أُهد للثورة أن تنجح— وكان هذا بالضبط ما اقتنع به أحرار العرب وزعمائهم والشريف حسين، وأبته فيصل بالذات— فلا بد أن تكون في منطقة ذات ظروف أكثر ملائمة، ولم يكن أفضل من الحجاز مكاناً لانطلاقها^(١٠٠). هذا من جهة ومن جهة أخرى كانوا على صلة بخلفائهم الفرنسيين والروس، فوقوا على مطالبهم ومطامعهم في تركة الرجل المريض، وفي الوقت نفسه اختبروا قواهم الحربية على ضوء المعارك التي كانت تخوضها جيوشهم في مختلف ميادين الحرب في الشرق. ذلك أن روسيا قد بدأت، منذ تشرين الثاني ١٩١٤، تطالب حلفاءها بالمناطق التي تطمع بها في تركيا، فما كان من فرنسا إلا أن تطالب مقابل ذلك بسورية التي اعتبرتها حصتها من إرث السلطنة العثمانية، ثم تدخل إنكلترا في المفاوضات، ويحصل الاتفاق بين الدول الثلاث على الحصص التي

(٩٩) أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(١٠٠) مطالع المصري، يوم ميسلون، ص ٤١.

تطمح فيها كل واحدة منها^(١٠١)، وتظهر إلى الوجود اتفاقية سايكس-بيكو التي ستكون موضوع فصل آخر من هذا الكتاب.

على هذا الأساس من الاستعداد استؤنفت للمفاوضات التالية التي أُطلق المفاوضون عليها اسم «محادثات الحسين - مكماهون»، والتي بدأت برسالة وجهها الحسين إلى السير «هنري مكماهون»، المقيم البريطاني في القاهرة، وكان الحسين قد استم دراسته للوضع في سورية، وإمكاناته، وأطمأن إلى تأييد السوريين ومطالبتهم، وإلى موافقة زعماء العرب في الجزيرة على موقفه المبلّغ من دعوة الجهاد، وقد شجعه على خطوته هذه ما كان جمال باشا جاداً به في سورية من اعتفال ومحاميات في ديوان حرب عالية، كمقدمة لإعدام القافلة الأولى من الشهداء.

كانت رسالة الحسين هذه عبارة عن مقدمة ومذكرة. وقد أحييت بكتبان شديد، ولم نعمل لا تولعاً ولا تاريخاً زيادة في الخبر، لكنها أوقعت برسالة شخصية موجهة من الأمير عبد الله إلى صديقه المستر «رونالد ستورز» وتحمل تاريخ ١٤/٧/١٩١٥، حملها مندوب خاص يدعى الشيخ محمد عارف بن عرقان، لم يستطع الوصول إلى القاهرة إلا في أحد أيام شهر آب، وسلمهما إلى السلطات الإنكليزية^(١٠٢). وأما المقدمة فقد جاء فيها ما يطمئن مخاطبه إلى ميل أفكار الشعب العربي إلى الحكومة البريطانية، مما لا يدع لروماً إلى إرسال الطائرات أو رجال الحرب لإلقاء المتأشير على الماد الحجازية «لأن القضية قد قررت»، ورجاءه بأن يسمح للحكومة المصرية بإرسال «الهدايا للمروءة» من الخنطة للأراضي المقدسة التي أوقف إرسالها منذ عام، وأن إرسال هدايا العام الحالي والسابق سيكون له الأثر الفعال في توطيد المصالح المشتركة بين العرب والإنكليز.

وأما المذكرة فقد جاء فيها أن العرب بأجمعهم قد فروا القوز بحريتهم واستلام مفاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم. وأنهم شعروا وتأكّدوا أن مصلحة بريطانيا أن تساعدتهم وتعاونهم للوصول إلى أمنهم المشروعة. ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة بريطانيا على أية حكومة أخرى، نظراً لموقعهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية، لذلك يرى الشعب العربي أن يسأل الحكومة البريطانية، إذا رأت ذلك مناسباً، أن تصادق بواسطة ممثلها على اقتراحات وصفها بأنها

(١٠١) الدكتور نور الدين حاطح، المصدر السابق، ص ٣٢.

(١٠٢) ألفونسوس، المصدر السابق، ص ٢٥١.

أساسية^{١١٠}، وينطوي على المطالبة باعتراف الحكومة البريطانية باستقلال البلاد العربية، ضمن حدود عيبتها المذكورة، وهي التي رجمها عشاق الزعماء السوريين الذي لفظه فيصل لوالده (كما وردت في الفصل السابق)، مضافاً إليها اعتراف بريطانيا بإعلان خلافة عربية على المسلمون، وبذل مساعدتها في أخذ اعترافات بقية الدول الأوروبية على إلغاء الامتيازات الأجنبية، وأن تتعاون الحكومتان الإنكليزية والعربية عسكرياً وديماً وجوياً في مجابهة كل قوة مهاجم أحد الفريقين، حفاظاً لاستقلال البلاد العربية، وثأماً لأفضلية إنكلترا الاقتصادية. أما إذا اعتدى أحد الفريقين على بلاد ما، ونشبت بسبب ذلك قتال بينه وبينها، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد، إلا إذا اتفق الفريقان على شروط جديدة. وتكون مدة الاتفاق العسكري خمس عشرة سنة، يجرى تجديدنها بناء على طلب أحد الفريقين مسبقاً. ويطلب الشريف الإجابة عن مطالبة هذه سلباً أو إيجاباً، خلال ثلاثين يوماً من وصول اقتراحه، حتى إذا انتقضت هذه المدة، ولم يتلق جواباً، يعتبر أن جميع مقترحاته وتصريحاته، ووعوده السابقة مع علي أفندي أصغر^{١١١} بحكم الملحة^{١١٢}. والمفهوم من هذه المذكرة أن الشريف حسين قد جسد مطالب أحرار العرب في الاستقلال التام، وفي رسم خطوط دولة عربية كبرى، تتمتع بجميع الحقوق الدولية في تحالف الند للند وفي الكرامة القومية. وقد عول على للدولة البريطانية في هذا الأمر العظيم. أما السبب الذي أهلب بالشريف حسين أن يؤثر بريطانيا وحدها دون سائر الحلفاء بثقتة، ويسعى إلى التحالف معها، فواضح من أنها — بعلاقتها مع شبه الجزيرة العربية ومخالفاتها للعقود مع مختلف أمرائها — أكثر الدول الأوروبية اتصالاً بالعرب، فضلاً عن أنها، باحتلالها مصر والسودان، تكون على الجانب الآخر من البحر الأحمر قوة بحسب حسابها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فضل الحسين أن يتصل بها وحدها، أولاً لأنها عرضت عليه التحالف والمساعدة في الوقت المناسب، حينما كان يقلب الأمر على وجهه المختلفة، ولأن الاتفاق معها وحدها أضمن من أن يُلقي بمصالح العرب في مهب التنافس الدولي، وأنها وحدها التي تستطيع أن تساعد العرب على نيل استقلالهم، لثقتة بالشريف البريطاني، في وقت كان العرب يتوجسون من مطامع فرنسا في بلاد الشام.

وأما جواب ممثلها السير هنري مكماهون^{١١٣}، وهو الذي أرسله في ٣٠/٨/١٩١٥، فقد تضمن كثيراً من عبارات التملق والتضخيم والمراوغة، وقليلاً من الوعود، مغلفة بمسحة من القموض

(١٠٣) هيثاق والمعاهدات في بلاد العرب — من نشر جريدة الأنبا، ص ١.

(١٠٤) HUREWITZ, Ibid. p. 13, D. N° 8.

والإلزام. صحيح أنه أكد رغبته، مقرونة برغبة الملورد كمشنر، في استقلال البلاد العربية وسكانها، والموافقة على أن يكون خليفة المسلمين عربياً، وعلى استعداد إنكثرا لإرسال المنح المطلوبة للمدن المقدسة، لكنه قال فيما يتعلق بالحدود التي رسمها مذكورة الشريف إنه قد يكون البحث في مثل هذه التفاصيل — والوقت قصير والحرب قائمة — سابقاً لأوانه، وخاصة أن تركيا لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الأراضي التي أُشير إليها احتلالاً تاماً^(١٠٦). وقد تجاهل مكماهون حقيقة هامة هي أن مقتضيات الحرب هي التي تُسمي ما يمكن أن يحصل من اتفاق بين الجانبين، للتعاون في القضاء على الاحتلال التركي، بدلاً من أن تكون الحرب والاحتلال التركي سبباً مانعاً من الوصول إلى اتفاق مفصل الشروط على ذلك، فأثبت المعتمد البهلولاني في الواقع، رغبته في المخادعة والمراوغة للوصول إلى الثورة بأجل من^(١٠٧).

لذلك يادر الحسين فوراً إلى لإرسال مذكرته الثانية، وقد حملت تاريخ ٩ أيلول ١٩١٥، وقضت ما يشعر بنفور الحسين من «التموضي والبرودة والتردد» الذي احتوته مذكرة مكماهون، فيما يتعلق بالنقطة الأساسية: الحدود. كما بين فيها تأكيد لإخلاصه نحو إنكثرا واعتقاده بتفضيلها على جميع الدول في كل الشؤون، ولومه السر «هنري مكماهون» على ما جاء في رسالته عن كون النظر في قضية الحدود سابقاً لأوانه، موضحاً أن الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد، يستطيع لإرضائه ومقاولته بعد الحرب، بل هي مطالب شعب بأسره يعتقد أن حياته فيها، وأنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية، وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد. وهذا ما يجمعه على يقين أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء، ولأن يعتقد أنه من المهم أن يتم تنظيم الأراضي المجرأة ليعرف على أي دعامة يؤسس حياته كيلا تعارضه إنكثرا، أو إحدى حليفاتها في هذا الموضوع، وأن العرب لم يطلبوا، ضمن تلك الحدود، مناطق يقطنها شعب أجنبي. أما مسألة الخلافة فقد لغت الحسين نظر مكماهون إلى أنه قد ضرب على وترها وكأنها كل شيء في الموضوع، لذلك أجابته عن هذه النقطة بقوله «أما الخلافة فليؤس الله عنها، ويسر الناس بها»، كناية عن نظرتة إليها نظرة ثانوية، ثم حسم الشريف مذكرته بقوله إن الشعب العربي بأجمعه ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على الموافقة على قضية الحدود أو رفضها^(١٠٨).

(١٠٥) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، ص ٣.

(١٠٦) أنطونوس، المصدر السابق، ص ٢٥٢-٢٥٤.

(١٠٧) الوثائق والمعاهدات، ص ٤-١٦ أنطونوس، المصدر السابق، ص ٥٥ (ملاحق — نقلًا من الوثائق الرئيسية في قصة فلسطين، إصدار الجامعة العربية).

لقد وضع الشريف حسين، في هذه المذكرة، مغاوضه الإنكليزي بين أحد أمرين: إما الموافقة أو الرفض. كان الإنكليز إلى هذا الوقت يجهلون أن الحسين على اتفاق مع أحرار سورية في المسر ضمن خطة مرسومة للوصول إلى الغاية القومية المنشودة، وأن الحركة الوطنية فيها قد نشطت نشاطاً كبيراً في أثناء الحرب، وأن هناك جمعية سرية باسم «العربية الفتاة». حتى إن معلوماتهم عن «جمعية العهد» كانت غامضة. لذلك توهموا أن الحسين لم يمكن بمثل إلا نفسه، وأن مسيحه إن هو إلا لتحقيق أحلامه الشخصية فقط، وأنه من الممكن استأثرك فيما لو وعدوه بالخلافة، وطوعوا له باستقلال العرب تلويحاً مبهماً، ولم يكن لديهم أدنى معرفة بما كانت تنطوي عليه مقترحاته^(١٠٨). لكنهم في أوائل شهر تشرين الأول ١٩١٥ عرفوا الحقيقة صidente، عندما جاء الضابط العربي العراقي محمد شريف الفاروقي إلى مصر، وقد فر بحيلة إلى الجيش الإنكليزي الذي كان يحارب في جبهة الدردنيل، بعد أن رجا الضابط الإنكليزي الذي طلب للثول بين يديه بالأأ يعتبره أسيراً وأن يؤمن سفره إلى مصر، وأن يُقَي اسمُه مكتوباً، وأن يؤمن له الإنكليز السفر إلى الحجاز حتى شاء، فأجابهُ إلى طلبه. وفي مصر اتصل بعزيز علي المصري، ثم بالسُلطة الإنكليزية، وأفصح لها عن كونه قد أخذ على عاتقه القيام بهمة تخدم القضية العربية، بناء على اتفاق جرى بين حزبي «العهد» و«العربية الفتاة» اللذين قررا العمل معا، وحث الشريف حسين على الثورة، وتأييده فيها، لأنه اتصل بهما أن ثمة مفاوضات دائمة بين الشريف والإنكليز، وأدعى أنه من المنسبين إلى جمعية «العهد»، وأن رئيسه ياسين الهاشمي، الذي تقل مع الضباط العرب اللذين أبعدهم جمال باشا من سورية إلى الآستانة، قد كلفه بهذه المهمة^(١٠٩). فكان للمعلومات التي ذكرها الأكثر الحاسم في موقف الإنكليز، ذلك أنه أقاض في الحديث عن حقيقة الشعور السائد بين القوميين العرب في كل من سورية والعراق، وعن نشاط الجمعيتين السريتين المذكورتين آنفاً، وعن الحقد الذي يبعث في صدور أعضائهما ضد الأتراك^(١١٠). فمحصنت أقواله بدقة، ولما ظهرت صحتها اعتنى الإنكليز ناطقاً بلسان جمعيتي «العهد» و«الفتاة» ومفوضاً عنهما^(١١١). وقد ظهر فيما بعد أنه لم يكن كذلك. وعلى كل حال اطلع الإنكليز على أمور كثيرة، لم يكونوا على علم بها قبل وصول الفاروقي، أقامت

(١٠٨) أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(١٠٩) أحمد دافتر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص ٨٢ - ٨٣.

(١١٠) أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٢٥٨.

(١١١) له إنشاء إقامة الفاروقي في مصر كتب إلى الشريف حسين بواسطة الإنكليز، وأخبره أنه قد قام باسم أموانته في تركيا لمرض معلوماته وعدماته عليه، ثم التقي بعد ذلك بمعسكر الشريف عند ابتداء الثورة.

لم التوقف على مضمون مذكرة الشريف الثانية بفهم أكمل من ذي قبل ، مما جعلهم يتخذون موقفاً محددًا من مطالب الشريف . فبعث إليه مكاهون برسالة الجوابية الثانية ، وتعتبر أهم المراسلات الجارية بينهما لاحتوائها على النقط الأساسية التي وقف التحالف الإنكليزي — العربي عندها بين الجذب والدفع .

كتب السير هنري مكاهون مذكرته هذه في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥ ، وقد اعتذر فيها عما ظنه الحسين بروداً ، مع أنه لم يقصد هذا الأمر ، بل جل ما رعى إليه أن الوقت لم يحن بعد للبحث في مسألة الحدود ، ولما فهم أن هذه المسألة تشكل في نظر العرب أمراً حيوياً ، اتصل بحكومته في لندن ، حول مذكرة الحسين الأخيرة ، وأنه أصبح باستطاعته بعد هذا أن يتقدم بالبيانات التالية

« إن مرسين واسكندرونة ، وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال عنها إنها عربية صرف . لذلك يجب أن تستثنى من الحدود التي ذكرتموها ، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات ، على أن لا تنقض شيئاً من اتفاقاتنا مع زعماء العرب .

« أما الأراضي التي تستطيع إنكثرا العمل فيها بملة الحرية ، ودون أن توقع ضرراً بحليفها فرنسا ، فإن في السلطة الثامنة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطوكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم .

- ١ — إن إنكثرا مستعدة على أساس تلك التعديلات أن تعترف باستقلال العرب ، وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها الشريف مكة .
- ٢ — نحمي بريطانيا الأراضي المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجودها .
- ٣ — نقدم بريطانيا للعرب — عند الحاجة — كل مساعدة أو نصيحة تلزم ، ونعاونهم في تنظيم أفضل شكل من أشكال الحكومات في مختلف البلاد العربية .

« هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يوافق العرب على الانقياد على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها ، ورضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون إليهم لتنظيم دوائر مملكتهم من الشيعة الإنكليزية .

وأما ما يتعلق بولاية البصرة وبغداد ، فإن العرب يعرفون أن مركز إنكلترا ومصالحها لها تتطلب شكلاً إدارياً خاصاً ، ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية ، وتأمين راحة وأطمئنان السكان ، وتوطيد مصالحها المشتركة فيها .

ونتهي للسرد مكماهون متكرره بتطمين الحسين عن عطف بريطانيا على أماني أصدقائها «التقليديين» العرب ، وعرب عن أمه في توحيد العمل على طرد الأتراك وإنقاذ العرب من نور حكمهم»^(١١).

إن من يدقق في نصوص هذه المذكرة التي أوردتها بتفاصيلها نظراً لأهميتها يلاحظ أن ليس فيها ما يشبه للمروض التي يقدمها فريق آخر يعيبو ندأ له — إذا أعجبنا مذكرة الشريف الكؤلى مقيماً لها — لكثرة ماورد فيها من عبارات : المساعدة ، النصيحة ، الحماية ، الاقتصاد على استشارة ومعرفة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها ، وتنظيم دوائر المملكة العربية من قبل موظفين من الإنكليز ، وغيرها من العبارات التي تعرف دولة مستعمرة كبريطانيا كيف تستغلها .

وقد حرصت المذكرة على استثناء المناطق التي عقدت بريطانيا مع أصحابها من أمراء العرب اتفاقات خاصة — مثل نجد ابن سعود وأمارات الخليج العربي — من الخطط العربي ، ولم يكن الحسين على علم بما تضمنته تلك المعاهدات من نصوص . كما حرصت على إحاطة مقترحاتها بالغموض والإيهام ، فيما يتعلق بشكل وإطار ووحدة البلاد العربية المزمع الاعتراف بها وباستقلالها ، وكل ما اعترفت به بوضوح هو وحدة الأراضي المقدسة ، أي الحجاز فقط واستقلال العرب ، بل أكثر من ذلك أنها قد أصبحت عما ينلقض وحدة بلاد العرب ، بالحدث عن مساعدة بريطانيا في «تنظيم أفضل شكل من أشكال الحكومات في مختلف البلاد العربية» . ثم إنها لم تتضمن أي إشارة إلى مسألة الخلافة التي لم يهرها الحسين أهمية كبيرة . ولم تنس أن تقطع لنفسها أهم منطقة عربية لها فيها مطامع عريقة هي العراق .

على أن أهم ما تضمنته حرصها على حفظ حقوق حليفتها فرنسا ومصالحها في المناطق التي تدعي أن لها فيها حقوقاً تاريخية : سورية ولبنان ، من مرصين هماً إلى حدود فلسطين جنوباً . والواقع إن إنكلترا ، قبل استئناف مفاوضاتها مع الشريف حسين ، كانت قد تفاومت مع فرنسا على هذه المنطقة في المباحثات التي رافقت اتفاقيات سايكس — بيكو . وهذه المناسبة لابد لي من القول إن

ما أدعى به بعض الكتاب الفرنسيين من أن اتفاقات الحسين — مكماهون قد جرت من وراء ظهر فرنسا ليس له أساس من الصحة، إنما كان عبارة عن عيوش وإغاطة وإزعاج لإنكلترا، سرعان ما انتهى عندما تقاسمت الحليفتان المقام بعد انتهاء الحرب^(١١٢). فالقضاة الإنكليز قد أبلغوا المسؤولين الفرنسيين بمخادئاتهم مع الحسين، وبأن إنكلترا تشجع قيام دولة إسلامية مستقلة، لأن قيام مثل هذه الدولة ضروري لبريطانيا لمقاومة تأثير الأتراك، ولأنها قلقة جداً من إمكان تعرض مصر من طرفها لمجوم يقوم به السنوسيون من الغرب والأتراك من الشرق، وأن الحرب قد يهاجمون بعض الأماكن التي تعتبر جزءاً من سورية، ويترك لفرنسا أن تقدر مدى الساهل الذي يمكن إظهاره في هذه الناحية.

صحيح أن المسيو يوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسية آخذ قد جزع جزءاً شديداً من المفاوضات الإنكليزية — العربية عند الشروع فيها، وبذل جهداً كبيراً منذ شهر تشرين ثاني ١٩١٥ لئلا يغني فشلها، لكن جهوده ذهبت سدى، فحاول حينئذ أن يحصل على وعد صريح من بريطانيا بأن تحفظ — في أثناء المفاوضات — لفرنسا ماتدعيه من حقوق ومصالح في سورية وكيليكيا ولبنان. لذلك أوفد المسيو «جورج بيكو» قنصل فرنسا العام في بيروت سابقاً، إلى لندن لمباحثة السلطات الإنكليزية في هذا الأمر. ويتضح عما كتبه المسيو يوانكاره في مذكراته حول هذا الموضوع أن يمثل الحكومة البريطانية السير آرثر نيكلسون لم يتشدد في مسألة الاعتراف بسلطة فرنسا على الإسكندرية وأدنة وكيليكيا، على الرغم من اعتراض اللورد كشر على هذا الاعتراف. لكنه اشترط مقابل ذلك تحديد سلطتها في سورية، ووضعها تحت سيادة شريف مكة، وأن لا تغول فرنسا سوى حق تعيين الحاكم عليها، وباختصار لم تكن إنكلترا لتترك سورية لفرنسا إلا بشرط أن تكون تحت سيادة الشريف، وبغضاً عن ذلك تطلب لنفسها فلسطين وحيفاً.

لم يكف يوانكاره خشيته من الإمبراطورية العربية الكبيرة المزمع تشكيلها خوفاً من تأثيرها في مستعمرات فرنسا الإفريقية، قال: «إن هذه الإمبراطورية الكبيرة، لأفهم لها معنى... وكنت أحب أن لأراها تخرج إلى حيز الوجود، وقد عرضت محاولي على مجلس الوزراء، إلا أنه يظهر أننا قد سبقنا وخطئنا غمار البحث في هذا الموضوع، وقيل لي إنه قد فات الآن أوان العودة إلى المناقشة»^(١١٣).

(١١٢) الدكتور نور الدين حاطوم، المصنف السابق، ص ٥٦ — ٥٧.

(١١٣) ساطع المصري، يوم ميلاد، ص ١٦ — ٢٠، (من المسيو يوانكاره في كتابه *Au Service De La France*, T. VII, p. 363).

وإذا اعترف المفاوض الفرنسي بـ «يكون بحق العرب في إقامة مدن دمشق وحمص وحماه وحلب تحت إشراف فرنسا»^(١١٤)، حصلت هذه على العهد الذي وُضعت في الحصول عليه بشأن مطامعها في الإسكندرية وكيليكيا وآدانة، والمدن الواقعة غربي دمشق وحمص وحماه وحلب، لكنها لم تكتف بذلك بل ظلت تطالب بالموصل، ومنطقة سورية الداخلية، وتقسيم فلسطين بين فرنسا وإنجلترا. وهذه المطالب كانت موضوع مناقشة بين الفرنسيين والإنكليز فيما أطلق عليه «مباحثات سايكس-بيكو» - التي ساجنها مفصلاً في فصل آخر - والتي كانت تسير جنباً لجنب مع مفاوضات الحسين - مكماهون، ذلك أن إنجلترا كانت تفاوض الحسين حول استقلال البلاد العربية، في الوقت نفسه الذي كانت تفاوض فيه فرنسا حول تقسيم تلك البلاد^(١١٥). أي أنها كانت مضطرة لإجابة شيء من آمالي العرب كي تستطيع دفعهم إلى الثورة، فكان لزاماً عليها أن تعدهم بالمساعدة على تأسيس دولة مستقلة، لكن هذا كان يتطلب منها أن تتخلى عن قسم من مطامعها القديمة في البلاد العربية، وأن تحمل فرنسا في الوقت نفسه على أن تتخلى عن قسم من مطامعها في سورية. وبالإيجاز أن نؤلف بين آمالي العرب ومطامعها هي ومطامع حليفها فرنسا. فأقدم ساستها على هذا الأمر العسير بمهارة فائقة^(١١٦).

جاء رد الحسين (١٩١٥/١١/٥) على رسالة السير مكماهون الثانية رداً قال عنه جورج أنطونيوس في كتابه «دقيقة العرب» أنه «يظهره سياسياً بعيد النظر من أرفع طراز»، وأنا لست أرى ذلك الرأي فيه، إذ تنازل دون تفكير - كما قال ج. أنطونيوس نفسه - عن إصراره في ضم مرسين وآدانة إلى المملكة العربية «رغبة في تسهيل الإنفاق وخدمة الإسلام» واعتقاداً منه «على صفات بريطانيا العظمى ومولفاتها الخبيثة»^(١١٧) كأن خدمة الإسلام وتسهيل الإنفاق هما في التعاون والتساهل على حساب القضية العربية، وكأنه قد غير بريطانيا حق الحقبة، في حين كان غيره من السياسيين أدرى منه وأخبر بها. فالأمير شكريب أرسلان، عضو مجلس المبعوثان - وكان على اطلاع بدخائل السياسة الأوروبية - قد أثار وحذر من أن يضيع أحد من العرب يده يدها^(١١٨)، لأنها عدوة العرب والإسلام شأنها كشأن حلفائها في ذلك، وتسعى وليأهم إلى سلب البلاد العربية عن جسد الدولة

(١١٤) دكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص ٥٧.

(١١٥) ساطع الحمصي، يوم مرسين، ص ٤٥ - ٤٦.

(١١٦) المصدر السابق، ص ٤٢.

(١١٧) محمد لطفي جمعة، حياة الشرق، ج ١، شعوبه، ص ٢٣٦.

العثمانية، لاستعمارها باطلًا، وحررها من الاستعمار ظاهراً^(١١٨). ويضرب أمثلة على ذلك استعمارها مصر والهند وجزرها من الأفطار الإسلامية. وقد مر معنا من جهة أخرى كيف كان موقف الزعيم العراقي البصري طالب للثقب الذي فضّل النفي على الوقوع في حبال الإنكليز، وليس بمنفذ الحسين من اللوم رفضه الموافقة على استثناء ولائي حلب وبيروت — وربما يقصد بذلك أجزاء سورية الواقعة غربي دمشق وحمص وحماة وحلب بما فيها الإسكندرون، وهذا دليل على عدم الدقة في الإجابة — من انقطاع العربي على أساس أنها — خلافاً لمصين وآدله — عربية خالصة، ذلك أنه برهن على شغل ميامته بجهله أو تجاهله كون مرسين وأدنه مأهولين بأكثرية عديدة من عناصر عربية لا يستهان بها — ولا يزال عدد كبير من سكانها يتكلمون اللغة العربية حتى الآن — وأنه في مراسلاته التالية لم يقف موقفاً صلياً في الوصول إلى اتفاق حاسم حول عدم استثناء هذه الأجزاء من المملكة العربية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد وافق في مذكرته الثالثة هذه على التصفطات الخاصة بالأمراء العرب المرتبطون مع بريطانيا بمحادثات خاصة، لكن هذه الموافقة جاءت في سياق من الحديث قد يفهم منه أنها تقتصر على الشيوخ القباويل للمقسم الجنوبي من العراق، الذي كان تحت الاحتلال الإنكليزي. أما ما جاء عن ولائي البصرة وبغداد في مذكرات السير مكماهون، من قيام شكل إداري خاص بإحدى مركز إنكليزي ومصالحتها فيها، وبمكنتها من ممارسة مراقبة خاصة للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية، فإن الحسين قد رفض اقتراح المقاض الإنكليزي فوطيد مصالح الطرفين المشتركين فيه ولكنه — مع ذلك — وافق على أن تحل القوات الإنكليزية هذه المناطق، خلال مدة الحرب، احتلالاً مؤقتاً، على أن لا يعني ذلك سلخها عن الدولة العربية، وعلى أن تدفع بريطانيا، لقاء هذا الاحتلال المؤقت، معونة مالية يجرى الاتفاق عليها للدولة العربية. وهنا يظهر قصر نظر الحسين، وكأنه قد نسي أو كان يجهل أن الإنكليز دخلوا مصر لفترة مؤقتة وظلوا فيها إلى ذلك الوقت ما يوفى عن ثلاثين سنة.

على أن الحسين، وقد ركز اهتمامه على سلامة وسلامة حركته، أثار مسألة ضمان عدم عقد صلح منفرد مع الأعداء، وطلب عهداً بالاً يترك للعرب وحدهم — مهما تكن الأحوال — في مواجهة جيوش ألمانيا وتركيا، وأن يُحذر العرب في مؤتمر الصلح محاربين رسميين، وأن تنف بريطانيا في صفه في مفاوضات الصلح، وتقايع عن قضيتهم. وقد أبدى عدم رغبته في إعلان الثورة فوراً قبل إتمام الاستعداد لها. وختم كتابه بقوله: إنه لو لم يكن يعرف أن العرب بأجمعهم مستعدون للتضحية

(١١٨) التفكير سلمي للبحان، للنسب السلي، ص ١٤٠.

بأرواحهم في سبيل الوصول إلى أمانهم فكان يفضل أن يصعد إلى رأس جبل هتروبي ، ولكن العرب بأسرهم يصرون عليه بأن يقود حركتهم حتى النهاية^(١١٩).

لم يكن جواب السير هنري مكماهون — بالطبع — إلا بإبداء السرور لقبول الحسين بإخراج ولايتي مرسين وآذنة من المملكة العربية ، مؤكداً على أن الاعتراف بالمعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع رؤساء العرب الآخرين يعني بالطبع قبول هذا الاعتراف بالمعاهدات المفقودة مع البلاد الداخلية في المملكة العربية ، لأن حكومة بريطانيا لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء . وأما بشأن ولايتي حلب وبيروت اللتين ذكرهما الشريف ، وقصد بهما المناطق الغربية من سورية ، فإن بريطانيا قد أخذت علماً بما بينه الشريف عنهما ، لكنه لما كانت مصالح فرنسا داخلية في هذه المسألة ، فهي تحتاج إلى نظر دقيق ، وسيخاير الشريف بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب . ثم أكد السير هنري مكماهون على أن مصالح بريطانيا في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة ، ووافق على رغبة الحسين في الحذر والتؤدة ، وعدم القيام بعمل سريع ، لكنه في الوقت نفسه دعاه إلى بلل أقصى مجهوده لجمع كلمة للشعوب العربية إلى غاية الطرفين اندمجة ، وحث هذه الشعوب على أن لا تمد يد المساعدة لأعداء بريطانيا بأي وجه كان ، فإنه على نجاح هذا المجهود ، وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لإحباط غرض الحلفاء ، عندما يهيء وقت المصل ، تتوقف قوة الإنفاق بين الطرفين وثباته . ونعم كتابه بتطمينه أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية ، وتخليصها من سلطة الأتراك والأكراد ، ويتقدمه ٢٠ / ألف جنيه عربوناً على صدق نية إنكلترا ، ومساعدة له في مجهوده للغةة المشتركة^(١٢٠).

وعلى الرغم مما جاء في رسالة مكماهون هذه من إصرار وثبات على مطالب إنكلترا ، فإن الرسلتين التاليتين اللتين حررها الشريف حسين ، جواباً عن هذه الرسالة وعن رسالة مكماهون التالية ، لم تفصحا عن شيء من الإصرار والصلابة ، اللهم إلا ما جاء في أولاهما ، المؤرخة في كانون ثاني ١٩١٦ ، من تأكيد بأن ما يقوم به الحسين ليس لغايات وميول شخصية ، بل نتيجة مطالب ورغائب الشعب العربي ، الذي لم يكن الشريف سوى ناقل ومتفد لرغبته وإلحاحه . وأما قضية الصمصص الذي طلبه عن احتلال بريطانيا المؤقت للمراق فإنه ، رغبة منه في تقوية ثقة بريطانيا بنياته

(١١٩) الوثائق والمعاهدات ... من ١٩٠٩ إلى ١٩١٥ ، للطبع في بيروت ، ص ٢٦٠ — ٢٦٢ .

(١٢٠) الوثائق والمعاهدات ... من ١٩١٥ ، ص ٦١ .

في القول والعمل ، يدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وإتصافها ، مذكراً للسير مكماهون بأن ما أبداه في رسالته السابقة فيما يتعلق بالأقسام الشمالية من سورية ومراقبتها ، هو أقصى ما يمكن أن يوافق عليه من تعديلات ، وأن ما أبداه من تساهل هو في سبيل تجنب كل ما من شأنه أن يسيء إلى تحالف إنكلترا وفرنسا ، والاتفاق المعقود بينهما خلال هذه الحرب . ولكنه يحتم رسالته بالتنازل عن بيروت مؤقتاً لفرنسا ، على أن يطالب بها بعد انتهاء الحرب واستعطف إليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها ، مؤكداً أن الشعب البيروتي لا يرضى قط بذلك الانفصال ، غثلاً بلهجة التهديد ، وقد بضرنا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق مناصب جديدة ليوطانية ، نفوذ في صميمها متاعبها الحاضرة ... وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة ...^(١٢١) . وهنا لابد لي من ملاحظة أن الكاتب جورج أنطونيو قد أغفل ذكر هذه النقطة بوضوح في متن كتابه ، بل أشار إليها بإبهام وغموض ، بينما أثبتنا في نصوص الملاحق ، لكن كتاب العرب قد أغفلوا الخوض فيها ، مع ما لها من الأهمية في قضية العرب القومية .

أما رسالة الحسين الخامسة المؤرخة في ١٨/٢/١٩١٦ ، فقد سلمت بما جاء في رسالة مكماهون الرابعة التي طلبت تأجيل البحث في مسألة ولاية بغداد ، والوصول إلى تسوية سلمية بشأنها وإعارتها الاهتمام والعناية الزائدين بعد أن تم هزيمة الأعداء ، أي تأجيل الخوض فيها إلى ما بعد انتهاء الحرب ، وذلك بالرغم من أنها (أي رسالة مكماهون) سجلت على الحسين ما استشفته من رغبته في تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف إنكلترا وفرنسا ، وأبدت سرورها بإبداء مثل هذه الرغبة ، كما أكدت بحزم قرار إنكلترا وفرنسا قراراً نهائياً بأن لا يسمح بأي تدخل — مهما قل شأنه — في اتفاقهما المشترك في إحصال هذه الحرب إلى الفوز ، وأنه متى انتهت فإن صداقتهما ستقوى وتتشدد^(١٢٢) . وليس يخاف على المدقق ما عو به مذكرة السير مكماهون من معان تطويع هذه السطور وكلها تتم بوضوح عن إصرار إنكلترا على التحفظات التي وضعتها للإعتراف باستقلال العرب ، ومن أنها لن تحمد عنها حتى بعد إنهاء الحرب ، بقولها إن صداقتها مع فرنسا ستقوى وتشدد ، وهل يمكن أن تقوى وتشدد إلا إذا أُجيب مطالب فرنسا كاملة في سورية ؟ . كان على الحسين ، إذن أن لا يستكين ويروضخ لعناد الإنكليز بهذه السهولة ، ويهيب على مخاطب مكماهون بقوله (إن مضامينه

(١٢١) HUREWITZ, Ibid. II, p. 16; ANTONIUS, Ibid. p. 425, appendix N°7. (١٩١٦)

(١٢٢) الوثائق والمعاهدات ... من ١٩١٣ أنطونيو ، المصدر السابق ، ٥٦٩ — ٥٧١ (الملاحق) .

أدخلت عليها مذهب الأترياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والمتفارب المرضوب^(١٦٧). فما هو السبب الذي حدا بالشريف إلى هذه الليونة والتراخي ؟

لاشك أن عوامل نفسية كثيرة دفعته إلى ذلك، منها قبل كل شيء عداؤه للأتراك الاتحاديين، ورغبته في الثورة عليهم بأي ثمن. ثم ثقته العمياء بزاغة إنكلترا التي أعتقد أنه عبر نيابتها، في أثناء إقامته في الأمستات، حيث تشامت بينه وبين السفارة البريطانية صلات ودية، وحيث لقي تميمته على إمارة مكة سنة ١٩٠٨ معاضدة بريطانية سراً. ونتيجة هذا الإيمان الراسخ، بإخلاص بريطانيا في معاملتها، غمر الحسين تنبيه مكماهون، في كون مسألة العراق متبجحت بعناية بعد الحرب، على أنه موافقة صريحة على مقترحاته بشأنها، وترك لإنتصاف بريطانيا أمر تقديم التعويض المالي عن احتلال أجزائه الجنوبية.

أما بشأن المناطق السورية الواقعة غرب خط دمشق — حلب، فقد رأى نفسه أمام معضلة: الإنكليز بصرون على غمظتهم حولها، وهو لا يستطيع أن يبت في الموضوع لأنه لا يتكلم باسمه الشخصي، لذلك حسم الأمر بتأجيل بحثه إلى ما بعد انتهاء الحرب، حرصاً على اجتناب ما يعكر صفو العلاقات بين فرنسا وإنكلترا، وهذا جل ما كان يتمناه الإنكليز، لأنه بذلك قد جعلهم يطمنون إلى قيام ثورة عربية تدعمهم، وتسهل عليهم احتلال الشرق، والوقوف أمام التقدم الألماني فيها، ومن جهة أخرى — وقد كانوا على اتفاق مع حلفائهم في شأن تقسيم هذه البلاد — قد ترك لهم الحرية والمجال مفتوحاً كي يحققوا، بعد الحرب، مطالب فرنسا في سورية. وقد غاب عن بال الحسين أو لجاهل كونه قد ربط، في أول محادثاته مع مكماهون، مسألة التحالف مع إنكلترا، بأمر الموافقة العاجلة الكاملة على شروطه في حدود الدولة العربية مقدماً. ولم يعد يطلب جواباً عن أية نقطة من النقاط التي أوردتها، بل كان يتصرف في كتابته وكأن الصفحة الراضية قد عقدت مع بريطانيا، ويؤكد عزيمته على إعلان الثورة في أقرب فرصة، وأنه سيبلغ مكماهون في الوقت المناسب عما يحتاج إليه من الأسلحة والذخائر والمؤن^(١٦٨). بينما لو تعلب الحسين ولم يرضخ بهذه السهولة لربما يكون قد حصل على شروط أفضل، ذلك أن الإنكليز كانوا في ذلك الوقت في موقف حرجي حرج في الشرق. فلقد بدأت حملتهم على العراق تلقى الدشل تلو الدشل، إلى أن حوصرت قوة كبيرة تشكل القسم الأعظم منها، بقيادة الجنرال «تاوترند»، في كوت الإمارة ابتداء من أوائل كانون الأول

(١٦٣) أنطونينوس، المصدر السابق، ص ٧١. «الملاحق تلام من الوثائق الرئيسة في قضية فلسطين الجامعة العربية».

(١٦٤) المصدر السابق، ص ٢٦٤ — ٢٦٥.

١٩١٥، ولم تجدد هذا من الاستسلام بعد خمسة أشهر من الحصار المزمع^(١٢٥). وفي الوقت نفسه كانت جيوش الحلفاء وأساطيلهم تعالي قسلاً أعظم في هجومها على الدردنيل، وكان عليها أن تجهز هجومياً في جهة أخرى لتغطي نتائج هذه الهزائم، فقررت القيام بعملية من مصر بقيادة الجنرال السير «أرشيبالد موري» SIR ARCHIBALD MURRAY، ليسر على شبه جزيرة سيناء، ويتقدم عبر فلسطين إلى القدس^(١٢٦)، وكانت بالتالي بحاجة ماسة إلى محالفة الشريف ليحمي جناح الحملة الأيمن. وبالفعل لم تقم تلك الحملة إلا بعد أن أعلنت الثورة العربية. فلو أن الشريف تهرت ولم يستجبل الاتفاق، لكان ذلك أجدى على القضية العربية. لكنه كان على ما يظهر يخشى الحكومة التركية التي بادرت إلى تعزيز قواها في المنطقة خاصة لثأرته. ومن جهة أخرى عاد الإنكليز إلى فرض الحصار البحري على شطوط الحجاز اعتباراً من ١٩١٥/١١/١٥، فكانت الحاجة أن تفتك بالسكان. ويظهر أنهم قد عملوا ذلك لإجبار الحسين على المرضوخ لحظائهم^(١٢٧).

على أن أمراً آخر يجب أن لا تغفل عنه هو تلك المنافسة التي كانت بينه وبين عبد العزيز آل سعود، الذي كان الحسين يعرف أنه يتحيز للفرص الانقضاض على مكة وطرده منها، لا سيما بعدما علم بأسر معاهدة «القطيف» التي عقدها مع الإنكليز، والتي لعبت دوراً هاماً في القضية العربية، دون علم من موقعها ابن سعود. لأن الإنكليز استخدموها في التغلب على آخر محاولات الردود والتصلب التي أبدتها الحسين. وقد جاءه علمها في لواخر كانون الأول ١٩١٥، وقبل أن يبحث برسالته الثالثة المؤرخة في ١ كانون ثاني ١٩١٦، والتي ظهر فيها التساهل من جانيه بشكل فجائي لم يُعهد في رسائله السابقة. وقد لوح له الإنكليز بأن أمير نجد أصبح «صديقهم»، وأن تركه يتقصر على الحجاز أمر غدا يهدم لا يبد أحد غيرهم. وفي هذه الحالة يكون بين فكلي كلامية إحداهما قوة الأخوان من جنود عبدالعزيز بن سعود، والأخرى فرق السير «أرشيبالد موري»، التي تستعد للزحف من مصر. والحل الوحيد أمامه هو أن يعطي قراره النهائي بأسرع ما يمكن، حتى إذا أصبح حليفاً لإنكليزاً يكون في حمايتهم، ويصبح في نجاة من كل اعتداء^(١٢٨). وهكذا تم كل شيء كما أراد الإنكليز، وكانت تلك الصفقة التي وصلها أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب»، بأنها

(١٢٥) CAPITAINE EDWARD MOUSLAY, Le Siège De Kri-Et-Amara, pp. 37, 187-189.

(١٢٦) B. MECHIN, Ibid. p. 199.

(١٢٧) R. ALDINGTON, Lawrence's Impulse p. 116.

(١٢٨) Ibid. pp. 201-202.

«صفقة بالاس مستهتر»، وأن في شروطها «دليلاً على سذاجة لي المنفذ الأكبر مهما كان دهاؤه السياسي»^(١١١).

قيمة وعود بريطانيا للشريف

لقد اختلفت الآراء حول قيمة هذه الوعود، فمنهم من رأى فيها خيراً للقضية العربية، وإن يكن فيها، من الشروط الناقصة والضموض، ما جعل الحكومة البريطانية حرة مطلقة في توزيع وعودها المتناقضة، على مقدار ما كان هناك من أطراف ذات مصالح متعارضة: كالعرب والفرنسيين واليهود، والتحلل للشريف حسين شتى المماذير، كاضطراره إلى إعلان الثورة على الترك لاستحالة الاتفاق معهم على حل القضية العربية حلاً عادلاً، ولازدياد ضغط الحالة الاقتصادية على بلاده، من جراء الحصار الذي فرضه الإنكليز على شواطئها، أو كعجزه عن مواجهة الدبلوماسية الإنكليزية، وهو رجل واحد وقف بإزاء دولة كبرى عريقة في السياسة، ولم يكن باستطاعته أن يملئ إرادته ويفرض شروطه بالشكل الذي يقف فيه موقف الند للند مع الإنكليز^(١١٢). قال محمد عزة دروزة، المعاصر للحوادث «لقد برز كثيراً في ترجيه التقدير للحسين لما كان من منافذ وثغرات في مراسلاته، وفي النتيجة التي آلت إليها، ونعتقد أن هذا التقدير قد صغر بروح ما بعد الحرب، ونتيجة لما كان من غدر الإنكليز وخذلهم، وخيبة الآمال التي علقها رجال الحركة العربية على انتصار الحلفاء». ويرد الكاتب تصرف الحسين في عقد الصفقة مع الإنكليز بما كان من غضبه من وأولاده حينما بلغهم خبر اتفاقية^(١١٣) «سايكس — بيكو»^(١١٤).

ومهما يكن من أمر فإن الذي يؤمنه على الشريف حسين إيمانه في الثقة ببريطانيا، هذا الذي اعترف هو نفسه به إذ قال في خطاب موجه إلى شعوب البلاد «لقد أصبحت ووجدت نفسي مسوقاً مع الإنكليز الحرة. لقد ساهمت في المحافظة على إمبراطوريتهم الاستعمارية الإسلامية،

(١٢٩) لاجي فارس، «القرى المعاصرة»، ص ١٨٤، الجاساس من أمين الريحاني، ملوك العرب، ص ١٧٥ ج ١.

(١٣٠) قالو المنصون، ملكوتي من الثورة العربية، ص ٢٩٣، (تقدي محمد طهين، المنازع الدولي حول أقطار آسيا العربية، ص ٥١).

(١٣١) فرد على دروزة بالخص بيكون اتفاقية سايكس — بيكو كانت سرية ولم يطلع الحسين عليها إلا في نهاية الحرب، سيما أن التوقيع عليها بالحروف الأولى كان في ١٥/٣/١٩١٦، بينما كانت ثلاثون للشريف حسين رسالته الثالثة المؤرخة في ١٦/٥/١٩١٥.

(١٣٢) محمد عزة دروزة، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٨ — ٥٩.

وقضينا بقي طريق الهند حراً خلال الحرب .. ولأسفاه لقد اعتقدت بأنني كنت أعمل لعظمة الإسلام ووحدة. وسارت الأمور على غير ما أريد^(١٢٢). وفي معرض الحديث عن مراسلات الحسين — مكماهون كان الكولونيل الإنكليزي لورنس، مرافق الأمير فيصل في زحفه نحو دمشق ومستشاره، صريحاً في ما سرد في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» قال «لم أبلغ رجباً ولا ودياً بتعهدات مكماهون واتفاقية سايبكس — بيكر، وبما أنني لست أحمق مطلقاً فقد كنت أرى — إذا كتبنا الحرب — أن الوعود المقطوعة للعرب ستكون قصاصة ورق. ولو كنت مشاوراً شريعياً لصرفت رجال عويضاً عن أن أتركهم يحاربون بحياتهم ... ولكن ألم تكن الحماسة العربية أفضل أداة لنا في حرب الشرق الأدنى. لقد قلت لرفائي في النضال (العرب) بأن إنكلترا تحترم وعودها نصاً وروحاً، فأطمأنوا لذلك، واستقبلوا يسالة: «أما أنا فمعاذ الله أن أخبر بما فعلناه معاً. فما زلت أتميز من مرارة الحجل»^(١٢٣). وقد سخر لورنس مرة من الأمير عبد الله بن الحسين، الذي غرته وعود إنكلترا التي اعتقد أنها قد ضمنت استقلال العرب، وقال «وقد حاولت غير مرة أن أقول له إن الشيخ الساذج لم يحصل منا على وعد صريح أو غير صريح من أي نوع، وأن مخيبتهم قد تفرق بسبب سياسته الخرقاء. ولكني — لو فعلت — لكنت بذلك قد خنت رؤسائي الإنكليز. وكان فكري يتردد بين الصدق والإخلاص لرؤسائي، وقد انتهيت بعد تردد إلى اتباع أسهل الأساليب وهو السكوت»^(١٢٤). كما قال «دخلت على الأمير عبد الله يوماً فوجدته منتصباً وقد اتسعت حدوداه وخرج الدم غديه، ذلك أنه تلقى رسالة من الكولونيل برعموند (رئيس البعثة الفرنسية في الحجاز) يشير فيها إلى أن الإنكليز يحاولون تطبيق العرب من كل ناحية: في عدن وغزة وبغداد، ويأمل أن ينظر عبد الله إلى هذا الموقف نظرة صحيحة. سأنتي عبد الله بحماسة عن رأيي في ذلك، فأصطلعت في جوابي له عبارة لطيفة هي «أني أقبل أن يمثل في إخلاصنا حين يرانا نوقع في حلفائنا بالمراسلات السرية. إن وظائفنا بالعربية أضحت كمنه فأجابهني بالمقابلة أنه يعلم بإخلاصنا منذ أن أصبح الكولونيل ويلسن يمثلنا في جدة. ولكن ذكاء الأمير قد عدده هذه المرة، فقد فات أن إخلاص ممثل دولة قد يكون حيلة تعتمد إليها، إذا ما أرادت جر المخاطم جميعها، وقد كان ويلسن أبعد من يشك في نيات رؤسائه»^(١٢٥). ولولا موقف لورنس الحرج بين القيام بواجبه نحو رؤسائه الإنكليز،

(١٢٢) الدكتور حاطوم، المصدر السابق، ص ٥٩.

(١٢٣) LAWRENCE, Ibid, pp. 343-346: «قوله النص الدكتور حاطوم، المصدر السابق، ص ٥٩.

(١٢٤) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ترجمة النص، ج ٢، ص ١٧٦.

(١٢٥) المصدر السابق، ص ١٧٧.

وبين واجبه بأن يكون مخلصاً لفصيل بصلته مستشاراً له ، ويفضي شرف المهمة بأن يكون صادقاً معه ، لكان أفضى إليه بأشياء كثيرة ، قال : « كان فصيل يتق بشرفي وجدلتي إلى درجة أنه كان كثيراً ما يعمل بآرائي دون أن يناقشها . ومع ذلك لم يكن باستطاعتي أن أشرح للجنرال اللنبي كل الموقف العربي ، ولا أن أكتشف لفصيل عن مخطط اللنبي بتمامه »^(١٣٦) . وفوق ذلك يعترف لوونز بأن العرب لو لم يكونوا ضعفاء عسكرياً ، ومسبقون كذلك بعد النصر أفضاً ، لعدم وجود موارد معدنية يستطيعون الاعتماد عليها لصنع آلات الحرب الحديثة ، لترددت إنكلترا كثيراً قبل أن تقدم على إثارة هذه الحركة القومية الجديدة المتيفة في هذا المركز العسكري المهم في الشرق الأوسط^(١٣٧) .

(١٣٦) LAWRENCE, *Ibid.* p. 482.

(١٣٧) لوونز ، المصلح السابق ، ترجمة النجدي ، ج ١ ، ص ١٣١ .

الفصل الثاني

اتفاقيات الحلفاء لتقسيم الممتلكات العثمانية وتصريح بلفور

لقد فتح اشتراك تركيا في الحرب باب المسألة الشرقية على مصراعيه ، ذلك أنه قد دفع الحلفاء إلى اقتسام أراضي الدولة العثمانية ، حتى قبل انتهاء الحرب ، وقيل أن تعتقد لهم رغبة النصر عليها وعلى حليقاتها .

حقاً إن فكرة التقسيم قد استبعدت في بادئ الأمر ، علماً من الحلفاء الغربيين فرنسا وإنكلترا ، بأن فكرة سلامة الدولة العثمانية ووحدة أراضيها لم تنل تلقى من التأييد — سواء في فرنسا أو إنكلترا ، حتى بعد دخول تركيا في الحرب — ما يجعل هاتين الدولتين مترددان في اتخاذ الخطوة الحاسمة . وحتى عمليات التحويل الحرة لم يُقصد منها في بادئ الأمر سوى أن تكون وسيلة لإخراج تركيا من الحرب . ولم تقض فرنسا وإنكلترا مسألة اقتسام الممتلكات العثمانية — في الواقع — على بساط البحث إلا عندما تقدمت حليفتهما روسيا بمطالبة بحيازة الآستانة والقفقاز . وعندها لم تر فرنسا — المفرقة ستوح الفرصة الملائمة — بدا من المبادرة إلى التدخل ، يدفعها إلى ذلك حرصها على حماية مآدعيه من مصالح مادية^(٨) ، ومن مكانة أدبية في الشرق^(٩) ، وعلى تحقيق

(٨) ارتفعت مبالغ رؤوس الأموال الفرنسية التي وظفت في سورية قبل الحرب إلى ما يقارب ٢٠٠ مليون ليرة ، ووزعت بين مختلف المشاريع الاقتصادية ولأغراض : كمد شبكات المخطوط الحديدية والبروك (وخاصة البركة العثمانية) ، وإنشاء الموانئ وإصلاحها ، وخاصة ميناء بيروت ، وبنائات المرافق الكهربائية (الغراسواي اللبناني) . كما أن تلك الصادرات الممنوعة كان يلعب إلى فرنسا ، ربما لم يكن لإنكلترا بالمقابل سوى ٥ ٪ ، وألمانيا ٢ ٪ ، واليابان — المجر ١ ٪ ، (دكتور توماسين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٣٠) .

(٩) COMPTES DE GAUNTOT — BURON, Ibid. pp. 2-3, 9.

مطامعها الاستعمارية التقليدية في الإسيلا على سورية التي أعطت لنفسها الحق أن تطلق عليها اسم «فرنسا الشرق»^(٢)، واقترح بمواردها الاقتصادية، والحصول على حصص من بترول الشرق الأوسط^(٣)، والسيطرة على هذا الموقع الاستراتيجي الهام الذي يسهلها - في الوقت نفسه - على حماية وجودها في المغرب العربي، ذلك للذي عبر عنه، فيما بعد، مقيمها العام في تونس، «بضرورة حماية نفوذ فرنسا الأدنى والسياسي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، كدعامة للسلام الفرنسي في تونس وبهية أنحاء المغرب العربي، ذلك السلام الذي لا يمكن أن نوطد أركانه إلا إذا بسطت فرنسا سيطرتها على سورية، وبصورة خاصة على حلب، ولا سيما دمشق، لما لها من مكانة عظيمة الشأن، باعتبارها مركزاً إسلامياً بالغ الأهمية»^(٤).

وأما إنكثرا فقد مر معنا في الفصول السابقة ما من شأنه إعطاء ذكوة واضحة عن مطامعها في هذه المنطقة التي أصبح الإنكليز يطلقون عليها - منذ ما قبل الحرب - اسماً جديداً «منطقة الشرق الأوسط»^(٥)، والتي أصبحت منذ ١٩٠٧ الشغل الشاغل لهم^(٦) ذلك أن البحر المتوسط طريق اقتصادي هام بالنسبة إليها، وبصورة خاصة ساحله السوري - الفلسطيني، «فكما أن مصر مفتاح الطريق البحري إلى الهند، كذلك سورية هي المفتاح البري إليها»^(٧)، إذ إن الهند معقد آمال الإنكليز، ترتبط بذلك البحر المتوسط بطريقتين: طريق البحر الأحمر، وطريق العراق، وإذا كان الطريق الأول إنكليزياً منذ الثالث الأكبر من القرن التاسع عشر، فقد أصبحت سياستها الشرقية ترتكز على نقطة المحافظة عليه، فإما أن يبقى لها لو أن تخسر نجارة الهند «أن تكون أو أن لا تكون». هذا هو الشعار الذي أصبحت تنطوي عليه سياستها الموسوعة فيما يتعلق بهذا الطريق. أما بالنسبة للطريق الثاني فإن اتصالاً أرضياً بين مصر والهند - عبر شبه الجزيرة العربية ودجلة والفرات - قد أضحي ضرورياً، حتى في صالح الطريق البحري: السويس - عدن. ولم تغف سياسة إنكثرا عند هذا الحد، بل امتدت أطرافها حتى إلى السيطرة على المضائق كوسيلة لتأمين طريق ثالث يؤدي إلى الهند هو طريق عواصم أوربة - الآستانة (الأناضول - حلب - العراق - كراتشي)^(٨)، وإن

(٢) ارسكين تشابليرز، المصدر السابق، ص ٦٥.

(٣) O. GAUTHEROT, *Ibid.* p. 62.

(٤) وهي تشمل المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط حتى حدود الهند.

(٥) J. PICHON, *Les Origines Orientales De La Guerre*, 11.

(٦) راشد طلبة، المصدر السابق، ص ٩٨، L. LYAUTEY, *Le Drama Oriental Et Le Rôle De La France*.

pp. 111-113.

كان من شأن العمل على تحقيقه أن يجر مشاكل يبدو حلها النهائي أمراً خيالياً. لكن الاعتماديين الإنكليز لم يدعروا وسعاً في السعي لحلها، اعتقاداً منهم أن أمن وسلامة تجارتهم لا يقومان إلا بتحقيق هذا الهدف^(٦). لذلك فإن السيطرة على المضائق، وعلى طريق بور سعيد — البصرة — البيرة، بالإضافة إلى فارس وبلوچستان وأفغانستان والأردن والعراق، وحتى على سورية إذا أمكن، كانت الأهداف الرئيسية لسياسة إنكلترا في الشرق^(٧).

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه كان لإنكلترا أهداف أخرى أقرب من هذه الأهداف البعيدة، وهي رغبتها في السيطرة على البصرة لأنها ضرورية لحماية سيطرتها على الخليج العربي، وعلى منابع البترول في المنطقة الإيرانية، وللاستثمار ثروات العراق البترولية، ولتأمين الحماية لحلفائها من المشايخ العرب في سواحل الخليج، وللحيلولة دون إقامة منافستها ألمانيا أو روسيا أو الدولة العثمانية قواعد بحرية في جميع الطرق الإمبراطورية المؤدية إلى الهند^(٨) خاصة بعد حصول ألمانيا على امتياز خط حديد هامبورغ — بغداد ووشك حيازة العمل فيه قبيل اندلاع الحرب.

غير أن نشوب الحرب العالمية الأولى، وارتباط المصالح الإنكليزية والفرنسية والروسية السياسية والحرية بعضها ببعض، باعتبار هذه الدول حليقات ضد عدو مشترك، أوجب على كل منها أن تتنازل عن شيء من مطالبها البعيدة الواسعة، وتركزت مطالب كل منها في المناطق التي أسفرت عنها اتفاقات سايكس — بيكو ولندن. وقد اضطرت إنكلترا بصورة خاصة — حرصاً منها على كسب الحرب بسرعة، وعلى اجتذاب حلفاء يسعون معها جنباً لجنب في إحراز النصر — إلى التساهل مع حليقاتها في هذه الاتفاقات، وإلى إطلاق الوعود بمينأً وحصاراً، سواء إلى العرب الذين يريدون التحرر من نير العثمانيين، أو إلى اليهود الذين كانوا يعملون بكل جهد وإصرار لا يمتلك فلسطين وطناً قومياً لهم، بقطع النظر عن تناقض هذه الوعود^(٩).

(٦) بما يدل على مطالع إنكلترا المتقدمة في هذا الطريق البطة التي لوفدت برئاسة «جسني» F.R. CROSSNEY؛ ليسبر غير الترات ومعرفة مقدار صلاحه للملاحة النهرية من أهاليه إلى نصب، والأعمال البارزة التي قام بها مهندس الري «WILLIAM WILCOCKS» في العراق (راجع ص ١٧٦ — ١٧٧ من كتابي السابق العرب والتürk).

(٦) E. JUNG, *La Révolte Arabe*, II, p. 14; P. LYAUTRY, *Ibid.* pp. 111-113.

(٧) R. ALDINGTON, *Ibid.* pp. 114-115.

(٨) جان جاك بيبسي، الفصل السابق، ص ١٠٤.

١ - المرحلة الأولى : الاتفاقات الفرنسية - الروسية - الإنكليزية

قبل اجتماع للمفاوض الفرنسي جورج بيكو بالمفاوض الإنكليزي مارك سايكس جرت مفاوضات أولية بين الحكومة الروسية والحلفاء بشأن المصالحات. في الواقع كانت روسيا تعمل هذه القضية من زمن بعيد، وبصورة خاصة في نهاية عام ١٩١٣، عندما برز إلى الوجود خطر التنفيذ الألماني في الدولة العثمانية، بقدرهم الجنرال ليمان فون ساندرس إلى الآستانة، فازداد بمقدومه قلقها، إذ أصبحت القوات العثمانية التي تحرس المصالحات تتلقى تدريجاً على أيدي الضباط الألمان. وهذا ما جعل الأوساط الرسمية الروسية في حالة تأني من إمكان حل مسألة المصالحات باتفاق دولي يحظى بمولقة الدول العظمى الإجماعية. لذلك عقد الروس في ٢١ شباط ١٩١٤ مؤتمر ضم العسكريين والدبلوماسيين منهم، واتفقوا على رأي يقول إن القضية أصبحت غير قابلة للحل إلا بطريق القوة، عندما تحين الفرصة المناسبة. وكانت الفرصة التي يترقبونها أقرب مما كانت تظن أوساطهم الرسمية. فقد ضح دخول تركيا الحرب أمام الدبلوماسيين الروس واسع الأمل في الوصول إلى أهدافهم التاريخية. فاعتمدت حكومتهم في ١٦/٢/١٩١٤ الفرصة كي تشير بلسان القصر إلى ما أسمته «بالمعضلة التاريخية التي تامل بهم أجدادهم أمر الاضطلاع بحلها على ضفاف البحر الأسود، وتفتح بها حلقاتها». وهكذا بعد أن عقد «بنكندورف BENCKENDORFF» سفير روسيا في لندن، اجتماعين مع اللورد غراي، وزير خارجية إنكلترا، استطاع الحصول على تأكيد منه (١٩١٤/١١/٩). بأن مسألة المصالحات ستحل وفقاً لرغبة روسيا فيما إذا هزمت ألمانيا في الحرب^(١)، بينما كان ملك الإنكليز أكثر صراحة بقوله للسفير إن الآستانة ستكون ملكاً لكم. غير أن الأمل العريض، الذي ارتسم في أذهان الروس من هذه الوعود الشقية، لم يلبث أن تهدد عندما تلقوا، من سفير إنكلترا في بطرسبرغ، جواباً شطوطاً لذكره وجهتها وزارة الخارجية الروسية إليه تقول إن حل المسألة لا يكون إلا بعد هزيمة ألمانيا، وفي مؤتمر للصلح يعقد بعد انهيارها العسكري، يقرر فيه مصير المصالحات والنظام الذي ستدار بموجبه، ولم يشر الجواب إلى شيء يرضي مطالب الروس. ولم تلوح إنكلترا بما يرضي قليلاً من هذه الرغبة إلا لقاء ثمن مقابل «بأن تلحق مصر وإنكلترا لحالاً تاماً»^(٢). فطلعت الحكومة الإنكليزية على الفور

(١) LAPRADELLE ET COMPAGNONS, Doc. Diplomat. Russes, Constantinople Et les Décrets, ١٩١٤.

(٢) BLUE KEDOURIE, England And The Middle East, p. 30.

(٣) LAPRADELLE ET COMPAGNONS, ١, p. ٨.

برقية برقم ٣٨٦٦ وتاريخ ١١/١٨/١٩١٤ من المسيو سارزوتوف وزير الخارجية الروسية يقول فيها إنه «بموافقة إنكلترا على حل مسألة المضائق والآستانة أعلمكم — بمزيد الامتنان — موافقة حكومة صاحب الجلالة القيصر على إلحاق مصر بإنكلترا»، علماً بأن إنكلترا كانت في ذلك الوقت ترغب في حل المسألة المصرية بواسطة الإلحاق لا بإقامة نظام «حماية». كانت تحلم بأن تفرض على المصريين نظاماً شبيهاً بالنظام الذي فرضته على الهند. وقد أعلنت بذلك حليفها فرنسا، مبينة بأنها لا تهدي أية معارضة فيما إذا ألحق الفرنسيون تونس ومراكش أسوة بها، لكن فرنسا لم تقبل بوجهة نظر إنكلترا، وظلّت إلى حلفائها بأن لا يتخذوا أي قرار بشأن إلحاق مصر في أثناء الحرب. عندئذٍ عدل الإنكليز عن هذه الفكرة، وأعلنوا الحماية بدلاً من الإلحاق في ١٨/١٢/١٩١٤^{١٢٦}.

الواقع أن روسيا نفسها لم تكن — في هذه المرحلة — قد حددت مطالبها بشكل واضح. كانت مباحثاتها تدور في بادئ الأمر حول «حرية المرور في المضائق»، و«طرد الأتراك»، وإقامة نظام دولي في الآستانة، تمهيداً لما يمكن أن تتعرض له من إغفال تركبها لمضائقها، وعرقلة التجارة الروسية، وسمتها من تصدير قصبها إلى الخارج. غير أنه في ربيع ١٩١٥ جذت أمور هامة بالنسبة لها، جعلتها تفرص على أخذ وعد صريح من حلفائها. ذلك أن فرنسا وإنكلترا، حينما قرّرتا خوض معركة الدردنيل، كان عليهما، في حال نجاح هذه العملية، الاستيلاء على الآستانة. وما أن روسيا كانت عاجزة عن تقديم القوات اللازمة للمشاركة في هذا الاحتلال، فقد ألقها احتمال لجوء حليفها إلى تكليف اليونان بإمدادها بالعون اللازم لهذا الاحتلال. فهل في استطاعة الدبلوماسية الروسية أن تتصور دخول الجيش اليوناني إلى «بيزنطة» الشارحية والروس يمدون عنها؟ إذن فكل حل لمعضلة المضائق يجب أن يكون متلائماً مع مصلحة الروس. أما إذا لم تستطع روسيا الحصول على رغباتها من حلفائها فإن لها الخيار في اعتبار الجانب الذي تستعين به على بلوغ هذا الهدف. لقد جاء في تصريح للمسيو سارزوتوف قوله «إذا استطعنا الحصول على طلبنا بالاتفاق مع فرنسا وإنكلترا ضد ألمانيا كان به، وإلا يكون من الأفضل لنا أن نحصل عليه بالاتفاق مع ألمانيا ضدهما». وهكذا وضعت روسيا حيلة مطالبها، ولأول مرة، بشكل واضح «ترى روسيا أن مصلحتها تقتضي بالحصول على مضائق الدردنيل واليومفور كمى تؤمن لنفسها قاعدة وطيدة المدعم، وعلى مساحة من الأراضي على الضفة الأوروبية بما في ذلك الآستانة، وحتى خط اينوس — عيدها، بالإضافة إلى

مساحة أخرى على المضفة الآسيوية حتى نهر سقاريا، وعلى جزر بحر مرمرة علاوة على جديري
«Imbros» و«Tenedos» في بحر إيجة^(١٣).

أمام هذه المطالب العريضة من الحكومة الروسية رأت كل من إنكلترا وفرنسا الفرصة الصالحة
التي تتيج لها تحقيق مطالبهما في بلدان الشرق الأوسط. لكن العقبة التي تقف أمام إجابة
المطالب الروسية هي معرفتهما أن حياة روسيا للآستان والمضائق تجعل منها دولة بحرية عظمى تجد
طريقاً لها إلى البحر الأبيض المتوسط، فيختل بذلك التوازن الدولي الأوروبي في هذه المنطقة، مما
يجب عليهما التفكير في الحصول على قرضيات متناسبة مع ما تبقى روسيا تحفيها من مطامع^(١٤).
غير أن الذي جعلهما ترضخان إلى مطالبها أيضاً، هو أن الحزب المتناصر للألمان في بترسبورغ
أخذ يعمو ويتمش، وخشيت أن يزيد رفضهما مطالبها في قوته وانتشاره، خاصة وأن ألمانيا حينها
علمت بهذه التطورات بادرت إلى تقديم عروض صلح منفرد مع روسيا، على أساس أن تقدم لها
الآستان والمضائق هدية، لقاء انضمامها إلى المعسكر الألماني. وقد قامت بمحاولة التفرغ بين
روسيا وألمانيا البينسيس «فاسيلتشيكوفا» VASSILTCHIKOVA، وصيغة الإمبراطورة
«الكسندرا»^(١٥). كما اتصل ملحق البنك الألماني «مونكهفيتز» MONKEVITZ، بالوزير المفوض الروسي في
استوكهولم وحده قائلاً: «إن ألمانيا على استعداد في سبيل عقد صلح منفرد مع روسيا — أن تقدم
لها الآستان والمضائق، لقاء أن تعرض لخليقتها تركيا — بدلاً عنهما — بإعطائهما مصر»^(١٦). عندئذ
أخذت المفاوضات بين الحلفاء دوراً جدياً. في حين أصم القصر أذنيه عن العروض الألمانية —
ورأت كل من إنكلترا وفرنسا، اللتان أدركتا مقدار ما تستفيد به روسيا من نهضة وحمو في قوتها بإحلاق
الآستان وتوابعها، أن تعمل على حيازة ما من شأنه أن يعيد توازن القوى الدولية بينهما وبينها، فبدأتا
تستعرضان ما يتوجب عليهما ضمه من الممتلكات العثمانية، وما من شأنه أن يؤمن هذا التوازن^(١٧).

ومكالم كان على إنكلترا أن تغنم هذه الفرصة لتطالب بتحقيق أحلامها التاريخية في
الإسلاء على العراق وقسم من بلاد الشام الداخلية. وعلى فرنسا أن تطالب بمنطقة كيليكا حتى

(١٣) LAPRADELLE ET COMPAGNONS, 1864, I, pp. 9-11. من المقدمة بقلم بيير نيفي.

(١٤) E. POINCARÉ, Au Service De La France, VI, pp. 94-95; E. KEDOURIE, 1864, p. 31.

(١٥) LAPRADELLE ET COMPAGNONS, 1864, I, pp. 10-11. الوثيقة رقم ٣٣٢ في ٢٧/٥/١٩١٥.

(١٦) 1864, p. 41. من برقية لوزير المفوض الروسي في استوكهولم، الوثيقة رقم ٢٢٣ في ٢٠/٧/١٩١٥.

(١٧) E. KEDOURIE, 1864, p. 31; J. PICHON, Le Partage Du proche Orient, p. 40.

جبال طوروس، وسورية غير مكتفية بذلك، بل امتدت أطرافها إلى شمالي العراق وقلب الأناضول، فأخذت تقاوض إنكلترا على هذا الأساس. وهنا لم تعارض إنكلترا حليفتها في هذه المطالب إلا أنها رأت أن لها الحق بالمقابل في المطالبة بتوسيع منطقتها من حدود سيناء على طول سواحل فلسطين حتى حيفا على أقل تقدير. كما قالت بموجب استرضاء العرب بمعاملتهم في سورية الداخلية معاملة تختلف عما في سورية الساحلية^(١٨)، التي جعلتها موضوع استثناء في المخطط الذي باحث الشريف حسين على أساسه، والتي التزمت في مفاوضاتها معه جانب الحذر الشديد بشأنها، مع الحرص الزائد على جعل نصوص المراسلات بينها وبينه غاية في الإلزام والغموض، بينما هي - في الوقت نفسه - تجمع قسماً من البلاد التي وعدته باستقلالها إلى حليفتها فرنسا. وكان باعث حرصها على كتمان مفاوضاتها مع فرنسا عن الشريف حسين، وكتمان تفاصيل مراسلاتها مع الشريف عن فرنسا، هو الخوف من فشلها في التوفيق بين مطامع فرنسا الاستعمارية ومطمح الشريف حسين في إقامة الدولة العربية الموحدة التامة الحدود، لا في مطالب الطرفين من تناقض واضح. ولا يخفى أن هذا الفشل في تلك الأيام العصيبة، حينما كانت الحرب تمر في أخرج دور من أحوالها، كان من شأنه أن يؤدي إلى نتائج خطيرة. لذلك أثرت أن تترك الأمور معلقة، خاصة بينها وبين الجانب الأضعف، أي الشريف حسين، اعتقاداً منها أن في وسعها أن تجد حلاً ما للمشكلة في نهاية الحرب^(١٩).

دامت المفاوضات بين الحلفاء لاختصاص الشركة من أواسط عام ١٩١٥ إلى شهر أيار ١٩١٦، ومرت في مرحلتين، أولاً بين فرنسا وإنكلترا وروسيا، والثانية بين فرنسا وإنكلترا. ولشفيء الجدير بالذكر أنها قد جرت في جو سيادة القلق والارتباك والارتباك، ولم تتقدم إلا بمشاق كبيرة. وقد واجهت فرنسا خلالها مشروعين بريطانيين رأت فيهما ما ينافي مصالحها في سورية، ويهدد تلك المصالح مهدداً خطيراً، أولهما مشروع احتلال الإسكندرية، والثاني مشروع الإنفاق مع الشريف حسين، فخافت من نفاذهما، وأخذت تخالفهما مخالفة شديدة. وهنا وقعت في نهاية الأمر إلى إحباط المشروع الأول لم تنجح في عرقلة المشروع الثاني^(٢٠).

كان الغرض من المشروع الأول حماية مصر من هجوم يشنه الألمان عليها بقطع الطريق عليهم

(١٨) ساطع المصري، يوم ميلون، ص ٣٦.

(١٩) ج. دي ف. لوجر القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق، ص ١٧ - ١٨.

(٢٠) ساطع المصري، يوم ميلون، ص ٣٧.

عبر سورية، وهو من بنات أفكار اللورد كاتشر ونهر الحزبية البيطاني، الذي أصبح — بعد تهارته لجهة غاليلوي في القردوتيل — يلج على ضرورة إخلاء الدردنيل، إذ تؤكد لديه أن الأمل المقود على هذه الخطة في اختراق المضائق والوصول منها رأساً إلى عاصمة الدولة العثمانية، بناءً على إلحاح روسيا، أمر مستحيل. وكفي يغطي الأكثر المعنوي الذي ينجم عن هذا الانسحاب، أتمد بصر على رأيه في إرسال حملة على ميناء الإسكندرية، تنطلق منه نحو الداخل، لما لها من أثر فعال في المحلولة دون هجوم بلغه من مصدر ثقة أن الألمان يجهزون لاحتحام قناة السويس والاستيلاء على مصر، مؤكداً بأن سلامة مصر مما يهم جميع الحلفاء^(٢١).

وبما كان هذا المشروع موافقاً لرغبة الشريف حسين في قطع الطريق على الجيوش التركية التي تستطيع الدولة أن تسيرها إلى الحجاز فيما لو أعلن ثورته، لم يستصوبه الفرنسيون بل عارضوه بشدة خشية من تأثيره على مستقبل مطامعهم في سورية، باعتبار أنهم كانوا عاجزين عن تقديم قوات تساهم في الحملة التي ستأخذ على عاتقها تنفيذ المشروع. فإذا ما قامت به القوات الإنكليزية تعرض مصالح فرنسا وتنفوذها إلى خطر عظيم، إذ من شأن هذا العمل أن يدفع بالسيرويين إلى أحضان الإنكليز^(٢٢). لذلك حذره الفرنسيون بكل ما لديهم من قوة، ووقفوا إلى حمل الإنكليز إلى المدبول عنه، بالرغم من إصرار اللورد كاتشر عليه، وتحليل حكومته بأنه «إذا لم يؤمن بالدفاع عن مصر فإنها سوف تضيع وتنتهي الحرب ضد مصلحة إنكلترا»، وأنه سيعرض هذا الرأي أمام مجلس الوزراء الإنكليزي فإذا لم يشاطره رأيه فيه فإنه سوف يعلن عدم شموله مسؤولية النتائج التي ستترتب على رفضه. إلا أن الحكومة البيطانية قد أبدت استعدادها «للتضحية» إذا اقتضى الحال — بالدفاع عن مصر في سبيل ضمان النصر في الجبهة الغربية»، كما صرح بذلك اللورد غراي بلهجة حاسمة، وأضاف قائلاً «مهما تكن النتائج التي ترجحها من الحطط الرامية إلى تأمين خط الدفاع عن مصر، لكننا لا نجهل بأن المعركة الحاسمة التي ستقرر المصير النهائي للحرب ستكون فوق الأرض الفرنسية»^(٢٣). كما تمكن المسير «أوغانيور AUGAGNEUR»، وزير البحرية الفرنسية، حينذاك — وقد زار إنكلترا لهذا الغرض — من الحصول على وعد من المستر تشرشل بأن قيادة أساطيل الحلفاء المربطة حول الشواطئ السورية ستظل في يد فرنسا، وأن إنكلترا سوف لا تقوم بأية عملية إنزال

R. POINCARÉ, *Ibid.*, VII, p. 253. (٢١)

(٢٢) سامطع المصري، يوم مسكون، ص ٢٨.

R. POINCARÉ, *Ibid.*, VII, pp 261, 288. (٢٣)

متفردة في الإسكندرية، وأنه إذا جرت عملية ما مشتركة من ههنا للتويع فإن التباير التي مستخذ في هذا الشأن ستكون، بقدر الإمكان، باتفاق الحكومتين معاً، ولكن دون أن يكون ثمة أي انتقاص من سلطة القيادة الفرنسية^(٢٤). وبناء على ذلك احتلت قطعات الأسطول الفرنسي جزيرة أرواد المقابلة لمدينة طرطوس (محافظة اللاذقية)، والواقعة على بعد لا يزيد عن خمسة كيلومترات عن شاطئها في حزيران ١٩١٦ وتعملت قاعدة بحرية تؤتي الحكم فيها القائد الفرنسي (تراپاو) TRAPAU^(٢٥).

لكن الخطأ الذي ارتكبه الحلفاء في العلول عن مشروع مهاجمة الإسكندرية لم يكن ليعادله خطأ آخر بحسب رأي أحد كبار الضباط الألمان، فقد كان من شأنه — من الوجهة الحربية عامة ومن وجهة القضية العربية خاصة — أن ينهي الصراع العربي — التركي والعربي — التركي في المنطقة العربية بأسرع مما انتهى. قال المارشال الألماني «هندنبرغ» في مذكراته «تبعثت حراسة خليج الإسكندرية بجيش تركي كان من الصعب أن توجد فيه وحدة واحدة قادرة على القتال... أما عن المدفعية المكلفة بحفظ الشواطئ، فكانت في الهزيمة الشلبية أكثر مما في الحقيقة الواقعة. لقد أوجز لي أنور باشا الحال إيجاباً بدهاء، إذ قال: وأمل الوحيد هو أن لا يلاحظ عدونا كم نحن ضعفاء في هذا المكان المعرض للخطر. لكن أكان يمكننا أن نسلم مصيفين بأن هذا الضعف البادي في تخليج الإسكندرية قد يخفي على عدونا؟ أنا ما كنت لأصدق... وهذا من الأمور المستحيلة أن تكون القيادة الإنكليزية العامة جاهلة بحالة الحقيقة في الدفاع عن هذه الشواطئ». وما كان لإنكلترا أن تقش عن الوقوع على عث دبابير لو هاجمينا، ذلك أنه لم يكن في العث دبابير. أجل لو أن خاطراً عظم لمجوم باهر لما كان له نجواً من الإسكندرية. ولو وقع فضلاً لكان له من الأثر العظيم ما يجعله يند على العالم بأسره لا سيما على تركيا ليقف في ساعدها^(٢٦).

ولكن، لو وقع الهجوم فعلاً، أكان من مصلحة العرب وقوعه؟ أكان يوسع الجيش العربي بقيادة فيصل أن يصل إلى دمشق قبل جيوش الحلفاء — ولم تكن الثورة العربية قد أطلقت وصاحتها الأولى بعد —؟ أكان باستطاعة أحد أن يخرج الحلفاء، فرنسا على الأخص، من سورية بعد احتلالها؟ وهل كان سيبنى أي اعتبار لمفاوضات الحسين — مكماهون — بالطبع لا، ودليلي على

J. PICHON, Le Partage Du Proche Orient, p. 25. (٢٤)

(٢٥) جورج راجع خانم، المصير السابق، ص ١٤٨.

(٢٦) مذكرات هندنبرغ، ج ١٢، ص ٢٨٢ — ٢٨٣.

ذلك ما ذكرته سابقاً من شهادة الكولونيل لورنس الذي وصف الوعود التي أعطيت للمسلمين بأنها كاذبة، وأنه (لورنس) لم يكن من الحق بحث بصدقها، وأنها «سوف لا تكون إلا فصاصة ورق، بعد أن يكسب الحلفاء الحرب»، كما نصح مرة للأمير فيصل بالآتي بعود إنكلترا — كما فعل والده — وألا يثق إلا بعلمه وجهاده^{٢٧} خاصة وأن العرف الذي تفاهم عليه فيصل مع الجنرال اللنبي — في أثناء الزحف لتحرير سورية — هو أن كل من يسيق زبيله من الجيشين العربي والإنكليزي إلى احتلال منطقة من المناطق يكون هو المسيطر عليها إلى حين انعقاد مؤتمر الصلح وتقرير مصيرها النهائي.

ومهما يكن من أمر فإن المحادثات التي سبقت الاتفاق الإنكليزي الفرنسي (سايكس — بيكو) — وإن كانت بعيدة نوعاً ما عن القضايا العربية — إلا أنه لا بد من التنويه بما جاء فيها متعلقاً بهذه القضايا. من ذلك المذكورة الجوابية التي سلمها سفير إنكلترا في بريسبورغ إلى المسيو سارونوف في ١٥/٣/١٩١٥، وقد جاء فيها «أن حكومة صاحب الجلالة البيطانية تعتبر أنه من السابق لكونه البحث في مسألة اقتسام مناطق العراق وسورية وفلسطين وغيرها من المناطق التابعة للسلطنة العثمانية، ما لم يجر الاتفاق على إقامة إمبراطورية إسلامية ترى حكومة جلالتهم وجوب إنشائها — فور زوال الأتراك من الأمثانة — وهذه الإمبراطورية يجب أن يكون مركزها الأماكن المقدسة الإسلامية، فتكون بذلك عاصمة سياسية للمسلمين، على أن تضم شبه جزيرة العرب، ويمكن أن تضم أيضاً مناطق أخرى من آسيا الصغرى فيما إذا وُجد لزوم لذلك، وهذا متوقف على رغبة بقية الحلفاء»^{٢٨}. واللاحظ هنا أن إنكلترا قد التزمت الغموض في تقرير شكل هذه الإمبراطورية وصلتها، لقد وضعت عدة أسئلة وتركتها دون حل، ذلك أن مفاوضاتها مع الشريف حسين لم تكن بعد قد تبلورت على شكل معين، وكان هم الإنكليز في هذه المرحلة ألا يبرموا أي تسوية نهائية مع الدول العظمى قبل انتهاء هذه المفاوضات^{٢٩}. فطلعت إنكلترا جواباً من حكومة الفيصر بالموافقة على وجوب بقاء الأماكن المقدسة الإسلامية تابعة للإمبراطورية الإسلامية المقترحة، آملين بأن يتقرر منذ الآن فيما إذا كانت هذه المناطق ستبقى تحت إدارة تركية، مع الاحتفاظ للسلطان بلقب «الخليفة للتركي»، أم إذا كان ثمة تفكير بإنشاء دول جديدة مستقلة.

LAWRENCE, Ibid. pp. 343, 691. (٢٧)

J. PICHON, Le Partage De Proche Orient, pp. 47-48. (٢٨)

(٢٩) دكتور حاطوم، المصدر السابق، ص ٣٥.

لأن حكومة جلالة القيصرية لا تستطيع إبداء وجهة نظرها إلا إذا عرفت أن الحل سيكون على هذا الوجه لو ذاك. على أنها تستطيع بيان رأيها في مسألة الخلافة الإسلامية، وترى أنه من الأفضل أن تفصل عن شخص السلطان التركي، وغني عن القول إن حرمة القيام بشعائر الحج ووسائله يجب أن تكون موثقة إطلافاً^(٣٠). وعلى كل حال انتهت المحادثات الروسية - الإنكليزية باتفاق حول جعل الآستانة والمضائق وأرمينية وإيران من حصص روسيا، حسب رغبتها (٢٤ آذار ١٩١٥)، وسوى كيف تأمن رغائب إنكلترا وفرنسا في المرحلة الثانية من المفاوضات.

ومن للمسائل العربية التي كانت موضوع مجادلة بين الحلفاء، ما جاء منها متعلقاً بقضية فلسطين، ذلك أن فرنسا قد اعتبرت أن هذه المنطقة داخلة في جملة المطالب التي تقدمت بها كعضو لها عن ضم روسيا للمناطق التي طالبت بها، باعتبار أنها جزء من سورية الطبيعية. فلما تلقت حكومة القيصر من فرنسا مذكرتها، التي تفصح عن مطالبها، أجابت بالتحفظ حول مرسون والمناطق المجاورة لها، مدعية أن الأمن يطلعون بها، وأن واجب الحكومة الروسية أن تلتفت نظر الفرنسيين إلى هذا الأمر، «علماً بأنه إذا كان من المهم اللجوء لفرنسا أن تضم هذه المنطقة، فمن البديهي حينئذ أن الروس لا يقيمون في وجهها المرافيل». «هنا من جهة، ومن جهة أخرى فإن موافقة روسيا على إعطاء فلسطين للفرنسيين لم تكن أيضاً سخالية من التحقق. ففي ٣/١٥ أرسل «نيراتوف» NERATOV مساعداً وزير الخارجية الروسية، الرسالة التالية إلى المسيو سازونوف، قال «أبان في سفر فرنسا عن اعتقاده بأن سورية تتضمن فلسطين، قرأت من المفيد أن أذكره بأنه يوجد في القدس حاكم مستقل». كما جاء في برقية أرسلها المسيو سازونوف إلى سفير في باريس أن المسيو «بالبولوغ» PALBOLOGUE، سفير فرنسا في بطرسبورغ، قد أفهمه أن فلسطين جزء من سورية، «في حين أن برقية «دلكاس» DELCASSÉ وزير الخارجية الفرنسية اشلفاة منه لا تتضمن هذا التحديد. وباعتبار أن هذه النقطة ذات أهمية في نظر الحكومة الروسية، فإنه إذا كان المطلوب من روسيا أن توافق على ضم سورية وكيليكيا لفرنسا، فإن عليها أن تفهم ما إذا كان الفرنسيون يعتبرون أن الأماكن المقدسة المسيحية هي من ضمنها، لذلك يقتضي إيضاح هذا الأمر»^(٣١).

والخلاصة أن روسيا لم تكن تعارض في ضم الفرنسيين لسورية وكيليكيا، لكنها أوصحت عن عدم استطاعتها قطعاً أن تترك حماية القدس والجليل والأردن وحيوة طبريا (الأماكن المقدسة

(٣٠) J. PICHON, Le Partage Du Proche Orient, pp. 47-48.

(٣١) J. PICHON, Le Partage Du Proche Orient, pp. 51-54.

للمسيحية) لدولة غير أرثوذكسية. وأضاف القيصر نيقولا الثاني ووزير خارجيته إلى تصويهما هذا المؤرخ في ٢/١٨ قوئهما إن روسيا لا تطالب بامتيازات وحقوق خاصة في فلسطين، لكنها تريد فقط أن يبقى وضع فلسطين على حاله، وأن تترك للحجاج الروس حرية الدخول إلى هذه الديار دون أن يكونوا مجبرين على التقيد بالقوانين والأوامر الجديدة التي قد يمكن فرضها في حالة تغير نظام الحكم فيها. وأخيراً ركزت المباحثات حول قبول الطرفين لصيغة اقتراحها المسمى «بالبولسوغ PALEOLOGUE» جاء فيها «استناداً إلى المادة ٦٢ من معاهدة برلين، توافق كل من الحكومتين الروسية والفرنسية على عدم المساس بوضع فلسطين الحالي». ذلك أن الدولتين قد وقيتا في إبقاء القضية معلقة وتجنبنا الإحراج عن شيء، بقية الوصول إلى تفاهم أفضل في المستقبل. وجاءت سوافقة فرنسا على هذه التسوية الموقعة في ٤/١٠ -، مع اعترافها بحقوق روسيا في المضائق وغيرها التي طلبتها - بعد أن كانت إنكلترا قد وافقت عليها في ٢٧/٣/١٩١٥^(٣٢).

إيطاليا والاتفاقات: ليس الذي يهنا من أمر الاتفاق الإيطالي مع الحلفاء ما تملكه الحكومة الإيطالية من الأراضي في آسيا الصغرى. بيد أنه لا يمكن إغفال ما كان من علاقته بمرطابلس الغرب والجزيرة العربية، وقد طر قسم من المباحثات حول هذه المناطق. وقيت إيطاليا على الحياد في بادئ الأمر، لكنها - عندما قامت النمسا بعمل هجومي ضد صربيا كان من شأنه أن يهدد التوازن الدولي البلقاني - طالبت هذه الدولة بإقليم «ترانتينو»، وباستقلال «ترستا». فلما فشلت محادثاتها معها في هذا الشأن اندفعت إلى صف الحلفاء، وقيت غايتها من دخول الحرب في مذكرة مطولة، ضمنتها مطالبتها التي رقيت بأن تحقق، فيما إذا خسرت ألمانيا وحليقاتها الحرب، واقتضى الأمر وجوب اقتصام أملاك الإمبراطورية العثمانية^(٣٣)، بشرط أن تكون الحصص التي تعطى لها مساوية لحصة فرنسا أو برطانيا، حرصاً على التوازن الدولي في حوض البحر الأبيض المتوسط. أما بشأن فصل الإمبراطورية الإسلامية، التي ستؤسس، عن السلطنة العثمانية، ونزع الخلافة من الأتراك، ووجوب تأمين حرية طريق الحج وسلامته، فقد جاء رأيها مؤيداً لرأي الحكومة الروسية^(٣٤). فما كان من الحلفاء لقاء هذا التصهد من إيطاليا إلا أن أجابوا بعض مطالبها، ووقصوا في ٢٩/٤/١٩١٥، اتفاقية لندن السرية التي جاء فيها: اعتراف الحلفاء بملكية إيطاليا لجزائر الدوديكانيز التي تحتلها فعلاً، وتحقيقها في نوال

(٣٢) Ibid. pp. 54-55.

(٣٣) Ibid. p. 6.

(٣٤) جديدة الأمم، الميثاقين والمعاهدات في بلاد العرب، ص ٥٨.

حصتها من تركة الإمبراطورية العثمانية في آسيا في حالة اقتسام هذه التركة، وبأن تنقل إليها جميع الحقوق والامتيازات التي كانت للسلطان العثماني في ليبيا وطرابلس الغرب. وقد نصت المادة ١٢ من الاتفاقية على أن إيطاليا تسيطر كلاً من فرنسا وإنكلترا وروسيا تصريحها ببقاء شبه الجزيرة العربية والأماكن الإسلامية المقدسة تحت سيادة حكومة إسلامية مستقلة^{١٢٣}. ثم دعت إلى توقيع تصريح مشترك بأن لا تعقد أية دولة من الدول الأربع المتحالفة صلحاً منفرداً في أثناء الحرب مع الأعداء، وأن لا تقدم أي عرض للصلح دون الاتفاق المسبق بين الجميع. وهكذا دخلت الحرب في ١٩١٥/٥/٢٤، ولم تعلن سوى على النمسا- المجر، خوفاً من إسقاط المحايدين وأنصار دول الوسط من أفراد الشعب الإيطالي. غير أنها لم تكن على علم بالمفاوضات السرية التي جرت بين الحلفاء الذين اتخذوا من تزودها حجة كي لا يظلموها على اتفاقاتهم المتعلقة بآسيا الصغرى والمضائق، ورغبة منهم في إبقائها على جهل بها خوفاً من أن تطالب هي بدورها ببلدات آسيا وكيهليكا. وبالرغم من أنها أعلنت الحرب فيما بعد على تركيا في ١٩١٥/٨/٢٠، وعلى ألمانيا في ١٩١٦/٦/٢٨ فإن الحلفاء بقوا على موقفهم السابق من كتمان الاتفاقات المذكورة عنها^{١٢٤}.

المرحلة الثانية

انتهت المرحلة الأولى، إذا الواضح منها أنها تلزم فرنسا وإنكلترا تجاه روسيا، ولكنها لا تلزم الحليفتين الأخريتين إحداهما تجاه الأخرى، ولا تلزم روسيا تجاههما، هذا فضلاً عن أنهما لم تتفقا بعد - نهائياً - على مصير الإمبراطورية العثمانية وممتلكاتها الآسيوية - العربية، وكل ما هنالك أن قضية الأسمانة والمضائق قد سويت، بقي أن تُسوى المسائل الأخرى:

لم تشط المفاوضات بين الحكومتين الفرنسية والإنكليزية إلا ابتداء من تشرين الثاني ١٩١٥، حينما أرسلت فرنسا المسيو جورج بيكو فضيلها السابق في بيروت إلى لندن، ودخل في مفاوضات مع الخبير الإنكليزي السير مارك سايكس، النائب في مجلس العموم، والذي اشتهر في دراسة المسائل الشرقية بكتابات ورحلاته الكثيرة في طرق الإمبراطورية العثمانية ومسايرها، (لما لم يلبث الخلاف أن نشب بينهما من أول مقابلة. ذلك أن فرنسا قد طالبت بأن يكون لها في سورية وكيهليكا

HUREWITZ, Ibid. II, Doc. 6, p. 11. (٣٥)

J. PICHON, Le Passage Du Fréche-Orient, pp. 65-68. (٣٦)

مطلق السيادة والحكم، في حين كانت رغبة الإنكليز في وضع سورية وليتان تحت سيادة الشريف حسين أمير مكة، على أن يكون لفرنسا فيها حق تعيين الحاكم فقط^(٣٧).

لواقع أن إنكليزاً كانت - في الوقت نفسه - تتفاوض أولاً مع الشريف حسين لتعهد له في نهاية الأمر باستقلال البلاد العربية - مع بعض التحفظات التي لم يوافق عليها الشريف نهائياً - لقاء قيام ثورة عربية على الترك، وثانياً مع حليفتها فرنسا وروسيا لتقوية كيفية انقسام موارث الدولة العثمانية - ومن ضمنها البلاد العربية - وقد رأت أنهما وجوب أن تطلع الفرنسيين على طرفه من المباحثات الأخيرة مع الشريف لا على تفاصيلها كلها، وأن تحصل على تنازل منهم عن شيء من مطالبهم. فطلبت من حليفتها أن تناقش معها حدود سورية. عندئذ، كتلت فرنسا محظها في لندن المسيو جورج بيكو أن يبحث هذه المسألة، فبدأ مفاوضاته مع السير آرثر نيكلسون ARTHUR NICOLSON، وكيل الدولة الدائم لوزارة الخارجية، وإلى جانبه السير مارك سايكس M. SYKES. لقد كان من صلب هذه المحادثات مناقشة اللورد غراي في ١١/١٣ للمسيو «بول كامبون» سفير فرنسا في لندن، بشأن للدولة العربية التي ترى الحكومة الإنكليزية إنشاءها لتوازي بها نفوذ الترك في الشرق الأدنى، إذ ريد على مسامحة احتمال مطالبة العرب ببعض المناطق التي تعتبرها فرنسا من ضمن ما تطالب به. وأضاف بأنه يترك للحكومة فرنسا أن تعين ما يجب للتنازل عنه. وتولى السير نيكلسون شرح مجرى المفاوضات مع الشريف حسين لممثل فرنسا، لكنه لم يعلمه بالنص الواضح للكتب المتبادلة معه. وفي ١٩١٥/١٢/٢١ أعلم المسيو بيكو زميله المسير نيكلسون أن الحكومة الفرنسية تقبل بأن توضع حلب ودمشق وحماه وحمص تحت إدارة العرب، ولكن بشرط أن تمارس هذه الإدارة بجمهورية ومراقبة الفرنسيين، على ألا يشمل هذا التنازل مدينة بيروت^(٣٨).

عندئذ سلكت المفاوضات طريقاً أسهل، فتقدم المفاوضات الإنكليزي بمذكرته الأولى، وكانت مفصلة وفيها أولاً تطالب إنكليزاً بالخوض الأدنى لدجلة والفرات لتأمين مواصلاتها الإمبراطورية، ثم بحققها في إقامة قاعدة لها في حيفا، ووسط هذه المدينة بالخليج العربي بواسطة عطف حديدي، وبالوصول على امتياز تجاري في الإسكندرية، التي يجب أن تكون ميناء حراً لتسهيل ترانزيت السلع الإنكليزية الموجهة إلى العراق. ثانياً: بإرساء قواعد الاتحاد (الكونتفدراسيون) العربي في وسط

(٣٧) المذكور تور الذين حطوط، المصدر السابق، ص ٣٦.

(٣٨) J. PICHON, Le Partage Du Proche-Orient, pp. 100-101. (٣٨)

سورية تحت رئاسة شريف مكة الإسلامية، على أن تكون فيه السلطة الفعلية لفرنسا وإنكلترا اللذين يتفاهلان حمايته. ثالثاً: بتقسيم مناطق النفوذ العائدة لكل من فرنسا وإنكلترا، بشكل أن يكون بين المنطقتين خط اعتباري يذهب من منطقة القدس متجهاً نحو الشمال الشرقي ماراً بجانب منطقة الموصل البترولية حتى يصل إلى الحصة التي خصصت لروسيا. وتكون المنطقة الواقعة شمالي هذا الخط بما فيها دمشق وحمص وحماه وحلب تحت الحماية الفرنسية، والمنطقة الواقعة جنوبية تحت الحماية البريطانية. أما بيروت وقسم من لبنان فيلحقان بالاتحاد العربي ليكونا له بمثابة مفصل على البحر، على أن يشمل هذا القسم، الذي سينضم إلى فرنسا، على قسم كبير من الساحل الشمالي لفلسطين - التي يجب أن تدول - حتى كيليكا. وفي الشمال يجب أن تمتد الاحتلال الفرنسي بعيداً حتى قلب آسيا الصغرى إلى ما وراء ديار بكر^(٣٩).

هذا الاقتراح كان هو الأساس الذي دارت حوله مناقشة المؤتمر ما يمس مع المسيو بيكو. وقد عاد الفرنسيون إلى التذمر من التصحيحات التي بدأ الإنكليز يفيمونها حول مطالبهم الإقليمية. فقد عرض المسيو بريان، وزير الخارجية الفرنسي حينذاك، على مجلس الوزراء سبر المفاوضات الجارية في لندن قال «إن إنكلترا تعترف لنا بحق السلطة الكاملة على الإسكندرية وكيليكا وما بعدها حتى الموصل، وتقبل بوضع لبنان وطرابلس وبيروت تحت سلطتنا، لكنها لا تتحرك لنا سورية إلا تحت إدارة شريف مكة، وأنها تطلب لنفسها حقاً مع قسم من فلسطين، ولكننا طلبنا تقسيم فلسطين بين إنكلترا وفرنسا، وإقامة إدارة ثنائية فرنسية - إنكليزية على الخط الحدودي الذي يُنوي تحديده من حيفا إلى الداخل».

وبالرغم من عدم استعداد المسيو بوانكاره للخوض في هذه المسألة، نظراً لأن الملفات المتعلقة بها لم تكن قد قدمت إليه بعد، فإنه قد أبدى في هذه الجلسة ملاحظاته بأن إنكلترا تخصص لفرنسا مناطق كانت - وفقاً للاتفاقات أجزتها هذه مع تركيا وألمانيا في بداية ١٩١٤ - من نصيب النفوذ الألماني، بينما تخصص إنكلترا لنفسها مناطق قد تحتل تركيا وألمانيا عن حقوقهما فيها. فإذا عقد صلح ليس من شأنه أن يعطي فرنسا الترضيات الثامة، فإن ألمانيا تطالب بما خصص لفرنسيتها في حين أن إنكلترا تستطيع - على العكس - أن تحتفظ بما اعترفت لها به فرنسا. فيجب أن يتوقف قبول فرنسا لهذه التسوية على تحقيق حصتها كاملة دون نقص.

(٣٩) الدكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص ٣٧.

وبعد أيام أعلن المسيو برهان لمجلس الوزراء بأن الحكومة البريطانية رفضت رفضاً باتاً التنازل عن حيفا، وأنها من جهة أخرى طلبت ثلوث فلسطين، وفي مقابل ذلك اعترفت لفرنسا بالإسكندرية وما بعدها من البلاد شرقاً حتى الموصل داخلة، ولكنها طالبت، بالمقابل، بإقرار سلطتها على حيفا. وأضاف إلى ذلك قوله: «أما مدينة الموصل فإذا وافق الإنكليز على تركها لنا فلأنهم لا يقبلون أن تؤل إلى أيدي الروس»^{١٠٠}. وفي نهاية الأمر استطاع المفاوض الفرنسي أن ينال من زميله الإنكليزي امتنانين، أولاً: ألا تلحق بيروت بالاتحاد العربي، ثانياً: أن تعدل الحدود قليلاً في بعض النقاط.

وفي ١٩١٦/١/٣ انتهى الطرفان إلى تسوية وقعت منهما وأُرسلت إلى باريس للموافقة عليها من الحكومة الفرنسية، فانكب مجلس الوزراء على دراستها. وقد أبدى المسيو برهان ملاحظته بالألا يعترف بحقوق إنكلترا ما لم تتحقق لفرنسا حصتها كاملة غير منقوصة بعد الحرب. وقد حاولت الحكومة الفرنسية الحصول على فوائد إضافية بتعديل بنود تسوية ١٩١٣، والحصول على قبرص أو على الأقل إعادة النظر بالبنود المتعلقة بحيفا وفلسطين، لكن محاولاتها هذه لم تثمر. فنصح المسيو برهان سفيره في لندن بأن يعمل بسرعة قبل أن يستطيع اللورد كاتشر، بأسلوب التشدد الذي التزمه حول هذه القضية داخل الحكومة البريطانية، التغلب على زملائه. وأخيراً استطاع الطرفان الوصول إلى تسوية مبدئية، وقعت في ٤ و ٨/٢/١٩١٦ في باريس ولندن، فكانت أساساً للاتفاق النهائي^{١٠١}.

المرحلة الثالثة

لكن السرد أودار غري قال عند توقيع هذه التسوية بأنها لا تربط إنكلترا بصورة قاطعة إلا إذا نالت موافقة الحكومة الروسية، فاقضى أن تصالح التسوية في نص واحد، وتخضع لقبول الحليقات الكبرى الثلاث. وتوجه المفاوضان بنفسهما - ساهكس عن الجانب الإنكليزي، ويكو عن الجانب الفرنسي - إلى العاصمة الروسية، ولما عرضا المشروع على المسو سارونوف شيد هذا من سعة الأراضي التي تطالب بها كل من الحليقتين، وجرى التلميح من قبل المعامل الروسي لفرنسا بأن تعتدل في مطالبها لقاء أن يساعدوا في احتلال الضفة اليسرى لنهر الراين^{١٠٢}. وكانت النقطة الهامة

١٠٠ J. FICHON, Le Partage Du Proche-Orient, pp. 103-105. (١٠)

١٠١ J. FICHON, Le Partage Du Proche-Orient, 105. ذكره حاطوم، المصدر السابق، ص ٣٨.

١٠٢ ذكره حاطوم، المصدر السابق، ص ٣٨.

التي دار حولها الخلاف الشديد هي قضية فلسطين ، ذلك أن كلا من إنكلترا وفرنسا وروسيا قد قدمت بشأنها حلولاً مختلفة، تبعاً لاختلاف مصالح كل منها . ففرنسا تطالب بها باعتبار أنها جزء لا يتجزأ من سورية ، وروسيا لا ترغب بأن تسيطر على الأماكن المقدسة المسيحية دولة غير أرثوذكسية ، فضلاً عن أن لها فيها مدارس وأديرة لا سيما في الناصرة ونبلس والخليل ، لذلك طلبت وضع المنطقة تحت الحماية الروسية . وإنكلترا تعارض وقوعها في غير يدها لسببين : أولاً أنها ترغب في السيطرة على خليج حيفا — عكا ، ليكون لها بذلك منفذ يصل العراق بالبحر المتوسط ، وهذا أمر حيوي بالنسبة لمواصلاتها للبحر عبر منطقة الشرق الأوسط إلى الهند ، والثاني أنها لم تستخف أن ترى فرنسا أو أية دولة كبرى توطد أقدامها على مقربة من قناة السويس^(١٧) ، فكان إذن من الصعب التوفيق بين مختلف وجهات النظر المتضاربة . إلا أنه قد وجب على الدول المعنية أن تخرج من المأزق وهي على أتم ما يكون من الوفاق ، خاصة وأن الضرورة كانت تدعو هذه الدول إلى أن تحسب حساباً لرأي بعض الدول الهادئة ، لا سيما الولايات المتحدة . لذلك اضطر دبلوماسيوها أن يلاحظوا حلولاً من شأنها اجتذاب كل خصام وشأن ، والتفاس كل ما من شأنه تضيق شقة الخلاف ، وإحلال الوفاق بين الجميع . وهكذا استقر الرأي — بعد أن أبدت كل من الدول رغبتها في التنازل عن بعض مطالبتها — على تحويل هذه المنطقة بحيث تحتفظ كل من الدول المعنية بحقوقها في الإسهام في إدارتها بصورة مشتركة . وكان الفضل في الوصول إلى هذا الحل لاتفاق وجهتي نظر إنكلترا وروسيا حوله ، فوجب عليهما استرضاء فرنسا وتعويضها خسارتها لمنطقة اعتادت أن تنظر إليها كجزء من المنطقة التي قطع فيها ، فسمحتا لها بالتوسع في المناطق التركية الواقعة في الشمال من سورية أي كيليكيا وجزء من الأناضول^(١٨) .

كما دار المناقش حول نقطة أخرى هي الموصل التي كانت كل من فرنسا وروسيا تطالبها لنفسها ، كما طالبت بها إنكلترا أيضاً . ولم تستطع فرنسا أن تدخلها في حصتها إلا بسبب التفاس عليها بين الحلفاء الآخرين : رفض الروس إعطائها للمرتنيين فائزي المفاوضات الإنكليزي بقول بأن إنكلترا أحق من روسيا بها ، عندئذ انتقلت مصالح الجميع على جعلها من حصّة الفرنسيين^(١٩) . وقد كان هذا التفاس الشديد الذي حصل بين الحلفاء حينذاك مقدمة واضحة للحلول الغربية التي ترجمت عنها الاتفاقية المعقودة بين الحلفاء خلال الحرب ، كما كان — في الوقت نفسه — تفسيراً جلياً

(١٧) ج. أنطونويس ، المصدر السابق ، ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

(١٨) E. Juvon Vilf, II, p. 30 : أنطونويس ، المصدر السابق ، ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

(١٩) ملحق المصري ، يوم ميلون ، ص ٤٦ — ٤٧ .

لعدم تنفيذ بعض أحكامها في أعقاب الحرب ، بعد أن خرجت روسيا من المعركة مهينة الجناح ، وفي الميدان فسيحاً أمام الدبلوماسية الإنكليزية الماكرة .

الصفحة سايكس - بيكو : وعلى كل حال وقعت الشهرة بالأحرف الأولى في ١٩١٦/٣/٢٥ ، ثم أضيف النظر فيها ولست بنقط تفصيلية في ١٩١٦/٤/٢٦ ، ثم أبرمت نهائياً في ١٩١٦/٥/١٦ ، بين فرنسا وإنكلترا وفي ٩/١٦ بين فرنسا وروسيا . وقد سميت بغير حق « معاهدة سايكس - بيكو » لأنها لم تكن في الواقع سوى رسائل تبودلت بين دبلوماسي كل من القول الثالث^(١) واعترفت فيها كل دولتين بحق الدولة الثالثة في أجزاء من الإمبراطورية العثمانية بعد تجزئتها ، ويمكن أن نستخلص منها خطوطها المميزة — هذه الخطوط التي أصبحت معروفة ومتداولة في كتب التاريخ بشكل واسع ، يوضحها الرسم المرفق ، منقولاً عن كتاب « نقطة العرب » من تأليف جورج أنطونيوس — كما يلي :

تقسم المناطق القصصة لكل دولة بشكل يجعل لكل منها لون خاص على المخطط (أزرق ، أحمر ، بني) بالإضافة إلى منطقتين داخليتين أعطيتا حرفي (أ) ، (ب) :

١ — **المنطقة الزرقاء :** خاصة بفرنسا ، وتمتد على الساحل السوري اعتباراً من رأس المنقورة على حدود فلسطين — لبنان ، صاعدة إلى الشمال وتشمل لبنان الشمالي ومنطقة اللاذقية ولواء الإسكندرون وكيليكيا (منطقة آدنة ومرسين) حتى شمال سيواس في قلب الأناضول ، وتنتهي شمالاً عند نقطة تلاص خطاً وهمياً يصل أرضروم في الشرق بأنقرة في الغرب ، ثم تنحدر حدودها إلى الشرق الجنوبي ثم الشرق مارة في الشرق من ديار بكر وساردين لتلتقي بالمنطقة (أ) عند نقطة دخول الفجلة في الأرض العراقية أما الخط الحدودي الذي يذهب من هناك إلى حلب فإنه يقع خارج المنطقة أي في المنطقة (أ) .

٢ — **المنطقة الحمراء :** خاصة بإنكلترا ، وتمتد من خليج البصرة وتسير حدودها شرقاً — شمالاً محاذية لحدود إيران حتى الكوچ المشكل شمالي بغداد ، ثم ترسم شمالي هذه المدينة قوساً مفتوحة بصورة عرضة تصل حاضها حتى تخوم الصحراء في الغرب لتعود وتنحدر ثانية إلى الجنوب حتى تصل شاطئ الخليج من جديد ، وتشمل بذلك القسم الجنوبي من العراق ، اعتباراً من شمالي بغداد حتى الخليج العربي .

(٤٦) ذكر حاطم ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

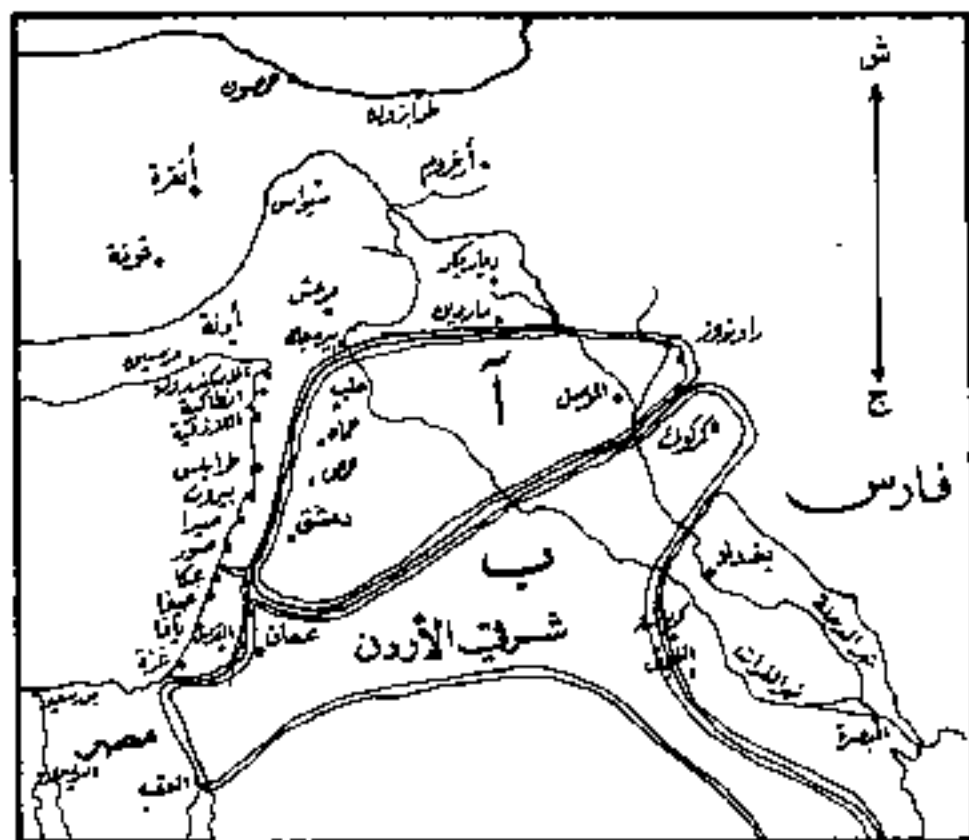
ويباح لفرنسا في المنطقة الأولى ولإنكلترا في الثانية إنشاء ما ترعاهما فيه من مراقبة أو من شكل حكم مباشر أو بالواسطة ، بعد الاتفاق على ذلك مع الدولة العربية ، أو حلف الدول العربية التي ستقام في منطقتي (أ) و (ب) .

٣ — المنطقة البنية (السمرق) : أي فلسطين ، وتتبعها إدارة دولية يعين شكلها بعد استشارة روسيا ، وبالتفاق مع بقية الخلفاء ومثل شريف مكة .

٤ — المنطقة (أ) : وتند شرقي المنطقة الجنوبية من المنطقة الزرقاء (أي الساحل السوري — اللبناني حالياً) وترسم حدودها من نقطة التقاء حدود فلسطين — الأردن — لبنان وتسير شمالاً حتى نقطة تحاذي مدينة الإسكندرونه ، ثم تنحى إلى الشرق حتى تلامس الحدود العراقية — الإيرانية بحيث تنتهي عند مدينة راوندوز ثم تتحد نحو الجنوب فالجنوب — الغربي مشكلة قوساً مغزياً في شمال كركوك ، وتم انجهاها نحو الجنوب — الغربي في خط شبه مستقيم إلى أن تلتقي من جديد في نقطة ابتدائها عند الحدود الأردنية الفلسطينية — اللبنانية . وتضم بذلك سورية الداخلية مع قسم من شمال العراق (منطقة الموصل) .

٥ — المنطقة (ب) : وتقع ضمن الحدود التالية : خط يسير من العقبة إلى غزة (حدود مصر) ومنها إلى البحر الميت ، ثم يسير نهر الأردن حتى يصب في البحر ثم يسير منها في خط مستقيم نحو الشمال الشرقي ويشكل الحد الفاصل بينها وبين المنطقة (أ) حتى يصل إلى شمال شرق كركوك التي يحصرها ضمنه نهر جنوباً بشرق في حبة تضم كركوك ثم ينحرف جنوباً غرب محاذياً للمنطقة الحمراء حتى كربلاء ، ومنها حتى الخليج العربي ثم يسير إلى الشمال بانحناء ملحوظ حتى تنحى إلى الجنوب الغربي مشكلاً قوساً يلتف حول حدود المملكة العربية السعودية من حدود الكويت — العراق حتى العقبة . وتضم بذلك منطقة الأردن الحالية وشرطاً من بادية الشام والقسم الأوسط من العراق .

وتقام في هاتين المنطقتين دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي ، تعترف بهما كل من فرنسا وإنكلترا وعمليهما . ويكون لفرنسا في المنطقة (أ) ولإنكلترا في المنطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية ، وتتفرد فرنسا في الأولى وإنكلترا في الثانية بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية .



مصدر تقسيم المملكة العثمانية وفقاً لاتفاقيات سايكس - بيكو
 شرقاً من كتاب جودع أنطونيوس - نقطة العرب

٦ — قال إنكلترا بحليج (ميناء) حيفا — عكا، وتعهد بأن لا تدخل في مفاوضات مع دولة أخرى للتنازل عن جزيرة قبرص إلا بعد موافقة فرنسا مقدماً.

٧ — تكون الإسكندرونة ميناء حراً لتجارة الإمبراطورية البريطانية مع تسهيلات خاصة للملاحة وبضائعها. وإباحة حرية نقل هذه البضائع من طريق الإسكندرونة وسكك الحديد المنطقة الزرقاء، سواء أكانت ولادة إلى المنطقة الحمراء أو إلى المنطقتين (أ) أو (ب) أو صادرة منها.

وبالمقابل تكون حيفا ميناء حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها، مع تسهيلات مماثلة للملاحة والبضائع الفرنسية ونقل هذه البضائع بحرية بطريق حيفا وسكك الحديد الإنكليزية في المنطقة الحمراء... الخ.

٨ — لا تمد سكة حديد بغداد في المنطقة (أ) إلى ما بعد الموصل جنوباً ولا في المنطقة (ب) إلى ما بعد سامرا شمالاً إلى أن يتم إنشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب ماراً بوادي الفرات ويكون ذلك بموافقة الحكومتين.

٩ — يقر لبريطانيا أن تنشئ وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدي يصل حيفا بالمنطقة (ب) مع الحق الدائم بنقل الجنود في أي وقت كان على طول هذا الخط.

وما بقي من النصوص يتعلق بالتركة الجمركية وإنشاء الجمارك. والمهم فيها أن الاتفاق يتضمن أيضاً أن لا تخبري الحكومة الفرنسية أية مفاوضة في أي وقت كان، للتنازل عن حقوقها في المنطقة الزرقاء لدولة أخرى غير الدولة أو حلف الدول العربية، بدون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية التي تعهد بمثل ذلك في ما يتعلق بالمنطقة الحمراء.

كما نصت الاتفاقات على أن الحكومتين الإنكليزية والفرنسية تعهدان — بصفتها حاميتين للدولة العربية — بأن لا تشكلا ولا تسمحا لدولة ثالثة بأن تمتلك أقطاراً في شبه جزيرة العرب، أو تنشئ قاعدة بحرية في الجزائر على ساحل البحر الأبيض المتوسط، على أن هذا لا يمنع إجراء تصحيح في حدود عدن قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الأخير.

وأخيراً تنص الدولتان على استمرار مفاوضاتهما مع العرب لتحديد حدود الدولة أو حلف

الدول العربية: على أن تنظر الحكومتان في الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية^(٤٧).

نقد الاتفاقيات: أما الملاحظات التي يمكن إبدائها حول هذه الاتفاقيات لهذه نية عنها:

١ - إنها لم تنص صراحة على «إسحاق» المناطق المخصصة لحكم الدولتين العربيتين المباشر (المنطقة الزرقاء والمنطقة الحمراء) ، كما أنها لم تستبعد ، وتركزت الأمر للدولتين فإن شاعنا استحلقاتها بتامهما أو اكتفينا بجزء منهما^(٤٨).

٢ - إن المناطق الناعلية في كل من العراق وسورية (أ) و (ب) والتي لوحظ قيام دولة عربية أو حلف دول عربية مستقلة نظرياً فيها ، فلم يترك لها أي منفذ على البحر ومسيرها في المستقبل غير أكيد: هل ستكونان دولة وحدوية أم اتحاداً؟ ومن هو السبد الذي سيحكم هذه الدول؟ إنما الأكيد أنهما ستوضعان تحت حماية الخليفتين ، تلك الحماية المستمرة في جلياب المساعدة ، ومن الواضح أنهما ستكونان ميداناً للاستثمار الاقتصادي للدولتين ، وأنهما ستكونان مفتعرتين للمنطقتين الساحليتين الفرنسية والإنكليزية . علماً بأنه لم يراع في التقسيم برمه أي اعتبار جغرافي أو اقتصادي أو عرقي أو ديني ، إنما الذي أدى إلى هذا التقسيم هو التنافس الفرنسي - الإنكليزي ، أما حاجات السكان الأساسية فلم يؤخذ بها^(٤٩).

٣ - إن الغاية من تجزئة البلاد العربية على هذا الشكل هي - فضلاً عن الأطماع الاستعمارية - تقطيع أوصال هذه البلاد والحيلولة دون وصولها إلى الوحدة بوضع العراقيل المصطنعة في سبيلها .

٤ - على أن أخطر عيب فيها أنها تشكل نقضاً قاضحاً للوعود التي أقرتها إنكلترا مع الشريف حسين ، وأنها دبرت ووقعت بدون علمه . إلا أن ثمة ادعاء من مروجي الدعاية الصهيونية يقول بأن الشريف قد أطلع على خبرها . وسأني على مناقشة هذه الناحية في نهاية الفصل .

(٤٧) ج. أنطوليوس ، المصدر السابق ، ص ٥٧٧ - ٥٨٢ - ملاحظ.

للمصدر السابق ، ص ٣٥١ .

(٤٩) دكتور حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٤١ .

٥ - أعيد إلى المنطقة الزرقاء (لبنان) ما أراضى رغبة اللبنانيين من عودة ارتباط أفضية بعلبك حاصبيا، وإشيا بها، وكانت من ضمن لبنان قبل عام ١٩٦٠^(٥٠).

وأخيراً لابد من التوبة يرأي أني به كتاب عربي، هو صلاح الدين المختار، مؤلف كتاب « تاريخ المملكة العربية السعودية »، قال فيه إن اتفاقيات سايكس- بيكو من صنع اليهود، وأورد بعض معلومات ربط فيها بين عقد هذه الاتفاقيات ونصرع بلغور منها بأن السير مارك سايكس كان من الذين جذبتهم الصهيونية إلى حفظها، فكرس نفسه لخدمتها، وجعل قعره في باكنجهام أحد مراكزها، (سيأتي في بحث وعد بلغور ما يؤيد ذلك) وأورد طائفة أخرى من المعلومات، دون إشارة إلى المصدر الذي استقاها منه - ولو قل لأسدى عذمة كبرى للمحقق - قال بأن الدكتور موسى جامستر، والدكتور حاييم وايزمن، وهيرت بنشويش، ويوسف كوك، ونعم سركلوف، من أعضاء اللجنة السياسية الصهيونية العالمية، قد وضعوا في العام ١٩١٦ برنامجاً واسعاً للاستعدادات الاستعمارية كان من جعلها الخطوط الأساسية لاتفاقيات سايكس- بيكو، والغاية منها غزو بلاد العرب على أساس يضمن إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين، وأنهم عرضوا في تشرين الأول ١٩١٦ على الحكومة البريطانية مهاجمهم لتنظيم حكومة جديدة لفلسطين، لتسهيل هجرة اليهود إليها، ثم دخلوا معها في مفاوضات، وإن خطوط معاهدة سايكس- بيكو قد تقررت بتتجة مباحثات جرت بين وايزمن وصحبه، وبين مارك سايكس بعد أن دخلوا معه، ومع المفاوضات الفرنسي جورج بيكو، في مباحثات حول البرنامج السالف الذكر^(٥١).

وإذا كان السير مارك سايكس - كما سنرى في معالجة وعد بلغور - قد لعب دوراً هاماً في التهيئة لهذا الوعد، وكان مطية للصهيونية، فلا يستبعد أن يكون في ما نقله صلاح الدين المختار نصيب كبير من الصحة، لأنه قد جرت اتصالات جانبية كثيرة ومريية بين من ذكرت أسماؤهم في أثناء تديهم مؤامرة وعد بلغور، كما سنرى، علماً بأن كثيراً من الوثائق السرية المتعلقة بقضية الوعد وقضية اتفاقية سايكس - بيكو لا تزال طي الكتمان.

على أن الذي استوقف نظري التفسير الذي للترمه « جورج أنتونيوس » لإيضاح الدور الذي لعبه مارك سايكس، كمفاوض إنكليزي في الجمع بين المتناقضات (اتفاقيات سايكس - بيكو،

(٥٠) J. PICHON, Le Partage Du Proche-Orient, p. 110.

(٥١) صلاح الدين المختار، المصدر السابق، ص ١٨٥ - ١٨٦.

واتفاقية الحسين مكماهون) على صعيد واحد. فبعد أن نفى عنه الحماية والمهادنة، ووصف بخلاله بالثقل الصريح، والحماية للقضايا التي يؤمن بها، وأنه غير من يعرف المشكلة العربية بين السياسيين العاملين معه، واستقر كيف أقع نفسه برجاجة الاتفاقية، واعتبر أن ذلك سيهيئ لغزاً غامضاً، اتخذ أنطونيوس المفهوم السيكولوجي أساساً لتفسير جانب من موقفه، وبدأ يحلل نفسه، ثم يركبها: إدراك سريع لمساح مع شروء هليل في الوقت نفسه، مع مقدار معين من غفلة المتحمس الإنشائي وحرارته، مع قسط من المعرفة عن العرب تتميز بغفلات، مع أحكام تتراوح بين نفاذ البصيرة والتفلاق الفهم وكأنما كانت بصيرته العقلية تحاكي رقعة الشطرنج (مرعات بيضاء تحتل نفاذ البصيرة، وسوداء تحتل ضروب الغموض وقلة اليقين في معرفة اكتسبت على عجل). كل ذلك أدخله جنة الحقيق التي خلقها جشع الدول الثلاث ونحاسدها^(٥٢) غور أنني أقول لو أن السيد جورج أنطونيوس^(٥٣) اقتصد في هذا التحليل والتركيب، واكتفى بالجملة الأخيرة مضيئاً إليها عراقة المسر سايكس في خدمة الاستعمار ثم في خدمة الصهيونية كما سنرى، مما جعل كل مرعات طفلة سوداء، فكان قد أغنى نفسه عن كل هذا الجهد دون أن يجانب الحقيقة.

إننا الغرب في الأمر أن كلا من الحليفتين: فرنسا وإنكلترا، قد رأيت منذ ١٩١٦، نفسها مخدوعة من قبل الأخرى. لفقد نظلم اللورد بيرتي BERTIE، سفير إنكلترا في باريس بقوله: «مسكين مارك سايكس، لقد اعتبره ديوان الحرب «خبيراً ممتازاً» في قضايا الشرق الأدنى، ولكن الدبلوماسية الفرنسية قد خدعته»^(٥٤). كما أكرر السياسيين والكتاب الفرنسيون من ترديد أن إنكلترا قد تجاوزت على حقوقهم وحرمتهم من مناطق هي في صميم حصصهم كفلسطين، أو على الأقل حددت الحدود السورية - الفلسطينية تحديداً جاثراً على حساب سورية^(٥٥). ونسأل بعضهم: لماذا وضع السوريون المقتنون (سكان دمشق وحلب) تحت سلطة الشرفاء، هؤلاء البدو الأجلاف الذين لم يسيطروا على سورية إلا في سنة ٦٣٥ - ٦٥٦ م، حين الفتح الإسلامي؟ لماذا لم يُحافظ على الوحدة السورية؟ لماذا فصل الساحل عن الداخل بسهولة الخصبية، وليس من يجهل أن لاحتيا للساحل يلون الداخل؟^(٥٦).

(٥٢) جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٣٥٥.

(٥٣) دكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص ٤١.

(٥٤) J. PICHON, Le Passage Du Prêche-Orient, p. 110. (٥٥)

G. GAUTHIEROT, Ibid. p. 60. (٥٦)

كما قال الدكتور «دوغوتوبيرون» : «لم يكن باستطاعة أية حكومة أن توقع وثيقة بمحفلة كهذه في الأوقات العادية . إنما كان المهم في الدرجة الأولى — في ذلك الوقت الذي كان وجود ومستقبل فرنسا فيه ، فضلاً عن مستقبل الشرق ، في يد القدر — هو الحفاظ على تماسك بين الحلفاء ، هذا الشرط للجمهوري للغفر في وقت لم يبرز الحلفاء أي ظفر له قيمته على مختلف الجبهات » . ويحزو الكاتب نفسه فشل فرنسا في تحقيق مطامعها إلى كونها بعيدة عن الشرق في ذلك الوقت الذي كانت فيه إنكلترا موجودة في مصر وقائمة بأعباء حملة فلسطين ، وفي العراق حيث كانت جبرشها مهاجم عدداً كبيراً من القوات التركية ولجتهاها ، وفي جزيرة العرب حيث كانت تمارس تأثيراً لا يتركها ، مما ترك لها مجال التصرف فسيحاً^(٥٦) . باختصار شعر الفرنسيون بالثمين : طالبوا بسهولة كاملة فلم يُسْعَوا إلا شريطاً ساحلياً ضيقاً خارجاً عن الخط الحديدي الوحيد ، الذي يؤلف الشريان القومي للبلاد ، والذي هو شرط لا غنى عنه لكل عمل استراتيجي اقتصادي . كما حرّموا من فلسطين ، أما كردستان التي أعطيت لهم تعويضاً فقد ضاعت منهم ، وهم لا يجهلون قلة أهميتها وكونها غير مطروقة ، لا يمكن اجتيازها باعتبار أنها منطقة جبلية^(٥٧) .

القضية الفلسطينية وتصريح بلقور

لم يكف الحلفاء باتفاقات سايكس — بيكو في ضرب آمالي العرب في الوحدة والاستقلال ، بل عمدت إنكلترا إلى إصدار «تصريح بلقور» لتحقيق آمالي الصهاينة في الحصول على وطن قومي لليهود في فلسطين .

ليس من شأن هذا البحث التحقيق علمياً في تاريخ اليهود القديم — ذلك يحتاج إلى دراسة خاصة — إنما أكتفي بإيراد بعض الحقائق التي أصبحت معروفة .

أولاً : لم يكن اليهود أول شعب سكن فلسطين ، فقد سبقهم إليها الكنعانيون (الساميون) الذين هاجروا إليها من شبه جزيرة العرب (٢٥٠٠ ق . م) ، وكان الآخري بالخويعين أن يطلقوا عليهم وعلى غيرهم من الشعوب التي هاجرت منها إلى الشمال اسم «الشعوب العربية» نسبة إلى موطنهم

(٥٦) COMTE DE GAUNTOT—BERON, Ibid. pp. 32-33. (٥٧)

(٥٧) دكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٤١ - ٤٢ .

الأصل^(٥٨). كما سبقهم إليها — بعد الكنعانيين — شعب «فلسطين» اللاتيني الأصل الذي أعطى المنطقة اسم «فلسطين».

ثانياً : إن اليهود لم يؤلفوا في فلسطين دولة مستقرة إلا فترة وجيزة من الزمن في عهد الملكين : داوود وسليمان ، اللذين ما إن انقضت فترة حكمهما حتى دبح الانقسام في المملكة اليهودية ، التي لم تدم أكثر من قرنين من الزمان بما في ذلك عهد وحدتها وعهد انقسامها^(٥٩) ، إذ تعرضت البلاد إلى غزو مستمر قام به على التعاقب الآشوريون الذين قضوا على أحد شطريها : مملكة إسرائيل (المقسم الشمالي) ، وهدموا عاصمتها وسبوا رجالها إلى نينوى (٧٢١ ق. م) ، والبابليون الذين قضوا على الشطر الثاني : مملكة يهوذا (المقسم الجنوبي) ، وغربوا هيكل سليمان ، وهدموا المدينة ، وسبوا معظم السكان إلى بابل (٥٨٦ ق. م).

وما إن عاد اليهود إلى فلسطين ، وأعادوا تشكيل دولتهم حتى داهمهم الإمبراطور الروماني الكبير «يوليوس قيصر» (٨٥ ق. م) فأطلق بلاد الشام برمتها (بما فيها فلسطين) إلى الإمبراطورية الرومانية ، فأضحى ظل السيادة اليهودية على فلسطين. ولما حاول اليهود — بحركة عصيان بالسة — استرجاع السيادة على البلاد وجهت إليهم العنصرية القاضية ، ودمر الهيكل من جديد وشرد اليهود من فلسطين تشريداً كلياً (١٣٥ م) ، بحث لم يبق منهم فيها سوى أقلية ضئيلة^(٦٠) ففرقوا في مختلف أنحاء العالم دون أن يكون لهم مأوى أو وطن. وأتينا حلوا كانوا يعاملون معاملة الغرباء هرب المارحوب منهم ، فاضطروا إلى الإقامة في أماكن ضيقة في المدن ، متفصلة عن باقي الأحياء ، ويُجبرون أحياناً على ارتداء ملابس خاصة مع شارات تميزهم عن غيرهم ، وكانت كلمة «يهودي» مرادفة للميحل والرهبة. ومع ذلك كانوا يحتفلون أنهم «شعب الله المختار» ، ويواصلون الحنين إلى صهيون ، وهو التل الغربي من القدس الذي أصبح رمز أمانيهم في العودة^(٦١).

الشيء الجدير بالذكر هنا أن إقامة اليهود الفعلية المستمرة لم تتجاوز خمسة أو ستة قرون بينما سكنها العرب ما يقارب أربعة عشر قرناً^(٦٢) وأن عدد العرب فيها كان لا يقل عن

(٥٨) إن تسمية هذه الشعوب باسم «السامية» إنما هو من وصي يهودي ثوراني ، والأكثري أن تسمى باسم «شعوب عربية» لا شعوب سامية لأن الدراسات الجيدة أثبتت أنها قسمت في الأصل من شبه الجزيرة العربية.

(٥٩) NGBIB MOUSSALLI, *Le Sionisme et La Palestine* p. 22.

(٦٠) وديع تلحوق ، دولة إسرائيل ، ص ١٢٦ عبد المحسن ، المسألة اليهودية ، ص ١١٨ .

(٦١) البغدادي تهر ، تاريخ العالم ، ص ٣١٥ .

(٦٢) NGBIB MOUSSALLI, *Ibid.* p. 22.

١٠٧ / ألفاً حين صدور تصريح بلغور، بينما لم يتجاوز عدد اليهود ٥٥٠ / ألفاً أي ٧٪ من مجموع السكان تقريباً. وأما بقية الشعب اليهودي فقد عاشوا أحياناً طويلاً في القرية الشمالية ومختلف بلدان أوروبا وآسيا، وبخاصة منها البلاد العربية، التي لم يلقوا فيها سوى الرعاية والإعلاء، لا تربطهم بفلسطين أية رابطة مادية. وقد هاجر عدد كبير منهم إلى القارة الأمريكية بقميها الشمالي والجنوبي، حيث تكونت منهم فيها مجاليات أحرزت شأنًا كبيراً في التجارة والمال^(٦٢).

ومن الخصائص التي عرفت بها اليهود، في العصر الحديث بصورة خاصة، انصرافهم إلى شؤون التجارة وإقراض المال والمراعاة، بحيث أصبح لهم في هذا الميدان تخصص وبران وذرة وحيل مبتكرة، ساعدتهم على جمع الثروة وشراء ذمم الحكام، حتى أصبحوا قوة يفتشى نفوذها ويستكر نشاطها حيثما حلوا، وقد دفعهم إلى هذا التخصص الانشطهات التي تعرضوا لها، وحرمانهم من الوظائف الحكومية، ومن احترام المجتمع، أو ممارسة الشؤون العامة، بالإضافة إلى احتقارهم واستغلالهم^(٦٣). غير أن اليهود للذين كانوا محرومين من امتلاك الأراضي، في القرون الوسطى إبان سيادة النظام الإقطاعي، كانوا للملك مبعدين عن التجارة وامتثال الحرف. ولم يكن لهم حق إلا بيع بعض البضائع الممنوعة، وكان أكثرهم باعة متجولين في المزارع والحقول، كما كان بعضهم يمتنون إقراض للنقود بربا غير مألوف، وبصورة مريبة باعتبار أن الكنيسة كانت تنهى عن ذلك. لكنهم ما لبثوا— حينما حل المجتمع البورجوازي محل المجتمع الإقطاعي— أن تقدموا لاشتهان المهين المختلفة نظراً للحاجة إلى الأيدي العاملة، كما تقدموا بحكم اختصاصهم إلى احتكار وظائف الصبغة والوظائف التجارية، وبذلك كان ظهورهم مرتبطاً بظهور المدن وتوسعها، فعاشوا كما عاش غيرهم فيها، ولم يكن يميزهم عن سواهم من الناس غير دينهم^(٦٤). إنما لم تلبث الكراهية— كظاهرة اجتماعية— أن حلت بينهم وبين أهالي المدن المسيحيين، بسبب التنافس التجاري والمصرفي، ذلك أن رجال الدين المسيحي قد تساهلوا في مسألة الربا، فصار المسيحيون يعاطفونه، فاضطرموا بما كان لليهود في هذا المضمار من التقدم الملموس. يضاف إلى ذلك أن الاقطاعيين— حينما كان صرح نظامهم يترفع أمام انتصارات البورجوازية— لم يكونوا يرون في غير اليهود ملجأً يفتشون إليه لاستدانة النقود. إذ كانوا يتعاملون مع الدائنين البورجوازيين خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى ازدياد ثروتهم

(٦٢) أحمد طهري، القضية الفلسطينية، ص ٦.

(٦٣) غلام حسن، العرب والمشكلة اليهودية، ص ٢٧، عبد الله حسن، المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٦٤) JAMES PARKER, The Jew in Medieval Community: راجع: غلام حسن، المصدر السابق، ص ٣٣.

واتساع نفوذهم ، فأصبح لليهود مكروهين من أبناء المدن ، لا لمزاجتهم لهم اقتصادياً وحسب ، بل لوقوفهم عائقاً دون توسع نفوذهم السياسي أيضاً^(٦٥).

وإذا أضفنا إلى ذلك الحياة الدينية — العنصرية التي كان يحياها اليهود ، وموقفهم السلبي من الاندماج بالشعب الذي يعيشون معه ، وسكانهم في أحياء خاصة بهم تسمى «الغيتو» (Ghetto) لا يسكن فيها غيرهم ، وانعزالهم فيها بشكل يثير شكوك المسيحيين ، ويعطي مجالاً لتفسيق ما كان يشاع من بهم مروعة توجه إليهم ، كقتل الأطفال واستعمال دماءهم لأغراض طقوس دينية ، يهد في أوارها ما كان لرجال الدين المسيحيين من سيطرة على النفوس ، يشون فيها عاطفة الكره لليهود ، إذن لأدركنا سبب الاضطهادات التي لقيها هؤلاء في مختلف العصور وفي مختلف البلاد الأوروبية : ألمانيا ، بولونيا ، إسبانيا ، روسيا ، فرنسا ، وحتى إنكلترا^(٦٦). على أن أروع الاضطهادات التي لقيها كانت في ألمانيا. وقد بدأت في القرن التاسع عشر وازدادت حدتها في عهد النازية ، بحيث اتخذت شكل «مجازرة الساميين» (الملاسمية). ولعل الدافع إليها هو التطور الصناعي والاجتماعي ، ذلك أنه بسيطرة الآلة على الإنتاج فقدت جموع غفيرة من الملاحين أراضيها بسبب القضاء على الصناعة اليدوية التي كانوا يمارسونها ، فاضطروا لبيع أراضيهم كي يعيشوا بثمنها ، وبدؤوا يتدفقون إلى المدن باحثين عن عمل في المصانع ، فحصل التزاحم والتنافس بينهم وبين أهل المدن عليها. وباعتبار أن القرن التاسع عشر كان يحق عصر القوميات ، بدأ الألمان ينظرون إلى الساميين بأنهم من عنصر مختلف عن العنصر الألماني الآري. ولما شعر أفراد هذا العنصر الأثير بسيطرة اليهود على المناصب الكبرى في الدولة وفي المصانع ، وعلى الحياة الاقتصادية — بعد أن كسر اليهود طوق العزلة ، وفتحوا على الحياة العامة بعد الثورة الفرنسية — بدأ الحسد والتبرع يتمسكان من صدر الشعب الألماني ، وعبت النفقة عليهم ، بحيث قامت كثير من الأحزاب في ألمانيا وفي أواخر القرن التاسع عشر منها : الحزب الاجتماعي الألماني ، وحزب أعداء الساميين الشعبي ، وحزب الإصلاح الألماني ... الخ وكلها وضعت في رأس مناهجها فقرة يوجب محاربة الساميين باعتبار أنهم السبب الأساسي للمشاكل الاجتماعية الطارئة ، فضررت بذلك على الوتر الحساس في النفوس المتبومة ، لأن اليهود الساميين كانوا

(٦٥) قاسم حسن ، المصدر السابق ، ص ١٢ ، اقتباساً من RENNAP, Antisemitism And The Jews Question, p.21.

(٦٦) H. FORD, *Boysen's Yabedi*, pp. 12-13 ، قاسم حسن ، المصدر السابق ، ص ٣٨ — ٤٣ — ٤٤ — ٤٩ .

في الواقع يراحمون أبواب المال والصناعات والطبقة الوسطى سبل الحياة^(٦٧). ولم تكن روسيا وشعبها أقل تروياً باليهود في أواخر القرن التاسع عشر فاضطهدتهم، ونكلت بهم تكتيلاً لم ينسوا أثره إلى وقت طويل، وحتى تشوب للحرب العالمية الأولى.

لقد ذهب مئات الآلاف منهم ضحايا هذه الاضطهادات، ومع ذلك لم يفتقروا أبداً حلولاً يحاولون السيطرة على الاقتصاد والسياسة، متخذين ديدنهم المضاربة، واحتكار التجارة والأعمال المالية، حتى يزوا الآيرون في المهدان التجاري، وأخذوا يستقرون الأراضي الواسعة لغناء الديون التي يقرضونها لأصحابها، ويتحكمون برفاق مالكيها وفلاحها تحكماً جعل ضحاياهم يتأكلون عليهم في كل مكان، بعد أن اكتشفوا أنهم ليسوا إلا عقيليات مزعجة وخسرة. وكانت لهم أساليب ماهرة في علاقاتهم مع الحكام والأمراء: يتواطؤون معهم في بلديء الأمر لاستغلالهم، حتى إذا لمسوا أن نجمهم آخذ في الأفول يفتنون القمعة عليهم. ولهم اختصاص ومهارة في الانحراف بالحكم عن رسالته الحقيقية، يتوددون إلى الحكام ويستعملونهم بأهلها، حتى إذا اطمأن هؤلاء إلى لبائهم إزاءهم، يهتروا لهم أسباب الاستمتاع، ويهتروا لهم التشك والاستهزاء لينصرفوا هم إلى استنزاف مالي جيوب الأهالي، وإمصال أبناء جلدتهم إلى مصاف العلماء والنبلاء والوزراء والمستشارين. وهم يجمعون إلى صفة حب المال للمطموح إلى المال، يستعملون كل أساليب الماكرة لإثراء أنفسهم^(٦٨)، ويلبسون لذلك كل لباس حتى ولو كلفهم الأكر التظاهر بالحرر واعتناق المبادئ الإنسانية، والمناذاة بمبادئ الإحسان والمساواة التي رعتها الثورتان الأمريكية والفرنسية، اللتان كان لهما الفضل في خروج اليهود من عزلتهم، وكسر الطوق الذي ضربه على أنفسهم داخل بوابات العتو^(٦٩)، والتجنس بمنسوبة البلاد التي يعيشون فيها، واختلاطهم بأهلها، ومشاركتهم لهم في حياتهم الاجتماعية. وكان عليهم أن يلبسوا ثوب الحسل البريء ليخذلوا من المنظمة الماسونية مطية للوصول إلى أغراضهم، متظاهرين بالدعوة إلى التسامح الديني. وكانت هذه المنظمة قد جذبت إلى صفوفها الحكام والنبلاء وأقطاب الاقتصاد والبرجوازيين ورجال الفكر في كل دولة من دول أوروبا وخاصة في إنكلترا، فغاطر كبار زعماء اليهود إلى الانسحاب للمحافل الماسونية، وكان من أبرز هؤلاء آل روتشلد، وآل مونتاكو من ملوك البترول، ومنهم اللورد سوابلسنغ SWYTHLING وآل بليستون، ومنهم الماركيز

(٦٧) فاسم حسن، المصدر السابق، ص ٨٢-٨٣.

(٦٨) H. FORD, Ibid. p. 28: لويل عطر، كفاي، ج ٣، عطر والأجناس، ص ٢٣-٢٥.

(٦٩) أحمد طرين، تاريخ قضية فلسطين ١ ص ٩، ج دي ف. لورد، المصدر السابق، ص ١٨٧.

BLESSINGTON ، ولوردات دربي [DERBY] ، وغيرهم من كبار الشخصيات اليهودية المرموقة^(٧٠) . وهكذا أصبحت الماسونية أداة طيعة في أيديهم استخدموها لتحقيق غاياتهم السياسية . وعندما شعروا أن الماسونية وحدها لا تكفي لا يصلحهم إلى الهدف المنشود وضعوا نصب أعينهم تعهد الصحافة أو ترجميها ، على الأقل^(٧١) ، الوجهة التي يريدونها ، فهم لهم بذلك بسط لإشرافهم على الحياة العامة بجميع نواحيها : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ولم يتورعوا — كما قال هتلر — عن الإكفاء بتسائهم في أحضان الأكلان ذوي النفوذ في سبيل الوصول إلى أغراضهم ؛ لكنهم حرصوا دائماً على نقاوة دمهم بمنح أبنائهم الذكور من التزويج بغير اليهوديات^(٧٢) . كما كانوا لا يأتخرون عن اعتناق الأديان الأخرى كالسبحية والإسلام لتسمو به وإيجاد طريقة لتنفيذ مخططاتهم التي يرمونها ، لكنهم مع ذلك يحتفظون في قلوبهم بديانتهم الأصلية ، وعند الانجاب يتخذون اسمين : اسماً إسلامياً أو مسيحياً وآخر يهودياً ، وشعارهم للتبليغ على اللوام هو : «أن اليهودي يظل يهودياً يسري في عروق الدم اليهودي ، ولو مهما اعتنق من أديان» فهو يثار على القيام بشعائره وتقاليد وعاداته لا يشتغل ، ولا يشغل نأراً في بيته يوم السبت ، ولا يخلل ما حرمة الديانة اليهودية ، ولا يحرم ما حلالته^(٧٣) . وهكذا فإن «الدمومة» (الصبايين أو المتحولين) وهو الاسم الذي أطلق على اليهود الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في تركيا ، وقد قدموا من إسبانيا هرباً من الاضطهاد ، لم يكونوا مسلمين إلا بأداء وظاهراً^(٧٤) . وكذلك الذين ذهبوا إلى إنكلترا واعتنق بعضهم فيها الدين المسيحي ، وكان سبب هجرتهم أن إسبانيا في القرن السادس عشر لم يمكن بالإمكان أن يبقى فيها أي يهودي بصورة رسمية^(٧٥) .

(٧٠) CEVAT RIFAT ATILHAN: *Yahudilerin Dünyayı Nasıl İstila Edeyorlar*, 38 (٧٠) رفعت آتيلخان : كيف يستولي اليهود على العالم .

H. FORD, *Ibid.*, p. 37. (٧١)

(٧٢) هتلر ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

CEVAT RIFAT ATILHAN, *Ibid.*, pp. 36, 31. (٧٣)

(٧٤) كان زعيم اليهود المسلمين «الدمومة» في تركيا يدعى «سباتاي إلهي» ، ادعى النبوة ، وعظم شأنه لدى بني جنسه ، ولهم بسبه للحصول على مقام السلطنة ، ولا مثل أمام السلطان محمد الرابع (١٦٤٦-١٦٨٧ م) أعلن إسلامه عموماً على حياته ، وأتبعه كثير من مرعيه ، لكنهم بقوا متمسكين بمبادئ دينهم القديمة ، وحصل نوع من اختلاط العقائد عندهم ، ونشأ نوع جديد من الاعتقاد أصبح يُدعى «المذهب اليهودي-الإسلامي» «Secte Juéo-Musulmane» وكان الأتراك يسمون اليهود المسلمين باسم «اليهود للمرايين» يُطلق عليهم اليهود قديماً بقوا على عروبتهم اسم «المسلمون للمرايين» وغلب عليهم اسم «الدمومة» (راجع Rev. Du Monde Musulm. Nov. 1908) .

pp. 483-495 .

(٧٤) CEVAT RIFAT ATILHAN, *Ibid.*, pp. 36, 30 (جواد رفعت آتيلخان) .

لم يترك اليهود في البلدان التي غلبوها أية وسيلة إلا واستخدموها لتنفيذ غنططاتهم . أما إذا اعترض سبيلهم أحد فإنهم لا يتورعون عن تحطيم شخصيته ، وتلويت سمعته مهما كان شريفاً . قال هتلر « أما إذا كان المقصود محاربة رجل شريف فإن اليهود ، بسفالتهم المعهودة ، لا يتورعون عن رسمه بكل نقيصة جماعلون من الصحافة التي يوجهونها متبراً للتحامل عليه ، حتى إنهم يذهبون إلى حد انتقاد حياته الخاصة ونشر الفضائح عن أفراد عائلته ... ولا يتورعون عن الإقتراف ونسج الأكاذيب ، ويواصلون الحملة مسخرين في ذلك عشرات المصحف ... »^(٧٥) . ويؤيد هذا القول الكاتب التركي جواد رفعت أتيلخان في كتابه الحديث « كيف يستولي اليهود على العالم » إذ يبين أن اليهود حينما نسوا معارضة السلطان عبد الحميد الثاني لرغبتهم التي عرضوها عليه في أن يساعده مادياً لقاء السماح لهم بالهجرة إلى فلسطين ، بدلوا خططهم سمعته وبضخمتهم أعطائه ، ومجملون عليه حملات شديدة في الصحف العالمية ، وهدسون الدسائس الداخلية في الإمبراطورية العثمانية بواسطة اليهود « الدوغة » حتى أدى الأمر إلى تقويض عرشه^(٧٦) ، وقد استعانوا على ذلك بالذهب الذي كانوا يذللونه يلبون حساب ، وبالجماليات الصهيونية في أميركا ، والوكالة اليهودية في فرنسا ، والمنظمات الصهيونية في إنكلترا ، بحيث رُسم انقطعت هناك ونفذ في تركيا^(٧٧) . وما يؤيد صدق هذا القول السلوك الذي سلكه يهود « الدوغة » بعد ثورة تركيا الدستورية ، ومحاولتهم الاستفادة من العهد الجديد كي تطلق يدهم في أرض فلسطين ، وكان للمراسم التي رتبها للانحاديون لتبليغ السلطان المذكور قرار بحلمه دلالة خاصة ، إذ كان في مقدمة الوفد ، الذي بلغه القرار ، النائب اليهودي « كاروسو CAROSSO »^(٧٨) الإيطالي الأصل . والحقيقة أن أمل الصهيونية بعد هذه الثورة أصبح مضاعفاً في تحقيق برنامجها القومي^(٧٩) .

خلاصة القول إن اليهود ، وخاصة في ابتداء القرن العشرين ، جعلوا من إنكلترا رأس جسر يتطلعون منه إلى تنفيذ أغراضهم ، فقد وجدوها أنسب مكان يطلق يدهم في العمل نظراً لما لهذه

(٧٥) هتلر ، المصور السابق ، ج ١ ، هتلر واليهود ، ص ١٢ .

(٧٦) CEVAT RUFAT ATILHAN, Ibid. pp. 44, 45, 49, 51.

(٧٧) Ibid. p. 83.

(٧٨) لما أذن للوفد بدخول قاعة العرش تقدم كاروسو من السلطان عبد الحميد وعامله قولا « إن أي ظالم يدينه الله ! أي : (أنزل أيا السلطان نظام) .

(٧٩) C.R.ATILHAN, Ibid. p.28, Rev. du Monde Musulman, Avril 1908, p.732.

الدولة من مكافأة دولية، بحيث تتحكم في مصائر السياسة الدولية، وشرعوا بالاستناد إلى المنظمة الماسونية، التي احتلوا المراكز الهامة فيها، في رسم مخططاتهم ودسائسهم^(٧٩).

كان الإنكليز يعطفون على اليهود، ويشجعون الحركة الصهيونية التي اتخذت في أواخر القرن التاسع عشر - عصر الميظنة القومية - شكل العمل السياسي المنظم، والتصميم الجدي للحصول على وطن قومي، بعد أن كان هذا الهدف مجرد حلم من أحلام اليهود^(٨٠). لقد شجعها المسيحيون الإنكليز، وخاصة منهم أصحاب رؤوس الأموال الضخمة والاستعماريون، الذين كانت تضمهم مع أبواب المال اليهود في إنكلترا وأمريكا، الأرباباات الاقتصادية، «الفرستات»، الكبيرة والشركات المسيطرة. وكان هؤلاء يهدون أن تبقى الروح القومية حية عند اليهود، فاللورد آشلي واللورد شافنسبوري والكولونيل كولير ووالتر كرسبون وجيمس فن ولورنس أوليفانت وغيرهم كانوا يساندون مطالب زعماء اليهود القومية على أسس وعطش ربيت معهم^(٨١)، وهي غلدم مصالح الاستعمار الإنكليزي، والآمال القومية الصهيونية في فلسطين معاً: إيجاد حكومة يهودية تحت حماية الإنكليز في الأراضي المقدسة لتأمين سلامة قناة السويس بوصفها طريق بريطانيا الرئيسي إلى الهند^(٨٢).

على أن محاولات اليهود التي سبقت هذه الأساليب المنظمة في العودة إلى فلسطين قد جرت بشكل عقوي. كانت غايتها اغتنام أية فرصة تتيحها الظروف للوصول إلى العاية المنشودة. وهكذا حاولوا استقلال حملة نابليون على عكا، وعرضوا عليه مساعدتهم لقاء تحقيق أمليهم المنشود. كما تبع ذلك مفاوضة الزعيم اليهودي «موسى مونتيغوري» - وكان تاجراً لإيطاليا تحتس بالجندية الإنكليزية، وصاهر أسرة روتشيلد اليهودية ذات اللواء التاسع، وقد أثرى من التجارة ثراء عريضاً، فتركها بكرس جهوده لخدمة أبناء دينه - لمحمد علي باشا (١٨٣٧) في أثناء الحكم المصري في سورية، مستغلاً نساخه الديني تجاه المذاهب الأخرى، في سبيل إقامة مستعمرات زراعية لليهود، فترث محمد علي في الأمر، لكنه لم تمض بضعة سنوات حتى عادت سورية وفلسطين إلى حوزة الدولة العثمانية فجدد مونتيغوري مسعاه لدى السلطان العثماني، وحصل لليهود على جميع المزايا التي كان يتمتع بها الأجانب في أنحاء الدولة العثمانية، ولكن دون أن يصل مع ذلك إلى تأمين كيان قومي لهم

(٧٩) C.R. ATILHAN. Ibid. pp. 29, 37.

(٨٠) وديع للحوق: المصدر السابق، ص ٢٩.

(٨١) غلسم حسن: المصدر السابق، ص ٨٤ (نقلاً من «Encyclopédia Britannica «Zionism»).

(٨٢) كرسبون تشابلن: المصدر السابق، ص ٦٦.

فيها ، وكان مولفها أول من تكلم باسم اليهود في أوروبا والشرق في العصر الحديث^(٨٢) . وقد يصح أن نعتبر هذه المحاولات بمثابة البنية الأولى للحركة الصهيونية في التاريخ الحديث ، بحيث أخذ اليهود منذئذ يجهرون بفكرهم الفائل إنهم شعب « بلا وطن » ويثبون في تقوس الشعب اليهودي أن الاضطهادات التي يلقونها ليست إلا نتيجة لذكور العنصري الذي تضمره طم الشعوب المختلفة ، فكان هذا الدور من المسألة اليهودية هو الدور التمهيدي لظهور الحركة الصهيونية الفعلية التي برزت إلى الوجود في نهاية القرن التاسع عشر .

الحركة الصهيونية

هي حركة سياسية حديثة منظمة ترجع إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، غايتها بصورة عامة تأمين عودة اليهود إلى ما اعتبروه « أرض الميعاد » ، وجعل فلسطين دولة يهودية يحشد فيها ما تستطيع استيعابه من جموعهم المنتشرة في أرجاء العالم . ولم تكن مراسي اليهود قبل هذا العهد سوى عقيدة كاسية تعرب عن نفسها بمحاطفة حنان وشوق إلى « الوطن المفقود »^(٨٣) ومعبارات تحمل في طياتها ذكريات انفعالية ووجداء دينية مثل « ... كيف نغني أغنية الرب في أرض غريبة ؟ شلت يميني إن نسيك يا أورشلين ، لئلا نلصق لساننا بمحلقتي إن لم أذكرك يا أورشلين ، وإن لم أفضلك على أعظم أفراسي » ، تلك القصائد التي نظمت منذ سبي بابل ودونت في المزامير « هناك على أنهار بابل جلسنا وبكينا عندما تذكرناك يا صهيون » ، وعلى أشجار الصفصاف علفنا أعوادنا ، بعد أن حطبت الذئع سبونا أن نغني لهم أغنية من أغاني صهيون »^(٨٤) ، وهي عبارات درج اليهود على ترديدها دون ربطها بهدف قومي منظم ، ودون أن تتخذ معنى سياسياً واضحاً^(٨٥) .

إن المذاهب والاضطهادات التي تعرض اليهود لها في مختلف البلدان الأوروبية ، وخاصة منها المذاهب الروسية عام ١٨٨٢ ، هي التي حفزت مفكرهم إلى الاهتمام بمشكلة الوطن للقومي لليهود ، فقام أحد زعمائهم « ليويسنكر » بتأليف كتاب « التحرر الذاتي » قال فيه « إن العالم يحقر لليهود

(٨٣) محمد راضى ، قضية فلسطين ، ص ٢٢ ، ودع تلحوق ، المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٨٤) الدكتور غير الدين ساطم ، المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٨٥) اليهودية نهر ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٨٦) من محاضرة ألقاها وليد الخالدي في نادي الخريجين ببيروت — راجع مجلة الأسبوع العربي عدد ١٧٩ (تشرين ثلالي ١٩٦٢) .

لأنهم ليسوا أمة ، ولأنهم أجانب في كل بلد يعيشون فيه ، والعلاج الناجع لهذا الداء المستعصي هو إحياء قومية يهودية لشعب يعيش في أرض الوطن ، دون أن يحدد مكان هذه الأرض . على أن اعتنايه فيما يخص فلسطين ، أنه لا ينبغي على اليهود أن يمتلقوا بالمكان الذي زالت منه حياتهم السياسية بعنف . وقد تألفت بعدئذ جمعية أطلقت على نفسها اسم « عشاق صهيون » غايتها الحث على إحياء اللغة العبرية ، والدعوة للهجرة إلى فلسطين ، واستعمار أراضيها ، ولأقت تشجيعاً من اليهود ، وبخاصة من أثريائهم ومنهم البارون « آدمون روتشلد » فاشت على إحسانهم ^(٨٧) .

لم يكن لليهود الصهيونيون على اتفاق — في بادئ الأمر — حول جعل فلسطين لا غيرها الوطن القومي المنشود ، وحتى « ليونسكي » نفسه لم يوص بالإلحاح على هذه الفكرة دون غيرها . كان قسم كبير منهم ، وهم الذين أطلق عليهم اسم « الصهاينة الإقليميون » Sionistes Territoriaux ، يزعمهم الكتاب الإنكليزي المشهور « إسرائيل زنكويل » ISRAEL ZANOWILL ، يرون أن أية بقعة من الأرض سواء أكانت فلسطين أو غيرها تصلح بل يجب أن تخصص لجميع اليهود في وطن قومي ، يتفهم من المنشور ^(٨٨) . كما وقف المشدّدون من اليهود ، وهم الذين أطلق عليهم اسم « الاندماجيون » موقفاً معادياً من إقامة « دولة يهودية » تجمع اليهود في مكان واحد ، وحجّهم في ذلك أن اليهودية دين لا قومية مادام الذين يعتنقونها من أمم مختلفة وهرق متباينة . كما كان بعض أصحاب المصالح في أمريكا لا يرون حاجة لوجود قومية يهودية ، وعارض المجلس اليهودي المناهض للصهيولية في أمريكا فكرة إنشاء « الدولة اليهودية » ^(٨٩) . إلا أن البارون « موريس دي هيرش » مؤسس جمعية الاستعمار اليهودي في لندن ، الذي كان يهتم ، في بادئ الأمر ، بتجسير اليهود إلى الأرجنتين ، والذي وضع كتاباً باسم « روما أو耶رشلليم » ، أثار فيه مواطنيه اليهود في ضرورة العودة إلى « أرض الميعاد » ، وبعت لورشلليم « وطناً قومياً لليهود » ، وغيره من زعماء الصهيونيين كالذكور « نودور هرزل » اليهودي النمساوي الذي يعتبر بحق مؤسس الصهيونية الأولى ، وواضع برامجها ووسائلها ، واعدت أهدافها — بعد أن كانت قبله غامضة الملامح — وصاحب الدعوة إلى إنشاء الدولة اليهودية ، يدوروا يعملون على تعبئة الشعوب القومي لدى اليهود ، ويخططون لتحقيق أهداف الصهيونية .

نشر الدكتور « هرزل » كتابه « الدولة اليهودية » ، الذي دعّيه اليهود (بجمل الدعوة) عام

(٨٧) أحمد زيمر ، القضية الفلسطينية ، ص ٤٢ ، أحمد طربين ، تاريخ قضية فلسطين ، ص ٦٦ .

(٨٨) N. MOUSSALLI, Ibid. p. 21.

(٨٩) أحمد طربين ، تاريخ قضية فلسطين ، ص ١١ .

١٨٩٦ ، وهو في الأصل رسالة موجهة إلى اللورد اليهودي «أدمون روثشيلد» ، وإلى أفراد أسرته الثغية في إنكلترا ، بلغت نظرهم إلى ما يلاقه اليهود «المنكودون» من عذاب وحربان ، ويتمس منهم العمل على انقاذهم بما هم فيه . ثم يكن هرزل ، في بادئ الأمر ، من طلاب العودة إلى فلسطين ، بل كان من الذين يتنادون بالاندماج اليهود في الشعوب الأوروبية التي يعيشون معها ليتخلصوا من الاضطهاد والظلم ، ويختصرهم ليصبحوا جزءاً من العالم المسيحي ، لكن فكرته ، تطورت بعد زيارته لإنكلترا ، والتمسك بزعماء الصهيونية فيها ، فأصبح ينادي بإنشاء الدولة اليهودية^(٩٠) . على أن هرزل لم يعين في كتابه البتة للطلبة ، ولم يحجم أن تكون فلسطين هي مكان الدولة المنشودة^(٩١) ، وإن يكن قد عالج بحال خصص عجيب تفاصيل الحياة الاجتماعية للدولة اليهودية ، كما يريد ، مفضلاً أن يكون نظامها جمهورياً أرستقراطياً ، ولم يهمل مسائل العمل والعمال وساعات العمل ، وغير ذلك كأنه يصنع الدولة اليهودية بيديه لئلا لينة . كما اقترح إنشاء وكالة يهودية للتنظيم والمفاوضات السياسية ، وشركة يهودية تتولى الشؤون الاقتصادية والمالية للحركة^(٩٢) . كان لكتاب هرزل أهمية بالغة في نظر اليهود ، بلغت حد التفديس ، واعتبر هرزل رائداً للصهيونية السياسية الهادفة إلى الحصول على ميثاق دولي يعترف بشرعية المزايم اليهودية ، ويساعد على تنظيم الهجرة . وقد كتب هرزل في هذا يقول «لا نريد أن تسلب كمهريين ، بل نريد أن نشعر بأننا في وطننا الأول»^(٩٣) . وعندما انعقد المؤتمر الذي دعا إليه في مدينة «بال» في سويسرة عام ١٨٩٧ بحضور ١٩٧ مندوباً من أمريكا وأوروبا ونفر من فلسطين ، لاقت فكرة إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين معارضة شديدة لأنها تحرم الصهيونية من تأييد الدول الكبرى ، باعتبار أن هذه الدول أطلساً خاصة في الشرق الأوسط وفي خرواته وموقعه الهام . إلا أن الزعيم الصهيوني الكبير «ماكس نوردو» وهو من مفكرتهم العظام ، اقترح صيغة محكمة جاءت تلائم جميع الاتجاهات والسياسات ، لأنها خالية من كل مدلول سياسي وهي «الوطن القومي لليهود في فلسطين» وكان من شأنها أن تزيل جميع المخاوف والشكوك وتحقق الآمال^(٩٤) وقد عرفت المؤتمر الصهيونية تعريفاً أصبح فيما بعد مدرسياً وهو «ان الصهيونية تنزع إلى خلق وطن

(٩٠) المصدر السابق ، ص ٦٢-٦٣ ، اقتباساً من محاضرات عن قضية فلسطين للأستاذ أحمد الشقوي .

(٩١) هيز بك ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٩٢) أحمد طريون ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ١٣ ، اقتباساً من الشقوي (محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة) ، أكرم زهير ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٩٣) «دكتور نور الدين سامح» ، المصدر السابق ، ص ٦٩ ، عزير بك ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٩٤) أحمد طريون ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ١٥ ، من محاضرات الشقوي .

للشعب اليهودي في فلسطين بضمتها الحق العام^{١٦٦} . وبعد انتهاء المؤتمر وبحشية من اصطدام الآراء ناشد هرزل بعض شخصاته « بتجنب الخلاف والقلق حول الصيغة ، لأن الشعب سوف يقرأ عبارة الوطن القومي على أنها تعني الدولة اليهودية »^{١٦٧} .

وقد أوضح المؤتمر الوسائل التي يجب أن تتخذ لتحقيق الوطن القومي فيما يأتي :

- ١ — تنمية حركة استعمار الأراضي في فلسطين بإيفاد عمال الزراعة والصناعة إليها .
- ٢ — تنظيم العناصر لليهودية وتوثيق الروابط القومية بينها في مختلف الدول وتنمية الوعي القومي لليهودي بين اثنين اليهود .
- ٣ — اتخاذ الإجراءات اللازمة — عند منوح الفرص — للحصول على موافقة الحكومات على تحقيق أغراض الصهيونية .
- ٤ — تأليف لجنة تنفيذية من ٢٣ عضواً بصورة دائمة مركزها « فيانا »^{١٦٨} .

وقد انتخب هرزل رئيساً للجنة التنفيذية . كما رأى أنصار الحركة الصهيونية وجوب العمل على إثارة أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية في بلدان الشرق العربي ، كي يرى الاستعمار في هذه الحركة عوناً وحليفاً له في تنفيذ أغراضه الاستعمارية فسدئ إليها يد العون بالمقابلة^{١٦٩} . وما كانوا يرون أن الوطن الروحي اليهودي المنشود لا يؤسس إلا على مبادئ روحية أخذوا يهتمون بالأمر الأدبية كاحياء اللغة العبرية وتوسيع نطاق التربية والتعليم والشروع بتحضير الوسائل اللازمة لبناء جامعة عبية كبرى في « أرض الميعاد » المزعومة^{١٧٠} .

لم يكد المؤتمر ينهي أعماله حتى بدأ العمل لتنفيذ مقرراته . واعتقد هرزل أن الحالة في الدولة العثمانية — التي واجهت ضغطاً من الدول الأوروبية كي تقرر لسكان اليونان ومختلف دول البلقان الأخرى بحقوقهم في الحرية والاستقلال — مساعدة لتحقيق آمالي اليهود ، وكانوا إلى ذلك الوقت يعيشون على أحسن حال من لوفاق ومن صلات المودة وحسن الجوار مع العرب ، فأخذ يسعى ويجد ، حتى فاز بمقابلة مع السلطان عبد الحميد (١٩٠٦ ، ١٩٠٢) عليه أن يقنع بالتخلي عن

(٩٥) الدكتور نور الدين حاطيط ، المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٩٦) أحمد طرين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ٦٥ ، من محاضرات الشفوي .

(٩٧) محمد زنت بك ، قضية فلسطين ، ص ٢٣ — ٢٤ هـ بك ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٩٨) أحمد طرين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ١٦ .

(٩٩) ج . دي . ف . كور ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

فلسطين لليهود تحت سيادة تركية^(١٠٠)، مقابل أن يأخذ اليهود على عاتقهم جميع ديون السلطنة ، وأن يخفضوا قائمتها من ٥٤٪ إلى ٢٥٪ . وبالرغم من أن العرض كان مغرياً فإن السلطان أفضاه ، أن جل ما يستطيع السحاح به هو أن يمتلك من يهود من اليهود الأراضي في العراق أو كبلجيا أو أي مكان آخر غير فلسطين ، بشرط أن لا يتجاوز عدد أفراد أي مجتمع يهودي في مكان واحد الألف شخص ، وبقيت المفاوضات عند هذا الحد . فلما رأى يهود «الدولمة» أن ثمة جمعة لرجال تركيا الفتاة تعمل في مكودونيا لخلق عيد الحميد دعولوا فيها جماعات ، ونقلوا نشاطها إلى «سلانيك» ، حيث تسكن أكتية إسرائيلية ، وجروا أكثر أعضائها وزعمائها إلى المحافل الماسونية ، وساعدوا الجمعية بأموالهم وبمجربهم ، حتى استطاعت تقويض عرش السلطان^(١٠١) .

وكان بما اتخذته السلطان عيد الحميد لفتح تسرب اليهود ، القادمين من خارج البلاد العثمانية إلى أرض فلسطين واستيطانهم فيها ، أن أوعز بحجز جوازات سفرهم في مخافر الحدود التي يدخلون منها ، وإعطائهم ، بدلاً عنها ، تذاكر مرور فقط ، لا تخولهم الإقامة الدائمة ، وتضيق قوائم بأعمالهم وملاحقتهم ومراقبتهم مراقبة دقيقة ، حتى إذا تجاوزوا المدة المسموح لهم بقضائهم في البلاد عمد إلى إخراجهم منها^(١٠٢) . ومع ذلك لم يأس هرزل ، بل وأصل مساعيه لدى رجال الدولة العثمانية ، وبعض زعماء العرب مشوراً إلى النافع التي تمنحها الدولة والعرب من قنوع اليهود إلى فلسطين ، كما حاول توسط الإمبراطور الألماني لدى السلطان العثماني ، لكن جميع مساعيه باءت بالفشل^(١٠٣) . عندئذ انجذبت جهود الصهيونية نحو إنكلترا — وكانت حركة الهجرة في ذلك الوقت آخذة بالازدياد من شرق أوروبا باتجاه أمريكا — وقد أخذ كثير من المهاجرين باستيطان بلاد أوروبا الغربية التي مروا بها في طريقهم إلى الولايات المتحدة ، ومنها إنكلترا ، فسببت هجرتهم زيادة كبرى في عدد اليهود في بريطانيا ، مما أدى إلى توتر عصري ، وردة فعل من المواطنين البريطانيين ، وخاصة منهم اليهود ، فاضطرت الحكومة إلى تأليف لجنة برلمانية لدرس قضية الهجرة اليهودية إلى بريطانيا عام (١٩٠٢) . وكان اللورد بلفور قد تولى رئاسة الوزارة في السنة نفسها . وعندما أعطت اللجنة قرارها ، ومن ضمنه تقييد الهجرة اليهودية ، حصل جدال حول هذا الموضوع بين الحكومة والمعارضة التي ترأسها الشر

(١٠٠) محمد رقت بك ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(١٠١) O.E. ATILHAN, *Ibid.*, pp. 49-51; N. MOUTRAN, *Ibid.*, pp. 142-143 .

(١٠٢) C.R. ATILHAN, *Ibid.*, pp. 47-48 .

(١٠٣) أحمد طرين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ١٨ - ١٩ .

ونستون تشرشل منطلقاً عن حقوق اليهود ، وهو جيمس هـ بلغور ، الذي دافع عن قرار اللجنة ، وأهم باللاسامية وبالعداء للشعب اليهودي بأسره . وفي سبيل إيجاد حل لهذه الأزمة قدمت بريطانيا لليهود عرضين (١٩٠٢ — ١٩٠٤) :

- ١ — إنشاء وطن قومي يهودي في سيناء حتى العريش .
- ٢ — إيجاد وطن قومي يهودي في يوغندا في إفريقيا الشرقية وكانت تحت الاستعمار البريطاني .

ومن هنا يتضح أن مساعدة إنكلترا لليهود ليست قضية عطف وحسب ، بل أيضاً رغبة منها في تخفيف الضغط على بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية ، بالإضافة إلى المنافع الاستراتيجية التي يعم بريطانيا في منطقة الشرق العربي^(١٠٤).

قبل المؤتمر الصهيوني السادس العشرين مبدئياً وأُرسل لجنة إلى يوغندا لدراسة أحوالها فيما إذا كانت تصلح للغة المنشودة ، لكن الدراسات التي أجريت حولها وحول سيناء دلت على عدم صلاحتهما وطناً قومياً لليهود ، فرفضاً من قبل المؤتمر الصهيوني الذي عقد سنة ١٩٠٤ ، تلك السنة التي توفي فيها الزعيم هرزل ، ففقدت الصهيونية بفقدانه عقلها المفكر وساعدها المدبر ، إلى أن ظهر الزعيم الصهيوني الدكتور هـ حاييم وايزمن ، وهو يولوي الأصل ، استوطن بريطانيا ، وتعرف سنة ١٩٠٦ في مانشستر — حيث كان يعمل أستاذاً للكيمياء في جامعتها — بالسير «أثر جيمس بلغور» المار الفكر ، وبسط له سبب رفض اليهود لمشروع «يوغندا» بأنه ناشئ عن عقيدة دينية ، باعتبار أن هذا الاعتقاد الديني العميق ، المعبر عنه بمصطلحات سياسية ، يوجب أن تكون فلسطين بالذات هي الوطن المنشود قائلاً : «لو أن موسى حضر المؤتمر الصهيوني السادس ، الذي أنهى قرار لإنقاذ لجنة إلى يوغندا ، لكان حتماً قد حطم الألاع مرة أخرى»^(١٠٥) . كما اتفق وايزمن مع الزعيم الصهيوني البارز هـ آحاد هاعام — الذي وقف بعناد معارضاً لمشروع يوغندا — على وجوب توجيه الحركة الصهيونية نحو فلسطين . ولم يلبث الزعيمان أن تمكنا من تحويل آمال اليهود نهائياً وبشكل حاسم نحو فلسطين دون سواها^(١٠٦) . وهكذا تبلورت القضية الصهيونية في غالبيتها النهائي متخذة الدوافع الدينية توكأ لها لاستمرار العطف العالمي — لاسيما قد لقيت من الدافع الإنساني الناشئ

(١٠٤) وليد الحلاوي ، المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(١٠٥) أحمد طرين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ٢٢ ، اقتباساً عن كتاب وايزمن المسمى «Trial & Error» .

(١٠٦) ربيع الحرق ، المصدر السابق ، ص ٢٣ — ٢٧ أحمد طرين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ٢٠ — ٢٩ .

عن الاضطهادات الصهيونية رافداً لها — يتناهي عن غرضها أسباباً واقعية مختلفة المظاهر ، منها ما هو سياسي واستراتيجي واستعماري واقتصادي^(١٠٧) .

غير أن قيام ثورة ١٩٠٨ التركية ، وتسلم الاتحاديين سدة الحكم بما عرف عنهم من محاربة القوميات ، واتباع سياسة صهر العناصر العرقية في البوتقة التركية ، كاد أن يسقط في أيدي الصهاينة ويحبس آمالهم التي عقدوها على رجال تركيا الفتاة ، فتوشك أمانيتهم في الوطن للمفوس أن تنهار ، لذلك اقتصر نشاطهم في بادئ الأمر على بذل الجهود الفردية لمساعدة الفقراء والألاجئين منهم على الإقامة في فلسطين ، وإنشاء مراكز زراعية لهم يملأها أغنياء اليهود^(١٠٨) . ذلك أن الصهيونيين عندما أدركوا إخفاق وسائلهم السياسية المنظمة وجب عليهم أن يغيروا طريقة السعي بالبحث عن الوسائل العملية التي تكفل الوصول إلى الهدف دون انتظار منحهم ميثاقاً شكلياً ، وضخوا في مؤتمر ١٩١١ ، ١٩١٢ سياسة تقول بفتح فلسطين عن طريق شراء الأراضي والهجرة الفردية المنظمة على مقياس واسع ، وفكروا بأنه من المستطاع ، متى رسخت أقدامهم بقوة في أرض فلسطين ، تسوية وضعهم بالحصول على اعتراف الدول بالأمر الواقع ، بعد أن يكونوا قد أمتوا لأنفسهم أكتية السكان وتولكروا الأرض^(١٠٩) . وقد تكلمت جهودهم هذه بالنجاح بفضل ما كان لهم من نفوذ في أوساط جمعية الاتحاد والترقي وحكومتها . ثم تدرجت مساعيهم إلى مفاوضات الباب العالي الذي كان قد ناير — بعد الثورة — على الإجراءات المانعة لتسرب اليهود إلى فلسطين ، ويظهر أن الاتحاديين قد أظهروا شيئاً من التراخي معهم ، خاصة وأن كتبيين من اليهود «الدوثة» كانوا من الأعضاء البارزين في الجمعية المذكورة ، وأشهر هؤلاء وزير المالية «جايهد بك» الذي حشد في وزارته عدداً كبيراً من المولطمين اليهود .

ولم يكن النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني يوافقون عن توليها الصهيونية الماكرة ، فعما إن عرفوا بتسرب بعضهم إلى مرج عامر — وشراهم الأراضي على نطاق واسع ، وإقامتهم فيها مستعمرات زراعية يهودية^(١١٠) ، واستعمالهم طوابع برندية خاصة بهم تحمل صور هرزل وماكس نوردي ، يلصقونها على رسائلهم المتداولة عن طريق مكاتب البريد الأجنبية ، وإقامتهم في البلاد المقدسة أندية ومحاكم

(١٠٧) ولبد الخالدي ، المصدر السابق ، ص ١٢ .

(١٠٨) محمد رفعت ، المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(١٠٩) الدكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(١١٠) جان بيجون ، بواصت الحرب العالمية الأولى ، ص ١٢٠ .

تحكم بغمر القضايا الجنائية ، وهم أعلام يرفعونها في أعيادهم وأنشيد بنشدتها في مناسباتهم القومية^(١١١) - حتى يبادر زعماء للعرب في المجلس التلياني التركي وخاصة منهم النائبان شكري العملي (نائب دمشق) ، وروحي الخالدي (نائب القدس) إلى كشف عطرهم ، وأثاروا القضية في المجلس واشترك في المناقشة أحد النواب اليهود « مزياح أفندي » منادياً عن بني جنسه ، عرضاً للحكومة على النواب العرب الذين حمسوا النقاب عن تسرب لليهود إلى البلاد ، ولزدهاد عددهم إزدهاداً مقلعاً ، وأبرز النائب روجي الخالدي رسالة بتوقيع الزعيم الصهيوني « ارشكي » الملقب بالأمير اليهودي ، فيها يبين الوسائل التي تؤدي إلى بلوغ الهدف القومي الصهيوني ، كما قررت في مؤتمر ١٨٩٧^(١١٢) . فاضطرت الحكومة إلى اتخاذ قرارات وتدابير كفيلة بمنع تسرب الأراضي إلى أيدي اليهود^(١١٣) .

لكن الصهاينة لم يعرفوا للباس معنى ، فما إن نشبت الحرب العامة حتى يبادروا إلى توسيط الإمبراطور عليهم الثاني ، عاهل ألمانيا ، لدى الحكومة العثمانية ، فكلم الإمبراطور الوزير التركي طلعت بك في موضوع إعطاء فلسطين لليهود . وكان مما اصطفتته الصهيونية من وسائل الإغراء أنها صوّرت للاشتراك حاجتهم الماسة إلى وجود قوة من شأنها أن توازن قوة الحركة القومية العربية لاضعافها ، وإن اليهود مستعدون لكي يشكلوا هذه القوة المواتية للاشتراك في فلسطين ، وأعلن الزعماء الصهاينة عن استعدادهم لصيغة قرعة يهودية بولندية للدفاع عن فلسطين ، وعن إمكانية إسهام الأموال اليهودية في مساعدة الدولة العثمانية على تخفيف الأثمة المالية التي تعانيها ، كما أعلنوا للحكومة الألمانية عن استعدادهم لجعل فلسطين جيل طارئ تركي - ألماني . فعرض طلعت بك المشروع على مجلس المبعوثان التركي الذي غابله بالرفض^(١١٤) . وهكذا حل بالقضية الصهيونية حتى أوائل أيام الحرب وجود تام ، إذ إن جميع عارلات زعمائها باءت بالفشل وبدأ عدد المؤمنین بها بالتناقص ، لأن الفكرة بدأت تظهر لأعينهم وكأنها حلم خيالي عقيم^(١١٥) .

(١١١) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٢٩ .

(١١٢) راجع كتابي السابق : العرب والترك ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤ .

(١١٣) H. MOUSSALLI. Ibid. p. 45.

(١١٤) أحمد طرين ، لروح القضية الفلسطينية ، ص ٢٢ - ٢٣ ، من كتاب حقائق عن قضية فلسطين ، من منشورات اللجنة العربية العليا .

(١١٥) نجيب صدقة ، قضية فلسطين ، ص ٨ .

لكن زعماء الصهيونية كانوا أحذق من أن يستسلموا لهذا الجمود ، فسرعان ما استغلوا ظروف الحرب ونقلوا مكائهم إلى عواصم الدول المحايدة ، وخاصة إلى نيويورك التي ركزوا جهودهم ونشاطهم فيها ، لأن لهم في أمريكا بضعة ملايين من اليهود بينهم عدد كبير من رجال النولة العظام ، ومن أصحاب الأعمال الكبرى^(١١٦) . ولكنهم لم يعملوا لندن التي جعلوها المحور الذي تدور فيه المفاوضات الصهيونية — الإنكليزية في سبيل تحقيق حلمهم التاريخي ، ذلك أنهم بعد أن رأوا ألمانيا — التي كانت عند بدء الحرب مركزاً لنشاطهم — تدخل الحرب وجدوا أن من المفيد لقضيتهم أن يستميلوا الحلفاء ، حتى إذا أدت الحرب إلى انبيار الإمبراطورية العثمانية وتفككها ، ضعنوا لمطالبهم أن تلقى آذاناً صاغية^(١١٧) . ولما لم أن الجور أصبح أكثر ملازمة لتحقيق مبادئ الزعيم هرزل بالحصول على الدعم السياسي للقضية الصهيونية وبالتالي على الميثاق الدولي المنشود .

لم تظاھر الصهيونية ، قبل عام ١٩١٧ ، أياً من الغريقتين المتحاربتين ، فقد كان ممثلوها بغاوضون الأتراك والألمان ، كما بغاوضون الإنكليز والأمريكيين ، وكان كل من المعسكرين المتحاربين يسابق الآخر إلى عتطب ودهم بفضل ما تحير الصهيونية ورواها من قوى يهودية عالمية مادية وأدبية^(١١٨) . وقد ظفر الصهيونيون بفضل الضغط الألماني — النمساوي على الأتراك ، وتوسط السفير الأمريكي المستر هنري مورغنثو ، اليهودي ، لدى الباب العالي — وقد جاء في تصريح له سنة ١٩١٦ بأنه نصح الحكومة التركية ببيع فلسطين لليهود ، بعد نهاية الحرب ، وأن الوزراء العثمانيين وافقوا على ذلك ، وناقشوا مسألة جعل فلسطين جمهورية ، وأنهم استعرضوا بمجد مسألة إرسال «حاييم تاحوم» الخاخام الأكبر اليهودي في تركيا سفيراً لهم إلى الولايات المتحدة^(١١٩) . ظفروا بوعده من الحكومة العثمانية بأن يسمح لليهود ، بعد نهاية الحرب ، بإنشاء شركة ذات امتيازات واسعة تتولى تسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين . ولكن بدخول الجنرال اللهي إلى فلسطين قبل أن يصدّق الوعد نهائياً من قبل الحكومة التركية لم يبق له أية قيمة بنظر اليهود ، فأهمل ، وخاصة وأنهم كانوا في حينها قد حصلوا على تصريح بالفور ، أما كيف تحقق لهم ذلك فسيمائل بعض التفصيل عنه .

(١١٦) محمد روضت ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(١١٧) أنطونينوس ، المصدر السابق ، (ترجمة الزكاي) ، ص ٢٨٦ .

(١١٨) نعيم صنف ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(١١٩) CORRESPONDANCE D'ORIENT, (10/6/916) p. 47 .

كان زعماء اليهود البارزون على اتصال دائم — في أثناء الحرب — برجال الحكم في إنكلترا، فاستطاعوا بما لهم من مركز اجتماعي ممتاز — ومعظمهم من عليّة القوم، كاللورد أدسون ورتشلد الثوري الشهير، والمذكور وايزمن، ونعوم سوكولوف للسياسي الملقب، ونجدة مخفّرة من الكتّاب والصحفيين ورجال السياسة، كالستر هربرت صموئيل ولانغن وكوهن وسائير — أن يُحلوا المسألة الصهيونية المحل المرموق في نظر المسؤولين الإنكليز، ويكسبوا عطف الحكومة الإنكليزية وثقتها وحدها على أمانى اليهود القومية.

بدأت المصادمات غير الرسمية بين زعماء الصهيونية وبعض الوزراء الإنكليز منذ تشرين الثاني ١٩١٤، بمقاومة جرت بين السير هربرت صموئيل (اليهودي) ورئيس مجلس الحكومة الوطنية في حكومة اللورد «اسكوت» رئيس الوزارة، والسير إدوارد غراي وزير الخارجية (سلف اللورد بلفور)، وبأخرى جرت بين المذكور وايزمن واللورد بلفور. قال صموئيل لغراي «قد تخلف هذه الحرب قريبا مناسبات عديدة لتحقيق مطالب اليهود في إقامة دولة يهودية في فلسطين، فإن تحققت هذه المطالب على يد بريطانيا كسبنا عطف الملايين من اليهود المنتشرين في جميع أقطار العالم، وأوجدنا على مقربة من مصر ومن قناة السويس دولة جديدة موالية لنا». فوعد اللورد بتأييدها إن سمحت الظروف. وبما سأله اللورد غراي عما إذا كان الصهيونيون يكتفون بفلسطين أم يطالبون بسورية بأجمعها، أجاب بأن القناعة الأولى، لأن في سورية، «مدنا كبروت ودمشق نكثر فيها العناصر غير اليهودية بحيث يصبح من الصعب تمثيلها، ولكن من رأي الصهيونية أن تقوم في المناطق السورية الأخرى دولة أوروبية كفرنسا مثلاً. وأما فلسطين فلا يحسن منحها الاستقلال السياسي في الوقت الحاضر لأن أكتية سكانها من غير اليهود، وأن الأفضل أن نوضع تحت الحماية البريطانية». ثم اجتمع بالمستر لويد جورج وحده في الموضوع، فرأى لويد جورج أنه جدير بالاهتمام ولكنه تحفظ في إبداء رأيه بعراحة. وفي كانون الثاني ١٩١٥ كتب هربرت صموئيل مذكرته عن «مستقبل فلسطين» ووزع نسخاً منها على زملائه أعضاء الوزارة، وبعض النواب وذوي النفوذ، وعرض فيها مشروعاً لتأسيس دولة يهودية في فلسطين تحت إشراف بريطانيا، يأوي إليها بضعة ملايين من اليهود المنتشرين في أوروبا^{١٢٠}.

في الواقع تلاقت أهداف الصهيونية بالمطامع البريطانية، ومخططاتها في الشرق الأوسط، لقاءً

(١٢٠) نجيب صدقة، المصدر السابق، ص ٢١ — ٢٢.

أسفر عنه «تصريح بلفور». ذلك أن السياسة الإنكليزية في مصر كانت ترى أن التحكم في شؤون القطر المصري لا يتم إلا إذا اتخذت بلاد الشام قاعدة دفاعية، وأن شبه جزيرة سيناء لا يمكن أن تضي بالغاية المرجوة. وهكذا ووفقاً لهذا التخطيط أقر اللورد غراي ولويد جورج في العام ١٩١٥ المشروع الذي وضعه القيادة العليا في مصر، والقاضي بغضم فلسطين إلى الإمبراطورية. لكن سياسة الحكومة الإنكليزية الماكرة رأت أن من الحكمة أن تخفي هذه الخطة وراء ستار إنساني، ذلك أنها وجدت في المطالب، التي انبثقت عن المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال (١٨٩٧) لإنشاء الوطن القومي الصهيوني في فلسطين، الذريعة الملائمة. فاستعملت كل ما أوليت من مكر ودهاء كي لا تنص اتفاقيات ساكس-بيكو إلا على إنشاء إدارة دولية في فلسطين، ووقفت أمام مطالب الفرنسيين في السيطرة على عموم البلاد السورية بما فيها فلسطين^(١١١). غير أنها لم تشأ أن تبذل عطاياها هذا دون مقابل من منفعة آتية تخدمها في الحرب القائمة، ذلك أن الحلفاء كانوا بحاجة إلى أن يدعمهم اليهود، بما يمتلكون من قوى سياسية وأدبية، وخاصة في الولايات المتحدة التي كان بإمكانهم أن يدفعوها إلى تبني موقف ملائم للحلفاء^(١١٢). وهي (إنكلترا) وإن كانت مستعدة لإظهار عطفها الشديد على أمنهم، وعزمها على تحقيق رغباتهم، إلا أنها أخذت تساورهم كي تكسبهم إلى جانبها، فأخذت تنويع لهم بالمصاعب التي تقف في وجه مطالبهم، وغايتها أن يلقوا بأنفسهم في أحضانها فتستعين بهم في السيطرة على فلسطين، وإلغاء تدويلها، لتحقيق بذلك غايتها وغايتهم.

لم تكن بريطانيا لتجهل أن في ألمانيا والعسا عناصر قوية من اليهود تعمل لدى الدول الوسطى، وتتفاوضها فعلاً لإصدار وعد تركي شبه «تصريح بلفور»... كما مر معنا. وأن في روسيا عناصر أخرى منهم متخلفة في النظام القيصري، وأن من الضروري أمنائها وجعلها تعمل في سبيل استمرار مساهمة روسيا في الحرب^(١١٣). هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنها رأت من الضروري أن تخفف من عداة اليهود الفاعلين في بلاد الحلفاء نحو روسيا، التي يقفون موقف التحفظ من الحلفاء بسببها. وعليه فإن إجابة مطالبهم لما يتفق وسياسة الحلفاء العامة. لذلك شرعت

(١٢١) (١٢١) P. LYAUTRY, Ibid. p. 209; كارل بروكسن، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٠٢.

(١٢٢) المفكر تيرلان، المصدر السابق، ص ٧١.

(١٢٣) G. ANTONTUS, Ibid. p. 261.

حكومات الحلفاء تتذكر فيما بينها حول مطالب الصهيونية ، وقد مهدت لها اتصالات زعماء اليهود الفردية مع الشخصيات البريطانية البارزة طوال عام ١٩١٦ .

رأت بريطانيا أن تستمرج رأي حليفها روسيا في الموضوع ، فأرسلت إليها في ١٣ آذار ١٩١٦ مذكرة بينت فيها أن إجابة مطالب الصهيونيين يكسب الحلفاء تأييد اليهود في الولايات المتحدة وفي أوروبا الشرقية ، وأنها ترى من المواقف القيام بعمل برصهم ويحصلهم على مساعدة الحلفاء ، وذلك بالاعتراف لهم بحق إدارة شؤون فلسطين الداخلية ، حالما يصبح عددهم فيها كافياً ، منوعة بأن تمثيل فلسطين بلانقي معارضة شديدة من قبل أكتية اليهود . كما أصدرت المنظمة الصهيونية — من جهتها — بياناً رسمياً عن وجهة نظرها في مستقبل الحكم في فلسطين ، وقد طلبت فيها الإعراف لها بإنشاء شركة يودية تعمل على إعمار فلسطين بواسطة المستعمرين اليهود ، تُعطي حتى الأولوية في شراء الأراضي ، وتطلب الاعتراف بأن يهود فلسطين يشكلون وحدة قومية مستقلة . وباعتبار أن السكان الحاليين (أي العرب) قليلو العدد ، وأهل فقر وفاقة ، وقسطنهم من العلم تحليل ، وتوعياً فتقدمهم تقدماً سريعاً ، فلا بد — وهذه حالهم — من إرثفهم بمصر جديد آخذ يفسط وانر من التقدم والرقى ، فوافق إلى وقف ماعنعه من جهود وولفس أموال على الإعمار ، وفق المنوال الحديث^(١١٦) .

وعلى أثر تقديم هذا البرنامج اغلقت الاجتماعات — منذ تشرين الأول — صفة أكثر رسمية . علماً بأن الحلفاء كانوا آخذ في ضيق ملموس : جهود حربي في الجبهة الفرنسية ، اشتداد خطر الغواصات في البحار المحيطة بالحلفاء ، وضع عام غير مرضٍ بتزايد خطره باضطراب ، اندحار الإيطاليين في موقعة كابريونو ، سحق الجيش الروسي^(١١٧) . باختصار كان الحلفاء — والقلق مستحوذ على نفوسهم — يتلهفون على تدخل أمريكا ، في حين أن الاتصالات معها لم تحقق كثيراً من الآمال المتعددة عليها . ولم يبق لإنكلترا إلا الاستجداء بنفوذ اليهود في الولايات المتحدة . لكن التقاير التي علقها من أمريكا كانت تشير إلى ميول قوية موالية للألمان لدى كبار أبواب البنوك الأثرياء من لليهود ، واليوتات المالية الكبرى ، ومعظمهم من أصل ألماني ، ولدى الصحفيين اليهود

(١٢٤) لجيب صنفه ، المصدر السابق ، ص ٢٢ — ٢٣ .

(١٢٥) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

الذين يعملون بإيعاء منهم ، مما جعل البعثين اللتين أرسلتهما فرنسا وإيطاليا إلى أمريكا ، تحققان في مهمتهما ، ذلك أن الاضطهادات الروسية لليهود قد تركت أثراً عميقاً عند يهود أمريكا^(١) .

غير أن توسط « جيسس مالكولم » الإيراني الجنسية الأرميني الأصل ، وعضو الوفد الأرميني القومي الذي عهد إليه بتولي مصالح الأرمن إبان الحرب وبمدها — وكان مركزه لندن — والذي كان له صداقات قوية وعريقة مع اليهود ، قد هون الأمر ، فالتصل بالسرم مارك سابكس ، وأفهمه الطريقة التي يُستطاع بها كسب اليهود الأمريكيين إلى جانب الحلفاء ، وبته إلى أن أثمرت الجهود وساعدتهم الموجودين في إنكلترا ليسوا الزعماء الحقيقيين للشعب اليهودي ، كما نيه إلى أهمية الحركة الصهيونية ، ووجوب استرضاء هذه الحركة بمنح فلسطين لليهود . ثم استعرضا وقوف اتفاقية سايكس — بيكو (في محاولة لإلغاء تدويل فلسطين ولم يجب بعد مداد المعاهدة) عقبة كَثُود في سبيل استالة اليهود إلى جانب الحلفاء واحتمال رفض الحلفاء لها . ثم اتصل سابكس بالشخصيات البريطانية البارزة ، وحصل على وعد منهم بأن يحول مالكولم مفاوضة اليهود — باسم الحلفاء — على أساس إعطائهم فلسطين وطناً قومياً لهم ، لقاء مساعدتهم الحلفاء بنقودهم لدى الولايات المتحدة ، باعتبار أن فلسطين هي ثمن التأييد اليهودي . واتفقا على وجوب تذليل ما يمكن أن يعترض المسمى من عقبات من قبل فرنسا والقائمان ، الذي يمكن أن يعارض أي مشروع يهدف إلى وضع الأماكن المقدسة المسيحية تحت سيطرة اليهود .

وشرع مالكولم بالعمل يادئاً بالاتفاق مع المستر غرينبرغ (اليهودي) ، رئيس تحرير جريدة « الجوش كرونيكل » *Journal of the Jews* ، الذي جمعه بالدكتور وايزمن^(٢) ، وكان هذا قد انتقل من مانشستر إلى لندن ، وشرع يعمل في اختراع المتفجرات للأموالية ووزارة الداخلية ، وبالمنشر سوكولوف وبغيرها من الزعماء اليهود ، وأبلغتهم ما كلفته به وزارة الحرب البريطانية . وبعد أن استوتى الدكتور وايزمن منه بأن الحكومة تعزم بصورة جديدة أن تدعمهم بفلسطين ، مقابل ما تعطيه من مساعدة يهود أمريكا صافحه ، وطلب منه أن يجمعه بالمستر سابكس . وفي اليوم التالي جرت مقابلة

(١٢٦) مجلة المرائد العربي (المجلد ٢١ — شهر تموز ١٩٦٢) وثيقة تلويحية بقلم جيسس مالكولم ، ص ١٦ .

(٢) من وصف وايزمن للسرم ماركس سابكس أن تفكيكو غير منطقي ، ولكنه كريم طيب القلب . وأن له الفضل في نقل نشاط الصهيونية إلى الصعيد الرسمي عندما كان سكرتيراً لوزارة الحرب ، معترفاً بأنه لولا مشورة رجال مثل مارك سابكس ولورد سيسل لانداف للصهيونيين بعض الخطات في الاتصال بالمراجع السياسية (أحمد طرين : لرفع القضية الفلسطينية ، ص ٢٧ — لقلاً عن وايزمن نفسه في كتابه (الحق والحطأ ، ص ٢٢٩) .

بين سايكس (بعض خاص من السير موريس هانكي سكرتير المجلس الوزاري الحربي) وبين زعماء الصهيوين: نعم سوكولوف، وغيتو، واللورد ريتشلد، وهربرت صمويل - ولم يكن بينهم وبينه لمشاغله في وزارة الحرب^(١٧٧). وأسفرت المقابلة عن نتيجة مرضية، وكانت الخطوة الأولى لإبلاغ الزعماء الصهيوين في جميع أنحاء العالم بنتيجة الاتفاق المبدئي، وقدم سايكس تسهيلات خاصة لإرسال البرقيات، ومنها برقية خاصة مسهية أرسلت فوراً إلى المزعيم الصهيوني القاضي لويس براندس، الصديق الحميم للرئيس ويلسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة، الذي يحمل آراءه غاية الإجلال، بالشفعة عن طريق وزارة الخارجية. كما جرت محادثات أخرى في مختلف وزارات الدولة، شهدتها الدكتور وايزمن، دارت كلها بمعرفة اللورد موريس هانكي، سكرتير مجلس الوزراء الحربي، وأسفرت عن تفاهم عام أطلق عليه اسم «اتفاق المهذبن» (الجاهلتمان)، وهو يقضي «بأن يعمل الصهيويون لضمان عطف اليهود الفعلي على قضية الحلفاء، وتأييدهم لها، ولا سيما في الولايات المتحدة، وذلك لتحقيق اتجاه مهال إلى الحلفاء في الولايات المتحدة، وأن تقوم الوزارة البريطانية بمساعدة اليهود في التورق بفلسطين مقابل ذلك»، وعلى الأمر انطلقت المفاوضات إلى غرفة السير مارك سايكس في وزارة الخارجية التي أصبحت إليها القضية من وزارة الحرب لاتخاذ الإجراءات اللازمة بصدد^(١٧٨)، فاتفقت بذلك صفتها الرسمية.

في الواقع كان للبرقيات المرسلة إلى الجاليات اليهودية، سواء في روسيا أو البلاد المجاورة، أثرها في تقوية المعطف على الحلفاء عند اليهود في كل مكان. وحتى نعصوم الصهيونية لم يسع بعضهم إلا إبداء التأثير عند اطلاعهم على البرقيات المتضمنة الوعد المبدئي بإعطاء فلسطين لليهود قائلين «كيف يمكن لليهودي أن يرفض مثل هذه الهدية». كما كان «الجدديون» في إيران وهم يشبون يهود «الدعوة» في سلتيك، أي ينظاهرون بالإسلام، على وشك اعتناق الإسلام جماعة، وعندما سمعوا بهذا الاتفاق وبعده بتصريح ينفور، عطلوا عن قرارهم^(١٧٩).

ثم تاملت الاجتماعات بين السير مارك سايكس وزعماء الصهيونية المار ذكرهم، بالإضافة إلى آخرين، كالدكتور تشينو والمستر ساكر والدكتور هاسنر والدكتور وايزمن، ولم يكن هذا الأخير ليكرس كل وقته للقضية بسبب أعماله الكيميائية، كما لم يكن آنذاك عضواً في اللجنة التنفيذية

(١٧٧) الزائد العرق، وثقة جيس ملكوم، ص: ١٢٦-١٢٧.

(١٢٨) المصدر السابق، ص: ٧.

(١٢٩) المصدر السابق، ص: ١٧.

الصهيونية، فشهد إلى المستر سوكولوف بمواصلة المحادثات مع سايكس بالنيابة عن الزعماء الصهيونيين، لكنه لم يكن ليخفل عن التمسك الفرص السانحة للوصول إلى الغاية المنشودة. وهو يحكم اشتغاله في اختراع المتفجرات لوزارة الداخلية قد خدم القضية خدمة كبيرة. فعندما وقع الإنكليز في ضيق من حيث صعوبة استيراد مادة «الأميتون» (الخلطون) من أمريكا التي زاد التجار في أسماؤها، وطالبوا بالتمسك مبلغاً، أُتيح للمستر لويد جورج من منصفه باستقدام الدكتور وايزمن، بوصفه أستاذاً جامعياً ممتازاً للكيمياء، ومخلصاً قائم بالإخلاص لقضية الحلقات، «لما الشيء الوحيد الذي يملك له هو قضية الصهيونية، وبقيته بأن الشيء الوحيد الذي يوحي ببعض الأمل لشعبه هو انتصار الحلقات». فاستدعاه وكلفه بالعمل للحصول على هذه المادة، فقبل واستطاع استخراج الأميتون من بعض الحبوب مثل اللوز وجوز الهند. يقول لويد جورج في مذكراته بهذا الصدد «وعندما تغلبنا على المصاعب التي اعترضتنا بفضل عبقرية وايزمن، قلت له: لقد أدبت خدمة عظيمة للدولة، لذلك فاقض سألط من رئيس الوزراء أن يقترح منحك وساماً، وعندئذ أجابني قائلاً: أنا لا أطلب شيئاً لنفسي فقلت له: أليس من شيء نستطيع أن نرد به الجميل الذي أسديته للدولة بمساعدتك القيمة هذا؟ أجاب: أجل أريد منكم أن تفعلوا شيئاً من أجل شعبي. وأخذ يشرح لي آماله بعودة اليهود إلى الأراضي المقدسة وجعلها وطناً قومياً لهم». ويضيف لويد جورج بأنه بعد استلامه رئاسة الوزارة — إثر استقالة وزارة المستر اسكويث (كانون أول ١٩١٦) ولم يكن هذا ميالاً إلى العطف على آمال الصهيونية — بحث الموضوع ملياً مع المستر بلפור ونهر الخارجية الجديد، الذي تأثر تأثراً بالغاً بحديثه معه عن العمل الذي قام به الدكتور وايزمن. يقول لويد جورج بعدئذ «وحيث كنا راغبين في أن يكون اليهود منذاً لنا لدى الدول المحايدة، لاسيما أمريكا، فقد كلف الدكتور وايزمن بأن يكون على اتصال مباشر مع وزارة الخارجية»^(١٢٠).

وكان ممن قدموا العون الكبير لنجاح المفاوضات المستر فيتس موهس، المترجم ذو الشهرة العالمية للسفارة البريطانية سابقاً في الآستانة، وإليه يرجع الفضل في كسب الفريق السير هنري ويلسن، رئيس أركان حرب الإنمراطوية، والفريق السير جورج مكينون مدير المخابرات العسكرية وغيرهما ممن ساهموا في العمل. وكان مما عرضه المذكور وجوب الحصول على موافقة الحكومتين الفرنسية والإيطالية وتأيد الفاتكان. أما روسيا فلم يكن يتوقع أية متاعب من قبلها، فيما إذا وافق الآخرون على المشروع، خاصة وأنها كانت قد وصلت آنذاك إلى حد الإحلال. هذا الفرض اتصل

مالكولم بالسو جورج يكو ، الذي أصبح إبان الحرب يشغل منصب مستشار السفارة الفرنسية في لندن ، وكان كثير التفهم لقضية الأرمن واليهود ، وشهد العطف عليهما ، وكان على استعداد لتقديم ما يستطيعه من عون ، لكنه كان يعتقد بوجود صعوبة واحدة كبرى وهي أنه ، باستثناء البارون أدمون دي روفشيلد ، فإن جميع اليهود البارزين في فرنسا كانوا متناولين للصهيونية ، وكانوا يسخرون من الفكرة القائلة بذهاب عدد من اليهود إلى فلسطين ، ويعتقدون أن الصهيونية فكرة مثالية طوباوية تسلطت على عقول بعض اليهود الأوروبيين الشرقيين المنعصين . فكان على مالكولم أن يستأصل هذا الاعتقاد من ذهن « جورج يكو » فاستطاع ذلك ، وحصل منه على وعد بالمساعدة ، ثم توجه إلى باريس لبحث القضية مع المسيو « غوت » Gout ، وكبيل وزارة الخارجية الفرنسية للشؤون الشرقية آنذاك ، وكان وديق الصلة باليهود الفرنسيين ، واجتمع به في حين كان يهود فرنسا الثمن يتلهم « الاتحاد الإسرائيلي » العالمي ذو النفوذ الكبير ، والمسيو « بينارت » سكرتير هذا الاتحاد ، يدلون كل جهد لتعظيم المشروع الصهيوني .

على أن استقالة « اسكويت » من رئاسة الوزارة واستلام « لويد جورج » مكانه قد خدّم القضية ، لأنه كان أكثر حدياً عليها ، فاستطاع مالكولم مع سايكس من الحصول على تأييد بكل سهولة^(١٢١) ، بينما زار الدكتور وايزن ووزارة الخارجية البريطانية رحيماً ، وأبدى لللويد « بلفور » قلقه مما يجمعه عن معاهدة سرية (سايكس — يكو) عقدت بين الحلفاء تمنح فرنسا بموجبها القسم الشمالي من فلسطين ، وطالب بأن توضع فلسطين تحت الحماية البريطانية ، فأشار بلفور بأن يتصل الصهيونيون بالحكومتين الفرنسية والإيطالية وأن يحملوهما على تأييد مطالبهم^(١٢٢) . عندئذ كلف المستر سوكولوف باللهاج إلى باريس لهذا الغرض ، والتحق به مالكولم في باريس (بموافقة وزارة الخارجية) ، فاتصل الأخير بالمسيو استيفان ميشون وزير الخارجية والمسيو دي ماريجري وجورج يكو . وما إن علم أعضاء الاتحاد الإسرائيلي في فرنسا ، وأمين سره المسيو « بينارت » ، بقدم المسر سوكولوف وبالوعد المضروب له لقابلة السياسيين الفرنسيين المسؤولين حتى دب فيهم النشاط وحاولوا المستحيل — بما لهم من نفوذ كبير في الأوساط الرسمية — لاحتياط مباحثاته معهم . لكن مالكولم استطاع — بما بذله من القوة والكلمة عليهم — أن يجعل مساعيهم عقيمة . ولم تكن معارضة هؤلاء ناجمة فقط عن حبهم لوطنهم فرنسا ، بل أيضاً عن خوفهم من أن يؤدي قيام وطن

(١٢١) مالكولم ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٢٢) غيب صديقة ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

قومي لليهود في فلسطين إلى التأثير على مركزهم السياسي في فرنسا ، كان هذا الحافز نفسه كذلك هو السبب في اشتداد معارضة اليهود من أصحاب النفوذ في إنكلترا^(١٣٣).

وبعد أن أمضى سوكولوف فترة وجيزة في باريس ، فاز خلالها بموافقة الكمي دوريه ، وكان من جملة الحجج وأقوالها التي تدرع بها ، ما ينتظره الحلفاء - لقاء لإرضاء مطالب اليهود - من تأييد اليهود الأمريكيين لقضية الحلفاء في الولايات المتحدة^(١٣٤). ثم تابع سوكولوف رحلته إلى إيطاليا ، واتصل بإليابا ، وصدر بلاغ رسمي عن المقابلة التي تمت معه جاء فيه أن إليها قال لزاره : إن الفاشيكان واليهود سيكونان على علاقات من الخبز الطيب في فلسطين . كما استقبل وزير خارجية إيطاليا البارون « سونينو » المستر سوكولوف ، بناء على الترتيبات التي اتخذت مسبقاً في السفارة الإيطالية في لندن بمعرفة مالكوم وإسايكس ، وتمت جميع هذه الخطوات بمعرفة القاضي برانديس الشامة وموافقه ، إذ كان هناك اتصال برقي مستمر بينه وبين الدكتور وايزمن^(١٣٥). ولعل أهم نتيجة توصل إليها سوكولوف في العاصمتين الفرنسية والإيطالية حل الفرنسيين والإيطاليين على التنازل عن فكرة تسهيل فلسطين ، وعدم اعتراضهما على إنشاء الوطن القومي لليهود فيها^(١٣٦).

عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب ، في ربيع ١٩١٧ ، كان العمل يسير سراً مرضياً ، لكن بعض التكتسات توالى فأدت إلى تأجيل القضية ، وجعلت إصدار الوعد الرسمي المنتظر يتعذر ، ذلك أن الوزارة الإنكليزية شغلت ببعض الاندحارات العسكرية البرية والبحرية التي وقعت في ذلك العام ، فصرفتها عن الاهتمام بمشكلة فلسطين واليهود . كما أن أحد أعضاء الوزارة البريطانية ، وهو « أوهين مونتاغو » ، وزير شؤون الهند وهو يهودي ونجل اللورد سويلنج من أصحاب المصارف المعروفة ، شرح بملل كل ما أُلوي من جهد للحيلولة دون صدور الوعد ، كما اشتدت معارضة يهود فرنسا ، واتحدت في أيار ١٩١٧ جهود زعميي اليهود الإنكليز : كلود مونتغيوري رئيس اتحاد اليهود الإنكليز ، ودافيد الكسندر رئيس مجلس المنتخبين ، وجمعا عدداً من زملائهما ، بحيث تشكلت لجنة مختلطة أعدت بياناً مشتركاً نشر في « الشايك » احتجت فيه على ما قيل من عزم الحكومة البريطانية

(١٣٣) مالكوم ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٣٤) نجيب صدقة ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(١٣٥) مالكوم ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٣٦) نجيب صدقة ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

على اتباع سياسة مؤيدة للصهيونية في فلسطين^(١٣٧). وقد جاء فيه أن اللجنة المختلطة ترى وجوب التنفيذ بما اتفق عليه، في المؤتمرين اليهوديين المتعقدتين في ١٩١١ و ١٩١٢، بوجوب الاقتصاد على السعي لتكوين اليهود في فلسطين من أن يعملوا بأنفسهم لفرقة النبوغ اليهودي، ووجوب استبعاد المسائل السياسية الكبرى، وأنها ستقصر جهدها على بذل المساعي لدى الحكومة البريطانية لإصدار وعد مكتفي فيه بالاعتراف رسمياً بالتقاليد التاريخية التي يحزنها اليهود في فلسطين، ويصون لهم حقهم في التمتع باخربة المدينة والدينية، ويتمتعهم حقوقاً مساوية لحقوق سكان فلسطين الآخرين، ويسهل لهم السبل المتعقولة للهجرة والاستعمار، وتشكيل البلديات في المدن التي يسكنها اليهود بحسب الحاجة. كما احتجّت اللجنة على قول النظرية الصهيونية بأن اليهود يكونون أمة واحدة لا وطن لهم وليس في وسعهم أن يمتزجوا مع الأقوام المقاتلين معهم لأسباب سياسية وقومية، هذا المذّي دفع الصهيونيين إلى طلب جعل فلسطين مركزاً سياسياً ووطنياً قومياً لهم، بل تعتبر اللجنة المختلطة أن اليهود ليسوا صرى طائفة دينية لهم حتى المساواة مع أقرانهم الوطنيين، من أي دين كانوا، وفي أي بلد يقطنونه، جنياً لجنب وإلهاهم، وأن اليهودية دين ليس لها علاقة بأية أنظمة سياسية^(١٣٨).

لكن الجهود الصهيونية بذلت لمواجهة هذه الحركة بنشر ردود فورية صادرة عن رؤس الحاخاميين الدكتور هرئيل واللورد ريتشلد والدكتور وايزمن. كما أعدت حملة سريعة تغلّغت في أوساط مجلس المنتخبين حملت المجلس على اتخاذ قرار مؤيد للصهيونية بأغلبية كبيرة، أدى صدورّه إلى استقالة رئيسه دافيد الكسندر وثاقبه، فنقلت «التايمز» الخبر فوراً، وحذت حذوها بقية الصحف البريطانية، مما ترك انطباعاً قوياً لدى الحكومة البريطانية بحيث قررت أنغيراً استشارة زعماء اليهود في إنكلترا، قبل اتخاذ قرارها الأخير. فلم يلبث القلق أن أخذ يسود الأوساط الصهيونية لعلها بأن اليهود المناهضين للصهيونية كانوا أكبر قوة من الصهيونيين في لندن وقد بعثت وزارة الحرب بالسؤال إلى ثمانية أشخاص هم: كيرنارد كوهن، كلود مونتفيوري، الأسير ستوارت صموئيل، السير فيليب ماغنس، اللورد ريتشلد، المستر سوكولوف، الدكتور وايزمن، بالإضافة إلى رؤس الحاخاميين. وقد رد ثلاثة منهم: مونتفيوري وكوهن وماغنس رداً قوياً يعارضون صدور الوعد. وبينما كان السير ستوارت صموئيل شقيق هيربرت صموئيل لقلل التحمس له — مع أنه يهدد صدورّه — جاء رد

(١٣٧) مالكولم، المصدر السابق، ص ١٨.

(١٣٨) ج. دي. ف. كورد، المصدر السابق، ص ١٩٢ — ١٩٤ من نص البيان نفسه.

الدكتور هرتز رئيس الحاخاميين مؤيداً الوعد كل التأيد. فكان له بذلك أثر قوي في إقناع الوزارة بأن الوعد المقترح سيُقابل بالحماسة من غالبية اليهود في الإمبراطورية البريطانية.

كما كان للدكتور وايزمن فضل كبير، في الوصول إلى هذه النتيجة، بما بذل من جهد خلال سنوات عديدة بمساعدة المستر مكوت، رئيس تحرير المانشستر غارديان، والأستاذ صمويل الكسندر من جامعة مانشستر لحمل المستر لويد جورج ولفور والورد كرو والورد سبيل وغيرهم على الاهتمام بالأهداف الصهيونية. وقد رافق الجهود المبذولة على النطاق الرسمي إصدار الكتب والنشورات والمطبوعات والمجلات والمقالات المركزة، التي كان يكتبها جهابذة الفكر، والاتصالات الشخصية بالعلماء والمفكرين وغيرهم، مما كان له أثر كبير في تحويل عدد كبير من الرجال المهتمين إلى مُصدِّق في بجانب الصهيونية^(١٢٦).

وهكذا — بعد أن اختصرت الفكرة لدى الحكومة الإنكليزية — شرعت في بحث صيغة التصريح المطلوب مع زعماء الصهيونية، بعد أن جاء وايزمن وروتشيلد إلى وزارة الخارجية الإنكليزية، وطلب من اللورد بطور أن تصدر الحكومة تصريحها بتحقيق ما وعدت اليهود به، فارتأى أن يهيء المنظمة الصهيونية مشروعاً لنصر هذا التصريح. فتألفت لجنة سياسية من زعماء اليهود ضمت — بالإضافة إلى الدكتور وايزمن — جايتسكي وكوهن وغيرهما، وشرعت في الاتصال مع يهود أمريكا بحث كانت النصوص تدبر وتناقش وتعديل في الولايات المتحدة وفي إنكلترا، وتعرض بصورة غير رسمية على البيت الأبيض، وعلى وزارة الخارجية البريطانية، إلى أن اتفقت الأطراف الثلاثة: اليهود والحكومتان الأمريكية والإنكليزية على نص موحد، اعتبرت فيه فلسطين وطناً قومياً يهودياً، بحيث تطلق الهجرة إليه إطلاقاً بلا قيد، واعترفت فيه بحق الشعب اليهودي في إنشاء حياة قومية في ظل حماية تتلقم بعد التصريح عند انعقاد مؤتمر الصلح، وبحق التمتع باستقلال ذاتي داخلي للقومية اليهودية، وإنشاء شركة قومية لاستعمار الأراضي، التي أعطى لهم الحق باستملاكها، تهم بإسكان المهاجرين، وتنمية اقتصادات البلاد.

غير أن هذا النص — عندما عرض على ممثلي اليهود غير الصهيونيين في إنكلترا — حملوا عليه حملة عنيفة، ورووه برمتة لاحتوائه على ما يشير إلى «قومية يهودية» — وقد مر معنا أنهم يعتبرون اليهودية ديناً — وكان خوفهم من إقامة الوطن القومي وإطلاق الهجرة إليه وشغل الجنسية اليهودية أن

(١٢٦) دالكيم، المصدر السابق، ص ١٨-١٩.

تضطرهم القول التي يقطنونها إلى احتضانها والهجرة إلى فلسطين ، وكانت رغبتهم في أن يقتصر التصريح على نص « إنشاء موطن يهودي في فلسطين » ، وأن يحوي على فترة تضمن لليهود المقيمين خارج فلسطين حقوقهم المستمرة وحريتهم في الأوطان التي يقطنونها . وهكذا — بعد تعديلات وأعد ورد ومداولات بين إنكلترا والولايات المتحدة — تمخضت المباحثات عن النص النهائي المعروف ، الذي صدر بشكل كتاب موجه من اللورد بلنهور ونهر الخارجية إلى اللورد روثشيلد ، وقرء في أثناء عطية ألقاها الوزير في مجلس العموم في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ، أي قبل سقوط القدس ببضعة أيام وهو كما يأتي :

« يسرني جداً أن أبلغكم ، بالنيابة عن حكومة جلالة الملك ، بأن حكومة جلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، مع البيان الجلي بأن لا يفعل شيء يضر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن ، ولا الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى^(١٤٦) . »

أما مناقشة التصريح وإقراره في مجلس الوزراء فلم يستغرق أكثر من خمس دقائق . قال مالكولم في وثيقته التاريخية « وقد عرفت فيما بعد من المستر أورمسي فور أن بلنهور شرح لزملائه في خمس دقائق وبطريقة مقنعة أهمية الوعد ، وسرهان ما انبرى لتأييده كل من منظر ومجلس ورئيس الوزراء نفسه (لورد جورج) ، وتوصل المجلس إلى قرار جماعي في الموضوع » . وبعد إقراره فوراً خرج مارك سايكس من مجلس الوزراء ، وكان ينتظره في رواق وزارة الحرب ، كل من وايزمن ومالكولم ، ووقف بكلمة « الرمز » المتفق عليها بينه وبينهما ، وأعلى صوته قائلاً « جاء المولود صبيّاً »^(١٤٧) .

تحليل التصريح

لا جدال في أن التصريح قد صيغ بشكل قصد منه أن يضم تعهدات غامضة ، وأن يكون من المرونة بحيث يتكيف في المستقبل مع مقتضيات الظروف السياسية الطارئة . إن كلمة « الشعب اليهودي » التي جاءت فيه كانت مقصودة بالذات بدلاً من كلمة « عرق Race » ، التي كانت

(١٤٥) نخب صيغة ، المصدر السابق ، ص ٢٥ — ٢٩ .

(١٤٦) مالكولم ، المصدر السابق ، ص ١٩ .

موجودة في صيغة سابقة، لأن الحكومة البريطانية لم تنشأ أن تتدخل في خلافات اليهود الداخلية (من لوميين وإقليميين وإنديماجين) فانخذت موقفاً وسطاً بين النزعتين، مع انحراف ظاهر نحو وجهة النظر الصهيونية بقولها «وطناً قومياً National home» تلك العبارة التي احتج عليها غير القوميين منهم، إنما لم يستطيعوا تبديلها. ومع ذلك فكلية «وطن Home» التي وردت في النص إنما تعني بالإنكليزية «بيت»، وهي لا تعني «مركز الإشعاع الثقافي Foyer Culturel»، الذي طالب به اليهود المعتدلون، ولا تعني أيضاً «الدولة اليهودية» التي طالب بها المتطرفون. عبارة الدولة اليهودية وردت في المحادثات التي قام بها زعماء الصهاينة في أوائل أيام الحرب، لكن ذكرها انعدم تماماً في الوثائق السياسية بعد عام ١٩١٦^(١١٢). فإذا عدنا إلى شهر آذار ١٩١٧ نرى أن الفكر والبرهان قد أُلقي بحاضرة هامة شرح فيها أهداف الصهيونية قائلاً «إن الكثيرين من أصدقائنا ينتظرون أن تنشأ الدولة اليهودية حالاً، ولكن المطلعين على سير الأمور يعلمون أن تنفيذ مثل هذا المشروع متعذر في الوقت الحاضر. أجل إنه هدفنا لا يزال «الدولة اليهودية»، ولكن بلوغ هذا الهدف لا يأتي دفعة واحدة؛ بل يجري على مراحل متعددة، أولاً أن نوضع فلسطين تحت حماية دولة صديقة، كبريطانيا مثلاً، تسهل لنا الهجرة والسكن، وتتمكن من تحضير الجهاز الإداري اللازم لبلوغ هدفنا. وأستطيع أن أصرح بأن الحكومة البريطانية موافقة على هذه الخطة، ومستعدة لتسهيل تنفيذها^(١١٣)». هذا بالنسبة للصهاينة، وأما بالنسبة للإنكليز فإن الوطن القومي المقصود بالتصريح يعني بالنسبة للورد بلفور — كما شرحه في جلسة سرية للبرلمان الحرب في نهاية الشهر الذي صدر فيه تصريحه — شكلاً من الحماية الإنكليزية أو الأمريكية، أي حماية أخرى تعطي لليهود كل التسهيلات لتأسيس «مركز حقيقي للثقافة القومية ووطن للحياة القومية» لكنه لا يتضمن بالضرورة «تأسيماً قريباً لدولة يهودية مستقلة» لأن الدولة المستقلة لا ترغب، وإنما تنشأ ببطء وتدرجاً^(١١٤). وهو بهذا التفسير لا يخرج عن أهداف والبرهان في الحصول على تكوين دولة يهودية تدريجياً. على أن اللورد كورزون لا يعد كثيراً عن هذا الإيضاح عندما يقول إن «الوطن القومي N. Home» يعني المكان الذي يستطيع اليهود أن يتجمعوا فيه بصفة أمة، ويتمتعوا بامتيازات فتحولهم الوصول إلى وجود قومي مستقل، كما يعني «تشكيل كيان سياسي مؤلف من اليهود، ويحكمه اليهود ويدار لمصلحة اليهود». غير أن للورد جورج كلمة أصبحت شهيرة قال «إن تصريح بلفور كان عبارة عن إجراء حرب، لقد أردنا قبل

(١١٢) نجيب مديقة، المصدر السابق، ص ٣٦.

(١١٣) المصدر السابق، ص ٢٥.

(١١٤) الدكتور لوردين خاتم، المصدر السابق، ص ٧٢-٧٣.

كل شيء أن لروح الحرب ، وإذا أدى بنا الأمر إلى إغداق الوعود إلى جميع من يستطيعون أن يساعدونا على كسبها فمن اللازم — على الأقل — الانتباه إلى أن لا تكون هذه الوعود دقيقة وواضحة جداً^(١٤١) . أما للتعقيدات التي أمكن أن يسببها هذا الغموض — كما جرى فعلاً عندما بدى بتطبيق الوعد في أثناء الانتداب الإنكليزي على فلسطين ، مما اضطر إنكلترا إلى التلون تلون الخزياء في كل مرة ترى نفسها في موقف حرج بين مختلف العناصر — فإن إنكلترا من لا أخلاقية السياسة ما يبررها .

في الواقع كان الميسم الذي يسم كلاً من اتفاقية سايكس — بيكو وتصريح بلغور هو اللا أخلاقية بكل ما لهذه الكلمة من معنى . ذلك أن تبايض الاتفاقية الأولى مع ما قطعت من وعود للشريف حسين أمر واضح . وكذلك تصريح بلغور الذي تجاهلت — عندما قطعته — ان في فلسطين شعباً عربياً يشكل أكثر من اثني عشر مثلاً من عدد اليهود ، لم تراعى له حقوقه السياسية ، واقتصر الأمر على مراعاة الحقوق الدينية والمدنية للعوائف غير اليهودية ، ولم يذكر العرب حتى باسمهم ، وكأنهم الفرع واليهود هم الأصل ، في حين ألح التصريح على حقوق اليهود السياسية في بلدان أوروبا مع أنهم أقلية فيها^(١٤٢) . ومن جهة أخرى لم يكن لإنكلترا حق شرعي في منح أرض لم تكن ملكاً لها ، لشعب غير الشعب الذي يقطنها بالفعل . وما يدمغ التصريح باللا أخلاقية سلوك إنكلترا — عندما انفضح أمر اتفاقية سايكس — بيكو ، وألمي حبر منح التصريح لليهود إلى علم الشريف حسين ، فأرغى وازيد وهدد — إذ لجأت إلى الكذب والمراوغة حينما اضطرت إلى إرسال الغنايط وهوغارت Hogarth ، أحد رؤساء للكب العربي في القاهرة ، إلى جدة (كانون ثاني ١٩١٨) ، الذي قابل الملك حسين مرتين في محاولة لتهدئة ثأريته ، خوفاً على الثورة العربية من نكسة تحمل بها ، وأكد له (في تصريح حملة من الحكومة البريطانية ، إذ ألقاه شفهاً على الحسين باللغة العربية ، وطلب إليه أن يكتب بخط يده فكبه واحتفظ به) حسن نية بريطانيا ، وقد جاء فيه ما يلي :

« بالنسبة لتفضية فلسطين نحن مصممون على ألا نخضع شعب لأخر . ولكن بالنظر لأن في فلسطين مقامات وأوقاف وأضرحة وأماكن مقدسة للمسلمين وخدامهم واليهود وخدامهم والمسيحيين وخدامهم ، وبالنظر لاهتمام جواهر عديدة خارج فلسطين والبلاد العربية بهذه الأماكن ، فوجب أن

(١٤١) المصدر السابق ، ص ٧٣ — ٧٤ .

(١٤٢) أكبر زحتر ، المصدر السابق ، ص ٤٧ .

يقام نظام خلاص يقره العالم لها . ويكون مفهوماً بأن المسجد الأقصى يعتبر أمره من شأن المسلمين وحدهم ، وإن يوضع مباشرة أو غير مباشرة في أيدي سلطة غير مسلمة .

« وبالنظر لأن الرأي العام اليهودي في العالم يميل عموماً اليهود إلى فلسطين ، وبالنظر لأن حكومة بريطانيا تنظر بعين العطف لتحقيق هذا المطمح ، فهي مصممة ، في حدود عدم تمارض هذا مع حرية السكان الموجودين فعلاً من التامتين السياسية والاقتصادية ، على تحقيق هذا المقرض^(١٧٩) . ولا يخفى ما في هذا التصريح من نحوير للحقيقة لأن تصريحه بالمقود لم يضمن للعرب حقوقهم السياسية .

وهناك ناحية أخرى في لا أخلاقيات ، ذلك أنه قد أعطي دون أن تؤخذ وجهة نظر سكان فلسطين العرب أصحاب الأرض الحقيقيين ، ولا رأي أحد من زعماء العرب آنذاك ، ولا تعرضت للمفاوضات الجارية بين الأطراف المختلفة ولا مرة لمصلحة عرب فلسطين ، بل كان العكس هو الصحيح ، إذ كان جهد وازمن منصباً على التأثير على أعصاب مارك سايكس خوفاً من أن يجعل البرنامج اليهودي ملحقاً للبرنامج الأكبر الذي يعالجه ، وهو البرنامج العربي . وقد تملكه القلق من احتمال عدم الاعتراف تماماً بمصالح اليهود في فلسطين ، خلال المفاوضات الجارية مع العرب . وهذا ما جعله يعترض على اتفاقية سايكس — بيكو عندما علم بها كما مر معنا . وقد وصل — ولا شك — إلى غايته في ترويض سايكس ، إذ لراه يسجل في ص ٢٢٨ من مذكراته (إن سايكس دخل في مفاوضات مع الصهيونيين دون أن يكلمهم عن اتفاقية سايكس — بيكو ، وأنه كان يعدل موقفه لمصلحة الصهيونية هادفاً إلى مراجعة الاتفاقية كي تتسع لمطالب الصهيونيين^(١٨٠) .

قال مالكولم ، في وثيقته التاريخية إنه اجتمع في لندن بالفرنق جنود باشا محل الشريف حسين في لندن ، وشهد المقاتلة ضابطان عربيان كبيران من جيش الشريف ، وأبلغهم بأن وعداً سيصدر لليهود بفلسطين مقابل مساعدتهم للمحتل ، ويكسب تأييد الولايات المتحدة لهم . فاعترضوا على ذهاب اليهود إلى فلسطين لأنها عربية ، لكنه عندما شرح لهم أهمية القضية ، وأن وزارة الحرب قد اتخذت قرارها في هذا الشأن ، وافقوا برمين ، مع إدراكهم الأهمية القصوى للمعن الأمريكي ، وطمعوا بعدم إثارة أي اعتراض ، وقالوا إن في وسعهم أن يمتثلوا على موافقة القادة العرب على السياسة

(١٧٩) أمين سعيد ، ثوبت الحرب في القرن العشرين ، ص ١٩ .

(١٨٠) أحمد طرين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ٢٩ — ٣٦ .

البيطانية المقررة . وأضاف مالكولم قائلاً إنه عندما اجتمع بلورنس في لندن وبانيس أيام الحرب ،
وتفصيل بلورنس إبان مؤتمر الصلح ، وجد لورنس مثبداً تمام التأييد لتنفيذ الصلقة ، بينما وجد فيصلاً
أقل عناء لها^(١٢٩) .

الواقع أن المصادر الصهيونية والمالية لها قد خرجت على تردد هذه الأقوال ، ولا بد لي من
ملاحظة أن الموضوع لا يزال يكتنف هذا البحث لأن مصادره إجمالاً ، لا تزال سرية . على أن اليهود
لم يتركوا ثغرة في موقف العرب إلا واستغلوها لمصلحة الصهيونية . خذ مثلاً ما أورده الكاتب اليهودي
إيليا كدوري E. KEDOURIE بأن بريطانيا — قبل أن ترد على مقكرة الشريف حسين الأول التي
رسم فيها حدود الدولة العربية المطلوب الاعتراف باستقلالها — كشفت للشريف ، بواسطة محمد
شريف الفاروقي بمثلة في القاهرة ، عن مطالب فرنسا بالمناطق التي خصصت لها بموجب اتفاقية
سايكس بيكو^(١٣٠) ، وهو يتفق في هذا مع بعض الكتاب الغربيين الذين ردوا هذه المزاعم ، بما يعني
أن الحسين قد أطلع على اتفاقية سايكس — بيكو قبل أن ينشرها البلاشفة إثر ثورتهم التي قامت في
أواخر عام ١٩١٧ ، وليس من دليل على صحة هذه المزاعم . وقد يكون الشريف حسين قد سمع —
في مجلة الشامعات — عن مطامع إنكلترا وفرنسا في مناطق الشرق العربي ، لكن هذا لا يعني أنه قد
أطلع على خبر توقيع المعاهدة واقتسام الأراضي العربية . على أن الفاروقي يوضح هذه الناحية في
كتاب أرسله إلى الشريف في أثناء مفاوضات الحسين — مكماهون ، قال فيه إن الإنكليز قد أطلعوه
على الرد الذي أرسلوه إلى الحسين والمتضمن استثناء المناطق الواقعة غربي مدن حلب — حمص —
حمص دمشق من الضلع العربي ، باعتبار أن لفرنسا فيها مصالح لا يسهم أن يقضيها من أجلها ،
وأنه أجباهم بصفته الشخصية ، بحسب ما فهمه من آراء بعض الزعماء العرب ، بأنه لا يمكن بوجه
من الوجود التنازل عن شبر من أرض سورية ، وأنه لا يعرف بأن ثمة مناطق غير عربية غربي المدن
المذكورة ، وأنه لا بد من اعتراف الحلفاء بذلك ، وإنما يمكن الاعتراف للإنكليز بالمنافع الاقتصادية
بالعراق والفرنسيين بمثلها في سورية ، وجلب المنشقين منهم^(١٣١) . وهذا لا يعني شيئاً أكثر مما دار بين
الحسين ومكماهون من مجادلة حول المناطق الغربية من سورية .

(١٢٩) مالكولم ، الوثيقة نفسها ، ص ١٧ .

E. KEDOURIE, Ibid. p. 37. (١٣٠)

(١٣١) محمد طاهر المصري ، العصر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ . من نقل أحمد طهين ، التنازع الدولي حول
أقطار آسيا العربية ، ص ٥٩ .

خلاصة القول إن بإعطاء إنكلترا لتصرّح بلفور قد فازت الصهيونية بغايتها القومية المنشودة .
هذا صحيح ولكن إنكلترا من جهتها — وقد وهبت أرضاً ليست ملكها — قد حسمت نفسها أنها
ضربت عدة عصافير بحجر واحد :

فهي قد دعت عطف اليهود في العالم أجمع بحيث اضطرت غريمها ألمانيا ، فأعمدت تفاوض
حليقتها تركيا لتصدر تصريحاً يلائم الصهيونية ، وخلقت العداء العربي — الصهيوني في المنطقة
فوضعت بذلك حبة كذوداً في سبيل تحقيق الوحدة العربية ، ومهدت السبيل لإنشاء مملكة جديدة
حيثما — الخليج العربي ، وأمنت شر الخطر على نفط الموصل ، وأمنت خفاقة قناة السويس ،
وسلامتها ، وأنشأت درعا يقي مصر من الهجوم الخارجي ، ولقّات الحرس الاستعماري في الساحل
الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، وأخيراً حققت حلم اللورد كاتشر بإقامة الحزام الاستراتيجي في
منطقة الشرق الأوسط ضد الخطر الألماني والروسي^(١٥٦) .

(١٥٦) محمد عبد الحسين ، حجة العرب ، ص ١٤ .

الفصل الثالث

الثورة العربية

هناك أسباب أساسية وأخرى مباشرة للأحداث التاريخية الكبرى . والثورة العربية — الحدث الرائد التحرري الخطير من أحداث نهضتنا الحديثة — كان لها من الأسباب الأساسية مما أثبت على بيانها في القبول السابقة ما يبرر تشوبها ، ويجعلها ضربة لازب لا مَعْدِي عنها ، لتضع الأمتين العربية والتركية — بعد تعايش دلم أربعة قرون — على مفترق الطرق . فهي بهذا الوصف قد جاءت نعيرواً ناطقاً عن الانفصال بين الأمتين في محاولة منها لتحقيق أمالي الأمة العربية في الحرية والوحدة والاستقلال .

تحدث كثيرون عن طموح الحسين في أن يكون له عرش وراثي يترفع عليه ، لا بالنسبة للحجاز فحسب بل بالنسبة للبلاد العربية جميعها . وهذا من الموضوع بحيث نلمسه في سياقي الفتاوى ، على أني أرى من الإنصاف أن نعترف أن هذا الطموح قد اتخذ وجهة قومية صريحة لا مواربة فيها ، بحيث إنه قد وجد من اضطرهاد الترك للقومية العربية منبهاً وحافزاً له على الظهور^(١) ، كما قال أحد كبار السياسيين السوريين .

أحب أن أقف وقفة أطول عند الناحية الاقتصادية التي جاء الحديث عنها مقتضياً عاجراً في ما تقدم من فصول . فالهجاز مجتمع بوضوح اقتصادي لم يكن ليحدث عليه ، بحيث كان باستطاعة كل من الطرفين المتعادين أن يطبق عليه الحصار ، ولابد له من الإنفاق مع أحدهما ، ذلك أنه

(١) عبد الرحمن الشهبندر ، من مقال في مجلة النقطة العربية الحاضرة ، عدد ١١ ، ص ١٨ .

يعتمد في معاشه — بالإضافة إلى موسم الحج — على منفذين محاربين لا ثالث لهما: طريق البحر الأحمر وطريق الخط الحجازي والذي يربطه بسورية. وقد أدرك المهيمنون، منذ البداية، حاجة الحجاز إلى الاتصال الخارجي فبادروا أولاً إلى قطع المعونة التي كانت مصر تقدمها له سنوياً من الحبوب، وثانياً إلى ضرب الحصار البحري على شواطئه. ولما كانت الحرب قد قضت على مورد الخليج، وأصبحت سورية غير قادرة على إمداده بالمؤن لأن الحكومة العثمانية قد وضعت يدها على جميع المنتجات الزراعية والاستهلاكية لمصلحة الجيش، لذلك أصبح سكان الحجاز في ضيق شديد^(٢)، فكانت هذه الأثر من حملة الدواخل التي دفعت الحسين إلى إجابة الإنكليز إلى ما عرضه عليه من وجوب التحالف ضد الترك، الذين اعتقد باستحالة الوفاق بينهم وبين العرب، بصورة عامة، وبينه وبينهم بصورة خاصة.

صحيح أن الإنكليز كانوا قد صرحوا — تمهيداً للتفاوض معه — بأنهم يستنون سواحل الحجاز من الحصار البحري الذي ضربه على سواحل السلطنة العثمانية، وصحوا بنقل الأرزاق من الهند وغيرها إلى البلاد المقدسة، لكنهم عاصوا إلى ضربه من جديد عليها، اعتباراً من ١٩١٥/١١/١٥، بداعي أنهم قد علموا بأن الحكومة العثمانية قد أرسلت كثيراً من جنودها إلى هذه المنطقة، فهي إذا سمحت بتسرب الحبوب والمؤن إليها تخشى أن يستفيد منها جنود عدوهم^(٣)، وكان من نتيجة ذلك أن وقع الحجازيون في حرمان شديد، وكادت الجماعة أن تفعل بهم^(٤). إنما للمستغرب أن يأتي هذا الحصار — بالإضافة إلى أسبابه المباشرة — في نفس الوقت الذي تلتقي فيه إنكليزاً احتراض الشريف حسين على ما جاء في مذكرتها المؤرخة في ١٩١٥/١٠/٢٤، التي طلبت فيها استثناء المناطق القريبة من سورية من الخطط العربي للقبولة العربية، لكنه عاد فتمسك في المذكرة التالية، مما يثير الظنون حول هذا التماس.

غير أن الملاحظ أن الناحية الاقتصادية التي كثيراً ما تأتي في جملة العوامل الأساسية للثورات والأحداث التاريخية الهامة، قد جاءت هنا من جملة الأسباب المباشرة. أما الأسباب الأساسية للثورة العربية فيمكن تلخيصها بميزتين: نزوح لاجئ الوعي القومي العربي، ومحاولة الأتراك الاتحاديين

(٢) الدكتور أحمد قري، المصدر السابق، ص ٤٥، عي الدين السرجلاني، فاجعة مسلون، ص ٥٠.

(٣) R. ALDINGTON, *ibid.* p. 118، مجلة الحار ١٩١٦/١/٦، ص ١٤٧.

(٤) فخر قصيون، مذكرات عن الثورة العربية، ص ٢١٨، مذكرات الملك عبد الله، ص ١٠٤، COL. BREMOND: *ibid.* p. 28.

طمس هذا الوعي بالقوة. وقد رأينا كيف اشترك في تخفيضها أحرار العرب من كل قطر منهم ضباط ومتقنون وشبان وكهول^(٦٠). وما الشريف حسين إلا الأداة التي تجسست فيها كل مظاهر القوة الفادحة على مجاعة التحدي بمثل، والزعيم الذي كان العرب حينذاك بحاجة إليه ليعبر عن نهضتهم القومية^(٦١). فالثورة العربية التي بدأت من مكة — لأنها أصلح مكان لقيامها، فضلاً عن كون الحجاز مأهولاً بعشائر مسلحة اعتادت القتال منذ أجيال — لم تكن ثورة حجازية إقليمية صرف، بل عربية قومية بكل معنى الكلمة، ترمي إلى استقلال للعرب، وتكوين دولة عربية موحدة، ونهض بالأمّة نهضة حقيقية تعيد إليها مجددها السالف، وكانت الراية التي قررها رجاءها ترمز إلى هذه النزعة السامية بوضوح وجلالة، ذلك أنها قد جمعت الألوان الأربعة التي كان كل منها شعاراً لعهد من عهود دولة العرب (بان مؤددها الغابر^(٦٢)).

كان على الشريف حسين أن يعلن ثورته منذ أن انتهت مفاوضاته مع عملي إنكلترا في القاهرة بآخر رسالة تلقاها منه (١٩١٦/٣/١٠)، لكنه اضطر إلى تأخيرها لسببين رئيسيين: أولهما العمل على إنقاذ ولده فيصل من قبضة جمال باشا في دمشق، وثانيهما وجوب استتمام استعداداته^(٦٣)، وقد عرفنا فيما سبق كيف نجح فيصل من الشرك.

لقد انصرف الشريف إلى تهيئة وسائل الثورة معتمداً فرصة غياب والي الحجاز غالب باشا عن مكة وإقامته في المظائف. وكان عليه أن يتدبر تدبير رجل عاقل حكيم، لأن أقل هفوة أو قشة لبان تعرضه وأولاده للهلاك^(٦٤). لذلك كانت اتصالاته بشيوخ القبائل — وقد طاعه كثيرون منهم فرتب الأمور معهم — سرية للغاية، لكن الرجال الذين وجب عليه أن يعمل وإياهم كانوا ضعاف التسليح والتنظيم، ليس لديهم سوى البنادق الحربية، فأخذ يطالب السمر هنري مكماهون بمزيد من الأسلحة المختلفة الأنواع مع ذخائرها بصورة مرمية، وإعدادها في بور السودان تمهيداً لنقلها إلى الحجاز سراً. كما طلب من إنكلترا أن تحاصر الحجاز بأسطولها، وأن تنفذ وعددها بالاستيلاء على الإسكندرية لتقطع الطريق على الإمدادات التركية من الأناضول^(٦٥). كما طلب الأمير عبد الله مقابلته

(٥) E. JUNG, Ibid. II, p. 38.

(٦) أمين الريحاني، فيصل الأول، ص ٦.

(٧) منطلق المصري، نشوء الفكرة القومية، ص ٢٣٦ — ٢٣٧.

(٨) الدكتور عبد الله ماضي، المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٩) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص ٢٧.

(١٠) جلال يحيى، المصدر السابق، ص ١٦٩.

بمستعجلة مع السير « ريتالد سنورز » - الذي بذل جهداً كبيراً في إنشاء محادثات الحسين مكماهرن - فقدم هذا إلى جدة مستصحباً معه الكوماندور هوغارث وكورنيواليس من المكتب العربي في القاهرة ، قتلهم الأمير زيد ، أصغر أبنائ الحسين ، وأكد لهم طليان والده للأسلحة ووجوب إرسالها بسرعة ، بالإضافة إلى مبعوث ألف جنية استرليني ذهبي ، فسلمه هوغارث عشرة آلاف كانت معه منها ، ووعده بإرسال خمسين ألفاً أخرى فيما إذا انفجرت الثورة بصورة فعلية ^(١١) .

لم تكن استعدادات الشريف حسين قد أُنجزت بعد حيناً اضطر إلى الاستعجال بإعلان ^(١٢) الثورة (٩ شعبان ١٣٣٤ ، ١٠ حزيران ١٩١٦) ، وقد دعاه إلى ذلك ما شعر به من سعي الترك إلى الإيقاع به لما لحقه من حركاتهم المريبة الموجهة ضد الحجاز . ذلك أن الألمان والأتراك قد توقعوا ، على ما يظهر ، حدوث الثورة في هذه المنطقة لما كان يتصل بمسامعهم من مفاوضات الإنكليز في مصر مع العرب ، فجهزوا في أوائل ١٩١٦ قوة عسكرية جديدة من الترك بقيادة القائد التركي خيرى بك ، قوامها ٣٥٠٠ / رجلاً سموها « المقرزة اليمنية » ^(١٣) ، ترافقها بعثة ألمانية بقيادة القائد الألماني « فون ستوتزينجن » VON STOTZINGEN ، وأرسلوها إلى المدينة المنورة لتذهب منها إلى مكة ثم إلى اليمن ، بطريق السير ، تمريراً لقوات سعيد باشا قائد الفيلق التركي المربط في صنعاء ، لاشغال الإنكليز في عدن والإمارات العربية المحيطة بها ، وإقامة محطة لإرسال نوّمن الاتصال مع الألمان في شرق إفريقيا ، وتنظيم إرسال الأسلحة والذخيرة ، عبر البحر الأحمر ، إلى الحبشة بغية إثارة الثورات في أبنها والصومال والسودان . فلما دخلت القوة التركية من المقرزة اليمنية إلى المدينة - بينما توجهت للبعثة الألمانية نحو الساحل متواعدة مع خيرى بك بالتلاقي ثانية في القنفذة ليمحرك جميعهم بعدها إلى اليمن ^(١٤) - عشي الشريف النتائج التي تترتب على مرورها في مكة ، والخطر الذي سيحدهق به وبأولاده وإمارته حينذاك ، وأدرك مغبة الإبطاء في إعلان الثورة فصمم على العمل الحاسم ^(١٥) ، قبل أن

(١١) R. ALDINGTON, Ibid. p. 119.

(١٢) جاء في « Official War History » الإنكليزي أن الثورة بدأت في « حزيران ، معتبراً أن تاريخ إعلانها هو يوم قيام الأيمن لبصل وعلى بحاولتها المقيمة بجذوات المدينة المنورة حينها غرروا بالخيرى باشا وفلادراها .

(١٣) COLONEL BREMOND, Ibid. p. 30.

(١٤) كانت البعثة الألمانية لا تزال في يدمع حينما أعلنت الثورة ففر أفرادها يطلبون الحماية ، بعد أن ألقوا جل معادهم في البحر ، وأعطى لثلاثة منهم ولم يسمح منهم أي غير ، وهو فون ستوتزينجن والعباط الألمان الآخرون لأنفسهم سهل الحماية ، وعلوا إلى دمشق مائة (أنطونوس ، المصدر السابق ، ص ٣٠٦) .

(١٥) R. ALDINGTON, Ibid. p. 119 ، مؤرخ الثورة العربية ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

يتأكد مما إذا كان الإنكليز سيترلون في الإسكندرية أم لا ، غير عارف بأن الخلفاء قد اتفقوا على العمل عن هذا العمل كما رأينا . كما كان من الأسباب التي عجلت في تشوب الثورة الأحكام الجائرة التي نفذت بشهداء العرب في كل من دمشق ودمشق ، والتي هزت وجدان الزعماء العرب والشعوب العربية .

ما إن أعلن الشريف الثورة حتى باغتت قواته حامية مكة التركية فأسقطها ، بعد قتال عنيف دام ثلاثة أسابيع ، حاول الأتراك خلالها إرهاب الحسين ورجاله ، فأطلقوا بعض القنابل على الحامية ، وعلى دار الشريف ، فهدموا قسماً منها ، وقد استولى الثوار على الأسلحة والرشاشات والدعاقر الموجودة فيها ، وأسروا قواتها المؤلفة من نحو / ١٦٠٠ / ضابط وجندي^(١٤) . أما الطائف فكان الأمر عيذ الله قد توجه إليها بأمر من والده ، منذ أول شعبان ، محاصرة فرتها العسكرية ومنعها من مهاجمة مكة ، فذهب إليها وقابل الوالي غالب باشا ، وأومعه أنه ذاهب لتأديب عشيرة المقيم . وبعد أن نفي نفياً باتاً ما علق في ذهنه من أنها ، حملتها إليه الشائعات ، عن قرب قيام الثورة اقترقا على وئام ، وتعامقاً عناقاً ذرفت خلاله الدمع عينا الوالي . ولم يكذب بخاطر الأمر الطائف حتى قطع أسلاك البرق ، بين مكة والطائف ، وأمر بمنع كل من يسافر إلى مكة ، منع قتل وإبادة^(١٥) . ثم هاجم القوات التركية فيها اعتباراً من ١١ شعبان على رأس قبائل عديدة بقيادة عدد من الشرفاء ، ولم يستطع فتحها إلا بعد أن وردته من مكة بنادق^(١٦) واستر^(١٧) وبطاريات جبلية ، ومدافع الهاوزر وهي مما استولى عليه الثوار بعد سقوط جدة^(١٨) ، بالإضافة إلى قلوب المغرزة المصرية ، التي أرسلها الإنكليز لمؤازرة الثورة ، ومعها أربعة مدافع جبلية نصف سريعة بقيادة الأمير آلاني المصري سيد يث علي . وكانت النتيجة سقوط الطائف في ١٠ ذي القعدة ، أي بعد ثلاثة أشهر من إعلان الثورة ، واستسلم الوالي — القائد الغربي غالب باشا ، مع / ٣٠٠٠ / من جنوده بينهم ٧٥ ضابطاً من وثبة قائد إلى وثبة زعيم ، عدا صغار الضباط . وجرى استلام أسلحة الحامية ومعداتها بكاملها وفيها / ١١ / مدفعاً وكلمة كبيرة من البنادق . وقد دارت محاوره بين الأمير عبد الله وغالب باشا الذي قال : هذه فاجعة ، فبعد أن كنا أخواناً أصبحنا أعداء^(١٩) . ولا أجابه عيذ الله أن الذنب على الترك قال : كنت واثقاً أن الأمة العربية ستفصل يوماً ما عنا ، ولكنني ما كنت أؤمل أن يكون الانفصال على هذا الشكل وهذه السرعة^(٢٠) .

(١٤) مؤرخ الثورة العربية ، لمصطفى السقاوي ، ص ٢٩ .

(١٥) أمين سعيد ، غزوات الجرب في القرن العشرين ، ص ٤٧ .

(١٦) مذكرات الملك عبد الله ، ص ١٦٠ — ١٢٢ .

ولما كان الإنكليز على علم بالتاريخ الذي حدد لإعلان الثورة، وكان من الضروري أن يتصلوا بالشريف مباشرة، ومدينة جدة هي الباب الذي يلجونه للاتصال به، أرسلوا ثلاثة دوارح حربية كي تتولى ضربها من البحر — بعد خمسة أيام من إعلان الثورة — مما جعل في سقوطها بيد قوات الثورة التي هاجمتها برأ بعدد من الرجال يبلغ أربعة آلاف، بقيادة الشريف عمن بن منصور. فلما سقطت في ٦/١٦ اطمأن الإنكليز إلى الاتصال بالشريف دون عائق. وقد استولى للعرب على ١٤ مدفعاً و ٤ رشاشات مع كمية كبيرة من البنادق الحربية والذخيرة، وأسروا نحو ٦/١٣٤ ضابطاً وجندياً و ١٥٠/١ موطئاً تركياً. ثم أخذت مدن الحجاز للساحلية مثل رابغ ونبع وغيرها تسقط واحدة تلو أخرى في أيدي قوات الشريف. ولم يستعص عليها سوى المدينة المنورة، التي أخذت تتلقى الإمدادات، بطريق مكة الحديدي، حتى أصبح عدد الجنود فيها ما يقارب ١٤/١ ألفاً بين ضابط وجندي، عدا من يساعدهم من البدو المحالفين لهم، وقد دعمهم قوات كبيرة في مختلف محطات سكة حديد الحجاز بين المدينة ومكان لحفظ خط المواصلات سليماً بين سويرة وبينها، لتعسك الترك تمسكاً شديداً بها نظراً لأهميتها الدينية والسياسية. هذا بالإضافة إلى وجود قائد محكم كفؤ على قيادة حاميتها هو الفريق فخري باشا. وهذا ما ساعدها على الصمود حتى نهاية الحرب. وقد اكتفى العرب بضرب الحصار عليها^(١٧).

نظمت الثورة ثلاثة جيوش لمحاربة الترك وتطهير البلاد منهم لو على الأقل لتجعيد قواهم في الأمكنة التي استعصى الاستيلاء عليها وهذه الجيوش هي:

- ١ — الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل، وكان عليه أن يسير نحو الشمال متجهاً إلى سويرة لتحريرها، وكانت قاعدته متحركة بحيث ينتقل من مدينة إلى أخرى حالما يجري احتلالها.
- ٢ — الجيش الجنوبي بقيادة الأمير علي وقاعدته مدينة رابغ، ومهمته الوقوف قبالة المدينة المنورة ومنازلة الترك، ومنعهم من السير نحو مكة كلما حاولوا أن يخرجوا من المدينة.
- ٣ — الجيش الشرقي بقيادة الأمير عبد الله ومقره في وادي «العيس» شمال شرقي للمدينة المنورة ومهمته عرقلة إمداد الترك في المدينة بالهؤن والجند، عن طريق السكة الحديدية، وعن طريق الصحراء، من جهة الهضبة النجدية وجبل فمر. وكان يؤازره الضابط المغربي الرئيس راسو الذي أرسله الفرنسيون في حملة القضايل الإسلامية التي أرسلوها لمؤازرة الثورة^(١٨).

(١٧) مزرع الثورة العربية، المصدر السابق، ص ٢٩ — ٣٠ أمين سعيد، ثورات العرب في القرن العشرين، ص ٤٧.

(١٨) GRAVES, Ibid. p. 83: أمين سعيد، ثورات العرب في القرن العشرين، ص ٤٨.

ومن الصعب تقدير قوة هذه الجيوش تقديراً صحيحاً ، بل يمكن القول إن عدد ما كان لدى أفرادها من الأسلحة يقل بكثير عن عدد الرجال ، الذي كان يتراوح زيادة وقصداً ، باعتبار أن أغلبهم من البدو غير المرتبطين بنظام ثابت . فالقوات العربية التي كان عددها — مجتموعاً — بعد ثلاثة أسابيع من نشوب الثورة بين ٣٠ — ٤٠ ألفاً لم يكن لديها سوى عشرة آلاف بندقية ، ليس بينها لا مدافع ، ولا رشاشات ، ولم يوقع عدد البنادق الصالحة للاستعمال إلى أكثر من ٢٨ ألفاً . عندما احتل العرب مدينة الوجه ، بهذا لوقع عدد القوات العربية إلى سبعين ألفاً .

وإذا وجب على اختصار الحديث عن الوقائع الحربية لاستطيع الانفاضة في التطورات السياسية والنزعات الحضارية بين مختلف الأطراف ، فإنه لا بد لي ، مع ذلك ، أن أشير إلى الأعمال الحادة التي تمت على يد الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل ، فقد واصل التقدم همالاً حتى استولى على منطقة الوجه في ١٩١٧/١/٢٥ ، وأخذها قاعدة لعملياته العسكرية ، ثم على ثغر الموصلح في ١١/٢ . واحتلال الوجه — المدينة الساحلية التي تقع إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة — رسخت أقدام الثورة ، وبدأت كل محاولات الترك لاحتلال مكة بالفشل ، بعد أن كان موقفها في حرج خلال الأشهر السابقة . فهي وإن كانت قد حققت غايتها العسكرية المباشرة باحتلال الطائف ، إلا أنها مرت في أحلك صاعقتها عندما بدأ فخري باشا ، بقواته المجهزة بالمدفعية يكرر غاراته على المراكز العربية ويدخل الملع — بقوى مدعيتها — على قلوب العربان المسلحين بالبنادق فقط ، فلا يستطيعون الصمود أمامها . وقد راحت قواته تدق أبواب رابغ ليرجف من بعدها على مكة . فاضطرب فؤاد الشريف ، وراح يدرس الموقف ويطلب استقدام لواء من جيش الخلفاء ينزل في رابغ^(١) . وتكررت المخبرات بينه وبين المعتمد البريطاني في مصر ، واتخذ أسلوب مخبراته صفة الإلحاح والتبرع والقلق الشديد ، في حين كانت حليفته تتسلل بالخبر من انهام العالم الإسلامي لها ، في حال إرسالها الجنود المسيحيين إلى الديار المقدسة^(٢) . وأخيراً تبذرت مخاوف الشريف حينما استطاع الأمير فيصل بمساعدة الأسطول الإنكليزي في البحر الأحمر احتلال الوجه ، فكانت كالدرع الذي بقي مكة من الهجوم التركي عليها من جهة المدينة^(٣) ، وأصبحت منطلقاً لبعثات تخريب الخط الحجازي .

(١٩) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٨ - ٣ - ٣٠٩ .

(٢٠) راجع التفصيلات الزمنية في أمرين معجدين ، الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٠٣ - ٢١١ .

(٢١) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٣٠٩ .

في الواقع لم تأت الثورة بأعمال باهرة في أول انطلاقها لضعف قواتها، وعدم استجابتها
 التشكيلات العسكرية اللازمة، وبسبب الخلاف الذي كان ناشياً بين السلطات الإنكليزية
 العسكرية، وعلى رأسها الجنرال «آرشبالد موري ARCHIBALD MURRAY»، الذي كان يجهل
 القضية العربية، ولا يقدرها حق قدرها، مستخفاً بها، مستهوهاً أمرها، وبين السلطات المدنية، وعلى
 رأسها السير هنري مكماهون، مما حال دون تنظيم علاقات الأرباط مع القوات العربية. وقد أدى
 فقدان الثقة بالثورة إلى نكهن هيئة الأركان في مصر بفشلها القريب، كما بذوب الثلج فوق رمال
 الصحراء، وهزرب تعليق الحسين على مشقة تركية^(٢٢). يضاف إلى ذلك انشغال البلاد، في
 شهري أيلول وتشرين الأول، بموسم الحج الذي كان الحجاجون ينتظرونه بفارغ الصبر لتأمين
 معاشهم من بهمه، ولأن الحركات العسكرية في فصل الصيف صعبة جداً في الحجاز، مما جعل
 نشاط قوات الأمن علي وفيصل يقتصر على تخريب محطات سكة الحديد، ومنها محطة الحفوة قرب
 للمدينة حيث عرض فيحصل نفسه لخطر الأسر من قبل قوات فخري باشا، ولم ينج إلا بأعجوبة. ولو
 أن فخري باشا قد أقدم على مغامرة عسكرية جريئة لتمكن من سحق الثورة في مهدها، ودخل مكة
 ظافراً^(٢٣). غير أن الثورة لم تلبث أن بدأت بالانتعاش حينما أخذت التجديدات الخليفة من المقاتلين
 المسلمين ترد تبعاً، وذلك على أثر تفهم الإنكليز لحقيقة الوضع العربي، وإيكال الأمور إلى خبراء
 سياسيين بمعهدون الثورة كالجنرال كلايوت والكولونيل لورنس، الذي أبدى فكرة الاستفادة منها
 كمصدر صدام متحرك ضد الترك^(٢٤) والكوماندور هوجارث وغيرهم من أعضاء المكتب العربي في
 القاهرة الذين كانوا يفتون إلى جالب الثورة، واثقون بمجدواها، وخاصة بعد أن تنبه عسكريهم إلى
 خطورتها وأهميتها حينما وصلت قوات فيصل إلى الوجه، وأدركوا أن القوات التركية التي تحارب العرب
 أكثر من القوات التي تحارب الإنكليز. ففي تموز ١٩١٦ وصلت نخبة إنكليزية مؤلفة من فصيلتين
 مصريتين، وبطانيتين وأربع طائرات، وبعض الذخائر، وعدد قليل محدود من الجنود بقيادة العقيد
 سيد يث علي المصري^(٢٥)، كما وصلت بعثة فرنسية تتألف من الكولونيل بيرتون رئيساً، ومن ضباط
 مساعدين أحدهم فرنسي، وبقيتهم من المسلمين، وعددهم ١٢ ضابطاً من مختلف الرتب، وعدد

(٢٢) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ج ١، ص ٩٠-٩١.

(٢٣) راجع أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ١٩٩-٢٠٠، عن تفوق الترك في الهندية والمطائف حل جهوش
 الأتراء على وفيصل وعبد الله في أول عهد الثورة.

(٢٤) ARMITAGE, *Ibid*, pp. 99-100.

(٢٥) COL. BREMOND, *Ibid*, p. 55، مؤرخ الثورة، المصغر السابق، ص ٢٣-٢٤.

من جنود المغاربة مع بعض المدافع والأسلحة، و ٨ بطاريات خفيفة و١٢ بندقية من حيار ٨٠، و ٢٥٠٠ بندقية^(٢٦)، علماً بأن هذه التجهيزات لم ترد إلا بعد لأي، فقد كان عبد الله السراج ليس ووزراء الشريف يقول: «إذا بقي الحلفاء على هذا الضعف معنا لا يبقى لنا إلا أن نعود فننتقم مع الترك»^(٢٧).

تنظيم الدولة العربية

لم يمس على إعلان الحسين ثورته فترة من الزمن حتى بدأ في ترميخ دعائم للدولة، لكنه لم يعلن عن تشكيل وزارته فوراً، بل تأخر ذلك حتى ١٠/١٦/١٩١٦ إذ أصدر لإرادة سنية بإستناد منصب قاضي القضاة إلى الشيخ عبد الله السراج، الذي عين في الوقت نفسه رئيساً للوكلاء (الوزراء)، وإستناد وكالة الخارجية لتجعله الأمير عبد الله، ووكالة الداخلية لتجعله الأمير فيصل (محبوب عنه فيها الأمير عبد الله). وتعيين عزيز علي المصري رئيساً لأركان الحرب، ووكيلاً لرئاسة الجند، ووكالة المعارف للشيخ علي المالكلي، ووكالة الأشغال العامة للشيخ يوسف بن سالم، ووكالة الأوقاف للشيخ محمد أمين، مع احتفاظه بوظيفة مدير الحرم الشريف، ووكالة المالية للشيخ أحمد بن عبد الرحمن باناجه^(٢٨). وقد أعطاهم لقب وكلاء باختيار أهم وكلائه في تصريف شؤون الدولة. وفي الوقت نفسه أصدر لإرادة سنية أخرى بتأليف «مجلس للشيخوخة الأعلى» للفتقر في كل ما يتعلق بمناقص البلاد، ومراقبة أعمال الدواوين والسياسات الرسمية، وإبداء الرأي في ما تعرضه الدوائر على رئيس الوزراء، على أن تقرر فيما بعد صلاحية هذا المجلس. وقد عين لرئاسته الشيخ محمد صالح الشبيبي، ولعضويته مفتي الشافعية والمالكية وغيرهما من الشخصيات المحجزة^(٢٩)، وأطلق على حكومته اسم «الدولة العربية الهاشمية»، وحرّم استعمال الألقاب التركية (باشا، بك، أفندي)، ورفع رواتب رجال الدين (المؤذنين القراء، عظام الجوامع...) إلى ثلاثة أمثال^(٣٠) كما ألفت لجنة من كبار رجاله لتسمية

(٢٦) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص ٣٤، كان من الضباط المغاربة الذين أرسلوا إلى الشريف القمم قاضي وقتيب راسو.

(٢٧) COL. BREMOND, Ibid. p. 83.

(٢٨) أسعد داغر، ثورة العرب، ص ٢٣٩، ٢٣٣، مذكرات الملك عبد الله، ص ١٢٩.

(٢٩) أسعد داغر، ثورة العرب، ص ٢٣٣.

(٣٠) O. SAMINI Ibid. pp. 385-386.

مشاكل الأجور والرهون والديون، وإزالة الخلافات بين المؤجر والمستأجر، والفنان والمدين، فعم الأمر بتسوية فرضي الخاصة، وتقليها العامة^(٢١). وسرعى على أن يحلف للبلاد المقدسة مظهرها الأخلاقي. فأصدر مراسيم تفضي بمنع تقديم الهدايا لرواد المتاحي في أثناء أوقات الصلاة، وتحريم حمل الأسلحة في المدن، ومنع بيع وتجارة الخسور. ولكن هذا المنع لم يطبق بدقة نظراً لنفوذ صناعات الخمر في مكة. كما أمر بتدمير محلات طباخ السري، وهياً مشروعاً لصك عملة عربية هاشمية مقبسة من الطراز الإنكليزي، على أن تضرب في الهند^(٢٢). وكان في حكومة الشريف جهاز من الموظفين فيه كثيرون من السوريين والعراقيين تولوا مختلف الوظائف، مثل الهامي فائر الغصين، وقد عين أميناً للسرا لدى الأمير علي، ثم لدى الأمير فيصل، ونسيب البكري من أركان حرب فيصل، وأخوه سامي البكري، وهو من عريحي مفرسة الحقوق، وقد عين مساعداً لوزير الخزانة، وشفيق الصير وكان صحفياً، عين مساعداً لأمين السرا^(٢٣). وأنشأ جريدة سياسية سماها «القبلة» لتفي بأغراض الدعاية والتوجيه لخدمة حركته الثورية. غير أن تنظيم الإدارة بقي محصوراً في نطاق ضيق، لأن ظروف الحرب وما فيها من إرهاق قد حالت دون التوسع فيه، فأبقى النظام التركي في المدن بصورة مصغرة، إلا فيما يتعلق بالقانون المدني التركي الذي أهمل ليحل محله التشريع الإسلامي الأصيل. وقد أبد الشريف — بمسكنه — العودة إلى النظام القبلي القديم، بأن يكون الاعتماد على العرف والتقاليد، وعلى ما يملكه القضاء من سوابق الأحكام. فكان على البدو — بطبيعة الحال — أن يهملوا هذه التطورات، بينما اضمحس سكان المدن — وخاصة منها مكة وجدة — الذين أسفوا لقيام حكومة محلية، ذلك أن الحكومة التركية كانت تتعامل كثيراً مع أصحاب النفوذ من هؤلاء، الذين كانوا يحصلون على امتيازات كثيرة، وكان أكثر سكان المدينتين المذكورتين من الأجانب كالهنود والجاويين والإفريقيين، وهم أبعد من أن يتحسسوا بالألماني التي تعيش في صدور العرب، خاصة إذا كانوا من البدو، لما كان بين هؤلاء وبين سكان المدن من حقد دفين ناشئ عن التعديتات والسلب والنهب الذي كان يقع عليهم منهم^(٢٤).

(٢١) أسعد فاضل، ثورة العرب، ص ٢٢٥.

(٢٢) COL. BRIMOND, Ibid. pp. 127-128.

(٢٣) لورنس، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٨.

(٢٤) لورنس، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧١-٧٢.

بعد ذلك كان على الثورة أن تلتفت إلى تنظيم الجيش ، ذلك أنها قد واجهت في يادى أمرها مصاعب جمة ، ولم تحظ بالدهم العاجل المطلوب من الخليفة إنكفرا ، حتى أن القائد العام للجيش الإيطالي في مصر — كما قال لورنس — لم يكن مؤمناً بالثورة فلم يبدل المال والرجال والسلاح في سبيلها ، وفضل توجيه كامل قواه نحو جبهة فلسطين . كما كان ضباط الزكائن الإيطاليون في مصر لا يترددون عن السخر بالمتعمد الإيطالي — الذي يدعم الثورة لكنه يكره التدخل في الشؤون العسكرية — فيقهرهون من توقعهم أن يجهدوا المحسن معلقاً عاجلاً أو آجلاً على مشقة تركية^(٣٥) وهذا ما دعا فريصلاً أن يحمّد في ابتداء الحركة على الحجازيين اللذين استجابوا للثورة ، وكانوا أول من تقلد السلاح لتأديها ، وكان يدعو القبائل لتلتف حوله وتقاتل الترك قلبت للنداء وكانت وفودها « كالطوفان العظيم الذي يتدفق مطالبة بالسلاح »^(٣٦) . حسب برقية من الأمير عبد الله غير أن حروب القبائل لم تكن من التنظيم بحيث تنهي إلى نتائج باهرة . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الإنكليز كانوا يماطلون في إرسال الأسلحة أو إذا أرسلوا منها شيئاً فإنهم يكتفون بالأسلحة المخفية ، كالبنادق وكثير منها لم يكن صالحاً للاستعمال لقدمه^(٣٧) ، فضلاً عن أنهم لم يكونوا يرسلوها إلا بعد المثل والتسوية ، لأنهم رغبوا للثورة برقائماً يجب ألا تتعداه ، كي لا تكون خطراً على مشروعاتهم الاستعمارية^(٣٨) . كما كان يهدف أمام الإنكليز لمعتبر آخر بأن دخول الحجاز محظور على غير المسلمين ، وهذا ما يمنعه من إرسال قوات إنكليزية أو حليفة إلى بر الحجاز لقتال الترك ، خاصة وأنهم لا يريدون « نزع جيوش الدفاع عن مصر — التي هي المحل الأول في الأهمية — لتهلها على ومال صحراء العرب » ، كما قال لورنس . حل أن سياسة الحسين ومواقفه من طلب المساعدة بالرجال لم تكن ثابتة ، إذ كان كثير التردد قليلاً ما يثبت على رأي ، يطلب الجيوش من الحلفاء — ببرقية يرسلها وزير خارجيته — عندما يقطن إلى ما يمكن أن يلحقه به الترك فيما إذا وقع في أيديهم ، ويرفضها حيناً ينتهي به التفكير إلى الاعتقاد بأن الحلفاء — إذا دخلوا وشوطدت أقدامهم في البلاد — فإن من الصعب إخراجهم منها ، وأن العالم الإسلامي سوف ينهض ضده لسماعه بدخول الأجانب إلى الديار المقدسة . وأخيراً وجد السور « ريجنالد ونجت » الحل الملام : أن لا يرسل أي جندي إلى

(٣٥) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ص ٢١٧ .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ، من برقية أرسلها الأمير عبد الله للمحمد الإيطالي في مصر .

(٣٧) الأمير مصطفى الشهابي ، محاضرات عن الاستعمار ، ج ٢ ، ص ٧٠ ، نقلاً عن لورنس .

(٣٨) أحمد دغور ، متكرراتي على مجلس القضاة العربية ، ص ٨٩ .

الحجاز إلا إذا طلب الحسين ذلك خطياً تحت توقيعه ، هذا الذي لم يفعله الحسين قط ، لأنه كان يحاذر هياج العرب ، إذا ركلوا الجيوش الأجنبية في الأراضي المقدسة^{٣٧}.

كل ذلك جعل للحسين بعدل عن الاعتقاد كلياً على الخلفاء ، وينظر في إنشاء جيش نظامي يكون عليه الموعول . لكن حاجته إلى ضباط اكفاء ليحقق هذه الأمنية جعلته يتصل بولاة الأمور الإنكليز في مصر ، ويتفق معهم على امداده بالجنود والضباط العرب ، الذين بأسروهم في ميداني فلسطين والعراق ، على أن تقدم إنكليز الأسلحة والمعدات التي تلزم لتأليف الجيش المطلوب . عندئذ بدأت أفواج الضباط والجنود العرب تتدفق على الحجاز سواء منهم المأسورون ، أو الهاربون من صفوف الجيش التركي يدافع من وطنيتهم . وكانت أول قافلة من هؤلاء غادرت السويس في أول آب ١٩١٦ تتألف من سبعة ضباط هم : نوري السعيد ، ومحمد حلمي البغداديان ، ورأسم سردست الدمشقي (وقد برز في معارك الشمال بقيادته الماهرة لدفعه الجيش العربي) ، ورؤوف عبد الهادي النابلسي ، وإبراهيم الراوي ، وحجيج الراوي ، ورشيد الهاشمي وكلهم عراقيون . وقد رافقهم الطبيب الدكتور أمين المعلوف اللبناني ، ورفقته مستشفى كامل المعدات بقي بحاجة منه جريح مع جميع لوازمه بالإضافة إلى خمسين خيمة ، وأمدت الثورة معها بألغي هندقة وكمية كبيرة من القذائف و ٣٠٠ بقلة للمنقليات و ٢٦ حصاناً لجر المدافع ، وكميات كافية من الأرزاق والذخائر^{٣٨} . ثم توالى القوافل من الضباط والجنود والمثقفين والزعماء ، وكل من كانت تضطرم في نفسه شعلة الوطنية والحماسة للقضية القومية ، وخاصة من كان يقع منهم أسيراً بيد القوات الإنكليزية ، التي كانت تسوقهم في بادئ الأمر إلى « سمرقور » في الهند ، حيث تجمع الضباط والجنود العرب بعضهم إلى بعض ، فيقوم المحمسون منهم للقضية العربية بإفخاخ الآخرين بمضرة الالاتحاق بشرة الشريف ، بعد أن يظلمهم — وخاصة الضباط العراقيين الذين لم يكن لهم علم بما يجري من حوادث خارج منطقة العراق — بالفتلح التي ارتكبها جمال باشا في دمشق ، وما يصدر عن القادة الأتراك من سوء نية ، بحيث لا يقولون بأن يكون الأسرى العرب من جملة الذين يجري تبادلهم مع الأسرى الإنكليز لدى الترك . وهكذا التحق بالثورة من ضباط العرب : القائد حسن فهمي الزينوكجي ، والملازم نسيب الشولي ، وكلاهما من دمشق ، والملازم شاكر ملا حمادة من بركة ، والملازمان مكّي أبو حمد ومنعم عبد من فلسطين ، واللقباء عبد الرؤوف الموصلاني ورشيد آل أنكرلي وعبد الكريم اللتري ،

(٣٧) R. ALDINGTON, Ibid. p. 121 : لويس ، الثورة في الصحراء ، ص ١٣ .

(٣٨) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ .

والملازمون عبد الرزاق الخجاء، وعبد الرزاق حاج رزوقي، ورشيد حسين الخماش، وشاكر آل الدائب، وحامد الوادي، وعبد الحميد الشالجي، وشاكر ملا عبد الوهاب، وعبد اللطيف طابور آغاسي، ومحمد جمال القول آغاسي، وكلهم عراقيون. كما كان من هؤلاء من يتطوع من لواء نفسه. ولم تكن السلطات الإنكليزية لمرسلهم إلى الحجاز إلا بعد أخذ موافقة الشريف حسين. وكان من هؤلاء الدكتور حسن شرف الدمشقي، والقيب توفيق أبو طوق الحموي، والضباط العراقيون مولود غلص، وعمل جودة الأيوبي، وعبد الله المديني^(٤١)، وجميل المدفسي والضباط السوريون: يهجت الشهابي، وفاتر الشهابي، ونوفس الشهابي، وزكي الشطي، وزكي المدرسي، والضباط الفلسطينيين رؤوف عبد الهادي^(٤٢). وكان هؤلاء الضباط قادة كبيرة لأنهم مدرسون لديهم جيداً في المدارس حربية من جهة، ولكونهم قد خدموا في الجيش التركي ولهم معرفة تامة بمخططات العدو وحركاته وأحواله من جهة ثانية. غير أن السياسة كانت تشغل أفكارهم لأنهم كانوا يحشون نبات الخلفاء وجزعوا من أن تلعب جهودهم عيشاً، وإن يكونوا عمالاً لخدمة الاستعمار أكثر من عملهم للاستقلال العربي لذلك كانوا حساساً وصغهم أحد الكتاب «يقومون ببعض الواجب العسكري، وتصرفهم المشاغل الفكرية عن اتمام الباقي»^(٤٣). كما أن بعضهم لم يقدموا على الاشتراك في الثورة إلا بشروط معظمها مادي، فلما بالإضافة إلى أن الدلائل بدأت تدب في قلب الجيش يهوها بعض من ارادوا الصيد في المياه العكرة، فظهرت مسألة سوري وعراقي، وكثرت الانتقادات التي توجه للشريف حسين «العصبي المزاج المتعنت المشبث برأيه» ولو بغير حق، ولنجله فيصل، ثم بدأت عملية اللبس بين الأب وابنه. كما تفرص المتحصبون بأن فيصلاً ينوي الاستيلاء على سورية وفصلها عن سلطة الشريف وتمزيق الوحدة العربية لتحقيقاً لأطماعه الخاصة، ولوغروا صدر الشريف حسين على الضباط السوريين والعراقيين بأنهم أعوان فيعمل للوصول إلى هذه الغاية، وكادت هذه الدلائل أن تعكر الجو بين الشريف ونجده والضباط السوريين والعراقيين لولا أن تفادى الأخير فيصل الأمر بحكمته^(٤٤) عندما ثارت نائرة الشريف لدى اطلاعه على نية الأتومبة التي منحها الجنرال اللبناني الجعفر باشا العسكري، فأنبرت جريدة «القبلة» بأمر من الحسين إلى وصف من أطلقوا على جعفر باشا لقب «الجنرال الأعلى للجيش الشمال» بأنهم «مهايل»، وإلى نفي أن أحداً من قادة الجيش

(٤١) فاتر قنصون، مذكراتي من الثورة العربية، ص ١٥٧، ١٢٦، ١٨٠.

(٤٢) الأمير مصطفى الشهابي، محاضرات عن الاستعمار، ج ٢، ص ٨٠-٨١.

(٤٣) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص ٣١-٤٨.

(٤٤) R. ALDINGTON, Ibid. pp. 193-194. أسعد دلمر، مذكراتي حل هاملي القضية العربية ص ٩١، ٩٤.

يصل رتبة أهل من رتبة نقيب، وأن الضباط المذكور ليس له ما يميزه عن غيره من الضباط، فهاجر جعفر وغيره من الضباط العرب إلى الاستقالة، وثار ضجة كبيرة تلافاها فحصل وعادت الأمور إلى مجاريها^(١٥).

لقد تطلب تنظيم الجيش وتدريبه استخدام الضباط السابقين على المصري من القاهرة، وكان — بعد أن أُنقِضت مفاوضات الإنكسار معه في بداية الحرب — يرقب الأحداث عن كثب. ولا أقضت إليه السلطات البريطانية بالقاهرة سراً بفحوى مراسلات الحسين — مكماهون أبدى استعداده للتعاون مع الإنكليز، وتقديم خدماته للثورة^(١٦). بعد وصوله اجتمع بالشريف علي، ونوري السعيد، وغيرهما من الضباط، وجرى البحث بينهم في أمر تشكيل الجيش وتنظيمه فألف، من الرجال الموجودين، لواء كامل بضباطه وجنوده ومدافعه ورشاشاته — وكنا رأينا أن وكالة الحرية أسندت لعزيم المصري — وعين النقيب توفيق أبو طوى قائداً للكتيبة الأولى والنقيب رشيد أنكرلي قائداً للكتيبة الثانية، والعقيد نوري السعيد رئيساً لأركان الحرب، وعين كل من الدكتور أمين المعلوف، والدكتور منير، والدكتور حسن شرف أطباء للحرس، وعين الملازم علي جودة الأيوبي رئيساً لشعبة الأركان، وتسيب المتولى مرافقاً لقائد اللواء^(١٧).

وشرع عزيم علي في العمل بكل ما أوتي من جهد وإخلاص وهمة ونشاط، حتى وفق في إنشاء قوة قوية لا يستهان بها، قامت بإصحاب الأعداء قبل الأمدقاء، ودلت على نشاط العرب وذكائهم، وفي خلق نواة جيش مدرب مؤلف في أكتفائه من رجال القبائل الذين ليس لديهم إلا إدراك يسير لحضى النظام والتدريب^(١٨). في الواقع كان رجال القبائل كثيراً ما ينقضون عن فصيل ثم يجتمعون حوله من جديد، وهكذا دولذلك بحسب الأهواء التي تسببهم، وأهمها الحصول على الغنائم وقبض الرواتب^(١٩). وبغضاً عن ذلك فهم لم يميلوا إلى مساعدة الثورة إلا بعد أن أغراهم فحصل بالأموال التي كان يقبضها ذهباً من الإنكليز، لأنهم اعتقدوا في هادئ الأمر أن لا بد للترك من استرداد مكة. ومع ذلك كانت مساعدة كثيرين منهم صورية، بأعطون الأسلحة والذخيرة ويسرون لمقاتلة الترك،

(١٥) LAWRENCE, *Ibid.*, pp. 717-723. (٢٥)

(١٦) أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٣٦٠.

(١٧) طائر النصف، ملكتوا في الثورة العربية، ص ٢٢٩ — ٢٣٠.

(١٨) أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٣١٠، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٢٦٩.

(١٩) P. L'AUTEY, *Ibid.*, p. 123; ARMITAGE, *Ibid.*, p. 100. (٢٦)

فإذا لم يروا حولهم أحداً يوقظ حركاتهم بأصواتهم، وإذا شعروا بمن يراقبهم أطلقوا بضعة طلقات فارية ثم هربوا. وكان بعضهم—وعلى ما في جبهة الأمر على أي يد السرويش بجوار المدينة—يرسلون لقتال الترك، فيطلقون عليهم التيران طيلة النهار، حتى إذا أدركهم الظلام تركوا مواقعهم وهاضوا إلى خيامهم، وصرغان ما يعود الترك إلى مراكزهم التي اضطروا إلى إختلاجها بفعل نيران العرب^(٣٠). لذلك فإن فبصلاً—مع شدة ثقته بنفسه ورجاله العرب—كان يطالب بأن يرسل إليه جنود منظمون ولو كانوا بقبعات لفرنجية، وبأن يزود بالمنطوق الخفيفة. وهكذا حتى استطاع بفضل تنظيم الجيش أن يكون لديه قوات نظامية ظل عددها يتزايد حتى وصل في نهاية مراحل الثورة إلى ما يقارب ٥ آلاف مقاتل يشرف عليهم عدد كبير من الضباط، وإلى جانبها عدد كبير من العرمان، فقد عددهم في بعض الأحيان إلى ٧٠ ألفاً موزعين على مختلف جهات الجبال الشريف حسين^(٣١).

صدى الثورة لدى الترك

لم نكد أنباء الثورة تفصل إلى أسماع الترك حتى ثارت فائرة جهال باشا، فأمر فخري باشا، قائد جيش المدينة المنورة، بأن يسير إلى مكة ويحتلها، ويلقي القبض على الشريف حسين وأولاده. وتضاعفت شدته، فحصبهم فخصيه على من بقي من زعماء وأحرار العرب، وأمر بإلقاء القبض عليهم، وقتلهم في السجن وتعليقهم، وكان منهم الشيخ الطيور شكري باشا الأنباري، وأمر اللواء حمد الحמיד باشا الفلعلقيجي، والنائب فارس الحوري، والدكتور أحمد قنبري الترحمان، وشكري القوتلي، وأودعوا الزنانات المظلمة في عان الباشا بدمشق، وسموا أنواع العذاب ضرباً ونجماً... وكان أولهم شكري باشا يضرب كل يوم حتى أشرف على الهلاك، ومع ذلك لم يعترف أحد منهم بسر من أسرار الحركة العربية وجميعاتها السرية. لا بل إن شكري القوتلي—وقد جرّع من أن تؤدي وحشية رجال الدولة وشدة تعذيبهم له إلى تخاذله فيضطر، في حالة فقدان الوعي، إلى الإدلاء بما يعسر القضية العربية—أثر الانتحار بقطع شرايين يده، وكاد أن يفارق الحياة، ولم يتقله من هذا المصير غير انتباه السجائين إلى الدم القلبي كان يسيل خارج بوابة الزنينة، فنقل إلى المستشفى وأسعف بسرعة^(٣٢). ولم لم يبادر الأمر فيحصل بالانفجار جهال باشا، بأنه مقابل كل شهيد جديد من زعماء العرب سيضطر

(٣٠) مؤرخ الثورة العربية. المصدر السابق، ص ٣٩، ٣٥.

(٣١) محمد كرد علي، غرر الشام، ج ٢، ص ١٤٣.

(٣٢) مذكرات الدكتور أحمد قنبري، ص ٦٤.

إلى قتل عشوة من ضباط الترك الأتري لديه، فكان قد حل بهؤلاء الزعماء ما حل بسابقيهم. وكان لهذا الوعيد أثره في الإفراج عن المعتقلين^(٥٣). ومع ذلك لم تكن السلطات التركية، التي أذهلتها مفاجأة الثورة، لتطلع الشعب على حقيقة الأمر، إذ ظلت للمبلاغات التركية مدة أسبوعين تنفي وقوع أي اضطراب، إلى أن صدرت جريدة الشرق الرسمية في ٢٩ حزيران تنوه «بأن بعض القوات القبلية هاجمت بضعة مراكز في جوار المدينة» دون أن تشير إلى الشريف حسين بشيء. ولم تسمح بالتحوض في موضوع ثورة الحسين حتى ٢٦/٧/١٩١٧، حينما نشرت جريدة طنين بالآستانة صورة مشوهة عنها^(٥٤).

وبما يدل على شدة أثر الثورة على جمال باشا النهضة التي كتب بها انطباعاته عنها في مذكراته، إذ أنه وصف الشريف بالغدر والسفالة والأنانية والجشع والطمع والخيالة، وأنه قد باع نفسه للإنكليز، وأنه لو علم أن الحسين قد اتفق مع الإنكليز على الثورة لما ترك تجله فيصلاً بلغت من قبضته، ولأمر بالقضاء القبض عليه وعلى أخيه علي في المدينة، ولأرسل فرقة تركية على جناح السرعة إلى مكة للقضاء على الشريف وأولاده، والقضاء على تلك الثورة في مهدها^(٥٥). والواقع أن جمال باشا قد أدرك بعد فوات الأوان أنه كان مخدوعاً، وأنه لم يحسن التصرف مع الحسين وأولاده الذين أفلتوا من يديه، بعد أن نالوا كميات كبيرة من السلاح، وعشرات آلاف الثروات المذهبية، للملك باذر إلى توجيه بعض المفاوز العسكرية، الوليفة في دمشق على قدم الاستعداد، إلى الحجاز للانضمام إلى قبيلتها، وأصبر تعليماته إلى الوالي فخري باشا كي يستلم قيادة الجند فيها، وأن يجعل في القضاء على الثورة. كما ألف وقدماً من أمين العرب المواليين للاتحاديين (محمد فوزي باشا العظيم، وعبد الرحمن باشا اليوسف، والشيخ أسعد الشقيري) سافر إلى المدينة على الفور لمقابلة زعماء القبائل، وحشدهم على مناصرة الدولة والولاء لها^(٥٦). ولم يحكم جمال باشا أثر الثورة الفعّال على الترك، إذ قال في مذكراته «أما ثورة الشريف حسين فكانت ضربة قاضية على حملة قناة السويس». كما قال في مكان آخر «والتضحيات الهائلة التي اقتضاها تمهين حامية المدينة، وإمداد الجنود المربطة بين المدينة ومكان بالمؤونة والذخيرة، حتمت علينا أن نشطر المؤن المخصصة لفلسطين إلى شطرين، وحالت دون تعزيزنا لهذه الجبهة بالقوة اللازمة متى شئنا وكيفما أردنا». وعن تأثيرها السيء على الجهاد قال

(٥٣) رشدي الفرسي، ترجم فرانس شكري التوتلي، ص ١١-١١.

(٥٤) المنطوقوس، المصدر السابق، ص ٢٩٨.

(٥٥) مذكرات جمال باشا، ص ٣٦٦-٣١٧-٣٨٨.

(٥٦) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ١٥٧-١٥٨.

« من المؤسف أن أمراً دينياً قد عطل الجهاد المقدس ، في صميم الأرض الإسلامية المقلصة ، حينها حالف القوى المسيحية التي تسعى إلى اجتياز العالم الاسلامي ، والاستيلاء على عاصمته »^(٥٧).

أما الحكومة التركية في الآستانة فقد كان للثورة العربية وقع شديد عليها ، وبلغ استيائها منها مبلغاً عظيماً فبادرت فوراً ، وبعد ساعات من بلوغها الذبأ ، إلى إصدار إرادة منية بمخلع الشريف حسين من إمارة مكة ، وإسنادها إلى من طالما اعتبرها حقاً شرعياً له هو الشريف علي حيدر ، من أسرة « ذوي نهد » المنافسة لأسرة الشريف حسين ، وكان يشغل حينذاك منصب نائب رئيس مجلس الأعيان ، يريدون بذلك أن يضربوا العرب بالعرب ، ويلقوا الشقاق بين مختلف طبقات المتناحرة ويهزقوهم تمزيقاً^(٥٨). قبل المهمة مصرحاً بأنه « يريد أن يخدم بلاده كجندي يتلقى الأجر » ، وأنه سيعرض شروطه على الترك بعد انجلاء الموقف . وقد جاء في المذكرات التي تركها لزوجته الإنكليزية ، والتي نولى عرضها الكاتب الإنكليزي جورج ستيت O. STITT ، أنه قال طلعت بك بأن بقائه في هذا المنصب ، بعد الحرب ، سيكون متوقفاً على الاستجابة لبعض الاعتبارات والمطالب الهامة التي يتقnamاً بأن الحكومة سوف لا تتأخر عن قبولها . فأجابته طلعت « أستطيع أن أؤكد لك بأن الحكومة تولفق على أية شروط تضعها ، إن مهماً كبرى تستظرك في الحجاز ، فترجو الله أن يسه كل شيء على مايرام » . ولما سمع الشريف ناصر أخو الشريف حسين — وكان عضواً في مجلس الأعيان وشجب حركة أخيه علناً ، ولكن ببارات خامضة — بخبر إسناد الإمارة إلى الشريف علي حيدر ، اتصل بطلعت بك حالاً ، في محاولة منه ومن أفراد عائلته في الآستانة لإنهاء الإمارة في أسرة « ذوي صون » ، وقال له « أنا هو ذلك الرجل الذي كان يجب أن نُسند إليه الإمارة . فإذا ما أسندتموها لي فلأنني أقسم لكم بالقرآن الكريم بأن آتيكم برأس أخي الشريف حسين » . فأجابته طلعت بأن للحكومة مرشحها الخاص ، لأن كنت غيوراً على مصنعة الدولة فأذهب وانظرو تحت لوائه مجاهداً . لكن الشريف ناصر آثر اليقاء في الآستانة ولم يلبث أن رمى القفاز بوجه الترك وذهب إلى مكة ، حيث أصبح من مشاوري أخيه^(٥٩).

وقبل أن يتحرك الشريف علي حيدر إلى المدينة ، لاستلام منصبه الجديد ، استعرض مع الحكومة إمكانات ضرب الثورة ، وتطبيق القبائل التي انضت حول الشريف حسين ، وأن وجوده في

(٥٧) مذكرات جمال باشا ، ص ٢٩٠ — ٢٩٢ — ٢٩٣ ، أنطونوس ، المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

(٥٨) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

(٥٩) O. STITT, Ibid. pp. 160-163 .

المدينة لا يمكنني لجذب القبائل المذكورة، إنما يكون ذلك بتزويد المدينة بالإمدادات والمؤن والأرزاق والمهمات بدرجة كافية، وطلب الإسراع في تأمينها، إذا أهدأ لمهته أن تكتلل بالنجاح. فطمأنه أنور باشا إلى أنه سيجد كل شيء جاهزاً عندما يصل إلى دمشق^(٦٠). وقد فكر أنور في تشكيل حملة حجازية لاسترداد مكة، ولكن تقلد اشتراك غير المسلمين في هذه الحملة، وعدم استطاعة تشكيلها من الأتراك لوحدهم جعله يصرف النظر عنها^(٦١). ويظهر أن الأتقان - الذين كانوا يودون توجيه جميع القوات شطر قناة السويس ومصر - تأثروا في عدول أنور عن عزمه.

عندما وصل الشريف علي حيدر إلى دمشق فوجيء بالبرود الذي استقبله به جمال باشا، ذلك أن الطاغية أخذ ينتظر إليه بعين المشك والاشتباه، ولم يترك له مجالاً للاتصال بشيوخ العرب المحليين. وأخذ ينتشر حوله الجواسيس يراقبون حركاته واتصالاته، ووجب منه أن يسير بسرعة إلى المدينة، بعد أن حيا له بعض ما طلبه من لوازم وأموال، فغضب إلى المدينة بحرس خاص وقطار خاص وعمل على جمع القبائل حوله - وكان فخري باشا قد قبض على ناصية الحال فيها - فاجتمع لديه ما يقارب ١٥ ألفاً منهم، وأذاع منشوراً على أهل الحجاز، وجه الطعن فيه إلى الشريف حسين والإنكليز الذين غرروا به، وأشاد بالدولة العثمانية، وأتمم للحسين بأنه يتوالت مع العدو على الحجاز، ويحاول أن يجعل بيت الله الحرام وقلة الاسلام ومرقد الرسول تحت حماية دولة مسيحية، وفند حججه في خروجه على للدولة العثمانية، ثم أخذ يحرض القبائل على عدم طاعته، والبقاء على ولائها للدولة العثمانية، دولة الاسلام والخلافة وحاميتها^(٦٢). لكنه شكاً في مذكراته بأن نقص التنظيم في تأمين ضرورات المعيشة في المدينة قد وقف حائلاً دون إتمام مهته في إعادة السلام إلى ربوع الحجاز، فوكل مكثوف الدين أمام الحاجة الملحة إلى المؤن التي لم يكن في المدينة منها ما يكاد يكفي حاميتها، فاضطر إلى صرف للقبائل إلى أماكنها، ووعدها بأنه متى سحبت الفرصة وجاءت المؤن والأرزاق فإنه سوف يستدعيها للاستفادة من جهودها. غير أن فخري باشا أيضاً بدأ يتراب منه في بادئ الأمر، ويظهر له الخفاء، ويحكم عته أكثر المعلومات أهمية، ثم أصبح صديقاً له. ويذكر لنا الشريف علي حيدر في مذكراته أن الترك كانوا يحاضرون لتأثير الأتقان، الذين كانوا يرغبون في تركيز قوى الترك في جبهة السويس، ولا يبدون أن يبدعوها في جبهة الحجاز لضرب الثورة العربية.

(٦٠) Ibid. pp. 162-163.

(٦١) بيان فون ساتلير، لوثوكو دوه بش سنة، ص ١٣٥.

(٦٢) محمد طاهر قسيري، للمصدر السابق، ج ٩، ص ٢٩.

والخلاصة أن الشريف علي حيدر رأى نفسه عاجزاً... وهو صغر الهدين من المال... أمام القلح
 الإنكليزي الذي كان يتدفق على القبائل العربية عن طريق الحسين ، خاصة وأنه لاحظ أن القبائل
 العربية كانت تخشى إذا هي ساعدته ضد الإنكليز أن يلجأ هؤلاء إلى ضرب الحصار الشديد على
 شواطئهم فيموتون جوعاً ، فصاروا يعالونته بتأمين مؤنهم وأرزاقهم أولاً بأول^(٦٢) ، لمكرر طلب المؤن
 والأرزاق والأموال من الحكومة ، ولما رأى أنور باشا نفسه عاجزاً عن تلبية مطالبه الملحة أبرق إليه
 بالرجوع إلى دمشق ، فلقضى بقية أيام الحرب فيها ، وفي لبنان .

في الواقع واجهت المدينة المنورة مشكلة الإعاشة وتأمين إلى درجة أن فخري باشا لجأ إلى
 سياسة ترحيل الأهالي ليخفف من عدد الأنواء الآكلة ، فعلاً يسوقهم جماعات جماعات سواء إلى
 الشام أو إلى العراق أو غيرها ، لم تنزهم القطارات في مختلف المحطات . ذلك أن الجماعة قد
 أخذت ، منذ ربيع ١٩١٧ ، تفتك بالسكان بسبب الحصار المقروض عليها من جنود الثورة ، وبعد
 نفاذ ما كان لدى الأهالي وفي الأسواق من المواد الغذائية ، ولم يكن القليل الذي يوزعه فخري باشا ،
 يوماً على الأهالي ليكفيهم فمات بعضهم جوعاً^(٦٣) . ولم يكن فخري باشا ليتورع عن مذبحة
 المنازل ، ومصادرة ما فيها من أهدية ، ولم تكن سياسة جمال باشا إلا لتزيد في تعقيد الأمور ، ذلك أن
 أحد الأتراك قد ذهب إلى دمشق وأعلم الطاغية بأن شعب المدينة لديه الكفاية من المؤن ، منهما
 تجارها بأنهم يحتكرون قوت الشعب فيسيرون الجماعة . فانصرف عن الاهتمام بأمر إمدادها بالقوت .
 ولما وردته كتب الإلحاح من واليها أجابه بما يبلغه من قصة الاحتكار ، صندئذ يادر فخري باشا إلى
 تفتيش منازل التجار قلم بعد فيها من الأرزاق ما يكفي لأكثر من يومين^(٦٤) . لذلك كانت سياسة
 الترحيل هي الحل الأخير ترجيحاً لمصلحة الجند . وقد ارتكب الترك في أثناء ترحيل الأهالي بعض
 الفظائع التي هزت وجدان العرب ، إذ كانوا يعمدون إلى نقلهم أحياناً بالقطار ، حتى إذا قطعوا بهم
 مرحلة في الصحراء ، ألقيهم في الغيالي والقفار عرضة للجوع والهلاك ، فكانت وحدات جيشي
 الأميين علي وزيد تبيت الصيون والأرصاد لانقطاع كل من يلوذ منهم بالجبان والكباش فيقتلونهم من
 موت محقق . كما كان الترك يعمدون إلى الأناضول أو بلغاريا من يشبهون باشاغلهم في السياسة . وقد

G. STITT, *Ibid.*, pp. 163-172. (٦٢)

حسن محمد تصيف ، المصدر السابق ، ص ٩٠ . (٦٤)

G. STITT, *Ibid.*, pp. 174-175. (٦٥)

بلغ عدد من أهدى إلى الأناضول من هؤلاء ما يقارب / ١٧٠ / رجلاً^(١٦٦). ويظهر أن إحدى القبائل (العوالي) قد بدر من رجالها ما أسخط الترك، فسلط فخري باشا المدافع على أحيائهم وهدم قسماً منها، ثم أمر جنوده بمهاجمتهم، فحدثت مجزرة ذهب ضحيتها مئات الرجال والنساء والأطفال^(١٦٧). وهذا مادعا وزارة خارجية الدولة العربية الهاشمية إلى تقديم احتجاج، إلى دول الحلفاء المحايين، نددت فيه بفظائع الترك في المدينة، وجورهم على أهالي قبيلة العوالي، ونصيبهم المشاق لأفرادها، ولتبرؤهم من أهل المدينة. وحدثت بالتأثر لهذه المظالم الوحشية^(١٦٨). كما أذاعت جريدة «القبلة» نداء موجهاً إلى جميع المسلمين بأن يتلوا الترك نيل الثورة، لأنهم قد سطوا على قبر الرسول، ونهبوا ما فيه من أثاث ومحتويات، وأن ينفضوا يدهم من تأييد السلطان العثماني، الذي سوف يكف خطباء الجوامع عن ذكر اسمه في خطب الجمعة، تعبيراً عن الانفصال عن السلطنة العثمانية^(١٦٩).

وبما كان يزيد في وطأة الحياة على المدينة فقدان الوقود للقاطرات، ذلك أن هذه كانت — كما رأينا سابقاً — تعتمد على الحطب، ولم تكن التخريبات التي يحدثها جنود الثورة على الخط الحجازي أكثر إزعاجاً للترك من فقدان الوقود، لأنه كان بإمكانهم إصلاحها فور حدوث التخريب، بفضل الفوج المؤلف من / ٨٠٠ / رجل وللمكلف بهذه المهمة، بحيث إن التخريبات التي كانت تجري حتى ربيع ١٩١٨ — حينما كلف الجنرال اللبناني الكولونيل «داولي» DAWNAY، على رأس فرقة من منظمة للقيام بالتخريب الجدي — لم تكن لتشكل تهديداً جدياً للترك في المدينة بل مجرد إزعاج. لذلك لجأ فخري باشا إلى اقتحام منازل أهل المدينة ليعتقلوا على أعشاب نوافذها وأبوابها ليستعملها وقوداً للقاطرات^(١٧٠).

صدى الثورة لدى الألمان

كان وقع الثورة على الألمان من الشدة بحيث منعوا نشر أي نبأ من أنبائها في صحفهم، وأعدوا يتقصون أخبارها بدقة، ويأدر قصصاً ألمانياً والنمسا إلى جهال باشا يستمزجان رأيه، فأجابهما

(١٦٦) لائل المصطفى، النظام في سورية ولبنان، ص ٩٥ — ٩٦.

(١٦٧) لطيف الله نصر الكاسيني، المصدر السابق، ص ٥٢٧ — ٥٢٨.

(١٦٨) فالر القمصين، النظام في سورية، ص ١٠٢.

(١٦٩) COL. BREMOND, 1944, p. 129.

(١٧٠) E. ALDINGTON, 1944, pp. 141-142.

بأنها حركة موضعية بسيطة كن يكلفه إخمادها أي جهد، وأنه أصدر الأمر إلى قواده في الحجاز بإلقاء القبض على الشريف، الذي يأمل بأن يشرهما بنياً شقيقه على أحد أبواب دمشق بعد بضعة أيام. ويمكن القول إن تأثير الثورة الأدبي على الألمان قد فاق تأثيرها المادي، بدليل التصريح الذي أدلى به أحد قادتهم العسكريين في دمشق بقوله: «إننا لم نستعمل الترك، ولم نبذل لهم ما يفتشاه، ولم نتحمل ما تحمّلناه، إلا لأن الخلافة الإسلامية فيهم، ولأنهم موضع احترام مسلمي العالم بسببها. أما وقد أضاعوها وفقدوا هذه الميزة بخروج الشريف حسين عليهم، وهو أكبر زعيم مسلم، وسليل أعظم بيت في الإسلام، فإن الألمان سيعيدون النظر في موقفهم من الترك...»^(٧١). كما أنشأ الكاتب الألماني الشهير الهر مكسيميليان هارون فصلاً عن الثورة قال: «إذا تمكن الأمر حسين من استيلاء العرب عليه، فإن لإرادته تصبح أمراً مطاعاً لا يخالف ولا ينازع في سورية والعراق وطرهان وأصفهان وأفغانستان، ويقضي على نفوذ ألمانيا في الشرق قضاء مبرماً»^(٧٢).

صدى الثورة لدى العرب

عديدون هم الذين انتقدوا الثورة وجلّهم من دعاة الجماعة الإسلامية ومن طلاب بقاء الرابطة العربية — التركية، إلا أن الأغلبية الساحقة من المنوين العرب قد أبدوها — وكان جل هؤلاء من الشباب الذين أخذوا على عاتقهم العمل القومي، وأغلبهم من المنتمين للجمعيات السرية، ولم يغرضوا أنفسهم بالكلام والتججج والهلوي وتلق الجواهر، وإنما فرضوه بالجد والتمار والجلد والنضحية — لا سيما وقد حدثت في الوقت الذي بلغت فيه وحشية جمال وطيغانه منسى الشناعة، فأنجبت قلوبهم إليها، وكانت من العوامل القوية في انتشار الفكرة العربية إلى مدى واسع، وبدأ العرب يستشرون بمستقبل الأمة، وإقيالها على حياة جديدة من العزة والشفعة والقوة والبهوض، بعد أن تال حريتها في ظل دولة موحدة مستقلة، وبدأ الشباب يروجون لها ويثرون الدعوة لتأييدها والالتحاق بها^(٧٣). أما سواد الشعب العربي، فمن الإخلاص للحقيقة أن نعترف أنه لم يتحسّس بها تحسّساً قوياً يسمح بالقول إن الفكرة قد تغلّغت في وجدانه حتى الأعماق، بل إن الحركات التي كان يضطلع بها الثوريون كانت تسلفت نظره وتوقظه من السبات، فجاءت الثورة لتقوي هذا الاكتفات وهذه

(٧١) أمين سعيد، الثورة العربية ج ١، ص ١٦٥.

(٧٢) أسعد داغر، ثورة العرب، ص ٢٦٨.

(٧٣) محمد عزه شوزة، الفصل السابق ج ١، ص ٤٧، ٦٣، ٦٤.

الليقطة لديه ، علماً بأن معظم من كان يسكن المدن الصغيرة والقرى والبادية ، من الشعب العربي ، كانوا في عزلة عن الحركات السياسية وعن الاهتمام بها . وزيادة على ذلك فإن عمق الفكرة ، وقوتها عند الشباب المتحررين ، والزعماء السياسيين كانت متفاوتة : كانت تصل عند بعضهم إلى مرتبة العقيدة التي تدفع مصاحبها إلى اقتحام الأخطار ، والتضحية بالنفس والمال ، وعند فريق آخر لم تكن سوى كلمات يرددها اللسان ، دون أن يكون لها أثر فاعل في القلب ، وعند آخرين وسيلة استغلال وجاء ومنصب وقفاخر . فاهيك عن وجود طبقة من الشبان المتحررين المرتبطون بوظائف الدولة ، التي اندمجوا في جوها إلى درجة أصبحوا فيها غرباء عن العربية ، وعن اللغة العربية ، فوغلوا من الفكرة موقف التشكك أو المنهج أو المندو المهاجم . ومثل هؤلاء طبقة الوجهاء والأعيان ، وبعض المشايخ ، الذين مارسوا الوظائف الحكومية والإدارية والشرعية ، كمجالس البلديات والإدارة والحاكم ، التي استمدوا منها وجعلتهم ومنافعهم المالية^(٧٤) .

ويتلخص رأي الذين أيدوا الثورة بقولهم إنه كان على العرب — بعد أن تسوا خطة الحكومة التركية بما تركه من جرائم وحشية في سبيل إقناء متورثهم ، ثمهداً لصهرهم في اليونقة التركية — أن يتركوا في مصيرهم ، وأن يوازنوا بين خطة الدوام على السكوت ، وخطة الخروج على الدولة والانحياز إلى جانب الحلفاء . ففي حالة السكوت يكون نصيب البلاد العربية — إذا ما انتصرت الدول الوسطى حليفات الترك — فقدان قوتها والإنصهار في اليونقة التركية حسبما رسم الاتحاديون . وباعتبار أن الترك لم يكونوا سوى دمية في أيدي الألمان يفرضون عليهم ما يريدون ، ولا سيما أن لألمانيا — كما رأينا — أطماعاً في بلادنا ، وبخاصة منها العراق التي وضعت فيها إستراتيجية اقتصادية وسكة حديد بغداد ، فانحصار الدول الوسطى معناه حلول الألمان في العراق واستعمارها ، ثم الانتداد إلى غزو من الأقطار العربية . أما إذا انتصر الحلفاء فإنهم سيمدون العرب أعناء لهم ، ويحترون بلادهم شبيمة حرب فيقتسمونها . فالسكوت أو الانحياز إلى جانب الدول الوسطى مقبته الحمران المؤكد ، سواء أكتب النصر لتلك الدول أم للحلفاء . في حين أن خطة الثورة على الترك في جانب الحلفاء تكون مقبته المرتفعة — إذا انتصر الترك ودول الوسط — أن يؤول مصير البلاد العربية إلى ما ذكرناه نفسه في حالة السكوت والبقاء بجانب الترك ، أي الاستمرار أو الخضوع للاستعمار الأجنبي ، وأما إذا انتصر الحلفاء فبلى استقلال نجد والحجاز واليمن ، وقد تستقل سورية

(٧٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٤ — ٦٥ .

والعراق . إما إذا حيل — في أصلاً الأحوال — بينهما وبين أمنيتهما تلك فإن سكانهما يحتفظون ، على كل حال ، بقوميتهم ولغتهم وبناسلوهم في سبيل الاستقلال . ولم يُنغفل زعماء العرب القوميون ، في ذلك الحين ، مناقشة الأمور بهذا المنطق حينما اتخذوا قرار المشروع في الثورة ، فأجمعت آراؤهم على أن التترك قد جروهم إلى الثورة جرأ ، وأن الثورة عليهم أمست أمراً لا بد منه ولا معدي عنه^(٧٥) .

ومع أن معظم المذنبين عارضوا الثورة لم يكونوا من المتكبرين على العرب سعيهم إلى تعزيز كياناتهم القومي ولغتهم ، إلا أنهم شجروا الطريقة التي اغلغها القوميون للوصول إلى هذه الغاية . وسأكتفي هنا بإيراد رأي زعيمين من زعماء هؤلاء ، أولهم الشريف علي حيدر ، والثاني الأمير شبيب أرسلان ، النائب في مجلس المبعوثان عن منطقة حوران .

فالشريف علي حيدر ، مع كرهه للتحالف مع ألمانها ، ووجوب إقامة علاقات طيبة مع إنكلترا ، ومع الشمرزاه من غطرسة الاتحاديين ، ومن مبالغتهم في الطموح السياسي وسُخَرَج الحكم ، وتكالبهم على السيطرة وتقديهم الأغراض الشخصية على المصلحة العامة ، لم يكن ممن يرون نتر الصلات القائمة بين العرب والدولة العثمانية . كان يؤمن إيماناً صادقاً بأن ازدهار البلاد العربية ليس ممكناً إلا إذا بقيت تدور في فلك سلطنة عثمانية متنورة ، مع ضرورة قيام المساواة السياسية بين الترك والعرب . والشكل الذي كان يتطلع إليه ، لعلاقة العرب بالترك ، هو قيام إمبراطورية كبيرة تضم دولاً ذات استقلال داخلي فعلي ، مرتبطة بسلطة الخليفة ، على غرار الإثبات الذي يشد مختلف أجزاء الإمبراطورية البريطانية إلى النجاس البريطاني^(٧٦) . وكان يؤمن بهذا الرأي فريق من منسوري الترك أنفسهم ، وحتى بعض القوميين منهم ، وإن كانوا أقلية مثل يوسف بك آقجور ، والكاتب الشهيرة خالدة أديب التي كرس قصتها « بكى طوران » (طوران الجديدة) لتعزيز هذا الرأي^(٧٧) ، وغني عن القول أن حزب الحرية والائتلاف التركي المعارض الذي نزعته البرنس صباح الدين كان مؤيداً لهذه الفكرة^(٧٨) .

كان الشريف علي حيدر يعتقد أن زعماء تركيا الفتاة قد فتحوا صفحة جديدة في تاريخ الأمة العثمانية ، وأن كل شيء سيستقيم في أوانه ، ويناشد الناشئين على للدولة بقوله ألا يحاولوا الانشقاق عن

(٧٥) الأمير مصطفى الشهابي ، فتوى قومية ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٧٦) G. STITT, Ibid. pp. 141, 156.

(٧٧) خالدة أديب ، بكى طوران (مكي طوران) ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٧٨) راجع كتابي قسطنطين والعرب والترك في العهد الدستوري العثماني ، ص ٥١ - ٥٨ - ٣٠١ - ٣٠٦ .

السلطنة العثمانية في هذا الظرف، الذي يمر العالم فيه في فورة من الاضطراب، ويخطر من مفك الدماء دون طائل، ويقول: «إن لدينا الآن حياة برلمانية، وإنا ندر لهذا النظام أن يوسع فباستطاعتكم أن تقصصوا عن جميع رغباتكم، فتحققوا المعنى الحقيقي للحياة البرلمانية. ومن خلال البرلمان نستطيعون أن نتأهلوا المساواة التي تتوق إليها نفوسكم، وهكذا يمكن جعل اللغة العربية لغة التدريس في الأتكنة التي تقطنها أكتية عربية، ونستطيع العرب أن يحصلوا على حقوقهم في الاضطلاع بالخدمات العامة، على قدم المساواة مع الترك، وأن يكون لهم أسطول بحروب شواطئ شبه الجزيرة العربية، يقوم عليه العرب أنفسهم، مع التبعة للسلطان العثماني، وبهذا الشكل يمكن حماية البلاد من الاعتداءات الخارجية. كما يمكن جعل بغداد عاصمة ثانية للسلطنة يقم فيها السلطان لمدة محدودة في أيام معينة من كل سنة. وتأمين التنمية العامة لبلادنا نستطيع أن نبين للعالم كيف يستطيع المسلمون أن يساهموا في الحضارة العالمية. إن جميع الولايات العربية تستطيع التطور وفقاً لمصالحها القومية...»^(٢٧٤). ولا يد لي من التعليق على هذا القول بأنه أقرب إلى الخيال منه إلى واقع تصور الاتحاديين لما يمكن أن يمحروا به للعرب.

أما الأمر شكيب أرسلان فقد كان أشد وطأة على الشريف حسين ونورته، بحركة اعتقاد مماثل بأن الاتحاديين سوف لا يطمعون العرب حقوقهم في الحياة القومية بعد الحرب، ويرى أن الثورة على الترك جنائية قومية لا تعاد لها جنائية. فقد وجه الأمر على صفحات جريدة «الشرق» الرسمية كتاباً مطولاً مفتوحاً إلى الشريف علي شيل الشريف حسين بدأه بالحدث الشريف «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، ثم يسأله «فما قولك بالمؤمن يلدغ ألف مرة، ما ظنك بالمؤمن ابن المؤمن، وللشريف ابن الشريف... يلدغ من جحر قد سبق أن لدغ غيره من المؤمنين منه.. مراراً يضع عندها الحساب...». وهو في هذا للكتاب يحذر الشريف وينبه إلى حائل الإنكليز، «وكم أولعوا فيها من زعماء قبله. ويذكره كيف وعد الإنكليز بإخلاء مصر، ثم بدؤوا بتهمة تدرجياً، دون أدنى مبالاة بجهود خطية، وهدوءه على المعاهدة التي عقدها معهم^(٢٧٥). كما يذكره بما صنعوه في الهند وزنجبار وجنوبي اليمن ومسلمة والبحرين والكويت... ثم يطالب الأمر بقوله «والى كم أيها الأمير، تمر بنا الثلاث ولا نعتبر، ونعطلنا الحوادث ولا نذكر؟ ونكون أشبه بالغم يأخذها الجزر للذبح واحدة بعد واحدة، وهي لا تعقل ماذا يفعل بها حتى تصير السكين في أعناقها»، وقرعه لأنه يريد بناء دولة

(٢٧٤) Q.37177, Ibid. pp. 156-157.

(٢٧٥) يظهر أن الكتاب موجه إلى الشريف حسين لا إلى ليله علي كما يذكر لاقله (الكاسبي).

عربية تبدأ أول أسرها بالنشوء تحت حماية إنكلترا. ثم يغمز من جانب زعماء العرب القوميون محطوا إياه منهم، قائلاً بأنهم هم الذين يزينون له هذه الأوهام، ويصفهم بأنهم قوم لا أخلاق لهم، وقد ابتلى الله بهم هذه الآفة، وأنهم ليسوا في واقع الحال سوى سماسرة للإنكليز، يتقاضون منها مبالغ سرية ثمناً لصفحة البلاد العربية. ويضيف قوله: «قل هؤلاء القائمين بالدعوة العربية، المناهضين لحفظ حقوقها وأخذ ثارتها، ماذا إلى اليوم أمتوا من حقوق العرب بقيامهم؟» ويسأله: «قد استولى الإنكليز على العراق العربي، فهل سلموكم شراً واحداً من أرض العراق؟» لقد دخلوا فلسطين من ستة أشهر فهل قالوا هو ذا فلسطين لكم أيها العرب...؟ بل كان قصارى أمرهم، بمجرد دخولهم القدس أن صرحوا على لسان المستر بلغور... بأنهم سيتركون فلسطين لليهود... ويأشروا بتبعية معدات دولة مستقلة يهودية... أفهل هذا ياكورة مساعدة أصحابكم الإنكليز للأمة العربية، أفسحر هذا أم أتم لا تبصرون؟». ويحتم كتابه بإغواء اللائمة عليه، لأنه يقاوم بعبثانه أخوانه العرب، ويسفك الدم العربي بأيدي عربية، ويذكره بأنه كان من الواجب عليه أن يلتزم الجهاد، ثم يعلنه بتصميم الدولة العثمانية على عدم ترك سورية للإنكليز مادامت على قيد الحياة^(٨٠).

صدى الثورة في البلاد الإسلامية والعربية

لم تكن أنباء الثورة تفصل إلى أمتاع المسلمين في مختلف أنحاء العالم حتى استاء منها أكثرهم، واعتبروها طعنة غيلة في ظهر الدولة العثمانية، التي اعتبروها حصن الإسلام ودرعه الواقي، موجهة إليها من شخص كان المنتظر منه أن يكون في رأس المجاهدين، وذلك بالرغم من أن الحكومة البريطانية التي تحتل جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي قد حرصت — بمختلف وسائل الدعاية — على أن تظهر حركته بأنها ترمي إلى تأييد الإسلام، لأن دولة الاتحاديين خرجت عن مبادئ هذا الدين^(٨١)، وهذا ما أُلج عليه منشور الحسين الأول الذي أذاعه في ٢٦/٦/١٩١٦. وقد علل فيه سبب قيامه على الترك ودعا فيه الشعب العربي إلى شد أزور الثورة، والأضواء تحت علمها، بوصفها ثورة قومية غايتها تحريرهم من النير التركي، الذي استحكم في أعناقهم طيلة أربعة قرون، وإحياء أجداد للدولة العربية التي قضى عليها التتبع العثماني^(٨٢). وقد حرص الحسين في المنشور على توجيه

(٨٠) نطفة أنصهر الهكناسي، المصدر السابق، ص ٥١٢ — ٥٢١ نقلًا عن جريدة الشرق.

(٨١) أحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق.

(٨٢) أمين سعيد، ثورات العرب في القرن العشرين، ص ٤٦.

أنظار العالم الإسلامي إلى اتهامات جملة ألصقتها بالأتعاديين، منها اغرافهم عن صراط الدين، وطعنهم في الإسلام، وتحريضهم على السيرة النبوية والحلفاء الراشدين، وتقويضهم أركان السلطنة، وضيق أراضيها بخوضهم الحروب وخاصة الحرب الأوربية الأخيرة، التي لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ويخوفهم بالدولة موقف المملكة، واضطرابهم أهل البلاد - بسبب سياستهم الرعناء - إلى بيع أممهم وحتى أبواب بيوتهم وأخشاب سفوفها للحصول على ما يسد الرمي، وإصدارهم الأوامر للجند في مكة ليعمل الصلاة والصوم اختياريين، وهم بذلك ركبتين من أركان الإسلام، وسلمهم ما للسلطان من حق التصرف والحكم الشرعي، واضطهادهم للعرب ومحاولتهم القضاء على لغتهم القومية^(١٨)، وعلى متونهم بتعليق معظمهم على أعواد المشائخ، وإجلاء فريق كبير من العرب عن أوطانهم، وإرسال كتائب وأسلحة كثيرة إلى الحجاز، بينما هو ليس بحاجة إلى ذلك. ثم أخذ يهون من شأن حركته بالنسبة للأتراك، حتى يملطف الواقع الناشئ عن ثورته، فقال إنه دعا الأتراك في معاقلمهم للتسليم ومن سلم منهم سلم نفسه، واته لا يبغي سفك الدماء بل إن الترك هم الذين ارتكبوا الفظائع، بضرهم البيت العتيق بقبيلتين من قنابل مدافعهم وقعا على مقربة من الحجر الأسود، والتهمتا بتارهما أستار الكعبة، وبضرهم بقنبلة ثالثة مقام إبراهيم مما يدل على استخفاف وإضرار بالكعبة وعظمتها^(١٩). وانتهى إلى أن علاقة العرب بالدولة العثمانية يجب أن تنتهي بالاستقلال التام، وأخذ يغي خضوع بلاده للسيطرة الأجنبية، ليقاوم بذلك دعاية أخرى، بأنها الأتراك، تقول بأن حركة الشريف هي بتحريض الإنكليز، ووعده العالم الإسلامي بأن يقيم الحقوق ويرعى الذم، كما وعد بإدخال مظاهر التقدم والري التحديث في البلاد العربية التي ينوي إعلان استقلالها، ودعا المسلمين كافة لتأييد حركته^(٢٠).

أعد الشريف منشوره بعد شهر تقريباً من إعلان الثورة (١٢ رمضان) لينشر في الجرائد المصرية، بعد أن يؤخذ رأي للمعهد البريطاني في مصر في طريقة نشره في جميع أنحاء الجزيرة مراعاة للوداد وحسن الطوية، ولم ينس أن يؤكد أن «الزهادة والتقص غير ممكنة وإنما يمكن جعلها بصفة ملحق». وقد ظن الحسين أن الإنكليز لا يعارضون في نشره، لكنه فوجيء يوم ١٦ رمضان بيقية

(١٨) A. MANDELSTAM, Le Soet De L'Empire Ottoman pp. 360 (١٩٢٠) : جريدة الأيام، الزمان والمصادقات ص ٢٦-٢٤.

(١٩) طاجي علوش، المصدر السابق، ص ١٨٦ أسعد خاخر، ثورة العرب، ص ١٩٨-٢٠٣.

(٢٠) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق.

بحسب حميد الدين ، الذي كان معاهداً للأتراك ، ولم يشأ أن يتقضى اتفاقه معهم — بالرغم من قطعهم الإحانة المنصوص عنها في معاهدة ١٩١٦ ، بأن يؤدوها له ولقبائله (حاشد وباقول) ، بسبب انقطاع الصلة بينهم وبين منطقته ، بل بقي موالياً لهم ، ولم يشأ لأسباب تمت إلى سلامته بصلة حتى أن يقبل المرض الذي قدموه إليه يتخللهم عن صنعاء له^(٨٩) ، يحكمها بصورة مستقلة والانسحاب إلى تعز التي اقترحوا بأن يجعلوها مقراً لفرقتهم العسكرية^(٩٠) — فإن بقية الإمارات العربية في شبه الجزيرة ، وكان بينها وبين الإنكليز معاهدات ، قد تلقت الثورة العربية ، بوجه عام ، تلقياً حسناً .

غير أن إمارة نجد السعودية كان لها وضع خاص من الثورة العربية . ذلك أن أميرها عبد العزيز بن سعود ، الذي عقد مع الإنكليز معاهدة القطيف ، كان عليه أن يكون مع الثورة ، ولم يكتم ذلك حتى عن الأتراك في بادئ الأمر . يتضح ذلك من الكتاب الذي بعث به جواباً على رسالة تلقاها من ولي الحجاز العثماني ، غالب باشا ، الذي غي إليه مآذار بين الشريف حسين ورجال الحكومة البريطانية من مفاوضات سرية وقد جاء فيها «إنك تعلم بأعمال الشريف ، وأنا الآن أنذك علماً أنه يفاوض الإنكليز ، وهو على وشك أن يخون الدولة ويفتح لأعدائها الحرمين ، فإذا قدمت إلى الحجاز أسلمت الحرم وأساعذك بكل ماندي من قوة» . فأجاب ابن سعود بقوله «إلى والشريف حسين يد واحدة»^(٩١) .

يبد أن ابن سعود لم يلبث أن شعر بما يهدد نفوذه في منطقته ، ذلك أن الشريف حسين قد عطا خطوة جريئة أثارت ضده أمير نجد ، حينما أعلن نفسه ملكاً على العرب ، دون سابق تفاهم على ذلك معه ، أو مع غيره من أمراء شبه الجزيرة العربية ، أو مع حلفائه الإنكليز والفرنسيين . فقد جاء إليه (إلى الحسين) في ذلك لمحله الأمير عبد الله — الذي استقرت في ذهنه فكرة إعلان استقلال البلاد العربية والبيعة لولده ملكاً عليها ، لأن الترك في ذلك الوقت كانوا ينتظرون إلى رجال الثورة على أنهم عصاة خارجون ، والحلفاء ينتظرون إليهم كتوازل لا أقل ولا أكثر — وأفهمهم أن هيئة الوزارة مصررة على إعلان الاستقلال والمناذاة بملكه على العرب ، فظاهر بالرفض فأغضى الأمير يقبل ركبته ، ويوصل إليه بالقول ، «والا فإن الوزارة مستقبيل ، فأعلن قبوله وأخذت له البيعة العامة»^(٩٢) في ١ محرم

(٨٩) كان الأتراك مستعدين أن يدخلوا للإمام من جميع أراضي اليمن يحكمها بصورة مستقلة لولا أن الكائن منهم من ذلك يدعي أنها تكون عند ذلك لثة سائلة للإنكليز .

(٩٠) COLONEL JACOB, Ibid. pp. 158-160.

(٩١) حسين خلف الشيخ بجزل ، المصدر السابق ، ص ٦٦ — ٦٢ .

(٩٢) متكررات الملك عبد الله ، ص ١٢٩ — ١٣٠ .

١٣٣٥/٢٨/١٠/١٩١٦، واشتركت في المباحثة وفود من مختلف البلاد العربية كانت في مكة بمناسبة موسم الحج .

اعتقد الشريف حسين أن الصيغة التي تمت بينه وبين الإنكليز — على ما فيها من ثغرات تركها القرطبان للزم — تحوله إنشاء المملكة العربية التي كانت تدور في خياله ، لا سيما وأنه كان يتق بيرطانيا ثقة لا حد لها ، وكلمة منها كافية لإطمئنانه ، فكيف إذا كانت هذه الكلمة مؤينة بتحاير رسمية من رجال رسميين ؟ وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن بريطانيا ، بما يعده فيها من عدل وشرف وصدق الوعود ، ستساعده بكل قوتها على تكوين هذه المملكة كما يفهمها^(٩١) ، وإن كانت مراسلاته مع الإنكليز لم توضح هذه الناحية التي بقيت غامضة . صحيح أنهم قيدوه بإحترام الاتفاقيات التي بينهم وبين بعض أمراء العرب ، لكنه اعتقد — على ما يظهر — بأن الدولة التي يريد إنشاؤها ، ويكون هو بطبيعة الحال ملكاً عليها ، لا تتعارض مع هذه القيود . إذ يكفي أن يعترف بوجود الأمراء الآخرين ، وبمحالفتهم مع إنكليزها ، مع بقائهم تابعين لدولته الجديدة^(٩٢) ، كي يحترموا لإرادته ويعترفوا بملكيته للعرب ، كما يتضح من الوثيقة المؤرخة في ١٧ صفر ١٣٣٧ هـ / ٢٢/١١/١٩١٨ م ، المنشورة في كتاب حافظ وهبه « جزيرة العرب في القرن العشرين » (ص ٣٢٧) بعنوان « مشروع الوحدة العربية » حسبما كان يفهمها الملك حسين ، والتي تضمنت بضع عشرة مادة اعتبرها الشريف حسين « دستوراً للأمراء كافة » ، وقد جاء فيها ما يمكن تلخيصه بأن تتكون حكومة مركزية (هو رئيسها) تدارس الشؤون العامة للدولة العربية ، بما فيها علاقاتها الخارجية مع الدول الأخرى ، ويقع على عاتقها — باعتبارها تمارس القوة العسكرية — عبء الدفاع عن مجموع الدولة ، على أن يحتفظ كل أمير بمنطقته ، ويكون مسؤولاً تجاه الحكومة للمركبة عن إدارتها . وقد نصت صراحة على خطر تخاير أي أمير من الأمراء التابعين له مع أي دولة أجنبية « لا يحق لأحد نجد أن يخاير أي دولة كانت في أي مسألة كانت بأي شكل وبصورة ، وهذه أيضاً من حقوق المركز وعائدة له ... » ، وعلى ضرورة حل « الزمرة الموسومة بالأخوان الحادثة من ستين » ، والتي هي عبارة عن معسكرات ... ، ويكون للإدريس منطقة صيبا المعروفة من زمن الترك ، والإمام يحيى ما كان له من الأراضي قبلاً ، أما حنيزة والقصيم أي برودة وملحقاتها فيكون لها الخيار في انتخاب ابن سعود أو ابن الرشيد للاتحاق به أو يكونون مستقلين في أنفسهم ... » .

(٩١) حافظ وهبه ، المصدر السابق ، ص ١١٧ . عهد هذه الدورة ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ — ٥٧ ، سر مشهور أركين ، المصدر السابق ، ص ٦٤ ، من حديث للملك فيصل .

(٩٢) الدكتور أحمد عورت عهد الكريم ، المصدر السابق .

وانطلاقاً من هذه النظرية لم يستطع الحسين أن يقبل باحتلال الإديسي للقفزة
١٠/٧/١٩١٦، وأسره لحاميتها التركية، ورفع الراية الإديسية عليها. لأنه لم يكن ينظر بانفتاح إلى
اتساع رقعة هذه الإمارة في العسير أو غيرها من الأمارات، ويعتقد بأن القفزة حجازية، وأن
الإديسي معتمد عليها. فأبقى إلى مندوبه في مصر مندوباً وطالياً منه أن يتوسط لدى الإنكليز في
حمل الإديسي على الجلاء عنها. ولكن الشريف كان في واد والإنكليز في واد آخر. إذ كانت «رغبة
بريطانيا العظمى في استيلاء الإديسي على ولاية العسير عموماً». فعندما أبلغه مندوبه بأن لا يتأثر
للحادث، لأن الأحوال الحاضرة تجهزنا على السكوت، «بادر إلى إرسال برفية مستعجلة، إلى
المحمد البيهاتاني في مصر، يشكو ما صادفه من معاملة دولته في حادث القفزة، مما لم يكن
يتصور أن يصادفه، لأن الحادث «متعلقة بروح المسألة رأساً وتأثر منها جوهر الكيان...» لا سيما
عكس تأثيراتها في أمهات المولد والتشبهات...»^(٩٣)، وكأنه يريد أن يقول إن حادث القفزة ليس إلا
خرقاً لاتفاقيات الحسين — مكماهون، والوقوف في وجه استتنام حدود الدولة العربية المستقلة يكامل
حدودها. ولولا تشدد الحسين لما سلم الإنكليز بإرجاعها إليه.

على أثر إتمام البيعة للشريف أذاع الأمر عبد الله، بصفته وزيراً للخارجية، بلاغاً على وزراء
خارجية للدول الحليفة بما تم، وأبقى به إلى مندوب الشريف في مصر، لإيصاله إلى ذوي العلاقة،
فلم يكن من قلم المراقبة الإنكليزي إلا أن حجز البرفية عنده خمسة أيام، ثم اضطر إلى إطلاعها عليها
بعد أن علم بحقيقتها من مصدر غير رسمي. ولما أبلغ مندوب الشريف المعتمد البيهاتاني مضمون
البرفية، اقتضى الأمر أن يترث الإنكليز في اتخاذ ما يجب من تصرف لمواجهة هذا الحادث غير
المنتظر، وانصرف اهتمامهم إلى دراسة ما سيكون وقع خروجه على العالمين العربي والإسلامي، وكيفية
تلقبها هذا النبأ^(٩٤).

لقد اعتبر الخلفاء الخطوة التي قام بها الشريف عملاً قد أخطئ اختيار الوقت لإعلانه،
ورأوا أن الاعتراف بملكته على العرب من شأنه أن يخلق تعقيدات لا حصر لها، بين أمراء العرب،
الذين سيعتبرون خطوة الشريف افتتاتاً على حقوقهم، مما يؤدي إلى وقوع الشقاق والإقسام في
صفوفهم، ويحول في المستقبل دون تسوية شؤون شبه الجزيرة العربية تسوية مرضية، فأسلت الخلفاء
عن الاعتراف به ملكاً على العرب مدة من الزمن، ثم وجدوا لأنفسهم مخرجاً بأن اعترفوا به رئيساً

(٩٣) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٢٩١ — ٢٩٢.

(٩٤) المصدر السابق، ص ٢٩٢.

للسحوب العربية الثائرة على الترك ، وملكاً شرعياً وفعلياً على الحجاز ، وأبلغوه ذلك في ١٩١٧/١/٣ في مذكرتين متماثلتين إنكليزية وفرنسية^{٩٥}.

خلال الفترة التي مرت ، بين إعلان بيعته والاعتراف به ملكاً على الحجاز ، كان الحسين يدفع النبا على ملأ الناس ، ويتصرف تصرف ملك للعرب ، ويعامل أمراء العرب معاملة الأتباع^{٩٦}. كان يتلقى مساعدات الإنكليز المالية والعربية ليستخدعها في تجنيد العرب وإستالة أمرائهم ، فأخذ يرسل الهدايا إليهم وفي جهلتهم ابن سعود ، وفعالي عليهم . كان يذهب رسولاه بالهدايا لابن سعود ويقول له : « هذه من جلالة الملك » دون أن يرفقها بكتاب منه . وتكرر هذا للعمل فساور أمير نجد الشك في هذا السلوك ، فأرسل إليه وقدأ براسة أسخيه محمد بن عبد الرحمن ، ومعه كتاب يقول فيه : « يا حضرة والدنا وإنا وإياك في هذه الحرب وثمتنا لنا ولك ، فقد مشيت عرمانا وعشارنا عملاً بأوامرنا لمساعدتكم ، وإني مستعد أن أرسل إليك أحد أعمالي وأولادي لمجاوب مع أولادكم ... »

وقد يكون حدث بيتنا وبينكم سوء تفاهم في الماضي ، فلا يد إذن من التفاهم والتأمينات ، وذلك بأن تحدد المخلود بيتنا وبينكم خزول الشكوك ، وتضعاف من أهل نجد المساعدات . فلما استلم الحسين هذا الكتاب استاء منه استياء شديداً ، وأرضى وأزهد وجزم ، في جريدة القبلة ، وكتب إلى ابن سعود جواباً ملؤه الوعيد والتهديد جاء فيه : « إما إنك سكران يا ابن السعود وإما إنك مجنون ، أفلا تعلم لأي أمر قمنا وأي غرض بقى ؟ »^{٩٧}. فتدند لم يسمع ابن سعود . وقد وجب عليه أن يستدرك الأمر ويضع النقاط على الحروف لهيبانة إمارته ، بعد أن اتكشف له ما كان خافياً عليه من نيات الحسين — إلا الاحتجاج على هذه الإهانة ، وأندر إنكلترا بأن هذه الحالة ستعطره لقتال الحسين ، الذي شعر بأنه يضر له وليلاذه السوء ، فبادر الإنكليز إلى الحيلولة دون إقتتال حليفها في ساعاتها الحرجة^{٩٨} ، واتصلوا بالشريف حسين وأعلموه بما اقترعوا به مع أمير نجد ، وبأنهم لا يستطيعون الاعتراف به ملكاً على العرب ، بهذا الإطلاق ، خشية التعقيدات التي يحدثها هذا الاعتراف لدى أمراء العرب الآخرين^{٩٩} ، وأبلغوا الأمير عبد العزيز بن سعود بهذه النتيجة في المقابلة

٩٥) أنطونين ، المصدر السابق ، ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

٩٦) الدكتور محمد عبد الله ماضي ، النهضة الحديثة في جزيرة العرب ، ص ١٤٣ .

٩٧) حسن خلف الشيخ نوح ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ، أمين الربيعاني ، نجد الحديث ، ص ٢٣٦ .

٩٨) حافظ وجه ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

٩٩) الدكتور محمد عبد الله ماضي ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

التي جرت في القفر بين وبين السير برسي كوكس ، وكان ابن سعود قد طلب مقابلة مستعجلة معه
 نظاهر بأن المقصد منها البحث في الوسائل التي تمكنه من مهاجمة ابن الرشيد ، إنما الذي قصد إليه
 في الحقيقة هو استجلاء موقف بريطانيا من الشريف حسين ، وكانت علاقاته هو معها حينذاك باردة
 بسبب موقفه موقف الجمود من الترك . كما كان وضعه حرجاً بين مختلف الأعداء المحيطين به :
 عشائر الصحمان المتحيزة إلى الكويت ، وعدوه القريب ابن الرشيد ، ومناقضه المحظير الحسين ، وكان
 الصدام بينه وبين كل من هؤلاء متوقفاً في كل آونة^(١٠٠) . وقد أطلع الأمير ابن سعود السير برسي
 كوكس ، في أثناء المقابلة ، على المكتاب الذي تلقاه من الشريف حسين ، فأظهر استيائه عندما
 وقف على فحواه ، وقال : « لا تكثرت به غن ضامنون لك استقلالك » ، وحن نجهد بأن لا يعدي
 عليك الشريف أو غيره ، وأنت تعلم أن أية حركة على الشريف اليوم هي علينا ، وفيها مساعدة
 لأعدائنا وأعدائك . وقد أبلغ عليه السير برسي كوكس بأن يقطع له وعداً جازماً بأن يكون بينه وبين
 الشريف أي صلح ، فوعده بذلك ضمن شروطين : أولاً ألا يتدخل الشريف بشؤون نجد ، وثانياً بأن
 يتكلم باسم العرب ، ويهدو نفسه ملكهم فوعده بهما ، ودعاه إلى حضور المؤتمر الذي سيعقد
 لأمر العرب في الكويت قريباً فلبى دعوته^(١٠١) .

مؤتمر الكويت

في خلال الفترة التي مرت بين نهاية مفاوضات الحسين — مكماهون وإعلان الثورة ، تلك
 الفترة التي دامت أربعة أشهر ، كانت الحكومة البريطانية تعاني مصاعب حرية كثيرة : فشلتها في
 معركة سلمان باك في العراق ، واضطرابها إلى التراجع إلى « كوت الإمامة » حيث حوصرت قواتها مدة
 طويلة ، وفشلها في احتدام المضائق ، فخشيت أن تطول مدة الحرب وتتوالى انكساراتها أمام الترك ،
 الأمر الذي دفعها إلى حث الشريف على الإسراع بإعلان الثورة ، وقد أظهر الشريف بعض التردد في
 بادئ الأمر ، خشية من خذلان أمراء العرب لثورته ، ولا سيما الأمير ابن سعود ، فطمأنته إلى أن
 هؤلاء لا يتأخرون عن تأييده ، وإنما تضمن له حياد ابن سعود تجاهه . وعلى هذا الأساس قررت بعد
 أن أعلن الشريف ثورته — عقد مؤتمر يضم أمراء العرب ، لشق من حسن نواياهم نحوها ، وتحثهم
 على شد أزر الشريف وتأييد ثورته ، فوجه السير برسي كوكس ، في نهاية عام ١٩١٦ ، دعوة إلى ابن

(١٠٠) عبد اللطيف ، المصدر السابق ، ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(١٠١) حسين خلف الشيوخ خزعل ، المصدر السابق ، ص ٦٢ .

سعود وإلى الشيخ عزعل أمير المحمرة العربي (عربستان)، وإلى الشيخ جابر الصباح أمير الكويت الجديد، وإلى ما ينفذ عن مئة من رؤساء العشائر العربية، وضرب لهم موعداً في الكويت بتاريخ ٢٣/١١/١٩١٦، فانعقد المؤتمر في الوقت الموعود^{١٠٢}. وانضم إليه السير برسي كوكس بكلمة أظهر فيها حسن نوايا حكومته تجاه العرب، ورغبتها في استعادتهم لمجدهم الغابر، وحرصها على جمع كلمتهم ليكونوا كتلة قوية تستطيع صد أي اعتداء خارجي يقع على بلادهم. ثم وجه خطابه إلى الأمير ابن سعود مستحثاً إياه على مساعدة الحلفاء. ثم تطرق إلى موضوع الخلافة الإسلامية ووجوب انتقالها إلى العرب، أخفاً المجاملة ميلاً إلى غرضه، فعرض عليه منصب الخلافة التي يستحسن جلالة ملك بريطانيا اسنادها إليه، ويساعده في تحقيقها فأجاب أمير نجد على خطاب برسي كوكس بكلمة أكد فيها نظرية الاتحاد العربي، ثم أشار إلى علاقته المبرحة للأتراك، وعزمه على معادلتهم ببلو بقي وحده، لأنه لم ينس ما نال أسلافه على يدهم من شناعة القتل والتشيل، وما تعانيه الأمة العربية من دأبهم على تفكيك عرى وحدتها وعلى إضعافها، وعاهد الحكومة البريطانية المساعية إلى لم شعث الأمة العربية وتقوية أمرائها «بأنها ضرر منه، ما دامت المعاهدة التي بينه وبينها مرعية الجانب» «والأهم ينضم إلى أي حلف عربي ضدها، مؤكداً أن العرب لا يجمعون عليها بسوء، إذا لم يكن هو معهم، مبيهاً رغبته بأن يجمع أمر العرب على مساعدة الحلفاء. ثم تطرق إلى موضوع الخلافة قائلاً بأن «لا نوق له بها»، وأنه لا يرى أجدر بها من الشريف حسين. وقد تلاه الشيخ عزعل بالكلام مؤيداً فكرة إقامة الوحدة العربية، واستعداد العرب لمعاونة الدولة البريطانية. ولم يزد الشيخ جابر الصباح على قوله «إننا عرب فإذا ما اجتمعت كلمة للعرب على شئهم فإننا له من الطائعين». وانتهت جلسة المؤتمر بتقليد كل من الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ جابر وسام نجمة الهند^{١٠٣}. وكانت النتيجة العملية لهذا المؤتمر، والاتصالات أن عقدت، بعد وقت قليل، اتفاقية جديدة بين ابن سعود والإنكليز تقاضى الأول بموجبها شهيرة مقدارها خمسة آلاف جنيه بالإضافة إلى أربعة رشاشات وثلاثة آلاف بندقية وكمية كافية من الذخيرة من أجل الاحتفاظ بقوة قوامها أربعة آلاف رجل تظل مستقرة لشل حركة ابن الرشيد بصورة دائمة، ومهاجمة عاصمته لشعة من مهاجمة الشريف حسين^{١٠٤}.

(١٠٢) المصدر السابق، ص ٣٢-٣٣.

(١٠٣) المصدر السابق، ص ١٠٥-١٠٧.

(١٠٤) عبد اللطيف، المصدر السابق، ص ٣٦٠.

ولم يرح السمر برمي كوكس عائداً إلى البصرة إلا بعد أن دعا ابن سعود لزيارتها . وقد تمت هذه الزيارة بالفعل ، حيث كتلت السلطات البريطانية ضيفها أن يكتب كتاباً إلى عجمي السعدون ، رئيس عشائر المنتفك ، الذي كان يساعد الأتراك في مقاومة الزحف البريطاني على العراق ، بتأشده فيه بأن يكرس جهوده وجهود أقباعه من أجل حرية العرب والمسلمين وتحريرهم من نور الأتراك ، فنلقى من عجمي باشا جواباً سليماً ميناً فيه أن موقعه موقف من يسعى لرضا الله بالجهاد ضد الكافرين أعداء الله ، وإعلاء اسم العرب بحماية أرضهم من أن يدنسها هؤلاء الكافرون ، ولم ينس أن يوجه اللوم إلى ابن سعود لعدم موافقته له في رأيه ، وكان له أمل كبير بتدنيه وحمية العربية ، وعجم كتابه بقوله : « وإذا كانت الحكومة التركية تذهب عن حوزة الإسلام فهي عضيدي وعضيد قبائلي ، وأنا حقاً حاكم مطلق بأمر الله وأمر الحكومة ، وإني مفتش ومصدق بأي سائر الطرق البصري الذي يرضي الله والعرب سواً مستمراً لا يشين عنه شيء... »^(١٠٥) . وقد أبلغ الشريف حسين نتيجة مؤتمر الكهت فاستحسنه وقوي عزمه به وطلب من الحكومة البريطانية لإبلاغ الأمراء شكره وتبانيه ، وشبذلت الرسائل الودية بين أمراء العرب وبينه ، كما أرفق الحسين إلى أمير نجد بواسطة برمي كوكس يشكره فيها على ما دار في المؤتمر ، ويحثه على الاتحاد وجمع الكلمة لوحدة العرب ، ويوصيه بمراعاة حيوانه من أمراء شبه الجزيرة والاحسان إليهم وعلى الأخص أمير الكهت . وما إن بلغ الأخير (أمير الكهت) مضمون الوثيقة بواسطة الإنكليز حتى بادر إلى إجابة السمر برمي كوكس بإلغ شكره لبيعة الحسين ، منها بما للشريف من قصد ونوايا هي « خير وصالح لكافة الأمة العربية والأمة الإسلامية وتقويتها وعلو قدرها » وإن الواجب يقضي على كل من فيه حمية للعرب والإسلام أن يؤيد مساهمة تقوية الرابطة الشريفة التي هو في صلبها^(١٠٦) .

غير أن الزوبعة التي ثارت ، بين الشريف وابن سعود ، لم تكد تسكن فترة من الزمن حتى عادت إلى الهبوب من جديد . ذلك أن الشريف كان متشبعاً بفكرة ملكيته على العرب لا يشنه عنها شيء . وقد امتلأت نفسه آمالاً بأن جميع هذه العقد مستحل بعد انتهاء الحرب لصالحه^(١٠٧) . وهكذا لم يتوان في العمل على نشر نفوذه على حدود نجد المجاورة لحدود منطقته ، وبخاصة في واحتي ثربة والحرما ، اللتين استمرتا مثار خلاف بين الزعيمين . كان الحسين يعتبرهما تابعتين للحجاز ، وأن سكانهما من رعاياه وعليهم أن يظهروا له الولاء والخضوع ، بينما كان هؤلاء ، الذين اعتنقوا المذهب

(١٠٥) حسين خلاف الشيخ عزوجل ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٢ .

(١٠٧) حافظ وصيه ، المصدر السابق ، ص ١١٦ .

الوهابي من قديم ، يظهرين الولاء لابن سعود الذي وكالتهم ويبحث إليهم من يثقهم بتعاليم المذهب الوهابي . فأخذ الحسين يرسل الحملة ثلث الأخرى منذ عام ١٩١٧ لتأديتهم وانحيازهم لحكمه ، فيضطرون للدفاع عن أنفسهم والاستعداد بابن سعود ، في وقت كان الإنكليز يطالبون هذا الأمر بشن الحرب على ابن الرشيد ، بنية اشغاله وصرفه عن محاولة عرقلة الثورة العربية لحساب الترك . وكان الجواب الطبيعي الذي يتلقوه منه لا كوف أستطيع ذلك والشريف يعتدي على رعيتي ؟ . فكان على الإنكليز أن يقتنعوا الشريف بأرجاء حل هذه القضية إلى ما بعد الحرب^(١٠٨) . فدخلوا معه ومع ابن سعود في مفاوضات للتوفيق بينهما ، تخافا لما يسيده انتقاما من عرقلة العمليات الحربية التي هم في صدها في الشرق العربي ، وذلك كجزء من خطة عامة اتبعوها .

كان غلط الإنكليز الحربي في بلاد العرب مرتكزاً على محوين : الأول محور فلسطين الذي اعتبروا قوات الشريف حسين جناحه الأيمن ، ومعلوم أن جناحه الأيسر هو جيش الجنرال الفليبي . والآخر الثاني هو جبهة العراق وقد اعتبروا عشائر الحمرية وإيران جناحها الأيمن ، وقوات ابن سعود جناحها الأيسر . وأما قلبها المؤلف من الحملة الإنكليزية — الهندية فكان يستند على مؤازرة أمراء الخليج العربي^(١٠٩) . وكان عليهم أن يوفقوا بين مختلف أجنحة هذين المحوين ، لأن كل تناقض بينهما يفسد عليهم الخطة الحربية التي التزموها ، والتي ترمي إلى أحكام نطاق الحصار وتشديده على العدو من الجهات العربية كلها . وقد وجب عليهم — للوصول إلى هذه الغاية — أن يجعلوا كل أمير من أمراء العرب ، الذين يشكلون أجنحة المحوين المذكورين ، يستخدم ما لديه من قوى القتال ، يضيقوا عما يمكنهم أن يضيقوه إليها من قواهم . هذه الغاية أمدوا الشريف بالأسلحة والذخائر والمال ، واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً فشجعوا فيه بذلك روح الطموح ، فأقسموا على أنفسهم إمكانية التفوق بين مختلف الأجنحة التي اعتمدوا عليها ، لأنهم أخلوا بالتوازن بينها فغالبوا أن واجهوا مشكلة وجب عليهم أن يبادروا إلى حلها^(١١٠) . ولم يكن الشريف ليساعدهم على ذلك . فنبهنا أوصل الإنكليز إلى نجد من يحمل ابن سعود على مقاتلة ابن الرشيد ، أرسلوا إلى بغداد من يتصل بالسور يوسي كوكس ويبحث معه الوضع العام ، فأقترح هذا الاتصال بالباغض ، ولعل الجهد لإصلاح ما بين الزعيمين المتخاصمين (ابن سعود والحسين) . وبعد مخاضات بين بغداد والقاهرة تقرر إرسال بعثة صغيرة إلى

(١٠٨) الدكتور محمد عبد الله ماضي ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(١٠٩) محمد طاهر المصري ، المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(١١٠) أمين الريحاني ، نجد الحديث ، ص ٢٣٧ .

الرياض، يأتي فريق من أعضائها من مصر بطريق الحجاز، وفريق آخر يأتي من العراق إلى الرياض رأساً^(١١١). لكن الحسين لم يسهل لأعضاء البعثة القادمين من مصر - وبينهم المستر هوغارث - سفرهم إلى نجد، مدعيًا أن الأحوال المضطربة في الصحراء لا تساعد على ذلك، لكنه في الحقيقة كان يخشى أن ترجع كافة منافسه ابن سعود، وأن يكون اتفاق الإنكليز مع أمر الرياض مضراً بمصلحه، أو غشياً باتفاقه معهم، لذلك لم يكن يقبل بأي اتفاق بينهم وبين غيره من أمراء الجزيرة إلا إذا تم بواسطة^(١١٢)، طبقاً لمخطط دولته الكبرى كما مر معنا. غور أنه بعثة المستر برسي كوكس المرسلة من العراق، التي كان من أفرادها المستر قلبي، وصلت إلى الرياض وقاومت ابن سعود في أمر محاربة ابن الرشيد، وأمر الصلح بينه وبين الحسين، ثم قابع أفرادها سفرهم إلى الحجاز لمقابلة الشريف حسين بعد أن هملها ابن سعود بعنايته، فوصلت دون أي حادث يذكر. لكن محادثاتها مع الشريف لم تسفر عن شيء إيجابي إذ رفض الوفاق مع أمر نجد، وأمر على التدخل في واحتج ثروة والخزما، فعادت البعثة إلى الرياض ووجهت جهودها إلى حمل ابن سعود على مهاجمة ابن الرشيد، فأنكرت ثمرتها حين تظلل عامل نجد في قلب شمر، ودمر بعض مراكز عدوه الأمامية، بعد أن استمال قبائل هجر، الذين أبوا الاستجابة إلى دعوة ابن الرشيد لإهاجم للقتال مع الترك عند الشريف حسين. وظهر أمام حائل نفسها ثم عاد إلى برهة حيث أعلنته البعثة أن بريطانيا لم بعد دعمها مصر ابن الرشيد، لأن تركها قد خرجت من الحرب بهدنة عقدتها مع الخلفاء^(١١٣).

صدى الثورة لدى الإنكليز والفرنسيين

من الطبيعي أن تقابل الثورة العربية من قبل الإنكليز والخلفاء بارتياح تام، فما إن نشبت حتى أخذت صحف لندن تشيد بها، ونصف نباً وفروعها بأنه مدحش، وأنه سيكون له أعظم الوقع في العالم الإسلامي، وتكامل المدح والثناء للشريف حسين، وتوقع انهيار الحكم التركي في بلاد العرب، وتربط بينها وبين حوادث كربلاء والتجف ضد الأمراء^(١١٤)، قبل عام مضى. ثم أخذت إنكلترا تنظم علاقاتها بها وكانت قد أحدثت «المكتب العربي» في القاهرة (شباط ١٩١٦) ليقوم بمهمة تتبع الحركات السياسية وجميع المعلومات المتعلقة بالبلاد العربية، والاهتمام بشؤونها، بما يساعد

(١١١) عبد الله طه، ص ٣٢٩-٣٢٢.

(١١٢) كوين الزباني، نجد الحديث، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(١١٣) عبد الله فليبي، المصادر السابق، ص ٣٢٠-٣٢٣، أمين قرطبي، في نجد الحديث، ص ٢٤٢.

(١١٤) أسعد داغر، ثورة العرب، ص ٢٠٨-٢٠٩.

على تكليف علاقات بريطانيا بالقضية العربية^(١١٦). وقد اختير موظفوه من الإحصائيين الذين يعرفون هذه البلاد ولغة أهلها معرفة تامة، وكانوا يعملون برئاسة الجنرال كلارين، ومهمهم لورنس، الذي كان لا يزال برتبة نقيب في الجيش الإنكليزي^(١١٧). فأخذ المكتب، الذي رُبط مباشرة بوزارة الخارجية البريطانية — وقد تولي السير هنري مكماهون المعتمد البريطاني في مصر، ثم من بعده خلفه السير رينالد ونجت، مهمة توجيه سياسته العامة وفقاً للخطة التي رتبها وزارة الخارجية الإنكليزية — في الإشراف على علاقة بريطانيا مع الثورة العربية من الوجهة السياسية. وأما تمهين الثورة بالعدوات والذخائر والتجهيزات الحربية فقد عُهد بها إلى الجنرال مكسويل، القائد الأعلى لجيش الاحتلال في مصر، الذي خلفه الجنرال «أرشيبالد موراي» A. Murray، ثم الجنرال اللنبي، وكان تابعاً لوزارة الحربية. وكانت بعض القطعات الإنكليزية التي أرسلت إلى العقبة لمساعدة الثورة تابعة لقوات السردار حاكم السودان، وهو في بادئ الأمر السير رينالد ونجت، ثم خلفه في نهاية ١٩١٦ السير «لي ستاك»، وكان تابعاً لوزارة الحرب أيضاً ويقع في الخرطوم^(١١٨)، وقد اصبر قائداً عاماً للعمليات الحربية في الحجاز. غير أن ذلك لم يكن يعني أن من حقه السيطرة على قوات الشريف، بل أن يقدم للثورة المساعدات البريطانية سواء في مجال الرأي أو صرف اللؤن^(١١٩)، فأرسل إلى جدة العقيد لسن، وهو أحد أعضاء الإدارة السيامية في السودان، ليكون معتمداً بريطانياً لدى الشريف، يسدي له الإرشادات اللازمة، ويكون وسيطاً بينه وبين السلطات البريطانية في السودان ومصر^(١٢٠). كما عُهد إلى الأموال «وييس» Weyss، قائد قوات البحرية البريطانية المقيم في الإسمايلية، بمهمة التعاون بواسطة قواته البحرية مع الثورة في عملياتها الحربية ضد الترك. ولا يغرب عن البال أن الحلفاء بصورة عامة، والإنكليز بصورة خاصة، قد رغبوا بالثورة لغايتين: أولاً مياضية ليظهروا لسلبي مستعمراتهم أن عمل الترك لا يتفق مع المصلحة الإسلامية الكبرى، وأن الأتراك يتحالفهم مع ألمانيا إنما يخدمون مصالح هذه الدولة أكثر من خدمتهم للمصلحة الإسلامية، وثانياً حربية لإضعاف الترك والألمان وإشغال جيوشهم وحملهم على إرسال ٤٠ - ٥٠ ألف جندي إلى صاحة حرب جديدة غير اليقلاق وغير الميدان الغربي^(١٢١). لذلك

(١١٦) R. ALDINGTON, Ibid. p. 114.

(١١٧) مرس سفير أرسكون، للصبر السابق، ص ٧٦.

(١١٨) R. ALDINGTON, Ibid. pp. 110-111.

(١١٩) أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٢١.

(١٢٠) حسين خلف الشيخ غرض، المصدر السابق، ص ٥٦.

(١٢١) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص ١١.

فإنهم وقفوا موقف التحفظ من كل ما كانوا يمتثلون أنه خارج عن هذه الأهداف، لو يعرقل خططهم التي رجعوها للثورة. فقد مر معنا كيف أوكل إلى عزيز المصري القيام بشؤون العمليات الحربية، وتنظيم الجيش العربي، وكان بما أوكل إليه جديراً، إذ وفق إلى جمع كلمة الضباط حوله، ووضع أساساً صالحاً لنظام جيش قوي، غير أنه لم يكن راضياً عن تسليح الجيش والعقبات التي كانت تقام في سبل تعزيزه. ولم يكد يمضي على قدومه فترة وجيزة حتى اصطدم مع الإنكليز، ذلك أنه قد ألح على الحسين في أن يطالب هؤلاء بإرسال المدافع التي ضموها من الترك في جبهة سيناء، موبتاً أن يهن رجاله من المدفعيين المختصين من يحسنون استعمالها. ولما شعر بمماطلة الإنكليز لم يحكم ضجره، مصرحاً لأصدقائه بأنه يلوح له أن الإنكليز يريدون القضاء على العرب والترك معاً بحيث يقتل بعضهم بعضاً، فلا هم يرسلون للعرب القوى والمعدات لمضربوا بها الترك ضربة قاضية، ويحتلوا المدينة المنورة، ولا هم يتركونهم لشأنهم فيقضي للترك عليهم قضاء مبرراً^(١٢١).

وقبل أن يجمع ضباطه يوماً وأمر إليهم قوله: إن العرب لا يهابون رغبة بالحرب أو كرهاً بالترك وسباً بالإنكليز، بل لشحرير بلادهم وتأمين استقلالها، ذلك الذي لا يستطيع تأمينه بالقوات التي لدى الثورة، وأن دخول سورية لا يكون بجيش عديم القوة والنظام، وأن من الواجب العمل على تشكيل جيش قوي منظم يستطيع به حفظ الأمن والنظام في البلاد العربية التي يجعلها. فتقل حديده إلى الإنكليز مشوهاً (يعتقد عزيز أن نوري السعيد هو الذي نقله)، فذسوا عليه لدى الشريف حسين بأنه صرح أن لا خير يرجى من أشراف مكة، ولا من ثورتهم ماداموا مسيطرين عليها، وأنه يستطيع طرد الترك من سورية في أسابيع إذا تخلت إنكلترا عن الأشراف، وحل هو وأصدقائه عليهم في إدارة الثورة، فنجحت الدسيسة في جعل الحسين على الاستفتاء عن خدماته^(١٢٢).

وقد يكون بدر من عزيز — بسبب عدم مرونته السياسية وعدم معرفته فن الإدارة — بعض تصرفات لم ترق للشريف حسين، ذلك أنه أخذ يجهز بأراء سياسية معينة تتفق مع ما يؤمن به من وجوب بقاء العرب مرتبطين مع الترك بالرباط الفيدرالي، وأنه يجب أن تؤلف من قسم من جيش الحجاز مقارز هجانة ترسل إلى سورية بقيادته لإيقاد الثورة فيها، وإرضام الترك على الصلح ضمن شروط تؤمن الروابط الفيدرالية بين الأتمين العربية — والترك، ويكون الأتكان كفلاء عليهم^(١٢٣). ولما

(١٢١) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٢١٩.

(١٢٢) أسعد فخر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص ٩٠ — ٩١.

(١٢٣) فخر المصني، مذكراتي عن الثورة العربية، ص ٢٣٨ — ٢٣٩.

كانت هذه الأفكار مخالفة لأهداف الحسين وحلفائه، فقد أرسل عزيزاً إلى مصر بجمعة، وهناك أبلغه السلطات الإنكليزية وجوب عدم عودته إلى الحجاز، ووجوب مقادرتهم مصر منفياً إلى سومرة وإمبانيا، فاختار الثانية على الأولى^(١٢١)، فخلطه في منصب وزير الحرية والضابط المصري الشاب النقيب محمود بك اتقيسوي^(١٢٢). كما استعان الملك حسين في تنظيم الجيش العربي بالضابط العراقي جعفر العسكري، وكان قد جرح وأسر في شباط ١٩١٦، من قبل القوات الإنكليزية في الجبهة الكلبية، التي كان السيد أحمد الشريف السنوسي قد فتحها في أواخر ١٩١٥، ضد الإنكليز في مصر تحت ضغط الأتراك والألمان، الذين هبطوا البلاد عام ١٩١٥ لإثارة بركة، وكان القصد من حملة السنوسي لإرغام بريطانيا على القتال في حدود مصر الغربية، ومن ثم شغلها عن الحملة التركية على قناة السويس^(١٢٣)، ووضع الإنكليز بين فكي كلابية. وكان من مقتضى التشكيلات المخصوصة التي مر ذكرها— أن ترسل بعثة عثمانية إلى ليبيا، كي تقنع السيد أحمد الشريف بمحاربة الإنكليز، وكان من أعضائها نوري بك أخو أنور باشا، وعدد من الضباط الأتراك، بالإضافة إلى جعفر العسكري. وقد أرسل هذا الأخير إلى بركة، بطريق مصر، حيث اجتازها متخفياً بينا أرسل الأولون بواسطة قواصة أجبرت من ميناء «يولا»، التي اتخذها اللذان قاعدة بحرية لهم في الأندرياتيك، فانزلت نوري وجهاته في الطرف الغربي من خليج السلوم، فاتصلوا بالسيد أحمد الشريف السنوسي الذي لم يكن موافقاً لهذه الفكرة في بادئ الأمر. لكنه اضطر إلى الموافقة عندما ابتدوه بضغط أدنى مزدوج منهم ومن المصريين، الذين كانوا يتقنون تحريرهم من يد الإنكليز. وعرفاً من أن ينظر العالم الإسلامي إليه بأنه محالء للإنكليز والإيطاليين وافق على قيام نوري بالحملة دون أن يتحمل نتائج فشلها. وقد اشترك في الحملة الضابط المصري طلعت حرب، الذي فر من المعسكرات الإنكليزية في مصر هو وبضعة ضباط آخرين، ولقيف من رؤوسه والتحق بقوات السنوسي. لكن الحملة آلت إلى الفشل بعد أن أزعجت الإنكليز وشغلتهم بضعة أشهر^(١٢٤). وقد امتدت الحرب من تشرين الثاني إلى آذار ١٩١٦، وأسفرت عن تنازل أحمد

(١٢١) أسعد داغر، مذكرات على حاشي القضية العربية، ص ٩٦.

COLONEL BREMOND, 1863, p. 127. (١٢٥)

(١٢٦) الدكتور نقولا نهاد، ليبيا من الاحتلال الإيطالي إلى الاستقلال، ص ١٨٦، ع. ١٨٦، الخطيب، جعفر العسكري، ص ٢٣—٢٤.

(١٢٧) ع. ١٨٦، الخطيب، المصدر السابق، ص ٤٩، الدكتور أحمد فؤاد شكرى، المصدر السابق، ص ١٦٢—١٧٧.

للشريف — احتراماً منه بقتله وقلة روثه — إلى السيد محمد إدريس المهدي عن المقاتلة السياسية
والعسكرية مع احتفاظه بالزمامة الدينية^(١٢٨).

لقد فاتح الإنكليز جعفرًا — وقد وصفه لورنس الذي اتصل به في القاهرة بأنه «قوة عظيمة»^(١٢٩)
لإنكليز — بموجب التحالف بثورة الشريف ، فأظهر التمتع في بادئ الأمر ، وكان قد سجن في قلعة
محمد علي بالقاهرة ، وحلول الفرار من إحدى التوافد بأن تدل بحبل مجلول من قماش ملاية ، لكنه
سقط فاصدع رصع قدمه^(١٣٠) ، ونقل إلى مستشفى المعادي حيث زاره عدد من شبان العرب ، ومن
جملتهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، الذي أشعل بقمعه بالإلتحاق بثورة الشريف . ولما رأى ثمنه
أعطاه نبأ جراح أحمد جمال باشا في سورية ، وشنقه أحرار العرب ومنهم صديقه الضابط سليم
الجزائري ، فانتقل فجأة إلى شخص آخر يكره الترك ، وأقسم يشرفه العسكري لينتقم لأخوانه
الشهداء . وقد برهيمته فكان يعد قليل من كبار قادة الثورة ، واستلم منصباً قيادياً في الجيش
الشعالي بمعية الأمر ليصل^(١٣١) . ويظهر أن الشريف حسين لم يكن مرتاحاً لفقدومه ، وقد عطل
لورنس ذلك بقوله عن الحسين إنه «كان شيخاً حريصاً يكره العراقيين والسوريين ، ويعتقد أن
الحجاز هو الذي يجب أن يحرر دمشق ، فرفض خدمات جعفر ، ولم يكن أمام فيصل إلا أن
يستعمله متعملاً بتمه ذلك وحده » ، لأنه سمع كثيراً عنه وتوسم فيه نوعاً لتنظيم جيشه^(١٣٢) ،
والواقع أن الشريف بدأ يرقاب في نيات الإنكليز ، فخشى أن يكون من وراء استفادتهم لجعفر غاية
ما في أنفسهم .

كانت القائمة المرجوة من ثورة الشريف بالنسبة لبريطانيا والحلفاء سياسة أكثر منها حرية ،
ومن هنا نشأت بعض التعقيدات . لقد نهانوا في بادئ الأمر في إمدادها بالمعدات والذخائر . قال
لورنس في كتابه «الثورة في الصحراء» ص ٨٢ : «وقد وعدت القاهرة بالذهب والبنادق والبنال
والرشاشات والمظفر . إلا أنه لم يصل إلينا مدفع واحد قط . وكان هذا الحرمان علانية الأيدي » .
وقضلاً عن ذلك فإن الإنكليز والمقرنين كانوا يرون أن في تقوية الثورة ، بما يخرجها عن نطاقها
الجزائري ، خطراً على مصالحهم الاستعمارية . كان اللبني يحذر لورنس من أن تسف القطارات يزيد

(١٢٨) الدكتور تقي الدين ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(١٢٩) لورنس ، الثورة في الصحراء ، ص ٨٢ .

(١٣٠) الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، من مقال له في مجلة النهضة العربية الحاضرة ، ص ١٩ ، مسر معزوث أرسكين

المصدر السابق ، ص ٣٢ — ٣٣ .

(١٣١) لورنس ، أمة الحكمة السبعة ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

ويوضحهم في أطماع فيصل، كما كانت لندن ترى في الاستيلاء على المدينة المنورة خطراً كبيراً من شأنه أن يهدد في غزوة القضية العربية فتحدد بذلك مصالح الحلفاء. لذلك لم يكن من رأى السور ومجانداً ونجيت الاستيلاء عليها إلا بعد التقاء الجيش الإنكليزي الزاحف من مصر بالجيش الإنكليزي المتقدم في العراق^(١٣٣). وقد شاطر كل من جورج لويد (الملورد فيما بعد، وهو أيضاً من زملاء لورنس في المكتب العربي) والكولونيل بيرغون رأيي ومجانداً ونجيت في هذا الأمر خوفاً من ازدياد قوة حركة الجامعة العربية، ومن انقاساح المجال واسعاً أمام قوات الشريف للسير ميماً مسرعاً لاحتكام أبواب دمشق. وهذا ما دفع الحلفاء إلى رسم الخطّة الثلاثة لحرقة اندفاعها الثفوي، وذلك بعدم تزويد العرب إلا بنجندات ضعيفة تكاد تكفي لتجديد حركة قحري باشا في المدينة — مع منع وصول النجندات إليه بتخريب خطوط المسكة المدهمة — ولا تطلق أيدي العرب هملاً^(١٣٤). وبهذا وجه لورنس سهام نقده اللاذع للكولونيل بيرغون على ما حسه منه من سوء اثنية التي يضمهرها للثورة العربية من هله الناسية^(١٣٥)، فراه يعال — من جهته — الأمر تعليقاً خرياً دون أن ينحرف عن الخطط الجوهري للفكرة نفسها، إذ يقول إنه من البحث الاستيلاء على المدينة حيث الترك في موطع حصين ومعرقف مكين، ومع ذلك لو اقتحمناها أفلس من المشكّلف جداً تأمرن الطعام — في مصر — لحاميتها الكثيرة العدد^(١٣٦).

إلى هذا الوقت كان الحسين لا يزال يتقرب لمخلفائه، لأنه كان يعتمد على فضيلة العدل عند الناس، وعلى الأخلاق وشرف المعاملة أكثر من اعتماده على المهود والمكثوبة، في حين كانت الدول — معظم الدول — بعيدة عن هذه العوامل الأخلاقية؛ ولا تبحث إلا عن منافعها. صحيح أن

R. ALDINGTON, *ibid.* pp. 112, 129, 159. (177)

R. ALDINGTON, *Ibid.* p. 142; COL. BREMOND, *Ibid.* p. 96 (١٣٣).

المعلم، ص ٣٠.

(٥) قال ترويس في كتابه «أعنف الحكمة السبعة» (ج ٣، ص ٣٣) إنه ذكر فيكون طروقة احتلال المدينة لمساعد ذلك في تقدم الثورة المصرية، ضارجه الدكتور لويل أمتف حاضرة فعلا بأنه ليس من الحكمة أن يترك للعرب احتلالها، وأن الحركة العربية قد آتت كل ثمارها عند إعلان الثورة في مكة، وأنه يجب أن تترك الآل الأحمال العسكرية ضد الأتراك للإنكليز. ولترسون وحدهم، وأنه بعد أن ينزل الحلفاء جيشاً في رابع ليكون الشريف موضع يده عدد العرب لمخمس بذلك حاسة القبائل لثورة فيضطر الشريف إلى الانحياز على الجيوش الأجنبية، ويصبح في حماية الحلفاء، حتى إذا لزم الترك في الحرب فعلت الدول المنتصرة «المدينة» عن السلطنة لثركية، ومنحت إلى الشرف مع السيادة لشريعة على الخيماز مكافأة له على مساهمته وإخلاصه.

LAWRENCE, *ibid.* p. 229. (371)

إنكلترا قد صاعدت الثورة بالعناد والمال بما تقارب قيمته عشرة ملايين جنيه ذهباً ، وأرسلت الكولونيل لورنس^(*) لمساعدتها في التوجيه السياسي والمشورة ، ويقوم بوظيفة ضابط ارتباط بين الإنكليز وبينها ، فجاء إلى الحجاز يبحث عن الزعيم « النبي » الذي يستطيع أن يقود أمة العرب إلى النجدة ، كما قال في مذكراته^(١٢٢) ، فوجد في الأمير فيصل ضالته المنشودة « هذا هو الرجل الذي جئت جزيرة العرب أبحث عنه ، الزعيم الذي يقود ثورة العرب إلى نوح النصر »^(١٢٣) ، وأصبح مستشاره المفضل الذي يثق به كل الثقة ، إذ أصبح — كما ادعى — الدماغ المفكر والموجه للثورة ، وقد منحته العرب من عواطف الحب ما جعله يتمتع بمهض من الاحترام في أوساط الثورة عامة . إلا أن الرجال البيطانيين ، الذين كانت في أيديهم مقاليد السياسة العليا للحركة العربية ، مثل السير هنري مكماهون ، والسير مارك سايكس ، والجنرالان كلايتون ولانبي ، والكوماندور هو غارث ، والسير رولاند ستورس ، قد أخذوا في توجيه القضية العربية اتجاهات يتواءم مع مصالح دولتهم ، إذ كانت فكرتهم الأساسية هي إقامة دولة عربية تابعة لهم ، تأتمر بأمرهم وتحقق غاياتهم الاستعمارية ، فإذا ما ساعدوا العرب في مقدار لا يستطيع هؤلاء به أن يشكلوا تهديداً لمصالح بريطانيا ، أو أن يكون لهم من القوة والاستقلال التام ما من شأنه أن يضعف مركز بريطانيا في عدن ، والأمارات الخفية حولها ، وفي حضرموت وعمان والكويت وخليج العرب والعراق . كانت إنكلترا تلمح لهم بالعودة للعبادة والمغربة ما دامت بحاجة إلى معونتهم في قبالها لتركيا ، ولكنها غفلت عنهم عندما انتهت مهمتهم هذه ، وأخذت تحقق أطماعها في بلادهم بعد الحرب^(١٢٤) . بل حتى في أثناء استقاداتها من معونتهم لم تكن تبرهن عن صفاء نية وإخلاص نواياهم . قال لورنس « بما لا شك فيه أننا نقاتل من أجل انتصار غمره بصفتنا حلفاء .

(*) حينما نشبت الحرب العالمية كان لورنس يام ، في إنكلترا ، تقريه من مسح ليس سبناه (كما تقدم) ، وما إن أمسى تقريه حتى عرض تحركاته على السلطات العسكرية ، فعين في القسم الجغرافي التابع للقاعدة العليا . وفي كانون الأول نقل إلى مصر حيث شغل منصب ضابط حرائط وإدارة الاستعلامات ، وكلف بالإنسان إلى وظيفته بالمثل في الاستعلامات العامة بوصفه ضابطاً في القيادة العامة . ولا دخلت تركيا الحرب — وكان يكثر ملياً في قضية العرب الذين لمعجب بهم من خلال دراساته التاريخية للحروب الصليبية (نال إنجازته في التاريخ بعد أن قدم أطروحة من أثر الحروب الصليبية في فن الصدارة الحربي الأوروبي في القرون الوسطى) وربما عطلت في فخته ثورة العرب على الفرنجة على فصل حتى عين في المكتب العربي بالقاهرة (ونسبت تشرشل ، لورنس بطل الجزيرة ، ص ١١٨) (ARMITAGE, Ibid, p. 93) .

(١٢٥) لورنس ، الثورة في الصحراء ، ص ٢٦١ ونسبت تشرشل ، لورنس بطل الجزيرة ، ص ٢٠ .

(١٢٦) لورنس ، الثورة في الصحراء ، ص ٢٣ .

(١٢٧) الفكر نور الدين حليوم ، المصدر السابق ، ص ٦٦ مؤرخ الثورة العربية ، المصدر السابق ، ص ١٢ .

ولطالما أن الإنكليز هم الذين يوجهون الأمور، فسيكون على العرب أن يدغموا الثمن مضطرين، ويصبحوا ضحية على مذبح مصالح الحلفاء...»^(١٣٨). وإذا عدنا إلى تاريخ بدء المفاوضات العربية الإنكليزية يتضح لنا تردد السير هنري مكماهون في مباشرة الاتصال بالعرب حينما تلقى أمراً بذلك من لندن. إذ كتب إلى حكومته ينذرها بأن تأييد القضية العربية عمل محفوف بأعظم الأخطار لأن حرية العرب قد تنمر في أحد الأيام فتصبح الغول الذي اقترس صناعته في رواية فرانكشتاين^(١٣٩).

أما موقف فرنسا، فالبرغم من أنها أعربت عن صداقتها للثورة، وأرسلت وفداً من خيرة رجال المسلمين في المغرب العربي، وعلى رأسه السي قدور بن غرنيط، يعمون للشريف عن ميل الحكومة الفرنسية، والمسلمين الذين نحت حكمها، للعرب وحكومتهم الجديدة^(١٤٠)، فإنها لم تستطع أن تنفذ إزامها مرفقاً واضحاً. كانت مصالحها أكثر تعقيداً من مصالح حليفتها إنكلترا. صحيح أنها قدمت بعض المساعدات له باديء الأمر لقمع العلو المشترك، وللدلالة على حسن نيتها نحو إنكلترا، لكن هذه المساعدات بقيت محدودة بداعي أن معظم قواها كانت مبنية في الجبهة الغربية. ولم تكن هذه إلا حجة ظاهرية، بينما العامل الأساسي لم يكن سوى اعتقاد بعض الموجهين الفرنسيين أن للمشاركة العلنية القوية، وإرسال العون الكبير للثورة خطر ما يهدد خطر على المصالح الفرنسية من الوجهة السياسية، لاعتقادهم بأن تشجيع فرنسا تأسيس مملكة عربية مستقلة قد يشجع العرب في شمالي إفريقيا على المطالبة بقواعد مماثلة. لذلك لجأت إلى أنصاف الحلول بإرسالها بعثة الكولونيل «بريمون» ليكون على اتصال دائم بالشريف، والسهر على المصالح الفرنسية، ومراقبة حركات الشريف حسين، والحد من اندفاع ثورته من جهة، ومن جهة ثانية مراقبة تصرفات الإنكليز، لا سيما في شخص الكولونيل لورنس، الذي كان همه تحويل الدفع الثوري العربي نحو المنفعة البيطانية، والحد من تغلغل النفوذ الفرنسي، وإذا أمكن محو المرة بالنسبة لبلاد الشام. إن من يقرأ كتاب لورنس «أعمدة الحكمة السبعة» ويقارنه بكتاب «الحجاز في الحرب العالمية» فلدي كتبه الكولونيل بريمون، يلاحظ شدة التنافس الإنكليزي — الفرنسي على النفوذ خلال مرحلة الثورة.

كان العون الفرنسي للشريف قليلاً بوجه عام، فلم يزد حتى كانون الثاني ١٩١٨ على ١٧ ضابطاً و ٣٥٦ جندياً، و ١٠ مدافع و ٦ رشاشات و ٤٧ بندقية رشاشة. وهذا ما أضعف نفوذ

(١٣٨) LAWRENCE, Ibid. p. 482.

(١٣٩) أمين محمد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ١٩٦.

(١٤٠) أسعد جعفر، ثورة العرب، ص ٢١٢.

فرنسا في نظر العرب ، فأخذت إنكلترا في استغلال تقاعس حليفها في تنمية نفوذها ، ولم يكن ذلك ليحقق على الكولونيل برعمون ، فيادر إلى حد حيث هيئت كى تهدد من عونها للثورة ، وقبض خصوصاً من أجل ذلك إلى يانيس . كما طالب جورج بيكو في (١٩١٧/١١/١٤) بإرسال ٢٠ ألف مقاتل فرنسي ، لكن جهودهما ذهبت أدراج الرياح لأن فرنسا لم تكن تهدد إضعاف جبهة الغرب الأساسية . قال كليمنصو رئيس الوزراء الفرنسي لبرعمون عندما طلب المتجند وعرض عليه مخطط العمليات الحربية ضد تركيا « إن الحرب مشرّع في فرنسا وفي فرنسا وحدها » . فقبل برعمون عاتداً ، وقرر أن تكون عدته لبلاد متحصنة في المهالولة دون توسع الحركة العربية وتحديد مدى نجاحها . وهذا ما ترك المجال للكولونيل لورنس كي يحارب النفوذ الفرنسي المصلحة النفوذ الإنكليزي في بلاد العرب ، بإثارته عاطفة سوء الظن لدى العرب حيال نيات فرنسا السرية^(١١١) . وقد زاد في سوء ظن العرب بنيات الفرنسيين أن البعثة العربية — الإسلامية برئاسة السي فلور بن غبيط لم نوح بالثقافة النامية للشريف حسين . كان هدفها المتفق إلى نيات الشريف وأولاده السرية ، وتقديم التقارير إلى الحكومة الفرنسية . حتى إن السي فلور بن غبيط لم ينور عن أن يعرض على الشريف وجهة النظر الفرنسية « الاعتراف باستقلال جزيرة العرب مع الاحتفاظ بحقوق فرنسا في سورية لا في سبيل استبعادها بل في سبيل تسهيل تطورها »^(١١٢) .

وأخيراً فإن من الأمور التي زعمت ثقة الشريف بحلفائه الفرنسيين والإنكليز قدوم وفد فرنسي برئاسة السيو جورج بيكو ، للترويج لمصالح فرنسا في سورية والدعاية لها . وقد خطب السيو بيكو في فندق شيرد بالقاهرة ، أمام طائفة من اللبنانيين ، منوها أنه قد حان الأوان للنظر في مستقبل سورية ولبنان ، وأن الحلفاء قد اختاروا فرنسا وصية على لبنان ، وأن نظام الحكم في سورية الداخلية سيكون استشارياً ، وأن الدول الحليفة متفقة على تحديد مهتته في سورية ، وأن صفته الرسمية ولقبه قد حدد بأن يكون « مفوضاً سامياً » لها ، وأن فرنسا وحلفاءها لا يقصدون فتح البلاد بل تحريرها . وقد صحب الوفد الفرنسي وفد آخر إنكليزي برئاسة السيو مارك سائيكس ، جاء بإيعاز من الخارجية الإنكليزية ، بناء على اقتراح السيو ريجنالد ونجبت المتحمم البيهطاني في مصر^(١١٣) ، لمقابلة الشريف حسين في جدة ، على أثر ما بدر من مخايفه وطلبه الإيضاح اللازم عن أهداف تلك البعثة ، وجرت المقابلة في ١٩ و ١٩١٧/٥/٢٠ . وقد صرح الحسين فيما بعد أن ما دار فيها يتعلق بإقناع

(١١١) الدكتور توفيق الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٦٣ — ٦٤ .

(١١٢) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(١١٣) محمد طاهر العمري ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٥ — ١٠٩ .

العرب بموجب الاعتراف بمنطقة نفوذ لفرنسا في لبنان ، وأنه قد أوجب الوعد بعدم إمكانية التنازل فيما لمس السيادة العربية ، بل إن جل ما يستطيعه أن يحاول إقناع زعماء الحركة العربية بتسوية تشبه ما تم في موضوع العراق مع بريطانيا ، أي الاشتراك بين فرنسا والعرب في إدارة لبنان لمدة محدودة من السنوات ، لقاء معاهدة مالية من فرنسا ، على ألا يسمح لهذه بترويح مصالحها في لبنان إلا إذا كانت ضمن إطار السيادة العربية^(١٤١) . وعلى كل حال لم يُطلع أعضاء الوفد الشريف حسين على اتفاقيات سابكس — بيكو ، اللهم إلا الإلهاء بتلميحات عامة عن التفاهم والتضامن الإنكليزي — الفرنسي . وسيعلم الشريف بأمر هذه الاتفاقيات بعد ستة أشهر تقريباً أي في كانون الأول ١٩١٢ كما سيأتي بهانه في الفصل القادم .

الاستيلاء على العقبة وأهميته

إذا كان استيلاء فيصل على الوجه قد خطا بالثورة العربية خطوتها الفاصلة إلى إرغام فخري باشا على أن يتبع في المدينة ، ولا يجسر على الخروج منها لاسترداد مكة ، بعد أن غادر كل من الأمير علي والأمير عبد الله موقعيهما في رايع ووادي العيس ليقتربا أكثر فأكثر منها ويحاصرها حصاراً شديداً ، مما جعل الترك يذكرون في إخلاصها ، فإن الاستيلاء على العقبة — وقد سهله احتلال الوجه — يعتبر نقطة تحول عامة في الثورة العربية ، إذ خرجت من نطاقها الحجازي لتتخذ لها هدفاً أساسياً هو الاستيلاء على سورية . هذا فضلاً عن أن احتلال العقبة — ذات الموقع الهام ولذي أمرت لجنة الحرب في لندن بالاستيلاء عليها بغية تهديد مواصلات الأتراك ، ولتحلولة دون محاولة الأعداء جعلها قاعدة للقواصات يستطيع منها زرع الألغام في البحر الأحمر — كان من المفيد للثورة بأنها سهّلت على أحد المنافذ الهامة في هذا البحر^(١٤٢) ، ذلك الذي يعتبر بداية لدخول العرب في الحرب فعلاً ، لأن جيش فيصل أصبح يعمل جنباً إلى جنب مع قوات الإنكليز الزاحفة من مصر^(١٤٣) .

قبل أن يحاول فيصل احتلال العقبة رأى أن يرسل بعثة إلى سورية تدعو أهلها إلى مؤازرته ، فاختار الشريف ناصر بن الحسين الملقب بـ «أبي سيف» وهو من أبناء عمويته ، رئيساً لها ، ورافقها كل من تسيب البكري ولورنس وعودة أبي تايه حميد عشيرة تايبة وحرس مؤلف من ٣٥

(١٤٤) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

R. ALDINGTON, Ibid. p. 119. (١٤٥)

(١٤٦) مزر ستورث لوسكين ، المصدر السابق ، ص ٢٩ .

فارساً^(١٤٧)، ففُرق أفرادها في وجهات مختلفة: عودة إلى تبهاتة بجمع أفرادها، وتسيب إلى جبل الدروز يستقر زعماءه لمؤازرة الثورة، ولورنس إلى جهات دمشق مروراً بمختلف القبائل العربية حتى وصل إلى بعلبك، حيث نصف جسراً صغيراً على الخط الحديدي المتصل برهاق، ثم إلى مقرية من دمشق (القابون)، وأُرسل في طلب رضا باشا الزكائي، الذي كان يعاون الثورة في السراء والذي ما إن سمع بأن من يطلبه قادم من لندن الأكر فيصل حتى خف إلى لقااته، بالرغم من خطورة عمله — بصفته قائداً عربياً في الجيش التركي، وكان يتولى حينذاك قيادة موقع دمشق — واستلم منه رسالة من الأمور يقول فيها إنه مصمم على التقدم من سورية على مراحل لوطا العقبة، وأنه يرغب أن يقوم زعماء العرب في دمشق بتشجيع الفرق العربية في الجيش التركي على المقرر والانضمام إلى قواته — دوناً حاجة إلى ثورة عامة — وقد تم الاجتماع بين لورنس والزكائي في ١٣/٦/١٩١٧، عاد لورنس بعده إلى معسكر فيصل في الكاف، ماراً بوضعة شيوخ منهم الزعيم الدرزي حسين الأطرش، ونوري الشعلان شيخ مشايخ الرولة، فبلغهم الرسالة نفسها واختبر مدى استجابتهم لها. وكان عودة من جهته قد جمع ٥٠٠/٥ من رجال عشيرته، فحصل الهجوم بهم على العقبة مندلاً «بأبي الأسل» التي هزمت حاميتها المؤلفة من ٦٠٠ جندي وضابط لم يبق واحد منهم إلا قتل أو أسر. ثم جرى اقتحام أربعة مراكز تركية بينها وبين العقبة التي جرى الاستيلاء عليها في ٦/٧/١٩١٧، وقد بلغ عدد قتلى هذه العملية ٦٠٠ من الترك بالإضافة إلى ٧٠٠ أسير بينهم ٤٢ ضابطاً^(١٤٨).

بعد احتلال العقبة تشعلت العمليات الحربية نشاطاً ملحوظاً بالنسبة للإنكليز. ذلك أن العمليات الحربية التي كان يقوم بها الجنرال أوشيلد موري، سلف الجنرال اللهي، قد اتسمت بالبطء والعجز، ولو أنها قد تمكنت من ربيع عام ١٩١٦ حتى صبغ من رد الهجوم الثاني الذي شنّه الترك والأتكان على قناة السويس، ذلك الهجوم الذي كان الأتراك يستعدون له منذ فشل حملتهم الأولى عليها، والذي دفع الترك إلى سرعة القيام به الفرور الذي تمككهم بعد استردادهم لكونت الإنارة. غير أنهم في هذه المرة قد قاموا بسلسلة من الاستعدادات كانوا أهلوها في الحملة الأولى، فقد انصب نشاط الأتكان بإشراف المهندس مسر باشا الأتكاني على إنجاز شبكة الخطوط الحديدية العسكرية الفلسطينية، فوصلوا نابلس بطولكرم والملد وبنطوا باستخدام خط اللد — بحر السح اعتباراً من

(١٤٧) سليمان موسى، عودة أبو تاه فلاح العقبة، من مقال في مجلة العربي، عدد ٤٩، كانون الأول ١٩٦٢.

(١٤٨) أنطوليوس، المصدر السابق، ص ٣٢١ — ٣٢٣، سليمان موسى، المصدر السابق.

١٩١٥/١٠/٣٠، وقد تفرغ منه في أيار ١٩١٦ لحط يمتد حتى حفير المعوجة في صحراء سيناء، فأصبحت بئر السبع مركز تجمع هام للمؤن والمهام العسكرية، وزودت بمحطة كهرباء وبفقرعت منها عدة طرق للسيارات بالثبام للقناة. كما حفرت الآبار وبنت خزانات المياه ومددت أنابيبها إلى مسافات كبيرة في صحراء سيناء، وتقرر استئناف حملة القناة الثانية في ربيع ١٩١٦. وكان الهدف في هذه المرة متواضعاً، إذ استبعد الأتراك اجتياز القناة إلى مصر للاكتفاء باحتلال موقع حصين في مواجهة القنطرة يستطيعون منه أن يحيطوا القناة هدفاً للدفعية شديدة. وبلغ عدد أفراد الحملة الجديدة ١٦ ألف رجل بقيادة الجنرال فون كريس كرهستستين، يدعمها سرب من الطائرات^(١١١)، على أن يدعمها جيش آخر كبير أخذ الأتكان يشكلونه في البلقان، بقيادة المارشال ماكزنز فاهر الروس والصرب. وقد بنى الترك وحلفاؤهم عليه أملاً عريضاً وبعيداً أشبه بالوهم: أن يهتدق آسيا الصغرى وسورية، ويستولي على مصر والعراق وإيران، ثم يسير إلى الهند داعياً شعوب هذه الممالك إلى طرد الإنكليز والاستقلال^(١١٢). لكن الفضل في هذه المرة أيضاً كان حليف الترك، ذلك أن فون كريس قد بدأ هجومه في ١٩١٦/٤/٢٣ على القوات الإنكليزية، واستمرت مناوشاته مع طلائعهم حتى ٤ آب، إذ نشبت معركة حامية الوطيس حول القنطرة لم يحض عليها يومان حتى تهاوت القوات التركية، وارتدت إلى العريش وتابع الإنكليز المتحاق بغلوطها، وكانت الأساطيل الحربية تدعم هجومهم البري^(١١٣).

غير أن حركات الجنرال أوشينالد موري قد اتسمت بالبطء الشديد، وكان عليه أن يمهّد السبيل للزحف على فلسطين بإقامة سكة حديدية تمتد إلى مسافة ٣٠٠/ كيلومتر في صحراء سيناء، وأنابيب تنقل مياه النيل بعد تصفيتها إلى خزانات أقيمت في الجبلية، يصلها منها يومياً ما يقارب مليون ونصف من الغالونات، وقد حشد الإنكليز للقيام بهذا العمل ما يقارب ٧٠ ألفاً من الفلاحين المصريين نظمهم في ماسحي يد الفيلق المصري للعمل Egyptian Labor Corps، وأخذوهم بنظام شديد، وفي ظروف قاسية، فأنشؤا العمل على أكمل وجه^(١١٤). ولم تصل السكة إلى حدود فلسطين إلا في كانون ثاني ١٩١٧، وكان الجنرال الإنكليزي قد قضى نصف عام تقريباً يدفع

LAMMENS, *Ibid.* II, pp. 222-224. (١٤٩)

BD. DRIACUT, *Ibid.* pp. 428-429. (١٥٠)

(١٥١) O. GAUTHEROT, *Ibid.* p. 28; GENERAL DUFFOUE, *Ibid.* (I, p. 373)

ص ٢٩٣.

G. GAUTHEROT, *Ibid.* p. 30; LYAUTET, *Ibid.* p. 121; COL. LAMOUCHES, *Ibid.* p. 366. (١٥٢)

لترك أمامه حتى استطاع ، في بداية العام المذكور ، الوصول إلى هذه النقطة ، وتوج أعماله الحربية البليغة بمحلتين شهما على غرة في آذار ونيسان ١٩١٧ ، يافعا بالإخفاق والفشل المريع فكان نصيبه العزل^(١٠٠) واستبدل به الجنرال اللنبي ، الذي صادف تعيينه الفترة التي سبقت احتلال الجيش العربي للعقبة ، فكان هذا النصر العربي خير معين للتقدم الإنكليزي الذي اتسم بعد ذلك بالسرعة .

لقد استنظر الجيش الإنكليزي بالقوات العربية فكان على الإنكليز أن ينفذوا من كميات الأسلحة والذخائر والمعدات التي يقدمونها للعرب ، وهم إن حضروا عليهم يقطع المدفعية إلا أنهم لم يدخلوا عليهم بالبنادق والذخيرة ، وأخذت الحرب — علاوة على قتال الترك — مظهر الاضطراب الذي كان المهدف منه تعطيل سكة حديد الحجاز ، باستعمال المفرقات والأغام وتسف القضبان والقطارات لعرقله وصول امدادات العدو إلى المدينة المنورة ومختلف الجبهات الأمامية ، كما عملت قوات فيصل على أسر قوافل الأتراك التي تنقل المؤن إلى ابن الرشيد . وقد تلقى العرب من الإنكليز هذه العناية مساعدات فنية قام بها فريق من الإحصائيين البريطانيين^(١٠١) منهم — إلى جانب الكولونيل لورنس الذي أخذ على عاتقه توجيه حركاتهم — العقيد «نيو كيمب NEW COMB» وكان الوثاق يسود علاقات المستشارين الإنكليز بالأخير فيصل ، كلهم يشيدون بحجرائته وبنائته ولباقته وجماعته بخلفه ، هذا فضلاً عن الصداقة القوية التي نشأت بين الأمير وبين العقيد لورنس صاحب الفضل الأوفر في حمل المسؤولين الإنكليز في القاهرة على الاهتمام بالقضية العربية والحرب في الحجاز ، بفضل ما توصل إليه من اكتساب ثقة كبارهم ، بعد أن كان هؤلاء قليل الثقة بمردود حرب الحجاز^(١٠٢) . هنا من جهة ومن جهة أخرى فقد عمل فيصل على تمسك قوى العرب منذ أن كان في الوجه وواصل هذا العمل بعد جعله العقبة ثم معان ثم الأزرق قاعدة حركاته العسكرية ، مستنداً في ذلك على كميات الذهب الكبيرة التي وضعها بريطانيا تحت تصرفه ، وإلى نفوذه ونسبه وحكمته ولباقته وقوة اقتناعه وشدة إخلاصه للقضية العربية ، وحدة ذكائه ومرونته الخارقة^(١٠٣) . فأولاد رسلاً إلى مختلف القبائل العربية ، فخطا طرقت هذه عليه ومنها : بنو عطيبة وجهينة وعتيبة وهاشم وعزة وبنو صخر والرولة وعلى رأسها الشيخ نوري الشمالي الذي فتح أمام الجيش العربي معابر وادي السرحان . كما

(١٠٣) أنطونوس ، المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

(١٠٤) الشكور جلال يحيى ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(١٠٥) سيز مغرور كوكين ، المصدر السابق ، ص ٨٥ — ٨٦ .

(١٠٦) سامح المصري ، ملاحظات من الماضي القريب ، ص ٦٦ .

أفصح طوبه من رؤساء القبائل الطريق لمرور القوات العربية— وكانت للضاليد تقضي بأن يؤخذ رضى القبائل التي يجب أن تمر هذه القوات في أراضيها^(١٠٧)— وكان من وراء نوري الشعلان وأنه نواف جميع للقبائل التي تأخر بأمرها. كما كان من القبائل التي انضمت للثورة قبيلة شرارة والقبائل الساكنة بين العقبة ومعان. قال لورنس: «وأصبحت مسالك الوجهة تجمع بالرسيل والوفود والأتباع وكبار المشايخ وراكبين على خيولهم، قادمين إلى مقر فيصل ليقسموا بين الولاء والأمانة لقضيته^(١٠٨)». ولكن بانضمام الشيخ «عودة أبو نايه» عميد بني تايه من قبائل الحويطات في شمال الجزيرة العربية (حول بلدة معان ولي أرض الشراة)، مع قبائله ومن يواليها، تعززت الثورة وأصبح الجيش العربي يتابع عطاوته بدهاء. وقد بذل القارس المغوار «عودة» نفسه بطول راتعة في احتلاله العقبة. إن الثورة أناسحت له أن يرفع بأعماله من مستوى القارس البدوي إلى مستوى البطل القومي^(١٠٩).

كان فيصل يقيم القرآن الكريم لأتباعه الجدد ليقسمون عليه بأن يسيروا حينا يسيروا ويقتلوا إذا ولف، وأن لا يدينوا للترك بطاعة، وأن يحسبوا معاملة كل عربي معاملة الصديق المحب سواء كان سوريا أم عراقيا أم حجازيا، وأن يجعلوا القضية العربية والاستقلال فوق كل اعتبار أو نفع مادي وأن يؤثرها على حياتهم وأهلهم. وهو فيما هذا ذلك قد وفق في إزالة الخصومات السابقة بين القبائل، وأضعا نصب عنه فكرة لا ثاني لها وهي: وحدة العرب وتوحيد كلمتهم لمحاربة الترك إلى النهاية. قال لورنس: «... فأبنا سار كان كأنه ماو محمد ناز الضعائن، وكأنه محكمة استئناف عليا لكل بلاد العرب، حكمها مبرم لا نقض له^(١١٠)». وقد وفق إلى ذلك بما أوتي من قسط من الحكمة والعدل وتفهمه وقتله للقضايا المتنوعة بسرعة كبيرة، ونفاذه إلى دقائق الأمور وعماهاها بصورة تثير الإعجاب^(١١١)، كما جاء في قول الأستاذ الكبير ساطع الحصري. وبما تميز به من معرفة بعادات القبائل وأحوالها، قد اكتسب من النفوذ على سائر القبائل المنتشرة من المدينة إلى دمشق، ما جعل أفرادها وزعماءها يحثونه السلطة التي تسمو سلطة القبيلة. «وماهليته— كما قال لورنس— تحولت

(١٠٧) مسر سغورك أرسكين، المصدر السابق، ص ٨٧.

(١٠٨) لورنس، الثورة في الصحراء، ص ٨٨—٩٢.

(١٠٩) سليمان موسى، حيدو أبو ناي فاتح العقبة، من مقال في مجلة العربي، العدد ٤٩، كانون أول ١٩٦٢.

(١١٠) لورنس، المحكمة السبعة، ج ٢، ص ٩١، الثورة في الصحراء، ص ٩٢—٩٣.

(١١١) ساطع الحصري، صفحات من الماضي العربي، ص ١٢.

الحركة العربية إلى حركة شعبية حقيقية لما غرض واحد مشترك، بعد أن اجتث جلور الضخائن والخصومات من نفوس القبائل...»^(١٦٢).

على أن الجدير بالذكر أن قسماً من القبائل العربية قد والت الأتراك مثل عشيرة «زبيدة» التي كان يرئسها الشيخ محسن بن مبروك (مبارك) وعرب «جهينة» وعشائر البيل، ولم يكن عدد أفرادها قليلاً إذ بلغ عدد خيـلم «زبيدة» ١٥٠٠ وعدد أفرادها ١٢ ألف نسمة، وخس على ذلك القبيلتان الأخريتان. كما كانت بعض القبائل تقيض المال من الإنكليز لمؤازرة الثورة، بينما قسم من أفرادها يحاربهم مأجوراً بأموال الترك والأتراك، كعشيرة حرب التي كان أميرها محسن بن منصور في جانب الشريف^(١٦٣). على أن الأمر نواف بن توري المشعلان، الذي كان على اتصال بالترك والعرب، قد اتفق مع جمال باشا على أن يأتيه بالأمر فيحصل حياً أو ميتاً لقاء ٢٠ ألف ليرة ذهبية، بالإضافة إلى إمارة الجوف، وقد قبض قسماً من هذا المبلغ سلفاً، لكنه جاء إلى فيصل وأعلمه بذلك ونال منه مكافأة أخرى^(١٦٤). وغني عن القول أنه لولا الشعب الإنكليزي لما كان العربان يميلون إلى الثورة هذا الميل. فقد كان القسم الأعظم منهم ينظرون إليها نظرة تخارية. أما إعادة ملوك العرب ومجدهم وتجديد شباب الأمة العربية فهي أشياء لا يفهمونها. إلا أن ذلك لا يعني أن نذهب مع الكاتب أمين الريحاني في تقسيمه الفضل في نجاح الثورة إلى تسبب معونة شخص ٧٠ في المئة منها «للمخيال الإنكليزي» والثلاثين الباقية لبقية للعول، فليس يوسع أحد أن يوزع النسب في أمر كهذا دون أن يخطئ. وحتى الريحاني نفسه يعود فيقول بأن لورنس قد استنفر القبائل بالمال وقوة الحب والانتفاع لمحاربة الترك. «لكن هذا كان نصف العمل بسبب العادات والتأرات القديمة بينها، فكيف يحاربون ويهتبون في القتال؟» ويضيف قائلاً: «وما هنا استوجب للنصف الثاني من العمل. فلولا فيصل — والفضل كل الفضل لفيصل في التقلب على أحقاد مشايخ القبائل وفي تأليف القلوب — لحسرت الإنكليز ذهابها ولذهبت كل مساهمي لورنس أدراج الرياح»^(١٦٥).

(١٦٢) لورنس، الثورة في الصحراء، ص ٩٢.

(١٦٣) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص ٣٢.

(١٦٤) G. STITT, Ibid. p. 180.

(١٦٥) أمين الريحاني، فيصل الأول، ص ٢٥.

الفصل الرابع

حرب العراق وسورية وفلسطين المراحل النهائية للعلاقات العربية - التركية

التطورات السياسية والعسكرية في العراق

بعد قيام الثورة العربية في الجبهة الغربية من البلاد العربية ، وشروع الحملة الإنكليزية في الاستيلاء على العراق في الجبهة الشرقية منها ، أصبح الموقف للعام بين الترك والعرب رهناً بالتأرجح الحربية التي سيسفر عنها الصراع الدائر . ولا بد لي هنا من ملاحظة هامة هي أن موقف كل من العرب والإنكليز كان مختلفاً في كل من الجبهتين عنه في الأخرى . ذلك أن الإنكليز في الجبهة العراقية لم يكونوا يعمرون رغبات السكان وآمالهم في الاستقلال ، وتقرر مصيرهم بأنفسهم أي ذلك ، بينما هم قد ارتبطوا مع الحسنة بالاتفاقيات المعروفة . أما العرب ففي حال كونهم قد انغمسوا في الجبهة الحجازية - السورية إلى جهة الخلفاء ، نراهم في العراق قد وقفوا من الإنكليز موقفاً عدائياً في بادئ الأمر ، وتناسوا ما عاشوه ويقاسونه من صلف الترك وعجزهم وغمطهم حقوق العرب . ولو كان الترك قد بادلوا العرب بإخلاصاً بإخلاص ، ولم يلجؤوا إلى الوحشية في معاملتهم بقى العرب إلى جانبهم حتى النهاية .

رأت الحكومة الإنكليزية أن ترسل كتبية من كتائبها في الهند إلى الخليج العربي ، حتى تيل دخول تركيا في الحرب ، لاحتلال منطقة عبادان عند مصب الفرات ، ذلك أنها عندما تأكدت في نهاية ايلول ١٩١٤ ان تركيا على وشك الانضمام إلى الأعداء ، وجدت أن من الضروري أن تتخذ

التدابير المرمية للمحافظة على آبار البترول فيها^(١)، ولتفهم الأتراك بأنها جادة في الأمر، ولتفهم العرب بأنها مستعدة لمؤازرتهم حقيقة، قاصدة بذلك أن تحدث أثراً معنوياً ملاحماً لدى شيوخ امارات الخليج العربي. غير أن الأهم من ذلك هو السبب السياسي الذي شغل بال الإنكليز: أي خشيتهم من تعاون عربي - تركي يؤدي إلى إعلات الجهاد، ومهاجمة مصر وقناة السويس، وخوفهم على الهند من أن يمتد أثر الجهاد إليها - عن طريق إيران وأفغانستان - فيمتزج بالاستياء المنتشر فيها، فيسري سريان النار في الخشب. يضاف إلى ذلك خوف بريطانيا من أن يتزعزع نفوذها في الخليج العربي^(٢). وغني عن القول - كما بينت فيما سبق من أصول - أن غاية إنكلترا كانت احتلال العراق وفرض سيطرتها الاستعمارية عليه، وقد وجدت في الحرب فرصة لتحقيق أطماعها، وفكر موظفوها السياسيون في المنطقة بهذا الأمر حتى قبل نشوب الحرب في أوروبا بأكثر من عام واحد. فقد أقرق ألكم البريطاني في الخليج إلى حكومة الهند في ١٩١٣/٩/٢٣ قانوناً نظراً لاحتمال تجزئة تركيا، وما يجده من مساعٍ تمهيدية لاجتياح مناطق نفوذ أجنبية، فإنه على ما يظهر لابد للحكومة البريطانية من أن تحتلظ بما أحرزته حتى الآن من أرجحية في بلاد ما بين النهرين، متعلقتها الطبيعية في الدولة العثمانية. إما كان ثمة اختلاف في وجهات نظر مختلف الجهات البريطانية، فربق منهم يرى أن لا حاجة لاحتلال للعراق بالقوة لأن باستطاعة إنكلترا أن تستولي عليه - بعد انتصارها في الحرب - بصورة سياسية، هذا بالإضافة إلى أن أهمية العراق ثانوية بالنسبة إلى الجبهة الغربية، وأن إرسال أية قوة إليه من الهند يضعف الدفاع عن الهند نفسها^(٣)، في حين أن نجاح الحملة غير مضمون لأن الأتراك - كما قال لويج جورج - كانوا يملكون أهمية النتائج التي ستترتب على الهزيم التي قد تلحق بهم في هذه المنطقة. لذلك قائم سوف لا يتواتون عن بذل أقصى الجهد لتفادي الكارثة المحتملة، ولربأى لويج جورج توجيه حملة العراق إلى الغرب ولحقاقها بالجيش الذي سيهاجم الدردنيل^(٤). وطريق آخر - وكان مثله على اتصال أوثق بالهند وعلى معرفة أوسع بالخليج، كالسير برسي كوكس للقيم البريطاني السابق فيه (بمسقط) والجنرال بارو السكرتير العسكري لوزير الهند - قد رأوا عكس ذلك، فانتصرت أخيراً وجهة نظرهم وأعدت أولى حملات الإنكليز على العراق (وكانت عبارة عن لواء من المشاة ١٦ اللواء ١٦ التابع للفرقة ١٦ بقيادة أمير اللواء «دبلايين»؛ أي

(١) LLOYD-GEORGE, *Mémoires De Guerre*, II, p. 260.

(٢) لويج جورج، المصدر السابق، ص ٢ - ١٤ عن عقراي، العراق الحديث، ص ٢٩.

(٣) عبد الرحمن البراز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، ص ٨ - ٩.

(٤) LLOYD-GEORGE, *Ibid.* II, p. 259.

ماسمي بالحملة (D) وهو الحرف الأول من اسم القائد المذكور)، تلك التي اتجهت إلى البحرين ورابطت فيها فترة ثم سارت شمالاً (أوائل تشرين أول ١٩١٤). وفي ١١/٦، أي في اليوم التالي لإعلان إنكلترا للحرب على تركيا، أبحرت باقي قوات الفرقة السادسة بقيادة الفريق الأول السير دآرثر باريت من بومباي وانضمت إلى اللواء ١٦، فاكتمل ملاك الفرقة (١٥ ألفاً) فوصلت إلى العراق في ١١/١٤، ونزلت إلى البر^(٥) قرب شط العرب واستولت على الفاو - وكان يرافقها السير برسي كوكس بوصفه رئيساً للحكام السياسيين - وأصدرت بياناً يُطمئن السكان بأن الحكومة البريطانية لا تقاصم العرب المقيمين على ضفتي الشط، وعليهم أن لا يخشوا تعرض الجنود لهم ولأمواتهم إذا وقعوا موقفاً ودعاً لا يؤخذون فيه الترك، أو يحملون السلاح عندهم^(٦).

استولت الحملة بعد الفاو على مدينة البصرة في ١١/٢٢ بدون مقاومة، وكان لاحتلالها - وهي ميناء العراق الوحيد - شأن عظيم في تشجيع الإنكليز على الاستمرار في تقدمهم شمالاً. ثم تالت بعد ذلك التجهيزات التي عززت قوتها، فاستولت في شهر كانون الأول على مدينة القرنة حيث يلتقي نهر دجلة والفرات، بعد معركة كبيرة، ففرضت سيطرتها على طول شط العرب. وفي ١ نيسان ١٩١٥ جعل من قوات الحملة قِبلاً تاماً عين لقباده الجنرال «نكسون» NIXON، وصدرت إليه الأوامر باحتلال جميع أراضي ولاية البصرة، فشرع في تقديمه وخاض معركة حامية الوطيس في الشعبية في ٤/١٤ صدق فيها هجوماً شنه عليه سليمان عسكري بقوة قوامها ٢٠ ألف مقاتل من عرب وكرد غير نظاميين، ومن جنود أتراك، فراجعت قوات الترك إلى الناصرية فحصل قائدها سليمان العسكري من عار الهزيمة ما دفع به إلى الانتحار، بعد أن خسر الترك قريباً من ستة آلاف قتيل وجريح وأسير، مقابل ألف من الإنكليز^(٧). ولما طلب الجنرال نكسون لمجندات جديدة للتقدم نحو بغداد رُفض طلبه، وصدرت إليه لتحذيرات مفادها عدم توسيع الجبهة توسيعاً كبيراً وإن موافقتنا الاستراتيجية الآن متينة، ولا نستطيع المجازفة بتوسيعها توسيعاً يصل إلى حد المبالغة. فتمى العراق يجب أن يكون الشعار هو الغلبة^(٨). ذلك أن حكومة الهند لم تكن مستعدة في ذلك الوقت لتؤيد مثل هذا الهدف البعيد. وبعد أن تم احتلال العمارة في ٦/٣٠ ثم الناصرية في ٧/٢٥ إثر

(٥) الفريق شارلس طولزاند، صحافي في العراق، ص ٤١.

(٦) عبد قريمن الجواز، المصدر السابق، ص ٨٠٩، الزعيم الركن شكري محمود مديم، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٦-١٨.

(٧) الفريق شارلس طولزاند، المصدر السابق، ص ٤٩؛ شكري محمود مديم، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٨) LLOYD GEORGES, *Ibid.* II, p. 261.

تعارك هامة تحقق للحملة السيطرة على الثلث الواقع بين البصرة والعمارة والناصرية ، فالتحت بذلك أول مرحلة من مراحل حملة العراق ، بعد أن أصبحت ولاية البصرة كلها تحت السيطرة البريطانية ، وبدأ البريطانيون بعد أن رسخت أقدامهم فيها بنشاط واسع ، إذ عينوا حاكماً سياسياً عليها ، وأعدوا في إحتال الأنظم الجديدة إلى إدارتها ، والتدخل في حياة أهلها . وبينما رأى فريق من الساسة البريطانيين لزوم الاكتفاء بهذا القسم من التقدم في أراضي العراق ، معتبين أن الحملة قد حققت أهدافها بعد الإطمئنان على سلامة فقط صيادان ، وطرد الأتراك إلى الشمال ، وتطويق الخليج وإبعاد العدو عن جميع أطرافه ، والاستيثاق من دوام ولأم مشايخ الخليج للناج البريطاني ، عارض فريق آخر منهم هذا الرأي وارتأى وجوب الزحف على بغداد ، فاستطاع أن يتغلب على تمنع حكومة لندن ، وأن يحملها على تغيير رأيها ، خاصة وأن الانتصار السريع قد دفع إلى المغامرة والاستزادة من الانتصارات ، فاستقر الرأي على احتلال بغداد ، وختم ولايتها مع ولاية البصرة إلى الإدارة المباشرة . وقد حرص اللورد هارديج نائب الملك في الهند فوائد التقدم للجهد بقوله إنه سيحدث أثراً عظيماً في الشرق الأدنى ، وخاصة في إيران وأفغانستان وعلى حدود الهند ، ويكون بمثابة التعويض عن إحتراق حملة السردنيل ، ويثير شعوراً جلياً في البلاد العربية^(٩)

حصار كوت الإمارات

وقد أغرى البريطانيون سهولة الاستيلاء على العمارة - وقد تم بفضل مدرعتين صغيرتين و ٤٠ جندياً - فقط تمكنوا لوجدهم من أسر ألف من جنود الحماية التركية وضباطها في ٦/٣ - على مواصلة التقدم^(١٠) لاحتلال كوت الإمارة (وقع على الدجلة بين بغداد شمالاً والعمارة جنوباً) ، إذ كان قائد الحملة - بعد كل نصر يحرزه - يلج على رؤسائه بالسماح له في التقدم نحو بغداد^(١١) ، فتم له احتلالها في ٩/٣٠ ، فازداد الفريق طوزند - الذي ولي قيادة الفرقة السادسة خلفاً للفريق بايث ، والذي تولى هذا الزحف - غروراً ، وطلب من القائد العام للجيش الهندية إمداده بالقوات اللازمة ، فأمد فرقة بألف جندي للمضي في تقدمه^(١٢) ، مما شجعه على السير بمحاذاة الدجلة نحو

(٩) عبد الرحمن البراز ، المصدر السابق ، ص ١١ - ١٢ .

(١٠) تشاليس طوزند ، المصدر السابق ، ص ٩٤ - ٩٥ ، شكري محمود نديم ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(١١) مكي عثروي ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(١٢) تشاليس طوزند ، المصدر السابق ، ص ١٢١ .

بغداد دون اتخاذ الاحتياطات اللازمة، ودون دراسة للموضع العسكري دراسة دقيقة حذرة، مبرهنًا بذلك عن تسرع غير حكيم^(١٣)، حتى وصل إلى سلمان باك (المدائن)، حيث وقعت معركة كبيرة هزمت فيها القوات البريطانية شر هزيمة، فاضطرت إلى التراجع أمام جيش متفوق أممته الحكومة العثمانية بعدد كبير من اللجندات، بحيث انسحب طووزند بجيشه إلى مدينة كوت الإمارة، محصور فيها وراح ينتظر الجيوش البريطانية عليها تستطيع إنجاده وفك الحصار عنه. غير أن البريطانيين لم يستطيعوا القيام بأي عمل ناجح لإنفاذه، سواء عن عجز لقلة ورود الإمدادات، أو لازدياد أخطار الغضبانات في النهر الذي كان يطوق المدينة من ثلاث جهات^(١٤)، أو لأن القيادة العثمانية قد أسندت إلى قائد ألماني ماهر «فون ديرغولتز» VON DER GOOLTZ، معاونه قائد تركي كفؤ (نور الدين بك)، فاستطاعا أن يشددا الحصار على الإنكليز من ١٧/١٢/١٩١٥ إلى ٢٩/١/١٩١٦، حتى لم تكن الجبهة بالإنكليز المحصورين، حيث فقدت الأطعمة وصار الجنود يقتاتون بالحشائش للمسلوقة ولحم الخيول، حتى أوتوا عليها كلها، وبدأت الأمراض تفتك بهم بفعل الجوع وسوء التغذية، وذهب ضحيتها كثير من الضباط والجنود^(١٥) فاضطروا إلى التسليم بعد حصار دام ١٤٣ يوماً، وبلغ عند الأسرى من الضباط والجنود (١٣٣٠)، كما بلغت خسائر الإنكليز في سبيل انتقادهم (٢٣) ألف جندي، وكان هذه الكارثة أكرها الأليم في نفوس الإنكليز، مما دفع حكومتهم إلى إرسال لجنة للتحقيق وتحديد مسؤولية هذا الإخفاق، وقد اعتبر جهل السمر جون دكن القائد العام مسؤولاً عنها^(١٦). أما نتائجها السياسية فكانت عظيمة إذا أحدثت دويًا هائلًا في جميع أنحاء الشرق، عشتي الإنكليز عواقبه الوعيمة، وذلك أن إيران قد تحركت فيها عوامل الثورة بتأثير الدسائس التركية - الألمانية، وظهرت على مسلمي الهند آفات التجاوب مع هذا الانتصار اللامع، الذي أحرزته السلطنة فوجب على إنكلترا مضاعفة جهودها لإطفاء اللهب قبل اتساع نطاقه^(١٧).

ملاحظات على جبهة العراق

١ — قام الإنكليز بحملتهم على العراق باستعداد غير كاف، شرهوا في الهجوم بلواء مختلط

(١٣) E. DRIAUT, Ibid. p. 428. تيليب آيرلاند، المصدر السابق، ص ٢٩.

(١٤) ED. MOUSLEY, Ibid. pp. 112-124. آرستونج، توكيا ناسل موفدي، ص ٧.

(١٥) ED. MOUSLEY, Ibid. pp. 152-153; COD. LAMOUCHE, Ibid. p. 366.

(١٦) شكوي محمود نديم، المصدر السابق، ص ١٠١ عبد الرحمن الزلز، المصدر السابق، ص ١٢-١٣.

(١٧) E. DRIAUT, Ibid. p. 428.

واحد من ٤٥٠ جندي، عُزِرَ بعد حشرة أهام يلواه آخر، ولم تأت النجذات العالية في حينها، كما لم تُرسل المدفعية والمعدات الثقيلة إلا بعد فشل الهجوم على بغداد. كانت الحملة جزءاً من جيش الهند، تتبع في قيادتها هيئة أركان «سيملا SIMLA». وقد برهن منظموها عن غياوة ملهله وإهمال مشيئة، إذ لم تؤخذ بنظر الاعتبار طبيعة أرض العراق الفخفية المسطحة، التي تضررها المياه طوآل الفصول الممطرة، وقلة طرقها الصالحة للسر، ووجوب التفكير بتأمين وسائل النقل النبهة الملائمة لوضع الأنهر العراقية، ذلك الذي لم يفعله المسؤولون عن الحملة^(١٨). فضلاً عن أن هؤلاء لم يُعدوا عدسهم لمقتضيات مناخ العراق، الذي يُعتبر تعارفه بين شدة الحرارة صيفاً (١٣٤ درجة فهرنهايت = ٥٦ مستفاد) وقساوة البرودة شتاءً (رياح باردة ومهاطف تلجئة) تجربة شاقة بالنسبة للأجانب، فلم يجهزوا الحملة بالملاسل والحرايات واللباس الإقليمية، وبالكمفائة من الأدوية ووسائل المعالجة — حتى الضرورية لمعالجة الجرحى، مبالغة في الشح والتقصير — فانهضت السداير الصحية واختسرت أمراض المطاعون والجندري، والملايا والمهضة والتيفوس بين الجنود، نظراً لرداءة الوسائل الوقائية وجاهل السكان، يضاف إلى ذلك كله الإصابات بالزحمن الناتجة عن ضربة الشمس^(١٩). وهذا مادعا الحكومة البريطانية إلى فك ارتباط الحملة بحكومة الهند، وإضطلاع حكومة لندن بإدارتها اعتباراً من تموز ١٩١٦ لإعطاء حد للمعرض التي كانت ماثلة فيها، وتشكلت لجنة تحقيق ألغت المسؤولية على نائب الملك في الهند، وعلى القائد الأعلى لجيش الهند، وجرى تزويد الحملة بما يلزمها للمشاركة في أداء مهمتها فظورت حالتها تفوراً تاعاً^(٢٠).

٢ — لم يكن الأتراك أقل نقصاً من الإنكليز، فقد ارتكبوا من الأخطاء ما جعل العراق يغلت من أيديهم ويصبح لقمة سائغة للإنكليز، ذلك أن المسؤولين في الأمتانة قد فطروا دولتهم وراء المصلحة الألمانية الصرف، دون أن يلتفتوا إلى مصالح السلطنة الأساسية في الدفاع عن المناطق العربية، التي تعرضت للهجوم الإنكليزي، سواء في سورية أو العراق، فاستجابوا لرغبة حليفتهم وأرسلوا قوات كبيرة إلى الجبهة الروسية لتجمدها ومنع روسيا من إرسال قوات من القفقاس تهدد بها ألمانيا والنمسا في الجبهة الشرقية الأوروبية^(٢١). فكان عليهم — والحالة هذه — أن يجهزوا العراق من

LOYD GEORGE, *Ibid.* II, p. 264. (١٨)

(١٩) شكرى محمود تديج، المصدر السابق، ص ١٥.

LOYD GEORGE, *Ibid.* II, pp. 264, 280. (٢٠)

ED. DRIAULT, *Ibid.* p. 428. (٢١)

القوات النظامية التي تضمن حمايته ضد أي غزو أجنبي (أرسلوا الفرق ٣٥، ٣٦، ٣٧ إلى الجبهة الروسية)، معتبرين أن فرقة واحدة (الفرقة ٣٨) وعدة طوابير من البنادق الخفيفة، التي شرعوا في تجهيدها، بالإضافة إلى قوات المشاة وحرس الحدود (أي مجموع ١٧ ألف بندقية و ٤٤ ألفاً و ٣ رشاشات قذبة الطراز) كافية للدفاع عن مساحة من الأرض تزيد على ١٦٠ ألف كيلو متر مربع^(٢٢)، مع كونها غير نظامية ولاقصة التدريب والمعدة والعدد. ولم توضع أية خطة لضمان ثباتها في الحرب، فضلاً عن نقص تدابير التعبئة، وارتفاع نسبة الفرار من صفوف الجيش إلى درجة عالية جداً^(٢٣)، وبهذا يفسر الأتراك هذا الإهمال بكونه استجابة لرغبة الألمان، بفسره العرب بأنه استجابة للفرقة الطوارفة التي برزت بوضوح وجلاء في تصرفات الترك في أثناء الحرب أكثر منها قبل نشوبها، فقد أعلنوا يفكرون بأنها عنصرهم القاطنين في روسيا وإيران وغيرها من بلاد الشرق، ويعملون على إنقاذهم وديهم في حظيرة السلطنة، فترامهم يحشدون الجيوش الجارية في جبهة القفقاس للهجوم بدلاً من الدفاع، بينما أهملوا الجبهات العربية وجردوها من الجنود^(٢٤). والرايان لمسا وجاهتها، وفي اعتقادي أن هذا نصياً كبيراً من الصحة، وأن الأتراك قد فكروا في الحديقين معاً.

وهناك أخطاء أخرى ارتكبها الترك، ذلك أن القيادة العامة التركية لم تكن على معرفة قامة بأحوال العراق وطبيعة قواضيه، ولم توفر لديها من عملائه سوى واحدة بمقتضى
١٥٠٠ ر. ١٥٠٠
وقد قدرت إمكانات القطر وقواته الجاهزة بأضعاف قدرتها الحقيقية، ولم تدرس قضية الدفاع عنه، ولم تعد أي تحصينات أو أسلحة دفاعية فيه، ولم تجر أية مناورات أو زيارات من قبل هيئة الأركان في جنوبيه، ولم تعد سوى سفينة حربية واحدة مع عدد قليل جداً من سفن النقل، مما أدى إلى سهولة

(٢٢) محمد أمين، بغداد وصولك حادثة ضياع، ص ٢٣ — ٢٤.

(٢٣) شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص ١٧.

(٢٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٢، ص ١٣٣.

(٥) يقول الجنرال علي إزاد في مذكراته (كيف غزونا مصر)، ص ٥٨ — ٥٩، بأن الخطة الحربية الضخمة كانت من صنع الجنرال الألماني «فون كريبس» ووضعه: «القد سارت فرقة بغداد ١٢ التي هي من القليل ١٣ إلى ٥ و٦ مشياً على الأقدام، وتوجهت فرقة الموصل ١٣ إلى حلب ثم إلى حمص، ورج القليل ٦ حلب إلى الأستانة، وتذهب القليل ١٠ من سويس إلى مسون ليهند بالزول في أوديسا.. وعلى هذه الخطة سحب الجيش من الشرق. وتخرج جيش لوزرود من قاعدته للكمية في سويس، وحلكت الفرقة ١٣ في سويس لأنها لم تألف هؤلاء، ولكن أعيد بعد ذلك قسم من القليل ١٢ إلى العراق، وسبق القليل ١٠ إلى أرودم وأرسلت الفرقان ٨ و ١٠ من الأستانة ولوزر إلى سورية، بدلاً من القليل ٦ الذي تجرد من حلب وأرسل إلى الأستانة. وهذه الخطة الضخمة التي يوحى بها العقل، وتأمر بإتباعها ينادي الرأي لم تفعل إلا بالبلاد محمد بالله.

التوغل البريطاني بالرغم من ضعف إمكانيات الجيش المهاجم^(٢٥)، ولم تقطن القيادة العليا التركية إلى تقصيرها إلا بعد فوات الأوان، حينما استقدمت ست فرق من جيوش الأناضول والقفقاس لما تضمن موقف الأتراك فيها، وأصبح لإرسال التقويبات إلى العراق أمراً محتملاً. وبذلك استطاع الترك إحكام الحصار على كوت الإمامية واستردادها. غير أنهم ما كادوا يصلحون لخطأهم هنا حتى وقعوا في خطأ آخر. ذلك أنهم في وقت كان عليهم أن يستثمروا انصرامهم في كوت الإمامية لتفوية جيوشهم في العراق، ومنع كل تقدم مقبل من قبل للقوات البريطانية، وإذا أمكن لطردها من العراق، أخذهم الغرور ففتحوا جبهة جديدة في إيران^(٢٦)، بأمر من أنور باشا، الذي قدم إلى بغداد في أيار ١٩١٦، وأصدر لوامره إلى الفيلق ١٣ بالإضافة إلى لواء من الخيالة بالحركة من جبهة الكوت إلى جبهة خانقين (التي احتلها الروس في أثناء سقوط كوت الإمامية) لقتال القوات الروسية^(٢٧)، ووصلهم الاكتفاء بطردها بل التقدم إلى الأنغان ثم لمعد لاحتلالها^(٢٨)، وكان للألمان تأثير كبير في حمله على اتخاذ هذا القرار، الذي لقي اعتراضاً من خليل باشا قائد الجيش السادس^(٢٩)، ومن على إحسان باشا (مبايس)، آمر الفيلق ١٧، اللذين رأيا في هذه الخطوة عملاً جاعماً يصعب تحقيقه، وبخلافه خطوة لبغا حشد الجيوش^(٣٠). وعلى كل حال سار الفيلق ١٣ إلى إيران وحصد المجدد الروسي، وطار على تقدمه في المنطقة الإيرانية إلى أن اقترب الإنكليز من بغداد، فصدرت إليه الأوامر بالإنزاد لمشاركة الجيش العمالي مهمة الدفاع عنها فورصل متأخراً^(٣١).

٣ - عندما بدأت الثورة العربية لم يشأ كل من الأتراك والبريطانيين أن يذهبوا خيبراً بين

(٢٥) محمد كنين، المصدر السابق، ص ١٣٤، شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص ١٩.

(٢٦) COL. LAMDOUCHE, Ibid. p. 366.

(٢٧) كانت للقوات الروسية قد سقطت عمالي إيران بينما احتلت القصور والآبار المائية جنوب رضى السكان، وذلك بناء على مقتضيات الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط، فلجأت ألمانها إلى إرسال المارشال فون ديرج VON DER GOLTZ إلى العراق ليسلم قيادة الجيوش المتخلفة المربطة فيها، وحصل على مواجهة الخطر الإنكليزي في جنوبي العراق، ويعطى الفروس في الشرق، ولتمسك على طردهم من إيران وإحلالها بالسلطنة العثمانية. وعندما توفي ديرج ١٩١٦/٨/٦ بالتهرقس، بعد امتداد كوت الإمامية، عين خليل باشا حم أنور باشا قائداً للجيش السادس بدلاً منه، وكان لوقت المارشال أكر حسن على تأخر الموقف الحربي في العراق. (Y. H. BAYUR, Ibid. II, p. 129).

(٢٨) بيان فون سانتيرس تركيا ذو سن سنة ١٩٢٥، شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص ١٦١.

(٢٩) الجيش السادس هو الجيش الذي أصبح يربط في العراق، مقره العاصمة بغداد وقائده خليل باشا هو هم أنور باشا.

(٣٠) محمد أمين، المصدر السابق، ص ٣٥-٣٦.

(٣١) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٢، ص ١٤٧.

العراقيين. وإذا كان الترك قد عثشوا أن يمتد أثرها على سكان القطر العراقي، فإن الإنكليز قد فعلوا ذلك مكرراً بالقضية العربية وبقيتها منهم بأن مولد قوتهم الخاصة تكلمي لاحتلال العراق^(٣٠). وقضلاً عن ذلك فإن سلطات الهند الإنكليزية قد استجشت ثورة الحسين، إذ كانت بتظر نائب الملك ومفاجأة غير سارة، وأن إسقاطها كما قال «قد يكون أقل ضرراً (لِلإنكليز)» في الهند وفي أفغانستان، من تدخلهم وقأيدها عسكرياً». فقد كانت سلطات «سبلا» تخشى أن يهددها كثير من المسلمين، في الهند وعلى حدودها، دسيسة إنكليزية وتدعلاً مسيحياً في شؤون الدين الإسلامي، كما تخشى استضعاف القضية العربية، وترغب في عدم اغتاذ العرب حلفاء قد يفتلون أمام الإنكليز قضية التسوية النهائية للوضع السياسي في العراق. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن سلطات الهند لم تكن تتخذ سياسة حرية ليست هي التي توجهها، لأنها هي التي كانت تضطلع ولوحدها منذ أجيال بعلاقات بريطانيا العظمى بالعرب^(٣١). وهذا هو الذي جعل سلطات الهند تتوجس من طالب التنب، وترفض مقترحاته للعمل بدأ واحدة ضد الترك، وسوقه إلى الهند في نفي اختياري. كما توجست من الضباط العراقيين في الجيش التركي مثل نوري السعيد، وعبد الله الدمولوجي، وغيرهما، الذين عرضوا خدماتهم للعمل في الثورة العربية، فقبضت عروضهم بالشك والريبة في بادئ الأمر، حتى اضطر الدمولوجي للذهاب إلى الرياض والدخول في خدمة أميرها. لقد حرصت هذه السلطات على ألا يكون لثورة الحسين أثرها الكبير في إذكاء الشعور القومي، فلم تسمح بنشر أخبارها بين القبائل، بنية تشجيعها على القيام في وجه الترك إلا بمقدار لا يضر بها منها إلا التدر اليسير—وشخاصة بعد الاستيلاء على بغداد—وفقاً للسياسة التي كان الجنرال مود، القائد العام الجديد، والسير برمي كوكس وسكرتيرته المس «جروديل» وسائر الموظفين السياسيين ينتهجونها في ترسيخ ألدام السيطرة البريطانية المباشرة، وليس في خلق الشعور القومي العربي الذي قد يصطدم بالسياسة البريطانية. ومع ذلك فقد كان حرب العراق على اتصال بالتيار القومي الذي انطلق هادراً من مكة، واندفع نحو الشمال وذلك بواسطة الكتب والجرائد والشرائط^(٣٢)، ومنها كتاب «ثورة العرب»، الذي كلف أحد أعضاء الجمعيات العربية—أسعد داغر—بوضعه ونشره مخفلاً من الإسم، ووزع على نطاق واسع في جميع أنحاء البلاد العربية، فخررت نسخ منه إلى العراق، شأنه شأن جريدة القبلة في مكة، وجريدتي المنظم والكواكب في مصر، وكانت تحمل

(٣٠) حسين العسكري، المصدر السابق، ص ١٤٦، ١٥٢، ١٥٨.

(٣١) فليب آولاند، المصدر السابق، ص ٦٢.

(٣٢) المصدر السابق، ص ١٨٣، ١٨٤.

حملات شعواء على الاتحاديين وبيت، بالمقالات المسببة التي تكتبها عن الحركة العربية، الأفكار الداعية لمؤازرتها، معقدة آمالاً واسعة على نجاحها. وكانت هذه الجرائد كثيرة الانتشار في القطر العراقي، فأحدثت أثراً عميقاً في نفوس العراقيين، وأثارت فيهم كوامن الشعور القومي، ودغمت ضباطهم الذين وقفوا في أسر للقوات الإنكليزية للاستحقاق بقوات الثورة، كما كان لها أثر كبير في تطور الاتجاه العام في نفوس الشعب العراقي، وانقلابه من مؤيد للأتراك إلى متحضر لحكمهم^(٣٣).

٤ — لم يكن الرأي العام العربي في العراق مثلياً حينما فاجأتها الحرب، فاذله دخول المملطنة فيها. ولم يستطع زعمائوه تبين الخطة التي يجب سلوكها — بعد غياب طالب النقيب لولب الحركة الوطنية، وبعد سقوط البصرة بما فيها من رفاق طالب، ومالهم من تأثير على النفوس — خاصة وأن محادثات الشريف حسين كانت تجري على الكتيان، وأن كبار الضباط العراقيين، من أعضاء حزب العهد، كانوا في سورية يخططون سراً مع أخوانهم السوريين ومع الشريف حسين دون علم من أئمتهم في العراق، أو أنهم كانوا مشغولين في مختلف جبهات الحرب^(٣٤). لذلك كله نشاهد تمسك الموقف العربي في العراق في سنوات الحرب الأولى، سواء في ذلك موقف «العهديين» من ضباط وحذريين، وإن بدر من فريق منهم بعض محاولات التكتل والاتصال ببعض زعماء الإمارات العربية حول الخليج العربي، بدعوتهم إلى تعزيز القومية العربية وحماية مصالحها، وذلك قبل انضمام تركيا إلى صفوف المتحاربين، لكنها لم تكن سوى محاولات عقيمة^(٣٥)، أو موقف القبائل العربية التي كان لها شأن ما في التطورات العسكرية والسياسية معاً. هذا ملخص للموضع ولا بد من بعض التفصيل:

أولاً: موقف القبائل العربية

لقد لعبت العشائر دوراً في الحرب من حيث كونها عصباً أقلق الفريقين المتحاربين على النسوة. إذ كان دأبها استغلال الموقف لصالحها، والاستيلاء على الأصلاب من أسلحة ومهمات، وقد حاول الطرفان استئالة زعمائها بشتى الوسائل، فلم يُجديهما ذلك شيئاً، إذ كان النجاح محدوداً، وظلت غاية القبائل المصلحة الذاتية^(٣٦)، أو التكيف بحسب رجحان الكفة. فإلى ما قبل

(٣٣) محمد المهدي الجبوري، المصدر السابق، ص ٧٤ — ٧٥.

(٣٤) غرناة وله، المصدر السابق، ص ٦٤.

(٣٥) حسين العسكري، المصدر السابق، ص ٤٦ — ٤٤.

(٣٦) شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص ١١٥، غلب آولاند، المصدر السابق، ص ٦٨.

معركة المشيحية كان قسم كبير من العشائر في جانب الأتراك، بالرغم من طغيانية وعثمانها عليهم، لكن سوء تصرف الأتراك من جهة، وانسحاب قراقرم من جهة ثانية قد دفعا بمعظم القبائل إلى تحديد موقفها منهم.

كانت بعض القبائل، بقيادة الأئمة مبدراًل فرعون، الذي اجتمعت إليه عشائر لواء الديوانية، ومن أبرزها عشائر آل غنلة، قد ثار على الترك في عام ١٩١٣، ودامت ثورته أربعة أشهر تقريباً، ثم قضى عليها بموامل الخيانة من أحلافه، فألقى العثمانيون القبض عليه مع عدد آخر من زعماء العشائر الذين ظلوا رهن الاعتقال حتى تسوية الحرب العالمية الأولى وسقوط البصرة. قرأت السلطات التركية أن نطلق سراجهم وترسلهم إلى البصرة لمؤازرة الجيش العثماني في مقاومة الإنكليز. وكان ذلك نتيجة لمساعي علماء النجف الأشرف وغيرهم من الزعماء الدينيين، فصدعوا بأمر العلماء، وجمعوا أتباعهم وتخاضوا المعارك في المشيحية^(٣٧)، يدفعهم إلى ذلك أمران: أولاً إخراجهم للرابطة الإسلامية ووجوب مقاومة أعدائها الغربيين، وثانياً مشاهدتهم بأن علماءهم المروحيين الذين نجح طاعتهم - وقد أصيدوا فتاوى الجهاد بوجوب نصر المسلم على غير المسلم - قد سبقوهم بأنفسهم إلى مقدمة صفوف المجاهدين من العشائر، بعد أن استغلت الحكومة العثمانية بعدهم عن كل ما يمت إلى السياسة بصفة، فاستنجدت بهم على أساس دعم الإسلام وحفظ كيانه. وكان على رؤساء العشائر أن يطيعوا العلماء بالرغم من أنهم يعرفون جيداً السياسة العثمانية تجاههم سدياً وعنصرأ. لأنهم لم يجرؤوا أمام لراثة العلماء أن يفتحوا باب النقض والإبرام^(٣٨).

فشكلت جبهتان حريتان من المجاهدين وعلى رأسهما العلماء ورؤساء العشائر وقليل من جنود الترك، أولاًها: جبهة المشيحية في الجنوب الغربي من الفرات، وكان قائده المجاهد فيها العلامة السيد محمد سعيد حيوي، وثانيتهما: الجبهة الشرقية جنوبي نهر الدجلة، وكان قائده المجاهد فيها العلامة السيد علي الداماد. وقد برهن أفراد القبائل في المعارك، التي خاضوها ضد القوات الإنكليزية، عن عدم جدوى العدد الكبير من المقاتلين، إذا كان ينقصهم التنظيم والاستعداد النفسي، والتأخر الحديث. فبالرغم من الشجاعة الفردية التي أظهرها المجاهدون، لم تكن القبائل قادرة على مجابهة القوات الإنكليزية المنظمة، إذ تراجعت بغير انتظام وأحدثت ارتباكاً في جبهة الترك فعمت البلبلة في صفوف القوات العثمانية المهلهلة. وسرعان ما اغتنم الإنكليز الفرصة فقاموا بهجوم عام تراجيع العرب

(٣٧) محمد المهدي البصير، المصدر السابق، ص ٤٧.

(٣٨) فهدى الزهر آل فرعون، الحقائق الناصبة في الثورة العراقية، ص ٣٣ - ٣٨.

على أثره . وفي أثناء تراجعها فككت القبائل بالجيش العثماني المربطة في « هور الحمارة » ، وأصقلت فيها سلباً ونهباً ، مما ترك أثراً سيئاً لدى الترك ، وحملهم على عدم العودة إلى طلب المساعدة منها^(٣٩) .

وبعد أن رابطت القبائل فترة في الناصرية والمساوة تفرقت وذهبت كل قبيلة وكل زعيم إلى موطنه ، باستثناء عجمي باشا السعدون الذي بقي ، مع قبيلته « ملتفلت » ، مربطاً مع الجيش التركي في منطقته إلى النهاية^(٤٠) . ولم يقتصر أثر هذه الهزائم ، الشديدة الوقوع على نفوس الترك ، على احتجاز القائد التركي سليمان عسكري ، بل إن قائد الجبهة الثانية محمد باشا الداغستاني قد توفي نتيجة من شدة تأثره بنتائجها الوخيمة . وكان من أسباب القتل — إلى جانب عدم التنظيم — نقص المؤن حتى الضروري منها ، كالخيز والذخائر الحربية . وبما لوحظ على الترك في أثناء هذه المعارك عدم تقديرهم لمساعدة العلماء وزعماء العرب حتى في أيام الشدة واحتياجهم إلى عطف العرب ، ذلك أنهم قد اعتادوا معاملتهم بالقسوة والسخرية اللاذعة . قال أحد قادة الأتراك للمجاهدين دون جميل ، وهم في غمرة القتال « إننا لو فتحنا الشعبية والبصرة يغني عنها واجب ثان وهو فتح العراق ، وخاصة منه الفرات أولاً وعشائر شط دجلة ثانياً لأنهم عورة » . فنهض إليه الشيخ بدر الرمض رئيس بني مالك وأجابه « أنهم الحقوة للإسلام ... وتجزئكم ضد العرب مصداق لقولي .. وأنهم بعد هذا أولى بالحرب والقتال من غمارب ، ولولا فئوى علمائنا لما وجدتمونا في هذه الساحات التي نقال فيها »^(٤١) .

لورة النجف وكربلاء وأحطلة : لم يمض شهر واحد على هزيمة الشعبية ، والسحاب العلماء وزعماء العشائر وأفرادها إلى مناطقهم — بعد أن تهاوى المسكرات التركية في طرقتهم — حتى وجهت الحكومة العثمانية حملة انتقامية مؤلفة من ألف جندي ، بين راكب وراجل ، بقيادة الضابط التركي « عزت بك » ، إلى النجف لاعتقال المهابيين من الجندية ، فاشترك مع قائم مقام النجف — وكان رجلاً فظ الطباع سيء الإدارة عرق الرأي — وضغطاً على النجفيين بالضرائب الباهظة ، ونكلاً برجالهم وشراذهم — دون داع من جرعة — ومسا منهم الكرامات ، ثم انطلق جند الأتراك يمشون في الأرض فساداً يسلبون ويقتلون ودون وادع من ضمير ، فاقطعت آخر المصلات الودية بين الأتراك والنجفيين ، وأدى الأمر إلى الجفاء والتفوق ، فهاجم الجنود المهابيون في فجر ٨ رجب ١٣٣٣

(٣٩) فريق الزهر فريزون ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ رسائل الأمان ، المصدر السابق ، ص ١٣٩ الفريق شارلس طوزوند ، المصدر السابق ، ص ٥٥-٥٧ .

(٤٠) لحسن العسكري ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٤١) فريق الزهر آل فريزون ، المصدر السابق ، ص ٣٨-٣٩ .

(منتصف أيار ١٩١٥) الحامية العثمانية، وقاتلوا رجالها قتالاً شديداً بعد أن انضم إليهم أهل البلدة. وبعد نضال دام ثلاث ليالٍ أذغنت لهم الحامية واستسلم جنودها، فاستولى الثوار على أسلحتهم ومعداتهم، وطردوهم من البلدة مع قائمقامها، حتى لم يبق تركي في المدينة، واحتلوا دار الحكومة، وألف زعماء أحياء البلدة الأربعة حكومة وطنية دامت سنتين ووقف، سارت سراً مرضياً دلت على مقدرة العرب في حكم أنفسهم بأنفسهم، إلى أن استب الأمر للإنكليز فقصوا عليها بالعنف^(٤٢). ثم قرر الزعماء إرسال وفد منهم إلى مدينة كربلاء لنهيج الرأي العام فيها فاستجاب هؤلاء إلى النداء، وهاجمت قبائل بني حسن الحامية التركية في منتصف شبان (أواخر حزيران ١٩١٥)، واقتتلوا مع الترك قتالاً عنيفاً وحرروا البلدة منهم، واستولوا على دار الحكومة وطردوا الموظفين الترك، وتشكلت إدارة عربية بإشراف أسرة آل كميونة أضطلعت بأعباء الحكم^(٤٣). ولم يقف الحياض عند هاتين المدينتين، إذ سرت العدوى إلى معجزة الحلة التي بلغ استيائها من ثقل الضرائب والتكاليف الحربية وإساءة تنفيذ قانون الخدمة الإجبارية حداً جعلها تغرم نيران الثورة، في منتصف شوال (أواخر آب ١٩١٥)، إثر محاولة رجال الدرك اعتقال بعض أفراد الشعب^(٤٤)، فاصطدموا بمعارضة عنيفة من المواطنين، الذين رفضوا تسليمهم، وتطور الأمر إلى قتال عنيف بين الطرفين، تمكنت جماهير الشعب في نهاية من احتلال دار الحكومة بعد مقتل ستة أفراد من الدرك و١٣ من الأهالي.

سكنت الحكومة التركية على هذه الأعمال بينما انتهى حصارها لكويت الإمارة، وما إن سقطت هذه في أيدي قواتها حتى أزمعت على الانتقام من أهالي الحلة وتصفية حسابها معهم، فشكلت حملة أطلقت عليها اسم «جيش الانتقام» مؤلفة من عدة أفواج بقيادة «عاكف بك» وصلت إلى القرب من كربلاء، واتصلت بزعمائها الشيخ محمد علي كميونة، طالبة منه السماح بالدخول إليها، فرفض قائلاً إنه إذا كان قصد الحملة إقرار الأمن فإن الشعب يهيم بإقراره، وأما إذا كان الغرض شيئاً آخر فالشعب مستعد للقتال، فصرف القائد النظر عن دخول كربلاء، وقرر الاتصال بأهل الحلة وسفواضتهم للاستسلام، بعد أن رأى منهم التحضر والاستعداد للدفاع عن مدينتهم. ولم يورع عن اللجوء إلى الحملة محاولاً إقناعهم بوجوب فتح مدينتهم لجيشه، الذي لا يهدد إلا قضاء فترة استراحة فيها، لهجتها بعدئذ إلى منطقة أخرى. وبعد أخذ ورد اتفق الطرفان على إعطاء الجيش

(٤٢) جعفر الشيخ بكر آل محبوبة، ملحق النجف وحاضرها، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٤٣) SIR ARNOLD WILSON, Ibid., p. 72.

(٤٤) طريق الزهر آل قزوين، المصدر السابق، ص ٤٢.

حرية المرور ، بعد أن أخذ القائد التركي نسخة من القرآن ، وكتب في آخر صفحة من صفحاته عهداً بتأمين الحليين على أرواحهم وأموالهم ، مشهداً الله أن ليس في نيته إهداء أحد منهم بشر ، وأنه يريد المرور فقط . وقد توسط بذلك الشيخ محمد علي القزويني ، الذي هدّد بمخافة البلاد فيما إذا رفض الشعب طلبه ، فصدع السكان بالأمر ، وجرى الاتفاق على أن يخرج رؤساء أحياء الحلة لمراقبوا القائد التركي في الدخول ، فخرج ما يقارب من ٥٠٠ / فارس منهم لاستقباله (١٧ محرم ١٣٣٤ ، ١٥ / ١١ / ١٩١٦) ، كما خرج معهم الرجال والنساء . وما اكتمل جمع الناس حتى بادرو الجنود إلى تطويقهم واعتقلوهم ، ودخلوا المدينة^(١١) ، وبدؤوا يقتلون بالسكان فتكاً فظيعاً ، إذ قتلوا عدداً كبيراً منهم ، نساء ورجالاً وأطفالاً ، وقتلوا بهم أشنع قتل ، واستباحوا كل شيء في البلدة ، وحتكوا ستر بعض المخدرات من المعاتل الشريفة ، وحمل القائد معه بعضهن وأبقاهن بضعة أيام في عيونه ، ثم نقل بعضهن إلى المناطق التركية ، وأعاد بعضهن الآخر^(١٢) ، فلم يبقوا معظمهن على الحياة بعد أن سلب علافهن ، فألقوا بأنفسهن في النهر وغرقن^(١٣) . ولم يكف عاكف بك بليلك بل أمر بتدمير أربعة أحياء من المدينة بقتال المدافع ، ولم يُبق بيتاً من بيوت الأشراف إلا وهدمه ، وعلى خمسة عشر من وجهاء المدينة وشرفائها على أعواد المشاتي ، ثم جمع شيان المدينة ممن تتراوح أعمارهم بين ٢٠ — ٤٥ سنة وأمر بسوقهم جميعاً إلى الجندية .

في الحقيقة بلغت فظائع المترك في العراق ، في أثناء الحرب ، درجة لا تقل عن فظائعهم في دمشق ، فقد شردوا المضايقات العرب في مختلف الجبهات المحاربة في الأناضول ، ولم يستندوا إلى من بقي منهم إلا مناصب ثانوية لا تمكنهم من إظهار شعورهم الوطني ، وسجنوا أو أخرجوا من البلاد جميع المثقفين من العرب ، وجميع الوجه والأعيان الذين يشكون بأنهم يحملون أفكار قومية ، وفرضوا المضرائب المهرقة ، وحطّلوا الصحف إلا التي كرست أعمدها لمجيد الانحاديين وأعمالهم ، وكسوا الأتواء وخنقوا الحريات ، وعاملوا بوحشية كل من يعترض على سياستهم أو يتفدّها^(١٤) ، فغضبوا المشايخ في «باب الأعظمية» ببغداد وقد واح ضحيتها عشرات العراقيين وأغلبهم من أصحاب الصحف المحلية الحرة ، وجرى التكنيل يسكان بغداد والموصل وغيرها من المدن العراقية سجناً ونفيّاً

(١٥) CORRESPONDENCE D'ORIENT, 10/3/1917, pp. 148-149 (عن جريدة الأوقات البغرية بقلم مراسلها

الغرب من الحلة) لمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٢٧ .

(١٦) فريق الزهر آل برعون ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(١٧) خير الله خير الله ، المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(١٨) فليب أولاند ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

وإعداداً، ولم ترحم السلطات الحاكمة النساء المحدرات والبنات والأطفال والشيوخ وعائلات النساء، بل أبعدتهم إلى الأناضول دون شفقة أو رحمة مع الرجال، ومعظمهم من كبار العائلات ووجهاء البلاد، مثل آل الألويسي والسويدي وثيان والحيدري والكاظمي وغيرهم، كما نصبوا المشاقق في كوت الإمارة بعد استردادها من الإنكليز، وأعدوا زعماء المدينة بتهمة التعاون مع العدو^(١). هذا عدا عن القتل قيلة دون حكم أو محاكمة، فقد قتلوا بهذه الطريقة ثابت السويدي، الذي كان يشغل وظيفة قائمقام في مناطق الأرم، فامتعض من أعمال الإبادة التي سلكها الاتحاديون بحق الشعب الأرمي، فألقي القبض عليه واغتيل من قبل حراسه في أثناء سوقه مخفوقاً من بلدة إلى أخرى^(٢). كما ألقوا القبض على المناضل العربي عبد الله صائب، للذي هرب من مظالم الإنكليز وسياسة العنف التي أتبعوها في البصرة، والتجأ إلى بغداد، فلقى المصير نفسه غيلة بيد الاتحاديون، الذين قتلوه رماً بالرصاص في أثناء سوقه معهم حيناً هربوا من بغداد أمام الجيش الإنكليزي المهاجم للمدينة وألقوا بجثته في النهر^(٣).

صدي فاجعة الحلة : وعندما وصلت أخبار الكوارث التي أوقعتها الأتراك بأهالي الحلة إلى زعماء عشائر العراق اهتزت مشاعرهم لها، بالإضافة إلى ما اتصل بهم من فظائع الأتراك في بغداد، فأخذتهم الحماسة القومية إذ جمع الشيخ ميدر الفرعون، رئيس عشائر الفنتلة، جميع الرؤساء والأعيان في مدينة النجف، وألقي فيهم خطبة قوية ندد فيها بالفظائع التي ارتكبتها الترك في مختلف المناطق، من قتل للنفوس وعتك للأعراض المصونة، وحرصهم على غسل عارها قتلاً^(٤) والله ليطعن الأرض خير لكم من ظهرها إن كنتم لهذه الأفاعيل الحمجية^(٥). وحذرهم من أن المولة تريد نحو العرب، ودعا إلى الاتحاد والتعاقد ومكافحة الظلم والتحرر من الاسترقاق. فما إن سمع الزعماء هذه الخطبة حتى سرت فيهم كلماتها سريان الكهرباء، فقامت عشائر الفرات ورفعت علم الثورة، وسامحت مع الإنكليز في طرد الأتراك من المنطقة^(٦)، وكان ميدر الفرعون — وهو أول من انتسب من رؤساء العشائر إلى النادي الأدبي في بغداد عام ١٩١٢ — قد تداول مع عدد من ضباط حزب العهد العراقيين وزعماء العشائر في القضية العربية في حالتها الراهنة، وكان هؤلاء الضباط مترددين في

(١٩) قال المصنف، المظالم في سورية والعراق والحجاز، ص ٨٥-٨٦.

(٢٠) محمد العسكري، المصدر السابق، ص ٣٢.

(٢١) ملائكة سليمان بعضي، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢٢) قهرن للزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص ٤٤-٤٦.

القيام بعمل حاسم عشية الوقوع في براثن الاستعمار الإنكليزي. ولابد من بحث هذه الناحية بشيء من التفصيل، بعد أن رأينا موقف المشائر.

ثانياً : موقف الضباط «المهديين»

بقي ضباط العرب «المهديون» منذ المجموع البريطاني على العراق في حالة ترقب — ولتجاههم من حيث السياسة التركية نحو العرب معروف — ولكنهم لا يستطيعون القيام بأي عمل متهور، ولا يأمنون غدر البريطانيين ولا يتقون بهم، خاصة وأنه لم يسلح عن هؤلاء من الضمانات الصريحة ما يطمئن نفوس العرب في العراق، لا بل إن السلطات البريطانية كانت تتخذ من التنازير والقبود ما يفرغهم منها، كالاستيلاء على المساكن دون أن يدفع بدل إيجارها، وعلى الأغذية والمزود وسافل النقل النهرية لمصلحة الجيش. بل كان بين الأوامر التي كانت تفرض عليهم ما يحجم على سائقي العربات وأصحاب الزوارق أن يفضلوا في جميع الحالات الضباط البريطانيين والنساء الأوروبيات، وحظر بيع الأطعمة في الأسواق إلا بعد أن تكون حاجات الجيش قد سدت منها، وسحب العمال من أعمالهم والفلاحين من حقولهم ومن بين أسرمهم ليستخدموا في الأشغال العسكرية. باختصار كانت حاجات السكان منذ البداية إلى النهاية، تعتبر شيئاً ثانوياً بالنسبة لحاجات القوة المحتلة، مما برهن على أن البيانات التي أصدرها الإنكليز، عند نزولهم في الفلوجة، بأن الحملة البريطانية جاءت لتتعاون مع العرب لتحريرهم من رقة الترك الغاصبين، كانت كاذبة والفها المكر والدجل^(٥٣)، فوقف أحرار العرب من مدنيين وعسكريين في حيرة من أمرهم. وإذا استثنينا لجوء بعضهم إلى الحرب بشكل فردي من صفوف الجيش العثماني، والالتحاق بالجيش الإنكليزي، «لا عيانة بل خدمة للقومية العربية»، كما فعل مولود غلص، وعلى جودة الأتوبي، وحيد الله الدليمي وغيرهم إثر وقعة المشعبة^(٥٤)، فإن الفكرة العامة التي سادت أوساطهم إنما هي أنهم يفضلون أن تبقى بلادهم موحدة تحت حكم تركي ضعيف، على أن يروها مجزأة إلى مناطق تقود تحتكم فيها عدة دول أوروبية^(٥٥).

ومع ذلك لم يكد ضباط «المعهد» — ولم يكن يوسع خبرهم أن يتصدى لنصرة القضية العربية بسبب الضغط الشديد الذي عاناه المدنيون من السلطات الاتحادية — يشاهدون الهزائم

(٥٣) قلب آملاند، المصدر السابق، ص ٤٤ — ٤٥.

(٥٤) حسين قسيري، المصدر السابق، ص ٧٩.

(٥٥) O. STITT, Ibid. p. 155؛ لورنس، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣.

للملاحقة التي منى بها العثمانيون ، حتى بدؤوا يتشاورون فيما بينهم سرّاً ، بتزعمهم العقيد تحسين العسكري ، ومنهم المقدمون : صادق الشبخلي ، توفيق الحسوي ، صادق الجندبي الشامي ، والضباط : تحسين علي ، يوسف العزاوي ، رشدي القبطان ، عبد الرحمن الأعظمي ، إسماعيل نامق ، يوسف حنظل ، موفى الكامل ، عيسى الورتري ، وتوفيق وهبي ، وكثيرون غورهم . وقد عقدوا مؤتمراً (نحو ١٩١٥) بحثوا فيه وضع العراق ، واحتمال مصلوه إلى الاحتلال الإنكليزي ، بسبب سوء تصرف الاتحاديين بمقدرات البلاد ، وقرروا الدخول في مفاوضات مع الإنكليز على أساس منع العراق الاستقلال ، تمهيداً لاستقلال بقية البلاد العربية ، على أن يعلن جيش متطوعة مشترك (جنوب العراق) انفصاله عن الجيش العثماني ، ويمنى بسلاحه مرابطاً في الفرات الأسفل ، ليكون نواة جيش المستقبل . ورتبوا خطة القيام بالحركة واعتقال ضابط الترك وكل من تحصل عرقته لها . وجرى الاتصال بالزعيم العشائري عجمي باشا السعدون الذي أبعد الفكرة وأبدى استعداده لمؤازرتها وكلف بمفاوضة الإنكليز . لكن القائد الإنكليزي الذي اتصل به لم يقبل بمفاوضة العرب مدعياً أن ذلك ليس من صلاحيته ، فبر أنه حاول إغراء عجمي باشا بمغني ألف روبية — عربوناً لصداقته — على أن يترك الجانب التركي ، فامتنع عجمي باشا من هذا العرض ، وصمم على متابعة قتال الإنكليز^(٥٦) . كما ثابر الضباط العراقيون على التزام الجانب العثماني ، إنما انبهت أنظارهم شطر الترك مطالبينهم بتحقيق آمالهم القومية ، فمعدوا ، من أجل ذلك ، اجتماعاً ضم بعض الضباط ممن ذكّرت أسمائهم سابقاً ، بالإضافة إلى الشيخ ميدر الفرعون والسيد علوان وأربعة آخرين من الزعماء الدينيين ، وتداولوا في الأمر ، وجرى النقاش حول موضوعين : استقلال العراق أو الحصول على حقوقه المكتسبة ، فاستقر الرأي بالإجماع على الشطر الثاني ، لأنه أخف وطأة من الأول . لكن اختلاف ثار حول وقت المطلبية به . قال فريق بوجود الاستمرار في محاربة الإنكليز ، والتمسح حتى اندحارهم النهائي وعندها تجري مطالبة الترك بتحقيق المطالب ، وقال آخر بأنه إذا لم يمر مطالبة الأتراك بتحقيقها ، في حالة ضعفهم الآن ، فلا سبيل إلى الحصول منهم على شيء بعد انجلاء الغمة ونحروجهم منتصرين من الحرب . ففاز الرأي الثاني بأرجحية الأصوات ، وجرى تنظيم المطالب في مذكرة تقدم بها الشيخ ميدر الفرعون — وكان من أنصار الرأي الأول ولكنه نزل عند رأي الأهمية — إلى القائد عاكف ملك قائد منطقة الفرات ومخلصها وإن رابطة الدين والتاريخ تجمع بين الشعبين العربي والتركي ، ومع رغبة العرب الشديدة بعدم بتر هذه الرابطة خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى إضعاف الطرفين ، إلا أنهم يذكرّون أسيانهم الترك بمحرفهم المهمل ، التي لا يبالون إلا بالشيء

(٥٦) تحسين العسكري ، المصدر السابق ، ص ٢٩ — ٨١ ، ٨٦ — ٨٨ .

القليل منها : أن تكون اللغة الرسمية للمحاكم والمعارف وجميع المعاملات الرسمية في العراق هي اللغة العربية ، كما تكون لغة التدريب العسكري ، وأن لا يرسل الجيش العراقي إلى خارج العراق ، مادام العراق في حاجة إليه ، وأن يكون الموظفون في العراق من العراقيين ، وأن تحصر واردات العراق بالعراق وحده ، تصرف في ما هو بحاجة إليه من العمران والإصلاحات الحيوية التي هو في أمس الحاجة إليها^(٥٧) . وقد وقّع المذكرة بعض رؤساء العشائر والعلماء وسُلمت إلى عاكف بك فرفعها إلى القائد العام نور الدين بك المرباط في ميدان الكوت . وما إن استلمها هذا حتى تميز من القبط ، وأخذ يرمي موقعها بقوارير الكلم وأجابه عليها بكتاب عنيف باللهجة . وكان لهذا الجواب — بالإضافة إلى فتاوى الترك في بغداد وما أعقب ذلك من حوادث الحلة الوحشية — أثرها في هياج الشيخ مبسر الفرسون ، وقيامه خطبياً في بني قومه ونهوضه في منطقة الفرات الأوسط وسنادة الترك . كما فكر الضباط العراقيون ، بعد قتل مفوضائهم مع الإنكليز والترك ، في أضرام ثورة مستقلة عن هؤلاء وعوائلهم في إحدى الجزر الواقعة بين المعسكرين الشعايريين والمأهولة بكثير من العشائر ، والتي كانت ذات موقع ممتاز فلم تنهأ لها أسباب النجاح لعدم وجود المال^(٥٨) . والملاحظ أن كل محاولات الضباط العراقيين التي سبقت الإشارة إليها لم تظهر عليها مسحة العمل الجدي للثورة ، وقد احتفظوا لتصرفاتهم — بلسان الضباط الذي أدهى نزعهم (تحسين العسكري) صاحب المصدر الذي أورد هذه المعلومات — مختلف الاعتذار . ولا بد لي من إضافة أنه قد يكون في ما سرده تحسين العسكري — بالتفصيل في مذكراته — بعض المبالغة من دوره ودور زملائه في الأعمال التي نسبها لنفسه ولم . كما لا بد لي من ملاحظة أن هذه المسألة تحتاج إلى مزيد من التعمق في البحث .

احتلال بغداد : انصرف الإنكليز ، بعد كارثة كوت الإمارة ، إلى غلق جبهتهم في العراق محققاً جديداً . فبعد سلسلة من التغييرات القيادية حينما الجنرال « ستانلي مود S. MAUDE » قائداً عاماً للحملة ، وقد جرى به من جهة الدردنيل إثر الانسحاب منها ، مع الفرقة ١٣ التي كان قائداً لها^(٥٩) ، وحملوه مطلق الصلاحية في اتخاذ ما يراه مناسباً لإقرار النظام في صفوف الجيش وإزالة الأثر الذي تركته الكارثة^(٦٠) ، وسنوه بقوات جديدة ومعدات وفيرة — بعد أن تولت سلطات لندن أمور المنطقة — وراحوا يستعدون لاسترجاع كوت الإمارة ثم الاستيلاء على بغداد ، يساهمون في ذلك

(٥٧) تحسين العسكري ، فقهير السابق ، ص ٧٩ — ٨١ ، ٨٦ — ٨٨ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ١١٥ — ١١٦ .

(٥٩) SIR ARNOLD WILSON, *Ibid.*, 1, pp. 120, 127 .

(٦٠) مجلة الشرق العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص ١٤٤ .

الروس الذين بدأ يحطرو استيلائهم على هذه المدينة ماثلاً أمام نواظر الحكومة البريطانية برحمتهم إليها من المشرق والشمال، لأن الأسراع في احتلال المنطقة الواقعة بين البصرة وبغداد بهم الإنكليز، من الوجهة السياسية، لكي يحصلوا على حصتهم من الممتلكات العثمانية تفضيلاً لاتفاقية سانستيفو-بيكو^(١١). لهذه الأسباب سمحت حكومة لندن للجنرال مود بالتقدم نحو بغداد، فزحف إليها بجيش يفوق أربعة أمثال جيش الترك، بينما لم يوجه أنور إلى العراق، عندما أُنذِر بتقدم خطر الإنكليز، سوى الفرقة ١٤، لأنه كان يعتقد، هو ومشاوروه الأركان، بأنه ليس ثمة من يحطرو تحقيق على بغداد، ولم يصغ إلى النصائح التي أعطيت إليه من المارشال هنريغ والجنرال لودندورف، بإرسال إمدادات هامة إلى العراق. وكان الاهتمام الذي ارتكبه مما لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه الحرب^(١٢). وهكذا تمكن الجنرال مود من احتلال كوت الإمامة من جديد في ١٩١٧/١/٢٤، ثم بغداد في ١٩١٧/٣/١١، بعد أن أخلاها الترك في اليوم السابق، وكانت الهزائم المتلاحقة التي مني بها الأتراك في الأشهر الثلاثة السابقة كافية لتعطيل معنويات الجيش التركي الذي صار يتراجع بسرعة، وبدون مقاومة تذكر^(١٣).

لم يمكن الجنرال مود بدخول بغداد حتى أذاع منشوراً موقفاً منه على السكان (١٩١٧/٣/١٩) قال فيه إن غاية الخلقاء من الحرب في العراق هي دحر العدو وإخراجهم منها، وأن البريطانيين لم يدخلوها قاهرين وأعداء قاضين بل محررين! وبعد أن أنهى في ذكر مظالم الترك في العراق منذ مولايكو، إذ شُربت قصورها وقوت حدائقها وبني رجالها وساءت حالتها، قال إن أمنية جلالة ملكه والخلفاء أن يعود العراقيون كما كانوا في السابق: أراضهم خصبة والعالم يتغذى بألبان آداب أجدادهم وعلومهم وصناعاتهم، حيثما كانت بغداد إحدى عجائب الدنيا، وأن بريطانيا التي لم تستطع السكوت عما كان يحدث في العراق من مظالم الأتراك والترك لن تتسامح— قوياً— بإوجب مصلحة الشعوب البريطانية ومصلحة حلفائهم— في أن يرتكبوا ما ارتكبه مرة ثانية في بغداد. كما تضمن المنشور وعداً بمصاهرة السكان من الظلم والغزو وبضمان حرية التجارة، وبأن الحكومة البريطانية لن تفرض عليهم أنظمة أجنبية، بل إن أمنيتها الوحيدة أن تحقق ما تطمح إليه نفوس فلاستهم وكتابهم، وأن يسجلوا ويحتموا بالغبى المادي والأدبي، بفضل أنظمة تولفق لواتهم

(١١) عبد الرحمن البراز، المصدر السابق، ص ١٢-١٤.

(١٢) إيمان فون ساندروس، المصدر السابق، ص ١٤٩-١٥٠.

(١٣) مجلة الحرب العالمية الأولى، جلد ٣، ص ١٤٤-١٤٥.

المقدسة وأطعامهم القومية ، وأن نسمو الأمة العربية مرة أخرى وتستعيد عظمتها ومجدها ، وأن نعمل لإبراز هذه الأهمية متحدة متفقة . وخطم البيان بقوله «وأنا سامور بأن أدعوكم بواسطة أشرافكم وشيوخكم الطاعنين في السن ، ومفليكم إلى الاشتراك في إدارة مصالحكم الملكية لمعاينة ممثلي برلماننا السياسيين المرافقين للجيش ، كما تنضمون إلى ذوي رحكم شرقاً وجنوباً وغرباً في تحقيق أطعامكم القومية»^(٦٤) .

إن هذا البيان قد أعد في لندن من قبل السير مارك سايكس^(٦٥) ، وبالرغم من أنه لم يتضمن من الوعود الصريحة ما من شأنه أن يرضي الأتالي القومية لعرب العراق ، شأنه في ذلك كشأن جميع الوجود الإنكليزية الخاضعة المهيمنة المطاطة : حماية ، إغناء القوى الأدبية والاقتصادية والعلمية والفكرية في ظل أنظمة تنفق مع قوانين العرب المقدسة وأطعامهم القومية ، تحرير من الظلم ، المشاركة في إدارة المصالح الملكية ، ولكن دون ذكر أي كلمة عن تكوين دولة عربية مستقلة موحدة صراحة ، أقول بالرغم من كل ذلك ، ومن كونه ليس أكثر من عذر لمنع الشعب العراقي من إبداء أية مقاومة للجيش البريطاني ، فقد قبول بالتصميم من قبل الجنرال مود نفسه ، ولم يسعه إلا أن يحتاج عليه إلى حكومته في لندن ، يعد أن نفذ لإرادتها في إذلاله ، ولم يكن مرد ذلك إلا لاختلاف وجهتي نظر لندن والهند بالنسبة للقضية العربية في العراق . فمن سياسة وزارة الخارجية في لندن استئالة عرب العراق والاستفادة من إمكانياتهم الحربية ، وإلزامهم بأن إنكلترا تعمل في مصلحة العرب . كانت هذه السياسة — كما اقترحها مارك سايكس — موجهة نحو جميع العرب «سواء أكانوا حلفاء مستقلين كاهن سعود والشريف حسين ، أو كانوا سكان محميات ، أو مناطق نفوذ ، أو حكومات تابعة» . ومن أقواله «يجب أن نبدو بأننا نعمل في صالح العرب ، وأننا متى كنا في أرض عربية سوف نعزيز اللفة العربية ، ونؤازر العنصر العربي»^(٦٦) ، كما أننا ستحمي العرب أو نؤيدهم ضد الاعتداء

(٦٤) بهذه الأيام ، الوثائق والملاحظات في بلاد العرب ، ص ٣٠٩ .

(٦٥) فرانك وليه ، المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٦٦) كانت آراء لورنس أكثر وضوحاً من حيث السياسة العربية ، إذ كان يعتقد أن عمله في الثورة العربية ليس إلا نعيدي إلى قيام قوة ضالمة هي قوة العرب . وقد كتب رسالة إلى اللورد كوروين قال «إن طموحي هو أن يكون العرب أول دولة تدخل القوميين — لا أن تكون آخر مستعمرة — والعرب يملكون إذا حاولت أن تسيرهم ، ولكن يمكننا أن نفورهم حيث نشاء دون استعمال القوة إلا نحن مرنا معهم جنباً لجنب . ولذلك يمكننا أن نجذب الشرق الأوسط بأكملها» . (فرانك وليه ، المصدر السابق ، ص ٦٦) . لكنه قال في مذكراته عن استقلال العرب شيئاً ناقضاً «ولقد طالت عني مرارة لمهاجرة بين أبناء الصحراء كالنضي الشريد ، وكنت أسأل نفسي ، ألا يمكن أن أستغل حجمهم للحرية واستغرضهم إلى مثل العليا وأعداءها فتلد تساعدي لأجل اعتبار (إنكلترا) (لورنس) في الصحراء» ص ٢٦٩ .

الخارجي ... هـ. هير أن سياسة الهند ، وكان التجزأل مود متفصلاً تمام الاتفاق معها ومع زملائه الضباط الموجودين في العراق ، كانت من الرأي القائل إن البيان لم يحصل في الوقت المناسب ، وإن سياسة لندن تجاه العرب سوف تضر اضطراراً وشخصياً في أفكار عرب العراق ، بالنسبة لنهايات إنكلترا في المستقبل ، بإبقاءها في غير الوقت المناسب — آمالهم وأطماعهم ، بينما يجب أن تبقى سلطنة الجيش البريطاني في الأراضي المحتلة مائدة وغير منازع فيها^(٢٢٦) . كما كان اعتقاد سلطات الهند وممثليها في العراق بأن مساعدة العرب العسكرية ليست ذات قيمة ، كقوة محاربة ، إذا لم يجر تنظيمهم عسكرياً ، وإلحاقهم بمهمة عامة كجزء منها ، وبغير ذلك لا يكون لهم أي أثر فعال في مقاتلة جيش نظامي . وهذا ما يفسر مقابلة منسوبات العراق البريطانية للكولونيل لورنس بإندراء حينما قدم إليها ، موقفاً من المكتب العربي بالقاهرة ، بمهام عديدة منها العمل على إثارة ثورة عراقية شبيهة بثورة الحسين ، وإقناع منسوبات العراق بوجوب تنسيق سياسة الإنكليز في « سلا » ولندن وتوحيدها بالنسبة للقضية العربية ، فعاد بخفي حنين^(٢٢٧) .

أثر سقوط بغداد

أولاً : على الضباط العرب العراقيين : من الطبيعي أن يكون لسقوط بغداد أثره الكبير في نفوس الضباط العراقيين ، لأن معظمهم من أهاليها ، ولم نزل أسرىهم وأقربائهم وأموالهم غيباً وأكثرهم من أعضاء جمعية العهد . وكان فريق منهم قد ألحقوا — نادياً لهم بسبب ميولهم القومية — بالقبلى ١٣ الذي أرسل لحرب الروس في إيران ، فلما عاد هؤلاء اجتمعوا ، بعد سقوط بغداد ، مع رفاقهم لاتخاذ الخطوة التي يجب اتباعها بعد التطورات الجديدة : هل يلتحقون بالجيش العثماني في العراق

وبله كان أوضح منها قال : « وما أن الإنكليز هم من الشركاء الأصليين ، فمن المحم علينا عندما نصيب بنا الحيل ، أن نضحي بالعرب من أجلهم ... » (المصدر السابق ، ص ٢٢٢) .

(٢٢٦) قلب آولاند ، المصدر السابق ، ص ٦٥-٦٦ .

(٢٢٧) راجع الفصل الأول من الباب الثاني عن مقابلة النحاس سليمان فضي . أما مهندات لورنس الأخرى فكانت : الاتصال بقائد قوات الترك المحاصرة لكونك الإدارة ، وإقناعه في تخفيف وحالة الحصار ولو بمبلغ كهر من المال . وتعليم السلطات الإنكليزية في العراق كيفية تنظيم الحركات الجغرافية بواسطة الطيران . وتعليم سلطات العراق بأن التعهدات للعطاء للشريف حين ليس غيباً ما يطمئن الإعراف به عنيفة للمسلمين ، ذلك لأن الحدود من قوات الحملة العراقية قد جرعوا من هذه الفكرة ، فعادتهم بأن السلطان العثماني هو خليفة للمسلمين الشرعي (ORAVES)

Ibid. p. 61; R. ALDINGTON, Ibid. pp. 116-117

والانسحاب معه ، أو يتخلفون عنه ، ويذهبون إلى بغداد ومنها إلى العشائر ، حيث يُعدون العدة لإضرام ثورة على الإنكليز تُرغمهم على تحقيق مطالب حزبهم ، فأسفر احتياجهم عن قرار جماعي بعدم الالتحاق بالعثمانيين ، بل الذهاب إلى بغداد ، على أن يسلكوا أحد طريقتين : أن يقوم الضباط الذين يتجوزون من أسر الإنكليز بما يلزم لإحداث الثورة مع القبائل ، أما الذين يؤخذون أسرى فموقوف بالتحقيق بالشريف حسين في المنعرج . ولما نفذ أحدهم هذا القرار والتحق بالإنكليز لم يُلحقه هؤلاء فوراً بثورة الحسين . فاعتقد الضباط العرب أن ذلك عن سوء نية من حكومة الهند ، فقرروا إلغاء القرار السابق وليلقاء في الجيش العثماني ، والعمل على إضرام ثورة على الإنكليز في المناطق التي يحتلونها . وجرى اتصال محدود مع بعض العشائر التي قامت ببعض الغارات على الإنكليز دون كبير جدوى ، بعد أن اتصل الضباط بقيادة الفيلق التركي — إيهاماً منهم له بأن الحركة هي لمصلحة العثمانيين — إلا أن هذه القيادة بدأت ترتاب في حركات الضباط واجتماعاتهم المتوالية ، التي سُمي آخرها إليها بواسطة المتجسسين من ضباط الترك والعرب غير المهادين ، فأحالت بعضهم إلى المحاكم العرفية . وبالرغم من ثبوت براءتهم فإن التشكك والازتياب بقي رائد القيادة ، فبعثت الضباط العراقيين ، فريقاً إلى جهات الأناضول وآخر إلى سورية ، حيث أخذ على بعضهم الاتصال مع العاملين في القضية الحربية ، مثل سامي السراج ، رستم حيدر وأحمد مرهود . وأخذ بعض الضباط يفكرون بالحرب والالتحاق بثورة الشريف ، وفعلاً فر من العراقيين صبح نجيب ، ونوري فلاح ، وثابت عيد النور^(٦٧) ، ومن السوريين الدكتور أحمد قدرتي وأخوه نعيم ، ورفيق القيس ، ومسلم عيد الرحمن ، ورستم حيدر ، وعمود المغربي ، وخليل السكاكيني ، وسعيد البائي ، وعبد اللطيف العسلي ، ولطفي العسلي ، ولقيف من أهالي حوران ، وذلك في أواسط حزيران ١٩١٨ ، وكلهم مسلحون بما في ذلك مرافقهم من الخدم والأتباع . وقد حمل الضباط الطيب أحمد قدرتي معه بعض الأسرار العسكرية التي استغناها من بعض الضباط العرب في القيادات التركية المختلفة ، بناء على طلب الأمر فيصل الذي كان على اتصال دائم معه بالمراسلة^(٦٨) .

ثانياً : أثر سقوط بغداد على الترك : جرعت الحكومة التركية جزءاً كبيراً من سقوط بغداد ، وشمرت بغداد المحطبة ، قبادر أنور إلى مجلس المبعوثان وألقى خطبة بين فيها أن الانسحاب من بغداد كان بناء على خطة مدروسة تقضي بأن تراجع الجيش التركي بانتظام ، وأن الجبهة التركية

(٦٧) تحسين العسكري ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤٥٨ ، ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٣ ، ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ،

هناك قوة، وأن هذا للتراجع لا يعد هزيمة ولا يعتبر الوضع خطراً. ولم يكن تصرف أنور هذا إلا ليسكن من روع أعضاء مجلس المبعوثان^{١٢٦}، الذين حرص على أن يوحى إليهم بأن الحرب في الشرق ليست هي التي تقرر المصير، إنما الحرب في الجبهة الغربية هي كل شيء، فإذا ما انتصر الألمان على الحلفاء هناك، فإنهم كفيلون بأن يعيدوا للدولة العثمانية كل ما خسره من أراضي^{١٢٧}.

كما كان لسقوط بغداد أثر كبير على الأفكار العامة في السلطنة العثمانية وخاصة بين الأتراك، ذلك أن الاستياء من سياسة أنور وطمعته قد وصل إلى حد الانتعاج، لوضعهم مقصودات البلاد تحت رحمة الألمان، الذين لم يبرهنوا عن إخلاصهم تجاه حليفهم، ولم ينجدوها بما يحول دون سقوط مدنها تبعاً بيد الإنكليز والفرنسيين. لذلك بدأت المؤامرات تحاك ضد الألمان وضد أنور باشا، الذي دب الملح إلى قلبه، خوفاً من مصير كمصر سلقه محمود شوكت باشا، فكانت سيارته المعروفة لدى كل الناس تسير في الشوارع بأقصى سرعتها وتتبعها عن كثب سيارة أخرى تقل مرافقين مدججين بالأسلحة^{١٢٨}. إن من بين المؤامرات، التي حاولت القضاء على الثلاثي الديكتاتوري وحكومتهم، مؤامرة قام بها المقدم يعقوب جميل (وهو من آخر ضباط الاتحاديين وصاحب الفضل في رفع أنور باشا إلى سدة الوزارة) ولم يكن الدافع وطنياً صرفاً، بل تغلبت عليه المسحة الشخصية بسبب حرمان الضابط المذكور من الترفيزات التي رأى أنها من حقه، مستغلاً موجة الاستياء من أنور وزعماء الحكم، ويظهر أنه كان يرمي إلى زحزحتهم لمصلحة أمير اللواء مصطفى كمال باشا، في وقت كان هذا — بالرغم من معضله العظيم على الوضع — بعيداً عن تحطيطها. وقد تمت الاستعدادات — وكانت ضعيفة — لتنفيذ المؤامرة في الباب العالي، عندما رُشى بتدبيرها شريك لهم أقدمه الخوف عن الإقدام عليها، فقدم يعقوب جميل وشركاؤه إلى الديوان العرقي، وحكم على بعضهم — وفي مقدمتهم يعقوب جميل — بالإعدام^{١٢٩}.

في هذه الظروف حدثت كارثة بغداد، وقد سبقها ضياع مدينة أرضروم في الأناضول بيد الروس، وقد استطاعت الحكومة كتم خبرها عن الشعب. إلا أن سقوط بغداد وقد قرع الآذان قرعاً — رغم محاولة إخفاء تشهده — لم يبق خافياً على الشعب التركي، الذي أدرك أن الآمال التي كان

١٢٦) Y.H. BAYUR, Ibid. III, pp. 311, 315.

١٢٧) ساطع الحصري، نشوء الفكرة القومية، ص ٢٤٦.

١٢٨) DAGOBERT VON MUKUSCH, Ibid. pp. 149-150.

١٢٩) O. YARDAR, Ibid. pp. 307, 329, 348, 375-378.

بينها على قلاته ذهبت أدراج الرياح، فأصبح كمن استغاف من حلم مروع يهدد نفاؤه وأحاله إلى شؤم. وعمت الأوساط الشعبية رغبة جامحة بوجوب تبديل الزعيم المسيطر، وبدأ اسم أمير اللواء مصطفى كمال يبرز كأول مرة نوعاً ما على الصعيد الرسمي. وقد سعى هذا فيما بعد، هو بالذات، لدى السلطان الجديد محمد وحيد الدين — عندما تدرت الحالة في سورية، وكادت الجبهة التركية فيها أن تنهار — للحلول محل أنور في وزارة الحربية، إلا أن دكتاتورية أنور كانت أقوى من أن تفسح المجال لتجاح مثل هذه المساعي^(٧٣).

لم يكن بوسع أنور — وقد بينت فيما سبق إهماله تحصين بغداد — إلا المكابرة حيناً بلغة أن الترك بلقيط يتراجعون بسرعة لقلّة استعدادهم وضعف جنودهم، وأن عمه خليل باشا أصبح يفكر في إخلاء بغداد، فرفض الموافقة على الانسحاب، وأمر بالصمود مهما كلف الأمر. لكن أمره لم ينفذ، وأعلنت المدينة لهدخلها الجنرال مود ظافراً، ثم يتقدم إلى الشمال لمنع اتصال الفيلق ١٨ المتسحب منها مع الفيلق ١٢ القادم من خانقين، فاشتبك مع الفيلق ١٣ بين جبال حميرن وديالي، ولم تنفع حركات الفيلق ١٨ في التخفيف عن زيله، فتمكن الإنكليز من احتلال الفلوجة، ثم سامراء في ٤/٢٤ وثاروا على تقدمهم السريع^(٧٤).

تشكيل مجموعة جيوش الصاعقة: أمام هذا الخطر الماحق الذي كان يهدد باحتلال العراق بأجمعه، وأمام الحقيقة الماثلة للعيان بأن الجيش السادس أصبح في حالة الانحلال بل العدم^(٧٥)، فتفق ذهن أنور باشا وحلفائه الأتكان — الذين يادر إلى الاستنجاد بهم إثر سقوط بغداد طالباً منهم تشكيل مجموعة من الجيوش تكون هيئة أركانها من الأتكان، ترسل إلى تركيا بالإضافة إلى وحدات ألكانية لتجدة الجيوش المنيّة^(٧٦) — عن فكرة تشكيل «مجموعة جيوش الصاعقة» (يلديرم)، ألفت بموجب الإرادة السنية السلطانية المؤرخة في ١٩١٧/٧/٢ من الجيش السابع، الذي استُقدم إلى سورية، بعد أن عُيّن أمير اللواء مصطفى كمال باشا لقيادته نقلاً من قيادة الجيش الثاني في الجبهة الروسية، ومن الجيش السادس (العراق)، يضاف إليهما بعض الفرق التركية والفيلق الأتكاني

(٧٣) DAGOBERT VON MIKUSCH, Ibid, pp. 15-111.

(٧٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ١٣، ص ١٤٧-١٤٨.

(٧٥) Y. H. BAYLIR: Ibid, III, p. 125.

(٧٦) Ibid, p. 362.

الأسوري^(١٧٧)، وتشكون مهمة هذه المجموعة استرداد مدينة بغداد. وقد أسندت قيادتها للجنرال غون فالكنهاين الذي استقدم من جبهة رومانيا، بناء على طلب أتور باشا. عندما انتهت العمليات الحربية فيها - وأعطى رتبة مشير - وتخصص لتكوين هذه الجيوش خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية قدمتها ألمانيا، مما تبرعت به النساء الألمانيات، اللواتي قدمن حليهن للحكومة لصرف ثمنها على وحدات جيوش الصاعقة، ومنجّلت دينا على الحكومة العثمانية^(١٧٨). أما هيئة أركان المجموعة فقد شكلت من أكتية ساحقة من الضباط الألمان (٦٥ ضابطاً)، ومن أقلية من الضباط الأتراك (تسعة فقط، واحد منهم من القادة والبقية من صفار الضباط). وكانت كل المعاملات في مقر المجموعة تجري باللغة الألمانية، فإذا وردت إليه بعض التقارير بالتركية سرعان ما ترجم إلى الألمانية، فكان مفهومها بذلك أن المقرر كان ألمانيا صرفاً^(١٧٩) ولم يكن تعيين الضباط الأتراك فيه إلا من قبل لإنفاذ المظاهر، بل كانوا يفضون أوقاتهم فيه بدون عمل، ولم يخصص لمعظمهم لا غرفة ولا منضدة^(١٨٠).

لم يكن الخطر المائل في العراق وحده هو السبب الوحيد في تشكيل مجموعة جيوش الصاعقة، بل هنالك أسباب أخرى تعود إلى الوضع في سورية من الوجهتين الحربية والسياسية، ذلك أن جبهة فلسطين أخذت في الانهيار، بعد احتلال القدس، فمن جهة عم البؤس والشقاء أرجاء القطر السوري بفعل المجاعة والأوبئة، وعسف السلطات التركية، حتى أخذت الحالة تنذر بقرب حدوث انتقجار، ومن جهة أخرى أخذت قوات الأمر فيصل تتقدم بخطا سريعة نحو سورية بعد احتلال العقبة، وكلما ازدادت توغلا أكثر عدد المتصحقين بها من شيوخ العشائر، ومن ضباط الجيش العثماني وجنوده العرب ومن الأهالي. كما كان أهل سورية يظهرون التعاون مع قوات فيصل، وهزودونها بالتقارير السرية التي ترد إليه تباعاً من المناطق السورية، التي لا تزال تحت الاحتلال التركي، دون رشوة ولا استجداء، مما أغناه عن إيجاد دائرة استعلامات^(١٨١). وهذا ما جعل جمال باشا يتفهم غيضاً بحيث لم يحكم شعوره عندما خاطب سميه جمال باشا المرسيني (الصغير) بقوله (أرأيت السكون الضيق فوق سماء سورية؟ إن منظر البؤس الذي نراه يخيفني كثيراً، ولهذا أمرت منذ أيام

(١٧٧) راجع جمال غون ساندريس: للصغير السابق، وفي تفصيلات وفيه عن تشكيلاتها، ص ١٦٣.

(١٧٨) حسين حسني أمير: ملهم، ص ٦١.

(١٧٩) حسين حسني أمير: المصدر السابق، ص ١٣ - ١٤.

(٢٠) كان العقيد حميد حسني أمير، صاحب المذكرات التي اعتمدت عليها هنا، معارفاً لرئيس أركان حرب هذه المجموعة.

(٨٠) لورنس: الثورة في الصحراء، ص ٢٢١.

مشدداً في استجلاء حقيقة النفسية التي عليها أبناء البلاد، ويطرح في أن التوقف عطلو جدّاً، وأن العاصفة تكاد تنور^٤. وأردف قوله هذا بتهكم من القيادة العامة لأنها لا تهتد أن تساعد على مهدنة الحالة، فقد أرسل كتيبة عدة يشكو بها من قرب اندلاع ثورة السوريين، بعد أن اتخذت تشكيلاتهم شكلاً منظماً، وأصبح رجالها على اتصال تام مع الأعداء، مما يخشى معه أن يقطع على الجيش العثماني، في جبهة فلسطين، خط الرجعة في حال قيام الثورة في سورية. ولذلك طلب إبعاد الضباط العرب الباقين في المقطعات العثمانية المعاملة في منطقة الجيش الرابع، لأنه قد رشح في تحييلهم أن للسلطنة العثمانية أصبحت سفينة على وشك الغرق، ولم يبق أمامهم إلا تغطيتها والنجاة منها قبل أن تغرق ويغرق معها. ولما فإنهم أخذوا منذ حين يعملون على الفرار من الجيش العثماني، لتشكيل دولة إمبراطورية عربية، واقترح نقل الفرقة ٢٦ العربية من درعا إلى الرملة أو الحما، لأنه قليل الثقة بها، ولا يريد إبقاها يواجه جيش فيصل، وإحلال فرقة تركية مكانها، كما طالب بإبعاد الفرقتين ٢٧ و ٤٨ لأن فيهما أكتية عربية وأن يستبدل بمريتينهما أكتية تركية. ولم يكن جواب القيادة العامة مرضياً إذ أفهمته بأن محاولته في غير محلها، وأنه ليس في الإمكان إجابة طلبه في إرسال مجندات للجيش الرابع في الوقت الحاضر^٥، ذلك أنه لم يكن لدى القيادة العامة للتركية قوات احتياطية مع كمية المطالبات بالإمدادات من جميع الجبهات — لأن القيادة تعصرت بها في بداية الحرب بصورة غير حكيمة، إذ أرسلت قوات كبيرة من العثمانيين إلى الجبهات الأوروبية، بناء على طلب الحليفة ألمانيا، ولم تفكر بوجوب تقديم مسألة الدفاع عن أراضي السلطنة على غيرها من الواجبات^٦.

غير أن القيادة العامة كانت مدركة، تمام الإدراك، أن موقف قواتها في الولايات الشرقية (جبهة قفقاسيا)، وفي المهلال العربية أصبح مزعزحاً، ولذلك قررت عقد مؤتمر من كبار القادة، اجتمع في ١٩١٧/٦/٢٤ في فندق بارون بعلب. وقد حضره أحمد جمال باشا، وأحمد عزت باشا، قائد جبهة القوقاس، ومصطفى كمال باشا، قائد الجيش الثاني (الجبهة الروسية)، وشعليل باشا، قائد الجيش السادس (العراق)، والفرق فون برونزارت باشا، رئيس هيئة أركان الحرب العامة، ومحمود كامل باشا، مستشار وزارة الحربية، وغير هؤلاء بضعة من كبار ضباط هيئة أركان الحرب العامة الألمان^٧. وقد دار النقاش فيه حول الحطة الناجحة لهيمنة الحدود والدفاع عن البلاد. واضطدمت

(٨١) جمال باشا الصغير: المصدر السابق، ص ٦ — ٩.

(٨٢) Y.H. BAYUR: III, p. 117.

(٨٣) ساكرات أحمد جمال باشا، ص ١٣٣.

آراء خليل باشا وأحمد باشا حول الاستفادة من الجيوش السابغ، الذي وصل حديثاً إلى حلب. إذ اقترح الأول إرساله إلى جبهة العراق لاسترداده بغداد، فاعترض جمال باشا على هذا الرأي، وطلب بأن تحشد في حلب قوات كبيرة لاستطيع التحرك — كلما اقتضى الأمر ذلك — إلى جميع الجهات فور تعرضها للهجوم: أي إلى القفقاس، الدجلة والفرات، الساحل اللبناني... لأن الأعداء إذا عرفوا أنه يوجد في حلب، وهي عقدة مواصلات متوسطة، مثل تلك الجيوش على أهبه الاستعداد للحركة إلى كل مكان، يعدلون عن الهجوم، ولا يجهزون على إنزال جيوش لاحتلال أدنه كما كان متوقفاً. باعتصار لقد بين أن حملة بغداد محفوفة بالخطار^(٨١). وبهذا أيد أحمد عزت باشا رأي أحمد جمال باشا، كان أنور من رأي خليل باشا واقترح أن يرسل فيلق من الجيوش الثاني إلى نناق لأن الروس — بعد ثورتهم الأولى في آذار ١٩١٧ — أصبحوا في حالة لا تمكنهم من القيام بحركات حربية جديدة ضد الترك. فاعترض أحمد عزت باشا ودامت المناقشة يومين متواصلين دون الوصول إلى نتيجة بحيث ترك أنور حلب عائداً إلى الآستانة^(٨٢).

لم تكن الغاية من عقد هذا المؤتمر النظر في الأمور الحربية المتردية فقط، بل أيضاً تسليم القيادة العليا في البلاد العربية إلى هيئات ألمانية. ذلك أن ألمانيا، التي كانت تضطلع في استعمار البلاد العربية، رأت أن سياسة جمال باشا في سورية قد جعلت الشعب العربي ينتظر من الترك والألمان معا ويحبل إلى الخلفاء، فإذا ما استمر الحال على ما هو عليه فإن أقل تراجع يقوم به الترك في سورية يفسح المجال لثورة هامة فيها، وهذا أمر يكرهه الألمان لسببين أولهما: أنهم يفقدون الأمل في استعمار سورية، والثاني: أن احتلال سورية والبلاد العربية معناه احتلال تركيا، وبالتالي ترجيح فوز الخلفاء على ألمانيا. ولذا فإن الإمبراطور الألماني أوجز إلى رئيس وزرائه بالعمل على وضع حد لسياسة جمال باشا الحرة، وتجهيز حملة جديدة تكون تابعة بكل قواها إلى القيادة الألمانية^(٨٣). وفي ١٩١٧/٦/٣٠ عُقد اجتماع في الصدارة العظمى حضره سعيد حليم باشا وأنور باشا وطلعت بك وخليل بك منتشه، فلما كروا في الأمر وقروا إلغاء الجيش الرابع، وثأليف جيش جديد يتولى إدارة العمليات العسكرية في جميع البلاد العربية. وقدم إليهم أنور باشا لائحة وضعتها القيادة الألمانية وسلمتها إليه لعرضها على زملائه وتتضمن تأليف مجموعة جيوش الصاعقة كما مر معنا، فأقرت

(٨٤) مذكرات أحمد جمال باشا، ص ٣١٤.

(٨٥) جمال باشا (قصير)، المصدر السابق، ص ١٠ - ١١.

(٨٦) المصدر السابق، ص ١١ - ١٢.

وصدر المرسوم الشاهاني بها . وقد تم تنظيم هذه المجموعة في وقت كان جمال يرسل برقية تلو أخرى لإمداده بالقوات كما مر معنا ، وهو يجهل أن أنور باشا — بالتنظيمات الجديدة التي استحدثها وحلفاؤه — يهدد للقضاء على مبادئهم . وقد كُتم أسرها عنه لا في سبيل التكاية به فحسب ، بل خوفاً من أن يعمد — إذا علم بها — إلى سلب البلاد العربية عن السلطنة وإعلان نفسه حاكماً مستقلاً عليها ، إذ كانت هذه الفكرة متمكنة منه كما عرفنا في أحد الفصول السابقة^(٨٧) .

لم يوضع قرار إلغاء الجيش الرابع موضع التنفيذ فوراً ، بل ظل الأمر قيد التحفظ خيرة أخرى من الزمن ، نشب خلالها خلاف شديد ، بين القيادة الأتمانية لجيوش الصاعقة وبعض كبار قادة الجيش العثماني في سورية ، ذلك أن مهام جيوش الصاعقة التي أُحدثت لاسترداد بغداد قد تحولت إلى جبهة فلسطين . فمتدما درس المشير فالكنهاين الموقف ، بعد إنباء هذا التشكيل ، قرر السير نحو بغداد على أن يهدد للجيش السابع للعمليات الرئيسية بالتحرك من حلب باتجاه ولدي الفرات . لكن المشير بعد أن اجتمع إلى قادة للجيش ، وأمعن النظر في الموقف أدرك صعوبة الحركة ، خاصة من حيث إبقاء الجيش السابع على خط الفرات^(٨٨) ، ومن حيث أن الضباط الأتكان الذين يشكلون هيئة أركان مجموعة جيوش الصاعقة يجهلون طبيعة الأراضي التركية ، أو يعرفون شيئاً قليلاً عنها . ولم يقلل من أهمية هذه الصعوبة كون بعض الضباط الأتراك أعضاء في هذه المهمة . وقد جرت مناقشات بين فون فالكنهاين وأنور باشا بشأن نقل نشاط جيوش الصاعقة إلى فلسطين^(٨٩) . عرض الأول بملزمة أن توجه حملة إلى العراق غير ممكن إذا لم تؤمن سلامة جبهة فلسطين ، التي ساعدت الأمور الحربية فيها بشكل عظيم كاد يؤدي بها إلى الانهيار التام ، وأنه يجب أن توجه إليها — لمواجهة الهجوم الإنكليزي الكاسح — ثلاث فرق تؤخذ من جيوش الصاعقة ومن الفيلق الآسيوي الأتكاني ، الذي استندم من أوروبا ، فبعاء الجواب من وكيل القائد العام (أنور باشا) بالرفض ، منبهاً إياه إلى أن هذا الطلب ليس من العوالب في شيء ، معلقاً أهمية كبرى على استرداد بغداد ، وطرد الإنكليز من العراق ، ومن ثم الارتداد إلى جبهة سيناء وطرد الإنكليز عنها . لكن فالكنهاين لم يتحول عن طلبه ، ورد عليه بمذكرة أخرى أشار فيها إلى العلاقة الوثيقة بين الجبهتين (سيناء والعراق) ، وإلى كون التخطيط الإنكليزي في

(٨٧) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٨٨) شكري محمود نديم ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(٨٩) همان فون سانفويس ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

الجهتين يجري على تناسق وتناغم تام بين قهاتهما ، وألح على بحطورة الموقف في سبناه ، مصرراً على طلبه السابق^(٩٠) .

وصدق في الوقت نفسه قلوب جمال باشا إلى الآستانة ، وكان قد أبرق إلى أنور باشا يستأذنه الحضور إلى العاصمة لمناقشة طلباته المتكررة في تحقيق مطالبه التي أشرت إليها سابقاً . ذلك أنه قد راب جمالاً إهمال وكيل القائد العام الإجابة عن هذه المطالب ، لا سيما وقد تخرج الموقف بشكل جعله يفكر بالاستقالة لو يتأتى ما عليه . فإن حالة البلاد قد تردت إلى ما يشبه الفوضى بتأثير المجاعة ، وضرب مثلاً على ذلك بأن عشرين ألف جندي دخلوا المستشفيات بتأثير الجوع ، وأصبح الجيش الرابع غير قادر على تدارك المواد الغذائية . فإذا استمر الأمر على ما هو فسوف يضطر الجنود — عرباً كانوا أم تركاً — إلى الفرار بشكل جماعي ، كما ألفوه بذلك الجنرال فون كريس بيرية قال فيها إن العدو يستعد لهجوم عام شامل ، وأن حركة الفرار من الجيش العثماني إلى الجيش العربي مستمرة على نطاق واسع ، استجابة للمناشير التي تلقى على مختلف أنحاء الجبهة داعية الجنود العرب إلى القيام بهذا العمل الوطني^(٩١) .

لذلك عُقد في ١٧/٨/١٩١٧ مجلس حربي في العاصمة ضم كلاً من أنور باشا وجمال باشا وفالكتهاين ، بسط خلاله كل من القائدين الألماني والتركي الموقف بتفاصيله لأنور باشا ، واتفقت الآراء على وجوب العلو عن مهاجمة بغداد ، ولكنها اختلفت في تفاصيل الخطوة الواجب اتباعها في جبهة فلسطين ، إذ بينما طلب جمال باشا تزويده بمبلغ نصف مليون ليرة عثمانية ذهب ، وسرعة إرسال الجيوش إلى فلسطين ، شح العدو من التقدم إلى داخل بلاد الشام ، أي اتخاذ خطة الدفاع لعدم استطاعة الجبهة التركية مهما قوت من القيام بحركة هجوم^(٩٢) ، كان طلب فالكتهاين إرسال ثلاث فرق جديدة من الجيش الرابع ، مع الفيلق الألماني ، إلى جبهة فلسطين لمساعدة جيش الجنرال فون كريس ، والقيام بحركة هجوم على العدو وحمله على التراجع . وعندما أصر كل من القائدين على رأيه ، وقف أنور في هذه المرة بجانب رأي جمال باشا ، فاعتراض فون فالكتهاين وهدد بالاستقالة طالما لم يؤخذ برأيه ، مبدئاً عدم استعداده لتنفيذ خطة لا يؤمن بمجدواها . ولم يكن إصرار فالكتهاين مركزاً على اللوم ، بل على تقاير مرة تلقاها فون كريس ، عن جبهة العدو ، بأنه استقدم قوات جديدة

(٩٠) حسن حسني أمير ، المصدر السابق ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(٩١) جمال باشا (السنور) المصدر السابق ، ص ١٦ — ٢٠ .

(٩٢) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

ويستعد الهجوم عام وحاسم - على أن أنور باشا الذي لم يكن يستطيع مجابهة غضب الإمبراطور الألماني - وقد حدد للمشير فالكنهاين باللجوء إليه شكياً وكحل للقائد العام - أخذ بالتداول مع زميله طلعت باشا، واستقر رأيهما على إرسال فالكنهاين إلى جبهة فلسطين لدراسة حالتها عن كثب^(٩٣). وفي الوقت نفسه وصلت إلى أحمد جمال باشا دعوة من إمبراطور ألمانيا لزيارة الميدان الغربي، قال جمال باشا عنها في مذكراته بأنه لم يعرف حينذاك مسبب لإرساله في ذلك الوقت بالذات^(٩٤). وبينما هو في ألمانيا تلقى من أنور باشا برفقة تقول إنه، بعد محادثات طويلة مع فون فالكنهاين، قرر الشروع في الهجوم ضد الإنكليز، بكل ثقل جيوش الصاعقة، وإرسال فون فالكنهاين إلى جبهة فلسطين لاتخاذ ما يراه ضرورياً لتنفيذ الخطة المرسومة، وأنه يجب أن يتولى المشير قيادة الجيش في تلك الجبهة، فكانت هذه البرقية ضربة شديدة له حملته على الإبقاء على أنور يقول: إن فالكنهاين هو صاحب فكرة الهجوم على «فردان» التي كانت شراً مستطراً على أكتافها، فهجومه في جبهة فلسطين مؤذاه الشر المستطير على تركيا^(٩٥).

ذهب فالكنهاين إلى الجبهة واجتمع إلى الضباط الألمان والأتراك، وتفقدوا الجبهة سوية ثم عقدوا مؤتمراً في ٩/١٤ في مقر قيادة الجبهة تلم يومين، ثم عاد إلى حلب وقدم تقريره المؤرخ في ٩/٢٠. وقد جاء فيه ما يصور حالة البلاد تصوراً حقيقياً، قال فيه: إن الحرب الحاضرة أوجدت في نفوس الأمة بأساً شديداً من الموقف السياسي الحاضر، يزيد في إذكاته شعور السكان الوطني. فالسوريون العرب يتطلعون بشغف إلى حركات العدو، ويرون في فوزها فوزاً لهم، لأنهم أعواناً يحاربون إلى جانيه، وهم يرون في السلطنين المدنية والعسكرية قوة مستبدة تقتل شعورهم الوطني، وتدفعهم إلى الموت. لذلك فإنهم يلازمون بيوتهم معرضين عن الحكومة، ويزيد في حقدهم عليها أن رجالها، الذين لا هم لهم إلا إشباع بطونهم، يتكلمون بهم، وأن ارتكاب الرشوة قائم على قدم وساق، فالعدل أصبح مفقوداً، والنفور يتزايد بين الشعب والحكومة. وقد بين التقرير بأن السلطة عاجزة عن إصلاح الموقف لأسباب منها:

١ - ضعف أجهزة الأمن التي أصبحت - بدلاً من حرصها على تطبيق القانون ومطاردة الأشرار والهمجين - عوناً للمجرمين وسعيراً على القانون.

(٩٣) جمال باشا (الضخم) - المصغر السابق، ص ١٧ - ٢١.

(٩٤) مذكرات أحمد جمال باشا، ص ٣٢٦.

(٩٥) القصير السابق، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

٢ - إن ضالة الرواتب التي يتقاضاها الموظفون ، والتي لا تكاد تكفي معيشتهم ليومين ، دفعت بهم إلى ارتكاب الرشوة ومشاركة المحتكرين عند الأمة ، وسوء استعمال الوظيفة ، ودرجة القتال ، وتجريم البريء . يضاف إلى ذلك أن المجاعة ، التي أصبحت تفتلك بالسكان خنكاً ذريعاً ، مع وقوف دولاب العمل واستحكام الأزمة الاقتصادية ، مما يساعد على انتشار الفوضى ، وعلى إقامة هوة سحيقة بين الأمة والحكومة ، وترك الشعب غير راض عن الحكم الحاضر ورجال الحكم معاً . وأنه إذا ظلت الحكومة سائرة على خطتها هذه ، وطالت الحرب العالمية ، وذلك ما هو ملحوظ ، فإن انحلال السلطنة العثمانية حادث مقدر وانقراضها لا مناص منه .

ثم تطرق التقرير إلى حالة الدول المنهكة مع ألمانيا قائلاً إنها أصبحت في حالة بأس يحول بينها وبين الاستمرار في القتال ، وأن كلا من هذه الدول أصبحت تترقب المعونة من ألمانيا ، فإذا هجرت هذه عن مدعها بها عمدت إلى الاستسلام عاجلاً ، لا سيما الدولة العثمانية التي تضاعفت قواتها حتى لم يبق منها غير واحد من خمسة مما كانت عليه في ابتداء الحرب^(١٢) . ولعلاد غير قادرة على سد النقص الواقع في الرجال ، ومعظم الأفراد المباين غير قادرين على حمل السلاح ومقاومة العدو مجهزاً تجهيزاً كاملاً . ثم استطراد بأن الحرب لا بد وأضمة أوزارها في الجبهة الغربية عاجلاً أو آجلاً ، وأن العدو قد حول أنظاره إلى الشرق لاحتلاله ، حتى إذا تم كه ذلك اضطر ألمانيا للاستسلام . ويعبى أن الآستانة هي معقد آماله ، لأنها حلقة اتصال هامة بين الشرق والغرب . فمن الواجب الحيلولة دون هجومه عليها ، وأن من الخطأ التفكير في استرداد بغداد ، وما احتله العدو في جبهة قفقاسيا التي يجب تجميدها ببعض المغارز ، خاصة وأن روسيا ، بعد ثورتها ، لا تفكر بتتابع العمل الذي بلغت به الحكومة القيصرية . وأما الجبهة العرفقية فربعتقد أن الإنكليز قد بلغوا هدفهم النهائي فيها باحتلال بغداد ، وليس ثمة من أسباب تهوب بهم إلى التوسع أكثر من ذلك ، وأن لا خوف إلا على جيبي سيناء والحدجاز حيث لم يصل الأعداء إلى أهدافهم النهائية بعد ، بل يقومون باستعدادات هامة لتحقيقها . لذلك لا بد من العمل لحيانة هاتين الجبهتين بالطريق التالية : أولاً تقوية الحكومة الإدارية ، وثانياً تأمين معيشة الأهالي . ويمكن تحقيقهما بتشكيل فرقة جديدة من الدرك ، وزيادة عدد

(١٢) دخلت تركيا الحرب بقوت عددها (٦٢٠ / ألفاً) بلغ ماغيته في انتهاء الحرب قرابة ٤ ملايين حرصت بأن توفد منهم تحت السلاح ، في مختلف الجبهات بصورة دائمة ، ١ مليون ، وقد قدر الأتراك خسائرهم من الجنود في أثناء الحرب بالمليون ونصف بين قتيل وبغلول .

رجال الشرطة ، وتنظيم أمور القضاء لصيانة حقوق للشعب ، والحيلولة دون استمرار الرشوة ، وتأسيس تعاونيات استهلاكية (كهنوايف) في المدن السورية لتأمين معيشة الأهالي . فمضى ثم ذلك سنحت للمفرصة لتطبيق من حقد السكان على السلطة الحاكمة ، واستاءتهم إلى تأييدها . ونعم كلامه قائلاً : «ولا فمن البعث الاهتمام على قوتنا مهما تعاطفت ، إذا كان الشعب نافرأ منا ومن إدارتنا » .

أما من الناحية العسكرية فقد عاد عن رأيه الأول في اتخاذ خطة للجميع ، ولربأى أن تكون الخطة مرتكزة على قاعدة دفاعية لا هجومية ، نظراً للحاجة للماسة إلى فترة استعداد لا تقل عن ثلاثة أشهر . واقرح لذلك ما يلي : أولاً إرسال قوات الجيش السامع الموجودة في حلب إلى فلسطين ، ووضعها تحت تصرف الجنرال فون كرس ، ثانياً : تحقيق المطالب التي سبق لإبرادها في التقرير ، ثالثاً : إجراء بعض التبدلات في مراكز قوات الجيش ، وعلى الأخص استدعاء قائد الجيش السامع مصطفي كمال باشا إلى الأستانة ، لأن حركته تعرقل مساعي القواد الألمان . رابعاً : إلغاء الجيش الرابع^{١٣} .

لا شك بأن المشير فون فالكنهاين كان يرمي إلى غاية أبعد مما تظهر في تقريره ، وإن كان تصويره للحالة واقعياً . كانت تلك الغاية ، في الواقع ، هي السيطرة الألمانية على البلاد العربية . وقد عم عنها ما سلكه إثر تسلمه قيادة جيوش الصاعدة ، ذلك أنه أخذ يدرس إمكان الاستفادة من العربان والعشائر العربية على أطراف الدجلة والفرات ، ووجوب الإتصال بهم بواسطة ضباط ارتباط مؤسسون إليهم لإقناعهم بالاشتراك في العمليات الحربية ضد الإنكليز ، أو على الأقل ضمان وقوفهم على الجهاد ، وقد فر رأيه ، بالإتفاق مع معاون رئيس هيئة أركان حرب الضباط التركي حسين حسني أمير ، أن يشكل في المقر العام لمجموعة جيوش الصاعدة ما أطلق عليه اسم « مكتب الشؤون العربية » (حرب شعبه مي) تحت إدارة التقريب أركان حرب و جنائ قلعه في توفيق أفندي ، ، وتحت إشراف العقيد حسين حسني أمير . كان من رأي المشير — وقد عرف مبلغ الخلف بين العرب والترك — أن يضطلع الضباط الألمان ب مهمة ضباط الارتباط مع العرب ، باعتبار أنهم عنصر محايد بين الأتتين ، مستعتمين بالذهب الألماني ليجذبوا العرب إلى جانبهم ويكسبوا مودعهم .

وقد بدأ بالعمل المذكور في المقر العام لمجموعة جيوش الصاعدة في سبيل جمع المعلومات ، واستباط المهيد منها من ملفات وزلرني الداخلية والخارجية ، والاستعانة بالإخصائيين في هذه

(٩٦) Y. H. BAYUR, 1963, 10, p. 400 : جمال باشا (قصر)، المصدر السابق، ص ٢٦ — ٢٢ .

الناحية. وعين في معية لوفون أفندي وتحت إمرته ضابط احتياط ألماني برتبة نقيب يسمى «أندرو» شايبرغ (ANDRESCHAYENBERG) بدأ بعمل عضواً في المكعب، وكان ممن اشتغلوا سنين طويلة في التنشيط عن الآثار القديمة في العراق، وله تأليف فيها، ومعرفة وثيقة بالعراق. ولم تحض فترة من الزمن حتى بدأ هذا الضابط بالتجاوز على حقوق رئيسه التركي وصلاحياته، وأخذ يرسل الأوراق بتوقيعه، ويحصل مباشرة بالمشير ورئيس أركان حربه الألماني، ويحل المشاة كل رأساً معهما. وهكذا رويداً رويداً إلى أن انتهى الأمر برئاسة الأركان الألمانية إلى الاستقلال تماماً بشؤون المكعب، وحجبها عن الضباطين التركيين فيه، نهجاً لحطة رمت بعناية. وكان «أندرو» يرسل الضباط الألمان من حلب، بعد أن انتقل مكتبه إليها، ومن دير الزور لكي يتصلوا رأساً برؤساء العشائر العربية ويكُونوا لزيارات مباشرة معهم^(٩٧). وقد بذل الألمان أموالاً طائلة في هذه السبل، فتبع عن ذلك زيادة تعلق عرب العشائر بالألمان، وكثر وقوف العرب من سواد الناس على باب مكتب الضابط الألماني «أندرو»، كما اجتمع رسل الألمان ببعض رجالات العرب في دمشق، وأغروهم بالعمل بدأ واحدة مقابل تعهد منهم بإعطاء سورية استقلالها التام، تحت حماية ألمانيا، وإشرافها على أمورها الخارجية. لكن المحاولة ظلت عقيمة. كما نحشت القيادة العامة التركية العواطف فأصرت على أن يُستبدل بالضابط الألماني «أندرو» أفندي تركي هو عزيز بك. لكن هذا لم يُعصب نجاحاً، فظلت أمور العرب بيد النقيب «أندرو»^(٩٨).

كما أن تقرير فون فالكنهاين ذاته لم يُغفل ما ينم عن رغبة الألمان الاستعمارية، عندما ألح على إعطاء حد للمجاعة، ليبرهن للعرب أن الألمان أنقذوهم من المجاعة حينما استلموا القيادة، بينما تجوعهم الأتراك عندما كانت بأيديهم. غير أنه سرعان ما ظهر التناقض في سلوكهم، وذلك عندما استلم المشير مبلغاً كبيراً من المال اشترى به ٢٥ ألف طن من القمح لإطعام الجيوش العثمانية في جبهة فلسطين، ولكنه، عملاً بالأوامر التي تلقاها من القيادة العليا الألمانية، أخذ في شحنها إلى موطنه لإطعام الجيش الألماني^(٩٩). وفي التقرير ما ينم عن فرض آخر هو أن يكون الألمان سادة الجيش في البلاد. لكن للمشير رأي أمامه متنافسين فوهين هما مصطفى كمال باشا، وأحمد جمال باشا، فأشار بإرسال اللاتي بمهمة إلى ألمانيا، وبإبعاد الأول باستدعائه إلى الأستانة. وعلق يُصدر الأوامر إلى هلمين

(٩٧) حسين حسني كبير، المصدر السابق، ص ١٧-١٩.

(٩٨) تحسين العسكري، المصدر السابق، ص ١٦٩-١٧٠ جمال باشا (الصغير)، المصدر السابق، ص ١٣، ٢٧.

(٩٩) جمال باشا (الصغير)، المرجع نفسه، ص ١٠٦.

القائدين ، دون أن تُعطى له الصلاحية من وكيل القائد العام ، كما طلب من رئيس هيئة أركان الجيش الرابع شراء الحبوب من مناطق حوران وجبل الدروز ، بعد أن أرسل إليه مئة ألف ليرة ذهبية . وما إن عاد أحمد جمال باشا من برلين حتى أنه يرفقه من الجنرال فون كريس بصفته بمسألة العودة ، ويرجوه في الوقت نفسه بعدم الاعتراض على الخطة العسكرية التي اتفق عليها مع المشير فون فالكنهاين . فلم يعبأ بها جمال ، لا تأييداً لرأي مصطفى كمال باشا — الذي اصطدم بدوره مع المشير لأن هذا يريد أن يُلحق الجيش السابع بجبهة سيناء ، ويربطه بقيادة الجنرال فون كريس ، لكي يرغم قائده مصطفى كمال على الاستقالة ، بعد أن يرى أن رتبته قد أنزلت من قائد جيش إلى قائد فيلق — بل تكتابة بالمشير الذي يتنازع للسيادة على البلاد العربية ، ويريد أن يجمع قوات جيوش الصاعقة في فلسطين ، بالإضافة إلى الجيش الرابع ، ويكون هو القائد الأعلى عليها ، بينما لا يريد أحمد جمال أن يتدخل عن مركز يشغله إلى قائد أجنبي . أما مصطفى كمال باشا ، فحينما علم بتقرير فون فالكنهاين ، نادر إلى توجيه كتاب ، إلى وكيل القائد العام ، يعترض فيه بشدة على ما جاء في التقرير ، متبعاً كتابه بأنه إنما يسير وفقاً لخطة رتبته الأتكان في نزع السيطرة من القادة الأتراك ، ووضعها بيد قادهم ، والعمل على اقتطاع هذه البلاد عن جسم الدولة العثمانية ، وضمتها إلى مستعمرات الإمبراطورية الألمانية . ثم ندد بالسياسة التي تتبعها المسؤولون في الأستانة بالسوء وراء مصالح الأتكان غافلين عن مصالحهم ، ووصفها بأنها سياسة ضعف شديد ، بل مؤامرة مدبرة عن بعض هؤلاء للقضاء على السلطنة . ثم هدد بأنه ، في حالة نزع سلطته عن الجيش السابع ، سوف لا يقف موقف المتفرج الشامت ببلاده — وهو يراها تدير في طريق الهلاك نتيجة للسياسة التي يرسما الأتكان — بل سيُقدم على خوض المعارك الحربية بنفسه ، ويدير أصغر جيش يجده أمامه غير متفقد بأوامر أحد في قيادته ، فإما أن يهلك وإلّا في ساحة القتال ، حفاظاً على استقلال البلاد أو يفقده إلى النصر ، ويكون الفضل في انتصاره له وحده . وختم كتابه بالتمني إلى أن للأتكان غاية سياسية عظيمة يريدون تنفيذها ، بواسطة المشير فون فالكنهاين ، وهي استعمار سورية والعراق وباقي الولايات العربية ، فإذا قدر لهم لإجلاء الحلفاء عنها ، أرسلوا إليها جيشاً فاحتلها ، وقالوا لرجال السلطنة إن سورية لنا دافعنا عنها بدمائنا ، فاذهبوا وفشوا لكم عن بلاد غورها^(١٠٠) .

تسلم أنور تقرير فالكنهاين واعتراض مصطفى كمال باشا عليه ، وتأخر في الرد على كتاب

(١٠٠) Y.H. BAYUR, *ibid.* III, p. 398 ; جمال باشا (قصير) ، من ٢٦ — ٢٧ ، ١٠ ، حصون حلي لمبر ،

الصدر السابق ، ص ٨٣ — ٨٤ .

الأخير . أما فالكنهاين فقد أغضبه موقف جمال باشا في تجاهل أوامره ، فأرسل برقية ، إلى رئاسة لوزكان حرب الجيوش الألماني في برلين ، ضمنها العرائيل التي يضعها قادة الترك أمامه ، وطلب إما حمل الحكومة التركية على القول بفكرته أو دعوته إلى برلين . عندئذ تلقى أنور برقية من برلين تهذه بالمواقف الوعيمة ، وبسحب الضباط والجنود الألمان من تركيا ، وقطع المساعدات عنها ، فيما إذا استمرت مخالفة القادة الأتراك للاتفاق المعقود بين الدولتين القاضي بوجوب الاستعانة برأي فواد ألمانيا العسكريين . فلم ير أنور باشا بدا من إيجاد حل للموقف ، وكان حلاً وسطاً في الظاهر ، ومتفقاً مع رغبة حليفه في الباطن^(١٠١) . فقد أصدر القرار التالي (١٠/١/١٩١٧) :

أولاً : يلغى الجيش الرابع ، ثانياً : يتولى ناظر البحرية الفريق أحمد جمال باشا قيادة قوات سورية وفلسطين والحدائق والجن تحت اسم القائد العام لقوات سورية وبلاد العرب الغربية ، ويكون مقره دمشق . ثالثاً : ينقل الجيش السابع ، التابع لمجموعة جيوش الصاعقة ، إلى جبهة سيناء على أن يبقى ، والقطعات التابعة الآن لجيش سيناء ، خاضعةً لقيادة مجموعة قوات الصاعقة . رابعاً : تقوم بمجموعة جيوش الصاعقة (وقد أصبحت مؤلفة من الجيوش ٦ ، ٧ ، ٨ بقيادة فون فالكنهاين) بالحركات العسكرية في جبهة سيناء ولواء القدس بصورة مستقلة ، وإنما ينبغي عليها أن تُعلم بها القيادة العامة لقوات سورية وبلاد العرب الغربية^(١٠٢) .

كان هذا القرار ضربة قاضية على تفويض كل من مصطفى كمال باشا وأحمد جمال باشا ، ذلك أن الأول ، وإن حُفظت حقوقه كقائد جيش ، وأصبح مسانداً للمجنرال فون كهرس ظاهراً ، إلا أنه وضع في الحقيقة تحت تصرفه وتحت إمرة المشير فون فالكنهاين ، فأغضبه هذا الأمر ، لا سيما أنه كان يكره الألمان بشدة ، فبادل البرقيات مع أنور باشا مستغسراً معترضاً ، وعندما حاول أنور أن يهدئ من روعه ، وبقائه بأن الألمان سيسهرون جنباً لجنب مع الترك لإعلاء كلمة الأمة ، رد مصطفى كمال عليه بأنه لا يستطيع أن يرى البلاد تنهقر في سبيل تنفيذ إرادة الألمان ، الذين لا يحسبون لحظة العمل الحربي في هذه الجبهة ، وطالب بأن يكون جيشه في محط القتال مع الجيش الثامن الذي يقوده الجنرال فون كهرس ، لا منزوياً في جهات نابلس ، بعيداً عن ذلك الخط .

ولما تلقى جواباً من أنور بأن الجبهة لا تتسع لجيوشين قدام استغاله قبلها وكيل للقائد العام ،

(١٠١) جمال باشا (المصور) ، المصدر السابق ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(١٠٢) جمال فون ستاتيرس ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

وعين بدلاً منه أمير اللواء فوزي باشا (جققى) ^(١٠٢). أما الثاني فلم يكن تعيينه قائداً لقوات سورية وبلاد العرب الغربية إلا اسمياً أيضاً، لأن نشاطه قد جُسد في الواقع، ولم يعد له ذلك النفوذ الواسع والسيطرة على الجيش، وأصبحت الممارك الحربية تجري في معزل عنه. وكل ما هنالك أن خبرها يُنتقل إليه رجباً، دون أن يكون له صفة التشجيع. إننا أسندت إليه مهمة الإشراف على حراسة الشاطئ السوري شمالي باقا، وقبادة الكتائب التي تقوم بالأعمال الحربية في شرق الأردن، واقتصرت أعماله المدنية على الاهتمام بتأمين المئون لمجموعة جيوش المصاعقة وجنود الجبهة الفلسطينية. إننا لم يكن لفون فالكنهاين — مبدئياً — أن يتدخل في الشؤون المدنية سواء في سورية أو فلسطين، بل بقيت إدارة البلاد الملكية متروكة بجمال باشا ^(١٠٣). غير أن المشير لم يتورع عن التدخل في الشؤون المدنية التي هي من صميم اختصاص جمال باشا، وصار يصدر أوامره إلى الولاة والموظفين، ويوصل به الأمر إلى تخيير الموظفين وحتى للضباط الأتراك، بحيث قلب إدارة سورية رأساً على عقب.

وقد وصف جمال باشا لقدم فالكنهاين إلى سورية بأنه يلاء نازل على البلاد من عند الله، ونوه بأنه قد ضيق عليه دائرة حركته، وأثر تأثيراً سلباً على نفوذه الذي وطده في سورية طيلة ثلاث سنوات، بما يكاد يقضي عليه تماماً، وأن وجوده في سورية سيكون شوماً ما بعده شوماً عليها، وأنه بالاشتراك مع مصطفى كمال باشا قد خيرا خطط المشير من مذكراته الفنية معهما، فوجدنا أنها من اللينحالة والسقم بحيث نقضي على كل أمل بإنقاذ الجبهة، وأنه قد حدث بذلك وكيل القائد العام عندما أتى إلى سورية للاطلاع على حالتها عن كثب، وشكا إليه تدخله في أمور خارجة عن اختصاصه، فإلا أنه ما بقي فون فالكنهاين في سورية فإنه لا سبيل إلى بقائه هو فيها، فإما هو أو للمشير، لأن الأول لا نسير سيرها الطبيعي إلا إذا كان ثمة مسؤول واحد وقائد واحد فقط. ثم بسط له الموقف الحربي قائلاً إنه بعد سقوط جبهة غزة — يتر السبع قد وُحد الأعداء جبهتهم بحيث انضمت جبهة معان العربية إلى جبهة فلسطين الإنكليزية، وأنه من الواجب توحيد الجبهة التركية تجاهها، بحيث يجب أن تتضم جبهة شرقي الأردن إلى غربيها، فإذا ما سلمت قيادة جبهته (شرقي الأردن) إلى المشير فإن رتبته بعد عظمة ثلاث سنوات في سورية — منتزلة إلى مفتش منزل (مفتش للدخوة والأزواق)، فهل يرى أن ذلك يلين به؟ واقترح عليه — في حالة سحب المشير فالكنهاين من الجبهة، بسبب أخطائه الحربية وتسببه في سقوط القدس بإحماله الدفاع عنها — أن يأتي

(١٠٢) جمال باشا (الضهير)، الصدر السابق، ص ٤٦ — ٤٢.

(١٠٣) مذكرات أحمد جمال باشا، ص ٣٣٠ — ٣٣١.

بأمير اللواء مصطفى كان باشا، ويسلمه قيادة جيوش جبهة سيناء، وهو من جهته يتنازل عن قيادة جبهة شرقي الأردن إلى أمير اللواء جمال باشا الحرسيني (الصغير)، ليضطلع هو (أي جمال باشا) بالقيادة العامة على الجيوش المذكورين. وإذا كان ذلك غير ممكن فإنه يرى أن تتخذ التدابير اللازمة لانسحابه بملء وصمت دون ضجيج، مستتراً بدعوى القيام بعملة في الآستانة، ومن هناك يقدم استقالته. فين له أنور بعض المشاهير في إحداث هذه التضيقات، الأمر الذي حمله على الانسحاب من سورية والضرخ لوزارة البحرية. وقد اعترف في مذكراته بأنه قد أحس بالأثم والحزن، عند تركه الأراضي السورية، إلى درجة أنه أخذ بالكاء والنحيب مدة أكثر من ساعتين، عنفاً بدأ التقطار بحركه به من دمشق إلى الآستانة في ١٢/١٢/١٩١٧^(١٠٦) *huzun ve elem tesiryle trendelekti (...)* *saatten fazla hülgür dülgür ağlayarak 12 kâşûrrevvel 1917 de şamdan istanbula harsket ettim).*

السور نحو دمشق : باحتلال العقبة تنهي المرحلة الأولى من مراحل الثورة العربية (حرب الحجاز)، وتبدأ مرحلة ثانية تستحق أن نطلق عليها اسم «تحرير سورية»، وهو هدف أخذ الأمر فيصل — بصفته عضواً من أعضاء الجمعيات العربية الطليعية — على نفسه عبء النضال في سبيل تحقيقه. وفي هذه المرحلة أعاد فيصل إلى الحجاز المهاجرين من القبائل العربية الحجازية، وأصبح اعتماده مقتصرًا على جيشه النظامي المؤلف بأغليته العظمى من السوريين والعراقيين^(١٠٧)، والفلسطينيين ضابطاً وزناً، ومن السوريين والفلسطينيين جنوداً، يؤازرهم في ذلك أفراد للقبائل السورية والفلسطينية التي سبق وأشرنا إلى استئانها لرعايتها. كما ألقى الحلفاء، بجيش الأمير فيصل، ما أطلقوا عليه اسم «الفرقة العربية La Légion Arabe» وكان عدد أفرادها يتوقف على ٦٠٠ / محارب، وقد شكلوها من جنود وضباط من العرب أخذوا يدينونهم في الإسماعيلية، بعد أن قاموا بهدأة واسعة بين الأسرى من هؤلاء، وبين الجماليات العربية في مختلف المهاجر العالمية، بواسطة رسل نحواس من العرب، فطوع عدد من أفراد هذه الجماليات و«تعلقوا بها»^(١٠٨). ويظهر أن الحلفاء أرادوا من هذه الفرقة أن تخلف مصلحتهم بدليل أن فريقاً من الجنود والضباط العرب، الذين أسروا من قبل الحلفاء، وأُقلوا من معتقلاتهم إلى الإسماعيلية، قد غردوا في أثناء مرورهم في البحر الأحمر، وطلبوا

(١٠٥) CEMAL PASA, *Hatıralar*, pp. 209-215.

(١٠٦) ARMITAGE, *Ibid.* pp. 101, 139. سليمان موسى، الصغير السابق، ص ٣٠.

(١٠٧) B. JUNG, *Ibid.* 17, p. 26. مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص ٤٤.

إزاحهم في إحدى موالء الحجاز للالتحاق بالثورة العربية رأساً، وعدم إتمام سيرهم إلى الإسماعيلية. ولم يتمكن الضباط الإنكليز من تهدئة أعصابهم إلا بكل صعوبة^(١٠٨). وبانتهاء هذه المرحلة المتعثر للجيش العربي القيصلي جزءاً من الحملة الإنكليزية العامة على فلسطين وسورية، وأصبح الجبهتان موحدين وثابعين لقيادة واحدة، وذلك بموافقة الحسين ويفصل على ذلك، فقام الجنرال اللنبي بالمواءمة بين عملياته الحربية وعمليات الجيش العربي، بعد أن رأى في اقتحام العقبة سبباً قوياً له بسهل له التقدم نحو فلسطين، وكان إلى وقت ما يشك في جدوى الثورة العربية، ويرتاب في مرماها^(١٠٩).

وقد مُنح فيصل وثبة فريق قائد جيش (قائد الجيش الشمالي)، وهي نفس الوثبة التي يحملها الجنرال اللنبي نفسه^(١١٠) - حينذاك - وقد تم بين القائدين اتفاق يقضي بأن يكون لأي من الفريقين، العربي أو الإنكليزي، يسبق زيمه إلى احتلال منطقة ماء الحنق في الاحتفاظ بها وإدارة شؤونها إلى أن يت مؤثر الصلح، في نهاية الحرب، في مصورها. ويظهر أن إنكليزاً قد اضمرت، بهذا التريب، تنفيذ اتفاقية سايكس - بيكو، لأن الجنرال اللنبي قد راعى هذا الاتفاق بحذافيره. فقد تحاشى أحياناً دخول المناطق المخصصة لحلف الدول العربية (المناطق الداخلية) وتركها للجيش العربي. قال «هوبر» بانغ HUBERT YOUNG، من وزارة الخارجية الإنكليزية، حينما أطلع على التصريح البريطاني لرعاة العرب السبعة في مصر وكان فيه ما يشير إلى هذا الاتفاق: «حيث فهمت بوضوح السبب الذي جعل العرب يذلون جهوداً فوق طاقة البشر كي يسابقوا الخيالة البريطانيين في حروبهم نحو درعا ودمشق وحلب، كما فهمت أيضاً، ولأول مرة، السبب الذي من أجله سلكت مراراً، وبعد سقوط دمشق، من الذي احتل المدينة بالفعل لأول مرة: البريطانيون أم الأمير فيصل؟»^(١١١).

ثم يكن لدى الجيش العربي أكثر من ٨ ملايين حينما تكلف العقيد لورنس، من قبل الجنرال اللنبي، بإبلاغ الأمير فيصل وجوب السير من العقبة إلى العقيلة (جنوب البحر الميت)، ليكون

(١٠٨) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص ٤٤ - ٤٥.

(١٠٩) R. ALDINGTON, 1960, p. 159. من مترجم لوسكون، المصدر السابق، ص ٨٧.

(١١٠) R. ALDINGTON, ibid, p. 171.

(١١١) ibid, pp. 190, 191; محمد كرد علي، خطط الشام، ج ١٣، ص ١١٥٤، كرم خليل ثابت، المصدر السابق، ص ٦٧.

الجناح الأيمن للجيش الإنكليزي ولجيشي مؤخرته ، ذلك أن الجنرال اللنبي كان في صدد التقدم في فلسطين إلى حذاء عمان ومنها إلى سورية . لكن وجود قسم كبير من خط الحجاز ، وقوات الترك المربطة في المدينة المنورة ومختلف المحطات الواقعة على الخط الحديدي ، وعددها لا يقل عن عشرين أكفاً من ورائه ، يجعله غير قادر على التقدم دون حماية مؤخرته من هجوم مفاجئ . فمن الوجهة النظرية كان باستطاعة لغري باشا أن يتحرك من المدينة المنورة ، ويعيد تنظيم مخافر خط الحجاز ، والتجمع في معان لشن هجوم عليه ، أو على الأقل إرسال بعثة غربية تهدد مواصلاته ، لذلك رأى من الضروري تصفية قوات الترك التي تشرف على خط الحجاز قبل أن يشرع بحركة ما ، وفي الوقت نفسه جرى الإيعاز لجيشي الأميين علي وعبد الله بتشديد هجمائهما على المدينة المنورة في كانون أول ١٩١٧ لكنهما لم يوصلا إلى نتيجة ما^(١١٦) . فضلاً عن ذلك فقد رأى الجنرال الإنكليزي أنه من المفيد أن تُعطى أهمية أعظم لتخريب الخط الحجازي . فكلف بذلك الحبير الممتاز العقيد « داوئي COL. DAWNEY » وزوده بما يلزم من المعدات الفنية الناجمة ، وسرية من الجند بينهم مساعدون خدراء ، فقام بالمهمة الموكلة إليه بحير قيام : هاجم المحطات المجاورة لمعان وأسر ٣٠٠ جندي تقريباً . وبعد سقوط معان قاد سريته نحو الجنوب ، وتوصل إلى تخريب كامل للسكة الحديدية حتى هذه المدينة ، بالإضافة إلى تدمير سبع محطات ، وقد بقيت آثار هذا التدمير حتى نهاية الحرب ولا تزال حتى الآن ، وكانت السبب في عجز الأتراك عن إعادة الاتصال بالمدينة^(١١٧) .

أصبحت العقبة قاعدة انطلاق الجيش العربي بعد أن انتقل إليها الأمر فيصل مع هيئة أركان حربه ، التي التحق بها عدد من الضباط الإنكليز الجدد ومنهم العقيد « جويس JOYCE » مشاوراً حربياً للأمر ، معاونه في ذلك الرائد « ماينر MAJOR MAYNARD » والنقيب « هورنبي CAP. HORNBY » من سلاح الهندسة ، مشرفاً فنياً على عمليات التخريب ، والرائد « مارشال MARSHALL » والنقيب « رامسي RAMSAY » ، ضابطين مكلفين بالإشراف الصحي . كما كان من جهاتهم الرائد « سكوت SCOTT » والنقيب « غوزلت GOZLET » والملازم « وودز WOODS »^(١١٨) . وشرع فيصل في العمل فوراً إذ كان يترقب على جويته القيام بعملين حربيين ، أولاهما شن غارات متواصلة على السكة الحديدية ، وتخريب الطرق والجسور والقناطر ، وثف

R. ALDINGTON, Ibid. p. 175. (١١٢)

Ibid. pp. 186-187. (١١٣)

Ibid. p. 181. (١١٤)

القطارات الحاملة بالجنود والمؤن بقصد عرقلة مواصلات الأعداء في حركة متساقطة مع سرعة العقيد دلاوي^(١١٥). والثانية توجيه الحملات المتعاقبة على محطات المدور المشرفة على الخط الحجازي واحتلال حامياتها. وقد قام الجيش العربي بأعمال باهرة في هذه السبيل. كما كان يترب على الأمر فيوصل القيام بمسجون سياسيين: أولها توسيع دائرة تحالفه مع شيوخ القبائل، وإقناعهم بالتخلي عن مساعدة الأتراك، واستئالة عرب سورية إلى صفوف الحلفاء بنشر دعاية مؤداها أن قضية الحلفاء وقضية الاشتغال العربي أصبحتا شيئاً واحداً، وأن انتصار الحلفاء هو الذي سيؤمن الحرية للشعوب العربية. وقد أثمرت هذه الدعوة بصورة خاصة في اجتذاب قبائل منطقة بئر السبع، التي انضمت إلى الثورة بعد أن كانت تقايل في صفوف الأتراك، مما اضطر هؤلاء إلى إخلاء العرش فاحتلتها فرقة الحشالة البريطانية على الأثر. والثاني هو إرسال الرسل إلى المناطق السورية للاتصال بالزعماء السياسيين، وكبار الضباط العرب القوميين، والعمل على تشجيع الضباط والجنود العرب، الذين يخدمون في الجيش العثماني، على ترك قطعاتهم والالتحاق بالثورة العربية، تساعدهم على نشر هذه الدعايات الطائفة التي كانت تخطر المناطق السورية بالمنشورات الداعية إلى ذلك^(١١٦). وكان هذه الدعاية أثرها الكبير على الجنود العرب، الذين كانت أعداد كبيرة منهم تنسحب، في إبان احتدام المعارك، من صفوف الجيش التركي، لتتحقن بقطععات الجيش الإنكليزي الزاحف، أو يذهبون إلى العقبة حيث ينضوون تحت الراية العربية، كما انحنى قسم عظيم منهم في الكويف والقرى^(١١٧). كما أخذ الشباب السوريون يتقاطرون للالتحاق بالثورة بالرغم من التعذيب الشديد الذي لقوه من السلطات التركية، التي عمدت إلى إعدام كل من يقبض عليه وهو يحاول السفر إلى مراكز الثورة، وكل من كانت له صلة برجالها، تاهلك عن انتقامها من أشتاع المستجيبين لهذه الدعوة، ومن أهلهم وأقربائهم^(١١٨).

صحابة شك وتلقشع: بينما كانت القوات العربية تعمل، جنباً لجنب مع الجيش الإنكليزي، قامت الثورة البلشفية في روسيا (آذار ١٩١٧)، وعقدت هذه صلحاً منفرداً مع الدول الوسطى، ونشرت الوثائق السرية المتضمنة اتفاقات الحكومة الفيكرية مع الحلفاء في اقتسام الممتلكات العثمانية، فاطلع عليها الترك وكانت فرصة ذهبية اغتنمها جمال باشا لمواجهة العرب بمحانة

(١١٥) أنطونيوس، المصدر السابق، ص ٣٢٥-٣٢٨.

(١١٦) المصدر السابق، ص ٣٢٨.

(١١٧) الأمير مصطفى الشهابي، الانتصار، ج ٢، ص ٨٢.

حلفائهم الإنكليز والفرنسيون ، بانفاقهم على اقتسام بلادهم ، فيادر إلى توجيه رسالة منه إلى الأمير فيصل تحمل تاريخ ١٩١٧/١١/٢٦ (أي قبل مغادرته سورية نهائياً بأسبوعين) ، وقد كتبت بأسلوب يستهوي قارئها ، وبصيغة نداء موجه من مسلم جذبي التفكير إلى أعميه المسلم ، يذكره بأن من واجب من يحبهم مجد الإسلام أن يوقفوا جميع طاقاتهم ، بل حياتهم إذا لزم الأمر من أجله ، وجلب نظره إلى أن الإنكليز قد ضلوه وأباه بالوعد الكاذبة التي منحوها بها عن استقلال العرب ، بينما كانت غايتهم هي اقتسام البلاد العربية ، وإحكام السيطرة عليها ، وختمها بدعوة فيصل — وله الأمان — إلى دمشق لافتتاح المفاوضات في سبيل عودة العرب إلى الحظيرة العثمانية . وأدليت الرسالة بمحمل الشروط التي يقبل الترك بها ، على أساس منح الولايات العربية حكماً ذاتياً كاملاً ، تتحقق به أماني العرب القومية ضمن الإمبراطورية العثمانية ، مع التأكيد بأنه إذا حدث وأسفرت المفاوضات عن اتفاق فإن شرعية شروطها لا تكون مضمونة بتصديق السلطان وحده ، بل بضمان مماثل من الحكومة الألمانية أيضاً . وختم رسالته بدعوة زعماء العرب إلى الاستفادة من غفلتهم على الخديعة التي وقعوا في حبالها ، ونيل التعاون مع الحلفاء .

وإن يترك جمال باشا هذه الفرصة تمر دون أن يستغلها أقصى استغلال في سبيل الدعاية له وإثارة الرأي العام العربي على الثورة ، إذ أقبست بأمر منه مأذبة رسمية دعي إليها أعيان العرب في بيروت ١٩١٧/١٢/٤ وكان هو ضيف الشرف فيها ، فألقى خطبة أعلن فيها على الملأ الشروط التي بحث بها إلى الشريف ، وقدم لسامعيه وصفاً لما سيبته الثورة العربية من ضرر لا لوحدة الإسلام فحسب ، بل للقضية العربية التي أعلن زعماء الثورة أنهم يسعون لحلها . وقد قضح في خطبته هذه للمعاهدة السرية العربية — الإنكليزية ، على أساس استقلال العرب تحت رعاية الدول الأوروبية ، مبيناً أن ذلك لم يكن إلا خديعة من الإنكليز لإثارة الثورة العربية ، وقبض الشريف في شباكها ليسلم البلاد لأعداء الإسلام ، بعد أن أعلن يوحد الإسلام وبشره ، وأن الإنكليز لم يجاوزوا نزع السوس إلا بعد أن اطمأنوا إلى قيام ثورة الشريف . ونعم خطابه بأن نيه سامعه إلى أن الشريف ، إذا كان مسلماً حقيقياً وكان جامعاً لمزاي العرب ، قلب للإنكليز ظهر الحجر ، وآل راجعاً إلى خليفة الإسلام والمسلمين^(١١٨) . وأردف عمله هذا بحركة رسي من ورائها إلى خلق البلبل في صفوف الجيش العربي والشعب العربي في الحجاز ، وذلك بإبلاغ نصوص اتفاقية سايكس — بيكو إلى قخري باشا في المدينة المنورة ، كما نشرت جريدة الشرف الرسمية في دمشق ، وجميع الصحف السورية ، عطايه

(١١٨) أنطونوس ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨ — ٢٦١ مجلة البهجة العربية الحاضرة ، عدد ١٦ ، ص ١٠ — ١١ .

وأُرسلت تسخ منها إلى المدينة المنورة ، ومنها تسربت إلى مكة . وفي أحد الأيام سقطت قبلة ألقياها إحدى الطائرات العدو في المعسكر العربي للجيش الشمالي ، ولم تكن هذه القبلة من المتفجرات بل من المشروبات والجوالة الحامية على تصوص الاتفاقية ، لكن تأثيرها كان أشد من القنابل^(١١٩) على العرب لما فيها من غدر بهم . على أنه لورنس يقول بأنه لم يكن أمر وجود هذه الاتفاقية عن فيصل ، فيما سبق ذلك من زمن ، بل كان يعمل على إقناعه بأن الأفضل وسيلة لتلافي خطرهما على القضية العربية هو أن يُسدي للإتكليز مهدياً من العون المجدي^(١٢٠) ، بحيث يمنحهم الحياء ١١ — بعد الحرب — من أن يمشروا بخليف من أجل تنفيذ الاتفاقية ، وبالأحرى يعتمد على الوعود بل على جهوده فقط^(١٢١) . وقد صرح الأمر فيصل للمسير ستورث أرسكين ، بأن ما جاء في الاتفاقية من تصوص أحدث تأثيراً سلباً للغاية في وسط الجيش ، وأنه قد أبرق إلى والده يقول : «إننا نرفض متابعة الحرب مع الحلفاء لأن غرضنا هو استقلال البلاد العربية لا تمزيقها ، وقيام دول أجنبية مقام الترك فيها ، فأبرق للملك حسين بالأمر إلى الحكومة البريطانية ، وفي الوقت نفسه كتب إلى عمه يقول إن الوصول إلى هذه الأغراض (أي أهداف الأمة العربية) أصبح معقلاً بشرفه وشرف عائلته ، وأنه يعتبر لحله عائناً إذا ترك قتال الترك^(١٢٢)» .

لم تكن هذه العروض بطلب الصلح المنفرد أول عروض قدمها جمال باشا لفيصل بل سبقتها محاولات مماثلة ، قال لورنس بأن فيصلاً كان على اتصال مع بعض العناصر التركية من زمن بعيد ،

(١١٩) مسر ستورث أرسكين : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(١٢٠) إن من يطالع كتاباً من تفكيرين وأصداء الحكمة السبعة وشخصه «ثورة في قصحراء» ، اللذين وضعهما لورنس عن الثورة العربية ينسج العجب العجيب من تجميع نوسي لقفارهم بأنه هو لولب الثورة وفارسها الوحيد ، ومن تلغض الأقوال والكذب وتفتقر من التلاعب ما يروى بأنه الرجل الصالح الحكيم ، الذي عرف كيف يكسب حب العرب من والفهم ، وفيه الأمر فيصل ثقة عمياء بإخلاصه ، فيما هو في الواقع جاسوس بل عميل إنكليزي حاهر . وهذا شيء لم يستغرب من إنكليزي بعد جهلاً محمداً سهلاً مأتمناً للوغ خاتمة الشريعة في خدمة دولة الاستعمارية ، وفي استقلال منصبه كضابط ارتباط لتجاهل في جاسوسيه وهمايته . ولكن أن يكون عميلاً صهيونياً حرقاً مأجوراً مخلصاً في خدمة الصهيونية ، فهذا هو المستغرب من ثقة فيصل بإخلاصه ثقة عمياء جرت له نزائل سياسية سطحية في خدمة الأنحراض الصهيونية في أثناء الثورة . بعد البناء لتقريب ، حيث أتاحت له الظروف أن يكون مستشار الأمر وتوجيهه في ممر الصلح ، وغير ذلك من أمور لا يستطيع هذه المعجزة أن توفيقها من البحث ، بل تحتاج إلى تحقيق علمي مستقل .

(١٢٠) LAWRENCE: Ibid. p. 661 .

(١٢١) مسر ستورث أرسكين : المصدر السابق ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

وكان جمال باشا هو البادىء، لأن الثورة صدمته صدمة قوية مرغت جيئته بالوحل، ويهد أن يتلاى الأمر بإصلاح ما يمكن إصلاحه مع العرب، بعد أن شعر بمخرج الموقف الحربي على الجبهة العربية، فأرسل عدة رسائل إلى الأمير فيصل بهذا المعنى، لكن الأمير أرسل ماتلقاه منها إلى مكة ومصر يطلع والده والإنكليز عليها. وكان الجواب الذي أعطى للترك بإعاز من لندن ومكة أن لغة الحرب هي التي تتكلم في الوقت الراهن، وأن قوة الإصلاح هي الحكم بين الطرفين.

كان الحم الشاغل لفیصل، في الأشهر الأولى من عام ١٩١٨، هو الاستيلاء على دمشق، وكان متفقاً على ذلك مع لورنس معها كان الموقف الحربي الإنكليزي في الرملة أو درعا، حيث وجه الجنرال اللنبي سهم هدفه الحربي. فلما شعر الجنرال الإنكليزي بهذه الرغبة أرسل إلى فيصل العقيد «داوي» من لدنه رسولا ينصحه بالترث والتزام الحكمة. وأن لا يحاول القيام بعملات حربية، لأن الهجوم الإنكليزي ليس أكثر من مقامرة فإذا فشل يصبح للعرب — إذا احتاجوا إلى نجدة ما — في حالة سبعة على ضفة الأردن الشرقية. فما كان من الأمير فيصل إلا أن أجابه وبالبسمة الهادئة تملو شفته بأنه سيحاول الاستيلاء على دمشق في الخريف ولو أطبقت السماء على الأرض، فإذا لم يكن باستطاعة الإنكليز أن ينهضوا يأمر القتال في جبهتهم فإن عليه أن يعمل على انقاذ شعبه في سورية، وليس أمامه لتحقيق هذا الهدف إلا أن يعقد صلحاً منفرداً مع تركيا.

لكن اعتقاده، بأن الاتفاق مع جمال باشا مستحيل نظراً لجرائمه الوحشية التي ارتكبها في دمشق، قد حمله على الاتجاه بمجهوده إلى تفتيت الوحدة الوطنية في تركيا، بالانفصال مع العناصر المعادية للأتكان في الفياضات العليا للجهش التركي، وعلى رأس هذه العناصر اللواء مصطفى كمال باشا. وقد سارت المفاوضات بصورة مشجعة في بادىء الأمر، إذ عرض الأتراك استعادتهم للموافقة على استقلال الحجاز الداخلي، ثم ولفقوا — في مرحلة ثانية — على معاملة سورية، وفي مرحلة ثالثة على معاملة العراق بالمستوى نفسه، وحتى على منح الحسين تاج الحجاز، لكنهم لم يكتفوا بخافهم من أن الأسرة الهاشمية في مكة هي من الطموح بحيث لا ترضى إلا بحكم يمتد ظله على جميع المسلمين. وقد ظهر في النتيجة أن الطرفين لم يكونا يستبدان سوى إحداث الانقسام في الجبهة المقاتلة. وهذا ما جعل الأتراك يستغلون اتفاقية سايكس — بيكو لفصل العرب عن الخلفاء^(١١٢).

لقد اتفق الحسين اتفاقية سايكس — بيكو بامتياز ما بعد امتياز — لاشك في ذلك — لكنه لم يكن لديه ذرة ثقة بالترك ، كي يميل إلى الاستجابة لعروضهم في الصلح ، لذلك يادر إلى إجابة الأمر فيصل ، الذي أطلعه على عرض جمال باشا الجديده ، بأن يرسل إليه رداً مختصراً جافاً يبلغه فيه رفضه للاتصال بالترك . ثم أخذ رسالة جمال باشا الموجهة إلى تمبله ، وأردفها بما بلغه من مراد اتفاقية سايكس — بيكو ثم أرسلها إلى المتمد البيهطاني في مصر ، وطلب إليها عنها . ولما أحال المتمد البيهطاني القضية إلى وزارة خارجيه عمدت هذه إلى المغالطة والتضليل ، فأجابت الحسين بريقة أردفتها بذكره رسمية ، توحي منهما أن نوحى للحسين بأن ما واقاه به جمال إن هو إلا مثال جديد حل الدساتير التركية^(١٢٤) . فقد ذكرت البرقية أن البولشفيك لم يعملوا في مصنفات وزارة الخارجية الروسية معاهدة مفقودة ، بل عداوات مؤقته بين إنكلترا وفرنسا وروسيا جرت في أوائل الحرب ، وقبل الثورة العربية ، لإزالة كل ما من شأنه أن يعرقل قتالهم للترك ، وأن جمال باشا ، جهلاً منه أو خبثاً — قد شره صورة التفاهم الأصلية ، وتغافل عما نصت عليه من مراعاة موافقة السكان ذوي العلاقة وحماية مصالحهم ، وأنه قد غيامل بأن ما وقع بعد ذلك ، من قيام الثورة العربية ونجاحها الباهر وانسحاب روسيا ، قد لوجد موقفاً جديداً مختلفاً كل الاختلاف عما كان عليه قبل ذلك^(١٢٥) . أما مذكورة وزارة الخارجية الإنكليزية التي حملت تاريخ ١٩١٨/٢/٨ ، والتي تلقاها الحسين بنصها العربي ، بتوقيع الكولونيل « باست » نائب المتمد البيهطاني في جدة ، فقد استفتحت بالثناء على إخلاص الملك لحلفائه ، بإطلاعهم على عروض جمال باشا المقدمة إليه ، وعلى حكمته وسداد رأيه برفضه هذه العروض ، ثم أردفت بتصوير حركة جمال بأنها خدعة تركية مراد بها إحداث الشقاق بين العرب والحلفاء ، واختتمت بالتأكيد أن إنكلترا ستقف — وفقاً لعهداها السابق — إلى جانب العرب في تضالهم من أجل التحرر ، وستساعدهم في الحصول على حريتهم^(١٢٦) . غير أن الشريف حسين لم يفعل إلى ما يمكن أن نتطوي عليه البرقية والمذكورة من خداع وغش وكذب ، بل نقلها على ظاهرهما شأنه كشأن الرجل الشريف المنطمع على إخلاص الخليف للخليف^(١٢٧) .

ومع ذلك لم تمض أنباء الغدر البيهطاني الذي تجلى باتفاقية سايكس — بيكو وتصریح بلغفور

(١٢٤) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(١٢٥) مجلة البقعة العربية الحاضرة ، العدد ١١ ، ص ١٠ - ١١ .

(١٢٥) حافظ وهبة ، المصدر السابق ، ص ٣٢٩ الفريق تروي السعد ، استقلال العرب ، ص ٤٤ .

(١٢٦) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤ .

دون أن تختلف وراعيها موجة من الاستياء العام لدى العرب وزعمائهم ، إذ تنادى ، في ربيع ١٩١٨ ، سبعة من زعماء العرب المقيمين في القاهرة وهم : رفیق العظم ، الشيخ كامل القصاب ، مختار الصلح ، عبد الرحمن الشهبندر ، خالد الحكيم ، فوزي البكري وحسن حمادة — وقد أخذهم الخوف والرهب وشكوا في صدى الحلفاء — فقدموا مذكرة مشتركة إلى وزارة الخارجية البريطانية ، بواسطة المكتب العربي في القاهرة ، بدووها بالاستفسار عما إذا كان بإمكانهم أن يؤكدوا لقومهم العرب أن غاية بريطانيا مساعدة العرب على الاستقلال التام في بلادهم — وتشمل شبه جزيرة العرب والعراق وسورية وقسم من ولاية الموصل — وهل من سياسة إنكلترا تأليف حكومة عربية لامركزية تشبه حكومة الولايات المتحدة أو غيرها من الحكومات الحليفة . وتعهدوا بصفتهم بمثل مختلف الجمعيات العربية بأن يقوموا بالخدمات اللازمة التي يُكثِّفون بها من جانب حلفائهم ، وتعود متقنها على الطرفين ، فيما إذا صدر تصريح إيجابي حول ما استفسروا عنه . ثم لفتوا النظر إلى أن السوريين — مع تمنهم بأن تكون بلادهم جزءا من المملكة العربية الحليفة — يولون إلى تطبيق قانون اللامركزية ، بحيث تقسم إلى ولايات تحكم نفسها بنفسها حكماً إدارياً فقط^(*) ، كما يرغبون في تطبيق هذا القانون على سائر الولايات العربية في حالة استقلالها . وبنوا اعتماد العرب على بريطانيا وثقتهم بها ، وأنهم يمدون يد الصداقة إليها ، وإلى شعبها ويأملون أن تكون نصرتهم ، وأظهروا قلقهم من أن بريطانيا صرحت بحفظ سلامة الولايات التركية الآهلة بالعنصر التركي ، وعدم المساس باستقلالها ، بينما هي قد أغفلت باقي العناصر العثمانية ، مما جعل الأمة العربية في مأس شديد من سلامة حياتها السياسية . وخطموا مذكرتهم منوهين بإمكان جمع العرب على مبادئ أساسية ، تقوم عليها حكومات البلاد العربية المتحدة ، وتأمين الوفاق فيما بينها ، مظهرين استعدادهم لكل مساعدة تتطلبها المصلحة العامة في هذا الشأن ، ومذكِّرين أن الثورة العربية ، وإن ظهرت من الحجاز ، فإن سورية أساسها ، ولها اليد الطولى في الحركة المكمية التي أنشجتها ، آمليين أن لا تنضب جهودهم هنذا^(**) .

قدم الزعماء السبعة مذكرتهم مغلفة من الواقع ، حرصاً على أن تظل هوياتهم مكتومة ، بسبب ما جاء في مذكرتهم من مقارنة بين الحجاز والأقطار العربية الشمالية ، وفيها انتقاص من القدر

(*) ان ما دفعهم إلى إظهار مخاوفهم من الحطة المركزية لندوة العربية الجديدة ما صرح به بعض لقريرين من الحس من أنه إذا انتصر على الأتراك في البلاد العربية مسوف يقيم حكومات في تلك البلاد ، ويجعلها مسئولة عماله في مكة (مكتوبتهرس ، المصدر السابق ، ص ٣٧٩) .

(١٢٧) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج ٢ ، ص ٣٨ — ٤٠ .

الحجازي مما يثر الحسين عليهم ، وصمموا على الإعلان فيما بعد عن المذكورة والجواب الذي سيعطى عليها في آن واحد . وقد جاء جواب وزارة الخارجية البريطانية ١٩١٨/٦/١٦ بأن حكومة جلالة قد نظرت بعين المعطف والتقدير إلى المذكورة ، وأنها تنظر إلى البلاد العربية ضمن الاعتبارات التالية :

- ١ — الأراضي التي كانت حرة ومستقلة قبل قيام الحرب .
- ٢ — أراضٍ تحررت من السيطرة التركية بعمل العرب أنفسهم في أثناء الحرب .
- ٣ — أراضٍ كانت في الماضي تحت الحكم العثماني وتحملها قوات الحلفاء في الحرب الحاضرة .
- ٤ — أراضٍ لا تزال تحت السيطرة التركية .

ففيما يتعلق بالمرزوقين الأتراك وكانت تنطبق على (الامارات العربية المستقلة — وولاية الحجاز حتى العقبة) تعترف بريطانيا بالاستقلال التام والسيادة للعرب الذين يقطنون هذه الأراضي وتؤيدهم في جهادهم في سبيل الحرية .

وفيما يتعلق بالأراضي التي تحملها قوات الحلفاء (وكانت هذه عند إذاعة التصريح تشمل أكثر أنحاء العراق مع بغداد والنصف الجنوبي من فلسطين مع القدس وهافا) ترغب حكومة جلالة في أن تكون حكومة هذه الأقاليم — وفقاً للتصريحات الصادرة عن القواد العالمين ، عند الاستيلاء على بغداد والقدس — قائمة على رضا المحكومين . وهذه السيادة والتصريحات ستظل متهمة من حكومة جلالة .

وأما فيما يتعلق بالأراضي المذكورة في القسم الرابع (الأجزاء غير المحررة من العراق وسورية حتى ذلك التاريخ) فإن من رغبة حكومة جلالة أن تقوِّض الشعوب المظلومة في هذه الأراضي بالحرية والاستقلال . ولا تزال حكومة جلالة تعمل على تحقيق هذه الغاية^(١٢٨) .

لم يكن إصدار هذه الوثيقة — التي سميت باسم «العهد البريطاني للسوريين السبعة» — عن عبث ، فقد وجب على بريطانيا والحلفاء أن يحولوا دون أي تقارب بين العرب والترك ، فقد تعرضت ثقة العرب بحلفائهم بعد بلوغهم خبر اتفاقية سايكس — بيكو ووعد بلقور ، وبات الحلفاء يخشون من أن يؤدي قلق العرب والشرق حسين إلى التحول عن قضية الحلفاء ، خاصة وأن الترك يملأوا في سياسة الملاينة مع السوريين ، وأنحدوا يملقون مراح زعمائهم الموقوفين ، ويميلون للتقرب منهم إلى

(١٢٨) HUREWITZ 1964- II, pp. 28-29 : لفرين توري السعيد ، المصدر السابق ، ص ٢٦ .

جوارهم — يساعدتهم في الدعاية لاستيالة العرب حلفائهم الأتكان — لذلك رؤي من الضروري تهدئة نفوس زعمائهم . وقد كان للتصريح أثره في نفوس العرب ، إذ يبدد من أذهانهم كل ما أذيع عن نبأ اتفاقية سايبكس — يهكو وتصريح بالقصور ، خاصة وأنه جاء بعدها ، فضلاً عن كونه قد أعطي علناً ، وزاد بحساساتهم ، وحفزهم على الإشتراك في الهجوم النهائي على الترك ، وزاد يقينهم بانتصار ميادى ، ويلسون الأربعة عشر ، التي صدرت قبل شهور قليلة ، ونص بعضها على حق الشعوب في تقرير مصورها^(١٢٩) ، وخاصة عندما جاءهم بعد بضعة أسابيع نبأ خطاب ألكساندر الرئيس الأمريكي ١٩١٨/٧/٤ نوه فيه بما يتفق مع التصريح الإيطالي للزعماء العرب السبعة من أن تسوية ما بعد الحرب ستكون مبنية على قبول الشعوب التي تعنيها التسوية مباشرة قبولاً طوعاً^(١٣٠) .

(١٢٩) أحمد طهين ، التنازع الدولي حول أقطار آسيا الغربية ، ص ١٦ — ١٧ .
(١٣٠) أقطونيوس ، الفصل السابق ، ص ٣٨٢ .

الإنفصال والانحياز العثماني

ملاحظات على الجبهة السورية : لا بد لي ، قبل المضي في معالجة النهاية التي آل إليها الحكم التركي في بلاد الشام ، من إبداء بعض الملاحظات على الجبهة السورية — الفلسطينية .

أولاً أن قوات الإنكليز الزاحقة إلى فلسطين وسورية كانت مزودة بالمصفحات والذبابات والآليات من كل الأنواع ، تستندها أسراب كثيرة من الطائرات ، بالإضافة إلى مدفعية الأسطول على الساحل ، كما كانت الإمدادات الحربية فصلها باستمرار . ولم يكن هنالك من مجال للمقايضة بين ما يجمع به الجندي الإنكليزي والعربي من معنويات قوية ، وأحوال معيشية مرفهة ، وبين حالة الجندي العثماني من هذه النواحي . إذ كانت القوات العثمانية متفجرة إلى كل شيء ، بالإضافة إلى أن الجندي العثماني لم يكن يتال القوات الكافي ، فأضناه الحرمان ، وأتتهك الجماعة فواء ، إذ لم يكن الفرد يتال من الحيز أكثر من معة غرام يومياً ، وهو من الرذاعة بحيث تعافه النفس ، هلاوة على رذاعة اللباس والتجهيزات ، بحيث لم يبق على جسم الجندي من الثياب سوى أشمال بالية ، فضلاً عن كونه محروماً من المياه الصالحة للشرب . وقد أهلكت حتى الزحار عشر عدد الجنود تقريباً^(١) . وفوق ذلك كله فهو لا يكاد يخرج من المعركة منهوك القوى حتى يلاقي مشقات أعظم : يحمل أقال على ظهره ، ويسير في الصحراء المحرقة فينضي عليه التعب إذا أخطأه الرصاص .

ثانياً إن سوء المعاملة التي كان يلقاها الجنود العرب ، والازدياد في إخراجهم ، كان يدفعهم

(١) WILLY SPERCO, Ibid. p. 41.

فعلاً إلى ترك حلقوف الجيش العثماني ، والإلتحاق بالجيش العربي بصورة فردية أو جماعية . ومن أمثلة سوء المعاملة أن المشير فالكينخان خرج مرة للتفيش في الجبهة ، وصادف أن فرقة منهم كانوا مكلفين بمساعدة الحيوانات الهزيلة في جر المدافع إلى قمة هضبة . فلما وصل إلى القرب منهم كانوا قد توقفوا عن العمل بسبب التعب الشديد الذي أصابهم ، لكنه دون أن يتأكد من سبب توقفهم — أمر باعتقال ضابطهم وكان سورياً برتبة ملازم أول مع عشرة جنود من العرب ، أحاطهم جميعاً إلى ديوان الحرب العربي بنهمة التوقف عن سوء نية ، والتعمد في تأخير جر المدافع ، فحكم عليهم بالإعدام ونفذ الحكم فوراً . ومنها أيضاً إرتياب كل من الجنرال الألماني فون كريس وأحمد جمال باشا بالفرقة ٢٧ العربية ، التي كانا يتهمان أفرادها بأنهم غشوة ، ولا يحسنون القتال ، وكان ادعاؤهما كاذباً تقضيه بوضوح تقرير أمير الألاي (العقيد) عصمت بك (امتوتو رئيس الوزارة التركية فيما بعد) قائلًا بأنه يقتصر بهذه الفرقة العربية ، وأن من الخوف إلصاق تلك التهم الشنعاء بها ، لأنها فرقة بأسلة ومضطهدة معاً ، بحيث إن الطعام لا يقدم إليها بالصورة التي يقدم للجبهة الأخرى ، وإن أفرادها يقولون ثلاثة أيام لم يتناول الواحد منهم أكثر من ١٥٠ / غراماً من الخبز خلالها دون أي شيء آخر . ومن أمثلة فرار العرب أن مفرزة من الكشافة مؤلفة من ١٥٠ جندياً ، أمكنهم من العرب ، أرسلت بمهمة إلى الجبهة فلم تعد ، وقد تبين أنها ما إن التقت بالعدو عند غرة حتى رفعت هلمأً أبيض ، وسلمت نفسها إليه مع أسلحتها دون أن تطلق رصاصة واحدة^(٢) . ولقد حدثت حوادث مشابهة كثيرة وفي بعض المواقع كان الجنود العرب ما يكادون يشعرون ببدء المعركة حتى يتركوا صفوفهم ويتحلقوا بالعدو مع أسلحتهم^(٣) .

معارك التحرير الأخيرة : اتسمت معارك ١٩١٨ بزحف قوات الجنرال اللنبي وفصل دون أن تلقى مقاومة تذكر لأن الجيوش العثمانية قد انهارت مادياً ومعنوياً ، وأصبحت أجساماً هزيلة بلا روح بل أشبه شيء بالاشباح^(٤) . فيعد أن تم تحرير القدس وحتى نهاية ١٩١٧ أصبحت فلسطين في يد القوات الإنكليزية . وقد ساعدها على إتمام هذه المهمة أنها كانت تحارب في أرض صديقة ، بينما ازداد نفور العرب من الأتراك إزداداً جعل هؤلاء يشعرون بأنهم يقاتلون وسط شعب شديد الكراهية والعداوة لهم ، لإني لحظة عن عرقلة أعمالهم الحربية يقطع أسلاك التلغراف ، وقطع أعمدها والفتك بمن

(٢) جمال باشا (المعبر) للمصدر السابق ، ص ٦٠ ، ٦٦ ، ٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٤) G. GAUTHEROT, Ibid. p. 37 .

يُسْقَرَد من رجالهم بعد سلبه وهاتته^(٥٠)، بالإضافة إلى أن كثيرين من العرب كانوا ينطوعون لتزويد القيادة الإنكليزية والعربية بالمعلومات الهامة عن تحركات الأعداء، وعن أخبارهم وعدد قواتهم، كما أنشأت هذه القيادة مكتباً للتطوع قدم له بعض الشباب من وجهاء فلسطين، كالسيد أمين الحسيني (مفتي فلسطين فيما بعد)، مساعدات قيمة بدفع الشبان العرب للتطوع فيه.

بعد أن احتل الجنرال اللنبي غزة وبافا ٦ — ١٩١٧/١١/٧ — وكان الفضل في تسهيل اقتحامها لاستيلاء العرب على العقبة — تابع سيره إلى القدس فاستول عليها في ١٩١٧/١٢/١١، واعتُبر ذلك نهاية للحروب الصليبية، بينما كانت القوات العربية جادة في تحريب ونسف خطوط السكة الحديدية، وسائرة في تقدمها في خط مواز لخط الجنرال اللنبي. أما الأتراك فلأنهم لزاء هذه الحركات أخذوا يعززون الجبهة الفلسطينية، وكانوا قد عينوا محمد جمال باشا، قائد قلاع إزمير^(٥١)، قائداً عاماً لجبهة معان (حزيران ١٩١٧). ولما اتصل بأحمد جمال باشا بآ أن العرب قد احتلوا حاقب العيس في وادي موسى، وكان الترك في أشد الحاجة إلى ما يقطعونه من أحراجهم وقوداً للقطارات، أوعز إليه بأن يستعيد هذا المكان مهما كلف الأمر، فاستطاع بما لديه من قوى كبيرة مؤازرها ثلاث طائرات من إجلاء القوات العربية. لكن القائد العربي مولود مخلص لم يلبث أن استجمع قوته بسرعة وجهاز حملة من ٤٠٠ / جندي نظامي ٢٢ — ١٩١٧/١١/٢٣ هاجم بها الترك على حين غرة في وادي موسى، وكان هؤلاء يحتفلون أن العرب لا يملكون القوة المعنية لإعادة الكرة فوراً، فاستعاد وادي موسى، بعد أن نكل بالترك تنكيلاً هائلاً وكبدهم (٤٠٠) قتيلاً وجريحاً، بالإضافة إلى (٥٠٠) أسير مقابل (١٠) قتيلاً من العرب^(٥٢)، وواصل القائد مولود مخلص مطاردة الأتراك حتى ردهم إلى خطوطهم الدفاعية حول معان في أول كانون ثاني ١٩١٨.

كما هاجم الجيش العربي بقيادة الشريف ناصر ونوري السعيد، ومساعدة عرب بني صخر، محطة جرف الدريوش، واستول عليها، ثم على الشوبك فأنطفيلة، وأسر حاميتها، وكان فيها عدد كبير من الجنود والضباط^(٥٣). فكان لهذا الانتصار وقعه السيء على نفس المشير فالكنهاين، بما جعله يقرر إرسال حملة تأديبية مؤلفة من قوة كبيرة بقيادة العقيد حامد فخري، الذي أوكل إليه ضرب

(٥٠) إيمان فون ساندروس، المصدر السابق، ص ٢٧٧ — ٢٧٨.

(٥١) وهو غير أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع، وغير جمال باشا (المنقر) قائد القبلان الخامس.

(٥٢) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص ٤٦.

(٥٣) الأمير مصطفى قشمان، الاستبصار، ج ٢ ص ٧٢.

الجيش العربي بشدة، وقد تقدمته مغرزة من الخيالة وأخرى من المدفعية الرشاشة وبطارية قوية، فالتقت حملته بقوة عربية على رأسها الأمير فهد بين الكرك والطفيلة، ولم تشعر إلا وهي مغلوبة من قبل العرب. فوقع بين الجانبين معركة دامت أربع ساعات، وأسفرت عن هزيمة الترك هزيمة شنيعة^(٩)، ولم ينج من حملتهم المؤلفة من ٩٠٠ جندي سوى ٥٠ تلقفهم العربان في أثناء هربهم نحو الخط الحجازي وفنكوا بهم. وقد اشترك لورنس في هذه المعارك ونجح على أثرها وسام الحرب الممتاز، ورفع لرتبة عقيد. كما قام خلال الشيوخ عودة أبو ناه بأعمال بطولية محاربة^(١٠). وكان من نتيجتها أن دب الطبع إلى قلب المشير الألماني، وراحت قرائعه ترتعد خوفاً من الجيش العربي. فبعدد مع أمير اللواء جمال باشا (الصغير) مجلساً حريماً قرر فيه أن يسند إليه قيادة قوات سورية وعربي بلاد العرب — خلفاً للقائد علي فؤاد بك، الذي كان قد ولي هذا المنصب خلفاً لأحمد جمال باشا بعد مفادته سورية — شرط أن يتولى عمليات تأديب العرب في هذه المنطقة^(١١). غير أن القيادة الألمانية — التي راعها انتصار العرب، في معركتي الطفيلة والكرك، على المشير فون فالكنهايم بحيث ضاعبت الآمال التي كانت تعلقها عليه في توليد النفوذ الألماني في البلاد السورية، واستالة العرب إلى ألقابها فتوالى فشله في هذا المجال — أصدرت أمراً بتاريخ ١٩١٨/٢/٢٠ بعزله وتعيين المشير ليمان فون ساليرس مكانه. وكان قد سبق ذلك خلاف بين أنور باشا وبينه بشأن القتل الذي لحق بالجبهة العثمانية، ذلك الذي حاول المشير فالكنهايم أن يتوصل منه، وبلغني مسؤوليته على أحمد جمال باشا، وعلى الجنرال فون كريس — حتى استطاع إقناع المسؤولين بمرضاها^(١٢) — متوها بأن القتل الذي حل بالجبهة لم يكن سوى نتيجة لحالة القروض السائدة في سورية، وعدم وجود الغذاء الكافي «حتى إن بعض القوات كانت تمكث يومين، وأحياناً ثلاثة أيام في الجبهة نحارب ونسهر دون أن تجد لقمة خبز تقتات بها»، ولغدم سعي الترك لاستئالة أبناء المنطقة، ولرفض أولي الأمر طلبه في إطلاق يده في مفاوضات بعض زعماء العشائر العربية الذين عرضوا عليه الانفاق. وقد ضمن المشير بريقته التي

(٩) جمال باشا (الصغير)، المصدر السابق، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(١٠) الأمير مصطفى الشهابي، الاستعمار، ج ٢، ص ٧٣.

(١١) جمال باشا (الصغير)، المصدر السابق، ص ١٣٠.

(١٢) جاء في تقرير قدمه قائد الملقن الثالث عصمت بك (أبولو فيما بعد) في ١٩١٧/١١/١ أن الجنرال فون كريس بدلاً من أن يمدد إلى خطه الدفاع عن موقع هر فسيح بقوات جديدة أصدر الأوامر بوسوب الدفاع عنه بقوته الحالية إلى أن يهلك آخر جندي منهم، ويملك أكسب عدوه فرصة القصاص لقوات الترك الضعيفة، مغرزة تلو مغرزة، حتى ضعف الأمل في الفوز ولم يجد كبير من الجند الذين، لما تأكدوا ضعف الحلاء، لاقتوا بأسلحتهم قرواً إلى العدو (جمال باشا الصغير، المصدر السابق، ص ٧٩).

أرسلها في هذا المعنى إلى أنور باشا رفضه تحمل أمانة مسؤوليته ، وإلا فإنه يطلب قبول استقالته والسماح له بالمودة إلى ألبانيا .

غير أن أنور باشا — بدلاً من أن يرد على برقية — شكاه إلى رئاسة أركان حرب القوات الألبانية بلهجة توحي منها أن يظهره رجلاً لا قيمة له كقائد عام للقوات العثمانية . لكن القيادة العليا الألبانية بحثت إلى المشير بويطة تدعوه لها إلى الصبر والعمل حتى النهاية في سبيل خدمة أمانة الألبانية التي تعلق أهمية كبرى على المحافظة على منطقة فلسطين وسورية ، لأنه إذا سقطت هذه المنطقة ضاعت على ألمانيا فائدة كبرى تؤملها من تحويل قدد كبير من قوات الحلفاء إلى البلاد العثمانية . ثم أخذت الحالة تسوء ، وعطويرة الموقف الحربي تتفاقم في تطور سريع بدأ معه كل من الجيش السابع والثامن في الانضمام لجلال إلى أن أصبحا بحالة لا يستغلان منهما ، وضاع الأمل بقاء في قدرة الجيش الثامن ، فاختير المشير فون فالكنهايم السبب في انحلال الحالة الحربية إلى هذا الدرك ، بما برهن عنه من جهل في إدارة العمليات الحربية ، ومن تصرف في توزيع القوى والوحدات على الجبهة بشكل خاطئ ، غير مراعاة ذلك القوانين العسكرية ، وكان من أعظم ما أخذه عليه الأتراك أنه كان يُصدر أوامره باللغة الألبانية ، فخر على الترجمة ، الذين كان العدو قد اشترى معظمهم بالمال ، فتصل إلى أسرار الضادة إلى العدو قبل وصولها إلى قادة الجيش أحياناً ، وأنه كان يحمي الديناميت والمؤمرات على خصمه أحمد جمال باشا ومصطفى كمال باشا ، ويتم مع مكتب الشؤون العربية باصطناع الوسائل التي تخوله السيطرة على عريان بادية الشام والعراق لتوطيد قدم الألمان في هذه البلاد ، أكثر من اهتمامه بشؤون الجبهة^(١) .

وفي ربيع ١٩١٨ رسم الجنرال اللنبي خطة هجوم إنكليزي على الفصيلة ، وجرى على معان بهران في آن واحد . لكن الإنكليز أخفقوا في بلوغ هدفهم ، كما عجز الجيش العربي عن احتحام حامية معان التركية التي كان عدد أفرادها كبيراً . ومع ذلك أثبتت معارك معان ، وهي أشد معارك وقعت بين العرب والترك ، أن جيش العرب النظامي صالح للقتال وحده ، دون ما حاجة إلى دعم من المهاجرين الإنكليز . ثم هاجم الجيش العربي عملة الجردان شمالي معان ، فاحتلها ثم استردها الترك ، وجرى تداولها بين الترك والعرب ثلاث مرات . ولكن عجز العرب عن احتلال معان إلا أنهم حصروا

(١) جمال باشا (المتنوع) ، المصدر السابق ، ص ٧٤ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٤ .

الجيش التركي فيها بضعة أشهر ، ونهبوا الخط الحدودي شمالها وجنوبها ، ومتعوا القوات التركية من بلوغها ، واجتازوها في تقدمهم نحو الشمال ، وأشغلوها الترك عن متابعة الإنكليز في غور الأردن^(١٢) .

أما الجيش الإنكليزي فقد غذت قواته المقدمة نحو نهر الشريعة الفيلىق العشرين التركي إلى ما وراء النهر ، فأتاحت لخياتها دخول مدينة أربعا الواقعة على مسافة ٢٠ / ٢٠ كيلومتراً شمال شرقي القدس ١٩١٨/٢/٢٦ بعد أن أخلت من القوات التركية ، ثم زحفت على السلط فدخلتها في ٣/٢٦ وكان ذلك نهاية ما سمي بمعارك الأردن الأولى ، وقد ترتب على هزيمة أركان حرب القوات العثمانية أن تغل ممرها من العقولة إلى دمشق . وفي ١/٣٠ — ٥/٤ ابتدأت معركة الأردن الثانية^(١٣) . وبطلها في ٣/٢٦ إلى ٣/٣١ حاول الإنكليز ، بالاتفاق مع جيش الأمير فيصل ، الهجوم على عمان فلم تنجح الحملة التي وضعت لاحتلالها . وقد تميزت الفترة التي تلت هذه العمليات الحربية بمحاولة القيادة التركية — الألمانية — (وقد تغل ممر عبدة أركان جيوش الصاعقة بعد استلام المشير إيمان فون ساندريس قيادتها العامة ، من دمشق إلى الناصرة على الجبهة) — بمحش النشاط في قواتها ، فأرسلت التعديلات ونشط مكتب الشؤون العربية — بواسطة الرسل الكهنين والذهب الوفير — في القيام بدعاية واسعة لنشر التناقض بين الباع فيصل . كما قامت القيادة التركية — بتأييد علني من الأتكان — في تقديم عروض صلح منفرد مع العرب^(١٤) .

مفاوضات الصلح المنفرد : استدعى جمال باشا (الصغير) الأمير مسعداً الجزائري من دمشق إلى مقر قيادته في شرق الأردن في أواخر تموز ١٩١٨ ، وشرح له موقف الجيوش العثمانية المتخاذل ، وقوة الأمير فيصل وجيشه العربي ، واستغفر حميته الدينية للعمل على وجوب حقن دماء المسلمين ، مينا له أن للمراسلات التي جرت سابقاً بين الأتراك والأمير فيصل للمصلح المنفرد كانت عقيمة ، وأنه متفائل خيراً فيما إذا توسط هو لدى الأمير فيصل لعقد الصلح بين الأمتين العربية والتركية ، فرضي الأمر مسعد بذلك وبعث برسالة خاصة إلى الأمير فيصل ، فأتاه الجواب منه بأنه لولا لعمامه بقله الوفاء لا رأى لزوماً للرد ، خاصة وأنه قد سحر الأتراك وقلة وقائهم ، وأنه متأكد بأنهم إنما يريدون المصالحة لاكتساب الفرس ليس إلا . لكنه أبدى استعداد له لمقابلته فيما إذا قدم إلى المعسكر العربي ، بشرط أن يكون الأتراك قد أعطوه ما يشعروا به بصفاء نيتهم من الوثائق و مطالباتهم والحق وقابلين

(١٢) الأمير مصطفى كمال ، الاستعمار ج ٢ ، ص ٧٤ .

(١٣) ISMAIL HANI DANIMEND, Ibid. p. 445 .

(١٤) الطوبس ، القصر السابق ، ص ٣٢٢ .

بما يطلبه العرب ويستقبلون من أجله ، وضرب له موعداً ومكاناً يجيء إليه ليتصل به ، قائلاً : « أما إذا كانوا قد أجبروك على الجهي ، وما يبتك ما يطمئن به قلبك فأنت بمحلك والعرب وشأنهم »^(١٥) .

لكن الأمير سعيد حينما جاء وتقابل مع الأمير فيصل لم يُحسّل سوى رسالة مختصرة جداً من جمال باشا ليس فيها سوى إضاحه عن رغبته الشديدة في إطفاء الفتنة ، ورجائه بأن تكلل مهمة الوسيط بالنجاح . ونتيجة اتصاله مع الأمير فيصل استلم منه رسالة موجهة إلى جمال باشا يذكره فيها بأن الرسائل الكثيرة التي تلقاها سابقاً من الترك بشأن الصلح كانت عقيمة ، ولم تكن سوى مضيق للوقت ليس فيها ما يدل على الروح الإسلامية الصحيحة . ثم ذكره بوضع الدولة للمعاملة وحالة الإحباط العسكري التي تزدى فيها ، وأن العرب لا يطلبون شيئاً من الترك ... ، « إلا أن يعيشوا أحراراً وعلى وفاق تام واتحاد معهم » ، وأن للعرب مطلباً صريحاً وواضحاً لا يحيلون عنه « وأن يكون حالهم معكم كحال باقيها مع ألمانيا » (أي الاتحاد الفدرالي) وأن القبول بأقل من ذلك ليس إلا جناية على الأتمن ، وأن قبوله يرهط بين الأتمن يرهط مثنى فلا يتجدد بعد ذلك الزمن الذي يعدون فيه إلى دواوين الحرب العربية وإلى أحكام الإعدام والشنق والفتوى المذمومة ... الخ . وأنهى كتابه بالاستعداد للتفاوض على هذا الأساس^(١٦) .

فعاد الأمير سعيد إلى جمال باشا ، واستطاع إقناعه بوجوب إعلان الترك بأنفسهم استقلال البلاد العربية ، ليكون لهم يد يضاء على الأهالي ، وتبقى علاقاتهم مع العرب بعد الحرب ودية . ففقد جمال باشا اجتماعاً مع هيئة أركان حربه ، وعرض عليهم الفكرة فوافقوا عليها إلا واحداً ، وكتب بذلك إلى العاصمة^(١٧) . لكن أنور وزمرته أمهلوا النظر في الاقتراح ، إلى أن انهار حكم الاتحاديين ، واستلم الصداوة العظمى الفريق أحمد عزت باشا ، وكان من جملة ما قام به من أعمال أن أدل ، في مجلس المبعوثان ، بتصريح قال فيه : « إن من أهداف حكومتنا إحلال المساواة والعدالة والشعور بالمسؤولية ، وإشراك جميع عناصر الأمة العثمانية في مسؤولية الحكم . وأما فيما يتعلق بالولايات العربية ، فإننا سنحاول إيجاد حل لمعضلتها بشكل تؤمن لها استقلالاً ذاتياً يتفق وأهدافها القومية ، شرعية المحافظة على ارتباطها بالخلافة الإسلامية ، وبالسلطنة العثمانية »^(١٨) . وقد جاء هذا التصريح

(١٥) أنور الرفاعي ، جهاد نصف قرن لسور الأمير سعيد الجزائري ، ص ٩٦ ، من صورة الرسالة المذكورة في

(١٦) أنور الرفاعي ، المصدر السابق ، ص ٩٦ ، من صورة الرسالة المذكورة في

(١٧) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

P. LYAUTEY, Ibid. p. 130. (١٨)

بعد فوات الأوان، إذ لم تحض بضعة أيام حتى صعدت حكومته صليحاً متفرداً على التخلي نهائياً عن الولايات العربية. ومن الجدير بالذكر أن المشير إسماعيل فون ساندروس قد ألحح في مذكراته (خمس سنوات في تركيا) إلى مفاوضات فيصل — جمال (الصغير) بقوله إن الأمر فيحصل قد أبدى استعداده للانضمام، مع قواته، إلى جبهة الأردن التركية إذا أعطته الحكومة التركية ضماناً رسمية بتأليف مملكة عربية، عندها بأن حملة كبرى إنكليزية ستهاجم الترك بمحاذاة الساحل، فإذا ما أُعطي الضمانة التي يطلبها، وانضم إلى تركيا يستطيع أن يحبط هجوم هذه الحملة، وأن المشير قد ألح على أنور باشا بأن يعطي فيصلاً هذه الضمانة، لكن أنور وجمالاً (الكبير) قد تجاهلا هذا العرض. ويبدو إسماعيل فون ساندروس رآه بأن تجاهلهما ناشئ، من عدم لفتهما بعرض فيصل، واعتبارهما إياه مجرد حملة يراد بها وقوع مراكز الترك في الأردن بيد العرب، بينما يقوم الإنكليز بهجومهم الحقيقي على الساحل أو بين البحر والأردن^(٦٩). ولطفاً بأن أنور باشا لم يكن — في الأساس — يريد مفاوضات العرب، كي يضعوا حداً لثورتهم، لاعتقاده بأن مفاوضات من مناهم به العصاة تجعلهم يعتقدون أن الترك باتوا يفتشون النتيجة، وأن كل محاولة لمفاوضاتهم تُضعف مركز الحكومة، وتجعلها عديمة القيمة، خاصة إذا باشر الترك الاتصال بالثوار، ورفض هؤلاء مفاوضاتهم. عندئذ لا تكون الحكومة قد خضعت شوكتهم بل تكون قد زجرت نفسها، علاوة على ذلك، في ثورة داخلية^(٧٠). ولا بد لي من التنويه هنا بما جاء في مذكرات الدكتور أحمد قنبري عن أن الأمر فيحصل قد يكون فكر في مفاوضات الأتراك، وتوحيد العمل معهم فيما إذا ضمتوا للعرب الشروط نفسها التي قطعها لهم الإنكليز في استقلال بلادهم^(٧١).

استمرت، إذن، الحركات الحربية، واستعد الجنرال اللنبي لهجوم حاسم وشامل، شرع به في

(٦٩) إسماعيل فون ساندروس، المصغر السابق، ص ٢٥٠.

(٧٠) جمال باشا (الصغير) للمصغر السابق، ص ١١٧.

(٧١) يقول الدكتور أحمد قنبري في مذكراته (ص ٦٩): «ربما يكون فيحصل قد فكر في مفاوضات الأتراك، وتوحيد العمل معهم فيما إذا ضمتوا للعرب بالاتفاق مع خلفائهم الأتراك الشروط التي قطعها لهم الإنكليز في استقلال بلادهم، ليكن العرب واثقوا خلفاء ملتزمين على الوفاء. واللاحظ أن ما قصه إلى عنا السلوك ما ألحح من فئدة الخلفاء العرب، وما أسدلت هذه الأبناء من ثمرين أميين فيصل، ولو أن فيصلاً نفسه لم يكن على لقة من أن الإنكليز سيخلصون لمهوجهم. ولكن المرجح أنه قصد من عملية هذه القيام بمناورة سياسية يحز فيها موقف بلاده، ويؤثر على أعصاب الإنكليز كي ينضموا إلى فصاء تأكيدات أكثر صراحة، تؤكد للعرب المهود المطالبة لهم باستقلال بلادهم ضمن الحدود التي حددتها لهم مذكورة الشريف الأولى للسر متوي مكشوفة، وفي الوقت نفسه يرضي الفرنسيين من أمواته».

٩/١٩ ، وجعل هدفه المباشر مدينة نابلس ، حتى إذا تم له انتحاصها اندفع ، هو والأمير فيصل ، إلى الأمام للاستيلاء على دمشق وإنهاء الحرب في الشرق . وفي هذه الأثناء قامت المناطق الجنوبية من سورية بحركات ثورية ، وأخذت تضرب القوات العثمانية من الزواء متجابهة في ذلك مع قوات الأمير فيصل المتقدمة نحو دمشق . وكان الأمير فيصل قد أفصح للأمير سعيد الجزائري أنه ، في حالة رفض الترك للشروط التي اقترحها لتصلح معهم ، يجب على السوريين أن يعلنوا الثورة لكي يستألفوا على الجيش العربي مهمة سبق القوات الأخرى الإنكليزية والفرنسية — بناء على اتفاقه مع الجنرال اللنبي ، بأن من يسبق الآخر لاحتلال منطقة ما يثار على احتلالها^(٩١) حتى مؤتمر المصالح^(٩٢) — كما كان الأمير فيصل ، من جهة أخرى ، يرسل البعث والرسائل إلى سورية فتتخلل في قلب البلاد وتضع المناشير باسم الملك حسين بدعوة الجنود العرب للانضمام إلى الجيش العربي الزاحف . وقد وصل كثيرون منهم إلى جبل العرب وحوران ، حيث اتصلوا برؤساء العشائر وزعمائهم الذين اجتمعوا ، ومثلوا الموقف ، ثم طلبوا من القيادة التركية — بناء على قرار اتخذوه — بأن تسمح قواتها الموجودة في درعا ، بحشية أن يعبروا في المستقبل عن حماية القوات التركية المتراجعة من اعتداءات الأهالي . فما كان من القيادة إلا أن لاظفهم — بدلاً من تأديبهم — وأقامت لهم الولائم بقصد استئثارهم ، ثم تعزز موقف القيادة بمقدح / ٥٠٠ / خيال درزي أعلنوا ولائهم للقوات التركية^(٩٣) ، ذلك أن جبل العرب قد انقسم زعماء الطائفة الدرزية فيه إلى قسمين : قسم يؤيد الدولة العثمانية ويؤيد الأمير سليم الأطرش (زعيم الجبل آنذاك) ، وقسم آخر بجانب الثورة العربية ويتزعمه الأمير سلطان باشا الأطرش (قائد الجيش الدرزي)^(٩٤) الذي كان يعقد الاجتماعات السرية مع آخرين من الزعماء مثل فضل الله باشا

(٩١) أحمد الرطامي : المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(٩٢) حول هذه النقطة لابد من إيضاح قدر الإنكليز بالحق العربي من حيث الهدف من اتفاق اللنبي — فيصل ، وبالتالي تزييل الترحيب بميث جميع الأول مع السلطان وتوقيع اتفاق عقد الأون — دمشق (في حين كانت القوات الفرنسية تحتل لبنان من جهة البحر والجزر) . كما لابد من وجود احتمالي لا ثالث لها : أولاً إما أن يكون فيصل على علم بالاتفاقية سايكس — بيكو ويوجد بالمقدور ، ويكون قد ارتكب خطأ كبيراً بحق أمته العربية ، علماً بأن الاتفاق على هذه الخطوة قد حصل قبل إقامة الترك للاتفاقية والوجود المتكبرين وثانياً لأن يكون قد غرر بفيصل من أن يكون على علم بالاتفاقية والوجود ، وأن يكون مستشاره فيصل الصهيوني دور كبير في الدافع والضغط به ، وهو الاحتمال الأقوى . وبغني عن القول أن هذه الخطوة هي لتبنيها القبول للاتفاقية سايكس بيكو ، وللهدف الصهيوني في احتساب فلسطين في حين كان الوجود قد انقسم .

(٩٣) جمال باشا (الصور) : المصدر السابق ، ص ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٩٤) كان الأمير سليم بصفت سلطان باشا في مرسلاته بطلب قائد الجيش الدرزي ، وسلطان باشا بصفت الأمير سليم بطلب قائد الجيش التركي .

هندي، وحمد بك عامر، وغيرهم من أركان الجبل، وفتح أبواب منزله ليكون ملجأً للقاتل المارين من ظلم الطاغية جمال باشا، إثر مشافق ٦ أيار ١٩١٦. وكان لسلطان باشا اتصالات وعلاقات وثيقة بالأمير فيصل منذ أن كان مقيماً في دار آل البكري في القابون قبل الثورة العربية، وجهود في تحضير هذه الثورة^(٢٣).

ولما اتفقت الجيوش العربية من الحدود الأردنية أرسل الأمير فيصل نسيا البكري إلى الجبل يحمل نسخاً من منشور مؤرخ في ١٩١٨/٣/٢٨ بتوقيعه، يدعو فيه سكان الجبل وحوران إلى إسداء التسهيلات المقتضية للثورة، بغية طرد الترك، أعداء الوطن وأولاد جتكيرخان الذين إذا لم تتحد على طردهم من ديارنا، وتخلص البقية الباقية من أبناء قوتنا من أيديهم، فإنهم لا يبقون منا قرداً. وقد حصل إثر وصول البكري إلى الجبل، واتصاله بسلطان باشا، نقاش بين الأمير سليم وسلطان باشا. وقد حاول الأول تصحيح الثاني بالتزام الهدوء وعدم مناوأة الترك، فخلقى ردّاً قاسياً من الثاني. وبعد شهرين عاد نسيب البكري إلى الجبل مرة أخرى، ومعه الشريف ناصر، حاملاً منشوراً آخر من الأمير فيصل موجهاً إلى أهل الشمال حضريين وبدوين بأن يكونوا مع منطوية بدأ واحدة على الأعداء لتخليص البلاد من رقة استعمارهم وجورهم^(٢٤). وظلت عبارات التهنيد والوعيد يتبادلها الزعيمان الفرزيان في مراسلاتهما، بينما كان سلطان باشا يدفع المناشير على أهل الجبل وخاصة منهم أهل القرية وأم الرمان وحوط وعنز والمغير وبكة يدعوهم إلى إعلان الثورة على الترك، فلبى طلبه كثير من الزعماء، أمثال حمد بك البزور، ونسيب بك نصار، وأسعد بك مرشد، وسعين باشا الأعرس وغيرهم. وقد طلب منهم أن يوافوه إلى بصري الشام، إذ رفع علم الثورة على داره وأرسل ٣٠٠ فارس مع نسيب البكري ليشتركوا في الحرب مع الأمير فيصل، وانضم إليهم فريق من الحوريانيين لا سيما آل مقداد. وقد رد على كتاب ابن عمه الأمير سليم بأنه أعلن الحرب المقدسة على جيوش الترك «الجماعة» ونصحهم بالعودة «إلى جادة الصواب» في كتاب مرفوع منه ومؤرخ في ١٩ ذي الحجة ١٣٣٦ - أيلول ١٩١٨^(٢٥).

لقد ساعدت هذه الحركات العربية الداخلية في انهيار الجبهة التركية، فاستطاعت قوات الإنكليز احتلال نابلس في ١٩/٩. كما ساعدت الفرنسيين والإيطاليين في إنزال جيوش في مختلف

(٢٣) حنا أي رشيد: المصدر السابق، ص ٨٩ - ٨٨، كريم خليل ثابت: المصدر السابق، ص ٦٣.

(٢٤) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢٥) حنا أي رشيد، ص ٩١ - ٩٢، كريم خليل ثابت، المصدر السابق، ص ٦٣ - ٦٢.

الدشواطيء والبنانية. وقد اضطرت القوات التركية، التي أتهكها الشعب والجوع وانهارات معنوياتها، وشلت مقاومتها إلى التراجع. وفي ثاني يوم انتهاء معركة نابلس ٩/٢٠ تعرض مقر هيئة أركان حرب القوات العثمانية في الناصرة— على حين غفلة منه— إلى خطر عظيم حينما قام الإنكليز بهجوم مفاجئ عليه عند بزوغ الفجر، ولم يستطع المشير ليمان فون ساندروس التراجع بنفسه— وهو في ثياب النوم— هو ومن معه من المرؤوسين إلا بأعجوبة. وسقطت الناصرة في ٩/٢١ سقط بيد المخلّفاء ١٨ ألف أسير و ١٢٢ مدفعاً تركياً. وفي اليوم نفسه سقطت بيسان مركز ناحية جنين، كما أخليت حيفا فاستولى عليها الإنكليز، وعلى عكا في ٩/٢٣، وعلى طبريا في ٩/٢٤.

بانتهاء هذه الحروب تعتبر معارك بلاد الشام قد انتهت، لأن جيشي الجبترال الألماني والألمير فيصل أصبحا في وضع يستطمان معه أن يدخلتا بقية المدن السورية دون مقاومة، بسبب انعدام مقاومة الترك انعدماً تاماً. وبعد أن سقطت القنيطرة وحرها وبصرى الشام أصبحت دمشق هي الهدف الأخير. وقد دخلها الشريف ناصر في ١ تشرين أول ١٩١٨، يرافق الحياالة المغربية، تبهما خيالة الجيش الإنكليزي، وكانت هيئة أركان حرب الجيش العثماني— حينما التجأت إليها في اليومين السابقين إثر هربها من الناصرة— قد وجدتها في حالة العصيان، إذ كان سكانها يحطرون الجند العثماني في الشوارع برصاص ينادقهم من فوق الأمطحة، ومن أبواب البيوت ونوافذها، ومن كل جهة. فاضطرت الجند العثمانية أن تخليها مدافعة عن نفسها بما يشبه حرب الشوارع^(٢٦). عندئذ نهض الألمير سعيد الجزائري وأخوه الألمير عبد القادر واستلموا، بما كان لديهم من الاتواع المسلحين، زمام الأمن في المدينة، وشكلوا حكومة مؤقتة باسم الشريف حسين إلى أن دخلها الجيش العربي. وفي ١٠/٢ سقطت نفاق، وفي ١٠/٣ ملبك وفي ١٠/٦ أخليت حصص، وانسحب الجيش العثماني منها إلى حلب. وفي اليوم نفسه دخل الأسطول الفرنسي ميناء بيروت، وأنزل فيها جنوده كما دخلتها بعد يومين الفرقة السابعة الإنكليزية— الهندية. وفي ١٠/٢٧ سقطت حلب بعد أن أخلتها القوات التركية قبل يومين، لعدم وجود قوات عثمانية تستطيع الدفاع عنها^(٢٧)، ذلك أنه لم يكن في مقابل الجيش العربي الذي هاجمها، أكثر من ٢٠/ ألف جندي بقيادة أمير اللواء مصطفى كمال باشا، الذي كان قد أعيد إلى جهة فلسطين، بعد تعيين صديقه المشير ليمان فون ساندروس للقيادة العامة فيها^(٢٨).

(٢٦) I.M.H. DANISHMEND, Ibid. p. 442-449. ليمان فون ساندروس، المصدر السابق، ص ٢٨٨.

(٢٧) ISMAIL HAMD DANISHMEND, Ibid. p. 449.

(٢٨) للمزيد انظر لشارلس ميوزند، المصدر السابق، ص ٥٦٣.

دخل الأمير فيصل دمشق ثاني يوم احتلالاً من قبل الشريف ناصر أي في ١٠/٢/١٩١٨ إذ ترحل من سيارته وانطلق صهوة جواد عربي، يحيط به موكب حافل مؤلف من ١٥٠٠/ فارس، اعترضوا المدينة من الجنوب إلى الشمال، يحف به أعوان دمشق وعلمائها وعوامس أهلها، الذين حققوا لاستقباله ورافقه في دخوله المدينة. وقد رقصت الأعلام العربية ذات الألوان الأربعة وانثرت بأحلى مباحها. فاجتمع الأهالي وقفاطروا إليها كالسمل، وأخذوا يطلقون الأهازيج، ويتغنون السورود ويترنمون على موكبه، حتى بلغ مستقره فيها. ثم عكف على تأسيس الحكومة العربية وتنظيم شؤونها^(٢٩). وعلى الأثر بدأ يرسل البعثات إلى مختلف المدن السورية يعلمها بما هم، وأخذت هذه المدن بإقامة الزينات ورفع الراية العربية بحماسة كبيرة، وكذلك المدن اللبنانية التي عمتها موجة من الفرح. فأرسل فيصل شكري باشا الكوي حاكماً على بيروت وجبل لبنان، مما أثار غضب الفرنسيين، فاضطروا إلى تقديم احتجاج للمارشال اللني، الذي عقد معهم اتفاق ٣٠ أيلول لتنظيم إدارة بلاد الشام تنظيمًا مؤقتاً، وحصر السلطات العليا السياسية والعسكرية بالمارشال اللني، على أن يلحق به مستشار سياسي فرنسي لاستشارته في أمور المنطقة الزرقاء والمنطقة (أ) مع إعطائه صلاحيات إدارية تؤمن فرنسا تفويضها في سورية وفقاً لاتفاقية سايكس-بيكو، واضطر فيصل إلى سحب مخته من لبنان، ولم يطلع معه الاحتجاج الذي قدعه إلى المارشال اللني^(٣٠).

سقوط الدكتاتورية الاتحادية ومصير الطغاة

بعد أن انجلي للموقف في أوائل تشرين الأول على الشكل الذي سبق عرضه، لم يبق أمام الصدر الأعظم طلع باشا^(٣١) من مجال الاستمرار في الحكم، خاصة وأن الموقف الداخلي في ألمانيا نفسها قد بدأ يسوء منذ أوائل عام ١٩١٨، إذ قامت الأحزاب المعارضة للحرب مستغلة حالة المجاعة التي انتشرت في أوساط الشعب الألماني المختلفة حتى وصل الأمر إلى المطالبة باستقالة الإمبراطور غليوم نفسه، وبدأت منذ ربيع ١٩١٨ إمارات الجرح الخطرة^(٣٢)، والاضطرابات المضوي على الجيوش الألمانية التي توالى انكسارها في الجبهة الغربية، بعد أن دخلت الولايات المتحدة الحرب ضدها، وأرسلت جيوشها إلى أوروبا لمؤازرة حليفتها فرنسا وإكتفرا. وبدأت المظاهرات العنيفة

(٢٩) هي الدين السرجلاني، المصدر السابق، ص ٥٢-٥٣.

(٣٠) H. KEDOURIE, *ibid.* p. 131.

(٣١) جرى استناد المصادر العظمى إلى على أثر استقالة الصدر الأعظم سعيد حلي باشا.

(٣٢) راجع في هذا المجال مذكرات صفتخر، ج ٢، المصانيف، الصفحة ٢٠٠ وما بعد.

تحتاج شوارع المدن الألمانية بثوبها الاستراتيجي ضد الحكومة، وانجذبت الميول العامة إلى إنهاء الحرب بأي شكل^(٣٢). وأما في آسيا الصغرى ومناطق الأناضول الداخلية فقد سادت القوضى من أعمال الفارين من الجيش، وكانوا من الكتلة بحيث اضطرب حبل الأمن وصجرت الحكومة عن توطيد النظام. ذلك أن هؤلاء كانوا يهاجمون المدن والقرى ومحطات السكك الحديدية، ويمنون فيها سلباً ونهباً وإحراقاً، ولم تسلم حتى دوائر الحكومة من شروهم إذ يمدون خزائنها من الأموال، ويحرقون أثاثها وأوراقها ومجلاتها، ويهاجمون الجنود الألمان فيجردونهم من ثيابهم ويتركونهم عرلة، ويضربون ضباطهم ضرباً مبرحاً. وحتى في سورية ولبنان كان الفارون من الجندية يلوذون بشعاب الجبال، ثم ينقضون منها على محطات السكة الحديدية، ويشعلون فيها الحرائق. وكان رجال العصابات في الأناضول يتوعدون المصدر الأعظم طلعت باشا ويدرونه بعقد الصلح وإلا زحفوا على الآستانة ونهبوها^(٣٣). كما كان الخلاف قد اشتد بين طلعت باشا وأتور باشا، الذي ما إن يمر يوم بعد يوم إلا وكان سحق الشعب بنزائد عليه ويتفاقم خطره، الأمر الذي أرغم طلعت على تقديم استقالة حكومته في ١٠/٨ قبلت في ١٣/١٠، وكلف سفير الدولة في لندن «توفيق باشا» بتشكيلها. ولما رفض إدخال أي عضو ينتمي إلى جمعية الاتحاد والترقي فيها— وكان السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس)، الذي تولى العرش في غوز من السنة نفسها بعد وفاة السلطان محمد رشاد (محمد الخامس)، قد اشترط إدخال عضوين من هذه الجمعية في الوزارة الجديدة — كلف الفريق أحمد عزت باشا، أحد وزراء الحرية السابقين بتأليفها، فأدخل فيها عضوين من الجمعية لإحدهما جايده بك (من الدولة) وقهر المالحة الأسبق، والثاني غنمي بك سكرتير الجمعية للعام. وأما باقي الوزراء فكانوا ممن يعطون على الجمعية. وقد جاء في سبب استقالة باشا أن تركيا دخلت حرباً عامة كانت السبب في انهيار السلطنة، وذلك في جانب دول الوسط التي أصبح انكسارها في الحرب الدائرة يحكم المحقق، وبما أن اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي قد أعطت رأياً، قبل يوم واحد بوجوب سحب الثقة من الوزارة، لذلك رأى المصدر الأعظم عدم إمكان استمراره في الحكم^(٣٤).

وما إن استلمت الوزارة الجديدة دفعة الحكم حتى بدأت بمفاوضات الصلح مع الحلفاء، لأنها أصبحت غير قادرة على متابعة القتال، خاصة بعد أن عقدت حليفها بلغاريا صلحاً منفرداً

(٣٢) مجلة الحرب العظمى، ج ٤، ص ٧-٨.

(٣٣) الفريق تشارلس طولند، المصدر السابق، ص ٦٢ و ٢٢٣، LANDMENS, Ibid, II, p. 223.

(٣٤) I.H. DANISHEMEND, Ibid, pp. 448, 450.

قبل بضعة أيام^(٥٠)، فباشرت الاتصال مع السلطات الإنكليزية المخابرة، بواسطة الجنرال طاونزند، الذي أسر لي كوت الإشارة، ولم يزل محتجزاً في جزيرة بيوك آطه في بحر مرمرة^(٥١). وبعد مفاوضات قصوى وقّعت، في ١٠/٣٠، معاهدة لوقف القتال اعتباراً من ١٠/٣١، على ظهر الباعرة الحربية «سوبرب» SUPRB، في خليج مودروس بجزيرة لينوس، من قبل المفيس آميرال كالغروب، القائد الأعلى للقوات البحرية البريطانية في البحر الأبيض المتوسط، باسم ملك بريطانيا وبعوافقة حلفائها، ومن قبل رؤوف بك ونهر الحربية التركي، ورشاد حكمت بك وكيل وزارة الخارجية^(٥٢). وأما الثلاثي الدكتور يرمي ومعلم زعماء جمعية الاتحاد والترقي فقد أُعْذِلُوا بالفرار واحد بعد آخر من الآستانة. كان أولهم لي الفرار إسماعيل حفي باشا رئيس لواء الجيش، ثم بدري بك والي حلب، وعزمي بك والي بيروت ١٠/٣١ ثم أنور باشا، وطلعت باشا، وجمال باشا ١١/٣. وقد تشكر كل من أنور وجمال في بزة ضابط ألمان، ورافقهم الدكتور ناظم وبهاء الدين شاكرك، وقد حرب جميعهم في باخرة ألمانية، وسهلت الوزارة الجديدة لهم هذه السبل. أما الصدر الأعظم السابق سعيد حليم باشا، فقد أُلْقِيَ القبض عليه وأُحِيلَ إلى محكمة حربية ونُصِيَ من قبل الإنكليز إلى جزيرة مالطة. وقد لقي هؤلاء، عند الدكتور ناظم، حضهم قتلاً بعد مرهم، ذلك أن طلعت باشا قد صرّح في ١٥/٣/١٩٢١ برصاص شاب أرمني، في أحد شوارع يولین، انتقاماً منه لجوارز الأرمن التي اعتبره مسؤولاً عنها، كما صرّح في ٦/١٢/١٩٢١ سعيد حليم باشا برصاص شاب أرمني آخر في روما، ولقي أحمد جمال باشا المصير نفسه في ٢١/٧/١٩٢٢ في مدينة قفليس، على يد شاب أرمني أيضاً، وكان في طريقه إلى أفغانستان حيث دعي لتنظيم الجيش لدى حكومتها. أما أنور باشا فإنه، بعد أن فر إلى ألمانيا، اتجه إلى روسيا حيث اعتنق المذهب الشيوعي، فأُوقِدَ إلى بخاري للعمل على استئصال شعب التركستان إلى المذهب، لكنه ما إن استقر هناك فترة حتى راوده أحلام الاستقلال بالبلاد، وإعلان نفسه أميراً عليها، فاشتبك مع الجيش الروسي الأحمر في معركة وقع فيها قتيلاً في ٤/٨/١٩٢٢^(٥٣). هكذا انتهت المأساة التي أرادها أبطال الحرب، فبذرت عليهم وعلى عائلاتهم الدوائر.

(٥٠) كانت بلغايا قد دخلت الحرب إلى جانب دول الوسط في ١٤/١٠/١٩١٥.

(٥١) الفين تشارلس طاونزند، الصدر السليم، ص ٥٦٥-٥٦٩.

(٥٢) WILLY SPERCO, Ibid. p. 42.

(٥٣) I.H. DANISBEND, Ibid. pp. 451, 452, 466, 467.

لما لا شك فيه أن قيمة الثورة، بالنسبة للقضية العربية، كانت كبيرة وفائدتها جزيلة، لأنها خلّطت أولى مسطور الكيان العربي، مستغلاً عن الحكم التركي الجائر، الذي لم يدع أي مُنْفَرَجٍ للعواطف القومية. وهي بهذا الوصف — وإن كان عدم التحرر والمحبة في أثناء عقد المعاهدات مع الحلفاء قد أعطى المجال لاستغلال القضية العربية فيما بعد — قد خلّطت خطوة أولى متدرجة نحو استقلال البلاد العربية، وتحقيق طموحها القومي. فلولا قيام الثورة لما وجدت جيوش الحلفاء، التي احتلت سورية بعد الحرب، تلك المقاومة التي لقيتها من حكومة فيصل المنظمة ومن الشعب العربي، ولما اصطدمت بفكرة الحرية والاستقلال التي رسّختها الثورة في نفوس العرب^(٢٨). وهذه أكبر حجة يمكن أن تساق جواباً عن أقوال بعض من تخرص، من أنصار الرابطة العثمانية — الإسلامية حينذاك، بأن الثورة هي التي أتمت بالاحتلال الأجنبي لبلاد العرب^(٢٩)، ذلك أن هذا الاحتلال كان لا بد واقعاً — في حالة انتصار الحلفاء — سواء أقامت الثورة أم لم تقم، وذلك وفقاً لأنشطة تقسيم الممتلكات العثمانية التي عقدتها الدول العظمى فيما بينها عند انتهاء الحرب. فإذا كان ثمة شيء حد من أطماع هذه الدول، فما هو إلا العهد التي تمت بين الحسين وإنكسار، وبالتالي قيام الثورة واحتلال جهتها لبلاد الشام من العقبة حتى سهول كيليكيا.

هذا بالنسبة للقضية العربية، وأما بالنسبة للحلفاء فإنها قد خدمتهم خدمة كبيرة لم يسع اللورد سمسيل، ونهر الحصار البريطاني — وقد تحدث عنها بعد سنة من قيامها في مجلس العموم — إلا الاعتراف بالأعمال الباهرة التي قامت بها. فقد توه بالمدن الحجازية العديدة التي استولى عليها جيش الشريف، وبتهجيرها شواطئ البحر الأحمر، على مسافة ٨٠٠ ميل، من الأتراك وهرقلتها مواصلاات الترك، ومحاصرتها المدينة المنورة وكونها قد حصرت وأُسرت وأشغلت أربعين ألف جندي تركي في الحجاز، بالإضافة إلى ثلاث فرق تركية في الحسم واليمن، وقطعت الصلة بينها وبين قواعدها الأصلية في الشمال، وغُتست أكثر من مئة مدفع، ولم يكن قد مضى شهر واحد فقط حل

(٢٨) ساطع الحصري، نشوء الفكر القومي، ص ٢٤٢ — ٢٤٤.

(٢٩) يقول أسعد داغر — وهو من أعضاء إحدى الجمعيات العربية آنذاك — «... فلما اضطروا للتطاع عن أنفسهم هذه الترك لم نجد أماناً غير القوم مع الحلفاء ونحن هالكون بما هم من مطلق في بلادنا. ولكن لمخطر العظيم الذي كان يهددنا به الترك، وهو عطر الأداة والقضاء، لم يترك لنا مجالاً للتصكر أو الانحياز، فلم يكن هناك شريان، بل كان موت محقق من جهة إذا لم نترك وجهنا شاك طريل في سبيل حياة حرة كريمة من جهة أخرى...» أسعد داغر مقتراني حل حاش القضية العربية، القاهرة، بلا تاريخ ص ٥.

نفسها^(٤٠). صحيح أن الثورة العربية لم تكن هي العامل الحاسم في تقرير مصير الحرب العامة، بين المعسكرين المتحاررين، لأن ذلك المصير قد قرره حروب الجبهة الغربية في أوروبا، لكنها مع ذلك أدت للحلفاء معونة كبيرة، لأنه لولا الجيش العربي، والذي وقف موقف العداء من الترك في جبهة تمتد إلى ألف كيلومتر، لما تم للجيش الإنكليزي أن يُحرز ما أحرزه من نصر بالسرعة التي تم فيها تقدمه، ويهون كبير هتاء. فلولا الجيش العربي لكان باستطاعة القوات التركية، المرابطة في المدينة المنورة وعددها لا يقل عن ١٤ ألف مقاتل، وفي القطرانة وعددها يقارب ١٠ آلاف، وفي معان وعددها ٨ آلاف، وفي تبوك وعددها ٤ آلاف، وفي العلا وعددها ٣ آلاف، أن تنف أمام زحف الجنرال اللنبي آمنة مطلقة من ناحية العرب، وأن تمنع تقدمه^(٤١). بانتصار قد أقفلت الثورة طريق الأتكان والترك إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي، ووقفت أمام توسعهم نحو الجنوب، وشكلت مع قوة ابن سعود في نجد حزاماً يمتد من العقبة حتى الخليج العربي، فحفظت للحلفاء سلامة مواصلاتهم بين الجبهتين المحررتين المفتوحتين في بلاد العرب^(٤٢). قال الكاتب الإنكليزي فرنانز وليه: «إن للعرب قد أسروا ٣٥ ألف أسير تركي، وحربوا من الأراضي ما يقارب ٢٥ ألف كيلومتر مربع، فغلبوا بذلك مجرى التاريخ في الشرق»^(٤٣). وإذا كان في هذا القول بعض المبالغة من حيث العدد، إلا أنه ولا شك متفق مع الحقيقة بصورة عامة، قال الكاتب سينوايمشان: «ويعتقد ما كانت هجمات الحفالة العرب، على الجناح الأيسر من قوات الترك، قوة وفتاكة بمقدار ما كان تقدم جيوش الجنرال اللنبي سهلاً»^(٤٤).

ولكن أنكر بعض الكتاب الاستعماريين — وخاصة منهم الفرنسيين — هذه الحقائق، ونسبوا أهم الانتصارات، التي أحرزها جيش الأمير فيصل، للشرزمة القليلة من الجنود الفرنسيين مع طبائهم^(٤٥). ويغنطوا أبطالاً مثل الشيخ عبدة أبي نايه، والشريف ناصر، والشريف شاكور، ومولود مخلص، ورأس سردست، وغيرهم من مغاوير العرب، حُفهم في البطولات التي برهنوا عنها، فإن الكتاب الأتكان والأتراك بصورة عامة لم ينكروها، بل أنصقوا الثورة العربية، ونطقوا نالهمهم

(٤٠) حافظ ومرة، المصدر السابق، ص ١٨٦ — ١٨٧.

(٤١) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ١٣، ص ١٧٦ — ١٧٧.

(٤٢) أنطونوس، المصدر السابق، ص ٣١٣ — ٣١٤.

(٤٣) فرنانز وليه، المصدر السابق، ص ٦٥.

(٤٤) BENOIST MEBCHIN, Ibid. p. 203.

(٤٥) G. GAUTHEROT, Ibid. p. 100; COMTE DE GONTAUT-BIRON, Ibid. pp. 44-45.

ومذكرات رجائهم — بالرغم من تحملها على العرب أحياناً — بالأعمال الباهرة التي قامت بها القوات العربية ، وما تكبدت على يدها قواتهم ، وما جهرت عليهم القوّة من نتائج سياسية وخيمة . ذلك أن القوّة قد شجعت بقية أمرك العرب كي يحلوا حذو الشريف في شق عصا الطاعة على الترك ، وهيأت ملجأً للناقمين على الترك بأوون إليه ويشتريكون في محاربتهم . هذا عند القوالت المعتدّة في إحباط مخططات الترك والألمان في إحلال الحرب المقدسة (الجهاد) مكانتها اللاتفة في نفوس المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي ^(١١) . وما لا شك فيه أن الحرب في الشرق ، وإن لم تكن المصير الحاسم في تقرير المصير النهائي ، إلا أن انتصار الحلفاء فيها ، ذلك الذي لولا مساعدة العرب لما عم بالسرعة التي نُس بها ، قد قصر مدة الحرب عدة أشهر باعتراف الجنرال طونزند ، الذي كان له الفضل في عقد الهدنة مع الترك قال : « والذي فشل في القيام به في ميدان القتال ، أتميزته وأنا ومن الأمر ، فقد أُنقذت الترك بالتسليم ، وبذلك قصرت مدة الحرب في مساحة القتال الأوروبية عدة أشهر ، فنجم عن ذلك حقن دماء الألوف وتوفير الملايين من المال » ، وأضاف إنه لما بلغ المحسا خبر تسليم تركيا سلمت فوراً على أثر ذلك ١١/٢ وتلتها ألمانيا ١١/٩ في التسليم ^(١٢) . « وعلى رأي أن الترك لولا أن انحلت أروحة من جيوشهم في الجبهة العربية هي الجيش الرابع والسادس والسابع والثامن لما سلّموا بهذه السرعة » .

(١١) ج . ف . كوبر ، المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(١٢) تيليكس طونزند ، المصدر السابق ، ص ١٠ .

الخاتمة

وأخيراً قد انتهت الحرب على غير ما أرادها تجار الحرب، فإذا بذلك الأحلام المرسومة التي بنوها على إحراز النصر فيها تضمحل وتبخر، بل تذهب كما يذهب الثلج تحت أشعة الشمس، وإذا بالباطل الاستعماري الذي دار في خلد حلفاء تجار الحرب، زعماء الألمان، أن يوسعهم أن يفرشوه على رمق الشرق، يصبح من تسج الخيال، ليفسح المجال للاستعمار أو مؤامرة استعمار آخر أتقن تدبيرها، وإذا بالإمبراطورية الطورانية، التي حلم رجال تركيا الفتاة بجميع أشتاتها وتوطيد بنائها تصبح وهماً محالاً، وإذا بالسيوط الاستعماري، الذي كان الإنجليزيون يعدونه لجلد الشعوب العربية وضم العربية من سكان السلطنة، بعد الانتصار، يترد إلى جسرهم، بعد الهزيمة والاحتلال، فتصبح بلادهم وعاصمة بلادهم موطئاً لأقدام المحتلين، وفي رؤوسهم تلور حميا الاستعمار والاستبداد. وقد كلف الشعب التركي دفع البلاء النازل بوطنه كثيراً من النصب والعرق والدماء، فوق ما ابتلي من وهلات الحرب، ومن الحرمان والجوع والفناء، ومن اليتم، وتكفل الأمهات، وترمل الزوجات، شأنه في ذلك كشأن الشعوب العربية، التي لم تقاس من هذه الهلات أقل مما قامى.

كل ذلك دفعه الشعبان العربي والتركي معاً ثمناً لفطرسه حفة الدكتاتوريين المتسلطين المتجبرين المتهورين المهورسين بحب المجد والعظمة، من حكام تركيا الفتاة، تشدقوا بأنهم إنما يبنون وطناً، وشهدون حرق أمة، ويهتدون قومية من الإنذار. فماذا كان حصادهم في ذلك؟ كانت الدولة العثمانية ترزح تحت دين بلغ ثلاثين مليوناً، من الديارات الذهبية العثمانية، عندما ترك عبد الحميد السلطنة بيدهم يتصرفون في مقدراتها، فأرتفعت هذه الديون، بسوء سياستهم، إلى أربعين

مليون من الليرات الذهبية^(١)، حتى قبل انتهاء حكمهم بعام واحد. لقد ترك لهم السلطان عبد الحميد الدولة ممتدة من أشقودة شمالاً — غرباً إلى حدود فارس والخليج العربي وعدن والسنهس، بالإضافة إلى الأراضي الليبية والبوسنة والهرسك وألبانيا، فلم يحافظوا على هذه المملكة الشامية الأطراف، التي كان يقطنها مايقرب من ثلاثين مليوناً من البشر، فانقرض عقدها بين أيديهم، وكادت بلادهم التركية الصرفة — ولم يبق فيها غير عشرة ملايين من النفوس — تفقد حرمتها واستقلالها. لقد دخلوا السلطان عبد الحميد لاستبداده، ولاحمده بالسلطنة إلى درك الخراب، لكنهم لم يتجنبوا ممارسة الاستبداد، بل زادوا في وطأته، ولم يتفكروا الدولة من الخراب، بل أعطوا — بتفريط رأسم سياستهم، وإدارتهم الخرفاء — عبد الحميد، حتى قبل أن تنزوي أحوال السلطنة إلى ما تروث إليه من يؤس عند نهاية الحرب، فرصة كئي بتهمهم بتفاسر عليهم — في مذكراته — وبما ين بين أحوال الدولة في عهده، وما أوصلوها إليه في هذا المبال^(٢). لقد دخلوا الحرب بنزوة فائرة وطفرة قردية مأكرة، فكلفوا بذلك الأمة التركية والأمة العربية ملايين القتلى والمهق في الحرب، وتأثير المجاعة والظلمتين. ويكفي دليلاً على هذا القول أن جيش أنور باشا الذي ساقه إلى جبهة القوقاس لمحاربة الروس — وكان مؤلفاً بأكثريته الساحقة من العرب — لم يرجع منه سوى عشرة آلاف من تسعين ألفاً، ومعظم العائدين أصبحوا من مشوهي الحرب^(٣). هذا عدا عن ضياع ثروات الناس، وانتشار الفقر والبؤس بينهم، ولغوب موارد البلاد الحيوية، واضطراب الزراعة والصناعة والتجارة، وانهار اقتصاد الدولة ورزوحها تحت ديون تقيلة فرضت عليها لسبب تفاسر الحرب، علاوة على ديونها الباهظة سائلة الذكر، والتي لم تكن مضطرة لمقدها لولا دخولها حرباً لا ناقة لها فيها ولا جمل، حرباً دخلتها انسياقاً وراء الأهواء والنزوات العرقية، و وراء المصلحة الأكلانية، إرضاء لما بوصفها حليلة لمنصارية^(٤)، بل بالأحرى السباق خلف أهواء رجل فرد وضع نفسه رهن مصالح هذه الحليفة، ورزح تحت نير عبوديتها مادياً ومعنوياً بل وإرادته واختياره. وكئي يستطيع المضي في اعوجاجه انفس حتى أذنيه في وحل دكتاتورية متشعبة بمنهج من الخطورة والصلف، تهايك عن ابعاله — لستر سياسته الخرفاء — في هدر الكرامات وتضامته عن استباحة الأهراض المصونة وقساد الأخلاق وتلوث السمعات والصوت بالمقدسات.

(١) لافليس طرغند، المصدر السابق، ص ٥٥٤.

(٢) ABDULHAMID'IN HATIRA DİFTERİ, p. 108.

(٣) DAGOBERT VON MEXUSCH, Ibid. p. 140.

(٤) دكتور رضا تور، المصدر السابق، ص ١٨٧ — ١٨٩.

أنا لا أقول مع الكتائب « ميشيل باغاس »، بأن تركيا لم يحكمها سوى سلطان جائر أو ظفر سفاك^(٥)، إذ لا تغلو أمة من الأمم من حكام عادلين وآخرين جائرين. وقد يكون لرأيه، بأن الأتراك — وبغضب بذلك العثمانيين ولا شك — قد عرفوا سياسة الفتوح وقصروا في إطار السياسة، نصيب كبير من الصحة^(٦)، وخاصة في أدوار السلطنة الأولى. ولكني معه في الرأي، دوماً جفلاً، بأن الاتحاديين كان رائدهم العنف، وليس إلا العنف، لحل جميع المشاكل، وهذا ما جلب على رأسهم مصاعب الدنيا بأجمعها. وقد اعترف أحمد جمال باشا (الطاغية) نفسه — ولكن بعد فوات الأوان — عند مغادرته لسورية نهائياً، بتقصير الاتحاديين في عدم إفساح المجال لحرية المعارضة كمي تعيينهم على تقوم دعوات الحكم، وأن هذا هو أس البلاء الذي أصابهم^(٧)، ولكن لست هذا البلاء قد لتقتصر عليهم ولم يشمل غورهم من أبناء السلطنة.

وإذا وجب علي أن أختص كتابي بمشاهد عن قيمة الاتحاديين فلا أسوقه إلا نقلاً عن أقلام الترك أنفسهم، ولسان صحيفة من صحفهم، فقد وصفتهم جريدة علمدار بقولها « إن في هذا البلد داءً هو أخطر وأروع وأثقل من الطواعين، فإذا أردنا أن نُنقذ أبناء هذا الوطن، من هلاك محقق، فما علينا إلا أن نبادر إلى القضاء عليه. إن هذا الداء، هذا المُلحاح الفتاك ليس هو إلا الاتحاديين وجميعتهم. إن الواجب يقتضي تشكيل لجنة يكون عليها أن تحارب الاتحاديين أكثر من أن تحارب الملل المباري^(٨) ». حقا، إذا آمن الإنسان بالنظر في مآلتي الحرب في الشرق — تلك التي كان الاتحاديون السبب في زج هذه البلاد في أنوثها بفعل للتسلطين منهم على مقدراتها — أقيستطيع بعدها أن يتصور: هل كان بقدرة الطواعين — مهما بلغ خطرهما — أن تغني عن البشر بمثل ما تسبب الاتحاديون في إفناكهم^(٩) .

أما العرب فما الذي حصده من هذه الحرب التي سيقوا إليها بغير إرادتهم — اللهم إلا الحفاظ على كرامتهم القومية وكيانهم الوطني — وما الذي خسروه؟ — في الواقع كان ثمة خسارة وكان ثمة ربح: لقد خسروا ملايين من أبنائهم وبينهم شبان في مهلة الصبا، سواء في الحرب أو بالطواعين أو

(٥) M. PAILLARES, Le Kéralisme Devant Les Allées, p. 16.

(٦) Ibid. p. 21.

(٧) Ibid. p. 30.

(٨) A.B. KURAN, İnşaat Tarikhi ve İnşaat Ve Terakki, pp. 287-288.

(٩) M. PAILLARES, Ibid. p. 30.

الجماعة ، كان بإمكانهم أن يكونوا ذخراً للوطن ، كما قدموا إلى أصوات المشائق أهبالاً أشلاء — صدقوا الله والوطن وعدهم بأن يجعلوا هاماتهم دعامة للاستقلال والحرية — ربما كان باستطاعتهم أن يرتفعوا بالأمة — لو ظلوا على قيد الحياة — إلى أرق مدارج الأروهار والمجد ، وقد لا يجود الزمان دائماً بخلفهم ذكاء وألمعية . ولكن الذي يحوه هو الحفاظ على لغتهم وقوميتهم من الاندثار والانصهار في بوتقة الترك .

صحيح أنهم وقعوا في براثن الأطماع الاستعمارية التي فاجأهم بها حلفاؤهم من دول الغرب — بعد انتهاء الحرب — ولكن الأمثلة التي ضربها مناضلوهم ، في تلك الفترة من حكم الترك ، قد شجعتهم على مواصلة النضال بعزيمة أمضى وحجة أقوى . إذ أصبحوا يحاربون دولاً أوروبية غربية عن قوميتهم وعن لغتهم ، وفوق ذلك هي غريبة عن دينهم ، ولا تربطهم بها أية رابطة عاطفية أو تاريخية أو تقليدية — مثلما كان شأنهم مع الترك — ولا يستطيع أحد من مواطنيهم — بأية حجة من الحجج — أن يمانعهم في محاربتها ، لا بل إن الاتجاه العام أصبح منصّباً نحو محاربتها وإجلائها ، والوهل لمن يتقاعص عن ذلك ، وإلا فالوصمة التي ترمي بها هي الخيانة المروى والعقوى بالأمة وبالوطن .

مصادر البحث

المصادر العربية والمصرية

- أبو راشد، حنا جيل الدروز، القاهرة، ١٩٦٥.
- الأدهمي، عبد السلام نضال القومية العربية، دمشق، ١٩٥٩.
- أرسلان، الأثير شكيب تعليق على تاريخ ابن خلدون، مصر، ١٩٣٦.
- أرسكين، مسز ستورث، فيصل ملك العراق، ترجمة عمر أبو النصر، بيروت، ١٩٣٤.
- أوسترونغ، الكيبن هـ. من الذئب الأغبر مصطلحي كمال، ترجمة دار الهلال، من سلسلة كتب الهلال القاهرة، ١٩٥٢.
- الأعظمي، أحمد حزة القضية العربية، الجزء الخامس، بغداد، ١٩٣٤.
- أنطونيوس، جورج يقطعة العرب — ترجمة علي جعفر الرزائي، دمشق، ١٩٤٦.
- أنطونيوس، جورج يقطعة العرب — ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد، وإحسان عباس، بيروت، ١٩٦٢.
- آيرلاند، فيليب وهلاذ العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر خياط، بيروت، ١٩٤٩.
- الأرقام، جريدة الزمان والمعاملات في بلاد العرب، دمشق، بلا تاريخ.
- باتريك، ماري ملز سلاطين بني عثمان الخمسة، ترجمة حنا غصن ورفاهه، بيروت، ١٩٣٣.
- بروكلمن، كارل تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٤، ٥، ترجمة الدكتور نبيه أمون فارس ومترجم بعليكي، بيروت، ١٩٥٠.

- الجزائر، عبد الرحمن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، القاهرة، ١٩٥٤، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية.
- البكاسيني، لطف الله نصر نبذة من وقائع الحرب الكونية، بيروت، ١٩٢٢.
- البصير، محمد المهدي تاريخ القضية العراقية، بغداد، ١٩٢٣.
- بيهم، محمد جميل فوائيل العربية ومواكبها، ج ٢، بيروت، ١٩٥٠.
- بيهم، محمد جميل للعرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، بيروت، ١٩٥٧.
- بيهم، جان جاك الخليج العربي، ترجمة لحنده هاجر وسعيد الغز، بيروت، ١٩٥٩.
- بيهم، جان جاك جزيرة العرب، ترجمة لحنده هاجر وسعيد الغز، بيروت، ١٩٦٠.
- بيشون، جان صباط موسي يولية مقدم يواغت الحرب العالمية الأولى، ترجمة محمد عزه دروزة، بيروت، ١٩٤٦.
- تشايلدروز، أوسكين الحقيقة عن العالم العربي، ترجمة خيرى حماد، بيروت، ١٩٦٠.
- تشرشل، ولستون لورنس بظلل الجزيرة، ترجمة محمد بلران وأحمد حلمى علي، القاهرة، بلا تاريخ.
- تلحوق، وديع دولة إسرائيل، دمشق، ١٩٥٠.
- ثابت، كرم خليل النوروز والثورة السورية وسليمان باشا الأطرش، القاهرة، بلا تاريخ.
- جبري، شفيق محاضرات عن محمد كرد علي، القاهرة، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٧.
- جمال باشا، أحمد مذكرات، ترجمة، علي أحمد شكري، القاهرة، ١٩٢٣.
- جمال باشا، (الصغير) كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب، ترجمة فؤاد مهدي، بيروت، ١٩٣٢.
- جمعه، محمد لطفي حياة الشرق، دوله وشعبه... مصر، ١٩٣٢.
- الجلندي، أنور رواد القومية العربية، لم يذكر مكان وتاريخ الطبع.
- الجلندي، أدهم شهداء الحرب العالمية الأولى، دمشق، ١٩٦٠.
- الجيش الرابع لمضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها في ديوان حرب عالية، استنبول، ١٩١٧.
- حاتم، دكتور نور الدين العرب والدولة العثمانية وأوروبا في الحرب العالمية الأولى، محاضرات (على السانسل) ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، ١٩٦١ - ١٩٦٢.

- حبشي، إميل يوسف جهاد لبنان واستشهاده، بيروت، ١٩٢٠.
- حبي، فليهب لبنان في التاريخ، ترجمة أنيس فريجة، بيروت، ١٩٥٩.
- حداد، جورج، وحنان حجاز فارس المحوري، حياته وعصره، بيروت، ١٩٥٢.
- حسن، فاسم العرب والمشكلة اليهودية، بغداد، ١٩٤٦.
- حسين، المذكور، م. محمد الانجماوات العموية في الأدب العربي الحديث، ج ٢، القاهرة، ١٩٥٦.
- حسين، عبد الله المسألة اليهودية بين الأمم العربية والأجنبية، القاهرة، ١٩٤٧.
- الحقناوي، مصطفى ابن سعود (عن يجمع وإرسترونغ بتصرف)، القاهرة، ١٩٣٤.
- الحصري، ساطع يوم مسنون، بيروت، ١٩٤٥.
- الحصري، ساطع نشوء الفكرة القومية، بيروت، ١٩٥٦.
- الحصري، ساطع صفحات من الماضي القريب، بيروت، ١٩٤٨.
- حزعل، حسين حلف الفشيخ تاريخ الكويت السياسي، بيروت، ١٩٦٢.
- الحطيب، محب الدين جعفر باشا العسكري، القاهرة، ١٩٣٦.
- خوري، الفس بولس الرحلة السورية في الحرب العموية، مصر، ١٩٢١.
- خير الله، خير الله معضلة الشرق، ترجمة حارف النكدي، بيروت، ١٩١٩.
- داغر، أسعد ثورة العرب، القاهرة، ١٩١٦.
- داغر، أسعد مذكراتي على هامش القضية العربية، دار القاهرة للطباعة، القاهرة بدون تاريخ.
- دروزة، محمد عزلة حول الحركة العربية الحديثة، الجزء الأول والثاني، صيدا، ١٩٥٠، الجزء الثالث، صيدا، ١٩٥١.
- الدهان، دكتور سامي محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان، القاهرة، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٨.
- الرافعي، عبد الرحمن بطل الكفاح الشهيد محمد فريد، من كتب الهلال، القاهرة، يناير ١٩٥٧.
- الرافعي، عبد الرحمن ثورة ١٩١٩، تاريخ مصر القومي، القاهرة، ١٨٤٦.
- رسائل (جريدة) الأهالي على طريق الهند—بغداد، ١٩٣٥.
- الرشيد، عبد العزيز تاريخ الكويت، ج ١، بغداد، ١٩٣٦.
- رفعت بك، محمد قضية فلسطين من سلسلة القرأ، القاهرة، أغسطس، ١٩٤٧.
- رو لوفن، بيير تاريخ القرن العشرين، ترجمة الدكتور نور الدين حاطوم، دمشق، ١٩٦٠.

- رؤوف بك، أحمد كيف دخلت تركيا الحرب، ترجمة فؤاد الميطالي، بيروت، ١٩٣٢.
- الريحاني، أمين نجد الحديث وملحقاته، بيروت، ١٩٥١.
- الريحاني، أمين فيصل الأثر ملك العراق، بيروت، ١٩٣٤.
- الريحاني، أمين ملوك العرب، ج ٢، بيروت، ١٩٦٥.
- الرفاعي، أنور جهاد نصف قرن للأمير سعيد الجزائري، دمشق، ١٩٥٦.
- الزاوي، الطاهر أحمد جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، مصر، ١٩٥٠.
- زحمر، أكرم القضية الفلسطينية، مصر، ١٩٥٥.
- نهاد، الدكتور لقولا ليبيا من الاحتلال الإيطالي إلى الاستقلال، القاهرة، ١٩٥٨، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية.
- سعداوي، لوثرروب حاضِر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويصر، ج ١، ٢، ٣، ٤، القاهرة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٢).
- سعيد، فردريك حفيظة الحرب العظيمى، ترجمة محمود إبراهيم الدسوقي، القاهرة بلا تاريخ.
- سعيد، أمين الثورة العربية الكبرى، ج ١، ٢، القاهرة، لم يذكر تاريخ الطبع.
- سعيد، أمين ثورات العرب في القرن العشرين، مطابع دار الهلال بالقاهرة، بدون تاريخ.
- سعيد، أمين الدولة العربية المتحدة، الجزء الثالث، مصر، ١٩٣٨.
- السعيد، لوزي استقلال العرب، بغداد، ١٩٤٣.
- السفرجلاني، محي الدين قاجعة ميسلون، دمشق، ١٩٣٧.
- شريف، دكتور بدیع ورفاقه دراسات في النهضة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٥٨.
- شفيق باشا، الحاج أحمد مذكراتي في نصف قرن، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٣٦.
- شكري، دكتور محمد فؤاد السنوسية دين ودولة، القاهرة، ١٩٤٨.
- الشهابي، مصطفى محاضرات عن القومية العربية، القاهرة، ١٩٥٩، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية.
- الشهابي، مصطفى محاضرات في الاستعمار، ج ٢، القاهرة، ١٩٥٧، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية.
- صنّدة، نجيب قضية فلسطين، بيروت، ١٩٤٦.
- طربين، دكتور أحمد الوحدة العربية، القاهرة، ١٩٥٩، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية.

- طرين، دكتور أحمد التنافس الاستعماري حول أقطار الشرق الأوسط، محاضرات (علي السانسل) أقيمت في معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧-١٩٥٨.
- طرين، دكتور أحمد القضية الفلسطينية، القاهرة، ١٩٥٩، من مطبوعات معهد الدراسات العربية.
- طونوزند، الفريق تشاؤلس عابتي في العراق، أو خواطر طونوزند، ترجمة عبد المسيح ونهر، بغداد، ١٩٦٣.
- عبد الله بن الحسين، الملك مذكروني، القدس، ١٩٤٥.
- عبدو، دكتور ابراهيم (إنسان الجزيرة (ابن سعود)، القاهرة، ١٩٥٤.
- عبد الحسين، محمد محبة العرب، بغداد، ١٩٣٦.
- العسكري، حسين مذكروني عن الثورة العربية الكبرى، وعن الثورة العراقية ج ١، بغداد، ١٩٣٦.
- العسلي، رلفت كفاح سورية، دمشق، ١٩٣٧.
- عزير بك سورية ولبنان في الحرب العالمية، ترجمة فؤاد الميقاتي، بيروت، ١٩٣٣.
- العقاد، دكتور صلاح الدين الاستعمار في الخليج الفارسي، القاهرة، ١٩٥٦.
- عقراوي، متي المراق الحديث، بغداد، ١٩٣٦.
- علوش، ناجي الثوري العربي المعاصر، بيروت، ١٩٦٠.
- العصري، محمد طاهر تاريخ مقدمات العراق السياسية، ج ١، ٢، بغداد، ١٩٢٥.
- غانم، جورج رافع الدرة الغالية في الحرب الكونية، نيويورك، ١٩٢٢.
- غربال، محمد شفيق المواسل التاريخية، في بناء الأمة العربية، محاضرات (علي السانسل) أقيمت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، ١٩٥٧-١٩٥٨.
- غرايبي عبد الكريم مقدمة تاريخ العرب الحديث (١٥٠٠-١٩١٨)، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠.
- العصين، فائز مذكروني عن الثورة العربية، دمشق، ١٩٣٩.
- العصين، فائز المظالم في سورية، دمشق، ١٩١٩.
- فرنو، ف، و بقطة العالم الإسلامي، ترجمة بيج شعبان، ج ١، بيروت، ١٩٥٦.
- فرعون، فريق المزهري آل الحقائق الناصبة في الثورة العراقية، بغداد، ١٩٥٢.
- فؤاد، علي (الجنرال التركي) كيف غزونا مصر، ترجمة الدكتور نجيب الكرنازي، بيروت، ١٩٦٢.

- فيحي، سليمان مذكرات (في غمرة المتضال)، بغداد، ١٩٥٢.
- فيلس، عبد المفتار عياد.. ترجمة عمر الديراوي، بيروت، بدون تاريخ.
- قاضي، الألب كيريلوس أبرعون عاماً في حوران وجبل الدروز، لبنان، بلا تاريخ.
- قندري، الدكتور أحمد مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، دمشق، ١٩٥٦.
- كرد علي، محمد خطط الشام، ج ٣، دمشق، ١٩٢٥.
- كرد علي، محمد المرحلة الأنثوية إلى الأصفاح الحجازية والشامية، بيروت، ١٩١٦.
- كيرك، جورج موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر الاسكندري، القاهرة، ١٩٥٧ من مجموعة الألف كتاب.
- كبلر، الجنرال العرب والاستعمار، ترجمة دار مكتبة الحياة - بيروت، بلا تاريخ.
- اللجنة العليا لحزب اللا مركية النعالي المؤثر العربي الأول، القاهرة، ١٩١٣.
- لوردر، ج دي ف القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق، ترجمة نزه المؤيد العظيم، دمشق، ١٩٢٥.
- لورنس، ت، أي أعمدة الحكمة السبعة، ترجمة الدكتور محمد سليم النعيمي، ج ١، ٢، بغداد، ١٩١٧.
- لورنس، ت أي الثورة في الصحراء، ترجمة الدكتور رشيد كرم، ١٩٥٠.
- ماضي، الدكتور محمد عبد الله النهضة الحديثة في جزيرة العرب، ج ١، القاهرة، ١٩٥٢.
- محبوبة، جعفر الشيخ باقر آل ماضي النجف، وحاضرها، صيدا، ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤).
- المختار، صلاح الدين تاريخ المملكة العربية السعودية، بيروت، بدون تاريخ.
- مزهري، الدكتور يوسف تاريخ لبنان العلم، الجزء الثاني، بيروت، بدون تاريخ.
- المقتطف، والمقتطف من كتاب تاريخ الحرب العظمى للمستشرق ولبنان، مصر، بدون تاريخ.
- الملوحي، رشدي الزعيم الوحيد شكري القوتلي، دمشق، ١٩٤٣.
- موزيل، أ. د حقيقة الحرب العالمية، ترجمة علي أحمد شكري، القاهرة، ١٩٢٢.
- مؤرخ الثورة العربية الملك فيصل الأول، بيروت، بدون تاريخ.
- مورغنستو، هنري أسرار الحرب الكبرى في تركيا، ترجمة، فؤاد حنا صروف، ج ١، لبنان ١٩٢٦.
- النجار، حسين لوردي السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط، القاهرة، ١٩٥٢.
- لديج، التريغ الركن شكري محمود حرب العراق، ١٩١٤ - ١٩١٨، بغداد، ١٩٦٢.

نصيف، حسين بن محمد ماضي الحجازي وحاضيه، الجزء الأول، لم يذكر مكان الطبع ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠).

بيروت، المائدة لخرات من تاريخ العالم، نقله إلى العربية لجنة من الأساتذة الجامعيين، بيروت، ١٩٥٧.

هتلر، اهر أدولف كفاسي، ترجمة لويس الحاج ج ١، هتلر واليهود، ج ٣، هتلر والأجناس بيروت، ١٩٥٢.

هندلوسغ، المازشال مذكرات، ترجمة منصفان، القاهرة، ١٩٢٤، ج ١، ٢. ولده، فرناند الأسس التاريخية لمشكلات المشرق الأوسط، ترجمة نجدة هاجر وطارق شهاب، بيروت، ١٩٦٠.

وهبه، حافظ. جزيرة العرب في القرن العشرين، للقاهرة، ١٩٥٦. يحيى، ذكور جلال الثورة العربية، القاهرة، ١٩٥٩. يزبك، يوسف إبراهيم مؤتمر المشهداء، بيروت، ١٩٥٥. يمين، الطوري أنطون لبنان في الحرب، الجزء الأول، بيروت، ١٩١٩، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٢٠.

المجلات العربية والتركية

- مجلة الحرب العظمى بعناية عمر أبو النصر — بيروت، دون تاريخ.
- مجلة الحرب العالمية الأولى بعناية عمر أبو النصر — (إصدار جديد — بيروت، دون تاريخ).
- مجلة المنار بعناية رشيد رضا، القاهرة، من ١٩١٦ إلى ١٩١٨.
- مجلة العربي بعناية وزارة الإرشاد والأبناء في الكويت، العدد ٤٩ (كانون أول ١٩٦٢).
- مجلة الراية العربي بعناية أحمد محمد المغام في الكويت، العدد ٢١ (تموز ١٩٦٢).
- مجلة الأنسوم العربي بعناية جورج أبو عفضل في بيروت، ١٧٩ (نشرين ثاني ١٩٦٢).
- مجلة الوقظة العربية في القرن العشرين بعناية عمر أبو النصر، بيروت، العدد ١١، بدون تاريخ.
- مجلة نورك يوردي بعناية يوسف آتجوره، الآستانة (آذار ١٩١٥ — آب ١٩١٥).
- مجلة إسلام مجموعه سي بعناية حليم ثابت، الآستانة، مجلد ٣ (١٣٢٣ هـ ١٩١٤).

CORRESPONDANCE D'ORIENT, Directeur GEORGES SAMME, Paris, Mars 1917, Sept, 1917 etc.

REVUE DU MONDE MUSULMAN, MISSION DU MAROC, Nov. 1908.....

المصادر باللغة التركية القديمة والجديدة

وثائق قرارات مجلس اليموثان التركي - دمشق، ترتيب ثاني، مجلد ٦، ٩، ١٠ (١٩١٤-١٩١٨).

— أدب، خالدة - بكى (يتي) توران (توران الجديدة)، استنبول، ١٩٢٤.
أوسترونغ، هارون - لوركيه ناصيل دوغاندي (كيف بعثت تركيا)، ترجمة عمر رضا
الإتكلية، استنبول ١٩٢٨.

دردلجي أوردو - عاليه ديوان حرب عرفيمسندة وثبت أولئان مسئلة سياسية حقهده لإيضاحات،
استنبول ١٩١٦.

أمر، حسين حسني - يلديم (جيش الصاعقة)، استنبول، ١٩٢١.
أمر، محمد - بغدا وحوك حادثه ضياحي (كيف فقهدهت بغداد)، استنبول،
١٩٢٢-١٩٢٥.

ساندرس، المشير ليمان فون - توركيه ده بش سنة (خمس سنوات في تركيا)، ترجمة لجنة التاريخ
المسكري التركية للترجمة، استنبول، ١٩٢١.

سيملوي، لطفى - سلطان محمد رشاد خاتك وخلفتك سرانده كورد ككرم (مشاهداتي في بلاط
السلطان محمد رشاد وخلفه)، استنبول، ١٩٢٤.

عرق، صغوت - ضياكوك ألب ومفكوره (ضياكوك ألب والعقائدية)، استنبول، ١٩٢٣.

نور، دكتور رضا - توركيه تاريخي، استنبول، ١٩٢٤.

ملذكرات السلطان محمد الحميد ABDULHAMID'IN - Hafiza Değerli, İstanbul, 1960.

- ARMSTRONG, CAPITAINE- Le Maître D'Arabie (Im Séoud, Traduit de l'Anglais Par G.
ET P. F. CAILLE, Paris, 1935.
- ARMITAGE, - Lawrence D'Arabie, Le Désert Et Les Etolles, Traduit Par S. M.
GUILLEMIN, Paris, 1957.
- ATALA, - La Syrie, Les Aspects Actuels De La Question Syrienne Paris, 1919.
- BREMOND, COLONEL ED. - Le Hedjaz Dans La Guerre Mondiale, Paris, 1931.
- CHURCHILL, WINSTON - La Crise Mondiale 1914-1915, Traduit de l'Anglais Par
EDMOND DELAGE, Paris, 1925.
- DUFFOUR, GENERAL- Histoire De La Guerre Mondiale, I, II, IV, Paris, 1936.
- DRIAULT, EDOUARD - La Question D'Orient, Paris, 1921.
- EMIN, AHMET, - Turkey And The War, U. S. A., 1930.
- EDIB, HALIDE— Conflict of East And West IN Turkey, Lahore; 1935.
- ERZBERGER, M.- Souvenirs De Guerre, Paris, 1921.
- FERID BEY, MOHAMMED- Etude Sur La Crise Ottomane Actuelle (1914-1915), Genève,
1915.
- FERID BEY, MOHAMMED- Les Intrigues Anglaises Contre L'Islam, Lausanne, 1917.
- GRAVES, ROBERT- Lawrence Et Les Arabes, Traduit de l'Anglais Par JEANNE
ROUSSEL, Paris, 1933.
- GAULIS, Mme BERTHES-GEORGES- La Question Arabe, Paris, 1930.
- GONTAUT- BIRON, COMTE R. DE- Comment La France S'est Installée En Syrie, Paris,
1923.
- GAUTHEROT, GUSTAVE- La France En Syrie Et En Cilicie, Paris, 1920.
- HUREWITZ, J/C. - Diplomacy In The Near And The Middle East, Documentary Records,
U. S. A. 1936.
- HAROLD, JACOB- Kings of Arabia, London, 1923.
- JUNG, EUGENE- La Révolte Arabe, I, Paris, 1924, II, Paris, 1925.
- KAYSER, JACQUES- L'Europe Et La Turquie Nouvelle, Paris, 1922.

- LYAUTEY, PIERRE-Le Devers Oriental et le Rôle de la France, Paris, 1923.
- LAPRADELLE ET COMPAGNONS-Doc; Diplôm. Russes, Constantinople et les Détroits, I, II, Traduits de l'édition Soviétique par G. GOUSSEL et COMPAGNONS, Paris, 1930.
- LLOYD-GEORGE, DAVID-Mémoires De Guerre, I, II, Paris, 1934, 1935-Traduits.
- MECHIN, BENOIST-Ibn Séoud, de l'anglais par Ch. Bonnefon, La Naissance d'Un Royaume, Paris, 1935.
- MIKUSCH, DAGOBERT VON-Moustafa KAMAL Between Europe and Asia, translated from the allemand by JOHN LINTON, London, 1931.
- MOUSLEY, CAPIT. EDWARD-Le Siège de Kut-El-Amara, traduit de l'Anglais par le colonel GEORGE CROS, Paris, 1934.
- MOUSSALLI, NEBIB-Le Sionisme et la Palestine, Genève, 1919.
- MOUTRAN, NADRA-La Syrie de Demain, Paris, 1916.
- PICHON, JEAN-Le Partage du Proche-Orient, Paris, 1938.
- PICHON, JEAN-Les Origines Orientales de la Guerre Mondiale, Paris, 1937.
- PINON: L'Europe et l'Empire Ottoman, Paris, 1917.
- POINCARÉ, REYMOND-Au Service de la France, VII, Paris, 1946.
- PAILLARÉS, MICHEL-Le Kémalisme Devant les Alliés, Paris, 1922.
- 4ème ARMÉE (Ottom.)-La Vérité sur la Question Syrienne, Istanbul, 1916.
- RENOUVIN, PIERRE-La Crise Européenne et la Grande Guerre, Paris, 1939.
- ROSSI, ETTORRE-Documenti Sull-Origini Egli Sviluppo Della Questioni Araba, Roma, 1944.
- SPERCO, WILLY-Moustapha Kémal Atatürk, Paris, 1938.
- STITT, GEORGE-The Prince of Arabia, the Emir Ali Haidar, London, 1948.
- SAMNE, Dr. GEORGES-La Syrie, Paris, 1920.
- SEIGNOBOSE, CAPIT-Turcs et Turquie, Paris, 1920.
- WILSON, SIR ARNOLD-Loyalties Mésopotamias, Oxford, 1936.

المحتوى

٩	الفصل
١٤	نبذة عن نقد المصادر

الباب الأول

العوامل الداخلية لانهصال العرب عن الترك

تمهيد

٢٥	العلاقات العربية-التركية قبل الحرب وأثرها في الانهصال
----	---

الفصل الأول

٣٩	دخول تركيا في الحرب وأثره في الانهصال
٤٠	دخول تركيا في الحرب
٥٦	دخول الأفغانين «شهبان» و«مرسلان»
٥٤	بهاج الحرب
٥٩	حادثة البحر الأسود
٦٧	الجهاد وأثره في العالم العربي والإسلامي

المفصل الثاني

٩١	حملة قناة السويس وأثرها في الانهصال
١٠٣	سمر الحملة
١١٧	الإنتكبار والحملة
١٢٨	المهجوم

المفصل الثالث

١١٣	إجراءات الحرب العسكرية والانبهار الاقتصادي وأثرهما في الانفصال
١١٣	قانون الشكائب الحربية
١١٨	للدخول إلى الخدمة العسكرية
١٢٠	الحالة الاقتصادية
١٢٣	الاحتكار
١٢٨	المجاعة وضحاياها
١٣٥	ضحايا الأجرة
١٣٦	عدد الملقى

الفصل الرابع

١٤١	تضال العرب الأحرار وإرهاب الطاغية أحمد جمال وأثرهما في الانفصال
١٤١	تضال العرب الأحرار
١٥٢	مسألة جمال باشا المضلية
١٦١	مسألة الإرهاب
١٦٥	جمال باشا
١٧٨	سوق الوشايات والنزاع الأهلي بالقرية
١٨٤	قوات الجند
١٩٨	بطولة الشهداء

الفصل الخامس

٢٠٧	علاقة الشريف حسين بالترك وأثرهما في الانفصال
-----	--

الباب الثاني

عوامل الانفصال الخارجية وثورة الشريف حسين

الفصل الأول

٢١٢	المفاوضات الإنكليزية - العربية وأثرهما في الانفصال
٢٨٥	همة وعيد إيطاليا للشريف

الفصل الثاني

٢٨٩	اتفاقيات الحلفاء لتقسيم الممتلكات العثمانية وتصريح بلمور
٢٩٢	الاتفاقيات الفرنسية - الروسية - الإنكليزية

٣١٣	القضية الفلسطينية وتصرّح بالمواد
٣٢١	الحركة الصهيونية
٣٢٩	اليهود والحرب العالمية الأولى
٣٤٠	تحليل التصرّح

الفصل الثالث

٣٤٧	الثورة العربية
٣٥٥	تنظيم الدولة العربية
٣٥٧	تنظيم الجيش
٣٦١	صدى الثورة لدى الأتراك
٣٦٦	صدى الثورة لدى الأكراد
٣٦٧	صدى الثورة لدى العرب
٣٧٣	أثر الثورة في أمارات شبه الجزيرة العربية
٣٧٨	مؤتمر الكويت
٣٨٢	صدى الثورة لدى الاتكليز وفرنسيين
٣٩١	الاستيلاء على العقبة وأهميته

الفصل الرابع

٣٩٧	حرب العراق وسورية وفلسطين — المراحل النهائية للعلاقات العربية — التركية
٣٩٧	التطورات السياسية والعسكرية في العراق
٤١١	حصار كوت الامارة
٤٢٦	ملاحظات على جبهة العراق

الفصل الخامس

٤٤٥	الانفصال والانحياز العثماني
٤٥٦	سقوط الديكتاتورية الاتحادية ومصر الوطنية
٤٥٩	همة المؤامرة العربية للحلفاء وقائده الثورة
٤٦٣	الخاتمة
٤٦٧	مصادر البحث